البحث عن الهوية

« الهوية وتشتتها في حياة إيريك إيركسون وأعماله »



ترجمة

د. سامر جميل رضوان

أستاذ في علم النفس الاكلينيكي

دار الكتاب الجامعي
UNIVERSITY BOOK HOUSE
حيث يبدأ التعلم من هنا

Kohlhammer

البحث عن الهوية

«الهوية وتشتتها

في حياة إيريك إيركسون وأعماله»

هذه ترجمة عربية مصرح بها لكتاب

Erik H. Erikson –Leben und Werk

By

Peter Cozen

البحث عن الهوية

« الهوية وتشتتها في حياة إيريك إيركسون وأعماله »

تأليف

Peter Cozen

ترجمة

د. سامر جميل رضوان

أستاذ في علم النفس الإكلينيكي

الناشر

دار الكتاب الجامعي

العين - دولة الإمارات العربية المتحدة

2010

الطبعة الأولى

1430هـ - 2010م

دار الكتاب الجامعي

عضو اتحاد الناشرين العرب

عضو المجلس العربي للموهوبين والمتفوقين

العين - الإمارات العربية المتحدة

ص. ب. 16983

هاتف 00971-3-7554845

فاكس 00971-3-7542102

E-mail: bookhous@emirates.net.ae

جمع وتنفيذ وإخراج: كمبيوترايتر Compu_Writer لخدمات دور النشر «عادل ندا» القاهرة

(002-0100390516) ت:

المحتويات

الموضوع	الصفحة

مقدمة المترجم

على الرغم أن اسم إيريك إيركسون معروف في البلدان العربية وله شهرة واسعة، إلا أن الباحث عن مؤلفات لإيركسون أو حوله بالعربية يكاد لا يعثر على أي شيء يستطيع الاعتماد عليه. فقد غلبت الإشارة إلى إيريك إيركسون في المراجع الأكاديمية المتعلقة بعلم نفس النمو والتي تشير إلى أن إيركسون صاحب نظرية اجتماعية في علم النفس، وأنه قد قسم مراحل النمو بناء على النمو الاجتماعي للإنسان.

حتى أن العاملين في ميدان علم النفس الاجتماعي ينظرون لإيركسون على أنه واقع من ضمن تخصصهم.

ومع أن هذه النظرة ليست خطأ كلية، إلا أنها ليست صحيحة بالكامل أيضاً، فإيريك إيركسون، من كبار المحللين النفسيين في العالم من الذين عاصروا فرويد في نهايات حياته، وتدربوا على يد آنا فرويد، ومعالج نفسي أمضى عمره في العمل الإكلينيكي مع الأطفال واليافعين، وأول من استخدم الفن والرسم واللعب في التواصل مع الأطفال بصورة منهجية منظمة، ناهيك عن كونه فناناً، سخر الفن ومواهبه الفنية في رسم صور إكلينيكية آسرة سحرت من حوله وجعلت شهرته تطوف العالم. ولم يكن هدفه إنشاء علم نفس اجتماعي، كما لم يكن بإمكانه ذلك أيضاً بناء علم نفس اجتماعي على رؤى تحليلية نفسية فقط، وكل ما أراده هو استكمال نظرية التحليل النفسي أو مدها إلى ذلك الجانب الآخر، إي إلى المحيط الذي يولد ويعيش الفرد فيه وتأثيره عليه.

لقد انطلق إيركسون دائماً من ثلاثية النفس والجسد والمجتمع مما جعله لا ينظر للإنسان على أنه دمية تحركها مجموعة من النوازع الدافعية ولا حزمة من الأدوار الاجتماعية ولا مجرد مخلوق عاقل موهوب عقلياً. فلا المورثات ولا المنظومة الأسرية «المجنونة» هي وحدها المسؤولة عن الاضطرابات النفسية. إذ أن كل سلوك إنساني، سواء كان سلبياً أم مريضاً، يتحدد من خلال عدد لا متناهي من العوامل، أكثر مما يمكن لأية نظرية علمية أن تدركه.

تطلق على إيركسون تسمية رائد أزمة الهوية. ففرويد قد رأى أن مصدر الاضطرابات النفسية هو الصراعات غير المحلولة في الطفولة إلا أن إيركسون لم ينظر للمشكلات الحياتية وأزمات الراشد بأنها مجرد انعكاس لخبرات ومخاوف الطفولة. ومن ثم فقد وسع نظرية النمو التحليلية النفسية وطرح نموذجاً شاملاً لمراحل الحياة، حيث يواجه الفرد طبقاً لذلك في ثمانية «أزمات» نمائية - منذ الولادة وحتى الموت - مهمات ومشكلات أساسية للوجود الإنساني.

لقد أظهر إيركسون بمهارة تحليلية فائقة نمو الهوية في كل مرحلة من مراحل دورة الحياة «وأزماتها» المرتبطة بها، وشغلته قضية الاستبداد، وحلل نمو الشخصية الاستبدادية المتطرفة والجذور الطفولية لها، ونمو بذور التعصب الديني وتطوره إلى تطرف مدمر، وركز على المراهقة التي تعد المرحلة الحاسمة في نمو الشخصية المستبدة عندما تتوفر لها مجموعة من العوامل التربوية والمحيطة، مركزاً على اللحظة التاريخية في إظهار وطغيان هذه الشخصيات وتلاعبها بمصير أتباعها المتحمسين «طيبي» النية أحياناً.

ويمثل الشعور السليم بالهوية التعبير عن الإحساس بالمشاركة، الإحساس بالشعور بالتجذر. فالإنسان يعيش في محيط جغرافي مألوف، في علاقات واهبة للأمن، يشعر بالاعتراف في أدواره. ويرتبط الإنسان مع الآخرين في صورة للعالم تغطي الخبرة الذاتية بما يشبه الشفافية، ترتب عالم الخبرة، وتمنح التوجه والمعنى. ويتحدث إيركسون عن «الإحساس بالاعتراف الاجتماعي»: «الإحساس بأن الإنسان موجود في العصر والمكان المناسبين» وعن الإيمان «باستواء واستمرارية صورة مشتركة عن العالم»، في حين تترافق أزمة الهوية من المنظور النفسي الاجتماعي مع «الإحساس بعدم الأمان وإرهاق الدور والتشرد والاغتراب».

ويقابل الهوية الفردية، أي هوية الأنا الهوية الاجتماعية النفسية التي تشمل كل انتماءات الإنسان للجماعة، وهذه الهوية تتضمن الكثير مما هو منسجم، ولكن الكثير أيضاً مما هو متناقض ومتنافر. وكل بناء للهوية يعكس محيطاً ثقافياً اجتماعياً وتاريخياً لا يقارن بغيره. وبغض النظر عن المكان الذي يترعرع فيه الإنسان، تنشأ أشكال شديدة

التنوع من الكيفية التي يفكر فيها الإنسان حول نفسه ويعيش فيها العالم ويواجه وجوده، وقد صور إيركسون بأسلوبه الأدبي الرائع مدى تشابك هوية الأنا والجماعة، الذي يمتد من جماعات الأنداد الشابة غير الرسمية إلى الجماعات الكبيرة شديدة التنظيم ومن المفهوم البيولوجي للعرق إلى المفهوم السياسي للدولة.

لم يكن التحليل النفسي الفرويدي بداية معنياً بالمحيط الخارجي كثيراً وإنما انصب تركيزه على إطلاق القوى الخلاقة في داخل الفرد، ولم يهتم إلا في أواخر حياة فرويد بالمجتمع الخارجي كحقيقة قائمة بعد انتشار الأفكار النازية. فأقر فرويد في أواخر حياته -متشائماً- بتأثير القوى المتنوعة للمحيط الاجتماعي، كالعرق، أو الطائفة، ورأى أنه في أوقات الأزمة سرعان ما تنهار الأحكام والضوابط الأخلاقية عند الإنسان تحت تأثير الغوغاء. ووصف الناس «المثقفين والعاقلين» في مرحلة الثورة أو ما قبل الثورة على أنهم أشخاص يمكنهم في أي وقت أن ينتسبوا للحشد أو يمكن أن للحشد أن يسحبهم، فيتحولون إلى ممارسين لذلك الذي كانوا يحاربونه قبلاً. وتجلت مهارة التحليل النفسي في نبش الجذور الكامنة في أعماق اللاشعور للميل نحو العنف والتطرف عند الإنسان وعلاقة كل ذلك بنمط التربية.

وقدم إيركسون بفكرة التنظيم المتبادل رؤية تحليلية عميقة للعلاقة بين الفرد والمجتمع، ونزوع الأنا والمؤسسات الاجتماعية نحو التنظيم المتبادل وكان الهدف الأخلاقي والتربوي عنده هو دفع كل أشكال العلاقات الإنسانية إلى مزيد من الاستعداد للحوار والتسامح والديمقراطية، والتأثير إيجابياً على العلاقة بين الوالدين والأطفال وعلى التربية وعلى الحركة المدنية. فبين أهمية التطقيس والمنابع الأساسية للطقوس والشعائر. واستناداً إلى ما أظهره التحليل النفسي ومدى قوة سيطرة الميل للاستجابات الاستبدادية على الحياة النفسية للطفل. وميل الراشدين في نوبات غضبهم وأحكامهم نحو النكوص المؤقت إلى أساليب خبرة استبدادية، موضحاً ذلك من خلال أمثلة عديدة من الاضطرابات كالمرضى الحدوديون الذين لا يستطيعون تحمل أي تناقض في علاقاتهم الوثيقة، ويتأرجحون بين تقديس أعمى وتبخيس متطرف للآخرين، في حين يلجأ المتعصبون من كل الأطياف

إلى استئصال أشواك الشك الإيماني اللاشعوري من خلال مزيد من الخضوع الأكثر تطرفاً لسلطة مقدسة تقديساً أعمى.

فعندما تمر الشعوب بفراغ في الهوية يحصل نكوص دائم إلى عوالم استبدادية من الأفكار لدى جماهير واسعة، حيث يتولد فيها الاستعداد للتطرف. وهذا ما يحصل عندما تفقد الثقة بالتنظيمات السياسية القائمة أو تهزم نتيجة الحرب أو عندما ينهار مجتمع لسبب ما فإن الهوية تصبح مزعزعة لدى طبقات واسعة من الشعب. فتمتزج المخاوف الواقعية مع مخاوف الطفولة متحولة إلى مزاج هلع يهدد بالانفجار. فإذا ما أضيفت إلى ذلك الأزمات الاقتصادية فإن الغالبية العظمى من الناس تصبح مستعدة للعدوى بالشعارات التعصبية. فإما أن يميل المرء للدفاع عن النظام المُهَدَّد ضد التحديث، كما هو الحال في العودة إلى الأصولية الدينية. المتعصبة، ويعيش كل العقليات التقدمية على أنها معتد مهدد للمناقب الخاصة التي أصبحت هشة. أو يتلاءم كلية مع اتجاه انقلابي، كما هو الحال في الثورات الدموية للتاريخ، يعد بالخلاص من خلال استئصال متطرف للتنظيمات والسلطات القديمة، إلا أنها في النهاية تعود لتمارس ما كانت تدعي أنها تحاربه. والتاريخ أكبر شاهد على ذلك.

والمؤسسات الاجتماعية ضرورة مكروهة لتناقضها مع أهداف الفرد وطموحاته، أو بلغة التحليل النفسي لأنها تتناقض مع الأنا، إلا أنها ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها. والآلية نفسها التي تنطبق على الفرد تنطبق على المؤسسات. فهي عندما تنشأ وتترسخ تميل مع الزمن إلى الجمود، إلى مولد للحفاظ على ما هو قائم، للحفاظ على مناصب أصحابها، فتتحول من دافع ومحرك لعملية التطوير والتنمية إلى معيق لها ويسيطر عليها الجمود، وتمارس الاستبداد والقهر على أفرادها عبر هرمية السلطة. إنها تصبح فاسدة تمارس الفساد وتنميه، فينشأ تكتل لاشعوري بين أصحاب السلطة فيها، يسعون من خلاله عبر شحذ آليات الدفاع الأولية إلى نوع من التواطؤ في الحفاظ على مصالحهم أكثر من الحفاظ على مصالح المؤسسة بحد ذاتها أو مصالح الأفراد الذين ينتمون لها والذين تمثلهم، فيصبحون هم المؤسسة والوطن، فيبقى الشكل وتضيع الروح. لهذا

تقوم المؤسسات الناجحة بالعمل المستمر على تجديد طاقم أفراد إدارتها كل فترة لا تتجاوز السنة أو السنتين وأحياناً أقل لتضمن عدم جمود لمؤسسة في عالم المنافسات الاقتصادية والسياسية والعلمية وعالم المعرفة. ولعل من أسباب الجمود القائم في مؤسساتنا التعليمية وفشلها الذريع، وتفريغها مفهوم الحرية الأكاديمية من معناه الحقيقي، وتخلفها العلمي والإداري هو ذلك الشكل من التنظيم المؤسساتي المولد للجمود، من خلال رسوخ الإدارات المزمن الذي تحولت فيه نزعة الحفاظ على المنصب -نزعة الخوف من فقدان موضوع الأمان الطفولي ونزعة الخوف من انسحاق الأنا الهش المهدد- إلى الهاجس الذي يقتل كل روح للتطوير والتجديد ويدفع للبيروقراطية وقمع كل شكل من التطوير خوفاً من التهديد بتشتت هوية الأنا الفردية التي تماهت مع المؤسسة تماهياً مرضياً لترى أنها هي المؤسسة والمؤسسة هي، وأنه بزوالها تزول المؤسسة.

غير أن إيركسون يظل في النهاية معالجاً نفسياً. فعبر مسيرته العملية استنتج جزءاً كبيراً من معارفه من العلاج النفسي. وأظهر أنه ملاحظ لامع وراوي محترف، يعرف كيف يظهر بعبارات قليلة الصراعات المركزية لمريض ما الكامنة خلف الأعراض النفسية المعقدة. وقد قام إيركسون بعمل طليعي في مجال العلاج النفسي للأطفال واليافعين وأدخل مفاهيم مهمة مثل «تشتت الهوية» في علم الأمراض التحليلي النفسي. يضاف إلى ذلك تحليله للأحلام من خلال رؤيتها من منظور الرسام وليس من المنظور اللغوي فأعاد تفسيرها بطريقة أخرى ومن منظور الهوية وأزمتها. لكنه كان رائداً أيضاً في مساهمته من خلال الدراستين البيوغرافيتين على مارتن لوثر وغاندي في تخصص التاريخ النفسي، محاولاً تطبيق نموذجه في نمو الهوية على شخصيتين تاريخيتين يكن لهما إعجاباً صريحاً.

والمتتبع لسيرة حياة إيركسون، ذلك الفنان والمحلل النفسي الذي لم يكن يحمل سوى الشهادة الثانوية ومع ذلك فقد منح العضوية النظامية في رابطة التحليل النفسي العالمية وكان من أواخر من تم قبوله في جمعية التحليل النفسي من غير الأطباء في الولايات المتحدة الأمريكية ومنح لقب الأستاذية في أكبر الجامعات، وعمل في أرقى المؤسسات العلمية العالمية، والتف حوله الطلاب المتحمسون وكانت فصوله الدراسية مزدحمة،

وعاش مع الهنود ودرس سيرة شخصيات تاريخية ونادي بالسلم العالمي وكان ضد العنصرية والفقر وذلك الباحث في دورة الحياة وأزماتها، رائد مفهوم الهوية وتشتتها وأزماتها في علم النفس، الباحث عن الجذور الأخلاقية للسلوك الإنساني ونمو الضمير، والذي درس الميول التعصبية والاستبدادية والسطوة التي تمارسها على الشخصية، وميوله الإيمانية والسلمية التصالحية التي صبغت شخصيته الخجولة طوال عمره لا يمكنه إلا وأن يشعر بذلك الجانب الإنساني العميق الذي صبغ شخصية إيركسون طوال حياته وأن يكن له الاحترام والتقدير لإسهاماته الغنية والواسعة، كإنسان وعالم، كما لابد له أن يلاحظ أيضاً مدى ارتباط السيرة الذاتية لإيركسون بمنهجه العلمي، ورسمه لدورة الحياة.

لقد ترافقت الترجمة بشحنة انفعالية إيجابية كبيرة مست المترجم تركت أثرها فيه عبر فصول الكتاب كله وذلك من خلال الأسلوب الرائع الذي عرض فيه المؤلف سيرة إيركسون وأعماله، وطبيعة سيرة حياة إيركسون كلها، وإنجازاته العلمية ومواقفه الشخصية، ويأمل المترجم أن يكون قد تمكن من إيصال جزء من تلك الشحنة عبر الترجمة والتي لا يمكن عدها على الإطلاق على أنها نقل مجرد من لغة إلى أخرى بل هي عصارة فكر وإحساس والتزام رافق المؤلف عندما كان يعمل على الكتاب.

يعتقد البعض أن كتب السير الشخصية لا تثير اهتمامات القراء،- اللهم إلا إذا تعلق الأمر بالفضائح والبحث عن الإثارة للشخصيات الهامشية- وبعض دور النشر أو المؤسسات لا تتشجع على الدخول في مثل هذه المغامرة كثيراً. إلا أن الأمر حين يتعلق بالهوية وأزمة الهوية، ومراحل دورة الحياة، منذ الطفولة وحتى نهاية الحياة، والأزمات التي تترافق مع كل مرحلة، وظهور الاستبداد في الشخصية وميول التعصب والتطرف بنتيجة هذه الأزمات في المراهقة وظهور الشخصية الديماغوجية والكاريزمية في اللحظة التاريخية وتأثير سطوة الأنا (السلطة الداخلية والسطوة الخارجية (سلطة المجتمع)، لا يستطيع على الإطلاق المرور على كل هذا من دون أن يفهم سيرة حياة إيركسون الشخصية منذ الطفولة وحتى نهاية الحياة. ومن هنا فلا يمكن تجنب ربط

السيرة الشخصية مع دورة الحياة عند إيركسون. فهما يتداخلان بصورة شديدة ليتحول الشخصي إلى علمي، أو ليشهد تحويل التجربة الشخصية إلى منهج علمي، قلما استطاع باحث استثماره بهذه المهارة.

يشكر المترجم مؤلف الكتاب الأستاذ الدكتور بيتر كونسن Peter Conzen الذي أتاح الفرصة لترجمة الكتاب إلى العربية، ولمتابعته مراحل الترجمة وإجراء بعض التعديلات المستجدة فيما يتعلق ببعض الجوانب في حياة إيركسون والتزامه الموضوعي والعلمي، وكذلك دار نشر كوهمر Verlag W. Kohlhammer الألمانية لإجازتها الترجمة والطباعة، كما يشكر المدير العام لدار الكتاب الجامعي الأستاذ طلعت أبو طه لإنجاز الاتفاق ونشر الكتاب في اللغة العربية، وبهذا يكون قد حقق سبقاً يأمل المترجم أن يسجل له في هذا الميدان.

والله الموفق..

د. سامر جميل رضوان

Srudwan@hotmail.com

مدخل

بموت إيريك هومبورغر إيريكسون Erik Homburger Erikson في أيار (مايو) من عام 1994 مات واحد من أواخر عظماء التحليل النفسي. ويعد ارتقاءه من جوال حساس إلى عالم ومعالج نفسي مشهور على مستوى العالم مثالاً لسيرة غير عادية في علم النفس الحديث. فمن دون أية دراسة جامعية، أصبح إيركسون أستاذاً في جامعة أمريكية راقية، وحامل عدة شهادات دكتوراه شرف وحائز على جائزة بوليتزر Polizer-Prize[1]. أما كتبه فقد وصلت إلى قراء من كل أنحاء العالم. ودخلت مفاهيم من نحو «دورة الحياة» أو «الثقة الأساسية» أو «أزمة الهوية» في الذخيرة اللغوية العامة، وأثر على فهم الذات والعيش الاجتماعي لكثير من الناس في العصر الحاضر. وقد حظيت إنسانية إيريكسون والتزامه السياسي الجريء بالتقدير حتى من منتقديه وامتد تأثيره إلى حركة الاحتجاج الليبرالية في ستينيات القرن العشرين.

فما هو سر شعبية إيريكسون الواسعة، ما الذي يجعل من مطالعة كتاباته جمة الفائدة بهذا الشكل؟ فإيركسون هو إكلينيكي بالدرجة الأولى، عمل خلال مهنته التحليلية النفسية مع مختلف المرضى: أطفال، ويافعين مزعزعين وضحايا متبلدين apathetic للعنصرية، وفارين مصدومين وعائدين من الحرب. وكل مساهماته تقوم على أساس الخبرات العيادية، التي قلما كان أي شخص آخر ضليعاً مثله بتوصيلها بهذه الحرفة في تقارير الأحلام أو ملاحظات اللعب. إلا أن إيركسون هو أي شيء عدا أن يكون محللاً نفسياً أرثوذوكسياً، ممن يجلسون طوال النهار خلف الأريكة وينسجون في المساء نظرياتهم. فمنه ينبعث شيء ما حيادي، غير تقليدي، اتجاه أساسي للصراحة والفضول. إنه يريد أن يلاحظ، أن يترك الأشياء تفعل فعلها فيه، أن يتعرف على الكثير من الناس

---

(1) إحدى أهم الجوائز العالمية (جميع الهوامش السفلية موضوعة من المترجم)

من عوالم مختلفة الثقافة قدر الإمكان. لقد عاش لأشهر مع الهنود وعمل دراسة على الشعوب البدائية. ورحل إلى شبه الجزيرة الهندية مقتفياً أثر المهاتما غاندي و تعمق في دراسة مصادر القرون الوسطى، من أجل تقمص الأزمة الدينية للشاب مارتين لوثر. وأصبح مُحدِّثاً للشباب الإنساني وأسهم بوصفه محاضراً متجولاً في كل أنحاء العالم في انتشار الأفكار التحليلية النفسية في المجالات التخصصية الأخرى.

لقد كانت روح الاندماج والمصالحة هي المحدد لمؤلفاته وأعماله. إنه يريد إبراز المشتركات بين وجهات النظر والأفكار المختلفة، بين مختلف الناس والعقائد. وتكمن أصالة عمله بشكل خاص في أنه تلمس بمقدار مطرد القوة ربط التحليل النفسي مع التخصصات الأخرى، بدءاً من التربية والأنثروبولوجيا الثقافية مروراً بعلم الاجتماع والتاريخ وانتهاء بالعلوم الأدبية واللاهوت Theology. لقد جعلته موهبته الأساسية كفنان يكتشف ارتباطات في كل شيء، واستيعاب الرؤى المختلفة جداً في صور شاملة. وهذا ما أثر أيضاً في رؤيته العلمية وأسلوب عرضه. فإيركسون أقرب للرومنطيقي في شخصيته ككل وفي رؤيته للحياة، ومن المؤكد أنه لا يمكن مقارنته بأولئك «البناة الكبار لمنظومة» التحليل النفسي من نحو هاينز هارتمان Heinz Hartmann أو ديفيد رابابورت David Rapaport. فإيركسون لا يحب التدقيق والتعريف والتدقيق؛ ففي كتبه لا نجد إلا القليل من المداخل النظرية. وربما تنطبق عليه تسمية الكاتب التحليلي النفسي أكثر. وفي عروضه الميدانية أو دراساته المتعلقة بالشعوب البدائية أو سيره برهن نفسه على أنه مُعَلِّم الملاحظة والحكايات الشيقة. ويقر بقوله «جئت إلى علم النفس من الفن، وهو ما يفسر وإن كان الأمر لا يحتاج إلى تبرير، بأن القارئ سيجد أحياناً، بأني أرسم السياقات والخلفيات، في المكان الذي ربما يفضل فيه رؤية دلالات على حقائق ومفاهيم. من المفروض أن أستفيد من الضرورة البنيوية constitutional، بأن أبني ما أريد قوله، على وصوفات نموذجية representative، بدلاً من بنائها على حجج نظرية» (1982a,P.12-13).

إن ما جعل كتابات إيركسون سهلة للغاية بهذا الشكل، الأسلوب الرائع للراوي،

قد يبرهن بالمقابل على أنه صعب بالنسبة للجدل العلمي. فقد التقط الكثير، إلا أنه ظل أحياناً في إطار التلميحات والانطباعات ومراراً ما تتداخل المواضيع ببعضها. وغالباً ما يتوجب على المرء أن يستخلص بمشقة معنى طروحاته من المنشورات المختلفة ويجد عند التأمل الأدق ثغرات وتناقضات. وبالتحديد لأن إيركسون لم يعرِّف مفاهيمه بدقة، وإنما وضحها في السياقات المختلفة، فإن بعضها يبدو غير دقيق ومتخم. وأحياناً يقوم بتحديد مفاهيمي، لا يتمسك به لاحقاً أو يصف الموضوع نفسه بمصطلحات مختلفة. حاجته العامة للموائمة جعلت إيركسون كثيراً ما يتجنب النقد والمواجهة، وإلا كان من اللازم الإشارة أيضاً في الجدل مع وجهات النظر العلمية الأخرى والتخصصات الأخرى إلى الحدود الفاصلة، المتناقضة.

يهدف هذا الكتاب إلى تعويض ما يفتقده المرء في كتابات إيريكسون، التنظيم المنهجي والعرض الكلي للكم الكبير من مساهماته النظرية والإكلينيكية. وبما يشبه فرويد فقد بلور إيركسون أفكاره في عقود ستة من البحث العلمي بالتدريج. ومن هنا نجد في كتبه بعض التكرارات والإسهاب وقد لا يكون العرض الزمني لأعماله كثير الفائدة. لهذا فقد تم تجميع مقاطع وعبارات من منشورات مختلفة في فصول موحدة، وهذه من ناحيتها تم تجميعها في عشرة مجالات كبيرة من المواضيع، من نحو مناقشة مفهوم الهوية أو نموذج نمو الشخصية أو المساهمات الأخلاقية والسيروية على سبيل المثال، بمقدار ما تمثل «أعمدة» أعمال إيريكسون. وبالنظر لتنوع تفكير إيركسون وكمية المواضيع المتداخلة على الأغلب بدا العمل في هذا الكتاب ممتعاً بمقدار ما هو شاق.

ويفترض أن يتم إلى أبعد حد ممكن تجنب خطر التفتيت الكبير لأفكار إيركسون التي تبدي باستمرار ارتباطاً أساسياً، والتوسع بشكل كبير ببعض الأفكار التي لمح إليها إيركسون مجرد تلميح.

ومن البديهي أن يظل العرض الكلي لمساهمات إيركسون مجزئاً. فأعماله يمكن مقارنتها من حيث السعة والأصالة بإنجازات الرواد الكبار لعلم نفس الأعماق. وحتى يومنا الراهن يعد من أكثر ممثلي التحليل النفسي ما بعد الفرويدي قراءة. فقد امتد تأثير

تصوراته إلى خارج علم النفس إلى العلوم الإنسانية ومن الصعب الإحاطة بفيض المراجع الثانوية في كل العالم.

ويتمثل الهدف هنا في إنجاز أرضية لمساهمات إيركسون النظرية والإكلينيكية، تهدف إلى التسهيل على القارئ دراسة النصوص الأساسية. وقد تم التخلي عن بعض الأمور، وبعضها الآخر تم عرضه بصورة مقتضبة لأسباب متعلقة بحجم الكتاب، بحيث ضاع الكثير من موهبة الملاحظة والصياغات الأخاذة والفكاهة الصائبة عند إيركسون.

أطلق على إيركسون لقب «رائد أزمة الهوية Pioneer of Life Crises»، وفي الواقع فإن ذلك لم ينبثق من اهتمام علمي لوحده، وإنما كان اهتمامه بهذا الموضوع نابعاً أيضاً من صلة وثيقة بتاريخ حياته هو. وقد يكون من الممكن، يقر إيركسون، «أنه كان علي أن أمنح هذه الأزمة اسماً وأن أراها في كل الناس الآخرين، كي أتغلب عليها بنفسي» (1982, P.25). وعلى الرغم من أنه قد ترعرع في ظروف آمنة ولم يعوزه شيء على ما يبدو في طفولته، فقد صُبغت حياة إيركسون من البداية بخبرات الهامشية. إذ أنه ترعرع في مدينة كارلسروه Karlsruhe كربيب لطبيب أطفال، من أصول دنمركية- ألمانية يهودية، متلقياً تربية مزدوجة اللغة. وبعد حصوله على شهادة الثانوية العامة جال الشاب إيركسون، حائراً حول مستقبله، لسبع سنوات في أوروبا، وتخلى مراراً عن دراسة الفن. وفي عمر الخامسة والعشرين، وبشكل أقرب للصدفة وصل إلى الدائرة الفيناوية في ذلك الوقت حول سيجموند فرويد، وأصبح المرشح الوحيد للتحليل النفسي من دون شهادة دراسة جامعية، كما عمل طوال حياته في مؤسسات، لم يقدم لها أية شهادة فعلية. وعلى طريق الهروب من الفاشية الصاعدة لم يعد إيركسون قادراً على أن تطأ قدماه الدنمرك، وطن والديه وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية. هناك تقاسم مصير مهاجري الثلاثينيات، وكان عليه أن يثبت نفسه في بلد غريب وفي جو علمي مختلف. وكواحد من غير الأطباء الأواخر وجد إيركسون القبول في مجتمع التحليل النفسي الأمريكي وتعلم «كمتحدث بسيط naïve Speaker» تطوير أفكاره

العلمية بلغة غريبة. وأخيراً تقبل الولايات المتحدة الأمريكية كوطن اختياري، إلا أنه لم يغرس هناك جذوراً راسخة، بل قضى أطواراً متعددة من العمل في أماكن مختلفة من هذا البلد الكبير. وكان صعود إيركسون في الولايات المتحدة الأمريكية كالشهاب اللامع. فأصبح واحداً من أشهر الشخصيات المعروفة للتحليل النفسي ما بعد الفرويدي. ومع ذلك فقد تقبل في قمة عهد ماك كارثي من بعض الصحافة الأمريكية، مطالبتها له أن عليه أن يعود من حيث أتى.

مصيره كربيب مساكن لم يترك إيركسون يشعر بالاستقرار أبداً في أي مكان أو ضمن أية مجموعة علمية. فقد نفر من أية دوغمائية[1] Dogmatism، ونبذ الحدود التخصصية الضيقة جداً، وإلا أنه من جهة أخرى أيضاً أسيء فهمه حتى من فطاحل علماء عصره أو لم يشعر بالاندماج في جماعة التحليل النفسي بشكل صحيح. وخلف طبيعته المتفائلة وفكاهته الأسرة كانت تكمن بعض الجوانب الحساسة. فخبرات إيركسون الحياتية جعلته يحس بعمق بمصير الشاب المزعزع والمهاجر والمهمش اجتماعياً. فتحتم عليه أن يصنع من هامشيته نمط حياة ومن أزمة هويته موضوعاً علمياً.

وعليه سيتصدر وصف أهم المحطات الحياتية لإيريكسون في بداية هذا الكتاب، من أجل توصيل الشعور، إلى أي مدى تأثر سير عمله بالخبرات والأزمات الشخصية. وللأسف لم يكن هناك الكثير من المعلومات من المصادر الأولية حول هذا الوصف التاريخ حياتي. فغالبية أصدقاءه ومعاصريه من العلماء توفوا، ولم يعد بالإمكان في وقت تحضير المخطوط إجراء مقابلة مع إيركسون الهرم. وإيركسون كان متحفظاً في الظهور العلني. فحتى ستينيات القرن العشرين رفض إعطاء مقابلات للصحافة. وعلى الرغم

(1) الدوغمائية : كلمة من اليونانية تعني الجمود العقائدي «مذهب أو رأي» التأييد الأعمى لمبادئ أو مطالب مذهب أخلاقي ما ، بدون إمعان والنظر فيها ، وبدون تفهم قيمتها الاجتماعية وبدون دراسة الحالة الملموسة وبدون مراعاة العواقب الاجتماعية التي قد تنجم عنها ، والدوغمائية كظاهرة اجتماعية تميز بصورة خاصة الأخلاق المسيطرة في المجتمع الاستغلالي والتي تبذل شتى الجهود للتستر على مغزاها الاجتماعي والتي تقف ضد التقدم الاجتماعي والتحويل الثوري للمجتمع.

من أنه أشار في مقالته «شيء من السيرة حول أزمة الهوية» (1973) إلى بعض من نشأته الشخصية والعلمية، إلا أن المعلومات حول زواجه وحياته الأسرية وعلاقاته بسيجموند فرويد وابنته آنا، محللته التعليمية السابقة في فينا، أو بفطاحل التحليل النفسي الآخرين ظلت زهيدة. فكثير من الأسئلة من نحو فيما إذا كان قد حاول مرة التعرف على والده الحقيقي على سبيل المثال تظل معلقة وتفتح المجال للتخمين. لقد وضح له التحليل التعليمي، كما لاحظ إيركسون لاحقاً، بأن كل الاعترافات الإرادية أيضاً «يمكن أن تكون تحجيبات ذكية ونصائح ذاتية تخفيفية». ومن هنا يبدو موقفه « في الوسط تقريباً بين التشكيل الممتع للاعتراف لمحاولاتي التاريخ حياتية وبين علماء الطبيعية والاجتماع، الذين لا يحبذون بشكل عام افتتاح جملهم بـ أنا» (1973، ص.795). وعليه يمكنني الاعتماد فيما يلي إلى جانب بيانات إيركسون الذاتية والسيرة التي كتبها كولس Coles على بعض الجلسات فقط مع محللين نفسيين ممن عرفوا إيركسون شخصياً وكذلك على مراجع إيركسون العامة. وقد وفر كتاب آرينس Arenz (1980) الذي تمكن من إيجاد بعض رفاق المدرسة القديمين لإيريكسون عندما كان في مدرسة بسمارك في كارلسروه الثانوية Karlsruher Bismark-Gymnasium وسؤالهم، فهماً مفيداً لأيام شباب إيركسون.

الفصل الأول

حياة وأعمال إيريك إيركسون

1.1 الطفولة والشباب

ولد إيريك هامبورغر إيركسون Erik Homburger Erikson في الخامس عشر من شهر يونيو (تموز) عام 1902 بالقرب من فرانكفورت. والده فالديمير إيسدور سالمونسن Waldemar Isidor Salomonsen مصرفي من كوبنهاجن انفصل عن أمه قبل ولادته[1]. ولحزنها تركت وطنها وذهبت إلى أصدقاء لها في ألمانيا. وعندما مرض الطفل الصغير إيركسون في عمر الثلاث سنوات، عالجه طبيب الأطفال الدكتور الكارلسروي[2]

(1) عزيزي البروفيسور رضوان

قرأت في هذه الأثناء كتاب ابنة إيركسون. فمن خلال أبحاث أحدث من المثبت الآن أن المصرفي الكوبنهاغني سالمونسن - وكما هو مكتوب في كتابي بشكل خطأ- لم يكن والد إيركسون. إذ لابد للأم أن تكون بعد فترة قصيرة من الانفصال عن سالمونسن قد ارتبطت بعلاقة نتجت عنها ولادة إيركسون. إلا أن هذا الأمر قد ظل دائماً سراً. ولم يستطع إيركسون معرفة والده الجسدي أبداً وظل حتى اليوم غير معروف. ربما تستطيع أن تدخل هذه التغيرات في مخطوط النسخة العربية للكتاب مع الشكر والتحية.

بيتر كونسن

Lieber Herr Professor Rudwan,

ich habe mittlerweile das Buch von Eriksons Tochter gelesen. Durch neuere Forschungen ist jetzt eindeutig nachgewiesen, dass der Kopenhagener Bankier Salomonsen - wie es noch fälschlich in meinem Buch steht - nicht Eriksons Vater ist. Die Mutter muss kurz nach der Trennung von Salomonsen eine Beziehung gehabt haben, aus der Erikson hervorgegangen ist. Dies blieb aber stets ein Geheimnis. Erikson konnte seinen leiblichen Vater nie ermitteln, und bis heute ist er unbekannt geblieben. Vielleicht können Sie diese Veränderung in Ihrem arabischen Manuskript übernehmen. Herzlichen Dank und viele Grüße!

Ihr Peter Conzen

(2) نسبة إلى مدينة كارلسروه Karlsruhe في ألمانيا .

ثيودودر هومبورغر Theodor Homburger. فوقع هومبورغر في حب أم مريضه ذات المظهر الحسن واللبقة اجتماعياً وتزوجها في الثامن من يونيو (حزيران) من عام 1905. ومنذ ذلك الحين وجب على إيريك «أن يرتضي بالدكتور ذي اللحية، بهذا الدخيل بكل حبه الشافي وأدواته السحرية» (1982؛ صفحة 25). وتحول المنزل البرجوازي الكبير لزوج أمه الواقع عند ساحة القصر رقم 9 بالقرب من قصر مدينة كارلسروه إلى بيئة طفولة إيركسون المؤثرة. وكان يمارس الدكتور هومبورغر عمله في الطابق الأرضي، في حين سكنت الأسرة في الطابق الأول. وكانت غرفة إيركسون تطل على منظر خلاب لحديقة القصر وواجهته، مقر الدوق البروتستانتي الكبير فون بادن Gross Herzog von Baden في ذلك الوقت.

قدمت أسرة هومبورغ لإيريك، ولأخواته الثلاث من أمه اللواتي ولدن بعده، كل مزايا التربية البرجوازية الراقية. ويتذكر إيريك كيف تحدثت أمه معه اللغة الدنمركية. لقد استطاعت «أن تربي في نفسي شيء دنمركي روحي، من دون أن تشعر بأنها ملزمة أن تضيف إلى ذلك باستمرار أن أسرتها كانت يهودية أيضاً» (1982 «ب»، صفحة 26). كانت السيدة هومبورغر صديقة لبعض الفنانين الذين عملوا في ذلك الوقت بأسلوب الرسام الشفارتسفالدي هانس توما Hansthoma. ومنذ يفوعه تردد إيريك هنا وهناك بين منزل أسرته والمراسم المختلفة، الأمر الذي أوقظ ميوله الفنية. وقد أثبت نفسه على أنه طفل موهوب فنياً، وتعلم العزف على البيانو وكان يرسم منذ طفولته بولع كبير. وفي أثناء العطل المدرسية كانت الأسرة غالباً ما تسافر إلى الدنمارك لزيارة الأقارب من طرف الأم، في حين كانت تقضي نهايات الأسبوع المطولة في بيتها الصيفي في غايستال Gaistal في شفارتسفالد Schwarzwald.

كانت أم إيركسون كارلا هومبورغر Carla Homburger، المولودة لأسرة أبراهامسن Abrahamsen (1877-1960)، سيدة جذابة جداً، أنيقة دائماً في ثيابها ذات تأثير أرستقراطي. وكانت تبدو مهتمة بالفن والأدب وكان لها تفضيلاً خاصاً لفلسفة ابن

بلدها الدنماركي كريكغارد[1] Kriekegaard. وقد رعت السيدة هومبورغر مع زوجها

(1) سورين كيركجارد (1813-1855) Søren Aabye Kierkegaard: فيلسوف دانمركي تنسب إليه مدرسة الفلسفة الوجودية المؤمنة. ولد في كوبنهاجن عاصمة الدانمرك لأسرة بورجوازية ميسورة الحال مكونة من سبعة أطفال. كان محاوراً بارعاً مرحاً له قريحة متوقدة وفي أعماق نفسه، وكان يعاني اكتئاب عميق ويحس بحزن خانق. بدأ في الكتابة الفلسفية تحت أسماء مستعارة ذات طابع رمزي، وكانت معظم كتاباته تمردا على النزعة الهيجلية السائدة في زمانه. وفي هذه الكتابات العديدة طور الكثير من الأفكار التي ارتبطت فيما بعد بالفلسفة الوجودية من منظور مؤمن وهذا لتفريقها عن الوجودية الملحدة عند سارتر على سبيل المثال. تظهر أعماله العديدة اهتماما شديدا بالدين وتعتبر من أسس مدارس العلاج النفسي الحديثة وخاصة مدرسة رولو ماي في امريكا عالم النفس والمعالج النفسي الكبير والذي تأثر بكيركجارد كثيرا. كان موت والده عام 1838 علامة فارقة في حياته إذ اعتبر كيركجارد أنها إشارة إلهية له كي يتخلص من إحساسه القهري بالارتباط المرضي بوالده ومن ثم انخرط في الحياة بقوة. وسرعان ما انتهى من دراسته في جامعة كوبنهاجن وقدم أطروحة تحولت فيما بعد إلى كتابه الشهير (مفهوم المفارقة) (1841) Om Begrebet Ironi (The Concept of Irony) وتزوج من ريجينا اولسن. إلا أن مسؤولية الزواج وتبعاته كانت على مايبدو اكبر من طاقة تحمله فانفصل عنها بالرغم من حبه الشديد لها وظل وفيا لها إلى أن مات عام 1855 وذكرها في وصيته. وبعد انفصاله عنها كرس كيركجارد حياته ووقته وجهده لهدف وحيد هو تأسيس المسيحية كديانة على أسس إنسانية بالمعنى الفلسفي. أو بعبارة أخرى وضع الأساس الإنساني للمسيحية.

وقد قدم هذه الرؤية عبر مراحل ثلاث:

1- المرحلة الأولى كتب فيها العديد من الكتب تحت اسم مستعار من بينها خطوات على طريق الحياة وفي معظمها كانت إعمالا فلسفية وأدبية ونفسية.

2- المرحلة الثانية كتب فيها عدة كتب مخصصة أساسا لفهم الدين ومن بينها كتاب إعمال الحب وكتبها باسمه الحقيقي

3- المرحلة الثالثة كتب فيها مناضلا ضد سلطة الكنيسة الواقعية ومن بينها كتابه مدرسة المسيحية.

من المهم هنا أن نحدد أن هذا التقسيم احتياطي وتعسفي وليس زمني وهناك تداخل بين المراحل سواء في الكتاب الواحد حيث نجد محتويات فلسفية وأدبية ونفسية بالإضافة للبعد الديني أو في الفترة الزمنية التي أنتج فيها هذه الإعمال.

من أهم إعماله: إما/ أو (1843) Enten-Eller (Either-Or)، الخوف والارتجاف Frygt og Bæven: Dialectisk Lyrik (Fear and Trembling) (1843)، المرض طريق الموات، Sygdomen Til Døden (The Sickness unto Death) (1849)، مفهوم الحصر، Begrebet Angest (The Concept of Anxiety) (1844)، ومن فلاسفة القرن العشرين الذين تأثروا: مارتن هايدجر وكارل ياسبرز وتيودور اودورنو وهربرت ماركوزة وجورج لوكاتش. والجدير بالذكر أن هناك نوع من إعادة الاهتمام بفلسفة وكتابات كيركجارد مع إعادة الاعتبار للفرد في عالم ما بعد الحداثة.

فلسفته: بالرغم من ارتباط فلسفة كيركجارد ورؤيته الوجودية المؤمنة بسيرة حياته إن رؤيته للكون والوجود في

ارتبط بسياق تاريخ الأفكار التي كانت سائدة في عصره وأثرت عليه. فقد كانت أوروبا في بدايات القرن التاسع عشر وحتى منتصفه تمر بفترة تراجع في الأفكار الثورية نتيجة هزيمة النابليونية وعودة الملكية في أوروبا. وعلى الرغم من استقرار الأحوال في الدانمرك إلا أن تأثير أوروبا عليها كان كبيرا وكان المنحى الفلسفي السائد في هذه الأونة هو الفكر الهيجلي .وقد أدى التقدم التقني الذي تحقق مع استقرار البرجوازية المدنية بوصفها الطبقة المسيطرة وتحول الاقتصاد بشكل عام إلى الصناعة الرأسمالية إلى تحقق نوع من الوفرة وتحسن نسبي في الأوضاع المعيشية للبشر وخاصة بالمقارنة بالحالة المزرية للحياة في القرون السابقة. ونتيجة فكرة التقدم وسيطرتها على الفكر صارت كلمات مثل العلم والموضوعية والعقل باختصار المنطق هي المفاتيح والحلول التي ينبغي على البشرية أن تنتهجها. كان كيركجارد يرى أن الفيلسوف الألماني الكبير هيجل هو الممثل الأمثل لهذا الفكر. خاصة عبر رؤيته لتطور التاريخ البشري كتطور للمنطق والعقل. ومن ثم التماهي بين الفكرة المطلقة وتحققها في المجتمع المثال والارتباط الجدلي بين الفرد والجماعة التي ينتمي إليها.

وقد مثل الديالكتيك أو الجدل أو وحدة الأضداد مفهوما مغايرا عند كيركجارد، فجدل الحياة يناقض جدل الفكرة. ويرى كيركجارد الواقع غامضا متناقضا وجدله انتقال دائم من حال إلى حال. وهو يعتبر الفلسفة المعاصرة له كما حدد في كتابه المرض طريق الموات نوعا من الوثنية الحديثة. والفيلسوف في نظره دجال ساحر يتلاعب بالألفاظ محاولا اختزال العالم والإنسان إلى نسق متجانس من المفاهيم المجردة بحيث تنحل على الورق كل الإشكاليات الواقعية والمتخيلة في سهولة ويسر . وكان الخطأ الجوهري الذي يقترفه الوضعيون من الفلاسفة من وجهة نظره هو أنهم يفكرون في الوجود المتحرك المتغير من خلال خنقه وإلغائه وتجميده ومن ثم يطرح السؤال المنطقي في نظره كيف يمكن سجن الحياة في نسق مغلق مهما كان عبقريا هذا النسق؟ وعلى مستوى المعرفة يتساءل كيف للمرء أن يتكلم عن معرفة الحياة عمومية وكل ما امتلكه من معرفة يتعلق بوجودي الفردي؟

يرى أيضا أن الوجود الأكيد هو الوجود الفردي وان وجود الأخر افتراضي وبالتالي فالانا تفترض وجود الأخر والأخر يفترض بدوره وجود الأنا من حيث كونه هو أنا وهو آخر. وهذا الوجود الأكيد عند كيركجارد يأتي من خلال عدم إمكانية الهروب من الحواس الذاتية في الأساس. كما يرفض كيركجارد بشدة مقولة الموضوعية المحايدة التي كانت سائدة في عصره ويدافع عن التحيز الذاتي فالحقيقة لا تعبر عن نفسها عنده إلا من خلال الفردانية. وهو يعرف الفلسفة بوصفها تأمل مستمر في الحياة وإضاءة وتوضيح للوجود الإنساني.

وتمثل الكينونة عنده أن تظل كما أنت. ومن ثم فالكينونة عنده مقصورة على الذات الإلهية لان الإله هو فقط السرمدي الدائم. ومن ثم فلان من أساسيات البشر التغير لأنهم يتطورون ويرتقون وينحطون فهم موجودون إي في حالة بحث مستديم عن كينونتهم التي هي قبس من نور الإله .أما الوجود فهو التغير بحثا عن الكينونة.

يرى كيركجارد جدلية مفهومين القلق والقنوط أو اليأس حيث إنهما عنده لا يمثلان فقط مشكلة وإنما يراهما بداية الحل. من خلال أن إدراك القلق وفهم اليأس المفضي إلى الموت يؤدي إلى التغيير وتدمير النفس من اجل معرفة النفس. إي إعادة الارتباط بالإله.

والحياة عند كيركجارد هي السبيل الوحيد للوصول إلى أن تكون إي للكينونة والطريق إلى هذا عبر الالتزام الأخلاقي الديني. وهذا الالتزام هو الإيمان الذي يحرر النفس من قيود القلق وينتشلها من ربقة مرض اليأس الذي هو الخطيئة. وللوصول لهذه المرحلة العليا من الوجود تمر النفس بمراحل عديدة منها المرحلة الجمالية

الكثير من الاتصالات، إلا أن تأثيرها في ذاكرة إيركسون كان محزناً وباعثاً على الانطوائية في بعض الأحيان. وعلى ما يبدو فإنها لم تتمكن من التخلص الكلي من الانفصال عن وطنها. وكانت حياة أسرة إيركسون حياة متلائمة مع التقاليد البرجوازية لذلك العصر، إلا أنها وفرت لابنها جواً تحررياً من الانفتاح العقلي. وعندما بدأت بعد عام 1933 أولى علامات القمع المضاد للسامية، أيدت أسرة هومبورغر مواطنيها اليهود بشكل ملموس. فقد أقامت السيدة هومبورغر على سبيل المثال مطبخاً ليهود كارلسروه العاطلين عن العمل والمعوزين وكانت من المنظمين «للمساعدة الشتائية لليهود»، وهي النوع المقابل لبيوت المساعدة الشتوية للاشتراكيين القوميين (النازيين). وفي ديسمبر (كانون الأول) من عام 1935 هاجرت أسرة إيركسون إلى القدس، حيث ظل ثيودور هومبورغر حتى وفاته يمارس مهنة طبيب مدرسي.

ومن الأسلوب الذي قدس فيه إيركسون الأمومة لاحقاً، يغلب الظن أنه قد كان هناك ارتباط خاص بينه وبين أمه وأنها كانت الشخص المؤثر لطفولته. وقد ادعى إيركسون لاحقاً أنه لم يشكك مرة أبداً، «بأن طموحها قد كان واقعاً بالنسبة لي على

حيث تنشد المتعة واللذة سواء على المستوى الجسدي أو الذهني. مثاله هنا هو دون خوان الباحث عن اللذة والمتعة والذي لا يمكنه قط الوصول للخير والسعادة.

المرحلة التالية هي المرحلة الأخلاقية حيث تبحث النفس عن الخير والحق والسعادة في الفكر والمبادئ. وتطلب تحمل المسؤولية وهو يرى مؤسسة الأسرة والزواج بوصفها المثال الأجلي على هذه المرحلة. المرحلة الثالثة هي قبول التضحية والقبول التام والتسليم حيث تقف النفس متجردة في حضرة الإله ومثاله هنا إبراهيم الخليل في قبوله التضحية بابنه. إنها مرحلة التسليم والإيمان الخالص.

المرء لا يتنقل عبر هذه المراحل بشكل آلي ميكانيكي فكيركجارد يرى أن ثمة دائماً وأبداً حرية للنفس الفردية في اختياراتها. وهو يرفض إي شكل من إشكال الحتمية بوصفه خلل أساسي في الرؤية الفلسفية. الانتقال لابد أن يتم عبر الإرادة وحرية النفس في الاختيار وخاصة من خلال المعرفة ثم الفعل. حيث يربط دائماً في رؤيته للوجود بفكرة الفهم الذي يؤدي إلى فعل.

المصدر:

http://kaffasharticles.blogspot.com/2006/11/1813-1855-sren-aabye-kierkegaard.html

الجانب الآخر من التقاليد التي كانت نفسها مخلصة لها». (1973، صفحة 812). وربما تحول إيريك - بلغة أبحاث التحليل النفسي الحديث- إلى «مندوب» (Stierline, 1975)، حقق في حياته الغنية الكثير من الخطط والأحلام بالنيابة عن أمه التي ظلت لها من دون تحقيق.

كان الدكتور تيودور هومبورغر Theodor Homborger (1868-1944)، رجلاً حساساً جداً ومثقفاً، ذو بنية خارجية أقرب للقصيرة، ترعرع في أسرة يهودية شديدة الإيمان. عاش أجداده منذ القرن التاسع عشر في مدينة كارلسروه Karlsruhe. ومن خلال الجد والموهبة الخاصة كان العضو الوحيد من أسرته الذي ترقى لأكاديمي. وقد كانت مهنة متخصص في أمراض الأطفال شيئاً غير مألوف إلى درجة كبيرة في ذلك الوقت، وامتدت شهرته خارج كارلسروه ككفاءة قيادية. وكانت غالبية مرضاه من الأطفال من أسر ميسورة الحال، من الموظفين الكبار ورجال الأعمال. وإلى جانب ذلك عمل كواحد من أوائل الأطباء المدرسيين في ألمانيا واهتم بمسائل التربية. واعتبر رجلاً طيباً وذي استعداد عالي للمساعدة، يعالج أطفال الأسر الفقيرة بالمجان.

وقد كانت حقيقة زواجه من سيدة دنمركية مطلقة لها طفل، في العهد الفيلهمي Wilhelminische Zeitalter خطوة شجاعة ومحط الأنظار في مجتمع كارلسروه. ودارت الشائعات حول فشل زواج هومبورغر بالأجنبية، وربما تكون مثل هذه الأحكام المسبقة المكتومة قد عززت من مشكلات الخجل والقيمة الذاتية لإيركسون. عامل تيودور هومبورغ إيركسون بأبوة حنونة جداً. لقد كان إنساناً طيباً وحساساً جداً يتمتع بكفاءة نفسية كبيرة. وكان إيريك، وكذلك الأصدقاء ورفاق المدرسة، يستطيعون باستمرار اللجوء إليه. وفي ذكرياته يتحدث إيركسون عن زوج أمه بخالص الاحترام. وعندما اختار عند منحه الجنسية الأمريكية اسم العائلة الجديد إيركسون، فإنه أبقى عرفاناً منه على الاسم الثاني هومبورغر.

إلا أنه يلاحظ، أن إيركسون قد تحدث بطريقة منسجمة بصورة ملفتة للنظر - بالنسبة لمحلل نفسي- عن أسرته المنبع. فأين كمنت إذاً حساسيته اللاحقة؟ كيف

حصل أن شعر كثيراً أنه بلا جذور وتحول البحث عن الهوية بالنسبة له إلى مشكلة حياتية أساسية؟ من المؤكد أن حقيقة إخفاء منبته الأصلي عنه طوال طفولته كلها كانت الأمر الحاسم. «والدي»، يقول إيركسون، «اعتقدا بشكل بديهي بأن إخفاء مثل هذا الأمر ليس ممكناً فحسب (إذ بدا الأطفال في ذلك الوقت لا يعرفون إلا ما يقوله لهم المرء بوضوح)، وإنما من الحكمة أن يحدث ذلك أيضاً، كي أتمكن من الشعور معهم بأني بين أهلي كلية. وبشكل بديهي أيضاً لعبت معهم هذه اللعبة ونسيت إلى حد ما فترة ما قبل سن الثلاث سنوات، عندما كنت مع أمي لوحدنا» (1973، صفحة 808).

ونحن لا نعرف على وجه التحديد متى وكيف عرف إيريك أن له والداً آخر وإلى أي مدى قد أرهق ذلك علاقته بوالديه. وهل طور، كغالبية الربائب، الرغبة، بالتعرف على والده الحقيقي؟ أم كان عليه تجنب هذا الموضوع، كي لا يزعج والديه وبشكل خاص أمه؟ فعندما يحسم إيركسون في بحثه النفسي النهائي للنزعة التوالدية generative للتكاثر وتربية الأطفال بوصفها حياة الراشدين شبه المُحدد لكل شيء، أفليس هذا كذلك نداء للوالدين بالبقاء معاً وتأدية واجبيهما بالرعاية تجاه الأطفال[1]؟ وأين يكمن مصدر إشكالية السلطة لدى إيركسون؟ لماذا لن يتمكن لاحقاً من الخضوع لأي سلطة أكاديمية، لماذا رسم في عمله «الشاب لوثر» صورة استبدادية متطرفة بهذا الشكل لهانس Hans والد لوثر؟ هل يتم التعبير هنا عن جزء من الغضب المكبوت على المصرفي الكوبنهاغني، الذي لم يرد رؤيته على الإطلاق؟ أم تلوح هنا توترات مخفية في علاقته بزوج أمه؟ ألم يذكر تيودور هومبورغر الصغير إيريك دائماً بالرجل الآخر في حياة زوجته؟ وألم يبدو الدكتور هومبورغر لإيركسون في البداية كمنافس جبار، اقتحم علاقته بأمه- وهذا في مرحلة من النمو، يكون فيها الطفل الصغير وفق الرؤية التحليلية النفسية مهتماً بالامتلاك المطلق لهذه الأم بالذات؟ يروي إيركسون بكلمات

(1) في رسالة من المؤلف للمترجم أنه يتضح من كتاب ابنة إيركسون الصادر مؤخراً عن أبيها، أن زوجة إيركسون قد أنجبت طفلاً معاقاً، وتم التخلي عنه، وهو ما ظل أيضاً سراً من أسرار العائلة. ومثل هذه الرواية تتناقض مع ما دعا إليه إيركسون عن واجب الآباء تجاه أبنائهما، وتثير الاستغراب.

مقتضبة جداً مشكلات الهوية عند الأطفال الربائب وبالتبني: «شعوري، بالاختلاف (الذي يصيب كذلك الأطفال من دون مشكلات حياتية ملموسة أيضاً)، هرب إلى الخيالات، بأني لقيط وبالطبع ابن والدين أفضل بكثير» (1973، صفحة 808). ويغلب الظن من وصف إيركسون بأنه قد تجنب المشاحنات الكبيرة مع والديه وأخواته، كما أنه قلما مارس لاحقاً نقداً حاداً لفرويد أو لجماعة التحليل النفسي. ويبدو في بعض النقاط بأنه أقرب للتنصل بشكل سلبي من نمط حياة والديه ومطالب زوج أمه. وبدءاً من الشباب شعر إيريك بأنه مشدود لعوالم مختلفة كلية خارج التقاليد البرجوازية وحلم بينه وبين نفسه بأب مثالي آخر.

وقد تبدى هذا على سبيل المثال في التربية الدينية. فقد سعى هومبورغر بشدة، لتعليم ابن زوجته تقاليد المعتقد اليهودي، وهو أمر لم يجاره فيه إيركسون بصورة كبيرة. وسرعان ما أطلقت في كنس زوج الأم على إيريك الأشقر ذي العينين الزرقاويتين تسمية «قوي Goy»[1]، في حين كان يعده زملاءه يهودياً. وفي عمر 13 سنة منح إيريك احتفالياً مرتبة «بار- ميتسفاه»[2]، وهو ما يشبه المعمودية في المسيحية. ومع ذلك فلم يشعر إيركسون بأنه معني بشكل خاص بالدين اليهودي، ولم تغرس فيه اليهودية المتحررة لأسرته المنبع أية جذور راسخة. وحسب كلماته هو «على العكس شيء ما برجوازي تقليدي ورسمي، مواقف، ذلك الإنسان اليافع في ذلك الوقت، الذي تاق نحو «الجوهري»، أن يقسم، تماماً كما هو اليوم، أن يتخطى ذلك بأسرع وقت ممكن» (1982، صفحة 26). وبما يشبه المعارضة لعقيدة زوج أمه شعر إيريك كمراهق بالانجذاب نحو المسيحية الإنجيلية (البروتستانتية). وحتى في ذلك الوقت سحره شخص واحد من الأرواح المعاندة الكبار في التاريخ: مارتن لوثر.

---

(1) كلمة عبرية وتعني الأمي. والأمي هو كل من لا ينتمي إلى اليهودية. وكانت قديماً تطلق على كل من لا يمتلك كتاباً. وجمعها «قوييم» (goyiim) بمعنى «الغرباء».

(2) Bar-Mitzwah أو Bar-Mitzvah وتعني حرفياً «ابن الوصية»: وهي طقوس البلوغ اليهودية للصبي في سن الثالثة عشرة وتعلن بدء تقيده بالتعاليم الدينية.

تصادق إيركسون في فترة المرحلة الثانوية مع بيتر بلوس Peter Blos، الذي أصبح لاحقاً محللاً نفسياً لليافعين مشهوراً في نيويورك. ووالده هو الدكتور إدوين بلوس Edwin Blos، كان طبيباً باطنياً متخصصاً بالتطبيب بالماء وطرق الشفاء الطبيعية، ويعد في مجتمع كارلسروه شخصاً غريب الأطوار eccentric، ليس بسبب طرقه الطبية غير المألوفة فحسب وإنما بسبب أسلوب حياته الخاص – فقد كان يرتدي على سبيل المثال ثياباً كغاندي. ويبدو أن هذا العالم المختلف للدكتور بلوس قد سحر إيركسون الشاب. فأصبح نوعاً من الأب الثاني، الذي حدثه للمرة الأولى عن المهاتما غاندي من الهند، الذي كانت طريقته في اللاعنف على نقيض غير معقول للقتل المُصَنَّع الذي لا مثيل له لسنوات الحرب العالمية تلك.

في كارلرسروه التحق إيركسون في البداية بالمدرسة الابتدائية، ومن عام 1912 حتى 1920 بمدرسة بسمارك الثانوية، وهي، كما يستنتج كاتب سيرة إيركسون كولس Coles بتهكم مبطن، «آخر احتكاك صبور بالفعل مع التعليم الرسمي» (1974، صفحة 29). وفي هذه المدرسة الثانوية للغات الإنسانية القديمة، التي تقوم في كارلسروه على تقاليد عمرها ثلاثمائة سنة سادت قيم العصر الفيلهيمي: الانضباط والتربية العسكرية والمذاكرة والاستظهار، وهو جو لم يستطع إيركسون قبوله طوال عمره. ومع ذلك فقد حصل هنا على تعليم عالمي، فسمع للمرة الأولى عن أولئك الأدباء والفنانين والفلاسفة، الذين سيشغلون حياته الفكرية اللاحقة بشكل كبير. لقد كان إيركسون، كما وجد آرينز Arenz (1980)، طالباً متوسطاً، وكان يعاني من صعوبات في الرياضيات والعلوم الطبيعية بشكل خاص. ولم يكن درس الرياضة يسبب الراحة لليافع ذو البنية الرقيقة. وكان اهتمامه أقرب إلى اللغة الألمانية والتاريخ وكانت أفضل علاماته في مادة الدين. وفي الرسم والأنشطة، وقد اتضحت موهبته الفنية بشكل خاص في رسم الوجوه.

كان إيركسون التلميذ الوحيد في صفه من أصول يهودية. ولهذا السبب لم يحضر دروس الدين، فتم تدريسه من الحاخام الدكتور كوراين Kurrein في التلمود. ولم يشعر في شبابه بالأحكام المسبقة المضادة للسامية بشكل صريح. ولكن كان ينظر إليه من بعض زملاءه نظرة خاصة فقد نشأ كابن لأسرة غنية من مدينة الجنوب، مركز وجهاء كارلسروه. وبأناقته العالية

وشقرته كان من الصعب تجاهل منبته الشمالي. وبذراعيه الطويلين وساقيه الضعيفتين وأصابعه الناعمة أعطى انطباعاً خجولاً وحساساً. وبدا مؤدباً ولبقاً، ومع ذلك فقد حافظ على نوع من المسافة عن زملاء صفه، ولم يكن يستطع صد اعتداءاتهم بشكل جيد وكان يتجنب المواجهات. وفي مراهقته ورشده المبكر أيضاً ظل إيركسون شخصاً منفرداً، لم يكن يهتم كثيراً بصداقات الشباب والسهر والمطاعم. وفوق ذلك أصبح المنبت الأجنبي أكثر إدراكاً للشاب في هذا الوقت من المشاعر القومية المتنامية بقوة: «على الرغم من أني بذلت جهداً كبيراً لأكون وطنياً ألمانياً أصيلاً، فقد كنت ألقب (بالدنمركي)، عندما ظلت الدنمرك حيادية في الحرب العالمية الأولى» (1973، صفحة 809).

وقد ألقت الحرب بظلالها في ذلك الوقت حتى على البرجوازية التي كان يبدو أنها تعيش بشكل مستتب. وليس أبعد من 200 كم من موطن إيركسون دارت أشد معارك المدرعات في الجبهة الفرنسية. وفي سنوات الحرب غالباً ما تعطلت المدارس؛ وكانت هناك غارات جوية ليلية، وتم سحب المعلمين للخدمة العسكرية مما وجب اختصار البرامج المدرسية. ومع ذلك فقد أنهى إيريك في 15 يوليو (تموز) 1920 امتحان المدرسة الثانوية بتقدير نهائي «جيد نوعاً ما»، وما يطابق إلى حد ما اليوم التقدير «مقبول». وقد كان الدكتور هومبورغر يأمل منه دراسة الطب، كي يتولى العيادة فيها بعد. إلا أنه كانت لإيريك مخططات أخرى. فقد أراد الالتحاق بأكاديمية الفنون، ولكن قبل ذلك أن يجول العالم ليتعرف عليه وليبتعد عن البيت. ويتوقع هنا أن تكون قد حدثت للمرة الأولى مجادلات حادة جداً مع زوج أمه، ولكنه حقق في النهاية ما أراد. فترك منزل والديه للتجوال، إلا أنه لم ينتسب إلى حركة الشباب في ذلك الوقت، وإنما قام على الأغلب لوحده أو مع القليل من المتعاطفين بمواجهة الطبيعة. وقد عد نفسه في ذلك الوقت فناناً، «وهو ما قد يعني أيضاً بالنسبة لشاب تعبير ملطف cuphemism[1]، يمتلك الموهبة ولكنه لا يعرف، ماذا يفعل» (1966 «أ»، صفحة 14).

(1) تعبير ملطف عن شيء بغيض.

ويغلب الظن أن أمل تيودور هومبورغر قد خاب نتيجة سلوك ابنه بالتبني، ذلك أنه قد وفر له كل ميزات التربية البرجوازية الراقية. كما قد لاحت لدى إيركسون مشاعر ذنب، بسبب عدم السير في خط والده. إذ لم يكن السبب الوحيد لمعارضته هو الرفض الرومنسي للبرجوازية كما هو الحال لدى كثير من شبان عصره. فقد أراد إيريك الوقت من أجل تفسير التناقضات في ذاته، للإصغاء إلى قدراته ورغباته الذاتية، لبناء هويته خارج ظل زوج أمه. وبعد الشهادة الثانوية تلت سبع سنين عجاف من التردد والهوام بلا هدف على الأغلب. وحاول مراراً في هذا الوقت إنهاء دراسة فنية نظامية، وكان يقطعها بعد فترة وجيزة. وكل تأرجحات المزاج واضطرابات العمل التي عالجها لاحقاً لدى مرضاه الشباب كان قد عانى منها نفسه في مراهقته المتأخرة. وأحياناً اتخذت صراعاته في ذكرياته «طبيعة حدودية borderline Character، أي أنها تأرجحت على الحدود بين العصاب وذهان الشباب» (1982 «ي»،صفحة 25). وكانت الفترة الواقعة بين 1920 و1927 سنوات «تعليقه النفسي الاجتماعي Psychosocial moratorium»، كما أطلق عليها إيركسون لاحقاً، سنوات التردد والوقت المهدور في ظاهره، ولكن أيضاً، كما اتضح له فيما بعد، مرحلة مهمة لصيرورته، وذلك بأن خزن في ذاته الانطباعات والخبرات التي استطاع لاحقاً تدقيقها وأسهمت في تحديد اتجاه حياته اللاحق.

بعد الثانوية العامة قام إيركسون بتجوال طويل عبر شفارتسفالد Schwarzwald وأقام لبضعة أشهر في لانغينارغن Langennargen قرب البودنسيه Bodensee. وعاد إلى كالرسروه وسجل في مدرسة بادن المحلية للفن، ولكن حتى دراسة الفن بحد ذاتها كانت بالنسبة للشاب شديدة الرسمية، فقطع الدراسة بعد سنة وذهب لميونيخ. وهناك زار إيركسون الأكاديمية الفنية، إلا أنه عمل على الأغلب لوحده في الحفر أو الرسم أو النحت. «كنت أستمتع في ذلك الوقت بالقطع الخشبية الكبيرة: بعمل مناظر طبيعية قاسية من هذه المواد الغارقة في القدم، منحني الشعور الأولي بالطبيعة والفن والحرفة في الوقت نفسه» (1973، صفحة 810). ومن الصعب الآن الحكم فيما إذا كانت موهبة

إيركسون قد كانت موجهة بالفعل نحو السيرة الفنية، التي حلم بها في شبابه. وفي كل الأحوال فقد أظهر في ميونخ الكثير من الموهبة بحيث أن بعض أعماله قد عرضت في «قصر الزجاج Glaspalast» إلى جانب أعمال ماكس بيكمان Maxbeckmann أو فيلهيلم ليمبروك Wilhelm Lehmbruck.

وبعد فترة ميونخ قضى إيركسون سنتين تقريباً في إيطاليا، التي لائمت طبيعتها وثقافتها خبرة عالمه الرومنطيقي بطريقة خاصة جداً: «وفي تلك الأيام شعر كل أجنبي صالح في بلده (الشمالي) بالانجذاب نحو إيطاليا، حيث قضينا وقتاً سرمدياً، بالتشبع تحت شمس الجنوب بكل المناظر الآسرة بمزيجها العظيم من الصناعي والطبيعة. كنت في ذلك الوقت (بوهيميا)»[1] (1982 «ب»، صفحة 27). ومع مجموعة من الأصدقاء جال إيركسون في توسكانا، وسجل انطباعاته في رسوماته وقرأ أعمال شوبنهاور Schopenhauer ونيتشه Nietzsche ولاوتس Laotse وسجل بانتظام مذكراته اليومية. وما أثار انطباعه بشكل خاص الكنوز الفنية في فلورانس، مهد النهضة والإنسانية الأوروبية. وفي ذلك الوقت سادت القمصان السوداء للفاشيين في الشوارع وكانت تنذر بكارثة مرعبة. ويتذكر إيركسون فيما بعد، بأنه قد كان غير مهتم بشكل ملفت للنظر بالاضطرابات السياسية لذلك الوقت: «فطالما استطاع المرء توقع الحصول على نوع من الدعم المالي من البيت ولم يقع ضحية حظ عاثر ما، فقد عاش (هكذا اعتقد المرء على الأقل) بمعيار القرن وليس العقد من السنين» (1982 «ب»، صفحة 28).

وفي عمر الخامسة والعشرين عاد إيركسون إلى مدينته كارلسروه، وقام هناك بتدريس الفن ولكنه لم يزل مثل الأول مشوشاً حول مستقبله المهني. وفي هذا الوقت وصلته رسالة من بيتر بلوس Peter Blos، الذي كان يدرس في فينا في ذلك الوقت. فقد التقى بلوس هناك دوروثي بورلنغهام Dorothy Burlingham، وهي سيدة من تلك الدائرة من الأمريكيين الذين قدموا بشكل خاص إلى أوروبا للتعرف على مذهب

(1) الفنان البوهيمي كاتب أو رسام يحيا حياة بوهيمية لا تقيم وزنا للأعراف والقواعد الاجتماعية.

فرويد ولإجراء تحليل شخصي. وقام بلوس بتدريس أولاد السيدة بورلنغهام الأربعة دروساً خاصة، وخطر له بأن يقوم أيضاً بتأمين مدرسة خاصة صغيرة في فينا للأطفال الأمريكيين الآخرين. وقد عرض بلوس على إيركسون أن يأتي إلى فينا ومساعدته في بناء مثل تلك المدرسة. فوافق إيركسون بعفوية، غير عالم بأنه هنا سوف يعثر على العلم الجديد -التحليل النفسي-، على «إيديولوجية» في هذا الطور الحرج من الحياة، كما أطلق عليها لاحقاً، ستهب وجوده التحول الحاسم.

وهنا أنهى إيركسون شكلياً المراهقة المتأخرة المضطربة ومع ذلك بدا أنه من عداد أولئك الأشخاص الذين لم يتجاوزوا على الإطلاق التعليق moratorium كلية، الذين يتوقون طوال حياتهم إلى سعة خبرات سنوات الشباب. وكإنسان راشد أيضاً وعالم استمر إيركسون بحمل سمات المراهقة المتأخرة الرومانسية، ظل فردانياً عنيداً، يهاب من الاجتماعات المستفيضة. ولو أنه عاد اليوم إلى شبابه مرة أخرى، فمن المؤكد أن المرء كان سيجده مع الشبان الحالمين أو مع حماة البيئة أو مظاهرات السلام. وقد أبدى إيركسون تعاطفه الواضح مع شبان الستينيات أولئك، الذين رفضوا حرب فيتنام وبحثوا خارج المؤسسات establishments عن أشكال حياتية أصيلة من العمق الباطني والتضامن. ولكن أليس موقف إيركسون متناقضاً؟ ألا يعود الفضل الكبير بالنسبة له إلى هذا العالم البرجوازي بالذات؟ فماذا كان سيصبح لولا زوج أمه، الذي استقبله هو وأمه في يوم من الأيام ودعمه حتى سن الرشد؟ وألم تكن بالتحديد هي تلك المؤسسة الأمريكية التي صنع فيها إيركسون لاحقاً مجده، التي أوصلته إلى الشهرة والرخاء؟

لا يمكن لمحيط الطفولة البرجوازي لابن الطبيب المشهور وعالم المراهقة المتأخرة الهائم أن يكونا متناقضين. إذ غالباً ما يتولد الانطباع وكأن الراشد إيركسون -حتى في مفاهيمه العلمية- يتأرجح بين هذين العالمين هنا وهناك. فمن جهة ألح على الالتزام النقدي الاجتماعي للتحليل النفسي، ومن ناحية أخرى يبدو في بعض تصوراته العلمية عن دورة الحياة، عن العلاقة بين الرجل والمرأة أو الفضيلة الأساسية بعض التقليدية،

المثالية، الطمأنينة idyll، وكأنه أراد مرة أخرى استحضار الظروف المتسقة للأسرة الكبيرة في القرن التاسع عشر.

وألم يكن طريق حياة إيركسون اللاحق أفضل توليفة ممكنة لتماهياته الطفولية وخبراته في المراهقة؟ ألم يحقق صفات وتوقعات والديه إلى أبعد مدى ممكن؟ من المؤكد أن قد فاق زوج أمه في التأثير والشهرة. ومع ذلك فقد ظهر في حياة الرشد لديه جزء لابأس به من التماهي المتأخر مع تيودور هومبورغر. فقد اختار اليهودي سيجموند فرويد أباً روحياً، «علماً يهودياً» كمهنة وعقيدة، عالج أطفالاً في عيادته الخاصة. وكما فعلت أمه في يوم من الأيام ترك إيركسون وطنه وكان عليه أن يبني وجوده في بلد غريب، حيث يغلب الظن أنه حقق الكثير من التوقعات والأحلام، التي غرستها أمه فيه خفية: فقد أصبح عالماً وفناناً وكاتباً في الوقت نفسه، جال العالم كله وكان منفتحاً على الثقافات والعقائد المختلفة.

أما ما تبقى من سنوات الشباب الهائجة، فقد كان النفور الدائم لإيركسون من كل نوع من التعليم الرسمي. وقد عبر عن ذلك لاحقاً بقوله: «قبل أن أهتم بالتحليل النفسي، اعتبرت نفسي فناناً تشكيلياً؛ فأنا لا أستطيع تقديم غير دبلوم مونتيسوري[1]. أما بعلم النفس بوصفه كذلك فلم أفكر على الإطلاق. فإذا كان وليم جيمس William James قد قال مرة، أن أول محاضرة قد سمعها في علم النفس على الإطلاق، كانت محاضرته الأولى التي ألقاها هو، فإنه علي الاعتراف بأن أول دورة في علم النفس التي سجلت فيها، كانت أيضاً هي الأولى – والأخيرة –، التي تغيبت عنها» (1982، صفحة 20-21).

(1) مذهب في التعليم يؤكد على التعلم عن طريق الخبرة الفردية

1.2 التحليل النفسي والتدريب في فينا

ما أن وصل إيركسون فينا حتى بدأ العمل كمربي، وهو نشاط من كثير من النشاطات التي لم يكن يحمل لها التأهيل الفعلي. وقد تم تأسيس المدرسة في حديقة منزل صغير، تعود ملكيته إلى إيفا روزنفيلد Eva Rosenfeld، صديقة آنا فرويد. وسرعان ما أصبح هناك 20 ولداً وبنتاً، قام إيركسون بتدريسهم المواد المختلفة. وكانوا أطفالاً لأناس، يتحركون خارج إطار التقاليد البرجوازية. كما أن نمط التدريس قد خرج عن إطار ذلك العصر، وكان هناك الكثير من التجارب التربوية المضادة للتسلط في القرن العشرين. وقد عقد إيركسون الأمل على تعليم يتلائم مع الأطفال، على تفتح الفضول والإبداعية. وعلم الأطفال عن طريق الرسم والتشكيل، وعمل معهم، وقام بتجميع الصور معهم، وعرف كيف يروي بشكل مشوق عن البلاد البعيدة أو الناس الخارقين. وكان يسمح للبنات والصبيان أن يختاروا الجدول الدراسي، وكان هناك ساعات نشاط منتظمة للعمل العفوي[1]. وكان الهدف جعل التلاميذ أناس ناقدين واعين بأنفسهم من دون إكراه ميكانيكي وضبط وربط تخويفي.

وكانت الملاحظة المباشرة للنمو الطفولي وتطبيق التحليل النفسي على التربية قد أصبحت في ذلك الوقت مجالاً من مجالات الاهتمام الجديد للتحليل النفسي. وكانت آنا فرويد قد بدأت لتوها بتأسيس سيمنارها التحليلي النفسي للأطفال الذي اشتهر لاحقاً وبدأت باستخدام تقنية علاجية جديدة لعلاج الأطفال. وكانت صديقة لدوروثي بورلنغهام وأبدت اهتماماً كبيراً بتجربة المدرسة الخاصة. وبهذه الطريقة حصل اتصال إيركسون بأصغر بنات فرويد، التي أطلق عليها فرويد على سبيل المفارقة «بأنها ابنه الوحيد» والتي تولت في سنواته المتأخرة بشكل دائم الدور الحاسم في الدفاع الدءوب عن طروحاته، وكانت أمين سره الشخصي وراعيته. ومن خلال أنا فرويد ووالدي تلامذته تعرف إيركسون على أولئك العاملين مع فرويد الذين تبنوا أفكاره بأعمال

---

(1) تسمى اليوم أنشطة حرة أو نشاط لاصفي.

بحث مشتركة مكثفة، وطورها. فبدأ بالاهتمام بشكل أقرب بالتحليل النفسي، ذلك العلم الخارج-كوني المشحون بالأسرار، الذي زعزع صورة الإنسان في ذلك الوقت من جذورها. وعلى الرغم من أن التحليل النفسي كان قد حظي بالسمعة العالمية في عشرينيات القرن العشرين، إلا أنه لم تكن حتى ذلك الوقت توجد أية معاهد نظامية ذات خطط تأهيل وبرامج تعليمية محددة، وهو ما قد يتناقض بلا شك مع تلقائية إنسان مثل إيركسون. كما لم تكن توجد طرق انتقاء خاصة. وقد تم اقتراح إيركسون كمرشح للتأهيل في التحليل النفسي وحصل على منحة. فوافق وبدأ يومياً بعمل جلسة تحليل تعليمي لدى آنا فرويد في عيادة فرويد المشهورة في فينا، في دخلة بيرغ رقم 19 Berggasse.

كان سيجموند فرويد في ذلك الوقت قد ابتعد عن مجتمع فينا ولم يعد يدرِّس. وقد قابله إيركسون أحياناً في غرفة الانتظار في عيادة آنا فرويد أو في النزهات المشتركة. إلا أنه تجنب الحديث مع فرويد، ليس نتيجة الوجل، وإنما لأن أيضاً الحديث مع الشيخ الكبير يسبب الألم. فقد أدى سرطان الفك المتقدم لدى فرويد إلى سلسلة من العمليات المستمرة، وكان حلقه محشواً «بعضو اصطناعي جهنمي»[1]. ويتذكر إيركسون لاحقاً: «ما أثار أشد إعجابي، كانت حقيقة أن دكتور الروح هذا، هذا العارف بسير الحياة المضطربة، قد أحاط نفسه في مكتبه بمجموعة صغير من التماثيل، بضروب مجمعة بأعلى

(1) في أواخر سنوات الحرب العالمية الأولى بدأ فرويد يعاني من سرطان أصابه في الفك، فخضع في فبراير (شباط) 1923 لأول عملية جراحية نجم عنها نزيف كبير. وبعد ذلك وبفترة قصيرة، وفيها كان تحت وطأة الغم الذي أصابه إثر موت حفيده هانس، أجريت عمليتان جراحيتان متتاليتان. وكانتا مرعبتين حيث خلعت له الوترة بين المرتمتين الأنفية والفمية، فظل طوال أيام عاجزا عن الكلام والأكل. وأصبح منذ ذلك الوقت مضطراً لحمل رمامة لفصل الفم عن المرتمة، وأطلق عليها تسمية «العفريت» لأنها كانت تحدث لديه التهابا كبيرا ولما نزعها وجد صعوبة كبيرة في التكيف من جديد .لقد سبب له ذلك معاناة من آلام مبرحة طوال ست عشرة سنة، فاقمتها عمليات جراحية أخرى أجريت له، حكم عليه طوالها بأن لا يأكل إلا وحيدا وأن لايتحدث مطلقا إلى الجمهور. وخشية أن يفقده المورفين الذي كان يتناوله لتسكين ألمه، اتقاد فكره ووضوحه رفض تناوله وظل يفكر في كل مؤلفاته بما فيها الأخير. وقد وعدته ابنته آنا بعلاجه «بموضوعية» فوفرت عنه المتاعب وقرأت مداخلاته في المؤتمرات نيابة عنه. وقادته ظروف الاضطهاد النازي إلى مغادرة فينا في 4 يونيو (حزيران) 1939 ليلتحق بلندن. وفي السنة التالية مات منهوكا بآخر عملية جراحية أجريت له بعمر 28 سنة. وكان طبيبه قد وعده بتسهيل رحيله من هذا العالم ما أن يصبح ألمه غير قابل للتحمل.

درجة من التركيز من الأشكال الإنسانية، بالشكل الذي أبدعها فيه فنانون مجهولون من محيط البحر المتوسط القديم. ومن المؤكد، من مجال فرويد الخاص، من الصراعات، الشكاوى والاعترافات، لم يكن أي أثر في هذا الفن. هذا الاحترام للشكل الخالص، مهما فاجئنا من إنسان، اكتشف شياطين العالم الداخلي للإنسانية، ظهر كذلك في حبه للكلاب الشامخة والأطفال الأذكياء-المرحين. ولم أشعر بوضوح، بأنني هنا قد عثرت على إنسان ذي أبعاد فريدة ويقظة داخلية نادرة» (1966 «أ»، ص 14).

كانت لقاءات إيركسون مع فرويد في فينا أقرب للمتقطعة، محددة بمزيج من الإعجاب والتحفظ الخجول. وليس من المناسب وصفه بتلميذ فرويد. ومن المؤكد أن فرويد أصبح بالنسبة لإيركسون أباً روحيا، أبدى تجاهه احتراماً كبيراً طوال عمره. وعندما مضى إيركسون لاحقاً في طريقه العلمي الخاص، وأحياناً إلى مدى أبعد من الإطار الذي رسخه فرويد، تجنب - وعلى عكس المحللين الآخرين- الانتقاد الصريح له. وعندما كان يمارس الانتقاد التهكمي للتحليل النفسي التقليدي، فإن أقصى ما فعله هو انتقاده للتعصب الشديد، الذي أرادت نظريات فرويد جعله نوع من المذهب، ولكنه لم ينتقد على الإطلاق الأب المؤسس للتحليل النفسي بحد ذاته. ولا يمكننا هنا سوى التخمين فيما إذا كانت حياة إيركسون العلمية ستسير بشكل مختلف لو أن فرويد مارس تأثيراً أشد على مرشح التدريب الشاب. وربما كان سيتخذ تفكيره اتجاهاً آخر، وربما كانت طبيعة فرويد الخشنة أحياناً أيضاً لتجرح إيركسون الحساس وترهق العلاقة بمزيد من التناقض.

لم يكن التحليل التعليمي في ذلك الوقت شديد المدرسية كما هو الحال اليوم، ولم يكن يسود تباعداً صارماً بين المُحَلِّل التعليمي والمرشح. فقد كانت تدور محاورات شخصية بينهما، وينصحان بعضهما نصائح متبادلة أو يذهبون في رحلات معاً. من ناحية أخرى فإن كل تحليل تعليمي يمثل تدخلاً عميقاً في حياة المرشح للتدريب. فهو لا يؤثر على البصيرة العلمية والتقنية العلاجية فحسب وإنما يعني أيضاً مواجهة مع المجالات المخفية من الروح وأدق مناورات الخيبات الذاتية. ويمكن أن تحصل أزمات شخصية وإرهاقات للعلاقات الشخصية، لم يكن يدري عنها المُحَلَّل (الذي يتم تحليله) أي شيء

قبلاً. وعادة ما ينجم عن ذلك ارتباطات طوال الحياة، إذا لم تحدث تعلقات شخصية بالمحلل المعلم وتدريب ديني أو عقائدي. «فحتى أشد المحللين التعليميين احتراماً يتم الترحيب به كمحرر، ومع ذلك (بشكل شعوري إلى حد ما) يخشى جانبه كملقن بالقوة[1] potential Indoctrinator. ويتم قبوله ورفضه في الوقت نفسه كمثل أعلى للهوية: إذ أنه أينما حاول المرء، تسليط الضوء على اللاعقلانية اللامحدودة للإنسان بالاستدلال المنطقي، فإن كل الإدراكات تحتوي على جزء لاشعوري، لا يمكن فهمه إلا من خلال عملية نضج عمل الحياة» (1937، صفحة 800). ومما لاشك فيه فقد كانت العلاقة بين إيركسون وابنة فرويد مصبوغة بالاهتمام والانسجام. فقد كسب علمياً من آنا فرويد علم نفس الأنا والتربية التحليل النفسية والعلاج باللعب. إلا أن إيركسون لا يفصح عن مقدار الأهمية التي احتلتها عنده آنا فرويد في الوجوه المختلفة من العبور للتحليل التعليمي.

ومنذ ذلك الحين عمل إيركسون، الذي عانى حتى ذلك الوقت من اضطرابات العمل واحتاج مراراً إلى وقت من أجل الانسحاب، بشكل منظم ومكثف بشكل كما لم يفعله من قبل. ففي فترة ما قبل الظهر كان يمارس التدريس في المدرسة الخاصة، وبعد الظهر التحليل التعليمي وفي المساء سيمنارات حول تقنية ونظرية التحليل النفسي الأمر الذي جلب معه انتظام لم يعرفه مسبقاً في حياته، بحيث بدأت فينا تتحول إلى وطنه الثاني وجماعة التحليل النفسي إلى أسرته الثانية. ولكن كيف حصل أن تم القبول المدهش للفنان الشاب المنطوي في دائرة الفرويديين؟ خمن إيركسون لاحقاً أنه «كان نوعاً من الهوية الإيجابية لابن الزوجة، جعلتني أفترض وبما يشبه البديهية، بأني قد أُقبل هناك، حيث لا انتمي كلية. غير أنه كان علي للسبب نفسه أن أهذب أيضاً لا انتمائيتي وأن أحافظ على الاتصال بالفنان في داخلي؛ ومن هنا كان على هويتي كمحلل نفسي ألا تترسخ إلا بعد ذلك بكثير، عندما أصبحت بمساعدة زوجتي الأمريكية محللاً نفسياً كاتباً - وإن كان من ناحية أخرى بلغة، لم تكن لغتي» (1982، صفحة 28-29).

---

(1) معلم يعلم مبادئ المعرفة أو الملقن الذي يلقن أو يشرب فكرة ما وخصوصاً فكرة عقائدية.

مارس الجو خارج العلمي لحركة التحليل النفسي المبكرة على إيركسون إغراء خاصاً، فقد أتاح ذلك الولاء لفكرة جديدة، الحرية للتأمل الشخصي والارتجال وتقليل الانطوائية. وبالتحديد فإن ما لائم إيركسون هو حقيقة أن الأمر يتعلق بجمعية خاصة لم تمتلك أي ارتباط بمؤسسات أكاديمية رسمية مرفوضة من العلوم الراسخة. أضيف إلى ذلك الإعجاب بفرويد الذي تمرد بشجاعة ضد الغالبية المتماسكة لأطباء فينا وتابع بعزلة كاملة فكرة جديدة. ويتذكر إيركسون «هنا وجدت حلقة، أتاحت لي تأهيلاً كاد يقترب من تأهيل طبيب الأطفال، بمقدار ما هو ممكن من دون دراسة الطب. وما أعجبني في هذا الموقف بشكل خاص، أعتقد أنه كان التماهي القوي مع زوج أمي، طبيب الأطفال، ممزوجاً مع البحث عن أبي الخرافي الخاص» (1982، صفحة 28). وربما توائم إيركسون في كثير من الوجوه مع أولئك الممثلين الباكرين للتحليل النفسي، الذين سار مجرى حياتهم بشكل ارتجالي مشابه وقالت عنهم آنا فرويد مرة: «لقد كانوا غير التقليديين، الشكاكين، غير الراضين في مهنتهم، المتعطشين للمعرفة، لم يقدم لهم العلم الرسمي كفاية. كما كان من بينهم غريبي الأطوار والحالمين والحساسين، عانوا من الشقاء العصابي بأنفسهم. وما تركوه من نتاج يشهد على صلاحيتهم للعمل التحليلي. وعلى الرغم من ذلك فقلة منهم فقط كانت ستبحث اليوم عن القبول في معاهدنا التعليمية التحليلية وستجده» (1972، صفحة 21).

ولم يكن إيركسون في أيام فينا خالياً من الأزمات. فكلما تقدم في التحليل التعليمي أكثر، ظهر قلقه المتجذر بعمق من جديد بشكل أكبر، وتحدد أكثر وبدا يقيده في مجالات حريته الشخصية. ولم تريحه العلمية scientism[1]، التي لازمت تصورات فرويد البيولوجية

(1) العلمية الطريق الذي يسلكه العالم، وهي كذلك القول أن جميع طرائق العلوم الطبيعية ينبغي أن تصطنع اصطناعاً والعلمية (Scientism) بناء منظم من المعرفة يبدأ بالواقع وينتهي إلى تفسيره من خلال برنامج محدد يؤدي إلى الكشف عن الحقيقة، ووظيفة العلم هي إقامة وتكوين القوانين والنظريات العامة التي تحكم اكتشاف وسير الأحداث والظاهرات التي يبحثها، وتساعد هذه الخاصية في الربط بين اكتشافنا من الأحداث، والتوصل إلى توقعات (تنبؤ) هذه الأحداث التي لاتزال غير معروفة ومجهولة حتى يمكننا من ضبطها. والعلم هو «إدراك المعاني والعلاقات غير المعروفة بعد تنظيم الوقائع في نسق مجرد أو مجموعة قوانين تلخص العلاقات بين هذه

والميكانيكية الباكرة، وفي الواقع فإن إيركسون لم يرى في التحليل التعليمي بداية تأهيلاً مهنياً ثابتاً، بل كان بالنسبة له أقرب إلى حقل تجريب، مرحلة أخرى من تعليقه moratorium. فقد نوى أن يقوم بترحال طويل وقطع التأهيل والرحيل عن فينا. ومن المتوقع أن آنا فرويد قد رافقته في هذه المرحلة الحساسة بصبر ودعم. ويتذكر إيركسون خبرة أساسية فاصلة: «عندما واجهتها مرة أخرى بأني لا أرى في مثل هذا المشروع الفكري كالتحليل النفسي مجال عمل لميولي الفنية، قالت لي بصوت منخفض: (تستطيع أن تساعد الناس، أن يتعلموا النظر)» (1982، ص29).

هذا العرض البسيط أثر على إيركسون بما يشبه خبرة الوحي. ومنذ ذلك الحين لم يعد مهتماً، مثل غالبية أتباع فرويد، ببرهان علم اللاشعور على أساس علمي طبيعي. بل شعر أنه معني بالجوانب الفنية والفردية[1] Ideographical والأخلاقية الكامنة في التحليل النفسي، التي حاول فرويد قمعها تقريباً بسبب الدقة العلمية. فبدأ إيركسون بإدراك التحليل النفسي كطريقة فنية وعلمية في الوقت نفسه. وكانت سيمنارات الأحلام بشكل خاص هي المحدد الفاصل في قراره مواصلة التدريب. وكإنسان بصري وجمالي تمكن من الإحساس بكثافة كبيرة برواية حلم، لم يكن بالأصل نصاً لفظياً وإنما ظاهرة مجسمة. فكل تفسير للحلم يقوم على قوة التخيل البصرية والحدس الفني، ولهذا كان، كما استنتج إيركسون لاحقاً، «مجرد خطوة (و هذا ما كان بالفعل في حياتي) من الصور

الوقائع». ولما كانت (الحقيقة Truth) أو المعرفة العلمية تعد أرقى درجات المعرفة وأدقها، كان لازماً على تفسير أو الخروج بهذه الحقيقة على وفق التفكير المنظم، عقلياً وميدانياً، متسقاً بقواعد وأصول مُلزمة، ليتم منها التعميم والتنبؤ وبالتالي السيطرة. وهنا لابد من الإشارة إلى أن هناك تباينا بين المعرفة والعلم، وهما ليسا مترادفين، فالمعرفة «عبارة عن مجموعة من المعاني والمعتقدات والأحكام والمفاهيم والتصورات الفكرية التي تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكررة لفهم الظواهر والأشياء المحيطة به». والمعرفة أوسع حدوداً ومدلولاً وأكثر شمولاً وامتدادا من العلم، وهي في شمولها تتضمن معارف علمية وأخرى غير علمية ،وتستند التفرقة بين النمطين على أساس قواعد المنهج وأساليب التفكير التي تتبع لتحصيل المعارف، فحين يتبع الباحث قواعد أصول المنهج العلمي في التعرف والتفسير للظواهر والعلاقات والمشكلات فأنها عندئذ تغدو علمية.

(1) الطريقة الفردية Ideography: طريقة تركز على دراسة الحالة الفردية لإنسان ما، فهي تحلل عاداته وسلوكه وحالته الاجتماعية ...الخ.

على الجدران إلى صور حلم الليل» (1978، ص104). وبالطريقة نفسها أمكن في لعب الأطفال اكتشاف إبداعية لم تكن متيسرة لكل المساعي التصنيفية والاختزالية العلمية. فمحاولات إيركسون الأولى لفهم أحلام الراشدين، حصلت بالتزامن مع تأهيله في السيمينار العلاجي للأطفال لأنا فرويد. وبما يشبه ما يتيحه الحلم من معبر نحو ألغاز اللاشعور، تتجلى أيضاً في عالم خواطر اللعب رسائل مشفرة للروح الطفولية، أكثر أصالة ومباشرية من كل تواصل لفظي. وقد أصبح ملاحظة وتفسير اللعب الطفولي بعد الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية المحور الرئيسي لعيادته العلاجية النفسية.

وإلى جانب التأهيل في تحليل الأطفال أجرى إيركسون كذلك أول تحليل مضبوط لراشد مُجرى من خلال معلم تحليلي وتدرب كذلك في معهد فينا بشكل معمق على المنظومة النظرية للتحليل النفسي. وكان معلميه أولئك الذين أصبحوا لاحقاً شخصيات مشهورة عالمية مثل هاينز هارتمان Heinz Hartmann أو باول فيدرن Paul Federn أو إيرنست كريس Ernst Kris أو هيلينا دويتش Helene Deutsch أو أوغسط آيشهورن August Eichhorn أو إدوارد بيبرنغ Edward Bibring وعادة ما كانت السيمنارات في المساء. وكانت مجموعة المشاركين من الأطباء والمعلمين والمربين والأدباء صغيرة على الأغلب بحيث تمكنوا من اللقاء بشكل مريح في بيت المحاضر. وقد وصف إيركسون هذه الحلقة على أنها نوع من «الجامعة الحرة» وشعر في هذه الجماعة البحثية بوجود درجة عالية من الولاء والاحترام المتبادل: «من ناحية أخرى لا يمكن إلا لذلك الذي اشترك في مجموعة مستقلة شبيهة – من الناس، الذين، كما اعتقدوا، بخدمة فكرة مثيرة بصدق وقدموا تضحيات بالدخل والمركز المهني والأمن الروحي- أن يكون صورة عن ذلك الجو المتواضع، الذي لم يكن فيه أي تفصيل إكلينيكي مهما كان ضئيلاً جداً ولا أي فهم نظري مهما كان عالياً جداً، لا يستحق العرض والمناقشة الجذرية» (1982، صفحة 32-33).

وللمرة الأولى يبين فرويد بشكل علمي سلطة الدوافع الجنسية وصولاً إلى أرق خلجات الحياة الروحية، ويتذكر إيركسون كيف دار الحوار في سيمنارات الحالات حول برهان تأثيرات الحب (الإيروس) في كل أنماط السلوك أو المشاعر أو أعراض

المرض الممكنة. ومن ناحية أخرى فقد أعطى فرويد التحليل النفسي في عشرينيات القرن العشرين هذه تغييراً حاسماً في الاتجاه، فقد اتجه من الأعماق المتجهمة للروح نحو الأنا، تلك الهيئة الموجِّهة والضابطة للشخصية، التي تحاول ترويض جيشانات اللاشعور. وقد قاد نقاش ذلك الوقت لدى المنظرين العظام آنا فرويد وهاينز هارتمان Hacinz Hartmann إلى السؤال كيف يبحث الأنا عن إثبات نفسه أيضاً في عالم القوى الاجتماعية والمؤسسات الخارجية، الخطوات الأولى لبناء علم نفس اجتماعي تحليلي نفسي منهجي، بالشكل الذي أصبح فيه مرشداً لتفكير إيركسون. وفي عام 1930 نشر إيركسون أول مقالاته العلمية حول تأثير التحليل النفسي على التربية المدرسية. وإلى جانب هذا درس لدى إحدى مجموعات مونتسوري في فينا واجتاز هنا امتحان دبلوم مونتسوري. وكثير من مشاريع بحثه اللاحقة، من نحو اهتمامه بالكيفية التي يرتب فيها الأطفال ألعابهم داخل إطار معطى، كانت واقعة تحت تأثير هذا التأهيل.

وبعد أن أنهى إيركسون تحليله التعليمي وبدأ مستقبله المهني كمحلل نفسي يتخذ أشكالاً واضحة، كان زواجه من جوان سيرسون Joan Serson ذات الأصل الكندي خطوة أخرى في إيجاد هويته الشخصية. كانت جوان ابنة قسيس أنجليكاني، تعد سيدة جذابة جداً ومثقفة وسميت في فينا ذلك الوقت «الجميلة». وكانت قد درست في الولايات المتحدة التربية وعلم الاجتماع وتقيم في أوروبا، من أجل الحصول على مراجع لأطروحتها حول تاريخ الرقص الحديث. فتعرف عليها إيركسون في حفلة تنكرية في العالم 1929 وما هي إلا بضعة أشهر حتى كان الاثنان متزوجان، وسكنا منزلاً صغيراً في لاينز Lainz، ضاحية من ضواحي فينا. كما بدأت جوان بالتدريس في المدرسة الخاصة وأجرت تحليلاً نفسياً لدى لودفيج جيكيلس Ludwig Jekels. وبين عامي 1930 و 1932 ولد أول طفلين لإيركسون كاي Kai وجون John. وخلال كل السنوات التالية ظلت جوان الجديرة كذلك بالحب والحيوية أحياناً الإكمال المتمم لشخصية إيركسون، وشكلت، كما عبر مرة مساعده هوفمان «الجدار الناعم بينه وبين العالم a soft wall between him and the world» (1970، صفحة 86). وخلال سيرة حياته العلمية كلها كانت جوان بالنسبة لإيركسون

دائماً نوع من أرضية الإرجاع Resonance ground الخلاقة. فكل المحاضرات والمنشورات كانت تراجعها له زوجته ويستشيرها نقدياً.

في عام 1933 أنهى إيركسون تأهيله التحليلي التعليمي. وبعد أن اجتاز الامتحان النهائي، لم يمنحه باول فيدرن Paul Federn، رئيس لجنة الامتحان الفيناوي في ذلك الوقت، عضوية الشرف في رابطة التحليل النفسي العالمية فحسب وإنما منحه العضوية النظامية. لقد كان عصر الاضطراب السياسي. إذ هزت الأزمة الاقتصادية أوروبا، وازدادت الحركات الجماهيرية الفاشية والشعارات الاستبدادية، المتناقضة بعمق مع الفكر الإنساني التنويري للتحليل النفسي. وبدأ عصر هجرة المحللين النفسيين اليهود من أوروبا المتنامية العدائية. فأعطت جوان أولئك الذين أرادوا ترك فينا دروساً باللغة الإنجليزية. وكان على المدرسة أن تغلق أبوابها. ودفع الوضع السياسي القلق إيركسون للتفكير بالانتقال وخصوصاً أن جمود محافظ قد بدأ يفرض نفسه في ذلك الوقت في معهد فينا، لم يرتح له، وبشكل خاص التجريد المطرد القوة لتلك الاتجاهات الفكرية، التي نادى بها «المنشقون» آدلر Adler ورانك Rank ويونغ Jung. وهكذا انتقل إيركسون مع أسرته من فينا إلى كوبنهاغن. وقد تمت تسميته مدير التأهيل في الدنمرك. وبما أن إيركسون قد تجنس مرة في ألمانيا، فلم يتمكن من استعادة الجنسية الدنمركية. ومنذ ذلك الحين فشلت مساعيه بافتتاح معهد للتدريب على التحليل النفسي في كوبنهاغن. وحتى محاولة وساطة المحللة النفسية ماري بونابرت Mari Bonaparte، ابنة ملك رومانيا وعضو البيت الملكي الدنمركي باءت بالفشل. وعاد إيركسون ثانية لا يعرف، لبعض الوقت، إلى أين ينتمي. وفي النهاية وصلته دعوة من أم جوان لزيارة أمريكا، إلا أنه يعتقد أنه كان قد قرر في هذا الوقت الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

1.3 التأثر العلمي الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية

وصلت أسرة إيركسون إلى بوسطن بعد رحلة بحرية استغرقت عدة أسابيع وعدت بداية أسرة «مهاجرة». فقد أصبحت المصطلحات اللطيفة «مستوطنين» أو

«رواد» من التاريخ، وسرعان ما سيتم اعتبار الجدد من أوروبا «لاجئين». وإيركسون الذي وصف لاحقاً أزمات الهوية للملاحقين والذين لا موطن لهم، قلما عبر عن أحاسيسه عندما أدار ظهره لأوروبا. ونحن لا نعرف ما الذي أحدثه النزوح فيه وماهية الجراح التي خلفتها النازية في شخصيته. فزوجته عادت إلى وطنها، أما هو فكان عليه أن يجد طريقة في بلد غريب بمعارف محدودة في اللغة. إلا أنه تم تسهيل انتقال إيركسون إلى أمريكا. فقد استقبلته حلقة المحللين النفسيين البوسطنيين الصغيرة بود وساعدته في بناء عيادته التحليلية النفسية في شارع مارلبورو Marlborough Street . فقبل سنة من هذا كان قد تم تأسيس الجمعية الأمريكية للتحليل النفسي، وبما أن إيركسون كان عضو الاتحاد العالمي، فقد تم قبوله كواحد من أواخر غير الأطباء في الجمعية الأمريكية. وبصورة مختلفة عن أوربا فقد احتفل التحليل النفسي في أميركا بالانتصارات. فالجامعات استقبلت المحللين النفسيين من أوروبا بذراعين مفتوحتين. وعُد إيركسون واحداً من أوائل المحللين النفسيين للأطفال في الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الرغم من أنه لم يكن طبيباً مرخصاً ولم يكن يحمل أية درجة أكاديمية على الإطلاق، فقد قبلته الكلية الطبية لجامعة هارفارد عضواً فيها. كما عمل إيركسون في مدرسة هارفارد الطبية Harvard Medical School ومستشفى ماساشوسس العام Massachusetts General Hospital، أشهر مستشفى في بوسطن في ذلك الوقت وعمل مرشداً في مركز جدج بيكر للتوجيه Judge Baker Guidance Center، إحدى العيادات لمعالجة الأمراض المزاجية لدى الأطفال.

كان إيركسون يعمل في بوسطن في محيط طبي على الأغلب، وهو ما وجب عليه في عمله العيادي اللاحق عموماً مراعاة التحفظات الطبية والقانونية للعلاج النفسي الأمريكي. فقد استنتج لاحقاً: «إلا أني لا أستطيع الادعاء بأن عملي قد تأثر يوماً ما بحقيقة كوني لست طبيباً» (1982، صفحة 41). إلا أنه صرح أحياناً مشككاً حول استحواذ الطب والطب النفسي على التحليل النفسي، الذي كان في البداية منفتحاً على المحفزات الفكرية لكثير من اتجاهات البحث. فإلى جانب آنا وفرويد أو أوتو رانك أو

إيريك فروم أو ميلاني كلاين أو أوغسط آيشهورن كان إيركسون واحد من الأمثلة العظيمة حول مدى الدفق المثمر الذي أعطاه المحللون غير الأطباء بالذات لتطوير النظرية والممارسة للتحليل النفسي.

وفي هارفارد تم في وجوه عدة تحديد الاتجاهات للخط العلمي اللاحق لإيركسون. فنتيجة لدعوة من عالم النفس المشهور موري H. A. Murray انضم إيركسون إلى هيئة عيادة هارفارد النفسية. فقد كان الربط بين الطرق الإحصائية لعلم النفس التجريبي مع المبادئ الافتراضية لعلم نفس الأعماق من أكبر اهتمامات موري. وعمل دراسات منهجية لمجرى الحياة وطور نموذجاً مشهوراً جداً لبناء الشخصية الإنسانية. وكان موري بشكل خاص هو من أرشد إيركسون إلى المبادئ الأساسية لعلم نفس الشخصية وعلم نفس النمو ومن علمه تقاليد علم النفس الأمريكي، وبشكل خاص أسس تفكير وليم جيمس. ولبضعة أشهر جرب إيركسون كتابة أطروحة دكتوراه في علم النفس، إلا أنه ظل غير قادر على التآلف مع الشروط الرسمية لدراسة الدكتوراه وتراجع عن هدفه بعد وقت قصير. وفي هارفارد أقام إيركسون علاقات مهمة أخرى مع ممثلي العلوم الأخرى، الأنثروبولوجية مارغريت ميد Margarat Mead، وغريغوري باطيسون Gregory Bateson وروث بينيدكت Ruth Benedict ومارتين لوب Martin Loeb وسكودر ميكيل Scoder Mekeel والتربويين لورنس فرانك Lawrence K. Frank وكورت ليفن Kurt Lewin وهو أحد رواد الفكر العلم نفس اجتماعي الحديث. بالإضافة إلى أنه كانت لإيركسون علاقة غير ثابتة بمجموعة هاينز هارتمان Heinz Hartmann وإيرنست كريس Ernst Kris ورودولف لوفينشتاين Rudolph Loewenstein النيويوركية لعلم نفس الأنا.

وقد أثر الجو المتسامح للنظام الجامعي الأمريكي على تفكير إيركسون بشدة. فالعلوم منفردة لم تكن تميل للتقوقع مثلما هو الحال في أوروبا، وإنما كانت تتبادل المعلومات مع بعضها بانتظام. وقد اشترك إيركسون في هارفارد بتلك المؤتمرات البين تخصصية، التي كان يعرض فيها ممثل الاختصاص في كل مرة مجالاً محدداً لمجال تخصصه وفي النهاية تتم مناقشة هذا الموضوع بين التخصصات بدون تحيز. ومضطراً إلى تدقيق

أفكاره بلغة أجنبية، امتلك إيركسون إحساساً بكم هو جوهري إلقاء الضوء على مشكلة علمية من مناظير كثيرة مختلفة. وطوال مساره كله تكررت مشاركات أو عضوية إيركسون في حلقات النقاش والمؤتمرات تلك. وقد كان يسعى بشكل منهجي للاتصال بأصحاب الفكر الآخر، فقد أحب جو التبادل المفتوح للأفكار على الجانب الآخر للدوائر العلمية الضيقة بشكل مبالغ به. وفي العقود التالية دقق إيركسون أفكاره في معظمها في رحلات علمية وسيمنارات، حيث عرض كمحاضر ومستمع يقظ في الوقت نفسه رؤاه على جمهور متخصص وتمكن من الحصول في نقاشات بين تخصصية على النقد ومحفزات تفكير جديدة. فجزء كبير من منشورات إيركسون قام على أساس المحاضرات العلنية التي نقحها لاحقاً ووسعها إلى مقالات ودراسات.

في عام 1936 انتقل إيركسون إلى نيوهافن New Haven إلى معهد العلاقات الإنسانية لجامعة ييل Institute of Human Relation of Yale University بإدارة جون دولارد John Dolard. وقد وقع في البداية عقد تدريس كمحاضر، إلا أنه سرعان ما تمت تسميته أستاذاً مشاركاً في مدرسة ييل الطبية. وفي هذا المحيط أيضاً توفرت لإيركسون حرية الاتصال بمشاريع البحث المختلفة وحصل تبادل وثيق للأفكار مع الأطباء وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيين. ودرس من بين أمور أخرى في سلسلة تجارب علمية على الطلاب تأثير الصراعات اللاشعورية والخبرات الصادمة في تركيبات اللعب. وقد شكل هذا أساس تجارب متنوعة لاحقة مع لعب الأطفال.

وهنا ظهرت معالم اهتمام إيركسون، بالتقريب أكثر بين علم النفس الأوروبي وعلم النفس الأمريكي. فقد وصف فرويد في إطار علم النفس التأملي العلمي الطبيعي الشخصية الإنسانية بيولوجياً وميكانيكياً بأنها «الجهاز النفسي»، الذي يتم فيه، وبشكل معزول عن العالم الخارجي إلى حد ما، تحويل الدوافع أو إزاحتها أو كبتها أو تصريفها. أما في عالم إحساس الأمريكيين بالمقابل فيحتل التجذر الاجتماعي للإنسان والاعتقاد بقابلية مطاوعته الاجتماعية الأهمية نفسها من القوة. ومن هنا كان لعلم النفس الأمريكي منذ البداية توجهاً علم نفس اجتماعي كبيراً ولجأ للحوار مع علم الاجتماع

والتربية والأنثروبولوجيا الثقافية. وقد أثر هذا في تفكير إيركسون وشكل حجر الأساس لبرنامجه العلمي المتبلور بالتدريج، بربط التحليل النفسي وعلم الاجتماع مع بعضهما إلى أقصى حد ممكن. وفي عام 1938 قام بتشجيع من الأنثروبولوجي سكودر ميكيل Scudder Mekeel رحلة بحثه الأنثروبولوجية الثقافية الأولى إلى محمية هنود السيوكس Sioux في جنوب داكوتا. وفي أثناء إقامته التي استمرت لعدة أشهر استطاع إيركسون إقامة علاقات صداقة مع الهنود السوداويين، ومشاركتهم عاداتهم الحياتية ومعرفة المهم حول أساليب تربيتهم الباكرة. وشعر هنا بالتعاطف العميق للمأساة الكبيرة لبقية القبيلة المهزومة والمهانة، التي كانت محرومة من أي أساس لمشاعر الهوية السليم بنتيجة السياسة الحكومية الخطأ. وقد أدرك إيركسون بوضوح أنه لا يمكن نقل معارف التحليل النفسي بسهولة على العوالم خارج الأوروبية. وهنا ظهرت بداية جهوده لفهم أطوار الجنسية الطفولية الموصوفة من فرويد في نظرية الليبدو كجزء من التطور الاجتماعي النفسي، من نمو الطفل في محيط تاريخي وثقافي مختلف كلية.

كانت فترة هارفارد ويل بداية سيرة أكاديمية طويلة في الولايات المتحدة الأمريكية، محملة بالتقدير والأوسمة. ومع ذلك فقد اعتبر إيركسون نفسه دائماً عيادياً واستهلك وقتا طويلاً من عمله في العلاج النفسي. ففي عيادته الخاصة عالج الأطفال من أسر بوسطنية غنية، واهتم بالإضافة إلى ذلك، كما فعل زوج أمه في الماضي، بالأطفال واليافعين من الأسر المشكلة في البؤر الاجتماعية الحرجة. وقد اتضح لإيريكسون، وبالتحديد في العمل مع ضحايا المحرومين والجنوح والعنصرية، مدى أهمية أخذ الوضع الاجتماعي والاقتصادي العام للمريض في الاعتبارات العيادية. فالفقر أو الظروف الأسرية المضعضعة أو البطالة عن العمل هي مصادر المشكلات الاجتماعية النفسية والمخاوف التي تحطم التوازن الروحي بالدرجة نفسها التي تفعله بها الصراعات الطفولية المكبوتة. ويحذر إيركسون في بعض المواضع من عمله من مصير المعزولين والمهمشين من المجتمع الأمريكي، الذين سرعان ما يبتعدون عن مجال رؤية الجمهور وكذلك عن العلاج النفسي الممتهن طبياً.

وفي هذه الأحيان اندمجت أسرة إيركسون في الوطن الجديد. فقد تكلم ولداه الإنجليزية بطلاقة والتحق الابن الأكبر كاي بالمدرسة. وفي عام 1938 ولدت ابنته سوي Sue. وكانت الطفل الأول الذي تمكن من البقاء مع أمه بعد الولادة في غرفة الأم، وهو تنظيم سيتحول بعد عقود، بتأثير من المحللات النفسيات، إلى عادة بديهية.

1.4 سنوات إيركسون في كاليفورنيا

على عكس غالبية المحللين النفسيين من أوروبا، الذين هاجرو إلى الساحل الشرقي وأسسوا هناك مدارس تحليلية نفسية حولهم، انتقل إيركسون إلى كاليفورنيا، حيث ظل هناك عشر سنوات. وهنا نشهد من وجهة النظر العلمية أكثر السنوات إبداعية في حياته، خرج فيها من تحت ظل فرويد وصاغ رؤيته المستقلة في التحليل النفسي. افتتح إيركسون في سان فرانسيسكو عيادة تحليل نفسي للأطفال وعمل في معهد المدينة للتحليل النفسي وسرعان ما خُصص للمحللين التعليميين. كما كان مطلوباً في مدينته الجديدة كمرشد في المستشفيات والمؤسسات البحثية وكان على تبادل محفز للأفكار مع العلماء من تخصصات مختلفة. وتعاون كذلك مع معهد النمو الإنساني Institute of Human Development لجامعة كاليفورنيا وشارك في دراسة طولية نمائية نفسية كبيرة بقيادة جين ماكفارلين Jean MacFarlane. وبتحفيز من الأنثروبولوجي ألفريد كروبر Alfred Krober قام إيركسون برحلة ميدانية قصيرة ثانية إلى اليوروكس Yuroks، وهي قبيلة هندية على شاطئ الباتسيفيك. ومثلما هو الحال لدى هنود السيوكس اتضح له أن طرق التربية والعادات والطقوس الدينية للشعوب البدائية هي جزء من برنامج حياة «منطقي» بذاته، مثَّل بالأصل تلاؤماً أمثلاً، شبه غريزي مع جزء محدد من الطبيعة. فالبدائية Primitivity هي حالة من التنظيم الاجتماعي. ولا يصح في عادات الشعوب البدائية استخلاص مقاربات للأعراض العصابية عند المرضى الغربيين.

وبين عامي 1940-1950 صدرت كمية كبيرة من المقالات صاغ فيها إيركسون معارف جديدة في علم نفس الأنا وعلم النفس الاجتماعي والنمائية النفسية وفي نظرية

اللعب، التي أصبحت أساس أهم مؤلفاته «الطفولة والمجتمع». وقد شكلت «مشكلات الطفولة والطفولة المبكرة Problems of Infancy and Early Childhood» 1940 و «نمو الأنا والتحولات التاريخية Ego Development and Historical Change» 1946 و «النمو وأزمات "الشخصية السليمة "Growth and Crises of the "Healthy Personality"» 1950، المقالات الجوهرية من الناحية النظرية.

وعلى الرغم من أن إيركسون قد حصل على الجنسية الأمريكية، إلا أنه كان متأثراً بعمق بالتطور الوخيم لوطنه الأصلي في أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد استمع على الموجة القصيرة لهتلر وهو يخطب وإلى الدعاية الاشتراكية القومية. وفي عام 1942 صدرت مقالات «ملاحظات حول خطاب هتلر في 30 سبتمبر (أيلول) 1942» و «صورة هتلر والشباب الألماني Hitler's Imagery and German Youth». وبعد أن دخلت أمريكا في الحرب، أجرى إيركسون سلسلة من الدراسات في المجال العسكري. فقد تشاور مع أعضاء الحكومة وسعى لإعطائهم صورة ملائمة عن ألمانيا، حتى أنه ذهب إلى إحدى الغواصات وشهد رحلة غوص. وبعد الحرب زار إيركسون بتكليف من لجان حكومية مختلفة معسكرات الاعتقال، واستقصى أسرى الحرب الألمان والتزم بشكل خاص بالإشراف العلاجي على الجنود المحاربين.

أثرت معسكرات الاعتقال والقنبلة الذرية الأولى على إيركسون. فتقنيات الإبادة الجماعية المستخدمة ببرودة جعلت السيناريوهات الجهنمية تصبح حقيقة. فما الذي يمكن للتحليل النفسي فعله بالنظر للضحايا والحرب والملاحقة والتهجير، من أجل المساعدة على منع مثل هذه الكوارث في المستقبل؟ فالمجتمع، يستنتج إيركسون، ليس مجرد «عالم خارجي» أو «محيط»، ليست الدراسة التحليلية النفسية غير ذات أهمية بالنسبة له. والمحللون النفسيون لا يمكنهم الاستمرار أطول، في الولوج في العالم الداخلي للأحلام أو الهوامات وذكريات الطفولة، وفي الوقت نفسه لا يلقون بالاً للتأثيرات الاجتماعية الراهنة والصراعات السياسية على الوضع النفسي للمريض. وكذلك لا يمكن أن يقتصر الأمر في العلاج النفسي على المعالجة الخالصة للطفولة.

وبالنظر لمخطط الحياة المهشم لكثير من العائدين من الحرب أو مخاوف الملاحقة الصادمة للهاربين اليهود يحتاج إلى الاهتمام المباشر وتقوية الأنا والدعم الملموس في محاولة الانضمام لمستقبل أفضل.

ولكن كيف كان من ناحية أخرى ممكناً، أن الجنود لم يفقدوا توازنهم النفسي حتى في مواقف الخطر الكابوسية، وأن ضحايا التعذيب والتهجير قد حافظو على بقية من أمل وإرادة توكيد الذات؟ فالأنا تلك الهيئة المُنَظِّمة والمُلائِمة في الحياة النفسية، لا يمكن على ما يبدو أن يكون عضواً مغلوباً على أمره بهذا الشكل، مُستَعَّبداً من «أسياد القهر» الهو والأنا الأعلى والواقع، كما وصفه فرويد إلى حد ما. لقد اقترب علم نفس الأنا إلى مركز اهتمام إيركسون البحثي. فقد اعتبر من جهة، مثل فرويد وهارتمان، الأنا هيئة لاشعورية، مفهوم نموذج لكل العمليات العصبية-النفسية المعقدة جداً، التي توجه الإدراكات والتعلم والتفكير والقرار وشبه المتحكمة بشكل خاص بالخبرات والتصرفات الشعورية. ويؤكد إيركسون بشكل أكبر من فرويد على قوة الأنا، ينسق ليل نهار بين التناقضات والصراعات لحياتنا الروحية، ويسعى لتهديم المخاوف والخيبات ويحافظ بهذا على صحة الروح وكفاءتها الإنجازية. غير أن إيركسون، الفردي الكبير، يؤكد على أن «الأنا»[1] يعني «الأنا» بمعنى الضمير الشخصي. فالإنسان ليس مجرد آلة مدفوعة بالقوى اللاشعورية. ومن دون وضع وجهات النظر الفرويدية حول عيوب والخداعات الذاتية للأنا جانباً مرة أخرى، فإن اهتمام إيركسون تقوية مساحة القرار والقدرة على التفكير والشجاعة المدنية للأنا الشعوري ضد الانفعالات العمياء للجمع وأحكامه المسبقة وتخويفاته.

ومنذ منتصف أربعينيات القرن العشرين ازداد اهتمام إيركسون بشكل خاص بثبات واستمرارية خبرة الأنا في الأطوار المختلفة وأزمات دورة الحياة. وكان الحافز لهذه الأفكار، كما هو الحال في التحليل النفسي دائماً، الاهتمام العيادي، علاج المحاربين

(1) الأنا (بمعنى الاسم).

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بوقت قصير. فقد انهار كثير من الجنود في أثناء العمليات القتالية بأعراض من النوع الصدمي وأصيبوا لفترة زمنية طويلة بحالات شبيهة بالذهان. في حين أن آخرين لم يتمكنوا في حياتهم المدنية بعد الحرب من الوقوف على قدميهم، وتاهوا نتيجة للتوقعات الخائبة وفرص الحياة الضائعة في وضعية من اللامبالاة الشالَّة. وقد تكررت لدى هؤلاء الرجال ملاحظة أعراض الضياع والحيرة وفقدان عام للمبادرة. ولم تتمكن التفسيرات التقليدية القائلة أن الأمر يتعلق هنا بتأثيرات لاحقة للخبرات الصادمة للحرب أو عن ضعف بنيوي في الأعصاب أو بمجرد تمارض، من إقناع إيركسون. بل أن المحاربين عانوا من تضرر السيطرة المركزية للأنا حول نفسه، الأمر الذي أصبح من خلاله عالم الخبرة المنتظمة والقدرة على التصرف الهادف مهدداً بالضياع. «إن أغلب ما أثار انطباعي لدى هؤلاء الرجال» يقول إيركسون، «كان فقدان الشعور الداخلي بالهوية. لقد عرفوا من كانوا؛ كانوا يمتلكون هوية شخصية. إلا أنه كان، وكأن حياتهم لم تعد متسقة شخصياً – ولن يمكنها أن تتسق ثانية أبداً. فالأمر يتعلق باضطراب مركزي، بدأت في ذلك الوقت بتسميته هوية الأنا (Ego-Identity)» (1982، صفحة 36).

فإذا كان إيركسون قد استخدم في البداية مفاهيم «الهوية» و «أزمة الهوية» بشكل مؤقت فقط، فإنه استخدمه فيما يلي من الوقت باطراد في مسائل عيادية أخرى. فالسلوك المضاد للمجتمع للشبان المهملين أو المجرمين المتصلبين يعكس شعور قاصر «بالهوية الاجتماعية». وكذلك يمكن عزو كثير من اللامبالاة المأساوية للأقليات العرقية في الولايات المتحدة الأمريكية إلى انهيار «هويتهم- الجمعية». ولاحقاً درس إيركسون اضطرابات النمو شبه الحدودية للمرضى الشبان وتحدث عن حالة من «تشتت الهوية»، ليطلق بعدئذ عموماً على سن الشباب بأنه زمن «أزمة الهوية المعيارية». ومنذ ذلك الحين تواصل في منشوراته الاهتمام بهوية الأنا وبنائها وتطورها طوال الحياة، المتأزم في الغالب. وعلى الرغم من أنه لم يكن مؤسس علم نفس الهوية، إلا أن «الهوية» و «أزمة الهوية» قد تحولت منذ أواسط الستينيات من القرن العشرين من خلال كتاباته

في المقام الأول إلى شعارات رائجة. فكان الحديث عن «أزمة هوية» الأحزاب السياسية، أو المؤسسات الاقتصادية أو المجتمعات الدينية: (فشلت الزيجات لأن الشريكين كانا عقبة في طريق «إيجاد هويتهما الشخصية»). و (بحثت عن «هوية أنثوية جديدة»)، وهو ما أفضى أحياناً إلى الظلم بالنسبة «للهوية الذكورية». والمختبرات الدينامية الجمعية أحدثت من خلال مشاركين متطوعين «أزمة هوية»، وأثار النداء لتوسيع الوعي و «لهوية جديدة» تمرد الطلاب والتجارب التربوية لستينيات القرن العشرين.

إلا أن الاستخدام غير الدقيق لمفهومه أزعج إيركسون. فقد سعى دائماً لوصف الهوية من مظاهر مختلفة بوصفها عملية اجتماعية نفسية شديدة التعقيد. فالإحساس، بكون المرء مخلوقاً مترابطاً وثابتاً، وأنه يمتلك مجموعة من سمات الشخصية الواضحة ومع ذلك فهو متجذر برسوخ في أدواره الذاتية وتصوراته القيمية في الجماعة، يتألف عند التحليل الدقيق من كثير من المظاهر. وقبل كل شيء لا يتعلق الأمر كثيراً بصورة للذات جامدة «مكبوتة»، بل الأقرب بشعور سيال، يرافق بالطبع كل تفكيرنا وأفعالنا، ولكنه غالباً ما يظل لا شعورياً أو يتجلى في الأمزجة أو الحوارات الذاتية المبهمة ولا يصبح شعورياً إلا في المواقف الاستثنائية. إن ذلك الذي نعتقده حول أنفسنا، كيف نخبر العالم، يتشكل من جهته في الثقافة والتاريخ، مرتبط بشكل لا ينفصل بمصير هويات الجماعة. ويمنح الشعور بالهوية الفرد الإحساس بكونه مخلوق مستمر في نهر الزمن. ومع ذلك عليه أن يستمر (أي الشعور بالهوية) دائماً بالتطور في انكسارات الحياة وأزماتها وأن يُدافع عنه ضد الصراعات اللاشعورية والتهديدات الخارجية. وفي مواقف الإرهاق الشديدة وفي كل التحولات غير المتوقعة كلية يمر الفرد بأزمات هوية، يمكنها أن تتفاقم في الحالة المتطرفة إلى حالات تشتت الهوية.

وهناك اهتمام آخر لعمل إيركسون تبلور كذلك في سنوات كاليفورنيا بشكل مطرد الوضوح: ألا وهو بناء علم نفس اجتماعي تحليلي نفسي. فطروحات الأعمال المتأخرة لفرويد المتشائمة حول الثقافة قادت في التفكير التحليلي النفسي إلى رؤية تأثيرات العمليات الاجتماعية بأنها أقرب إلى التأثيرات الكابتة، المسببة للمرض، وإلى

القليل من مراعاة ما يمكن للمجتمع أن يمنحه للطفل، وما قد يمكّن الطفل منه. ولكن بالنسبة لإيركسون لا يمكن أن يكون أن الإنسان مخلوق أناني وهدام بالطبيعة، والمجتمع بالأصل هو جهاز كبت مكفهر أو التربية هي حادث سادي لتخويف الطفل من خلال الوالدين الضعيفين. فبالأصل، وإن كان بشكل غير محدد ومضمر، يفترض أن تتهيأ في الطبيعة الوراثية الإنسانية الاستعداد «للتنظيم المتبادل»، لعلاقة بناءة من حيث المبدأ بين الوالدين والطفل، بين الفرد والمجتمع، وإلا ربما لن يكون الوجود الإنساني ممكناً. والفكرة الجوهرية لإيركسون هي أن أنا الإنسان والمؤسسات الاجتماعية قد تطورا معاً في سبيل البقاء، لاستبدال السلوك الاجتماعي الغريزي لأنواع الحيوانات العليا. ومنذ الولادة يتشابك نمو الشخصية مع المؤسسات – القوى المساعدة والداعمة بالأصل-. وتتوقف الحياة الإنسانية على المدى الذي يتحقق فيه تعاون مشحون بالثقة وتفهم متبادل في العلاقات الشخصية والعامة، ومن يتم من خلال ذلك إيقاظ الفضائل مُنَشِّطة كالأمل والحب والولاء والاهتمام. بيد أن هذا الميل نحو التبادلية هو غامض كلية، سريع الانعطاب إلى حد ما. ولا توجد في أي مكان تربية بلا مشكلات ولا مجتمع خال من الصراعات. وقد يتطور الإنسان إلى مخلوق مضاد للمجتمع، والمؤسسات قد تتصلب إلى قوى فاسدة معادية للحياة. وبين كثير من الضلالات والنكسات يدور الناس حول تكييف سلوكهم مع بعضهم بطريقة بناءة بدءاً من العلاقات الشخصية وانتهاء بجهود التنظيم السياسية، وهو ما يمكن أن يترافق مع صراعات ومآس، لا يوجد مثيل لها في عالم الحيوان.

وبهذه الأفكار تجاوز إيركسون نقطة انطلاقه، التحليل النفسي لعشرينيات القرن العشرين. وما عليه الآن إلا التنظيم المنهجي لتصوراته الجديدة وعرضها على الجمهور العريض. وفي أكتوبر (تشرين الأول) من عام 1950 أصدر إيركسون «الطفولة والمجتمع». وقد حقق هذا العمل الضخم والمتنوع والمثير نجاحاً منقطع النظير في الولايات المتحدة الأمريكية وشيئاً فشيئاً تمت ترجمته في السنوات التالية إلى اثنتي عشرة لغة. وقد شكك كولز Coles، «بأن يكون أي كتاب آخر لأحد تلامذة فرويد قد لاقى انتشاراً واسعاً في

العالم» (1974، صفحة 136)، وحتى اليوم قلما يوجد إنسان لم يسمع في تأهيله لعلم النفس أو العلاج النفسي أو الخدمة الاجتماعية بكتاب «الطفولة والمجتمع».

ويوضح إيركسون في الجزء الأول من عمله الأساسي من خلال عدة قصص مرضية طريقة عمل العيادي ذو التوجه التحليلي النفسي. فحتى عندما يعبر العصاب عن نفسه على شكل أعراض معزولة ظاهرياً أو شكاوى جسدية أو نوبات قلق غير مفسرة أو مشكلات جنسية مزمنة، فإن الأمر يتعلق أساساً باضطراب للإنسان ككل. ويتطلب التفسير للمريض المعنى الكامن للأعراض العصابية الغامضة وكشف العلاقة بين الجسد والروح والمحيط الاجتماعي، بين الصراعات الراهنة والماضية، درجة عالية من القدرة على التعاطف والحدس. ويظل عمل التفسير التأويلي[1] hermeneutic للمحلل النفسي دائماً جزءاً من سلوك فني ولا يمكن مقارنته مع الطرق العلمية الطبيعية للطب الأدواتي الحديث.

كما قدم إيركسون رؤيته الجديدة لمذهب التحليل النفسي فيما يتعلق بالجنسية الطفلية. وهو لا يتحدث عن المناطق الشهوية، الفم والشرج والأعضاء الجنسية فحسب، التي تتركز عليها الرغبة الجنسية الطفولية بشكل خاص، وإنما تحدث للمرة الأولى عن «الطرق Modi»، أي النشاطات النمطية للعضوية من أجل الوصول إلى هدف إشباع الدافع (من نحو «التهام» الفم أو «إيلاج» القضيب phallus). ويتم إشباع رغبات

(1) التأويلية (hermeneutic) فرع معرفي من العلوم الإنسانية يقوم على محاولة فهم وتأويل النصوص الدينية والقانونية والأدبية. ثم توسع ليشمل قراءة كل الرموز والأفعال وتأويلها. وقد كانت النصوص اللاهوتية هي الشكل الأول للتأويلية، حيث جعلت موضوعها الأساس تأويل النصوص المقدسة بمراتبها المختلفة لفهم معانيها الواضحة وتأويل مقاصدها الدلالية والمضمرة. وتمثل التأويلية التشريعية (أو القانونية) الصنف الثاني الذي يقوم على محاولة فهم النصوص القانونية وتفسيرها وتحديد تخوم معانيها انطلاقاً من بنيتها اللغوية ومن مقاصد المشرع. أما الصنف الثالث فهو التأويلية الأدبية بعامة للنصوص النثرية والشعرية وغيرها. والتأويلية (أو الهيرمينوطيقا) إضافة إلى ذلك مبحث فكري ظل يراوح بين العلم والفلسفة. فهي ليست علماً بقدر ما هي طريقة في فهم النصوص مرتبطة بالتقليد الفلسفي المنحدر من شلايرماخر وديلتاي إلى هيدجر وغادامير. والذي آل إلى ما سمي بالتأويلية الفلسفية أو الفينومينولوجيا التأويلية hermeneutic phenomenology مع غادامير.

الدافع منذ بداية الحياة في العلاقات البين إنسانية، يتم تشكيلها في أثناء ذلك في أنماط السلوك الاجتماعية- يتحدث إيركسون عن «حالة» السلوك الاجتماعي Modality of Social behavior. والنزع الاندفاعي الغريزي للرضيع نحو التهام حلمة الثدي وسلوك الأم المانح للطعام على سبيل المثال يتحول عند الرضاعة والإطعام إلى حالة Modality «العطاء والأخذ»، أول علاقة موضوع وأشدها تأثيراً في الحياة الإنسانية. ويستند إيركسون على دراساته الأنثروبولوجية الثقافية حول هنود السيوكس واليوروك، كي يوضح كيف أن الثقافات البسيطة تستخدم النمو الجنسي النفسي بشكل حدسي من أجل تربية أشكال نموذجية من سمات الطرق Modi والحالة Modality، أشكال محددة من العطاء أو الأخذ أو التمسك أو الترك أو التسلل. وعلى ما يبدو فإنه يتم من خلال هذا تشكيل السلوك الاجتماعي لدى الشعوب البدائية، الذي يُركَّب بشكل مثالي قدر الإمكان ضمن الإطار الكلي لبرنامج الحياة المحدد من خلال تقليد ثابت.

وعقب ذلك عرض إيركسون نموذجه المشهور عن مجرى حياة الإنسان للمرة الأولى أمام جمهور أوسع. وعلى عكس التحليل النفسي التقليدي الذي تمحورت دراساته بشكل أكثر على أزمات النمو الطفلي الباكر المشحونة بالخوف بوصفها منبع العصاب، فقد أراد إيركسون أخذ طريق الحياة ككل بعين الاعتبار، ولم يود لفت النظر إلى المخاطر والشذوذات فقط. فقسم الوجود الإنساني إلى ثمانية مراحل منذ سن الرضاعة وحتى سنوات العمر المتقدمة وزينها بعناوين متضادة، هدفت إلى إبراز إمكانات ومخاطر مرحلة النمو المعنية؛ على سبيل المثال «الثقة الأساسية مقابل عدم الثقة الأساسية» في سن الرضاعة، أو «الاستقلالية مقابل الخجل والشك» في الطفولة أو «الاندماج مقابل اليأس والاشمئزاز» كموضوع أساسي في الشيخوخة. ومنذ ذلك الحين تسلل هذا النموذج «لدورة الحياة» في كتابات إيركسون اللاحقة وتم تدقيقه باستمرار. ويعد أحد أكثر الأقسام المشهورة لعمله وما زال حتى يومنا الراهن موضوعاً للبحث والتشخيص والتخطيط العلاجي في التخصصات المختلفة.

أما القسم الثالث الكبير من الطفولة والمجتمع فقد خصص لأفكار إيركسون في

علم نفس الأنا. فمن خلال مثال لحالة ذهان طفولي فسر الفصام بأنه انهيار الوظائف التوليفية للأنا بنتيجة تضرر متطرف للثقة الأساسية في الاتصالات الأولى للمولود الجديد بالعالم. فالمواجهة مع السلوك الانغلاقي[1] Autistic - غير المناسب لطفل ذهاني تمثل خبرة حدودية خاصة كلية، وتستنزف محاولة مثل هذا الطفل لإعادة فتح اتصاله بالعالم، قوى المعالج النفسي حتى النهاية. وفي الختام ينتقل إيركسون من الإمراضية النفسية إلى الحياة الروحية السليمة ويؤكد على القوى الخلاقة الشافية لذاتها للأنا، وهو ما يمكن ملاحظته في اللعب الطفولي بشكل خاص. فإيركسون، الذي استطاع باستمرار الاحتفاظ في شخصيته بعلاقة بنعمة الفكاهة، يُظهِر هنا دراية في عمله كمعالج نفسي باللعب. وفي حين لا يأخذ الراشدين اللعب على الأغلب على محمل الجد، فإنه بالنسبة للأطفال وسيلة جوهرية كلية من أجل تحطيم الخيبات ومخلفات النمو والمخاوف، للتأقلم في المجتمع مع الأتراب واستباق الأدوار المستقبلية لحياة الراشد بطريقة لعبية.

أما الجزء الرابع من الطفولة والمجتمع فهو الجزء الأكثر تفصيلاً. وهنا يبحث إيركسون تشبيك دورة الحياة بالمصير التاريخي لجماعات كاملة من الشعب ووصف الهويات القومية النامية عبر قرون لأمريكا وألمانيا وروسيا.

وقد خصص الفصل الرابع «أفكار حول الهوية الأمريكية» لمجموعة كاملة من ملاحظات ومقالات إيركسون حول وطنه الاختياري، والتي نقع عليها مراراً مبعثرة في عمله. فمهاجرو القرن السادس عشر والسابع عشر قطعوا بأنفسهم كل جذورهم

---

(1) المصطلح الأكثر انتشاراً في اللغة العربية هو التوحد. ونرى أن التوحد مصطلح غير دقيق ولا يعبر عن جوهر الاضطراب. ونفضل أن يسمى بالانغلاق. أول من وضع مصطلح الأوتزمية «الانغلاق» الطبيب النفسي النمساوي أويغن بلويلر في عام 1911. وقصد بذلك الانغلاق عن الواقع والانفصال عنه والحياة الداخلية المطلقة إلى حد كبير. وقد تم في ذلك الوقت استخدام مصطلح الأوتزمية لوصف أولئك المرضى بالفصام الذين يتصفون بالانسحاب الشديد والتمركز الشديد حول الذات. أما الأوتزمية بوصفها صورة مرضية مستقلة وتختلف عن الفصام فقد وصفها الطبيب النفسي الأمريكي كانر في عام 1943. غير أنه لم يتم الاعتراف بالصورة المرضية كوحدة تصنيفية مستقلة إلا في ثمانينيات القرن العشرين.

تقريباً. فقد صنعوا من مزيج لهويات قومية وعرقية ودينية مختلفة لبلدانهم الأصلية شكلاً جديداً من الحياة ورؤية جديدة لها. وأصبح «الرجل العصامي -Self-made Man» المثل الأعلى للهوية الجديدة للمستوطن والرائد الذي عرف كيف يثبت نفسه في البراري الممتدة بشكل لامتناهي. وكانت السمات المطلوبة هي القسوة والانضباط والرجولة وحب الاستكشاف؛ فكل ما كان يهدد بجعل الإنسان شديد التعلق، الحنين والاستقرار والمشاعر الأعمق تجاه النساء أو ذكريات الماضي الحساسة، كان لابد من كبته. وربما كان التزمت المعادي للدافع أفضل منظومة قيمية، من أجل الحفاظ على الانضباط اللازم لهذا العمل التأسيسي. وتحولت المرأة الأمريكية، المتروكة على الأغلب من زوجها لوحدها، إلى امرأة عاملة بقسوة و «أم Mom» جافة، معادية للمشاعر، لا يجوز لها على الإطلاق تربية أبنائها على أن يصبحوا خرعين «مغفلين sucker».

ويرى إيركسون أن مرحلة المستوطن والرائد الباكر قد استمرت في طبع الشعب الأمريكي إلى يومنا هذا، حيث تدعم الهوية الأمريكية الفرداني Individualist المحب للاستكشاف الذي يعرف كيف يتدبر أمره. ومن حيث المبدأ يستطيع الناس من جذور مختلفة أن يكونوا ناجحين في الهوجة المحمومة للمجتمع الأمريكي، إذا كان لديهم الاستعداد فقط لاقتناص الفرص وأن يظلوا متحركين ويؤمنون بالفرصة الكبيرة في المستقبل. وفي منشورات لاحقة يشير إيركسون كذلك إلى تناقضات وحدود هذا الحلم الأمريكي، الذي تم منه استثناء السكان الهنود الأصليين والعبيد السود بطريقة وحشية وكان تحقيقه في القرن العشرين بشكل مطرد على حساب البلدان الفقيرة والمحرومة[أ].

ويصف إيركسون في «أسطورة طفولة هتلر» صعوبة الشعب الألماني منذ القدم – بوتقة كل الصراعات والتيارات الثقافية للغرب-، في تحقيق الشعور بالوحدة القومية. فبعد إذلال فرساي[1] Versailles وكارثة الأزمة الاقتصادية العالمية تصاعدت لدى

(1) مدينة فرنسية عقدة فيها اتفاقية عرفت باسم اتفاقية فرساي تم بموجبها إنهاء الحرب العالمية الأولى في عام 1919.

طبقات واسعة من الشعب مشاعر اليأس والغضب. وقد اصطدمت بهذا الخواء الخطير للهوية شخصية خطيرة. فقد خلق هتلر، الذي هو من وجهة نظر إيركسون كل شيء عدا عن أن يكون مجرد سيكوباثياً، في «كفاحي» أسطورة من منشأه، امتزج فيه الخيال بالواقع ببراعة. فقد طرح نفسه كنموذج أولي للشاب المثالي، الذي لا ينحني أمام الأب المستبد. فالأب الألماني يعتقد، كما يرى إيركسون، بأنه لا يمتلك سلطة داخلية على الرغم من قسوته الظاهرية. وقد قاد الأمر لدى الشباب الألمان إلى تمرد قصير، ولكن بعدئذ إلى خضوع مستسلم، ولكن ليس إلى تماه مُقتنع مع الأب. مما ولد الميل إلى الشك بالسلطة التقليدية وبالتحديد في أوقات الأزمات الشديدة والبحث عن الخلاص لدى الأبطال الشباب الذين لا يلينون.

وقد غطت النفوذية[1] اللامعقولة ، التي أراد من خلالها هتلر أن يرجع ألمانيا إلى قوة عالمية، من بين أمور أخرى على القلق العميق لفقدان الهوية القومية. وربما يعزى سبب مبالغة هتلر بشكل كبير بطريقة مجنونة هكذا «بالبكتيريا اليهودية Bacillus Jewish»، هو أن اليهود قد مثلوا شيئاً، لم يمتلكه الشعب الألماني طوال تاريخه: القدرة على الحفاظ على تقاليدهم الخاصة، على الرغم من الانتشار والقمع المتطرف في الشتات Diaspora[2]. ومن هنا لم يكن على سبيل الصدفة أن شعب مشتت القوى بصورة متطرفة قد بدأ بإبادة genocide جماعية لشعب لديه قدرة خارقة على البقاء، بمهارة تقنية مخططة، لم يعرف تاريخ البشرية مثيلاً لها.

أما فصل «أسطورة شباب مكسيم غوركي» فقد حصل بعد الانطباع المدهش لفيلم حول أديب الثورة الروسية، رآه إيركسون في جامعة كولومبيا. ويبدأ الفيلم بمشاهد لقرية روسية على نهر كبير، يصل إليها الشاب، اليوشا بيشكوف مع أمه الأرملة. فتستضيفه جدته لديها. فيبدأ أليوشا بمقابلة أشكال، مميزة بالنسبة لروسيا القديمة

(1) Penetrance: قدرة الجينة أو الموروثة النسبية على إحداث أثرها الخاص في الكائن الحي التي هي جزء منه.

(2) Diaspora: اليهود المشتتون في الأرض بعد الأسر البابلي.

التقليدية، ولكنها من ناحية أخرى تنبئ بعصر جديد قادم. فالجدة الحنونة تجسد الوجود الحقيقي للمرأة الروسية، الارتباط بالأرض، العطاء اللامحدود، التواضع. والتماهي معها يعني السقوط في تحمل نكوصي ثقيل، تلك اللامبالاة السوداوية للروح الروسية.

ويجسد الجد الشكاك، ضيق الأفق، البخيل السادي الطرف المقابل. فهو يمثل دوره الأبوي كذلك بشكل همجي يدعو للشفقة، إنه واحد من أولئك القياصرة الصغار، الذين يدعمون سيطرة القيصر الأعظم من جيل إلى آخر. ومن يعاند الجد يتحول إلى ضحية عنفه الغاضب. فالصراع بين الأنا الأعلى الأبوي الصارم والغضب القاتل المكبوت يعتمل منذ الأزل في الروح الروسية، وقتل الأب هو موضوع متكرر الظهور للأدباء الروس. ويذكر إيركسون في عرض تاريخي بابني إيفان المرعب وبيتر الأعظم، اللذان تجرءا على التمرد، وكلاهما وقع ضحية والده. وكذلك أليوشا يضربه جده بقسوة، ثم يحاول بعد وقت قصير مواساته نادماً. فيقاوم الشاب المحاولة، ليتماهى مع السلطة بشكل سادي مثل أجداده. ولا يجني الجد من حفيده سوى وجهاً فولاذياً. إنها النظرة القاسية الثاقبة للثوري المستقبلي، الذي لن يترك أي شيء يرهبه ثانية، الذي يستشف الأمور. يقابل أليوشكا شحاذين كبيرين معدمين. إنهما يمثلان الجزء الأشد بؤساً لبقية الشعب الروسي، وفي الواقع فهما يمثلان حثالة القوم. إلا أن الوعي الجديد لا يسمح بكثير من الشفقة. ويتعلم أليوشكا من أحد الغرباء في القرية قيمة التعلم والتفكير الذاتيين. إنه ثوري Anarchist؛ فبحزم وتطلع نحو المستقبل، يعتقد بالتحرر من اللامبالاة والاستعباد. وتأتي إلى القرية عصابة من الأطفال المتشردين والذين لا أهل لهم، مهمشين، يعيشون من الفضلات والزبالة. إلا أنهم يساندون أليوشا ضد شبان القرية الخبيثين. فينظم للأطفال الضائعين، ويتسكع معهم في المنطقة. وفي المشهد الختامي ينفصل أليوشكا عن المجموعة، ويمضي لوحده مدبراً ظهره للأفق. لقد انفصل عن العصابة السابقة، صاغ نفسه في هذه العلاقات، لقد تحول إلى غوركي، الذي يمثل روسيا الثورية الجديدة.

وفي هذه الأثناء كان إيركسون قد أصبح واسع الشهرة من خلال منشوراته. وفي عام 1949، في زمن الملاحقة المسعورة المضادة للشيوعية التي قام بها عضو مجلس النواب

ماكارثي Mc Carthy، نال أول أستاذية من جامعة بيركيلي Berkeley University. وكان يطلب في ذلك الوقت من أعضاء المجلس الأكاديمي إضافة إلى القسم المعتاد عهداً بأنه لا ينتمي إلى الحزب الشيوعي أو أنه لا ينتمي إلى أية منظمة تنادي بإسقاط الحكومة بالقوة أو بالعنف. فرفض إيركسون ذلك مع تسعين عضو آخر من المجلس الأكاديمي تقديم مثل هذا التصريح. في البداية تمت إقالة الجميع. إلا أن غالبيتهم بمن فيهم إيركسون تمت إعادة تعيينهم بعد التأكيد أنهم ليسوا شيوعيين. وعندما لم يقبل زميلين من تقديم مثل هذا الإقرار وفصلوا بشكل نهائي تخلى إيركسون عن أستاذيته. وفي تصريح يشار إليه بالبنان نادى في الأول من يونيو (حزيران) من عام 1950 برؤية مفادها أنه من جوهر الحرية الأكاديمية في دولة ديمقراطية أنه لا بد من إتاحة الفرصة للطلاب بالتحديد أن يتمكنوا من التفاعل مع العقائد والمذاهب السياسية جميعها ليصلوا إلى قناعتهم الخاصة. ومنذ ذلك الوقت أصبح إيركسون محترماً من طلبة الولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص بسبب موقفه الملتزم والعلني الشجاع. أما بالنسبة له نفسه فقد كان هذا اختباراً للمثل الراسخة في الدستور الأمريكي والتي كان يؤيدها دائماً: «عندما أفكر اليوم بتلك المواجهات، فإنها تبدو لي اختباراً لهويتنا الأمريكية؛ إذ أنه عندما عيّرتنا الصحف نحن الأجانب بغير الموقعين: «ارجعوا، من حيث أتيتم!» فإننا كنا فجأة على يقين، بأن عدم ولائنا الظاهري تجاه الجنود المقاتلين في كوريا كان في الواقع منسجماً كلية مع الهدف - كما قيل لهم - الذي يقاتلون من أجله وفي هذه الأثناء أيدت المحكمة العليا للولايات المتحدة الأمريكية وجهة نظرنا» (1982، صفحة 43).

1.5 كمحلل نفسي في ماساشوستس

بتشجيع من صديقه المحلل النفسي روبرت نايت Robert Knight عاد إيركسون إلى شرق الولايات المتحدة الأمريكية وعمل في مركز أوستن- ريغس -Austen-Riggs Center، وهو قسم طبي نفسي للشبان في ستوكبيردج Stockbridge، بلدة حالمة في محيط نيوإنجلاند Neu-England. كانت أوستن-ريغس مستشفى خاص صغير، محب

للبحث من دون أقسام مغلقة، لا يقارن بالمؤسسات الإدارية الطبية النفسية البائسة لخمسينيات القرن العشرين. ولعقد كامل تقريباً عمل إيركسون هنا في العلاج والبحث. وإلى جانب هذا عمل في القسم المغلق لمعهد الغرب الأمريكي للطب النفسي Western Psychiatric Institute التابع لجامعة بيتسبورغ Pittsburg University مع الأطفال الملفتين للنظر سلوكياً من الطبقات الاجتماعية الدنيا، وأحياناً بالتعاون مع طبيب الأطفال المشهور الدكتور بنيامين سبوك Benjamin Spock.

في أوستن ريغس بحث المرء عن إمكانات معالجة جديدة تقوم على أساس التحليل النفسي للاضطرابات الشديدة للشبان الذين كانوا واقعين على التخوم الواقعة بين العصابات والذهانات. وقد جمع إيركسون في عشرات المعالجات التي أجراها مادة واسعة من قصص الحالات ودرس ملفات التحليلات التعليمية وتحليلات الضبط. وعلى ما يبدو لم تكن الأسباب الجسدية بالدرجة الأولى هي المسؤولة عن الاضطرابات الجنسية واضطرابات العمل وللحالات الانغلاقية autistic أو العدائية-الزورية (البارانوئية) للمرضى الشباب. فخلف الأعراض الغريبة كان يكمن خوف عام من المستقبل، مستثار من خلال صراعات طفولية غير متمثلة وخبرات مثبطة في المراهقة نفسها. وقد كانت هوية الشبان مبعثرة بين تصورات حول الذات ومخططات المستقبل والأدوار المشتتة، في حين أن الأنا لديهم ينكص باطراد متزايد إلى مراحل باكرة من التطور نتيجة للخوف وعدم الأمان. فالأمر يتعلق بحالة من الشلل والضياع على عتبة سن الرشد، والتي أطلق إيركسون عليها تسمية «تشتت الهوية Identity Diffusion».

وبالطبع كان محور اهتمام العلاج المعالجة التحليلية لخبرات الطفولة بالإضافة إلى أنه قد أصبح العلاج ضمن المجموعة والعلاج الإبداعي الشافي والتوجيه العملي في الخطوات الملموسة لمواجهة الحياة من العناصر المهمة للبرنامج العلاجي. وبالتعاون مع زوجها طورت جوان إيركسون برنامج أنشطة مرشد. ففي «مؤتمر للقسم» قام المرضى بترتيب حياتهم مع بعضهم وأوقات طعامهم وخططوا وقت فراغهم على مسؤوليتهم هم، وكتبوا المقالات لمجلة خاصة بهم في القسم، وصمموا الحلي أو استنبتوا الأزهار

التي بيعت للزوار في محل أنشئوه بأنفسهم. وبإشراف من ممثلين محترفين تم تشكيل «فرقة ريغس للدراما Riggs-Drama-Group» وتدربت على مسرحيات وعرضتها للجمهور. وقد زال تحفظ كثير من مواطني ستوكبريدج على المستشفى الطبي النفسي. إلى درجة أن المرضى في النهاية أقاموا روضة للأطفال للأسر من ستوكبريدج، تمت الاستفادة منها مراراً. لقد حفّز إيركسون وزوجته هنا تصوراً علاجياً جديداً، أصبح في هذه الأثناء من الأمور المألوفة في المستشفيات الطبية النفسية. وقد أشار إيركسون بلا كلل إلى مدى أهمية تنشيط المرضى، وخصوصاً في الاضطرابات الواقعة في المجالات الحدودية بدلاً من عزلهم بشكل مصطنع عن الحياة الاجتماعية المفيدة.

وهكذا أصبحت في هذا العقد حياة المراهقين محط اهتمام إيركسون. وبين عامي 1954 و1963 نشر إيركسون سلسلة من المقلات حول إشكالية النمو للشبان، التي جمعها منقحة في عام 1968 في كتابه «شباب وأزمة»، أشهر مؤلفات إيركسون إلى جانب «الطفولة والمجتمع»، حوله، متجاوزاً التحليل النفسي، إلى باحث مراهقة مشهور عالمياً. لقد وصف إيركسون المراهقة بأنها طور مقر اجتماعياً من التجريب، تعليق «اجتماعي نفسي Psychosocial Moratorium». ففي كل مجالات الحياة لابد للشاب أن يوضح هويته الجديدة في علاقته بوالديه أو الأتراب أو شريك الحب أو في أفكاره حول المستقبل المهني أو حول المسائل العقائدية، وهي عملية طويلة أحياناً ومأزومة يمكنها أن تترافق مع شذوذات سلوكية قد تمتد إلى الأعراض اللااجتماعية أو العصابية. ويلاحظ المرء مدى عمق إحساس إيركسون بأزمات وصراعات الشباب بناء على خبراته الذاتية. وفي الوقت نفسه فهو منبهر بصراحة ومثالية الشباب. فالتزام المراهقين وقدرتهم على التحمس والنقد الغاضب هي مصادر قوة لأي مجتمع، إنهم يستطيعون مساندة وتنمية وإصلاح المؤسسات التقليدية.

تقطع عمل إيركسون العيادي والعلمي في خمسينيات القرن العشرين وستينياته بسبب الإقامات الطويلة في الخارج. فقد قادته عدة رحلات إلى أوروبا إلى بريطانيا والنمسا وألمانيا، وبين عامي 1932 و1964 أقام ثلاثة مرات ولعدة أشهر في الهند.

شارك إيركسون في عام 1953 في مؤتمر لمنظمة الصحة العالمية في جينيف. وعرض تصوراته حول دورة الحياة والنمو الاجتماعي النفسي ووجوه الشعور بالهوية أمام علماء مشهورين جداً من نحو مارغريت ميد أو جان بياجيه أو جون بولبي أو جوليان هيكسلي Julian Huxley أو كونراد لورينس. وفي الخامس من مايو (أيار) حل عيد ميلاد سيجموند فرويد للمرة المئة، وهو حدث ابتدأت بالاحتفال به جامعتي فرانكفورت وهايديلبيرغ. وبدعوة من ألكسندر ميتشرلش Alexander Mitscherlich ألقى إيركسون في قاعة الاحتفالات لجامعة فرانكفورت خطبة الاحتفال. وأمام ممثلي الجيل الألماني لما بعد الحرب الشباب وبحضور رئيس ألمانيا في ذلك الوقت تيودور هويس Theodora Heuss قارن إيركسون فرويد بالمحدثين العلماء من أمثال تشارلز دارون، الذين - على الأغلب من خلال تعليقات moratorium مشحونة بالأزمة - عبروا طريقهم بشجاعة وتحملوا رفض معاصريهم، وغالباً أيضاً حملات العلوم الراسخة.

وكانت قمة منشورات هذا العقد كتابه الصادر في عام 1953 «الشاب لوثر». وبالأصل كان إيركسون سيخصص للوثر فصلاً واحداً في كتاب حول أزمات المشاعر عند الشباب. إلا أنه متأثراً بشخصية الإصلاحي فتنه موضوع لوثر والإصلاح باطراد متزايد. وقد انغمس إيركسون في عمله كلية معلقاً كل الالتزامات العلاجية والأكاديمية. وفي النهاية ظهرت سيرة ذاتية ساحرة، وإن كانت غير متفق عليها لدى المؤرخين ورجال اللاهوت، حول طريق الشاب مارتين لوثر نحو الأهمية التاريخية. ففي خليط من دراسة المصادر التاريخية وعمل التأويل التحليلي النفسي حاول إيركسون إظهار، المدى الذي كان فيه لوثر في طفولته قد وضع في حالة من الحزن الشديد من خلال التربية الصارمة للأب، ومن خلال علم الخطايا للكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت. ضميره السلبي كان متأثراً إلى درجة أن السؤال عن عدالة الرب وتبرير الخطيئة قد تحولت إلى مشكلة حياتية مركزية بالنسبة له. وفي أثناء سنوات الدير، الذي بحث فيه لوثر عن الملاذ من شكه الإيماني ومشاعر الذنب، تفاقمت أزمته في بعض الأحيان وصولاً إلى حالات تشتت الهوية. إلا أنه تشكلت هنا بالتدريج بناية من الأفكار أيضاً، ترسخت في

النهاية في صياغة لاهوت جديد وساعدت لوثر على إيجاد هوية جديدة منبثقة من منابع إلهام ديني عميق جداً في الإيمان الديني. وكان هذا اللاهوت من جهته الباعث الأساسي لتغير اجتماعي كان في طور التخمر، ومهد الطريق نحو الإصلاح ومن ثم إلى عصر جديد من تاريخ العالم.

ومسحوراً بمصير حياة الشخصيات الاستثنائية الكبيرة أصبح إيركسون بهذا مؤسساً لمجال تخصصي من «التأريخ النفسي Psychohistory»، أي البحث بمجرى الحياة الفردي بطرق العلوم التاريخية والتحليل النفسي في الوقت نفسه. فمن بين كل العلوم يشعر إيركسون بأنه أقرب إلى التأريخي، «فهو يتعامل بها يشبه المعالج مع تلك العملية الغريبة تتجلى فيها مقاطع مختارة من الماضي في وعينا من جديد ومن الآن فصاعداً تحافظ على واقعيتها بالنسبة لأفعالنا الراهنة» (1982 «ب»، صفحة 115). أحب إيركسون توضيح نموذجه التحليلي النفسي من خلال مجرى حياة الشخصيات التاريخية. فإلى جانب الدراسات حول لوثر وغاندي هناك ملاحظات ومقالات منتشرة خارج عمله حول أشخاص مختلفين من نحو توماس جيفرسون Thomas Jefferson أو وليم جيمس أو أدولف هتلر أو مكسيم غوركي أو سيجموند فرويد أو تشارلز داروين أو سيمون بوليفار Simon Bolivar أو جورج برنارد شو أو فرانس فون أسيساي Franz von Assisi أو ألبيرت آينشتاين.

وقد طور إيركسون وبشكل خاص في كلتا السيرتين الكبيرتين حول لوثر وغاندي أستاذية كقاص. فكثير من الأحداث، من نحو نوبة لوثر في جوقة المغنين أو الصوم الأول لغاندي، تمكن من عرضها من خلال صور مؤثرة كلية. ولا يشعر المرء باهتمام إيركسون التاريخي فحسب وإنها أيضاً إعجابه بالدين. ففي لوثر، وأكثر في غاندي يبدو عليه أنه يبحث عن المثل الأعلى الكبير كلية للمقدس، الذي يجسد الجسر الحي للوقائع المبهمة ويستطيع تحرير قوى الإيمان والإنسانية، التي لم تعد التفسيرات العلمية قادرة على إدراكها.

وفي هذه الأثناء كبر أبناء إيركسون وأصبحوا شباناً. فدرس الابن الأكبر كاي علم الاجتماع في شيكاغو. وبالتعاون مع والده كتب مقالاً جديراً بالاهتمام حول موضوع

جنوح الأحداث واشتهر لاحقاً من خلال سلسلة من المنشورات الاجتماعية[ii] أما الابن الثاني جون فقد سجل في جامعة كاليفورنيا اقتصاد وأنهى لاحقاً تأهيلاً في التصوير وجال مراراً وبشكل مطول في رحلات، كما فعل والده في يوم من الأيام. أما ابنته سوي Suc فقد درست في البداية الفلسفة في أوبرلاين Oberlin، ولاحقاً الأنثروبولوجيا الاجتماعية في بيركيلي.

1.6 الأستاذية في جامعة هارفارد

في عام 1960 استدعي إيركسون إلى جامعة هارفارد في كامبردج للعمل بمرتبة أستاذ لعلم نفس النمو تحت عمادة جورج ماك بوندي George Mc Bundy. وما كان عليه إلا أن يتخلى عن نشاطه الإكلينيكي إلى مدى بعيد ووجه ثقله نحو البحث والتعليم. ولم تكن تسمية إيركسون موضع اتفاق. فبعض الأساتذة الكبار لم يكونوا مرتاحين لهذا الإسناد لذلك الذي لا يحمل سوى شهادة الدراسة الثانوية من ألمانيا وعلاوة على ذلك ممثل للتحليل النفسي الغامض بالنسبة للكثيرين. إلا أن إيركسون سرعان ما أثبت نفسه على أنه محاضر مثير بشكل نادر. دروسه حول «دورة حياة الإنسان»، وهو مدخل إلى أسس تفكيره التحليلي النفسي، كانت فائضة بالطلاب في كل فصل. وكان لابد من رفض المئات من الطلاب. كما اشتهر سيمينار أصغر ناقش فيه إيركسون سيرة حياة الشخصيات المهمة من الناحية التحليلية النفسية والتاريخية، بصورة مشوقة إلى درجة أن أساتذة من تخصصات أخرى كانوا من المشاركين. وقد ربطت إيركسون صداقة وثيقة بشكل خاص باللاهوتي باول تيليك Paul Tillich.

لقد أراد إيركسون أن يعلم أفكار التحليل النفسي لكثير من الطلاب قدر الإمكان، وليس فقط لطلاب علم النفس. وقد اعتبر نفسه في نشاطه التعليمي على أنه قائد إنساني، أراد إيقاظ وعي أخلاقي وسياسي في مستمعيه الشباب. وكانت محاضرات إيركسون ظريفة جداً من خلال أسلوبه الأخاذ. فقد اقتبس من القصص والسير الذاتية واستخدم الأفلام والمسرحيات كمواد توضيحية، ودعا محاضرين ضيوف، من أجل توضيح

المجرى المتأزم لدورة الحياة. وفي أثناء المحاضرة كان يطلب إيركسون من الطلاب بألا يسجلوا ملاحظات. فعندما لم يكن قادراً على النظر في عيون مستمعيه، كان يشعر بأنه يتحدث إلى نفسه. ومن إيركسون انطلق شيء إيجابي، منعش، جذب الشبان إلى مساره، امتلك جموع متزايدة باطراد من الأتباع. ومع ذلك فقد رفض تأسيس مدرسته «الإيركسونية» الخاصة في التحليل النفسي. وكانت هناك فترات متكررة لم يشعر فيها بالراحة في العزلة العلمية لهارفارد كما أصبح ضغط الجمهور كبيراً. وكان يحتاج بانتظام إلى أوقات ينسحب فيها إلى منزله الصغير في كاب كود Cab Code على شاطئ الأطلسي للكتابة والقراءة والتأمل.

بدأ إيركسون في هارفارد بتنظيم مجموع منشوراته في مجلدات. وفي عام 1964 صدر «البصيرة والمسؤولية»، وفي عام 1968 «الشباب والأزمة» وفي عام 1975 «تاريخ الحياة واللحظة التاريخية». وقد أراد إيركسون بالأساس من كتبه تقديم تحفيزات عملية للتأهيل التخصصي للأطباء والمتخصصين النفسيين والخدمة الاجتماعية. ولكنه أصبح في هذه الأثناء من أشهر الكتاب التحليلين النفسيين في الولايات المتحدة الأمريكية ولم يكن قادراً دائماً على التخلص من الكثير من الدعوات للمؤتمرات والسيمينارات. وفي عقد الستينيات والسبعينيات قدم إيركسون عدداً لا يحصى من المحاضرات في أمريكا وما وراء البحار وأسهم في تبسيط الأفكار التحليلية النفسية في جميع أنحاء العالم.

أما من ناحية المواضيع فقد اهتم إيركسون في ستينيات القرن العشرين بشكل خاص بمراحل حياة الراشدين وإشكالية الشيخوخة ومعنى الحياة، واهتم هنا بشكل متزايد بالمسائل الدينية-الأخلاقية. ففي «القوة الإنسانية ودورة الأجيال» الصادر في عام 1961 قارن إيركسون قائمة من الأعراض المرضية الموصوفة في التحليل النفسي مع قائمة بالقوة الإنسانية، «فضائل- أساسية» من نحو الأكل والحب والولاء والعطف، التي لا يمكن للجماعة الاستمرار من دونها. وفكر في الرؤية التحليلية النفسية للنمو الأخلاقي للإنسان. إذ ليس من المعقول أن يحدث السلوك الاجتماعي من خلال النواهي التصنيفية للأنا الأعلى فقط.

فهناك أيضاً فعل أخلاقي نابع من المحبة والأخوة الإنسانية. ويمكن للضمير الشخصي الناضج في سن الرشد أن يطغى على الأنا الأعلى، مع أنه يتم إضعاف القيم الأخلاقية مراراً من قبل الجذور الشعورية البدائية للأخلاق. وفي «القاعدة الذهبية في ضوء رؤية جديدة» في عام 1963 وضح التشابهات للتعاليم الأخلاقية في الدوائر الثقافية الأشد اختلافاً للإنسانية. إن ماهية كل أشكال الأخلاق في الغالب هي «القاعدة الذهبية»، المبدأ المتمثل في، الحفاظ على حياة الآخر بمقدار الحياة الذاتية وتنميتها بطريقة مثالية. ويحتل «الواجب الإنتاجي generative»، وتحمل مسؤولية الجيل التالي واستمرارية المجتمع مركز صدارة حياة الرشد، وهو ما يطلق الهندوس عليه تسمية «همُّ العالم». ويقود الانحراف عن هذا الواجب على المدى البعيد إلى مشاعر الركود والفراغ التي يبدو أنها تشكل جزءاً كبيراً من المعاناة العصابية للناس الراهنين.

وبعد هذا كله اشتد إلحاح الأفكار بكتابة السيرة الذاتية حول حياة الرجل الذي أعطى أروع الدفقات الأخلاقية للقرن العشرين: المهاتما غاندي. فمنذ سنوات الشباب أعجب إيركسون بشخصية المهاتما. وفي عام 1962، وعندما قدم سيمينار في المدينة الهندية أحمد آباد بناء على دعوة من أسرة صناعية وقارن مراحل حياة العقيدة الهندوسية مع نموذجه النهائي الخاص، فتنت شخصية غاندي إيركسون ثانية. وفي رحلتين تاليتين للهند جمع إيركسون بشكل منهجي مادته وسأل أتباعه الأحياء وتعمق في سيرته الذاتية الخاصة وزار أماكن نشاطه الرئيسية. وبعد سنوات طويلة من التحضير صدر في عام 1969 «حق غاندي»، وهو تحفة شيخوخة إيركسون، وارتباط خبراته الشخصية والعلمية بأخلاقه الإنسانية، كتاب مكتوب بروعة، حصل عليه إيركسون في السنة التالية على جائزة بوليتزر Pulitzer-Prize. لقد أعاد إيركسون بناء تاريخ حياة غاندي حول الطفولة والشباب ووقت دراسته في بريطانيا وعمله لعشرين سنة كمحام في جنوب أفريقيا حتى عودته إلى الهند. وأجري موازنات بين الطرق التحليلية النفسية

وتقنية «السـاتياغراها[1] satyagraha» اللاعنفية عند غاندي. ويحتل محور الكتاب تحليل «الحادثة»، أول مواجهة لاعنفية على الأرض الهندية في نزاع مصانع النسيج في أحمد أباد عام 1918. وعلى الرغم من أن هذا الإضراب في سيرة غاندي الذاتية تم تجاهله إلى حد ما وقلما تمت الإشارة إليه في من خلال الصحافة المعاصرة في ذلك الوقت، يرى إيركسون هنا لحظة التحول الحاسمة في سيرة غاندي. فلو فشل غاندي في هذه الحملة، فإن الساتياغراها كانت ستبرهن أنها طريقة غير ملائمة بالنسبة للشعب الهندي. وبهذا حصل بعد اختراق غاندي في أحمد أباد الزعامة الوطنية. أما المراحل اللاحقة من حياة غاندي، من نحو مسيرة الملح أو استقلال الهند فلم يتطرق لها غاندي إلا بشكل مختصر.

ومنذ الستينيات ظهرت كتابات أخرى كثيرة مهمة. ففي «الأنوثة والفضاء الداخلي» في عام 1964 أكد إيركسون أنه على الرغم من أن القضيب مفقود في التشريح الأنثوي، إلا أن المرأة مجهزة بفضاء داخلي خلاق وإمكانية الولادة، يمكنه أن يثير الحسد اللاشعوري للرجل بالدرجة نفسها. وفي «تطور التطقيس لدى الناس Ontogenesis of Ritualization» في عام 1966 يجري إيركسون مقارنات بين أشكال السلوك الحيوانية الغريزية وطقوس السلوك الاجتماعي الإنساني. وفي «لعب الأطفال والخيال السياسي» عام 1972 يستعرض إيركسون مرة أخرى جوهر ووظيفة اللعب ونمو دافع اللعب في السنوات الأولى من العمر. وفي «أبعاد هوية جديدة» عام 1974 يصف طريق حياة توماس جيفرسون كتجسيد للإمكانات الكثيرة وتناقضات الحلم الأمريكي.

وباطراد بدأت تتسرب في كتابات إيركسون مواضيع عقائدية - سياسية. وقد تحول بثبات ضد كل أشكال الاستغلال أو القمع أو الحقد العرقي أو التطرف. وبالنظر للمشكلات الإنسانية الملحة لم يعد التحليل النفسي قادراً على المرور بشكل عابر على مسائل العصر. وبدلاً من الانعزال السياسي فإنه من الضروري جداً إبداء الاستعداد

(1) السـاتياغراها Satyagraha: التقنية التي استخدمها غاندي في تحقيق استقلال الهند. وهي اللجوء إلى المقاومة السلبية أو اللاعنفية كوسيلة لتحقيق الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

للحوار النقدي بكل الأشكال الممكنة للعلاقات الإنسانية، وقبول التحديات، ووضع القيم والدفاع عنها علناً.

كما التزم إيركسون ضد العنصرية في جنوب أفريقيا، ووقف إلى جانب حركة الحقوق المدنية الأمريكية حول مارتن لوثر كنغ ودعم الطلاب الجنوب ألإفريقيين في كفاحهم ضد سياسة التمييز العنصري. ووقف بحزم ضد التسلح النووي غير المحدود، ووصف التصعيد في حرب فيتنام على أنه انتكاس إلى الاستعمار، ودافع عن الحوار بين البلدان الغنية والفقيرة. فلتخصصه، التحليل النفسي، واجب المطالبة بالمراجعة المستمرة للروح العلمية. وبالنظر للعواقب القاتلة للعلم والتقنية الحديثين فإن الأمر يحتاج إلى إعادة تفكير أخلاقية مستمرة بالفعل الذاتي. وحتى علم النفس فهو معرض لخطر أن يضع نفسه في خدمة طمع السلطة والقمع السياسي؛ ولنتخيل هنا فقط رؤية سكنر لعالم مدجَّن بشكل كامل. ويخلص إيركسون إلى: «فمن دون يقظة منهجية للمهن الشافية، وربما على الرغم من ذلك، يميل مجتمع ما مستحوذ بعادات تكنوقراطية من التفكير بشكل خاص إلى استغلال كل معرفة جديدة في صالح أهدافه الاقتصادية والتقنية والإيديولوجية بشكل أساسي» (1982، صفحة 266).

وبشكل مطرد الوضوح ظهرت مع التقدم في السن إنسانية إيركسون، وشعر المرء بقلقه حول مستقبل الجنس البشري بالنظر لتضخم عدد السكان وتدمير البيئة وأسلحة التدمير الشامل. ويرى إيركسون أنه على الإنسانية في النهاية أن تدرك أنها نوع من المخلوقات المتساوية الحقوق وعليها تجاوز العداوات اللامنطقية بين الشعوب والأعراق والجماعات الدينية. وقد تحول متجاوزاً تخصصه إلى واعظ للتعويض والمصالحة وإلى رمز لكثير من حركات الطلاب. ومن ناحية أخرى اتهمه النقاد بأنه يطيب له دور القائد الإنساني الحكيم وأنه معرض لخطر فقدان موضوعية العالم وعدم أخذ تقشف abstinence المحلل النفسي بعين الاعتبار[iii]. وفي الواقع فقد اختلطت في كثير من كتابات إيركسون اللاحقة الحدود بين التحليل العلمي والأخلاق المثالية والالتزام السياسي. ومع كل الجهود الشخصية إلا أن أفكاره الاجتماعية واقتراحاته في

التحسين ظلت أقرب للغامضة. وقد استنتج إيركسون نظرياً بشكل قليل الدقة، كيف تقوي علاقات السيطرة أو التناقضات بين الطبقات وظروف العمل الاغترابية عدم الحرية الداخلية من خلال القهر اللاشعوري. وقد هاجم بعض ممثلو اليسار التحليلي النفسي إيركسون واتهموه بأنه يريد تمييع طروحات فرويد الناقدة للحضارة بمفاهيم توافقية وأنه يدافع في النهاية عن إيديولوجية تكيف. إلا أن إيركسون أيضاً ابتعد عن المبالغات المتطرفة لحركة الاحتجاج، وأبدى القليل من التفهم لعصر، «يريد طلي القمر باللون الأحمر» (1975، صفحة 293).

ومنذ تقاعده Emeritus في عام 1970 عاش إيركسون متقاعداً، يقضي الصيف على الأغلب في كاليفورنيا والشتاء في ماساشوسس. وظل حتى الثمانينيات ناشطاً كرحالة محاضر ومؤلف علمي، واعتبر «شيخ التحليل النفسي الكبير». وحظيت محاضرته في حول الدافع الأساسي التوالدي generative للراشد في مؤتمر الاتحاد العالمي للتحليل النفسي في نيويورك في عام 1979 بإعجاب كبير. واستطاع إيركسون في ثمانينيات القرن العشرين أن يسترجع حياة غنية. فمن غنى خبراته ومن تيارات فكرية متنوعة وليس أخيراً من التناقضات المثمرة لشخصيته ولد إنجاز حياتي مثير. فلقي من المؤسسات الأكاديمية التي تجنبها في البداية بشكل كبير اعترافاً فوق العادة. ومنحته عدة جامعات الدكتوراه الفخرية، وأطلق اسمه على كثير من المستشفيات والمعاهد، ووصلت كتبه إلى قراء من جميع أنحاء العالم. ولكن إلى جانب هذا الكنز من خبرات الحياة المتسقة كان على إيركسون في سنواته الأخيرة أن يتحمل الكثير من قيود ومكاره السن المتقدم. فقد تراجع سمعه كثيراً، وخارت قواه في النهاية بشكل سريع. فمات إيركسون طاعناً في السن في 12 مايو (أيار) من عام 1994 في دار رعاية المسنين في نيوهافن.

1.7 هوية إيركسون كمحلل نفسي

يتضح من خلال هذا العرض البيوغرافي القصير إلى أي مدى كبير انصهر مصير حياة إيركسون مع التحليل النفسي[IV]. وكان الأمر الفاصل هو أن هذا العلم لم يقيده،

منحه المجال لتفتح اهتماماته المختلفة ومواهبه - نوع من «الركن الاجتماعي»، تمكن فيه من العثور على هويته المهنية، من دون أن يتحول إلى غير راض وغير خلاق. فهل كان مبدأ إيركسون البين تخصصي تطوير مشروع لأفكار فرويد؟ أم أن إيركسون ظل ابن زوجة بحكم العادة، لم يتمكن أبداً من التماهي مع التحليل النفسي، فنان موهوب وأديب، يمتلك الكثير ولكنه بالأصل لم يمتلك الالتزام اللازم لأي تخصص؟ قلما تم تأويل مبدع في التحليل بشكل شديد الاختلاف مثل إيركسون. فقد رأى فيه المرء العالم الجدي بالمقدار الذي رأى فيه الفنان والرومانسي والشاب المتحمس. وكثير وجدوه مرحاً ومثيراً ومتفائلاً وولد انطباعاً بالتواضع لدى الكثيرين، وخجولاً، بل حتى بحاجة للحماية، في حين شعر آخرون بأنه باحث عن الإعجاب، مُقَنَّع disguise ومغتر. لقد احتفي به بوصفه أهم مبدع في التحليل النفسي ما بعد الفرويدي من ناحية ومن ناحية أخرى قذف بأنه كثير الكتابة، يستند على ما هو معروف ولا يقدم إلا القليل من الجديد. واعتبره غالبية النقاد بأنه خليفة فرويد الشرعي، في حين اتهمه آخرون، بأنه أراد تمييع طروحات فرويد الثورية مع الاجتماعوية [1] Sociologism الأمريكية. واعتبر الكثيرين مبدأه البين تخصصي تعليم ذاتي مبدع أثر على الآخرين بشكل إغوائي. لقد رأى المرء في إيركسون إنسانياً حقيقياً وناقداً اجتماعياً من ناحية، ومن ناحية أخرى اتهم بالانتهازية، بأنه يدعو بالسر إلى التوافق مع الروح الكالفينية[2] للمؤسسة الرسمية establishment الأمريكية.

---

(1) اتجاه اجتماعي مبالغ به، يتم فيه عزو كل شيء للمجتمع. ولا يتم إعطاء مجال لأنماط سلوك الفرد، التي لا تتأثر بالمجتمع.

(2) الكالفينية هي مذهب مسيحي بروتستانتي يعزى تأسيسه للمصلح الفرنسي جون كالفن، وكان هذا الأخير قد وضع بين عامي 1536م و 1559م مؤلفه (مبادئ الإيمان المسيحي) والذي يعتبره الكثيرين من أهم ما كتب في الحركة البروتستانتية.

سار كالفن على خطى بولس الرسول والقديس أوغسطين في التأكيد على ما اعتبره سمو الله وسيادته على كل شيء، وتتقاطع أفكاره مع أفكار مارتن لوثر في أن تبرير الخطاة والخلاص يحصل عن طريق الإيمان فقط وليس بالأعمال. ولكن كالفن كان يعتقد بالاختيار المسبق، أي أن الإنسان بعد أن يخطئ لا يستطيع أن يمتلك الإرادة الحرة للتوبة، أما كل الذين سينالون الخلاص فأن الله كان قد سبق واختارهم قبل إنشاء العالم.

اعتبر كالفن الكتاب المقدس بأنه المرجعية الأولى ذات الشرعية والسلطة والتي يجب أن تخضع لها السلطات الأرضية، وقد نجح من خلال هذا الفكر بتشكيل حكومة ثيوقراطية في جنيف عرفت بنظامها المتشدد.

حتى النقاد المتعاطفين اتهموه بأنه قد تخلى عن أرضية التحليل النفسي التقليدية، ولم يحدد نفسه بشكل حاسم كفاية عن التيارات العلم نفس أعماقية. كما أخذ عليه إدخال مفهوم «الهوية» في التحليل النفسي، وبأنه غير واضح حول هويته كمحلل نفسي بشكل صاف كفاية. كما أنه هناك اتفاق على أن إيركسون قد استطاع دائماً تخطي حدود المجالات التخصصية الراسخة بصورة مستقلة. وإيركسون نفسه لم يترك أي مجال للشك في ولاءه لشخص فرويد ولرابطة التحليل النفسي العالمية. فعمل فرويد بالنسبة له هو «الصخرة» التي يبني عليها (1975 «أ»، صفحة 8)، «الطاقة الإيديولوجية الأساسية ومصدر الإلهام» (1981 «أ»، صفحة 237). وقد عالج إيركسون تاريخ التحليل النفسي في مقالات متعددة وابتعد في ذلك عن حركات الانفصال. وهناك نقطتين مهمتين تقلقان إيركسون في حركة التحليل النفسي ولا يريد التماهي معها شخصياً على الإطلاق: (1) الميل المتزايد للقطعية Dogmatism والعقم النظري في حروب الخنادق للمدارس التحليلية المختلفة: و (2) الآلية العلم طبيعية المطردة التحديد للتفكير التحليلي النفسي لما وراء علم النفس[٧].

لكلا النقطتين علاقة بمشكلة الهوية المستترة بالنسبة لإيركسون إلى حد ما، وهي ما يمكن لها أن تكون شديدة بشكل خاص في الطور الأولي لعلم ما. فالمجدد العلمي يبحث يحذوه الأمل على الاعتراف بأفكاره، وهو غالباً ما لا يحصل على الأغلب أو مع التحفظ، لأنه يؤثر على معاصريه بصورة مقلقة من خلال خرق عادات التفكير التقليدية. وقد كانت هذه المشكلة بالنسبة لفرويد أعمق بكثير. فبوصفه أحد أفراد أقلية يهودية كشف عن السلطة الكاملة للهيجانات الدافعية الكامنة خلف الأخلاق التي تبدو شريفة في ظاهرها لعصره وكسر بنظريته حول الجنسية الطفولية حرمة براءة الطفل. وقد عثر على سلطة الحياة النفسية اللاشعورية، التي لا يعود الأنا الواعي تجاهها «سيد نفسه». وتم رفض طروحات فرويد في العلن بغضب، وتم منع excommunication مذهبه عن علم ذلك الوقت. ولعقود كان على التحليل النفسي أن يكافح ضد طبقة سميكة من الأحكام المسبقة، من أجل الحصول على الأقل على مكانة علمية ويصبح جزءاً من الوعي العام.

لقد قارن إيركسون سيرة حياة فرويد بمصير مفكرين آخرين كبار من نحو كوبرنيكوس أو دارون أو ماركس أو آينشتاين، الذين تجرئوا على التشكيك بصور العالم ومنظومات القيم التي تبدو وكأنها راسخة. ومع ذلك لم يتمكن الرفض غير المنطقي لمعاصريهم من ثني هؤلاء المفكرين العظماء. ووفي قناعات فرويد الشعورية أسهم تحريم أفكاره في الشعور بالفخر المرير. غير أنه في الزاوية المتخفية من شخصيته كانت تربض غالبية المخاوف والحيرة، استطاعت أن تباغته مراراً في الأطوار الحرجة من مسيرته. مرة واحدة فقط استخدم فرويد تعبير «الهوية» أمام أعضاء محفل يهودي، من أجل التأكيد على تشابك طريق حياته مع مصير الشعب اليهودي: «غير أنه بقي الكثير، من ما يجعل من جذب اليهودية واليهود لا يقاوم، الكثير من قوى المشاعر المظلمة، تزداد قوة، كلما قلت إمكانية صياغتها بكلمات، مثل الإدراك الواضح للهوية الداخلية، سر التركيبة النفسية نفسها. يضاف إلى ذلك أنه سرعان ما أدركت أني أدين بالفضل لطبيعتي اليهودية في سمتين فقط أصبحتا لي ملازمتين على طريق حياتي الصعب؟ فلأني يهودي وجدت نفسي متحرراً من كثير من الأحكام المسبقة التي قيدت الآخرين في استخدام فطنتهم، كيهودي كنت مهيئاً للانتقال للمعارضة والتخلي عن الانسجام مع الأكثرية المتضامنة» (الأعمال الكاملة XVII، صفحة 52).

في هذه الملاحظة المختصرة يكمن الكثير مما يقصده إيركسون «بالهوية»: ففرويد يؤكد على الأنا الواعي لذاته، المتجذر في تقاليد جماعة ما، يستطيع المحافظة على مبادئه وأهدافه ضد المقاومة الخارجية. ويمكن توضيح ذلك أكثر من خلال بعض عبارات الاقتباس. فالحديث عن «قوى المشاعر المظلمة»، عن «سرية التركيبة النفسية نفسها»: على الرغم من أن فرويد لم يشعر بأنه معني بالدين اليهودي، فقد ظل مرتبطاً عاطفياً بقوة مع تقاليد الشعب اليهودي. فميله للشك والواقعية ونزع الوهم desillusionalization الذي لا يرحم، والحس التحليلي الحاد وأسلوبه في الكلام والحوار يكشف تأثره من خلال عقلية اليهودية.

شعر فرويد «بالتحرر، من الأحكام المسبقة، التي تقيد الآخرين في استخدام فكرهم» فهو يجسد هوية المفكر اليهودي الذي يستعرض بسلاح الفكر التفوق على معاصرين ممكني العدائية. طموحه، اجتهاده الممتاز لا يكشفان حسب إيركسون نوع من التمركز على الذات فحسب وإنما تمركز عرقي أيضاً. فحتى منذ القديم خضع نمو شخصية فرويد «لاستبداد داخلي»، في أن يحقق في حياته شيئاً عظيماً، خارقاً. فهو لم يختر دراسة الطب كثيراً نتيجة لاهتمام طبي؛ كان الأمر الأهم النزعة لتعرية الطبية، الطموح نحو إنجاز علمي متميز. لقد استخدم فرويد طرقاً علاجية غير تقليدية بشجاعة واقتحم مجالات كانت محرمة حتى ذلك الوقت من الحياة النفسية. وشكك بصورة متحررة من الأحكام المسبقة بعادات التفكير التقليدية للطب النفسي في ذلك الوقت وتوصل إلى معارف جديدة كلية، لم يكن بإمكان المفكرين المنضبطين التوصل إليها على الإطلاق. كان على فرويد أن يشهد كيف أن أفكاره لم تؤخذ على محمل الجد وكيف ابتعد عنه كثير من زملاء تخصصه. ولكن مصيره كيهودي ساعده هنا، «للانتقال إلى المعارضة والتخلي عن الانسجام مع الأكثرية المتضامنة».

لوحده ومن دون دعم تخصصي يذكر ومن دون رواد علميين عقليين سابقين طور فرويد في تسعينيات القرن التاسع عشر أسس عمل حياته الخالد monumental. وفي الواقع فقد بدا التحليل النفسي كما يرى إيركسون «بأنه انبثق من رأسه، كما انبثقت أثينا من رأس زيوس»[1] (1966 «أ» ص 14). لقد كانت سنوات التقوقع الداخلي، لاحت

(1) في الأسطورة الإغريقية يعتبر زيوس هو آلهة السماء والمشرع للآلهات الاولمبية ويعتبر زيوس هو المثيل اليوناني لجوبيتر الآلهة الرومانية.

زيوس استنادا للشاعر هوميروس كان الأب الأكبر للآلهة والأب الأكبر للمجرمين ولكنه لم يقم بإنجابهم هو يمثل فقط الأب الروحي فهم فقد كان الحامي والحارس والحاكم لكل من العائلة الاولمبية والجنس البشري وكان أيضا حاكم السماء فقد كان يسمى باله المطر وجامع السحاب الذي يتحكم بالرعد والبرق كان دائما يرتدي الدرع لحماية نفسه وكان طيره النسر وشجرته المفضلة شجر البلوط. حكم زيوس بيت الآلهة الموجود في اليونان «ثيسلي» كان مقر حكمه موجود في دودونا. في ايبروس، التي كانت تسمى بأرض البلوط حيث يقع فيه أقدم معبد الذي

فيها أيضاً، يعتقد إيركسون، الأزمة الإنتاجية[vi] generative Crises لسن الرشد الأوسط. فهل على فرويد العودة إلى عيادته الخاصة نتيجة القلق على أسرته المتنامية، أم عليه مواصله أفكاره المُغْيرة، ويتحمل هنا الاستنكار الاجتماعي والمخاطر المادية؟ كثير من رسائله في تلك الفترة تدل على وجود حيرة وتعكر اكتئابي. وكان طبيب الأنف والأذن والحنجرة البرليني فيلهيلم فليس Wilhelm Fliess من بين القلائل الذين أخذوا أفكار فرويد على محمل الجد. ففي الرسائل المتبادلة مع فليس Fliess، التي نشرها إيركسون بشرح جديد، يمكن فهم تاريخ نشوء التحليل النفسي بأدق تفاصيله[vii] ويعتقد إيركسون مع فليس، «بأن فرويد قد تمكن من التملص من علاقة الثنائية القطبية تلك، التي يحتاجها الكثير من الناس المبدعين من أجل التجلد بالشجاعة على الأصالة الذاتية. وإلى حد ما توجد مثل هذه العلاقة في التخصيص المتبادل للدور المزدوج بين المرجعية الخيرة والشركاء الشجعان، بين الجمهور المصفق ودور الكورس المحذر، يحمي كلا المشاركين من مشاعر الذنب ومخاوف-الخجل، التي كانت ستتسبب بكبح طموحاتهم الأعمق» (1982، صفحة 57).

اشتهر بأن زيوس أتاه وحي أو الهام فكرة الألعاب الاولمبية والتي تقام كل أربع سنوات على شرفه وكانت تسمى العاب النيميان نسبة إلى مدينة نيميا في شمالي أرقوس التي كانت أيضا تحت حكم زيوس.

زيوس كان الابن الأصغر لتيتانس كرونس وريا وكان أخا للآلهة بوسيدون، هاديس، هيستيا وديميتر استنادا لأحد الميثلوجي الإغريقية التي كانت تتحدث عن ولادة زيوس .كرونس كان خائفا من أن يُطاح به من قبل احد أبنائه لذا كان يبتلعهم في حين ولادتهم ولكن في حين ولادة زيوس خافت أمه ريا عليه لذلك أرسلته إلى جزيرة كريتي حيث كانت خراف الجزيرة تسقيه من حليبها وقامت على رعايته وتنشئته حورية في تلك الجزيرة. عندما بلغ زيوس سن الرشد أرغم كرونس على أن يتقيأ جميع أبنائه الذين ابتلعهم الذي كانوا حرضوا فيها بعد على أخذ الثأر من أبيهم. لذلك نشبت حرب بين الأبناء والأب وقد وقف العمالقة (التيتانس) في جانب كرونس ولكن في النهاية ربح زيوس وأخوته الحرب على أبيهم وأرسل العمالقة إلى قعر تارتروس. أصبح زيوس من الآن فصاعدا حاكما للسماء وأخوته بوسيدون وهاديس أعطوا السلطة على البحر وماتحت الأرض بشكل متعاقب. بعدها أصبحت الأرض في قبضة هؤلاء الثلاثة.

وتقول الأسطورة أن زيوس ابتلع، زوجته ميتيس التي كانت على وشك أن تضع طفلا. بعد ذلك تعرض زيوس لآلام رأس لاتحتمل ولكي يشفى شقت جمجمته بفأس ومن الجرح خرجت أثينا وهي تصيح صيحة الانتصار كانت أثينا هي طفلة زيوس الأثيرة وتفضيله لها كان ملحوظا وتساهله معها كان بلا حدود حتى أنه أثار غيرة باقي الآلهة .

بداية بعد نهاية القرن التاسع عشر، وعندما انهارت العلاقة مع فليس، تحلقت أزمة من الثقة حول فرويد، جوهر الحركة التحليل نفسيه اللاحقة. ظلت في البداية حلقة صغيرة، وإن كانت مثمرة بشكل كبير فكرياً. وقادت المعاداة وسوء الفهم المتنوعين لدى فرويد إلى اتجاه مطرد الحزم-غير متسامح ووحدت أتباعه اليهود على الأغلب. إن ولاء بعض المهمشين القلائل لفكرة ثورية أطلقت في العقود التالية الكثير من الحماس والإبداعية. إلا أن الخطر كان - وهو ما غمر إيركسون منذ وقت مبكر بالانزعاج- في تحيد دفاعي مطرد عن الخارج، تصعيد للطروحات الذاتية وعدم تسامح متنامي تجاه الخروج عن الصف، بحيث أن -كما يرى إيركسون- «التطور في التجديد الثوري قد سار في طريق النظرية التقليدية، بل حتى الأرثوذوكسية- وما ينجم عن ذلك من بدع- خلال وقت قصير. أنا استطعت على الأقل ملاحظة هذا مع العمر، مع أني أعترف بأن اهتمامي الأساسي بتدفق الظواهر قلما سمح بالميل عندي للبحث عن الأمان في الأرثوذوكسية أو الهرب إلى البدع» (1982 «ب»،صفحة 101).

شعر فرويد في حياته بعدم الارتياح بالاستدلالات التي لم تكن واقعة على خط أفكاره العلمي أو التي لم يتوصل إليها هو نفسه بعد؛ وقد أيدته غالبية المقربين منه في هذا الموقف. في حين أن مبدعين آخرين كآدلر أو يونغ أو رانك أو ستيكل لم يكونوا مستعدين على الدوام للتخلي عن إبداعيتهم العلمية الخاصة. بداية عندما خرج هؤلاء المفكرون من ظل فرويد، أصبحوا أحراراً في تطوير مدارسهم العلم نفس أعماقية الخاصة. ولكن حتى بالنسبة لفرويد عنت ردة «المنشقين» ترسيخ لهويته العلمية. فقد تمكن من اعتبار التحليل النفسي بأنه «إبداعه» (المجلدات الكاملة X، ص44) وإنجاز الأسس العلمية للتحليل، التي لا يجوز التشكيك بها. لقد عكست حدة المواجهة بين فرويد والمنشقين عمق مشكلة الهوية. ولأسباب إيديولوجية إلى حد ما أهمل التحليل النفسي فيما بعد مجالات من المواضيع، أكدت عليها المدارس المتمردة بشكل خاص.

ومن هنا فقد وقع التاريخ اللاحق لحركة التحليل النفسي حسب إيركسون بمشكلة ولاء الابن. وكان السؤال اللاشعوري في خلفية كثير من المحللين، ما الذي كان «هو»،

فرويد، سيتقبله، وما الذي كان سيرفضه. فتحت قيادة فرويد نفسه كان المذهب التحليلي النفسي في تدفق مستمر. وبصورة قلما تشبه مفكر آخر كان قادراً دائماً على تعديل نماذجه أو التخلي عنها كلية، إذا ما لم تعد تثبت فائدتها. وكثير من أتباعه اللاحقين لم يتبنوا هذه المسافة النقدية. وبدلاً من النظر لعمل فرويد على أنه منظور مستفيض لم ينته بعد، لم يتمكن معظم تلامذته ومقربيه من فهم سوى مرحلة من تفكيره بصورة كاملة. وتشكلت حول ممثلي الاختصاص مدارس متمردة، حاولت تحويل مواقف جزئية محددة لفرويد إلى «وجهة نظر تقليدية». وهكذا دمج حسب إيركسون «تلامذة منفردين لفرويد هويتهم الفردية مع هذه أو تلك الطروحات لفرويد، طروحات بدت أنها تحقق شعوراً محدداً بالهوية التحليلية النفسية وفي الوقت نفسه إيديولوجية مُلهِمة. في حين أن زملاء آخرين من ناحية أخرى خدمتهم طروحات مضادة متطرفة حول طروحات مؤقتة كلية كأساس لهويتهم العلمية والمهنية. ومثل هذه الهويات يمكن أن تتوسع عندئذ بسهولة إلى مدارس إيديولوجية وبناءات نظام غير عكوس، تكون دائماً ضد النقاش والتعديل» (1981، صفحة 196).

إيركسون نفسه نظر للتحليل النفسي على أنه أداة بحث، يمكن من خلالها عمل اكتشافات متجددة باستمرار ورأى أن وظيفتها في قبول خبرات ونتائج جديدة للعلوم الجارة في مذهب التحليل النفسي، من دون نبذ المكونات الأساسية بشكل متهور. وموقفه المبدئي غير المتحيز أزعج تلك القطعية Dogmatism، التي انتشرت في حرب الخنادق بين «الفرويديين» و «الكلاينيين»، «نفسانيو الأنا Ego-Psychologists» أو ممثلي «علم نفس الذات Self-Psychology». فإيركسون رفض باستمرار الالتزام بمجموعة محددة. لقد ظل فردانياً، يفضل عمل الاكتشافات بنفسه ولم يهتم كثيراً بالمجادلات النظرية مع علماء التحليل النفسي الآخرين.

ومنذ أن تحول التحليل النفسي من علم هامشي إلى طريقة علاجية تحظى بالاعتراف الاجتماعي تأزمت مسألة، ما هو «التحليل النفسي» الحقيقي ومن المصرح له ممارسة المسؤولية. فمنذ أن حرّمت منظمة مهنية طبية محافظة في أمريكا على التخصصات الأخرى

الدخول في التأهيل، ظهر خطر ضياع التبادل البين تخصصي المثمر للأفكار والشوكة النقدية الثقافية للتحليل النفسي الباكر. وكان إيركسون قد أشار مراراً إلى مخاطر التمهين الطبي والتمدرس المفرط للتأهيل. وبالنظر لهرمية المستشفيات الأمريكية فإن التعلقات الطفولية والارتباطات الأوديبية تهدد أن تصبح أشد لدى مرشحي التأهيل بدلاً من تناقصها، هناك خطر بأن يجري النزاع بين المؤسسات المتعادية على ظهورهم. إيركسون أيد تقييد التحليل التعليمي، كي لا يتأثر مرشح التأهيل الشاب في استقلاليته الداخلية والخارجية بشكل كبير. وإلا فإنه من الممكن أن يحدث بسهولة أن يتم مع الزمن التخلي عن الموقف الشخصي أو التحفظات النقدية نتيجة لعلاقة النقل المُقدَّسة idealize للمحلل التعليمي أو نتيجة للولاء لمعهد تحليلي نفسي محدد. فمن شروط الاستخدام المسؤول للتحليل النفسي حسب إيركسون من حيث المبدأ المحاسبة النقدية الذاتية. فالروح التنويرية-المتسائلة للتحليل النفسي ينبغي أن تنطبق أولاً على مؤسساته ومدارسه التعليمية الخاصة. وإلا ربما يكون التحليل النفسي معرضاً لخطر، فقدان الاتصال بالحقيقة التاريخية، وبشكل خاص بالوضع المتحول لمشكلة المرضى. وعلى المحللين المبتدئين بشكل خاص أن يسألوا أنفسهم ما هي الخبرات الحياتية الخاصة والمشكلات غير المتمثلة، ما هي الدوافع الشعورية والأقل شعورية جعلتهم يختارون هذا المجال من التخصص بالذات. ويمكن لتعلم الأساليب التحليلية أن يستخدم بسهولة في تغطية مشكلات الهوية غير المحلولة للمرشح، إلا أن التحليل النفسي قد قدم في تاريخه المبكر «إمكانات غنية لتنوع من الهويات: فقد منح أشد الطموحات تناقضاً وظيفة وأهداف جديدة - الفلسفة الطبيعية والجدل التلمودي، التقليد الطبي وحماس التبشير، فن الوصف الأدبي وبناء النموذج العلمي، الإصلاح الاجتماعي وكسب المال» (1981 «ب»، ص196)[viii].

في العقود الأخيرة تشعب التحليل النفسي إلى كثير من الفروع، إلى درجة أنه يبدو بالنسبة للمراقب الخارجي غالباً مثل خليط مربك من النظريات. فلو أردنا تصنيف إيركسون في مجموعة محددة، فإن الأمر اليوم لن يبدو ممكناً كثيراً. فهو يعد نفسه تلميذاً

لفرويد، يقف على كتفي المعلم ويواصل أفكاره الخلاقة. ونظرياً تبدو كثير من مساهمات إيركسون واقعة بين علم نفس الأنا التقليدي لأنا فرويد وهاينز هارتمان وبين مؤسسي علم نفس الأنا وعلم نفس الذات وعلم نفس علاقة الموضوع، من نحو شبتس Spitz، أو مالر Mahler أوي ياكوبسون Jacobson أو فينيكوت Winnicot أو كيرنبيرغ Kernberg أو كووت Kohut، الذين يقترب أحياناً من رؤيتهم أو حتى يسبقهم في معظم مبادئهم. فبلا أن سعة وتنوع تفكير إيركسون لا تتيح اختصاره على واحدة من هذه التيارات. ففي تأكيده على الاجتماعية والمسؤولية الاجتماعية يذكرنا باستدلالات آدلر، وفي إنسانيته، وإبراز القوة الدينية - الأخلاقية للشخصية الإنسانية يشبه إيركسون ما يسمى بالفرويديين الجدد إيريك فروم Erich From أو كارين هورني Karen Horney أو هاري سوليفان Harry St. Sullivan. وبالطبع فإن إيركسون لم يخضع أبداً للإغراءات، بتناول أجزاء من المذهب التحليلي وتطويرها، وإهمال أجزاء أخرى من نحو الرؤى غير المريحة لفرويد على سبيل المثال حول الأسس الدافعية للسلوك الإنساني.

ومن المؤكد أن إيركسون قد انتقد أحياناً التبسيط للفكر التحليلي النفسي وبالذات في الولايات المتحدة الأمريكية. فبدلاً من أن يقود علم الدافع إلى جنسية بين إنسانية كثيراً ما قاد إلى ممارسة الاستغلال الجنسي للآخرين. إن إدراك الجذور الطفولية الباكرة للعاصب جعلت غالبية المعاصرين يشعرون بأنهم ضحايا مستسلمين لوالديهم –وغالباً ما كان هذا مبرراً كفاية، من أجل تجنب تحمل المسؤولية في حياة الرشد. وبدلاً من تنمية الإدراك الذاتي والالتزام الاجتماعي، فإنه ليس من النادر أن انحط التحليل النفسي في دوائر الطبقة الوسطى الأمريكية إلى لعلب أدوار رائج mode. وحتماً فقد طرح معارضو التحليل النفسي حججاً مشابهة، إلا أن نقد إيركسون ليس هداماً. إنه يريد إغناء التحليل النفسي بمواضيع، أهملت في المراحل الأولى لهذا العلم، يريد التوسيع، بناء الجسور، يخلف روح فرويد الخلاقة ولا يسحق نفسه في بدع ضيقة الأفق. وفي كل كتاباته وأبحاثه ومعالجاته ظل إيركسون محللاً نفسياً. وتمسك بالمفاهيم الأساسية التقليدية وتقنيات العلاج التقليدية، مناصراً، كما عبر شراميل Schraml مرة، «نموذجياً

لذلك المطلب الحديث للتحليل النفسي، الذي نحب أن نطلق عليه نحن (الحرية في الأرثوذوكسية) » (1968، ص960).

ومع ذلك فإن إيركسون لا يبدو بأنه غير مذنب كلية في أن كثير من النقاد يشككون فيما إذا كان يريد بالفعل أن يتمسك بالمفاهيم الفرويدية، أو فيما إذا كان يريد الاحتفاظ بالشكل الخارجي فقط، من أجل تمويه إلى أي مدى ابتعد مضمونياً عن ذلك. هل كان فرويد سيؤيد تطويرات إيركسون؟ أم أن إيركسون في تأكيده على الشعور والتفاعل الاجتماعي والفضائل الأخلاقية أهمل بشدة أغوار لامنطقية اللاشعور؟ يؤكد إيركسون مراراً ولاءه لفرويد وقلما جادل في صيغة حادة تصورات المؤلفين التحليليين الآخرين. ألم يكن عليه أن يبرز بشكل أوضح موقفه الخاص والقرب الكثير من المنشقين المحرومين excommunicate dissidents، ولو كان في هذا خطر من أن يحظى بانتقادات زملاءه المحللين النفسيين؟ وهكذا يتولد الانطباع في كثير من الأماكن أن إيركسون يربي أصالته فقط إلى الحد الذي لابد له فيه أن يخاف من ألا يعود ينتمي للحركة التحليلية النفسية. فهل هذا تعبير عن تواضع محض؟ ألا يكمن خلف ذلك عدم ثقة هوية ابن الزوجة أو الخوف من سخط الأب؟ أم يخشى إيركسون من حسد زملاءه له، فهو قد أصبح، على الرغم من أن الأمر في الواقع لا يستتبع ذلك، واحد من أكثر أتباع الأب المؤسس شهرة؟

1.8 نقد « روبوتات الروح » عند فرويد

عالج إيركسون في مقالات عدة تاريخ ما قبل التحليل النفسي والتاريخ المبكر للتحليل النفسي، تلك السنوات الصعبة لتغير اهتمام فرويد من العصبية إلى علم النفس (١٨) فقد كان فرويد بالأصل طبيباً عصبياً واهتم بعد حصوله على دكتوراه في الطب بخدمة تقشفية في الفيزيولوجيا الفيزيائية في ذلك الوقت. ويعتبر إيركسون هذه السنوات في المختبر الفيزيولوجي سنوات تعليق moratorium فرويد. وهنا حصل على تأهيل طرائقي نظري علمي أساسي، وبداية بعد ذلك أمكن للجانب الإبداعي -الخلاق الانبثاق

لشخصيته أن يتفتح. وقبل تأسيس التحليل النفسي بوقت طويل كان قد تحدد أسلوب فرويد في العمل ورؤيته العلمية وعادات نشره. ومع اكتشافاته الانقلابية حول الجذور اللاشعورية للأعراض العصابية كان من البديهي أن يبتعد فرويد باطراد عن نقطة انطلاقه الأساسية، عصبية وفيزيولوجيا القرن التاسع عشر. تحول التحليل النفسي إلى علم نفس مرضي جديد، وبعد ذلك إلى علم نفس عام، طبقه فرويد في عمله اللاحق على الفن والأدب ونقد المجتمع والدين. كان الانفصال عن صورة القرن التاسع عشر للعالم الطبي خطوة شجاعة، لكنها تكن أبداً موفقة تماماً وسبب لفرويد طوال عمره مشكلة هوية. فمراراً نجد في أعماله ما يشبه الاعتذارات لانزلاقه إلى النفسي. اخترق فرويد أدق المجالات في النفس، لم تكن مطروقة حتى ذلك الوقت إلا على الأكثر من قبل الشعراء وكتاب التراجيديا بصورة حدسية، إلا أنه نقل إلى هذا الفهم ضوابط عمل المختبر الفيزيولوجي، وكأنه يريد برهان هويته كعالم طبيعي ومن أجل ألا ينظر إليه على أنه مؤلف أو مغالي. فكثير من المصطلحات المعروفة للتحليل النفسي من نحو «الإشغال» أو «الإسقاط» أو «المقاومة» أو «النكوص» أو «مرحلة الكمون» مستقاة من الفيزيولوجيا.

وحتى موته ظل هدف فرويد الأكبر اشتقاق علم طبيعي من التحليل النفسي، وبالنتيجة النهائية تفسير الحدث النفسي كلية وفق قانونيات علمية طبيعية - سببية. لم يتحدث فرويد مرة عن الروح، وإنما عن «الجهاز النفسي»، من أجل بناء علم النفس «على أساس شبيه مثله مثل أي علم آخر، كالفيزياء على سبيل المثال» (الأعمال الكاملة VXII، صفحة 126). ومن أجل الوصف الأفضل لأجزاء ووظائف هذا الجهاز النفسي أبدع فرويد «ما وراء علم النفس Meta psychology»، البناء الفوقي للتحليل النفسي، الذي أتاح، موضعة كل ملاحظة عيادية منفردة على مرتبة معينة. فيما يشبه العنصر الكيماوي في جدول العناصر، يرى إيركسون، ينبغي أن يتاح أيضاً وصف كل عملية نفسية موضعياً وديناميكاً واقتصادياً ووراثياً بدون ثغرات: «بالكامل وكأن القوة الأولية لاكتشافاته قد أثارت لدى الباحث الطبي شعور الاغترار، بدا عازماً على ربط

علم نفسه التأملي، معارفه الواسعة جداً مع ذلك النظام من التفكير، الذي سيطر في سنوات شبابه الأولى على ولاءه العلمي وأسهم في مساعدته على ترسيخ هويته المهنية» (1982، ص 36-37).

وفي ظل ظروف معينة احتل الاهتمام بالدوافع أهمية حاسمة في تفكير فرويد لأنه كان يأمل في سره في أن يتمكن من الوصول عبر علم الدافع إلى الانضواء في العلوم الطبيعية الدقيقة. ربما كانت الدوافع المنبثقة من مصادر بيولوجية تلك القوى المادية أساساً في الحياة النفسية –المطابق الكيماوي–الفيزيائي –، التي يمكن من خلالها إظهار ارتباطات دقيقة بين الحوادث النفسية والفيزيولوجية؟ ألهذا أصبحت الدوافع المادة الأولية لكل الإرادة والرغبة الإنسانية؟ في «مسودة حول علم النفس» (1895) بدا نموذج فرويد في الشخصية وكأنه روبوت نفسي، تتحول فيه حياته الداخلية طاقات الدوافع أو تزاح أو تكبت أو يتم تصريفها في أفعال خارجية. وعلى الرغم من أن تصورات فرويد اللاحقة من علم نفس الأنا ومن التصورات ذات الوجه الثقافي لم تعد منسجمة مع التصورات الآلية الهيدروليكية، فإنه يبدو أنه قد أمل حتى اللحظة الأخيرة لو أنه أمكن في ذلك الوقت تنظيم معارفه في نموذج فيزيولوجي بشكل كامل. وحتى في عمله المنشور بعد موته «الموجز في التحليل النفسي» جاء: «على العلم المستقبلي أن يشكل من المعطيات التي مازالت الآن منعزلة فهماً جديداً. إنه ليس علم النفس وإنما البيولوجيا هي التي فيها هنا ثغرة» (الأعمال الكاملة XVII ، صفحة 113).

لقد كان التأسيس العلمي الطبيعي للحياة النفسية ما يشبه تركة فرويد الموصى بها وحددت بشكل خاص تفكير كلا المنظرين الكبيرين هارتمان رابابورت Hartmann & Rapaport. وحتى اليوم ظل ماوراء علم النفس Meta Psychology ضرب من التفكير التحليلي النفسي[X]. يتحدث المريض عن خبراته ومشاعره، ويترجم المحلل النفسي في رأسه بلغته النظرية الخاصة. إنه يخمن «وظائف الأنا»، أو «التمثيلات الروحية» أو «آليات الدفاع» العاملة «بمقادير محددة من الطاقة»، إنه يرى «أنا» المريض مهدداً من «هو» عاصٍ أو معذباً من «أنا أعلى» سادي – رهيب. ونزوعات الدافع هي مراراً

المصدر الأخير لهذا الحدث الديناميكي في الحياة الروحية بالنسبة للتحليل النفسي. فإذا ما بنى المحلل فرضية حول صراعات مريضه فلابد له من ترك العالم الماوراء نفسي ثانية وتقديم تأويل قريب من الحياة قدر الإمكان للمريض. كانت القوى والأجهزة والوظائف بالأصل استعارات مجازية ساعدت فرويد على التحرك في المجال المجهول بالكامل للحياة النفسية اللاشعورية. وكان الخطر هنا مع الزمن نسيان عدم التشابه الكلي بين العصبية وعلم النفس والاشتقاق من اللغة الوصفية-الاسمية substanitistic - adjectivistic لعلم النفس التأملي وحدة عينية، وكأن «الليبدو» أو «الهو» أو «الذات» هي مواد قائمة بالفعل وليست مجرد مُساعِدات تفكير لوصف الظواهر العيادية.

ويرى إيركسون بأن التمسك بالتصورات العلمية الطبيعية للقرن التاسع عشر هي بقايا تاريخية، تكبح في النهاية تطوير التحليل النفسي. فالإنسان بالنسبة لإيريكسون ليس روبوتاً معزولاً بذاته، ليس تجميعاً لأجهزة ووظائف. لقد كان خطأ التفكير الأساسي هو أن التحليل النفسي لم يدرك الفرق بين الحي وغير الحي، بين السلوك السوي والمرضي، بين المريض المعزول على أريكة العلاج وبين إنسان الحياة اليومية المنغمس في علاقات اجتماعية متنوعة. يبدو تفكير إيركسون مثير من الناحية الكلانية والتبيؤية ecological والعضوانية organicismic. ففرادة وعفوية وإبداعية العمليات الحياتية، التشكيل الكلاّني للروح الإنسانية لا يمكن إدراكها من العلوم الطبيعية، بمقدار ما لا يستطيع المرء اعتبار الحياة النفسية بشكل كاف كساحة معركة الدوافع المتجلية أسطورياً. ومن أكبر مناقب فرويد أنه تتبع تأثيرات الدوافع الجنسية بشكل خاص وصولاً إلى داخل خلجات الروح المحيرة. ومن ناحية أخرى لا يوجد لا يوجد «ليبيدو» جار بشكل منعزل في البحث عن «مواضيع» في العالم الخارجي، وإيريكسون يريد «البحث عن المكان الصحيح لنظرية الليبدو داخل كلية الوجود الإنساني»، يريد تجنب خطر، «تحجيم الإنساني الحي في دور الدمى المتحركة لإيروس Eros أسطوري - لا يفيد لا العلاج ولا النظرية» (1982 «أ»، صفحة 58).

وبرنامج إيركسون الكبير هو مصالحة الاتجاهات البيولوجية والاستعرافية والثقافية

الاجتماعية في التحليل النفسي وعلم النفس، إنه يريد مناقشة «الأسس البيولوجية لنظرية فرويد في التحليل النفسي، أي المجرى الزمني للتطور الليبدوي وربطه مع ما نعرفه حتى الآن حول الأنا وما بدأنا بمعرفته حول المجتمع» (1982 «أ»، ص40). وبما يشبه ممثلي علم نفس الذات وعلم نفس علاقة الموضوع Self- and Object relationship psychology لا يفكر إيركسون كثيراً بالدوافع وأشكال الخيبة. فتطور الدوافع منسوج بشكل غير قابل للفصل في العلاقات البين إنسانية وفي هذه العلاقات من ناحية أخرى يجمع الطفل خبرات لامتناهية حول نفسه والعالم، المادة لبناء مسودة وجود فردي للغاية. ويحتل مركز تفكير إيركسون الإنسان المعايش والمريد، الطامح للاتحاد والمعنى. واهتمامه الأساسي هو الهوية، التي تبرز الكلانية غير المدركة وتمايزية هذه الذات Subject. وهذا يعني: أن إيركسون ينقلب على اتجاه العلم الحديث بالذات، في تقسيم الإنسان بين البيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع وتشريحه إلى أجزاءه المنفردة. ففي هذه الأيام يتم فحص الجسد ويخضع لفحوصات فيزيولوجية أو يشرَّح. ويتم قياس الإنجازات الحركية أو المعرفية بالاختبارات النفسية، والميول أو الصراعات الداخلية أو المخاوف بالاستبيانات والسلوك الاجتماعي بالتجارب أو الإحصاءات. وبهذا يختفي الإنسان في كلانيته خلف خليط من الوقائع ونتائج القياس، وكلما كانت الطريقة المعنية في الحصول على البيانات أكثر دقة، ازدادت تعمية الموقف الكلي وضاعت التكاملية والتبادلية الحاسمة للعوامل المدروسة.

وفي الواقع فإنه لا يمكن فصل الحوادث الجسمية والنفسية، بمقدار ما لا يمكن كذلك تصور الفرد منعزلاً عن المجتمع. وذلك الذي أطلق عليه التحليل النفسي تسمية الهو والأنا والأنا الأعلى، تمثل عمليات التنظيم الثلاثة الكبيرة للحياة: (1) مراكز التنظيم الفيزيولوجية المعقدة للغاية للعضوية للحفاظ على الوظائف الجسمية؛ (2) الفعاليات النفسية المتنوعة بصورة نادرة للأنا من أجل تنظيم عالم خبراتنا وتوجيه سلوكنا؛ (3) حوادث التنظيم الاجتماعية بالغة التمايز لتنظيم الحياة الاجتماعية المشتركة في الجماعة والمؤسسات والمجتمع بوصفه كل. وكل نمو سليم يتحدد من حوادث التنظيم

الثلاثة كلها بالدرجة نفسها، التي تتبادل باستمرار التأثير على بعضها بالمقدار نفسه. كما تنتج عن النقص في الانسجام بين التنظيمات الثلاثة الصراعات الإنسانية التي تثير التوتر الخلاق من جهة والأمراض والعصاب من ناحية أخرى. ويستنتج إيركسون حول هذه الفيزيولوجيا المعقدة جداً للعمليات الحياتية: «المخلوق الإنساني هو في كل لحظة عضوية، أنا وعضو جمعية ما وفي كل عمليات التنظيم الثلاثة. جسده خاضع للألم والتوتر، أنه للقلق، وكعضو مجتمع يخضع للهلع المؤثر في جماعته بشكل كامن إلى حد قليل أو كبير» (1982 «أ»، ص29).

ودائماً ينطلق إيركسون في عمله العلاجي النفسي وفي بحثه العلمي من هذا «الحسبة الثلاثية»، من الحالة الجسدية والوضع النفسي وشبكة العلاقات الاجتماعية للفرد. وقد حماه هذا من التفسيرات المبسطة جداً: فالإنسان ليس دمية تحركها النزوعات الدافعية ولا حزمة من الأدوار الاجتماعية ومن المؤكد ليس مجرد مخلوق عاقل موهوب عقلياً. ليست «المورثات» التي بها عيوب أو «الأم الفصامية» أو «المنظومة الأسرية المجنونة» هي وحدها المسؤولة عن الاضطرابات النفسية. لقد تحدث فرويد عن الحتمية المتعددة للأعراض العصابية، وفي الواقع فإن كل سلوك إنساني، سواء كان سليماً أم مريضاً، يتحدد من خلال عدد لا متناهي من العوامل، أكثر مما يمكن لأية نظرية علمية أن تدركه.

الصراع بين عالم لغة ونموذج ملتزم بفيزياء وعصبية القرن التاسع عشر وعلاج نفسي تأويلي يركز على الحق الخاص للشخص، يرى كونج (Koenig,1981)، حدد تاريخ التحليل النفسي ولم يتمكن فرويد أو أتباعه المباشرين من حله بشكل باعث على الرضا. الفنان في ذاته جعل إيركسون يخشى من التفكير في الطاقات والأجهزة، إنه يترك المسائل العلم نفس تأملية لأولئك، «الذين يشعرون أنهم في ميدانهم في هذا النوع من التفكير» (1981 «ب»، صفحة 9). ومن ناحية أخرى فلما قدم إيركسون اقتراحات، كيف يمكن أن يبدو تحويل اتجاه التحليل النفسي عن الأساس العلمي الطبيعي بشكل ملموس. فعلى أي أرضية يفترض أن يقف التحليل النفسي؟ ما هي الاتجاهات الأقرب

للتحليل النفسي في علم النفس الحديث؟ ويبد هناك تناقض عندما يتمسك إيركسون بكل المفاهيم الأساسية التقليدية للتحليل النفسي، ويريد الابتعاد عن النماذج العلمية الطبيعية التي تقوم عليها. صورة الإنسان عنده، أسلوبه الخاص في التفكير والخبرة يشبه مراراً المفكرين الرومانسيين أو مفكري فلسفة الحياة أو العلوم العقلية، وكثير من مفاهيمه لا يمكن من حيث المبدأ تصنيفها بشكل ملائم في تصويره تفكير علمية طبيعية. أليس مصطلح «الهوية» أقرب إلى العلوم العقلية والظواهرية، أليست مفاهيم من نحو «دورة الحياة» أو «التخلق المتعاقب epigenesis» أو «النظام Modus» عضائية وحيوية؟. إن التفكير بهذه الأفكار بشكل ملموس حتى النهاية ربما كان سيتطلب تصوراً جديداً للتحليل النفسي. وفي النهاية يظل لدى إيركسون في هذه المسألة الانطباع بالازدواجية. ويبدو أنه أقرب لمواصلة الازدواجية بدلاً من حلها بشكل حازم في صالحه.

هوامش الفصل الأول:

(i) توجد أفكار حول الهوية الأمريكية بشكل خاص في «لعب الأطفال والخيال السياسي» 1978 «ب»، صفحة 13-23 وصفحة 118-140، وفي «أبعاد هوية جديدة» 1975 «ب».

(ii) أنظر:

Erik and Kai T. Eriksin 1957c "Conformation of Delinquent", Chicago Review 10, P. 15-23.

(iii) قارن على سبيل المثال:

Elrod 1978, Neubauer 1981, Parin 1980, Rosenkötter 1975.

(iv) إلى جانب السيرة الذاتية لكولس 1974، Coles توجد مراجعة حول حياة وأعمال إيركسون في آدمز، Adams 1977 . كما قدم آرينز، Arenz 1980 وفرانك، 1990 Frank بيانات مهمة حول طفولة وشباب إيركسون. وإيركسون نفسه كتب عن تاريخ حياته في المقال الصادر في مجلة Psyche بعنوان «شيء من السيرة الذاتية حول أزمة الهوية»، والموجود أيضاً في صيغة معدلة إلى حد ما في فصل «أزمة الهوية من منظور السيرة الذاتية» من «تاريخ الحياة واللحظة التاريخية»، 1982 «ب»، صفحة 15-48.
كما توجد بيانات حول المراحل المتفرقة في حياة إيركسون على سبيل المثال لدى:

Evans 1967, Goeppel 1991, Keniston 1983, Roazen 1976, Wartenberg 1991 oder Zahn 1980.

(v) غالباً ما يتطرق إيركسون إلى تاريخ حركة التحليل النفسي وفي مقالات «التحليل النفسي: التكيف أم الحرية؟»، في «تاريخ الحياة واللحظة التاريخية»، 1982، صفحة 258-275 ؛ «المحلل النفسي الأول»، في: «الاستبصار والمسؤولية»، 1966 «أ»، صفحة 13-41؛ بالإضافة إلى فقرة «النظرية والإيديولوجية»، في: «الشباب والأزمة»، 1981 «أ»، صفحة 234-241؛ وفصل «النسبية التاريخية في الطرق التحليلية النفسية» ، في: «دورة الحياة الكاملة»، 1988، صفحة 127-140.

(vi) في مقاله «نموذج حلم التحليل النفسي»، في مجلة النفس (1954-1955) Psyche، فسر إيركسون حلم فرويد المشهور «حقنة إيرما» من جديد ويرى هنا علامات من الأزمة الإنتاجية generative في سن الرشد المتوسط. ويوجد المقال في صورة مختصرة في فقرة «حلم حقنة إيرما لفرويد» في: «الشباب والأزمة»، 1981 «أ»، صفحة 204-211.

(vii) أنظر فصل «صداقة تاريخية: رسائل فرويد إلى فيلهيلم فليس»، في «تاريخ الحياة واللحظة التاريخية»، 1982 «ب»، صفحة 50-82.

(viii) قارن حول هذا أيضاً:

Bauriedl 1984, Mitscherlich-Nielsen 1977, Thomä 1977, 1991a und 1991b.

(ix) أنظر مقالات:

"The Origins of Psychoanalysis", in Psyche 1955-56; "Sigmund Freuds psychoanalytische Krise", in: "Freud in der Gegenwart" 1957b; "Der erste Psychoanalytiker", in: "Einsicht und Verantwortung", 1966a, S. 13-41.

(x) قارن:

Vgl. König 1981 und 1983, Künzler 1980, Schafer 1982 und 1985 .

الفصل الثاني

الهوية وأزمة الهوية

2.1 تنوع مفهوم الهوية

قلما يوجد مفهوم من المفاهيم النفسية لاقى من الانتشار في لغة الحياة اليومية أكثر من مفهوم «الهوية» أو «أزمة الهوية» إلى جانب «مركب النقص» لأدلر. وقد ينظر المرء لهذا على أنه ظاهرة سطحية من الموضة. ولكن أليس للاستخدام الجماهيري لمفهوم الهوية خلفية أكثر جدية؟ أليست استقلالية وأصالة الشخص مهددة في عالم مجهول وتحت الوصاية بشكل ملحوظ؟ في المجتمع الإقطاعي في القرون الماضية كانت خبرة العالم للإنسان من الطبقة الوسطى محددة مسبقاً من خلال التقاليد الصارمة ومن خلال الاعتماد على العائلة، على الطبقة، على الله بشكل بديهي بحيث لم يكن هناك إلا القليل من الأسباب للتشكيك بالذات أو حتى لأزمات الهوية. وحتى بالنسبة لأوائل مرضى فرويد مازال العالم البرجوازي للعصر الفيكتوري يشكل إطاراً اجتماعياً راسخاً. ومعاناتهم العصابية كانت تشير إلى الصراع الداخلي بين الضمير الصارم الانفعالات المكبوتة التي لم يكن بالإمكان تحجيمها وفق المشد الصارم لأشكال الأدب البرجوازية.

ومنذ ذلك الحين أطاحت الحرب العالمية والثورات بالنظم الاجتماعية التي كانت تبدو راسخة، وجلب التقدم التقني سرعة تحول غير معروفة حتى الآن في التعايش الاجتماعي. ولم تعد التقاليد والاتجاهات الاجتماعية، التي تمنح – وإن كان بشكل ضيق إلى حد ما– غالبية البشر الشعور بالانتماء ومعنى الحياة، موجودة إلا على شكل شذرات. وداخل فيضان مُشَتِّت من المثيرات والمعلومات وبالنظر لعدد كبير من أشكال الحياة

وعروض المعنى غير المتجانسة لابد للفرد أن يجد هويته باطراد بنفسه والتلاؤم باستمرار مع المواقف المتغيرة. وما وصفه الوجوديون بصورة مدهشة على أنه الإحساس بحياة الاغتراب، تسلل اليوم إلى الكثير من المعاصرين. فباطراد متزايد يتعامل المعالجون النفسيون ورجال الدين مع أشخاص مشتتين أو معزولين أو مرهقين، يتوقون للارتباط الوثيق وفي الوقت نفسه يهابون منه، تعصفهم باستمرار إشباعات بديلة جديدة ومع ذلك لا يجدون أي معنى في وجودهم، ويتلاءمون مع كثير الأدوار بحيث أنهم قلما زالوا يعرفون من هم عموماً. ويعتقد إيركسون أن التحليل النفسي قد بدأ في لحظة تاريخية، بالتعامل مع الهوية، لأنها قد أصبحت إشكالية بصورة خاصة، والاهتمام بهذا الموضوع «أصبح بهذا في عصرنا مسألة إستراتيجية بالدرجة نفسها التي كانت فيها دراسة الجنسية في زمن فرويد» (1982، «أ»، صفحة 278). ولكن ماذا في الكلمة «الهوية» بحيث أنها تخرج من بين شفاهنا في لغة الحياة اليومية بصورة بديهية؟ للوهلة الأولى يبدو المعنى واضح كلية: الهوية هي الشعور، «بأن المرء هو نفسه»، المعرفة، «من هو المرء». ولكن بمجرد أن يتعامل المرء مع المفهوم بشكل أدق إلى حد ما، سرعان ما تنبثق الكثير من الصعوبات: فهل الهوية مرادفة لمصطلحات من نحو «الشخصية» أو «الشعور بالذات» أو «الطبع»؟ هل يتعلق الأمر بوضع أو «اعتبار» إنسان ما بين الناس أم هل الهوية هي لب الجوهر، «حقيقة» الشخصية خلف ظهورها وأدوارها الاجتماعية؟ أتتجلى الهوية في ثبات الطبع، في القدرة على بقاء المرء مخلصاً لمبادئه أم أن الأمر يتعلق بالجديد الذي «يقدمه» المرء للخارج في المقابلات المختلفة؟ متى ينشأ شيء مثل الشعور بالهوية، في الشعور الأول بالتحديد عن الأم أم في عمليات انفصال الشاب أم بداية في رزانة سنوات العمر المتوسطة؟ ومتى تكون خاتمة الهوية الذهان أو الخرف أو الموت؟

حول هذه الأسئلة وأسئلة أخرى كثيرة تدور تخصصات علمية مختلفة، منذ أن أصبح وليم جيمس William James مؤسساً لبحث الهوية الجديد. وقلما يوجد مفهوم آخر تمت دراسته منذ ذلك الوقت من مناظير مختلفة: فالنفسانيون غالباً ما فهموا الهوية «مفهوم الذات»، والاجتماعيون «نمط الأدوار» لشخصية ما؛ والعلماء الجنائيون بحثوا

عن تحديد «هوية» الجاني؛ ودرس الأطباء النفسيون «فقدان الهوية» في الأمراض الفصامية؛ ووصف الأنثروبولوجيون «الهويات العرقية racial Identities» و «الهويات الإثنية ethnical Identities»؛ ويحث المحللون النفسيون الأجزاء اللاشعورية «للهوية السلبية»؛ ورأى اللاهوتيون أساس الشخصية الأصلي في «الهوية الربانية». وفي هذه الأثناء أصبح المفهوم الذي كان يفترض له الأصل أن يتضمن أقصى درجة من التجريد، براقاً ومشحوناً إلى درجة أن أودو ماركفارد Odo Marquard لم يكن مجانباً للصواب كثيراً عندما وصف نقاش الهوية بأنه «غيمة مشكلة ذات تأثير ضبابي» (1979، صفحة 347)[1].

نشأ مفهوم الهوية بالأصل من الفلسفة ويصف منذ أرسطو ظاهرة النفس[1]، بقاء الشيء نفسه أو الموضوع ذاته أو المفهوم نفسه على حاله. وبالطبع فإن الهوية بالمعنى الميتافيزيقي Metaphysic الصارم لا يمكن أن توجد في واقع دائم التحول زمانياً-ومكانياً. فحتى الطاولة تمتلئ مع الوقت بالمسامات، ويزول لونها ومع الوقت تقع يوماً ما ضحية سوس الخشب. ومن هنا أليس من الأنسب نقل مفهوم المنطق على علم النفس؟ من المؤكد أن الحياة النفسية للإنسان في جريان دائم. ومع ذلك يوجد في كل نمو وتطوير مسحة للتشبث، لا تتغير خصائص الشخصية على الإطلاق أو تتغير ببطء بحيث أن المرء نفسه والآخرين يمكن أن يعرفونه ويعاودون التعرف عليه بوصفه مخلوق باق على حاله في مجرى الزمن. وهكذا يمكن للمرء أن ينظر للهوية على أنها مجموع سماته المميزة والدائمة، التي تميزه بوصفه مخلوق لا تُخطئه العين. الهوية هي ما يمكن للإنسان أن يصف به الآخرين، من نحو في دراسات الاتجاهات أو الاختبارات النفسية أو في التشخيصات الطبية النفسية على سبيل المثال. إلا أن الهوية أيضاً هي ما أصف فيه نفسي، عندما أتأمل بذاتي بصورة مكثفة وأشكّل صورة ذاتي. وفي الدراسات العلمية بالتحديد غالباً ما لا يتم الحفاظ بشكل واضح كفاية على التفريق المحتوى الموضوعي

(1) نفس الشيء أو ذاته أو التطابق أو عدم الاختلاف، كأن نقول في الساعة نفسها أو في اللحظة ذاتها.

والذاتي للهوية. فهناك فرق فيما لو كنت أقوم بعمل «بروفيل للسمات» لشخص تجربة ما من خلال أساليب إحصائية صارمة، أم أتلبس كمعالج نفسي المخاوف البدائية لمريض ذهاني قبل ذوبان أناه.

وكثيراً ما تحدث في الحياة اليومية عمليات مستمرة لإدراك الهوية ووصفها. فنحن نقوّم الآخرين حسب ثيابهم أو مظهرهم أو رؤاهم، نشعر بالميل أو بالنفور، نريد أن نعرف موقفهم منا، ما الذي يفكرون به تجاهنا، مثلما يرسم هؤلاء صورة عنا. ويتحدث إيركسون عن «عملية من الانعكاس والملاحظة التي تجري في الوقت نفسه، عن عملية تجري على كل مستويات العمل النفسي» (1981 «أ» صفحة 19) وتمثل ضرورة مطلقة لكل تعايش اجتماعي. وعلى الناس أن يقوّموا أنفسهم والآخرين بشكل صحيح، ليتمكنوا من الاستجابة لبعضهم بطريقة موثوقة. إن ما يفهمه إيركسون تحت مفهوم إيجاد الهوية، يصف، كما استنتج ج. هـ. ميد Mead في عام 1963، حوار مستمر بين الفرد والجماعة: تقوم الهوية على الخبرات المهمة ذاتياً حول شخصي، التي يتم نسبتها في جزء كبير منها من الخارج وأحدد بها داخلياً إدراكي لنفسي. ومن ناحية أخرى أؤثر بأحكامي واستجاباتي على فهم الآخرين لأنفسهم، الذين يستجيبون لي من ناحيتهم بالمناقشات والتعبير عن المشاعر ويغيرون من هويتي.

ويطلق إيركسون على هيئة الفرد التي لا تخطئها العين، الملحوظة للخارج تسمية «الهوية الشخصية». ولم يكن مطلبه في السيرة الذاتية أو دراسات الحالات الإكلينيكية، تشريح الفرد إلى «عوامل» أو «سمات» أو «هويات فرعية Sub Identities». فهو يعرف كالرسام الكاريكاتوري كيف يبني بخطوات قليلة ذلك الشيء النموذجي المميز للآخر. الهوية، موصوفة من الخارج، هي لدى إيركسون مراراً صورة إنسان ما، الذي يشع نوع من الوحدة في المظهر والجوهر، ووحد اهتماماته ومواهبه وأدواره الاجتماعية في اعتياد[1] نموذجي Habitus، الذي «هو نفسه» ومتجذر برسوخ في الوقت نفسه في تقاليد جماعته:

(1) بالاعتياد، اعتيادي، شيء متكرر الظهور ودائم، من طبيعة إنسان ما.

من نحو الظهور الوقور لهنود الحضارة الأمريكية؛ نظرة طفل يلعب، يبدو في لحظات سعيدة من الإبداع وكأنه «يترعرع» كلية؛ الوجوه التي بنيت منها عظمة شخص لوثر.

إلا أن إيركسون غالباً ما يتحدث عن هوية الأنا بمعنى إحساس شخصي. إنها «خبرة أنا- أنا - أكون I-be-I-experience»، الشعور بأنني شخصية متصلة، محددة، أمتلك جسدي وقواي الذهنية، فاعل وقادر على اتخاذ القرار. وعلى الرغم أن الأمر يتعلق تقريباً بالنقطة الأرخميدية لحياتنا النفسية، الشرط الذي لا غنى عنه كل القدرة الانعكاسية والصحة النفسية، فإنه من الصعب وصف الشعور بالهوية. إنه ينساب في تفكيرنا وإحساسنا وتصرفاتنا بشكل بديهي، إلا أنه لا يصبح مدركاً بشكل أوضح بالنسبة لنا، عندما يصبح مهدداً بالتحطم من خلال دفعة ذهانية أو بأزمة حياتية شديدة. وبالنسبة لغالبية الجمهور وكذلك لكثير من العلماء تعني الهوية صورة الذات، التصور الذي يعمله الإنسان حول خصائصه ونقاط قوته وضعفه ومنشأه وعلاقاته الاجتماعية وقيمه وأهدافه الحياتية. ومن المؤكد أنه قد لا يوجد من دون ذات مُفَصَّلة، نستمد منها هنا كل الخبرات ونسند إليها كل الخبرات، أية خبرة للترابط النفسي. إذ أن إيركسون يسمي الشعور بالهوية أيضاً بالقدرة، «على خبرة ذاته كشيء، يمتلك استمرارية، يظل (نفسه)، ويستطيع التصرف وفقاً لذلك» (1982 «أ»، صفحة 36). من ناحية أخرى فإن المواقف التي نفكر فيها بصورة مكثفة حول أنفسنا – في نزهة طويلة، عند كتابة رسالة أو مذكراتنا اليومية، في التأمل أو العلاج النفسي -، هي نادرة في الحياة اليومية. فالمرء لا يحمل باستمرار في رأسه صورة عن ذاته، لا يدور بصورة دائمة، كبطل الدراما الوجودي، حول السؤال: «من أنا»؟ فغالباً ما تظل الهوية لا شعورية أو في أقصى تقدير فإنها تنبه عن نفسها عبر مزاجات غامضة. وحياناً تصبح الهوية مدركة لنا بصورة أقرب للحالة الانفعالية: يشعر المرء بالتعب أو بالحزن أو التقلب، يكون متوتراً أو محمراً، راض عن نفسه أو فخوراً أو بالأمل. فعندما نحظى بالنجاح أو ننهي عملاً أو نؤثر على الآخر في المحادثة بصورة إيجابية، وعندما نعبر عن رأينا بحزم أو نعارض السلطات، فإننا نشعر بهويتنا كشيء محفِّز، معزز. ومن ناحية أخرى، وعندما نقارن أنفسنا بالآخرين، أو نتذكر الماضي أو ننغمس بأحلامنا النهارية، تتجلى هويتنا أمامنا كتسلسل

من الصور. فالأمر يتعلق بخبرة صعبة الفهم، تصبح مدركة في خبرات متنوعة وظلال من المشاعر[1] feelings nuance وتختفي ثانية. وتوجد الأشكال الأطول لوعي الهوية مراراً في أطوار الحياة الحرجة: وعي الذات الحساس للمراهق، أزمة الاتزان في وسط الحياة، تراجع الإنجاز في الكبر، التأمل المتأرجح حول وجودنا بعد ضربات القدر أو في أطوار الأمراض الشديدة. وفي الحياة اليومية فإن الهوية شيء جار، لا تدرك إلا بشكل متقطع، والانشغال المتطرف جداً للشخص حول نفسه قد يكون علامات لتطور مرضي (الانشغال القهري الاكتئابي، هذيان المراقبة المراقي[2]). يتأرجح مفهوم إيركسون حول الهوية عملية تُعاش وتُختَبَر، وبين صورة، نلتقطها من هذه العملية، من أجل التأكد بأنفسنا من أنفسنا. فإذا ما كان تصور الذات غامضاً ومتأرجحاً، يفقد الفرد الشعور، «بأنه هو نفسه»، وينزلق في خطر أن يعيش على حساب القوى الداخلية والخارجية. فإذا ما أصبح إدراك الذات جامداً ومجرداً جداً، ينبثق خطر فقدان الحيوية والانفتاح على خبرات جديدة. والعصابيون بالتحديد يرسمون صوراً أحادية الجانب كلية عن أنفسهم والآخرين، يتم الدفاع عنها بجمود ضد المعلومات المخالفة («على أية حال ليس لدي حظ مع امرأة»؛ «لا يحبني أحد»؛ «أنا عصابي فاشل»).

وغالباً ما يتحدث إيركسون عن شعور بالهوية من أجل التحديد عن نظريات- الذات الميكانيكية بشدة لعلم النفس الأكاديمي. وعليه يذكر إيركسون في «الهوية ودورة الحياة»: «يقوم الإحساس الواعي، بامتلاك هوية شخصية على ملاحظتين اثنتين متزامنتين: الإدراك المباشر للاستواء والاستمرارية في الزمن، وما يرتبط بذلك من إدراك بأن يتعرف الآخرون أيضاً على هذا الاستواء والاستمرارية. وعليه فإن ما نريد هنا تسميته بهوية الأنا ، يقصد به أكثر من مجرد حقيقة الوجود، المكتسب من خلال الهوية الشخصية؛ إنها نوعية الأنا Ego-Quality لهذا الوجود» (1981 «ب»، صفحة 18). إن خبرة الاستواء والاستمرارية هي شرط لكل انعكاسية reflexivity: فسواء

(1) ظلال من الفروق تكاد لا تدرك أو الفروق الدقيقة.

(2) توهم المرض hypochondria

كنت حزيناً أو مبتهجاً، أعمل بتركيز أم بشرود، أشعر بأني فاشل قبل امتحان وخبير بعد ذلك، في كل تفكيري وأحاسيسي وتصرفاتي أنا حامل الخبرة الموحد والثابت. وعلى الرغم من أني في حياتي آخذ سمات جديدة باستمرار ولا يمكن مقارني مع ما كنت عليه قبل 10 أو 20 سنة، فإني أخبر نفسي في كل ذكرياتي كمخلوق مستمر.

ويستند هذا الشعور بالهوية على كل متماسك، يعني، أني أحس بأني كل بجسدي، بعالمي النفسي الداخلي ومحيطي الاجتماعي. فمهما فكرت أو شعرت فإن جسدي موجود في كل شيء باستمرار، أستجيب لكل الحوادث في داخلي وحولي بأحاسيس جسدية. وكذلك ففي كل خبرة ذاتية توجد معها مرجعية محيطية، وأدرك نفسي منتمياً لمحيط جغرافي محدد ومنسوج في علاقات بين إنسانية. فمن ناحية لابد من أن تكون هناك حدوداً واضحة بين «الأنا» و «الأنت»، بين الذات والمحيط، ومن ناحية أخرى لا يمكن لأي إنسان أن يوجد أو يتعرف على نفسه من دون الاتصال بالناس والمجموعات الأخرى. الهوية لدى إيركسون هي شعور فريد مضاعف، يعني، «أن يشعر الإنسان بأنه متحد مع ذاته – بالشكل الذي ينمو ويتطور فيه –؛ كما يعني، مع شعور بالجماعة، المتصالحة والمنسجمة مع مستقبلها وتاريخها (أو أسطورتها) » (1975، صفحة 29).

بالإضافة إلى ذلك فإن الشعور بالهوية ليس شيئاً إحصائياً على الإطلاق، شيئاً، يحظى به المرء ويحمله معه عندئذ كملكية غير قابلة للضياع، وإنما يخضع حسب الحالات الداخلية والتفاعلات الاجتماعية الخارجية إلى تأرجحات، وينبغي الدفاع عنه بلا انقطاع ضد النزوعات اللاشعورية والأخطار والتبخيسات الخارجية. وعلى الرغم من أن المجالات المركزية لخبرة ذاتنا تظل ثابتة، فإن الهوية تخضع للتعديلات أيضاً، وعلينا بين فينة وأخرى توسيع خبراتنا الذاتية بالنظر للمصير الفردي والتاريخي المتبدل ونتهيأ باستمرار للجديد في المحيط الاجتماعي. وهذه العملية تبدأ حسب إيركسون «في لحظة ما في (المواجهة) الحقيقية الأولى بين الأم والرضيع كشخصين اثنين، يمكنهما أن يلمس بعضهما الآخر ويتعرف عليه، ولا 'تنتهي' حتى تنتهي طاقة إنسان ما في التعزيز المتبادل» (1981 «أ» صفحة 19).

جزء من «إيجاد الهوية» هذا فقط يقوم على الإدراك reflexion الشعوري. ويسبب حدث فيزيولوجي-عصبي معقد بدرجة كبيرة الترتيب في عالم خبراتنا وهو شرط من أجل أن يستطيع الفرد الشعور عموماً بأنه «أنا» ويتصرف بشكل متلائم في الواقع. وربما يمكن للمرء التحدث عن «عملية هوية identity process» لاشعورية، تحافظ ليل نهار على فرديتنا، وتحمينا من الأخطار الخارجية والداخلية وتكيف سلوكنا مع شروط العالم الخارجي. وطالما تعمل هذه العملية، فإننا نشعر بالانسجام مع ذاتنا. ويظل الشعور بالهوية عندئذ لاشعورية أو ما قبل شعورية، بديهي تماماً مثل الهواء الذي نتنفسه.

وغالباً ما تباغت خبرات الهوية الشعورية بالكامل بمعنى إحساس مكثف بوجودنا الخاص الفرد على شكل «شعور ذاتي من الاستواء والاستمرارية المُعَزِّزتين» (1981 «أ»، صفحة 15) كالمفاجئة. لنتصور لحظات من العشق الغامر أو التضامن المكثف أو مشاعر الاطمئنان الداخلي في الحالات التأملية أو عندما نكون ممسوسين بخبرة طبيعية، لحظات زوال التوتر بعد أن نحل مشكلة حياتية وخيمة، أو خبرات الافتنان بعرض فني أو مقابلة شخصية كارزمية. إنها تلك المواقف من السعادة والمواقف الاستثنائية للكينونة التي نحس فيها بعمق واسترخاء كاملين بذاتنا كظاهرة وجودية ونشعر فيها في الوقت نفسه بأننا مغمورين بشكل منسجم بالعالم. ويتحدث إيركسون استناداً إلى ويليم جيمس عن إحساس، الشعور «بأعمق وأكثف الحيوية والنشاط»، بصوت داخلي، يقول لي: «هذه أناي الحقيقية»، خبرة، مترافقة مع نوع من «اللذة الحماسية بعمق» (1981، «أ»، صفحة 15-16).

ويرى إيركسون أن الشعور السليم بالهوية هو حالة ما قبل شعورية على الأغلب، يؤثر بشكل حافز على السلوك والخبرة. ويتحدث إيركسون عن الشعور، «بالسيطرة على جسمه، بمعرفة أن المرء (على الطريق الصحيح) ويقين داخلي، باعتراف أولئك، الذين يتيحون الأمان» (1981 «ب» صفحة 147). ويشبه مفهوم إيركسون حول الهوية في كثير من المواضع «النرجسية السليمة» عند كوهوت (1973) أكثر من «مفهوم الذات» عند علماء نفس الشخصية، وبشكل خاص، عندما يصف الهوية بأنها «مجموع

كل الصور والأفكار والطاقات، التي - بتعبير فج- تلهم شخص ما (وشعب ما) الشعور، أن يكون (أكثر مما هو نفسه عليه) وأن يتصرف أكثر (مما يستطيع هو نفسه)» (1966 «أ» صفحة 186).

وعلى ما يبدو فإن الشعور السليم بالهوية هو شيء شديد التعقيد ويتغذى من مصادر متنوعة: من الصحة ونشاطات الجسم، من الشعور بالتجذر في الوطن أو الأسرة أو الشعب أو الجماعة الدينية، في الاعتراف الذي نخبره في علاقاتنا الخاصة وأدوارنا العامة، من متانة قناعاتنا وقيمنا. كذلك يمكن للأمور المختلفة جداً أن تزعزع هويتنا - عدم الكمال الجسدي، نقص التعليم المدرسي، السلوك الجنسي الشاذ، العلاقات الأسرية المضطربة، الانتماء إلى أقلية مقموعة أو الشك الديني. فكيف يفترض للمرء أن يصف شيء بصورة أقرب، هو نفسي وجسمي واجتماعي في الوقت نفسه، ويمكن أن يكون شعوري وما قبل شعوري ولا شعوري، مرة يبدو مثل عملية جارية، ومرة مثل صورة الذات ومرة مثل نرجسية سليمة، شيء يمنحنا شعور بالثبات ومع ذلك فهو نفسه خاضع للتغير؟

إنه لمن المثير للدهشة، تحت كم من المظاهر المتنوعة وصف إيركسون الشعور بالهوية، وكأنه يريد إنارة عمل فني من مناظير مختلفة من أجل إيصال شعور بالكل. فعندما يتحدث إيركسون عن «إيجاد الهوية» لشاب ما أو لمريض سليم وعندما يصف «أزمة الهوية» للشاب مارتن لوثر أو الأقليات الأمريكية، يبدو أن المفهوم يتحدث عن نفسه في السياق المعني. غير أنه تظهر بعض التناقضات والثغرات، عندما يقارن المرء كل الوصوفات والتعاريف الجزئية لإيركسون مع بعضها ويحاول إيجاد طرحاً علمياً مترابطاً. فإيركسون يدخل مفاهيم مختلفة للهوية، «هوية الأنا Ego-Identity» أو «هوية الذات Self-Identity» أو «الهوية الشخصية personal Identity» أو «الشعور بالهوية Identity Feeling» أو «عملية الهوية Identity Process » أو «الهوية» ببساطة؛ فهو يصف «الهوية السلبية» اللاشعورية وكذلك الخبرات الدينية الحدودية «للهوية الوجودية»، ويصف «الهويات- الجمعية Group-Identity» الإثنية أو العرقية أو القومية المختلفة.

إلا أنه يفوته إلى حد كبير تعريف هذه المفاهيم بشكل نظيف، وتحويلها إلى منظومة مقبولة وربطها بشكل أكثر منهجية بنظرية التحليل النفسي أو مفاهيم الهوية لعلماء آخرين. وأحياناً يحاول إيركسون التمييز بين مفاهيمه عن الهوية وتحديدها عن مصطلحات من نحو «الأنا» أو «الذات» أو «الأنا الأعلى». وبما أنه لا يتمسك بهذه التفريقات بصورة موحدة، فلا بد للمرء مراراً استخلاص المعنى والمضمون للمفهوم من السياق المعني. فمن جهة قدم إيركسون للدراسات العلمية للهوية دفعاً قيماً، ومن ناحية أخرى يبدو مفهومه للهوية بأنه مازال إلى حد ما أكثر تخمة وتلوناً مما هو الحال لدى العلماء الآخرين. ويشير إيركسون شبه معتذر: «لا أستطيع أن أحاول توضيح مشكلة الهوية إلا من خلال إلقاء الضوء عليها من خلال عدد من الزوايا، من نحو التاريخ حياتية والمرضية والنظرية، حيث يفترض عندئذ أن يتكلم مفهوم الهوية عن نفسه في السياق المعني. فمن خلال ذلك سيبدو أن الأمر يتعلق مرة بإحساس شعوري بالهوية الفردية، ومرة أخرى بالنزوع اللاشعوري لاستمرارية الطبيعة الشخصية؛ فمرة تبدو الهوية محكاً للأفعال الصامتة لتوليفة الأنا، ومرة أخرى تمسكاً بتضامن داخلي مع مثل وهوية جماعة ما. وأحياناً يستخدم مفهوم الهوية بشكل بسيط كلية بمعنى اللغة العامية، لنعود ثانية فنربطه بشكل غامض مع المفاهيم الموجودة للتحليل النفسي وعلم الاجتماع. وعليه وعلى الرغم من أن المفهوم نفسه سيبدو في نهاية أبحاثنا أنه ما زال متعدد المعاني إلى حد ما، إلا أنه يؤمل أن تكون قد اتضحت مشكلة مهمة ووجهة نظر ضرورية في معالمها بشكل أكثر حدة» (1981 «ب»، صفحة 124-125).

فإذا ما تم فيما يلي من الحديث إلقاء الضوء على مفهوم الهوية لدى إيركسون من منظور علم نفس الأنا أو من منظور اجتماعي أو نفسي نمائي أو أخلاقي-عقائدي، فإنما هذا يحدث من أجل إيصال الشعور بتعقد هذا الموضع. وليس الهدف أبداً هو تشريح فكرة، تحتاج بالذات إلى فهم كلاني، إلى شذرات منعزلة[ii].

2.2 هوية الأنا

يمثل الاهتمام بالهوية مواصلة لتقاليد تفكير فلسفية تعود لقرون بعيدة. ومن أجل توضيح الظاهرة، كيف يكتسب المرء معرفة العالم الخارجي ويلحظ نفسه في أثناء ذلك، فقد تم نحت مفاهيم من نحو «الروح» أو «الفكر» أو «الأنا» أو «الذات self» أو «الذات Proprium»[1]، مع العلم أنه حسب إيركسون من السهل نسيان أن الأمر يتعلق فقط بنماذج وليس «بمواد» لنفسية موجودة. ومن منظور النظرية التحليلية النفسية لا يمكن للأنا إلا وأن يكون موضوع الهوية فقط. فبغض النظر فيما لو أتأمل بدوري كعضو في مجموعة مهنية أو كشريك أو كأب أو أن أناقش تصوراتي القيمية أو أخطط لمستقبلي، فكل هذه الخبرات، بلغة ما وراء علم النفس، تتم إتاحتها وإدراكها من الأنا. ومن هنا يصف إيركسون الهوية على الأغلب بوصفها «هوية الأنا» ويواصل بهذا الموضوع علم نفس الأنا، القديم قدم التحليل النفسي نفسه[iii].

وصف فرويد منذ البداية وظائف وآليات دفاع الأنا، على الرغم من أن الأنا ظل بداية مجرد «مفهوم جامع» غامضاً، تعبيراً عن تلك الأجزاء الشعورية من الشخصية التي تحاول السيطرة على الانفعالات اللاشعورية. وبداية مع إدخال نموذج البنية في عام 1923 تم تعريف الأنا إلى جانب الهو والأنا الأعلى بوضوح بوصفه عضو التوازن والتكيف الأكبر للنفس. وبالنسبة لفرويد يتعلق الأمر بهيئة تعمل بصورة لاشعورية على الأغلب، وغير قابلة للخلط مع مفاهيم من نحو وعي الذات أو الفكر أو الإرادة.

وقد وصف إيركسون الأنا الفرويدية بأنها «دافع أو قوة مسببة agens مختارة وداجة ومترابطة ومتواصلة، تشكل مركز الشخصية» (1966، صفحة 135)، مفهوم نموذج لعملية التنظيم النفسية العصبية المعقدة جداً. وبأكبر دقة درس فرويد و«علماء نفس الأنا التقليديين» من نحو هارتمان أو آنا فرويد أو نونبيرغ أو فيدرن أو كلوفر آلية عمل الأنا اللاشعورية. إنه «حادث توليفي» معقد جداً ينسق آلاف الوظائف والمثيرات

(1) الذات أو الأنا هنا بمعنى الذات التي يمكن أن تتحدد عن الآخر .

داخل الجهاز العصبي إلى خبرة وكلام وتفكير وتصرف مترابط، وينظم المثيرات الحسية الفوضوية في إدراكات ومفاهيم، ويخزن الخبرات كشبكة من الترابطات في الذاكرة، ويوجه تعاقبات السلوك الحركية المرسومة، يحاول إيجاد الحلول الوسط بين رغبات الدافع ومتطلبات الضمير وظروف الواقع. «عملية مدافعة» تمكّن قدرتنا على التركيز، وتصفي وتنتقي العدد اللامتناهي من المثيرات التي تغمرنا من الداخل والخارج، لا تتيح إلا لبعض منها الوصول إلى الشعور، تراقب اللاشعور وتسهر على ألا نفرق بالنزوعات الجنسية أو انفعالات الغضب أو المخاوف غير الموجهة. وأخيراً يوجه «حادث تكيف» لاشعوري سلوكنا في العالم الخارجي، يجعلنا نفهم بشكل حدسي إيماءات وتعابير أناسنا، ويعمل على أن نتلائم بشكل أوتوماتيكي مع المألوفات، ويجعلنا نبتعد كالبرق، في الشارع على سبيل المثال، عن الأخطار.

وبشكل غير ملفت للنظر توجه وظائف الأنا ليل نهار جزءاً كبيراً من سلوكنا وخبرتنا، وتحاول تهديم المخاوف والصراعات والخيبات، وتمثل خبرات جديدة وفي تحاول أثناء ذلك عدم بقاء متناقضات ومرهقات في النفس قدر الإمكان. وطالما يعمل الأنا جيداً فإننا نشعر بالعافية والانسجام والنشاط والعزم. أما الأحدث الطارئة أو الإزعاجات أو الصراعات غير المحلولة أو المشاعر المتناقضة فإنها ترهقنا دائماً ويمكنها أن تسبب أزمة هوية شديدة مع مشاعر القلق أو التشتت أو الانقباض. ولكن في الدفعات الذهانية فقط أو الهزات الشديدة الصادمة يمكن أن يحصل الفشل الكلي لتوليفة الأنا. وفي الواقع، يرى إيركسون، فإن الإحساس الشعوري بالهوية هو من حيث المبدأ «ملاحظة حقيقة أنه تسود في الطرق المتوالفة synthesize methods للأنا الاستواء والاستمرارية وأن هذه الطرق تفيد بشكل فاعل في تأمين الاستواء والاستمرارية الخاصة في عيون الآخرين أيضاً» (1981، صفحة 18).

ولكن ماذا عن الأنا المعاشة، المُدرَكَة، عن المركز الأخير لوعينا، حيث نلاحظ

أنفسنا ونشعر بالفرحة وبالفرح والقلق، حيث تنضج قراراتنا؟ ألا يعني «الأنا the Ego»[1] أيضاً «أنا I»[2] بمعنى الضمير الشخصي؟، يتساءل إيركسون. هل يستطيع التحليل النفسي إهمال الأنا الشعوري، الذي من دون قدرته المُلاحِظة لذاتها لم تكن توجد أي عملية تحليلية ومن دون فطنته لم يكن لمذهب اللاشعور أن يوجد؟ ألا يتصدر هذا الكفاح للتماسك والاعتراف بهذا الأنا في مركز الاضطرابات الذهانية والنرجسية، بالصورة التي يهتم بها التحليل النفسي في السنوات الأخيرة بصورة متزايدة؟ من المؤكد أن فرويد لم يهمل الشعور كلية، إلا أنه وصفه بأنه أقرب للجزيرة الصغيرة غير المهمة في بحر اللاشعور العاصف. ويتحدث إيركسون عن إنكار الذات المتزمت لفرويد في دوره كملاحظ. فلقرون عدة أعلى الإنسان من أناه الشعوري، وعده «مركز الكون» و «مقياس كل الأشياء». وبلا هوادة حاول فرويد تهديم هذه التصورات العظامية وكذلك حاول دراسة النفس بوصفها «شيء طبيعي» بالطرق العلمية. ونتيجة لذلك ظهرت ازدواجية غريبة: ففي اللغة النظرية للتحليل النفسي اعتبر الأنا خليطاً معقداً من الأجهزة والوظائف ويبدو في النهاية كروبوت نفسي. وفي الأهداف العلاجية بالمقابل كان الهدف توسيع قدرة الأنا الشعوري على الإدراك ومساحة اتخاذ القرار.

إيركسون يريد بحزم مساعدة الشخص Subject للوصول إلى حقه. فبوصفه جوهر الخلق الفريد فإن الإنسان قادر على التفكير بنفسه وبظروفه الحياتية، والتقرير والتمرد بوعي. ومن المؤكد أن التحليل النفسي قد أظهر مدى ضيق وهشاشة مساحة حرية الأنا، ولم يصف إيركسون بأي شكل من الأشكال إيجاد الهوية على أنه عملية عظيمة «لتوكيد الذات»[3] مثل ممثلي الفلسفات المثالية. بالإضافة إلى ذلك فإن هدفه الأخلاقي والتربوي تقوية الاستبصار الذاتي والشجاعة والجرأة الأدبية، والمقاومة

(1) بصيغة الاسم.

(2) بصيغة ضمير المتكلم.

(3) توكيد الذات بالمعنى الفلسفي هو الكيفية التي يرسم فيها الموجود الإنساني وجوه كموجود، وبهذا يأخذ مكاناً بين الموجودين.

الشعورية للأنا للانفعالات العمياء أو للأحكام المسبقة للجماعة أو ترهيب المؤسسات السلطوية.

ويريد إيركسون التمييز بوضوح بين الأنا كرزمة لاشعورية من الوظائف وبين الأنا كمحتوى خبرة ويقوم بمحاولة، فصل أجزاء الأنا الشعورية واللاشعورية عن بعضها مفاهيمياً. ويطلق إيركسون على حوادث الحجب والتوليف للنفس تسمية الأنا «Ego» (الترجمة الإنجليزية للأنا المستخدمة بصيغة الاسم عند فرويد)[1] ويريد «تعيين ميدانه الذي كان له دائماً، منذ أن فقده في أيام فرويد الأولى من العصبية إلى الطب النفسي وعلم النفس: ميدان تنظيم داخلي، يضمن وجودنا المترابط» (1981 «أ»، صفحة 227). وبالنسبة لإيركسون فإن الأنا كمركز الشعور والمرجعية الأخيرة للإرادة هو شيء شعوري: «على المرء أن يكون حاسماً بالفعل وأن يقول أن «الأنا» شعوري كلية، وأننا نكون فقط واعين بالفعل من حيث أننا نستطيع أن نقول «أنا»[2] ونقصد ذلك أيضاً» (1981 «أ»، صفحة 227). فالأنا يتمثل باستمرار فوضى المثيرات المتدفقة على الشخصية من الداخل والخارج (إيركسون: «الواقع Facticity») إلى عالم خبرات منتظم، إلى نموذج شخصي الذي نبنيه عن الواقع (إيركسون: «الواقع النفسي»). إننا نتعرف مبدئياً على أنفسنا والعالم من خلال عالم تصوراتنا الشخصية فقط ولا نعرف فيما إذا كان الواقع النفسي لتمثيل الذات والموضوع متطابقاً مع الواقع بحد ذاته وإلى أي مدى. فالأنا يتحول إلى مكان وعضو تنفيذ الخبرات، إلا أنه لايستطيع مع ذلك أن يَخْبَرَ نفسه. ودائماً عندما نفكر بأنفسنا، ينقسم الأنا على نحو ما إلى جزء مُراقِب ومُراقَب. ويسمي إيركسون هذا الأنا الثاني المُدْرِك الذات The Self، الذي يتكون من كثير من الخبرات الذاتية الكثيرة المتفرقة - يتحدث إيركسون عن «الذوات»-. وبما يشبه لاينتز

(1) في الألمانية تكتب جميع الأسماء بالحرف الكبير ومن ثم فإنه يمكن التمييز بين الأنا كاسم والأنا كضمير من خلال الكتابة. وفي الترجمة الإنجليزية ترجمت الأنا Ich الألمانية بصيغة الاسم إلى Ego، والأنا ich الألمانية المستخدمة بصيغة الضمير I.

(2) بصيغة ضمير المتكلم.

Leipnitz وكانط Kant أو لاحقاً جيمس Jeams وميد Mead يفرق إيركسون بين مستويين: أنا كحامل ثابت في كل الخبرات والظروف الحياتية للتفكر Reflexion وذات خاضعة للتأرجحات والتغيرات كموضوع للتفكر Reflexion: «يمكن للمرء أن يزعم أنه بالنظر للحركة المُدْرِكة والمُنَظِّمة للأنا مع ذاته ينبغي تخصيص التسمية 'أنا' للشخص Subject و'الذات' للموضوع Object. عندئذ قد يقابل الأنا بوصفه هيئة مركزية مُنَظِّمة في مجرى الحياة ذات متغيرة، تستوجب في كل مرة استعمالها بشكل منسجم مع الذوات الماضية والمنظورة في المستقبل» (1981 «ب»، صفحة 191).

إلا أن إيركسون للأسف لا يحافظ على التمييز بين « الأنا I» و «الأنا Ego» في كتابات أخرى. ففي كثير من الأماكن يستخدم مصطلح «الأنا I» بوضوح بالمعنى الفرويدي، وفي أماكن أخرى لابد للمرء أن يستنتج من السياق فيما إذا كان يقصد الضمير الشخصي أم الهيئة اللاشعورية. ويظل بشكل خاص التفريق الدقيق لمفاهيم الذات Self والهوية Identity غير واضح. إلا أن الشيء الذي نشعر به ونفكر فيه أحياناً هو في واقع الأمر هوية الذات. ومن هنا ألا يمكن للمرء استخدام مصطلحات الهوية والذات بشكل مترادف كما يفعل كثير من الباحثين؟ إيركسون لم يسهم كثيراً في توضيح هذه المشكلة الشائكة، فطروحاته أقرب لإثارة سوء الفهم. فهو يؤكد من ناحية على جريان خبرة الذات و «يفضل الحديث (عن شعور بالهوية) أكثر من الحديث عن بنية طبع أو (طبع أساسي)» (1981 «ب»، صفحة 18). ومن ناحية أخرى يقر: «تعني الهوية بالمعنى الأقل تحديداً بالطبع الكثير من ذلك، ما سماه عدد كبير من المؤلفين الذات» (1981 «أ»، صفحة 216). وفي فقرة أخرى ثانية يصف الهوية بأنها «مفهوم اجتماعي نفسي خليط»، يتجاوز الإطار المتمركز حول الفرد للتحليل النفسي، ويتحدث عن «إحساس بواقع الذات داخل الواقع النفسي» (1981 «أ»، صفحة 219)[١٧].

على أية حال يلاحظ أن إيركسون يستخدم أكثر ما يستخدم الهوية كتعبير عن الإحساس بالارتباط المنسجم بين الذات والعالم، أي كتعبير عن استواء واستمرارية تمثيلات الذات والموضوع. وفي الحقيقة ترتبط كل صور الذات مع كم كبير من الخبرات

الخارجية. فدائماً نميل لحساب الأشياء خارج ذاتنا من هويتنا («زوجتي»، «سيارتي»، «بلدي»)، مثلما يمكن للتغيرات المفاجئة في عالم المواضيع (الركود الاقتصادي، الحروب) أن تسبب أزمة هوية. ويبدو أن تمثيلات الذات وتمثيلات الموضوع التي يشعرها الفرد على أنها ذات أهمية شخصية وقريبة من الأنا، تعد من ضمن الهوية. فالدور كزوج أو كأب يعاش في العادة بأنه أكثر جوهرية من العضوية في رابطة هواة الطوابع، والتقدم في المهنة أهم من ربح بطولة التنس، والحكم السلبي لمدير ما يجعلنا أكثر تأثراً من إهانة ما في الطريق. هوية الأنا بالنسبة لإيركسون هي تلك الهيئة، «التي تختبر صور الذات، وتنتقيها وتدمجها» (1981 «أ»، صفحة 219)، وفي الواقع يعني التأمل المكثف بأنفسنا نحن دائماً موازنة وتصفية للخبرات. فأي من خصائصي وأدواري أعيشها على أنها محورية بالنسبة لشخصيتي؟ أي من أحكام الآخرين عني أستطيع تقبلها، وأي منها لا يحرك في ساكناً؟ أي من الانتماءات لجماعات والاهتمامات والأهداف الشخصية المهمة بالنسبة لي، أي طريق مهني أريد المضي فيه، عن أية فرص علي التخلي؟ في أي من المواقف أشعر بأني أصيل وأتمسك بمبادئي، أين أتكيف؟

هناك بضعة نقاط ارتساء مركزية لشعورنا بالذات –الاسم أو السن أو الجنس أو المهنة أو المنشأ الأسري أو الجنسية– ، يمثل نسيانها أو تحريفها في الغالب علامات لتطورات مرضية نفسية جدية. وما يعيشه الفرد بالإضافة لذلك جوهرياً بالنسبة لهويته – علاقة زوجية موفقة أو الأولاد أو النجاح المهني أو المعرفة أو الملكية، هواية، تأييد قناعة سياسية أو دينية–، فيختلف حسب بنية الشخصية وتاريخ الحياة بشكل كبير جداً. فالإنسان المعاق سوف يعيش هويته الجسدية على أنها مشكلة، والفتاة المساء إليها جنسياً ستعيش هويتها الجنسية على أنها مشكلة. وقد تتصدر في سن الشباب الجاذبية الخارجية والاهتمام من الأتراب مركز صدارة خبرة الذات، وفي سن الرشد المتوسط تكون الأسرة أو التقدم المهني أقرب. فالوصايا وتمثيل delegation العائلة المصدر، الصعود من ظروف دنيا، تبني قضية المرأة أو، بما يشبه الأم، الفشل كامرأة باستمرار في العلاقات مع الرجال، تحدد تشكّل الهوية مثلها مثل الصراعات اللاشعورية، التي تحدد

عدم القدرة على توكيد الذات مهنيا بناء على كبح متجذر بعمق للعدوانية. يمكن لنكبة ما أن تجعل من الدين مركزياً بالنسبة للشعور بالهوية، ولكن أيضاً يمكن أن يرسوا في اتجاه يائس- شكاك cynical تجاه الحياة.

وعلى ما يبدو فإن الشعور بالهوية لدى إيركسون هو عمل الأنا، الذي يبني بالنظر لمهام النمو المتجددة والأزمات المتجددة باستمرار ذاتاً منسجمة، مستمرة ويعمل بشكل دائم على الحفاظ على إحساس أن نقف «في مجرى خبرتنا في المركز وألا ننجرف إلى نهاية ما؛ أن تنطلق الأفعال التي نخططها منا نحن وألا نتخبط؛ وأخيراً أن نكون فاعلين ونحفز الآخرين ونجعل الآخرين يحفزوننا، وألا نستسلم أو نتعطل من خلال الأوضاع الصعبة» (1975 «ب»، صفحة 104). الهوية لدى إيركسون لا «تُعرف» فقط، وإنما يستشعر بها كخبرة من الطاقة والاستقلالية، تخلق «في كل خطوة في الطفولة والشباب من خلال الحقيقة الملموسة للصحة الاجتماعية شعوراً مطرداً بقوة الأنا» (1982، صفحة 240) و «هي الحصن الوحيد ضد فوضى الدوافع وضد استبداد الضمير» -1981 «ب»، صفحة 112). وفي حين أن فرويد مازال يصف الأنا بأنه «شيء بائس»، مستعبد من «ثلاثة طغاة»، الهو والأنا الأعلى والواقع (الأعمال الكاملة XIII صفحة 186)، غالباً ما يبدو مفهوم إيركسون للهوية مثل مصطلح تحليلي نفسي لاستقلالية الأنا، التي لا تترك نفسها تداس من الدوافع والانفعالات الجامحة أو من مشاعر الذنب أو المثل المفرطة وقادر على الظهور في المحيط الاجتماعي بمظهر يبدو للخارج بثقة وبلا وجل. ويتحدث إيركسون عن الحالة-الدافعة أو القوة المسببة[1]

(1) كلمة لاتينية وتعني القوة المسببة أو القوة المؤثرة. وهي حالة نفسية ترفع من احتمالية سلوك الطاعة. ويعرفها ميللغرام بأنها الظروف التي يوجد فيها الشخص نفسه عندما يشعر بأنه قوة منفذة لرغبات شخص آخر. وبشكل خاص فإن الشخص الذي يدخل في منظومة سلطوية، لايعود يرى نفسه على أنه شخص يتصرف وفقاً لأهدافه وإنما بالتدريج كمنفذ لرغبات شخص آخر. وبمجرد أن يرى الشخص نفسه من هذا المنظور تظهر تغيرات جوهرية وقدرتهم الوظيفية الداخلية. ويمكن لهذه التغيرات أن تكون وخيمة بحيث يمكن القول إن الاتجاه المتغير يجعل الشخص في حالة مختلفة عن الحالة التي كان عليها قبل الاندماج في الهرمية.

وفي التحليل السبرنطيقي تكون حالة التبعية Agens-state عندما تعدل وحدة ذات تنظيم ذاتي بنفسها داخلياً، من أجل أن تتيح لنفسها العمل داخل منظومة سلطوية هرمية.

agens-state للنفس، «وهي حالة داخلية التي أجملها في مفهوم التوتر الفاعل» (1966 «أ»، صفحة 78). ودائماً عندما لا نكون بعد قادرين على شيء ما، أو نفشل أو نستجيب بعجز أو يتم التقليل من قيمتنا فإن هذا يمسنا بحساسية.

ويعتقد إيركسون بأن الإنسان لا يستطيع تحمل التشكيك باستقلاليته لفترة طويلة. فيعيد تفسير الواقع، يقطع اتصالات، يبحث أحياناً من خلال الأوهام النرجسية أو العقاقير على امتلاك مشاعر ذاته بشكل مصطنع.

كل أزمة أقوى للهوية تترافق مع شلل في الاستقلالية والمبادرة. ويتحدث إيركسون عن حالة الأنا المريض Patient-State of Ego: يشعر المرء بالقلق أو الضياع أو التشتت أو فقدان الطاقة بالاستسلام.

والأنا السليم يتغلب على هذه الأزمات ويستعيد مع الزمن الثقة بالنفس والكفاءة من خلال التجريب الفعال والمناقشات وكذلك من خلال آليات التنظيم اللاشعورية للحلم أو اللعب. وفي حالة الشلل من خلال الصراعات العصابية يمكن لحالة المريض أن تسيطر بصورة دائمة على الإنسان وقد تتصاعد في الذهان إلى حالة من فقدان الاستجابة التخشبية الكاملة.

خلاصة القول يمكن استنتاج أن لمفهوم إيركسون في الهوية على ما يبدو صفة- أنا وصفة - ذات. فشعور الهوية الإنساني يتعلق بأنا Ego موجود في كل التصورات ومواقف الحياة بوصفه حامل ثابت للخبرة. وهو متعلق بذات Self متغيرة، تملأ هذا الأنا بمحتويات إلى حد ما، التي من دونها لا يستطيع الأنا أن يعرف شيئاً عن نفسه.

وبهذا سرعان ما يصطدم المرء بمسألة خلافية ترجع لقرون ماضية، ما الذي يتم الإحساس به في الحقيقة، هوية الأنا أم هوية الذات؟ هل الرؤية الصحيحة هي الرؤية العقلانية لديكارت أم كانط أم لايبنتس، التي ترى أن الهوية تقوم على أنا سام transcendence Ego، يتقدم كل الخبرات ويجلب عموماً النظام والارتباط في عالم

الخبرة؟ أم أن الهوية هي كما في إمبيريقية لوك Locke أو هيوم Hume[1]، نتيجة للخبرة؟

(1) دافيد هيوم (1711-1776) فيلسوف انكليزي من ايكوسيا.بدا حياته تاجرا وشغل منصبا سياسيا ثم محافظا للخزانة. يعتبر أكبر فلاسفة المذهب التجريبي.تأثر به عدة فلاسفة في أوروبا وأمريكا أشهر كتبه:كتاب في الطبيعة الإنسانية ألفه بين 1739-1740م . كتاب محاولة في الفكر البشري ألفه في 1748م . بحث في المبادئ الأخلاقية عام 1751. كذلك محاورات في الدين الطبيعي 1754. كتاب تاريخ انكلترا1761 م فلسفته: ارجع دافيد هيوم كل معرفة إلى الحس فليس في العقل إلا الإدراكات الحسية حيث يقول ((ولما كانت جميع الأفكار العقلية مستخلصة من الأشياء التي تكون ماثلة أمام العقل قبل فعل التعقل فيتبع من ذلك انه يستحيل علينا تكون بعقولنا فكرة عن شيء ما أو نتصور شيئا ما تصورا مختلفا نوعيا عن الأفكار أو الآثار الحسية)) . غيران الفكر الإنساني لايقتصر فقط على الآثار الحسية بل هناك أعمال عقلية ترجع إلى تداعي المعاني أي إلى ترابطها بعضها ببعض مثل فكرة العلية التي قال عنها العقليون أنها من الأفكار الفطرية في حين أنها راجعة فقط إلى التجاوز في المكان والتعاقب في الزمانو إلى العادة كذلك . فالأصل في فكرة العلية هو ما نشأ من تجاوز الظواهر وتعاقبها مما يحملنا على الاعتقاد بأنه كل ما حدث شيء نتج عنه شيء آخر فنسمي الأول علة والثاني معلول. والواقع انه ليست علية خارجة عن التجاوز والتعاقب والعادة . فيقول(دافيد هيوم): (فانا حينما أرى كرة البيلياردو تتحرك فتصادف كرة أخرى فتتحرك هذه أيضا فليس في الحركة الأولى ما يظهر على الحركة الثانية وإنما مرجع الأمر في ذلك أنني اعتدت أن أتوقع حركة الكرة الثانية كلما تحركت الأولى التي بجوارها).

جون لوك (1632 - 1704) (John Locke) فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي. ولد في عام 1632 في رنجتون (Wringiton) في إقليم (Somerset) وتعلم في مدرسة وستمنستر، ثم في كلية كنيسة المسيح في جامعة أوكسفورد، حيث انتخب طالبا مدى الحياة، لكن هذا اللقب سحب منه في عام 1684 بأمر من الملك. وبسبب كراهيته لعدم التسامح البيورتياني عند اللاهوتيين في هذه الكلية، لم ينخرط في سلك رجال الدين. وبدلاً من ذلك اخذ في دراسة الطب ومارس التجريب العلمي، حتى عرف باسم (دكتور لوك).

وفي عام 1667 أصبح طبيباً خاصاً لأسرة انتوني آشلي كوبر (1621-1683) الذي صار فيما بعد الإيرل الأول لشافتسبري، ووزيراً للعدل، ولعب دوراً خطيراً في الأحداث السياسية العظيمة التي وقعت في إنجلترا ما بين سنة 1660 وسنة 1680. لعبت علاقة لوك باللورد آشلي دوراً كبيراً في نظرياته السياسية الليبرالية. وكان اللورد آشلي يتمتع بنفوذ كبير في إنجلترا إذ كان يمثل المصالح السياسية لرؤوس الأموال التجارية في لندن، وتحت تأثير اللورد آشلي كتب لوك في عام 1667 مقالاً خاصاً بالتسامح (On Toleration) راجع فيه أفكاره القديمة الخاصة بإمكانية تنظيم الدولة لكل شؤون الكنيسة.

اعتقد الكثيرون لمدة طويلة أن لوك كتب أشهر مقالتين سياسيتين نشرتا في عام 1690 بعنوان ((مقالتان عن الحكومة)) (on Government Two Treatises) تأييداً لثورة 1688 الكبرى. وهناك وجهة نظر تقول إن المقالتين موجهتان ضد فيلمر (Filmer) وليس ضد هوبس كما كان يفكر البعض. وهاجر لوك إلى هولندا عام 1683 بسبب ملاحقة الشرطة له، وذلك لاتصالاته الوثيقة باللورد آشلي، الذي كان معارضاً للقصر وبقي هناك حتى عام 1689، وفي هولندا كتب لوك عدة مقالات منها: مقال خاص بالفهم البشري (Essay Concerning Human Understanding) وبعض الأفكار عن التربية وأخرى عن التسامح. وعندما جاءت الثورة الكبرى، استطاع لوك العودة إلى إنجلترا. وقد رفضت الجامعات القديمة فلسفته الحسية وآراءه الليبرالية. ومع ذلك فقد

وهذا يعني: عن خبرة الشبيه، الثابت، المستمر في خبرة الذات ينبثق بالتدريج الإحساس الداخلي بأنا متطابق مع ذاته. كلا الموقفين - متابعين الفكرة بصورة صارمة- ليسا مقنعين منطقياً. فكيف يمكن أن يبدو الأنا السامي، أي من دون أي محتوى للخبرة؟ ومن ناحية أخرى كيف يمكن أن يكون الإدراك والتفكير ممكنين من دون هيئة متطابقة مع ذاته، تتلقى الخبرة وتتمثلها؟ في تنوع ملاحظاته لا يستطيع المرء بوضوح تصنيف إيركسون بوضوح لا ضمن التقاليد الأنجلوسكسونية ولا ضمن التقاليد الأوروبية لفلسفة الهوية. فهو قد اهتم بهذا الموضوع في المقام الأول نتيجة اهتمامات إكلينيكية وإنسانية ولم يرد الدوران حول مسائل ميتافيزيقية metaphysic.

2.3 الأجزاء الاجتماعية والأخلاقية الدينية واللاشعورية للهوية

أصبح واضحاً منذ الآن بأنه من الصعب توحيد مفهوم الهوية عند إيركسون مع علم النفس التأملي التحليلي النفسي التقليدي. فالأمر لا يتعلق بمجرد تنظيم نفسي داخلي لتوترات الدافع أو بهيئات «الجهاز النفسي». فإيجاد الهوية يمتد عند إيركسون نحو «الخارج» إلى المجتمع والتاريخ، و «للأعلى» إلى المجالات الوجودية للأخلاق والعقيدة ونحو «الأسفل» للأجزاء المكبوتة للاشعور.

فالفرد عند إيركسون ليس جهازاً معزولاً أو أناني أساسي. من دون الإطار الاجتماعي فلا يمكن تصور الحياة الإنسانية ومن دون معلومات من الخارج لا يمكن للإنسان أن يتعرف على نفسه ومن دون تأثير فاعل في العالم لا يمكنه الإحساس بهويته. ويفترض أن يتم النظر للجزء الاجتماعي للهوية حسب إيركسون «داخل الجماعة، التي

عاصر شهرته الكبرى التي انتشرت في أنحاء العالم. وتوفي عام 1704. كان لجون لوك دور كبير غير مباشر في الثورة الأمريكية إذ أن كتابه ((رسالتان في الحكم)) كان محط إعجاب الأمريكيين وكانت من ضمن آرائه في الكتاب أن الوظيفة العليا للدولة هي حماية الثروة والحرية ويجب على الشعب تغيير الحكومة أو تبديلها في حالة عدم حفظها لحقوق الشعب وحريته ، وقد ساهمت آرائه في زيادة وعي الأمريكيين الذين اعتنقوا آرائه وقرروا تنفيذها. (المرجع: http://ar.wikipedia.org)

على الفرد أن يجد نفسه فيها. فليس هناك أنا هو جزيرة قائمة بحد ذاتها. فطوال الحياة يتعلق بناء، والحفاظ على قوة الأنا تلك، التي تستطيع تجميع المتمزقات والتوفيق بين المزدوجات، بدعم الوالدين بداية والنماذج الاجتماعية فيما بعد» (1973، صفحة 796).

فمنذ بداية حياته يترعرع الإنسان في محيط جغرافي وشكل حياة ولغة وعقيد لأسرة ما وشعب وجماعة ثقافية، يتمثلها كنوع من «المكان - الزمان» (إيركسون). ويعني إيجاد الهوية لدى إيركسون إيجاد مكانه في المجتمع وتوليه الأدوار وتأديتها بمسؤولية، والاستخلاص من كل العلاقات والخبرات المتنوعة رؤيته وتوجهاته القيمية المستقلة وكذلك على الجماعات عليها باستمرار إثبات هويتها بالنظر لتبدل أعضائها والتحول التاريخي. تسعى الأسر للحفاظ على تعاضدها والكنائس على استمرارية معتقداتها الإيمانية وتكافح المؤسسات الاقتصادية من أجل البقاء الاقتصادي وتسعى الأقليات الدفاع عن تقاليدها وتصد الدول حركات الاستقلال الداخلي أو التهديد الخارجي. أما الطريقة التي يرتب فيها الفرد عالمه الداخلي فيمكن مقارنته بمساعي التنظيم الاجتماعي في الجماعات أو المؤسسات أو في المجتمعات كلها. وبالنسبة لإيركسون فإن إيجاد الهوية الفردية والجمعية ينصهران في عملية تنظيم كبيرة، عملية، «(متموضعة) في لب الفرد ولكن أيضاً في لب ثقافته الاجتماعية، عملية تؤسس في الواقع هوية هاتين الهويتين» (1981 «أ»، صفحة 18).

ويعد الشعور السليم بالهوية عند إيركسون تعبير عن إحساس بالمشاركة، إحساس بالشعور بالتجذر. فالإنسان يعيش في محيط جغرافي مألوف، في علاقات واهبة للأمن، يشعر بالاعتراف في أدواره. ويرتبط الإنسان مع الآخرين في صورة للعالم، التي تغطي الخبرة الذاتية بما يشبه الشفافية، ترتب عالم الخبرة، وتمنح التوجه والمعنى. ويتحدث إيركسون عن «الإحساس بالاعتراف الاجتماعي» (1982 «أ»، صفحة 240)، «الإحساس بأنه في العصر والمكان المناسبين» (1988، صفحة 119)، الإيمان «باستواء واستمرارية صورة مشتركة عن العالم» (1982، صفحة 16)، في حين تترافق أزمة الهوية من المنظور النفسي الاجتماعي مع الإحساس بعدم الأمان وإرهاق الدور والتشرد والاغتراب.

ومن حيث المبدأ تشمل الهوية الاجتماعية النفسية كل انتماءات إنسان ما للجماعة، وتتألف من وقائع شديدة التنوع، تكمل بعضها بصورة منسجمة، ولكن يمكنها أن تكون كذلك متناقضة مع بعضها. وكل بناء للهوية يعكس محيطاً ثقافياً اجتماعياً وتاريخياً ليس كمثله شيء. وسواء ترعرع المرء في وهاد جبلية أم في ناطحات السحاب أم في منطقة حروب أهلية أم في مجتمع البطر، وسواء كانت صورة العالم مصبوغة بالبروتستانتية المسيحية أم بإيديولوجية شيوعية، وسواء يزرع الإنسان حقله طوال عمره أم يسعى محموماً من أجل أسواق المال في هذه الأرض، تنشأ أشكال شديدة التنوع من الكيفية التي يفكر فيها الإنسان حول نفسه ويعيش فيها العالم ويواجه وجوده. وقد صور إيركسون بأسلوب جلي أدبياً تشابك هوية الأنا والجماعة. فقد وصف الهوية الألمانية والأمريكية واليهودية، وكذلك برنامج حياة الثقافات اليهودية، وأبرز طبائع غاندي من خلال الدَّراما Dharma الهندوسية ووصف أزمة الهوية للمهاجرين الأمريكيين. ولكن وبالتحديد من خلال ذلك يبدو مفهوم «الهوية الجمعية» إلى حد ما بأنه أكثر تحميلاً من «مفهوم الهوية»، يمتد من جماعات الأنداد الشابة غير الرسمية إلى الجماعات الكبيرة شديدة التنظيم، من المفهوم البيولوجي للعرق إلى المفهوم السياسي للدولة.

كذلك لا يتضح لدى إيركسون الفرق الدقيق بين مصطلحات «الهوية الاجتماعية النفسية» و «هوية الأنا». فهوية الأنا يبدو أنها منبثقة الهوية الاجتماعية. فقبل أن يبدأ الطفل التفكير بنفسه وبمحيطه، لابد له من أن يترعرع في محيط اجتماعي، يحفظ حياته ويوقظ قدراته. وعنه بداية يبدو أن هوية الأنا تنبثق في سن الشباب، وهي استقلالية شخصية، تجعل من الهوية الذاتية أكثر من مجرد انتماء. يتحرك مفهوم إيركسون في الهوية في مجال الجذب بين الانفراد[1] والمعية. فمطلب الإنسان الراشد هو بناء الهوية الاجتماعية مرة تلو الأخرى، أن يدخل في عالم أفكار شخص آخر، تقبل قوانين الجماعة، ولكن في الوقت نفسه تحقيق هوية الأنا كجوهر مستقل، والتفكير بالمطالب الاجتماعية

(1) بين كينونة الفرد أو كونه لوحده وكونه مع الآخرين.

بشكل نقدي، وتطوير وجهة نظره الخاصة بلا خوف والدفاع عنها، إذا كان ذلك لازماً، ضد الضغط الخارجي. ومن المؤكد أن جزءاً كبيراً من الشعور بالهوية ينبثق عند إيركسون من الأدوار التي يتقلدها المرء في الأسرة أو في الحياة العامة: «إلا أن الفرد السليم القوي يكيف هذه الأدوار مع عمليات لاحقة للأنا ويسهم بهذا في الحفاظ على عملية المجتمع حية» (1982 «أ»، صفحة 402). وتظهر هوية الأنا لدى إيركسون في رؤية مُتَمَثّلة شخصياً للأدوار، يسميها كرابمان (Krappmann,1978) «تباعد الدور Roll Distance». فالدور كدور الزوج أو الأب أو المدير أو الزميل على سبيل المثال ليس قناعاً يختفي خلفه المرء أو يستبدله كالحرباء، وإنما تتغلغل فردياً، وتستعمل بتعاطف وتسامح ودعابة.

وفي حال التكيف الكبير جداً مع المحيط تصبح الهوية مهددة بأن تصبح فارغة وتافهة. ولنتصور الناس الذين عليهم «تنفيذ» شيء ما بهزل هستيري، والذين يتماهون مع قالب نمطي حتى درجة إنكار الذات أو يخضعون بلاتفكير لسلطة خارجية. ومن ناحية أخرى وفي حالة الفردانية المفرطة individualism يصبح نمو الشخصية مهدداً بالتمركز حول الذات وعدم المراعاة. فالأمر في إيجاد الهوية لا يتعلق على الإطلاق بالتحقيق البارد للمصالح الشخصية أو في الحفاظ النرجسي على الواجهة الذاتية أو الغرق التأملي في أعماق شخصية الفرد نفسه. فالهوية الفردية لا يحققها بالنسبة لإيركسون إلا أولئك الأشخاص الذين يتجاوبون مع الارتباط ولا يتجنبوه. وحتى الشخصيات العظيمة في التاريخ من نحو المسيح أو فرانسيس الأسيزي[1] Franz von Assisi أم

(1) فرنسيس الأسيزي 1182م-1266م: هو ابن أحد تجار الأقمشة الأغنياء في مدينة أسيزي الإيطالية. عاش أول شبابه حياةَ البذخ والترف وكان يحلم بأن ينتمي إلى طبقة النبلاء من خلال انتصاراته في الحروب. وقد نال قسطه من التعليم، درس اللاتينية والفرنسية واشترك في الحرب الدائرة بين مدينتِهِ أسيزي ومدينة بيروجا، حيث تم أسره لسنة، عانى خلالها من مرضٍ شديد، ربما كان أحد أسباب تغيير حياته. في عام 1206 عاد إلى أسيزي ناسياً أحلام الماضي وسخر نفسه لأعمال الخير للفقراء والبرص. إلا أن ذلك لم يرق لوالده الذي كان يرى أمواله تُنفَق للصدقة، فثار على ابنه طالباً من أسقف أسيزي أن يقف حَكَماً بينهما. وفي ساحة أسيزي، خلع فرنسيس ثيابه، وأعطاها لوالده معلناً تخلّيه عن حقوقه كابن وتكريسه الكامل للآب السماوي، وبأنه من الآن فصاعداً قد تزوّج

المهاتما غاندي كان عليهم بداية أن يتقبلوا هوية اجتماعية قبل يتجاوزوا شكل حياة محيط ثقافتهم ويطورون مُثُلاً في الأخوة والتسامح العالميين.

بالإضافة إلى ذلك ترتبط الهوية لدى إيركسون إلى حد ما مع موقف أخلاقي أو مع خبرة دينية أو التزام إيديولوجي، يمنح الحياة معنى وعمق. فالإنسان لا يتحول إلى مخلوق اجتماعي إلا عندما يتبنى القيم الأساسية الدينية والأخلاقية لثقافته في ضميره، التي تمنحه القوة والتوجه الداخلي وبشكل خاص في المواقف الوجودية الاستثنائية والحاسمة. فغالباً ما ترسخ وتحدد القيم الشعور الفردي والجمعي بقوة بالهوية، وليس هناك شيء في المواجهات بين الثقافات المختلفة أشد حساسية من التشكيك بقيم الآخر. لقد أظهر فرويد كم مدى الخوف المشحون به التعليم الأخلاقي في الطفولة

فضيلة الفقر. منذ ذلك الوقت اتّخذَ لباس النسّاك وانتقل إلى جبل سوباسيو ممضياً وقته في خدمة الفقراء والبرص. في عام 1209، وخلال أحد القداديس في كنيسة سيدة الملائكة (بورتسيونكولا)، وبعد أن أصغى إلى إنجيل متى هتف بفرح: «هذا ما كنتُ أريد، هذا ما كنتُ أبتغي بكل قلبي»، وطاعةً لكلام الإنجيل تخلّى فرنسيس عن ثياب النسّاك وقرر الرحيل دون أي ممتلكات كي يعلن بشارة الإنجيل للجميع. بعد أن عاد إلى أسيزي وبدأ التبشير بالإنجيل متجولاً، تجمّع حوله عدد من الشبّان الذين تأثّروا بنمط حياتهِ وبقداستهِ، فتمثّلوا به تاركين كل شيء من أجل إتباع المسيح. في عام 1210، ذهبت الجماعة الجديدة إلى روما لمقابلة البابا إنوشينسيوس الثالث الذي وافق على طلبهم في عيش نمط الحياة هذا (مع العلم بأن الرهبان في ذلك الوقت كانوا جميعهم نسّاكَ في الأديرة). وهكذا وُلِدَت الرهبنة الفرنسيسكانية الأولى. وفي عام 1212 وبعد أن سمعت كلارا الأسيزية عظة فرنسيس قررت هي أيضاً أن تترك كل شيء لتعيش فضيلة الفقر لأجل ملكوت الله، وهكذا نشأت الرهبنة الفرنسيسكانية الثانية، أو راهبات القديسة كلارا.

في عام 1212 سافر فرنسيس إلى الأراضي المقدسة، والتقى في مصر السلطان الفاطمي ملك الكامل، لقاءً ملؤه الاحترام والمحبة في أيام كانت فيها الحروب الصليبية ترسّخ التباعد بين الشرق والغرب. بعد ستين عاد فرنسيس إلى إيطاليا لكنهَ وجد الجماعة منقسمة وقد ظهرت فيها خلافاتٍ حادة حول طبيعة الروحانية التي كان من المفترض عيشها؛ ففضّل أن يستقيل من مهمّته كخادم عام للرهبنة .

في عام 1214 كتبَ فرنسيس «نشيد الخلائق» الذي يُعتَبَر أحد الوثائق الأكثر أهمية في تاريخ الأدب الإيطالي، حيث يُرجِع المؤرخون إليه بوادر نشوء هذا الأدب. وهو عبارة عن نشيد نثريّ فيه يدعو القديس كل الخلائق لتسبيح الخالق، مكتوب باللهجة إقليم أومبريا .

بعد إعلان قداسة فرنسيس نشأت نصوص أدبية كثيرة بهذه اللهجة والتي تتكلّم عن حياته، وقد سُمّيت بزهيرات القديس فرنسيس.

المبكرة. ولم يتحدث عن الضمير، وإنما عن الأنا الأعلى، تلك الهيئة الصارمة بشدة لمراقبة الذات، القادرة على الإذلال المهول للأنا بمشاعر الذنب وميول العقاب الذاتي.

وإيركسون لايريد بأي صورة إنكار وجهات نظر فرويد حول الجذور البدائية للضمير. ولكن التعاليم والممنوعات المغروسة في الطفولة يعاد النظر فيها في مجرى النمو اللاحق ويتم جعلها نسبية. فالقدرة على الحكم والتصرف وفق المبادئ العقلية والأخلاقية الإنسانية - غالباً ضد أخلاقية moralism الطفولة-، هي واحدة من أكثر المؤشرات أهمية لإيجاد الهوية في سن الرشد، ويتحدث إيركسون عن متانة داخلية، تقوم «بتحييد سيطرة الأنا الأعلى الطفولي» (1982، 1982 «أ»، صفحة 275). وتتجلى الهوية كقوة أخلاقية في كل مكان يظل فيها الفرد مخلصاً بشجاعة لقناعاته، ويحافظ على التحفظات النقدية والشجاعة المعنوية ضد ضغط المجموعات أو الدعاية أو التخويف الاستبدادي. فالشهداء والمؤمنون ومناضلو المقاومة يغامرون في اللحظات الأشد قتامة في التاريخ بالتحديد بحياتهم من أجل حرية الفكر والإنسانية ويقدمون بهذا أمثلة رائعة لقدرة الأنا على المقاومة.

يستطيع الفرد اشتقاق تصوراته القيمية وقناعاته من تصورات قيمية شديدة الاختلاف. ويستخدم إيركسون المفهوم الغامض «الإيديولوجية» لكل تلك المنظومات من الأفكار، التي تنمي حماس والتزام الإنسان، وتقدم له الإمداد لحاجاته الوجودية نحو الإيمان والمعنى. ويرى إيركسون الهوية «تتضح بصورة خاصة هناك، حيث يكرس الإنسان نفسه بحزم لقضية ما» (1978 «أ»، صفحة 198)، وفي الواقع يمكن للمرء في الكفاح من أجل العدالة الاجتماعية وفكرة سياسية أن يشعر بنفسه بشكل مكثف وأن يخبر في أثناء ذلك بالتضامن لا سابق له. إلا أنه يبدو نوع من الشك، حول فيما إذا كانت الإيديولوجيات المتأصلة عالمياً لوحدها يمكنها أن تقدم إجابة عن المسائل الوجودية. فعبر آلاف السنين كانت الأديان هي أقوى من أشبع الحاجات الأساسية الإنسانية للإيمان والمعنى، وأثرت بقوة على حياة الفرد وثقافات كاملة. ومتأثراً بقدسية الرسل والقديسين أسند إيركسون مفهوم «الهوية» الذي هو بحد ذاته ليس مفهوماً توراتياً أو

لاهوتياً إلى الخبرة الدينية للإنسان أيضاً: «تعتقد كل الأديان بهوية عليا في مكان ما في المجهول الكبير. وتختلف صورة وشكل هذه الهوية في العصور والثقافات المختلفة. منها يستقي الناس جزءاً من هويتهم الخاصة، الذي يمكننا وصفه بالوجودي، لأنه يتحدد من خلال إسناد الروح إلى وجودها الخالص» (1975 «أ»، صفحة 194-195).

على الجانب الآخر من المنطق والعلم تقوم الأديان على تلك الأسئلة الأخيرة عن من أين أتى الوجود الإنساني وإلى أين، عن معنى الوجود وأصل المعاناة. فالقناعة الدينية تمنح الإنسان المتدين وبشكل خاص في الأزمات والمواقف الحدودية للحياة المواساة والأمل. وفي الصلاة والتأمل يشعر الفرد بالأمان من خلال قوى داعمة ومساندة، خبرات تتصاعد في الصدمات والتجليات عند القديسين إلى خبرات اليقين المطلق بالله. فالأمر يتعلق بالنسبة لإيركسون بأحاسيس غامضة وربما أعمق الأحاسيس بالهوية، التي تعاش كيقين كامل، ولكن لا يمكن توصيلها إلا بصعوبة وغير ممكنة البرهان علمياً على الإطلاق. وبشكل مثير للانطباع فتح إيركسون في السير الذاتية الكبيرة التي كتبها حول لوثر وغاندي لمواضيع واقعة على المناطق الحدودية للتحليل النفسي واللاهوت، من دون أن التلميح بشكل أوضح إلى شيء من قناعاته العلمية الخاصة. وبهذا فإن المسألة الجوهرية تظل بدون إجابة: ألا يحمل الإنسان جوهراً ميتافيزيقياً في ذاته، ألا تستند في النهاية كل الهويات إلى الله وتتحرك باتجاهه؟ أم أن الاعتقاد الديني هو مجرد نوع من الوظيفة المساعدة في إيجاد الهوية، ألا يقوم الدين، مهما كان الشعور به مواسياً ومقوياً للأنا، من حيث المبدأ على مجرد نكوصات وإسقاطات طفولية؟.

لا يترك إيركسون بأي شكل من الأشكال عند نقاشه لمشكلة الهوية المعارف الأساسية لفرويد حول الأجزاء البدائية التي لا قرار لها للشخصية من دون مراعاة. ففي كل إنسان يوجد مجال معتم، كل النقاط المتقرحة والأخطاء والعيوب التي لا نريد إدراكها في أنفسنا وكثيراً ما نقوم بإسقاطها على الآخرين، الذين هم مع ذلك جزءاً أساسياً لا ينفصل من جوهرنا. ويتحدث إيركسون عن «الهوية السلبية»، «مجموع كل تلك التماهيات وشظايا الهوية التي على الفرد أن يكبتها، لأنه يرفضها أو يعتبرها غير

معقولة، أو لأن جماعته علمته إدراكها على أنها سمات (اختلاف) وخيمة في الدور الجنسي أو العرق أو في الطبقة الاجتماعية أو الدين» (1982 «ب»، صفحة 18). وتتسلل إلى الأفكار والأحلام والهوامات باستمرار ذكريات واتهامات ذات مرهقة ونزوعات دافعية صادمة أو مشاعر غضب مكبوتة، ويمكنها أن تعكر مزاجنا وتدفعنا إلى صراعات شديدة. ويحدث في الحياة النفسية باستمرار صراع - وإن ظل لاشعورياً إلى مدى كبير- بين إدراكنا الشعوري لذاتنا والهوية السلبية. وجزء كبير من هذا الصراع يحدث عبر آليات الدفاع، التقنيات العاملة بصمت، التي يكبت من خلالها الأنا المضامين المهددة بشكل خاص للاشعور أو الرغبات الجنسية الشاذة أو نزوعات الكره غير المضبوطة أو المخاوف الصادمة، ويحمي الفرد من القلق والحرج والألم. ويطور كل إنسان توليفاً نمطياً من عادات الدفاع، التي تنصهر مع علاقاته الاجتماعية ومعتقداته وقيمه، وتسهم في تقرير الثبات والاستواء في خبرته ومظهره الخارجي. ويمكن للفشل في آليات الدفاع، من نحو نوبات الغضب السريعة غير المسيطر عليها أو نزوعات الاستعراضية[1] exhibitionist، أن يوقع الفرد في صعوبات كبيرة، تماماً كما يمكن لكل أزمات الهوية أن تزعزع أيضاً آليات الدفاع. ولنأخذ أطوار نوبات الأكل المتطرفة بعد علاقة حب فاشلة أو انفجار نوبات غير منطقية من حقد والغيرة في إطار مواجهة طلاق. كل تقنيات الكبت، والتكوين العكسي والإسقاط والعقلنة[2] والعزل هي نوعاً ما قضبان مشدات هويتنا، التي من دونها ربما تعرضنا لفيض من النزوعات غير المسيطر عليها وغرق المجتمع في البدائية. ومن ناحية أخرى يمكن لآليات الدفاع، إذا ما أصبحت جامدة جداً وأحادية الجانب، أن تعيق القدرة على الإدراك والتعاطف والإبداعية بشدة وأن تستقر في شذوذات عصابية.

(1) الاستعراضيةExhibitionism : انحراف يتميز بالنزوع نحو عرض الأعضاء التناسلية للآخرين. على الأغلب يميز أشخاص ذوي طفولية جنسية غير قادرين على إقامة علاقات سوية ونادراً ما يكون الهدف من وراء ذلك الاعتداء الجنسي. كما يعني المصطلح عموماً نزعة المرء إلى إظهار سلوكه أو قدراته بطريقة ملفتة للنظر.

(2) التبرير أيضاً Rationalization.

فمفهوم إيركسون في الهوية يمتد لأبعد من «صورة الذات Self-Image» أو «مفهوم الذات Self-Concept» في علم النفس الأكاديمي. فخبرة الذات الشعورية لا تعكس إلا جزءاً صغيراً من جوهرنا، وفوق ذلك تشوه من وتتمنق من خلال عمل آليات الدفاع. وكثير مما يعرض وعينا بذاتنا، قناعاتنا السياسية أو الدينية، لا يمكن أن يسمح له بالوصول إلى الشعور بشكل صحيح، فتتم إعادة تفسيره أو يتم إنكاره كلية. فكثير من غرائبنا وعيوبنا، التي سرعان ما تلفت نظر المراقب الخارجي، تظل نقاطاً عمياء لإدراكنا لذاتنا. ويميل الإنسان دائماً إلى لإسقاط جانبه المظلم على الخارج، والتقليل من قيمة الناس أو الجماعات الأخرين كي يشعر بالتحسن بصورة اصطناعية. ويقف إيركسون بحزم ضد فرط الأحكام المسبقة المتطاولة التي تسمم العلاقات بين الناس والجماعات وتتحول مراراً إلى منبع للعداوات اللامنطقية. كما يعني إيجاد الهوية بالنسبة لإيركسون النظر للداخل وتعلم التعرف على جوانبه الذاتية المظلمة بوصفها منه وتقبلها.

2.4 تطور وتغير الهوية في دورة الحياة

نظرية إيركسون في الهوية هي قبل كل شيء نظرية تطورية genetic، وهمه هو فهم تطور وتغير خبرة الذات في الأطوار المختلفة لدورة الحياة. فالهوية بالنسبة له لم تكن أبداً « (مكسباً محدداً' على شكل درع للشخصية أو أي شيء ساكن وغير قابل للتغير» (1981 «أ»، صفحة 20)، وكثيراً ما ابتعد إيركسون عن المفاهيم الأكاديمية من نحو «الطبع Character» أو «نمط الدور» أو «مفهوم الذات»، التي توحي بسهولة بأن قد وجد في يوم من الأيام هويته بوصفها «ملكية» غير قابلة للضياع بمعنى ما(٧).

يعني إيجاد الهوية من منظور علم نفس نمائي، البناء المتكرر لوحدة الشخصية من كل القوى والمراحل والمظاهر المختلفة للحياة. وكما تنسق العضوية بطريقة رائعة الوظائف وأشكال النمو المختلفة مع بعضها، يحاول الأنا باستمرار توليف القوى المختلفة التي تؤثر فيه وعليه. ويمكن النظر لنمو الشخصية على أنه عملية من التمايز

والتكامل لتنظيم فيزيونفسي مطرد التعقيد على مستوى أعلى باستمرار، عملية تبدأ منذ لحظة اندماج البويضة مع النطفة، ولا تنتهي من حيث المبدأ إلا بالموت. ويتحدث إيركسون عن تشكيلة مُتَفَتِّحة، «تدمج بالتدريج المعطيات البنيوية والحاجات الشخصية جداً والقدرات المفضلة والتماهيات المهمة والدفاعات الفاعلة والتصعيدات الناجحة والأدوار الناجحة» (1988 صفحة 97).

شخصياً يتم الإحساس بذلك على أنه بناء لعالم مطرد التعقيد من الخبرة. وبصورة دائمة تتدفق انطباعات ومعلومات جديدة علينا، نتمثلها بمساعدة التصويرات الاستعرافية cognitive Schemata القائمة بالأصل وتوسع صورة كل من ذاتنا وعالمنا. ويمكننا الحديث عن انصهار دائم للانطباعات الماضية والحاضرة والمستقبلية، نوع موجه بتأثيرات لاشعورية كثيرة من الكتابة الشخصية للتاريخ. وينبغي لكل ذكرياتنا حسب إيركسون «أن تمر عبر سلسلة من المصافي» (1975 «أ»، صفحة57)، على كل مرحلة من النمو نرى نحن أنفسنا وظروف حياتنا من منظور آخر. ويمكن للأزمات والخيبات فيما بعد أن تحظى بمعنى، وبعضها يبدو كأخطاء؛ فأهدافنا الحياتية واهتماماتنا تحولت، نحكم على علاقتنا بشريك حياتنا أو أولادنا أوالدينا أو أصدقائنا بشكل آخر.

ومن المؤكد أن المرء لم يعد ذلك الإنسان الذي كان قبل عشرة أو عشرين سنة. ومع ذلك فإن تذكر الماضي جزء مني، أظل مخلوقاً مستمراً في الماضي والحاضر والمستقبل.

وهكذا فإن الهوية لدى إيركسون واقعة في حقل الجذب الثبات والتغير، وتعني «المرونة الحفاظ على الأشكال الأساسية الجوهرية في عمليات التحول» (1966، صفحة 78). فمن جهة على الفرد أن يظل مرناً، أن يفكر بالاتجاهات والأحكام السياسية، وأن يواجه التحديات وأن يمتلك الشجاعة لاتخاذ قرارات جديدة. ومن ناحية أخرى عليه أن يظل في كل النمو اللاحق مخلصاً لنفسه، كي لا يقع بلا تدبر عرضة لكل تأثيرات روح العصر. فخوف الهستيري من التقييد يجعله يتجنب التزامات الحياة. ولكن في كل أقنعته وتمثيلياته لا يرضى بنفسه عن نفسه، وهو ما يجعله يبحث بحيرة عن الصدى الاجتماعي. والأشخاص القهريون بصورة متطرفة يسيجون أنفسهم من الخوف من

التغير في عالم من الطقوس القهرية وغالباً ما يعيشون بطريقة عجيبة على هامش الواقع المتغير.

في أية لحظة من دورة الحياة يمكننا للمرة الأولى الحديث عن هوية-أنا ثابتة؟ يعتقد إيركسون بأن طلائع خبرة الهوية من الممكن أن توجد حتى لدى الطفل –وإن كان الأمر بطريقة لعبية وحرة- إلا أنه بداية في المراهقة يكون الإنسان بناء على النمو الاجتماعي والمعرفي قادراً على تطوير تصور عن نفسه والثبات بشكل ملتزم على أدواره في سن الرشد. ومن منظور علم نفس نمائي فإن الهوية لدى إيركسون عبارة عن «زيادة نوعية في نضج الشخصية....، يفترض لها أن تخرج الفرد في نهاية المراهقة من كم كبير من خبراته الطفولية، ليكون مستعداً لمهام حياة الرشد» (1981، صفحة 123). ويميز إيركسون بين ثلاثة مراحل كبيرة في نمو الشخصية: اجتيافات[1] الرضيع وتماهيات الطفل وأخيراً تمثل الاجتيافات والتماهي مع هوية شخصية في نهاية سن الشباب.

(1) الاجتياف introjection: عبارة عن تمثل خيالي لمواضيع وصفات تابعة لهذه المواضيع بحيث تصبح جزءاً من الأنا أو الأنا الأعلى. ويمكن تشبيه الاجتياف بالامتصاص. والفرق بينه وبين التماهي هو أن التماهي نوع من التغليف الخارجي لبنية مزعزعة أما الاجتياف فهو تشريب هذه البنية داخلياً. وترى ميلاني كلاين أن الاجتياف عملية هامة ومفيدة في الطفولة، كونها تتيح للطفل استيعاب العالم، في البداية. ويوجد دائماً مع عكسه المكمل له، ألا وهو الإسقاط. وترى كلاين كذلك أن الاجتياف والإسقاط هما أول آليتان يستخدمهما الطفل كأسلوب لإبعاد كل ما هو مؤلم عن الذات، وإن هدف الاجتياف جعل مواضيع العالم الخارجي غير خطيرة، من خلال إدخالها إلى الذات وجعلها جزء من الذات. فالمشاعر التي لا يمكن إظهارها للخارج بسبب الخوف من العقاب والتي لا يمكن كذلك إسقاطها يتم توجيهها إلى ذات الشخص لتحييدها. مما يؤدي إلى اتهامات الذات ومشاعر النقص والاكتئاب وإلى تصرفات انتحارية وتحقير الذات. وهنا ينظر الشخص إلى أن أسباب عدم الرضا عن الحياة تكمن فيه داخله، ويفتقد الشجاعة إلى البحث عن أسباب عدم الرضا عن الحياة في الخارج. وفي الشكل السلبي من الاجتياف يتم توجيه السلوك والمشاعر العدوانية بصورة جامدة وبشكل آلي ضد الذات. أما الشكل الإيجابي للاجتياف في مواجهة مواقف الحياة الخطيرة، فهو التماهي مع مواقف الآخرين ومن خلال هذا التماهي يمكن إخضاع مواقف الصراع للنقد الذاتي السليم ومن ثم يتقبل المرء إمكانية كونه ليس محقاً دائماً. ويلعب الاجتياف دوراً مهماً في الحياة النفسية الأولى والصحة والمرض وبناء الشخصية. وكان أول من وضع هذا المصطلح فيرينتشي Ferenczi وتوسعت ميلاني كلاين في تفصيله، وأطلق عليه أبراهام تسمية Incorparation التي تعني دمج، اندماج، تجسدي. وقد أكد عليه فرويد في دراسته للميلانخوليا (الاكتئاب الذهاني)، ووضعه لاحقاً مقابل الإسقاط.

فلفترة طويلة قبل نشوء أول وعي بالذات يتجذر الإحساس بالهوية بالنسبة لإيركسون في عمليات اجتياف المرحلة الفمية. ففي الاتصال مع الأم يحاول الرضيع «هضم» مصادر المتعة والإشباع الخارجية إلى حد ما، ومن ثم جعلها غير قابلة للفقدان. إن اجتياف «صورة أم طيبة» يوقظ الثقة الأساسية، بأن الإنسان جدير بالحب، بأن الأمر يستحق الخوض في العالم. فأولى الاتصالات البصرية، البريق في عيون الأم، الذي يمنح «الاحترام» الأول و «الاعتراف»، ربما تكون أبكر أحاسيس الشعور الإيجابي بالهوية. فشخصيتنا تنبثق وفق إيركسون من التبادلية dialogical، من اللقاء المحب. ومن أجل أن نتمكن من استحسان أنفسنا وإثبات ذواتنا في أزمات وجودنا فإننا نحتاج مراراً إلى القوة المعززة للمشاركة الوجدانية sympathy والتضامن. وفي الاضطرابات الشديدة للمرحلة الفمية ترتبط أولى الخبرات للأم مع المخاوف المتطرفة أو مشاعر الغضب أو الذنب. ومثل هذه «الاجتيافات الشريرة» (التي لا تتطابق بالطبع مع شخص الأم الواقعي) تظل جسماً غريباً طوال الحياة، تسهم في هويات هشة، منقسمة، شكاكة.

وكلما كان بناء العلاقة الأولى مشحوناً بالثقة أكثر، تطورت النزعة لدى الطفل الصغير أكثر للتفاعل بشكل فاعل مع العالم. فالهوية لدى إيركسون تكون «أضمن ما يكون هناك حيث تتأسس في الفاعلية» (1975 (ب)، صفحة 119). وإلى جانب الرغبة للأمن والحب يمتلك الإنسان حاجة أساسية للكفاءة، يريد منذ وقت مبكر تحريك شيء ما، أن يجرب مواهبه، تحقيق ذاته بنفسه في عمله وأن يحظى بالاعتراف في مهنته. فمنذ الطفولة المبكرة يمكن ملاحظة نزعة جبارة لتجريب قواه ومهاراته. وتحل آلية التماهي في السنة الثانية من العمر الاجتيافات البدائية. فالطفل يحاكي السلوكات الحركية واتجاهات وتعابير الوالدين الانفعالية، يتبنى مثلهم الأعلى بدرجة ما في ذاته. كل عمليات النمو المهمة للسنوات الأولى، تفتح الحركات أو اللغة أو الضمير أو الدور الجنسي تسير في جزء كبير منها عبر التقرب من الوالدين الأشخاص المرجعيين المهمين، الذين يمثلون من ناحيتهم نمط حياة ومثل وأخلاق إطار ثقافي محدد. المهم هو أن

يستحث الراشدون محاولات التماهي عند الطفل بالمديح ويمنحونه من خلال ذلك الشعور بأنه قادر على السيطرة بفاعليه على مجالات أخرى من وجوده. وبالتحديد فإن هذا الخليط من التحكم الجسدي والمتعة الوظيفية والاستحسان الاجتماعي في تعلم وظائف الأنا يقوي الفخر واحترام الذات عند الطفل ويتكاثف بالتدريج إلى قناعة، «أن الأنا قادر على القيام بخطوات ناجحة باتجاه مستقبل جماعي معقول، بحيث ينمو إلى أنا منظم داخل واقع اجتماعي ما» (1981 «أ»، صفحة 47). فتعلم المشي والكلام لوحدهما لا يمثلان بالنسبة لإيركسون شيئاً مشحوناً بالمتعة فحسب وإنما يعني بالنسبة للخبرة الطفولية نمو غير عادي للهيبة. فالمرء يعتبر في المجتمع كشخص، يقف على قدميه، يستطيع الذهاب أبعد فأبعد. إنه الآن واحد، يتكلم، ولكلمته اعتبار، ويمكن الاعتماد على كلمته.

وفي مجرى النمو اللاحق تتجاوز التماهيات باطراد أفراد أسرة الإنسان. ففي سن ما قبل المدرسة يتقمص الأطفال أنفسهم في ألعاب جماعية غنية بالخيال أدوار الحيوانات وأبطال الأفلام والأساطير أو يقلدون مهن الراشدين. وبالطبع فإن مثل هذه المخططات الطفولية من التماهي، تصور البنت الزواج من الأب أو أن يصبح الطفل مديراً لحديقة الحيوان أو أن يكون سوبرمان، مازالت سريعة التغير وغير ناضجة بعد. ومع ذلك يتم حسب إيركسون في هذه التماهيات اللعبية تجميع عدد كبير من تمثيلات الذات في مخططات للشخصية، ويبدأ الطفل من خلال «تماهيات تجريبية تحل مكان بعضها البناء بشكل مبكر تصور توقعي عن كيف سيكون عندما يصبح أكبر وكيف سيبدو الأمر للمرء في أنه قد كان أصغر في يوم من الأيام - اتجاهات توقع، تصبح من أجزاء الهوية، بأن يتم اختبارها خطوة فخطوة في الخبرات الحاسمة على (ملائمتها) الاجتماعية النفسية» (1981 «ب»، صفحة 142).

وهكذا يكون في عمليات التعلم والتماهي في الطفولة قد تم نقش الاتجاهات نحو الدور الجنسي الخاص والأخلاق واللعب والعمل والعقيدة. وكذلك تكون قد ترسخت دوافع أساسية لاشعورية محددة - يتحدث لشتنشتاين (Lichtenstein, 1961) عن

«مواضيع الهوية Identity Themes»، من نحو لا يجوز التخلي عن الأم أو وجوب معارضة المطالب السلطوية من حيث المبدأ على سبيل المثال. إن تماهيات الطفولة تشكل لدى إيركسون ما يشبه أحجار بناء الهوية. إن التقرب إلى والدينا وإيماءاتهما واتجاهاتهما وطريقة تعبيرهما وكذلك مخاوفهما الكامنة وصراعاتهما العصابية غالباً ما تكون مدهشة إلى درجة أنه يمكننا الحديث عن نوع من «التوريث الاجتماعي النفسي» (Schraml, 1968b). فكل تحليل نفسي يظهر كم مدى عمق المحيطات الطفولية التي ما تزال كامنة «فينا» إلى حد ما، كم قوة تأثير العلاقات بالوالدين أو الأخوة أو التوقعات أو وصايا أسرتنا أو خبرات الحب أو الصد أو العدالة الغائبة بشكل لاشعوري على علاقات حياة الرشد.

وتسهل التماهيات الراسخة والمنسجمة في ذاتها العبور إلى سن الرشد. وكذلك التماهيات الناقصة (من نحو التماهي مع أب ضعيف، غائب على الأغلب على سبيل المثال)، أو التماهيات غير الملائمة بدرجة كبيرة (من نحو التماهي مع أم انتحارية اكتئابية على سبيل المثال) أو التماهيات المتناقضة بشدة (من نحو التماهي مع رؤى تربوية متناقضة كلية للوالدين والجدين على سبيل المثال) تعيق إيجاد الهوية اللاحقة مثلها مثل التماهيات المفرطة (من نحو التماهي مع أفكار دينية مبالغ بها لوالدين طائفيين). إلا أن النمو اللاحق غير أنه بالنسبة لإيركسون فإن النمو اللاحق لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يكون نتيجة لتفتح ما تم زرعه في الطفولة فحسب، ومجرد جمع للتماهيات: «فهي لا يمكنها أن تقود إلى شخصية شغالة وظيفياً» (1981 «أ»، صفحة 162). إن الصيرورة الفعلية للشخصية تكتمل في مواجهة الشاب لذاته، الذي ينفصل عن محيط طفولته ويشكّل من «مادة» التماهيات بالتدريج بروفيل شخصيته المستقلة. والتوقعات التي يطرحها المجتمع الآن على الإنسان الشاب - تعلم تحول جنسيته في علاقة مُحبة وبناء رأي مستقل كمواطن بالغ واتخاذ القرار لسيرة مهنية في سن الرشد- غالباً ما تكون محيرة ومرهقة. ويطلق إيركسون على سن الشباب وصف زمن «أزمة هوية معيارية». فالشبان- متقلبون داخلياً من خلال الدوافع الجنسية والعدوانية، ومزعزعون

خارجياً من خلال الحالة غير الواضحة بين الطفولة وعالم الرشد- يعيشون أنفسهم ومحيطهم بشكل إشكالي على الأغلب. والكثير من خبرات الطفولة والرغبات المهنية والتصورات الأخلاقية أو الاعتقاد الديني الطفلي أو التقديس الساذج للوالدين تصبح مشكوكاً بها؛ فكثير من التماهيات، التلميذ النموذج، محبوب أمه، العنيد، «الساذج الصغير»، تنضج، ويعاد النظر بتماهيات أخرى بصورة نقدية وأخرى تتوسع. إنه وقت التمعن وتجريب تصورات الذات والاتصالات والمخططات والأدوار. والأمر يتعلق حسب إيركسون بالقدرة، «على جعل المرء نفسه بوصفه فرد محدد في علاقته بالكون القابل للضبط، الذي يتجاوز ظروف الطفولة» (1966 «ب»، صفحة 81). يتبادل المراهقون الإعجاب ببعضهم في علاقاتهم، يريدون معرفة من هم، وكيف يؤثرون على الآخرين. وعلى الرغم من أن كثير منهم يبدون للخارج بعيدين، إلا أن الحاجة لتوجيه وتعزيز الراشدين كبيرة، يمكن للقاءات مع مثل عليا أن تصبغ إيجاد الهوية بشكل فاصل. وعليه يتبلور لدى الفرد بالتدريج بالنسبة لإيركسون في سن الشباب المتأخر تصور أكثر ثباتاً عن ذاته وموقعه الاجتماعي ومستقبله في سن الرشد «الهوية النهائية»، بالشكل الذي تترسخ فيه في نهاية المراهقة، هي فوق أي تماه مع الأفراد من الماضي «إنها تتضمن كل التماهيات المهمة في ذاتها، ولكنها تتغير أيضاً كي تصنع منها كلاً فريداً ومترابطاً بصورة مناسبة» (1981 «أ»، صفحة 165). ومنذ ذلك الحين فإن الهوية هي ضمان داخلي، تتجلى في رسوخ الظهور والحكم، بالشكل اللازم للتولي المسؤول لأدوار سن الرشد. يعرف المرء حسناته وسلبياته، يعلم حول قيمه الداخلية، لم يعد معتمداً على الانعكاس المستمر والتعزيز من الخارج. وكون رأيه الخاص، الذي لا يتقوض باستمرار من خلال الانفعالات والمخاوف. ويتحدث إيركسون عن الإحساس بكينونة منتظمة، «عن وحدة الشخصية التي، بقدر المستطاع بفخر، يمكن تقبلها بوصفها حقيقة تاريخية غير قابلة للعكس» (1981 «أ»، صفحة 257). وبالتأكيد فإن الهوية تستمر بالاغتناء في سن الرشد من خلال خبرات جديدة، إلا أن الأسلوب الشخصي الذي يتم فيه استقبال هذه الخبرات وتمثلها، يبدو بالنسبة لإيركسون ثابتاً.

ليس من النادر أن تم ربط حادث إيجاد الهوية بتعابير من نحو «إدراك الذات Self-realization» أو «تحقيق Self-actualization». إلا أن إيركسون لا يريد السقوط في التقديس الرائج للشخصية لأيامنا هذه. فالموضوع لا يتعلق بالعمل المتجدد باستمرار في تفرد منعزل على كمال شخصيته. فلابد للمرء أن يكون قد وجد نفسه في يوم من الأيام كي يعطي مثلاً أعلى موثوق بالنسبة للجيل التالي.

هوية الراشد بالنسبة لإيركسون لا تصبح حقيقية إلا عندما يتسم بالمسؤولية، ويربي الأطفال ويسهم في المجتمع. ويبتعد بوضوح عن التأمل والوجوديين المحترفين في أيامنا هذه، الذين يحاولون اختراق أعماق ذاتهم وطالما عاشوا الارتباط والتخلي بوصفهما تقييداً لذاتيتهم Subjectivity: «إن خطر الوجودية الكلية، التي ترغب بالبقاء شابة، هو أنها تريد الالتفاف على المسؤولية عن سيرورة الأجيال Process of Generations ومن ثم الدفاع عن هوية إنسانية ناقصة abortive» (1981 «أ»، صفحة 39).

وبما يشبه مالر Mahler أو كيرنبيرغ Kernberg أو ياكوبسون Jacobson وإن كان الأمر ليس بتفصيل ووضوح هكذا، وصف إيركسون إيجاد الهوية كتمثل حرج لتماهيات الطفولة في موقف شخصي وكإيجاد مسؤول للدور في المجتمع. وبحذر لم يشر إلى مدة وشدة هذه العملية.

فإيجاد الهوية يمكن أن يسير بلا مشكلات وبشكل عشوائي إلى حد ما، إذا ما هيأت مراحل الطفولة الشاب بشكل جيد ليكون راشداً ومنحته التقاليد الشفافة طريق الحياة. ويمكن المجاهدة في سبيل الهوية لفترة طويلة جداً وبصورة مأزومة، إذا ما زادت صراعات الطفولة أو الأزمات الاجتماعية إشكالية النمو عند المراهق. فالبنت المتماهية مع أم مسيطرة-باردة، سوف تواجه صعوبات في دورها الأنثوي، وبشكل خاص عندما تسير علاقاتها الأولى مع الشبان بصورة إشكالية. والرجل الخائب داخلياً من عدم نجاح والده يستجيب ضمن بعض الظروف بشكل مشابه يائس عند أولى الصعوبات المدرسية والتعليم. وبالمقابل ماذا تفيد أجسن تماهيات الطفولة إذا ما لم يكن الوالدين يمتلكان المال لتميل الدراسة أو إذا ما لم يحصل الإنسان على مقعد للدراسة في فترات الركود

الاقتصادي أو عندما يتم إرسال الشبان إلى الحرب ليتم خداعهم في أفضل سنوات عمرهم؟

المجتمعات المقيدة بالتقاليد أخذت حسب رأي إيركسون حاجة الشباب للإرشاد في برنامج حياتها بعين الاعتبار. فقد منح المرء الشباب وضعية خاصة كمتربين، أعطاهم الحرية للتجريب والخروج على الآداب وقادهم من ناحية أخرى إلى بشكل منهجي إلى مجرى حياتي محدد. لنأخذ على سبيل المثال التقليد القديم لسنوات التجوال لمهن الحرف اليدوية، أو للوضع الخاص لحياة طلبة المدرسة الثانوية العليا أو حياة الطلبة أو تأهيل الرهبان في الدير. وفي نهاية مثل هذه الفترات الدراسية تم بالطبع قبول الراشد الشاب كعضو كامل الحقوق في مؤسسة ما. مثل هذه التعليقات moratorium وطقوس التنسيب (الغفران، البكالوريا، التثبيت[1]، الدبلوم، الأطروحة) لم تعد توجد في المجتمعات الحديثة إلا بشكل متفرق. ومن النادر لها أن تترافق اليوم مع مشاركة انفعالية من أحد ولا تضمن بأي شكل من الأشكال مركزاً في المجتمع. وبالنظر للانهيار المتزايد للتقاليد الداعمة يمكن في أيامنا هذه ملاحظة وجود طرق مختلفة لإيجاد الهوية. إذ يمكن للمعبر إلى سن الرشد أن يسير بشكل سلس إلى حد ما، إذا ما كان محدداً منذ أمد أن يتولى الابن أعمال أو عيادة أو مهنة الأب أو يتزوج صديقة الطفولة أو يتلاءم في الدور الجنسي ورؤية الحياة مع تقاليد محيط محلي. ويمكن لأزمة الهوية أن تتأزم بشكل وخيم وتمتد طويلاً، وبشكل خاص لدى الشبان من أسر مشكلة أو مجموعات هامشية مقموعة، لا يمتلكون في أدغال المدن الكبرى أي أمل في الصعود الاجتماعي. وكثير من الشبان الراشدين يخططون في أيامنا هذه حياتهم في تماه معاكس جداً لوالديهم: لا يريد المرء الزواج أبداً، أن تصبح امرأة خاضعة مثل أمها أو يربي الأولاد بصورة صارمة مثل الوالدين، يريد المرء تحقيق أهداف حياتية مختلفة كلية، يتبنى قناعة سياسية أخرى. وليس من النادر أن يذهب إيجاد الهوية باتجاه غير متوقع. فخبرة جنسية

(1) طقس ديني كاثوليكي.

صادمة تقود لدى فتاة شابة إلى إعراض عن الرجال وتستقر في هوية سحاقية. ويقود فشل الامتحان إلى تغيير الدراسة وتوجه مهني جديد كلياً. واللقاء مع شخص كاريزمي يجعل من الشاب المثالي من أنصار حركة سياسية أو دينية.

وكثيراً ما لا يمكن الحديث عن هوية قائمة في نهاية المراهقة. فكثيراً ما نلاحظ أناس يجربون حائرين حول مستقبلهم حتى العقد الثالث أو حتى الرابع من الحياة، حيث من الممكن أن ينزلقون في أزمة أو يختارون هوية بضربة واحدة، لا يكونوا راضين عنها لاحقاً. وباطراد متزايد يصبح من الدارج أن يتصرف المرء حتى أواسط الحياة بطريقة الشباب، ذلك أنه يهرب حيث المبدأ من القرارات المُلزمة.

2.5 أشكال أزمة الهوية

نظراً للانهيار السريع للتقاليد والكوارث التاريخية بدرجة لم تكن معروفة فإن تشتت الهوية أسهم في تحديد الشعور بالحياة للقرن العشرين. وقد تطرق الأدباء والفنانون والفلاسفة بشكل مثير لأحاسيس عدم الأمن واللامنطق والتمزق والقلق. وليس من المستغرب أن يدخل مهاجر هذا الموضوع إلى النقاش التحليلي النفسي. فقد وصف إيركسون أزمة الهوية في السياقات المختلفة، من أزمات الهوية للشبان والشك بالذات لقادة تاريخيين عبر مشاعر النقص لأقليات مقموعة وانتهاء بالمخاوف الصادمة للمهجرين والملاحقين[vi].

فهو يصف أزمة الهوية كإحساس، يبدو حسب بينيديت (Benedetti, 1986c) يقع في الوسط بين ظواهر الاغتراب الطبية النفسية وحالات الاغتراب لأبطال الدراما الوجوديين. وبما أن إيركسون لا يعرِّف المفهوم بشكل واضح وكثيراً ما انزلق ليصبح شعاراً، تظل كثير من المسائل معلقة بالنسبة لكثير من الإكلينيكيين. فما هو الفرق على سبيل المثال بين أزمة الهوية الأزمات الأخرى؟ متى تتحول أزمة حياتية يومية إلى أزمة هوية، ومتى تتفاقم أزمة هوية إلى ضياع الهوية؟ ما هي المشتركات والفروق القائمة بين مشكلات الهوية وصور الحالات المرضية النفسية؟ وكذلك في هذا الموضوع يمكن

للمرء أن يحاول تجميع مقالات وملاحظات إيركسون، إلا أنه يظل في بعض الأحيان معتمداً على التخمينات.

كل إنسان يعرف أزمات طفيفة في الهوية على أنها مشاعر عدم اليقين والاستغراب عند تبديل للصف المدرسي أو العمل أو عند تولي المهنة للمرة الأولى أو عند الانتقال إلى مدينة غريبة على سبيل المثال. ويعتقد إيركسون «أن الإنسان يميل في كل خطوة من نموه كإنسان محدود إلى الشعور بأنه مقتلع داخلياً» (1966 «أ» صفحة 93). فحتى الطفل يمكن أن يشعر بالاغتراب بشدة، عندما يختفي الوجه المألوف للأم أو عندما يقوم الراشدون بالسخرية منه أو عندما يشعر بثقل ضميره المعذب. وفي كل أزمة هوية يتم ثانية مس المشاعر القديمة من الشك أو الخجل أو الذنب والحياة اليومية مليئة باللايقين – ملاحظة نقدية للمدير، توقع خائب، نزاع مع الأطفال–، ترتبط بنقاط متقرحة من ماضينا. والوظيفة التوليفية لأنا فهي دائماً موجودة لترميم كل ما يرهق مزاجنا ويشل ومبادرتنا. إلا أن أزمة الهوية الثقيلة تحصل عندما يتم إنهاك عملية التمثل اللاشعوري للخبرات من خلال الكثير من الصعوبات دفعة واحدة أو من خلال تحولات متقطعة في وضع الحياة. مثال ذلك المرأة الشابة التي لا تشعر بالراحة في دراستها وفي الوقت نفسه تعاني من مشكلات مع والديها وصديقها. أو الرجل في سنوات العمر الأوسط ينهكه تغيير عمله وغارق في أزمة مالية وعليه في الوقت نفسه أن يعتني بأمه المحتاجة للرعاية. وتحصل أزمات الهوية القاسية بشكل خاص، كلما كانت الأحداث التي تصيب الفرد أقل توقعاً وتربك المنظور الكلي للحياة: الموت غير المتوقع لقريب أو تشخيص مرض وخيم أو العجز المفاجئ بعد جلطة مفاجئ. وأزمات الهوية ليست عبارة عن صراعات نفسية داخلية كالعصابات وإنما غالباً ما تترافق مع خبرات فشل وخجل واضحين، من نحو إفلاس المؤسسة الخاصة أو الرسوب في امتحان أو التحويل إلى الحبس الاحتياطي أو افتضاح أمر شخص جنسي مثلي أو التهمة المفاجئة بالتهرب من الضرائب أو جنوح الابن.

وتحصل أزمات الهوية الوخيمة عندما يتم تفاقم أزمة برنامج النمو الاجتماعي

النفسي بشكل إضافي من خلال حدث غير متوقع: الصبي الصغير الذي يفقد في أواسط طور النمو الأوديبي والده بحادث ويحس بصورة لاشعورية أنه أسهم في موته؛ والمراهقة التي تصبح حاملاً بصورة غير متوقعة؛ والمتقاعد الذي يصاب بأزمة قلبية بعد وصوله لسن التقاعد. ويمكن للمرء أن يتحدث عن نوع من أزمة الهوية المزمنة عند الناس الذين يعانون من وضعهم الاجتماعي المتدني ويمتلكون الشعور بعدم انتمائهم لمجتمعهم بالفعل وأنهم أو مستبعدون أو مرفوضون: مثال ذلك الأولاد الربائب والمتبنون والناس ذوي النزوعات الجنسية غير الطبيعية والغرباء واللاجئون والمهاجرون. ويظهر إيركسون في دراساتهم التاريخية النفسية مدى شدة أزمات الهوية التي تستثيرها التحولات الاجتماعية لدى الجماهير الواسعة. ولنتأمل في مشاعر الغضب والخيبة عندما يهدد الكساد والتضخم والوظائف، والمخاوف الوجودية في المجاعات والحروب والأوبئة، وأزمات المعنى والإيمان عند اهتزاز القناعات الدينية أو عند انهيار الأنظمة الإيديولوجية.

ويستخدم تعبير «أزمة الهوية» بطريقة خاصة لضحايا كوارث القرن العشرين والملاحقين والمشردين والمهجرين، والمعتقلين في معسكرات الاعتقال النازية وضحايا التعذيب. وغالباً المقتلعين بفجائية فتاكة من محيطهم الآمن والكثير من ضحايا الإذلال المطلق والقمع الجسدي الهائل، تمر غالبية هؤلاء البشر بحالات من الهلع، بصورة لم تعد قابلة للوصف بالمفاهيم العلمية. فحياة اليهود اللاجئين، الذين تمكنوا من النجاة في اللحظة الأخيرة من الهولوكوست، ظلت تخيم عليها أعراض عصابية قلقية أو المزاج الاكتئابي أو أفكار التعقب الزورية paranoid. وحتى لو أن البعض تمكن أن يحقق النجاح في المجتمع الأمريكي تحت الإنكار الكلي للماضي، إلا أنه غالباً ما ظهرت بعد عقود لاحقة أعراض جسمية أو نفسية، وعاشوا مقيدين جداً بصراعات الطفولة وخبرات الملاحقة الصادمة ومشاعر الذنب، على عكس الأفراد الآخرين من الأسرة. ويطفو رمز الجذر حسب إيركسون ثانية في أحلام هؤلاء الناس: فالجذور تقتلع، وتحمل بعيداً وتتيبس أو كذلك تظل حية وتزهر من جديد.

2.6 أزمة هوية مفهوم الهوية؟

قد لا يكون من المستغرب أن يبقى لدى القارئ إحساس من البلبلة في نهاية هذا الفصل. إذ يبدو أن التحديد الدقيق لمفهوم الهوية يكاد لا يكون ممكناً. «فكلما كتب المرء أكثر حول هذا الموضوع»، هكذا يستنتج إيركسون، «ازداد تحول هذه الكلمة إلى تعبير عن شيء، لا قرار له كشيء موجود في كل مكان» (1981 «أ» صفحة 7). من الممكن أن الهوية تتقاسم مصير مفاهيم شبيهة في علم النفس من نحو «الأنا» أو «الشخصية» أو «الذات» أو «اللاشعور»، والمعقدة إلى درجة أنه قلما يمكن تعريفها بدقة، إلا أنه لا يمكن الاستغناء عن استخدامها. ففي حين أن غالبية الباحثين في أيامنا هذه يفككون الهوية إلى عوامل أو مجالات خبرة أو عناصر فرعية ويحاولون تحديد الهوية الاجتماعية أو المهنية أو العرقية بطرق دقيقة على سبيل المثال، فإن إيركسون رفض التعاريف التفصيلية المغرية. فله يعود الفضل في أنه أظهر الإشكالية الكلية للمفهوم. ومن ناحية أخرى فإن خطر مثل هذا التصور الواسع هو أنه قلما مازال يمتلك قيمة تأثير علمية وكل قارئ يعد لنفسه مفهوماً للهوية حسب استحسانه الخاص. ويبدو من المشكوك فيه على سبيل المثال أن يكون من المفيد توسيع حد المنطق نفسه على اللاشعوري، الذي هو بالنسبة لفرويد الجزء اللامنطقي كلية للحياة النفسية[vii].

وليس من السهل تأييد موقف إيركسون في أبحاث الهوية الحديثة. فبالنسبة لمنظري السمات من نحو دي ليفيتا De Levita أو ليشتنشتاين Lichtenstein على سبيل المثال فإن الهوية هي بنية ثابتة، موقف يبث بها يشبه البوصلة الداخلية الاستمرارية والأصالة الشخصية في الخبرة والظهور الاجتماعي للفرد.

أما منظرو التفاعلية interaction من نحو كابمان Kappmann أو غوفمان Gofman على سبيل المثال فيرون الهوية بالمقابل عمل علاقة يشفر باستمرار عن جديد. الهوية هي الأسلوب الذي أقدم فيه نفسي لشريك حوار أو لمجموعة، وأجد باتساق التوازن بين بنية شخصيتي الناشئة بيوغرافياً biographical والحاجات والتوقعات الراهنة والاستجابات المدركة والتوقعات المستحقة للأطر المرجعية. فخارج التفاعلات لا يوجد بالنسبة

لهؤلاء الكتّاب أية هوية على صورة بنية طبع راسخة أو موقف داخلي. ولدى منظري السمات يظل من غير الواضح من أين تنبع مرونة وتلقائية السلوك، في حين من الصعب على التفاعليين بالمقابل توضيح ما الذي يقود إلى الرسوخ والاستمرارية من وراء التمثيلات المختلفة للهوية.

يؤكد إيركسون على الطبيعة النهائية والتغيرية للهوية في مراحل وانهيارات دورة الحياة. إلا أن الهوية ليست مجرد قناع يضعها ويخلعها المرء أمام جمهور متبدل. فمن التمثل الشخصي لتماهيات الطفولة تنشأ بذرة من القناعات والقيم واستقلالية الظهور والحكم. وبمجرد أن يجد الراشد الشاب نفسه ومكانه في المجتمع، تبدو الهوية وقد ترسخت نسبياً. ويتحدث إيركسون عن «خبرة الكينونة[1] الدائمة منذ الآن» (1954-1955، صفحة 601)، عن «الاستعداد لأخذ موقع في نظام سياسي-تكنولوجي وامتلاك تصورات قيم واعتقادات imagines ثابتة، الملازمة للطبيعة الخاصة» (1978، صفحة 87)، وهي تعابير تتناقض مع الطروحات الأخرى حيث يؤكد على الطبيعية المتغيرة طوال الحياة للهوية. ففي نهاية الأمر يبدو أن إيركسون يقترب من تصورات بعض المحللين النفسيين: فرؤى محددة عن الوجود ومبادئ وطرق مواجهة الصراعات تتشابك باطراد كأشكال أوتوماتيكية لتوليفة الأنا. ومن المؤكد أنه تنبثق أيضاً في سن الرشد خبرات وأزمات جديدة، أما الأسلوب الذي يتم فيه إدراك وتمثل، فيظل ثابتاً نسبياً، وعلى ما يبدو فإنه ما زال غير قابل للتصحيح بشكل جوهري من خلال معالجة تحليلية نفسية: «فالعلاج والتوجيه يمكن أن يحاولا، استبدال التماهيات المرغوبة بالتماهيات غير المرغوبة، غير أن الاتجاه الأصلي لتشكل الهوية يبقى من دون تغيير» (1981 «أ»، صفحة 51).

وعليه يتم بسهولة «تشييء» الهوية، كما ينتقد هاوسر (Hausser,1983) أو كربمان (Krappmann,1987) أو فري وهاوسر (Frey & Hausser,1987)، إلى شيء يحرزه المرء

(1) Sosein: suchness كما هو، هنا هو، هكذا هو طبيعة الشخص أو جوهره.

في يوم ما وبعدئذ يحمله معه بما يشبه «الملكية» غير القابلة للضياع، شيء يمكن تسميته في مجتمعات الإنجاز الحديثة محك الصحة أو النضج أو التلاؤم الاجتماعي. ومشاعر «الكمال والحيوية والتركيز على نقطة جوهرية» (1966 «أ»،صفحة 77)، بالشكل الذي تنطبق فيه على سبيل الذكر على «الأمريكي الجيد»، يمكن أن توهم بمقدار من الكينونة والحرية، من السهل أن يتحول في عالم مُدار إلى شيء وهمي. في الخبرة الذاتية يمكن لهذا أن يستثير قناعة ذاتية. فالمرء يكون فخوراً بأنه قد وجد هويته، يشعر بالرضا والتمام، إلا أنه يتجنب التناقضات الذاتية وينكر مقدار القهر والاستغلال واللاإنسانية في محيطه الاجتماعي. وكان أدورنو Adorno قد وصف هدف الشخصية المندمجة بشكل جيد على أنه «التصالح المزيف مع العالم غير المتصالح» (1955، صفحة 29) وحذر من أن مفهوم الهوية الذي يريد التأكيد على استقلالية الفرد يعبر في الواقع عن «قناع طبع الخضوع».

من المؤكد أن مثل هذه الأفكار بعيدة عن إيركسون. فهو لم ينصح أبداً بالتلاؤم المجرد مع الأدوار والمعايير القائمة. ففي سيره الذاتية يصف الشخصيات الاستثنائية التي قاتلت بشجاعة ضد الأخلاقيات المغروسة والمؤسسات الفاسدة وقدمت الحافز لتغيرات كبيرة في الوعي الاجتماعي. إلا أنه عندما يوضح إيركسون عملية إيجاد الهوية بشكل ملموس، فإنه يستحضر مراراً صوراً مجتمع محدد بالتقاليد، حيث يحصل الشاب فيه على مكان في مجتمعه بشكل مرسوم من خلال تقاليد راسخة، «ركن محدد المعالم ومع ذلك يبدو وكأنه معمول له وحده» (1981 «ب»، صفحة 138-139). وتختلف التعددية المحمومة للمجتمعات الصناعية الحديثة بشدة عن مثل تلك الثقافات الساكنة، التي لا تعود إنجازات تكيف كبيرة في سن الرشد. فأين مازالت اليوم توجد تركيبة أسرية داعمة أو مانحة للدعم أو مثل تماه عليا جديرة بالتصديق يمكن لليافع أن يبني عليها هوية راسخة؟ ألا يسود في كل مجالات الحياة تقريباً شعور أساسي بالتنافر وبعدم الالتزام، وفي النهاية عدم-الهوية؟ وكما يؤكد لوكمان (Luckmann,1979) لم يكن هناك أي زمن كانت فيه التنشئة الاجتماعية الأولية مهيأة على حياة الرشد بصورة قليلة كما هو الحال اليوم. ففي وسط عدد كبير من أشكال الحياة والعقائد واختيارات المعنى المربكة

فإن الفرد متروك لوحده باطراد في البحث عن هويته. ومن المؤكد أنه مازال هناك كثير من الناس تسير حياتهم وفق أنماط محافظة في مسارات واضحة نسبياً، يختارون مهنة ويتزوجون وينجبون أطفالاً ويعيشون سعادتهم الحياتية بالدرجة الأولى في علاقاتهم الخاصة. ومع ذلك لم يعد بالإمكان كثيراً الحديث عما يشبه الإيجاد المتدرج للهوية في نهاية المراهقة، ولا يمكننا فهم سن الرشد كذلك على أنه «اجتياز تشكيل راسخ في سماته الأساسية للهوية» (Siegert & Chapman, 1987, P.139) . بل أن الأقرب هو ملاحظة توقيفات moratorium ممتدة وحلولاً جزئية لمشكلة الهوية، لا تمتلك على الأغلب طبيعة مستمرة. ويمكن لتجريب الأدوار وزعزعة الهوية أن تمتد لتصل إلى العقد الثالث أو الرابع من الحياة. وتتحدث نونر-فينكلر (Nunner-Winkler,1987) عن «الأزمات المتكررة، الأزمة الدائمة». ومما لاشك فيه أن مفهوم «تشتت الهوية» يمنح في أيامنا هذه كثير من الناس عنواناً في جيبهم لإحساس، يشعرون به في حياتهم اليومية. فعدد مطرد التزايد من الناس في أواسط العمر يأتي إلى مراكز الإرشاد أو لعيادات العلاج النفسي بشعور بأنهم قد مروا في حياتهم مرور الكرام: لا يشعر المرء بالعافية في عمله، تزوج من أجل الانفصال عن والديه، طفت هموم الأولاد على المشكلات الزوجية، لا يشعر بالمعنى الحقيقي لوجوده، يتوق لشيء «مختلف كلية».

ومن المؤكد أنه من خلال تفكير إيركسون قد تحول في النهاية تقوية الفرد مقابل شبكة الضرورات الاجتماعية إلى مطلب جوهري في التربية والعلاج النفسي وديناميكية الجماعية والرعاية الدينية. حتى وإن بعض تجارب الخبرة الذاتية من ستينيات القرن العشرين تبدو الآن مبالغاً بها، إلا أنه قد ظهر هنا التوق نحو الشعور الأصيل والإبداعية الشخصية في عالم مطرد التذويب للشخصية الفردية. ومن ناحية أخرى يذهب نموذج إيركسون النفسي النهائي من أن الراشد قد وجد هويته ويسلمها بمسؤولية في علاقته الزوجية المحبة والهم حول الأولاد. لم يعالج إيركسون إلا بشكل قليل جداً زعزعة الهوية للإنسان الحديث وصولاً إلى مجال العلاقات الأشد خصوصية. فكيف على الإنسان اليوم أن يبني علاقته الزوجية، أن يربي أطفاله، كيف يفترض للمرء أن يشكل

رأيه الخاص في ظل فيض عارم من المعلومات وتعقد المشكلات التي لا يمكن فهمها إلا من الخبراء فقط؟ ينتقد كرابهان Krappmann أن إيركسون لا يقدم شيئاً، «عما يمكنه أن يساعد الفرد، في الحفاظ على هويته في عالم مستمر التقلب بمعايير متباعدة عن بعضها البعض باستمرار» (1978، صفحة 94).

كما لابد من الاعتراض بأن الهوية المشكلة لنفسها، بالشكل الذي يتخيله إيركسون، تتطلب درجة عالية من النضج والقدرات العقلية، وهو أقرب ما ينطبق على مجموعة من طلاب الثانوية العليا وطلاب الجامعة. فهل يستطيع إيركسون فهم الكثير من الناس البسطاء، الذين تسير حياتهم بشكل سلس تقريباً في أدوار وعروض الاستهلاك للمجتمع الصناعي الراهن؟ وأليس في عبادتنا الراهنة للشخصية الكثير من الخداع الذاتي والوعي الخطأ؟ أين يوجد ذلك الشخص الحر، المستقل، الذي تقوده مبادئ راسخة ويظل مخلصاً في خياراته الحياتية وقيمه؟ أين يستطيع الفرد في عالمنا المؤتمت والموجه أن يظهر أصالته بعد، أن يتمكن من أن يكون مستقيماً وخلاقاً بالفعل؟ أليست اليوم كلمة الهوية، كما يخمن ريشتر Richter ، على كل لسان «لأننا نخاف في سرنا مما يستثيره هذا المفهوم؟ إننا نشعر أننا بعيدين عن هوية-الأنا هذه أو أنها لا تشمل المجال الواسع لأنماط السلوك وصور القيم، الذي كنا سنرحب باندماجه فيها» (1978، صفحة 18).

من المؤكد لم يتوفر أبداً عصر كانت فيه فرص التعليم والتشكيل الشخصي للوجود كبيرة بالنسبة لطبقات واسعة من الناس كما هو اليوم. ولكن محاولات خلق طراز ولمسة شخصية في الثياب والذوق وأسلوب الحياة يتم استغلالها من قبل استراتيجيات دعاية ماكرة، بحيث غالباً ما تبدو الهوية مثل «تجميع لحقيبة تسوق مسبقة الصنع» (Schulze, 1987). فلدى كثير من الناس يبدو في البحث العميق عن مثيرات جديدة باستمرار وإمكانات إشباع لا يظهر على الإطلاق أصلاً تفكير حقيقي لظروف الحياة الخاصة. وكذلك فكثير يتجنبون مشكلات الهوية، بأن يخضعون كلية لعلاقة يربطون أنفسهم بطريقة واثقة-ساذجة بسلطات ما. في حين أن آخرين يعانون من عدم إيجاد أي سند في وجودهم الذاتي. وغالباً ما يتعلق الأمر بأناس هم أقرب لأن يصبحوا صورة شوهاء

للتناقضات الخارجية: يتوق المرء للعلاقة والأمان، ويرتعب من ناحية أخرى من الارتباط الوثيق والمسؤولية؛ فالمرء يجرب طريق جديدة باستمرار ومع ذلك فهو يشعر داخلياً فالفراغ؛ غاضب من سوء الأوضاع الاجتماعية ومع ذلك فهو يتلاءم في حالة الجد يائساً؛ يفكر المرء بيئياً ومع ذلك فهو غير مستعد للتغيير الجدي لعاداته الحياتية.

وباطراد تنشأ أنماط من الناس يجعلون من التناقض مبدأ حياتهم إلى حد ما ويبدون بأنهم لم يعودوا يطالبوا بهوية متسقة. ويتلاءم المرء مع بسلاسة حسب كل الجوانب، يبحث عن مصلحته الخاصة، ينكر في أحد المواقف ما كان عليه في موقف آخر، من دون الإحساس الكبير بالذنب أو الضياع. الهوية تنبثق في السلوكات أو الأدوار التي يتخذها المرء في البيئات المختلفة من دون المطالبة بالالتزام والعمق الشخصي. ويتحدث باك Baacke عن «الأنا-المتكلفة recherché-Ego»[1]، عن «الأنا- الصدفة»؛ فالمرء لم يعد يريد البقاء مخلصاً لنفسه أو مؤكداً لذاته، وإنما يقتنع، «بخبرة وجوده في استحضار مشهدي- متبدل» (1987، صفحة 196). وفي في هذه الأنماط «الموجهة من الخارج» كلية إلى حد ما من الناس تبدو أشكال جديدة من الاغتراب، التي لم تكن معروفة على الإطلاق في بدايات التحليل النفسي.

ويعد علم نفس الهوية عند إيركسون مواصلة لمذاهب غربية قديمة جداً متجذرة في الفلسفة الإغريقية والأنثروبولوجيا المسيحية، فكرة الأنا المدرك لنفسه، المحقق لذاته في الإطار الاجتماعي المسؤول. ورشد الأنا، انفصال الناس عن ارتباطاتهم العائلية أو الإقطاعي أو الإكليركي رسمت تاريخ الإنسانية وسار في القرنين الأخيرين بإيقاع سريع. ويتطلب الأمر إلى معارك شديدة وتضحية كبيرة ليتم إعلاء أفكار التسامح، والتصريح بحقوق الإنسان وتوكيد الوعي الديمقراطي. وقد كان الفرد المتسائل الناقد دائماً شوكة في عين المؤسسات المتسلطة. ولكن حتى التعذيب وشرطة الأفكار في أشد مراحل التاريخ قتامة لم تتمكن من خنق جذوة التنوير والإنسانية. لقد كان جل اهتمام

(1) المختارة أو المنتقاة بدقة، الرائعة التي يتم عرضها.

فرويد هو تقوية روح التفرد والعقل، مع أنه لم يكن واهماً أبداً حول ضعف الأنا وكان عليه في نهاية حياته أن يشهد مدى السرعة التي استطاعت فيها حركات الجماهير الاستبدادية اكتساح ذلك «الجزيء من الاستقلالية والأصالة» التي تكلم عنها. إن ما جعل من مفهوم الهوية يحتل مركز تفكير إيركسون لم يكن الاهتمام الإكلينيكي والعلمي فحسب، وإنما أيضاً الواجب تجاه عرف إنساني. فمن خلال تقوية المنطق النقدي والاستبصار الذاتي والتثقيف والقدرة على التعاطف فقط يمكن للإنسان أن يتعلم السيطرة على خوفه غير المنطقي واستعداده للكره، اللذين يظلا في النهاية أشد تهديداً من السلاح الحقيقي.

ويبدو أن الكيفية التي ستنمي فيها المجتمعات المستقبلية شخصية واعية بذاتها وفي الوقت نفسه مستندة اجتماعياً وما هي القيم المساندة في هذا، أكثر غموضاً من أي وقت مضى. فالتقدم التقني المتسارع قادر حتى في هذا الوقت تسهيل الحياة الإنسانية بطريقة لم يسبق لها مثيل ولكنه من ناحية أخرى يكاد يكون قادراً على تهديد الهوية بمدى أورويلي[1] Orwellian. فهل سوف تثبت فردانية المجتمعات الغربية نفسها أم أن القرن

(1) نسبة إلى المجتمع الاستبدادي غير الإنساني الذي يسحق فيه الإنسان تحت سطوة الدولة والذي صوره الكاتب الانجليزي الشهير جورج اورويل في روايته التي هي بعنوان « 1984». وجورج أورويل (25 يونيو 1903 - 21 يناير 1950) كاتب وروائي بريطاني اسمه الحقيقي إريك آرثر بلير (George Orwel). وجورج أورويل هو الاسم المستعار له والذي اشتهر به. ولد في قرية مونتهاري بولاية البنجاب الهندية لأسرة متوسطة الحال كان أبوه ريتشارد يعمل موظفا صغيرا في الإدارة المدنية البريطانية بالهند في دائرة الأفيون، أمه إيدا مابل ابنة تاجر أخشاب فرنسي بسيط في بورما.

في عام 1911 م عندما بلغ إريك الثامنة من العمر عادت أسرته إلى بريطانيا لتقيم في هنلي، بينما واصل والده عمله في الهند حتى اعتزل الخدمة عام 1912م.

أرسل إريك إلى مدرسة إعدادية خاصة في سسكس (Sussex) وعندما بلغ الثالثة عشرة حصل على منحة للدراسة في ولنجتون ثم حصل على منحة للدراسة في مدرسة إتون العامة الشهيرة. نجح بتفوق في الامتحان النهائي بالمدرسة ألا أنه لم يكمل دراسته الجامعية، فقد كان مولعا بالمغامرة وبالأدب وبأن يصبح كاتبا. قرر السفر عام 1922م للعمل في الشرطة الاستعمارية الهندية، ومن ثم ذهب لتلقي تدريبا على عمله في بورما، ثم ظل يخدم حيث تدرب إلى أن استقال بعد 5 أعوام.

كان يحب الحرية ويكره سيطرة وهيمنة الإنسان على الإنسان وكان يعتقد بأن الإدارة الاستعمارية في بورما كان أساسها الهيمنة على الآخرين وليس فقط البورميين بل أيضا الإنجليز من الطبقة العاملة. في عام 1928 عاد إلى

لندن ومارس عيشة وحياة الفقراء ليتجاوز بذلك عقدة النفور الموروثة لديه ولدى أبناء الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها من الفقراء، ثم سافر إلى باريس حيث عاش في أحد أحياء العمال، وعمل في غسل الصحون.

في ديسمبر عام 1929 بدأ إريك في كتابة أول كتبه، وكان عبارة عن تقرير عن تلك الفترات التي عاشها في كل من لندن وباريس بين الفقراء، لكن التقرير لم ير النور إلا عام 1933 وجاء بعنوان (Down And Out In And London Paris)، ونشره باسم مستعار هو جورج أورويل،ونشر كتابه الثاني أيام بورمية (Burmese Days) الذي تناول فيه خبراته في فترة الخدمة الاستعمارية في بورما.

في عام 1935 م كتب رواية ابنة قسيس، وفي عام 1936 م كتب روايته دع الزنبقة تطير (Keep The Aspidistra Flying)، في عام 1937 كتب تقريره الطريق إلى ويجان بير (The Road to Wigan Pier) انتقد فيه كلا من النظام الطبقي الإنجليزي والاشتراكية الإنجليزية، وفي نهاية عام 1936 توجه أورويل إلى إسبانيا ليعمل مراسلا صحفيا وقد دون أورويل خبراته التي عاشها في الحرب الأسبانية في كتاب أصدره عام 1938 بعنوان تقديرا لكاتالونيا (Homage to Catalonia).

في عام 1938 أصيب أورويل بالسل وسافر لقضاء بعض الوقت في المغرب، وهناك ألف روايته الثالثة الخروج إلى المتنفس (Coming up for Air) التي نشرت عام 1939 م. في عام 1941 التحق بالقسم الهندي بهيئة الإذاعة البريطانية، ثم ترك عمله عام 1943 بالإذاعة ليعمل محررا أدبيا بصحيفة تريبون، وبدأ في كتابة روايته المشهورة عالميا مزرعة الحيوانات (Animal Farm)، وفي عام 1946 ألف روايته الأخيرة 1984 التي حولت إلى فيلم سينمائي وتنبأت بالمستقبل وعن عام 1984م. صدرت رواية «1984» في عام 1949، وهي رواية سياسية دسيوتوبية dis-utopia، ومصطلح «يوتوبيا» يعني «العالم المثالي»، أو بالأخص «الحضارة المثالية» وخصوصاً في الجانب السياسي والاجتماعي منها، ومصطلح «دسيوتوبيا» يشير للفكرة المعاكسة من ذلك؛ والتي تعني المجتمع القائم على القمع والاستبداد.

الرواية عبارة عن تصور وتحذير لمستقبل من الوارد جداً حدوثه، وتاريخ نشر الرواية هو في غاية الأهمية؛ فعنوان الرواية بالنسبة لتاريخ نشرها يلمّح بأن السيناريو المستقبلي المخيف المذكور فيها قد لا يكون بعيداً، بل إن العديد من المفكرين يظنون أنه قد تحقق جزء كبير منه، والعقبة التي تحول دون تحققه كلياً هي مجرد عقبة تكنولوجية؛ وبشيء من التطور العلمي والتكنولوجي قد يصبح عالمنا - إن لم يكن كذلك الآن - مثل عالم «1984».

تبدأ الرواية في عام 1984 حيث العالم منقسم لثلاث دول: الدولة الأولى هي «أوشيانيا» أو «أوقيانيا»، وهي عبارة عن الأمريكيتين واستراليا والجزر البريطانية. والدولة الثانية هي «أوراسيا»، وأراضيها هي روسيا والباقي من أوروبا. والدولة الثالثة هي «إيستاسيا» وتتكون من الصين واليابان وكوريا وشمال الهند. أما بالنسبة للشرق الأوسط، وجنوب الهند، وأفريقيا، فهي عبارة عن ساحات حرب ومناطق متنازع عليها من قبل هذه الدول الثلاث.

تدور أحداث الرواية في دولة أوشيانيا حيث الأيدلوجية هناك هي الاشتراكية الإنجليزية أو ما يسميه الحزب الداخلي بـ (الإنجسوك)، وحيث المجتمع هناك مقسم لثلاث طبقات: طبقة «الحزب الداخلي» ونسبتها اثنان بالمئة من السكان، وطبقة «الحزب الخارجي» ونسبتها ثلاثة عشرة بالمئة منهم، وأخيراً توجد طبقة «العامة»، وفوق هذه الطبقات كلها يوجد الحاكم المسيطر المستبد «الأخ الأكبر»؛ هذه الشخصية التي أصبحت من أكثر الشخصيات الروائية شهرة، بل إنها أصبحت رمزاً لأي عملية استبداد أو تجسس أو قمع. وبالمناسبة، سبب تسمية البرنامج التلفزيوني الشهير «الأخ الأكبر» بهذا الاسم هو عملية المراقبة الدائمة على المشاركين فيه.

في هذه الرواية يثبت جورج أورويل أنه ليس أديباً فذاً فقط، بل يثبت أنه مفكر سياسي حاذق، فهو لم يكتف بتحليل الفكر الاستبدادي وتحليل طريقة عمله، بل تجاوز ذلك ليتنبأ لنا بنبوءة مستقبلية متكاملة مذهلة لما سوف يؤول إليه هذا الفكر إن استمر حاله على ما هو عليه. هذا النوع من الفكر يستخدم ما يحلو لي تسميته (الداروينية الاستبدادية)؛ فهو بمرور الوقت يتخلص من نقاط ضعفه التي تطيح به عادة، وأيضاً بمرور الوقت يعزز أوجه قوته كي يكسب أعضاء جديدة يسيطر بها على العامة وعلى الثورات والانقلابات المحتملة؛ فأفكار الأخ الأكبر في هذه الرواية تختلف تماماً عن الأفكار الاستبدادية التقليدية، فهو يتعامل مع الشعارات والهتافات والتسميات بطريقة مختلفة، ويتعامل مع الثوار والمنشقين بطريقة مختلفة، ويتعامل مع طبقات المجتمع والحروب والثروات والتقنية بطريقة مختلفة، بل أنه يفهم فكرة «السلطة» وغايتها وتطبيقها بشكل مختلف، يتعامل الأخ الأكبر مع هذه الأفكار ويفهمها بطريقة جديدة متطورة تضمن له أن يكون نظامه السياسي غير قابل للهزيمة؛ ويبدو لي أننا بقليل من التعديلات نستطيع تحويل الرواية لكتاب من نوع (الطغيان للمبتدئين).

في أوشيانيا يستبد الحزب الداخلي بقيادة الأخ الأكبر استبداداً منهلاً وجباراً على باقي الطبقات؛ فهو يزرع شاشات الرصد في كل مكان؛ وهذه الشاشات مهمتها مراقبة الشعب ونشر الأخبار الملفقة وإصدار الأوامر للأفراد، ويزرع الحزب الميكروفونات في كل مكان لرصد كل همسة من الشعب، بل ويتجاوز الحزب ذلك ويعمد لتحطيم العلاقات الأسرية لإفناء كل ولاء ليس موجه له، ويعمد أيضا لإذلال العملية الجنسية بجعلها مجرد وسيلة لخدمته وبتجريدها من أي رغبة أو وله أو عاطفة كوأد لأي احتمال لنشوء ولاء لغير الأخ الأكبر. ثم يتفوق الحزب في استبداده على نفسه ليصل لمرحلة الاستبداد العقلي فيسيطر على اللغة، ويدمر، ويعيد تركيب كلماتها، بل ويصنع لغة جديدة، ويمنع الاتصال بالحضارات الأخرى، ويحرّف التاريخ، ويلفّق الماضي، ويقلب الحقائق، حتى تتوه العقول فلا تجد إلا الحزب كحقيقة ثابتة تستطيع أن تؤمن بها. في المشهد الافتتاحي للرواية نرى المواطن «ونستون سميث»، والذي يعمل في وزارة الحقيقة (وزارة الإعلام) والتي، بشكل ساخر، مناطه بتزييف الحقائق، نرى هذا المواطن وهو يدخل غرفته وقد أصابه الإحباط من دكتاتورية الحزب، ومن أسلوب الحياة الذي يفرضه. يفتح حينها دفتر كان قد اشتراه بشكل غير شرعي ليبدأ في تدوين أفكاره؛ وهو مدرك أنه ابتداء من هذه اللحظة قد صار في عداد الموتى، فمجرد عملية التفكير يعتبرها الحزب جريمة تستحق الموت ويسميها «جريمة الفكر»، يكتب ونستون في دفتره أنه يكره الأخ الأكبر، ثم يبدأ التفكير بـ «أوبراين»، وهو أحد أعضاء الحزب الداخلي الذي شعر ونستون أن ولاءه للحزب ليس تاماً، فقد شك ونستون أن أوبراين ينتمي لأخوية شديدة السرية والغموض تعمل ضد الحزب، ثم يفكر بعد ذلك في «غولدشتاين» عدو الحزب الأول، والذي كان أحد أهم أعضائه ولكنه تآمر عليه وحكم عليه بالموت ولكنه استطاع الهرب وأصبح يشكل قلقاً كبيراً للحزب. انتهى ونستون؛ هذه الأفكار المجردة تعني موت زؤام مؤكد، لذا لم يعد لديه شيء يخسره، فالمرء في كل الحالات لن يُقتل إلا مرة واحدة..

ومن هنا تبدأ الرواية؛ ويبدأ استعراض القمع والتسلط والطغيان والدكتاتورية والاستبداد، ويبدأ استعراض الريبة والقلق والاضطراب والجزع، الحزب في كل مكان، الحزب في كل فرد، أو كما يقول ونستون: لم يعد هناك مكان آمن سوى سنتيمترات معدودة في الجمجمة. رواية «1984» كان لها تأثير كبير على روايات عديدة؛ فقد أثرت في رواية «فهرنهايت 451» لـ «راي برادبوري»، و «الرجل الراكض» لـ «ستيفن كنج»، و «البرتقالة الميكانيكية» لـ «أرثر بيرجس»، ومن جهة أخرى كان لرواية «نحن» للأديب الروسي «يفنجي زامياتين» ورواية «عالم جديد شجاع» لـ «ألدوس هكسلي» تأثيراً كبيراً على جورج أورويل أثناء كتابته لهذه الرواية. وكان لهذه الرواية تأثير

الواحد والعشرين سيتحدد من خلال العقائد الإسلامية ووالكونفوشيوسية وأي من نقاط قوة الهوية الجماعية تحتل أولوية على هوية الفرد؟.

كبير على اللغة الإنجليزية؛ فقد شاع استخدام العديد من المفردات التي ابتكرت في هذه الرواية مثل: (الأخ الأكبر - Big Brother)، (الغرفة 101 - Room 101)، (شرطة الفكر - Thought police)، (التفكير المزدوج- Doublethink)، (اللغة الجديدة – Newspeak)، بل لقد درج استخدم مصطلح (أورويلي – Orwellian) كطريقة لوصف الحالات، أو المشاهد، أو الأفكار، أو طرق التحدث التي تشبه ما جاء في أعمال أورويل عموماً وهذه الرواية خصوصاً. العنوان الأصلي لهذه الرواية كان «أخر رجل في أوروبا» ولكن الناشر اقترح على أورويل تغييره، وبالرغم من المحاولات العديدة لتفسير سبب اختيار أورويل لعام «1984» بالضبط كي يكون عنواناً للرواية، إلا أنها كلها غير مؤكدة، والاقتناع السائد الذي يُذكر غالباً بهذا الخصوص أن عنوان الرواية هو عكس لأخر رقمين من سنة 1948، وهي السنة التي أتم فيها أورويل كتابة الرواية والتي استغرقت كتابتها ثلاث سنوات بداية من 1945، ونشرت في عام 1949.

ترجمت هذه الرواية لـ 62 لغة، وقد اختارت مجلة «التايم» هذه الرواية كواحدة من أفضل 100 رواية كتبت بالإنجليزية من عام 1923 وحتى عام 2005. وقد منعت الرواية في الكثير من الدول والكثير من المكتبات حين صدورها باعتبارها رواية خطره سياسياً.

لقد استوحى جورج أورويل الكثير من سمات «الأخ الأكبر» من «جوزيف ستالين»، واستوحي الكثير من سمات مجتمع «أوشيانيا» من مجتمع «الاتحاد السوفيتي» السابق، حتى شخصية المنشق «إيمانويل غولدشتاين» مستوحاة من المثقف الثوري الماركسي «ليون تروتسكي» الذي طرد من الحزب الشيوعي وأبعد عن الاتحاد السوفيتي.

تدور أحداث رواية 1984 في (المستقبل) بمدينة لندن عام 1984 حيث وينستن سميث موظف ذو 39 عاماً من العمر وهو يعمل موظفاً في وزارة الحقيقة أي انه صحفي يراقبه رجال الشرطة ويراقبه جيرانه رغم انه ليس مجرماً وليس ملاحقاً ولكن الرقابة نوع من السلوكيات اللاإرادية التي يقوم بها الجيران ضد جيرانهم لذلك يصبح سميث تحت عين أوبرين صديقه وعضو الحزب الذي يراقبه عن كثب. يميل سمث إلى زميلته في العمل جوليا التي ترتدي حزاماً قرمزياً الذي يرمز إلى عضويتها في الاتحاد ضد الجنس الأخر والقاسم المشترك بينها وبين سميث هو كره الحزب الذي يمنعهما من الالتقاء أو الزواج ولكنهما يلتقيان سراً، وعندما يكتشف امرهما يرسلان إلى وزارة الحب التي هي نوع من مراكز التأهيل للعودة إلى حياة الوحدة دون حب الأخر وينفصل سميث عن جوليا، بل يتعرض لتعذيب نفسي شديد وعبر صور مرعبة وتحت هذا الضغط الشديد يصرخ سميث مطالباً بمعاقبة جوليا حبيبته. وضع أورويل في 1984 بعض الرموز منها حزام سكارليت ـ وهو شعار اتحاد ضد الجنس الأخر يرتديه أعضاء الحزب ليعطيهم شعار العزوبية ولكنهم مشوشون من الداخل، كما هناك الرمز 101 وهي غرفة تعذيب نهائية في مركز التأهيل بوزارة الحب ويقابلها وزارة الحقيقة وجميعها رموز وهمية لسلب الإنسان إنسانيته وتحويله إلى رقم في قطيع بشري.

تقوم وزارة الحقيقة بواسطة كادرها الكبير بتغيير البيانات والمعلومات الموثقة على مدار الساعة لتتماشى مع إستراتيجية وأهداف الحزب والحكومة بقيادة الأخ الأكبر!. فهناك موظفون يقومون بحذف كل تلك الوعود المحرجة من الأرشيفات الصحفية، واستبدالها بتنبؤات مذهلة.

هوامش الفصل الثاني:

(i) حول إشكالية مفهوم الهوية عبر على سبيل المثال كل من:
Benoist 1980, Claessens 1982-83, Frey und Haußer 1987, Haußer 1983, Henrich 1979, De Levita 1971, Krappmann 1978, Marquard 1979 und Neubauer 1976.

(ii) لا توجد إلا القليل من الفقرات التي حاول فيها إيركسون التطرق نظرياً إلى مفهوم الهوية. أنظر على سبيل المثال الفصل الأول من «الشباب والأزمة: الهوية»، 1981 «أ»، صفحة 11-40؛ «تاريخ الحياة واللحظة التاريخية»، 1982 «ب»، صفحة 15-20؛ «شيء من السيرة الذاتية حول أزمة الهوية» ، 1973، صفحة 793-798؛ بالإضافة إلى مقال «مشكلة الهوية»، في: Psyche 1956-1957، الذي طبع بتعديل طفيف في فصل «مشكلة هوية الأنا» في «الهوية ودورة الحياة»، 1981 «ب»، صفحة 123-212.

(iii) قارن:
Blanck und Blanck 1978 und 1980, Drews und Brecht 1975, Hartmann 1972a, Kutter und Roskamp 1974, Scheunert 1956-57.

(iv) في عدة فقرات نظرية يحاول إيركسون الفصل بين المفاهيم «أنا I» (ضمير المتكلم/ المترجم/)، و «الأن I» (صيغة الاسم/ المترجم/) و «الأنا Ego» و «الذات Self» و «الأنا الأعلى Super-Ego» و «الأنا المثال Ego-Ideal». أنظر فقرات «أنا والمحيط» أو «أنا وذاتي وأناي (I, my Self and my (Ego» في «الشباب والأزمة»، 1981 ، صفحة 216-220 أو صفحة 225-230؛ وفقرة «الأنا The I» و«أنا I » (الأول الاسم والثاني الضمير/ المترجم/)، في «تاريخ الحياة واللحظة التاريخية»، 1982 «ب»، صفحة 109-112؛ بالإضافة إلى فقرات «أنا ونحن» أو «الواقع الثلاثي»، في: «الأقوال الغاليلية وإحساس الأنا The Galilean sayings and the sense of I»، 1981 «ج». قارن حول هذا الموضوع كذلك:
Epstein 1980, Fetscher 1981 und 1983, Hartmann 1972a, Holland 1979, Roth 1982-83, Stein 1974, Thomä 1980.

(v) يوضح إيركسون المظهر النفسي النمائي لمفهومه في الهوية بشكل خاص في الفصل الفرعي«نمائياً genetic: التماهي والهوية»، في «الشباب والأزمة»، 1881، «أ»، صفحة 159-170.

(vi) أنظر بشكل خاص مقال «الهوية والاقتلاع في عصرنا» في Psyche, 1959-60، الذي تمت طباعته في صيغة معدلة أيضاً في «الاستبصار والمسؤولية»، 1966 «أ»، صفحة 74-98. قارن كذلك:

Benedetti,1989b & 1986c.

(vii) نجد مناقشة نقدية لمفهوم إيركسون في الهوية نجدها لدى:

Becker 1957-58, Benedetti 1986a, De Levita 1971, Haußer 1983 und Krappmann 1978.

الفصل الثالث

النفس الاجتماعي الإيركسوني

3.1 المجتمع ليس «عالماً خارجياً»

اتضح عند مناقشة موضوع «الهوية» الاهتمام الأساسي لإيركسون، بوصف الإنسان ككائن اجتماعي وربط رؤى التحليل النفسي وعلم الاجتماع مع بعضيهما إلى أبعد حد ممكن. وفي هذا الفصل سوف نعرض لمجالات انتقاد إيركسون لعلم النفس الاجتماعي التحليلي النفسي التقليدي ومفاهيمه المستقلة حول تأثير الثقافة والتاريخ على الحياة النفسية. والموضوع الأساسي هو فكرة «التنظيم المتبادل» المساء فهمها على الأغلب ومبدأ العلاقة البناءة بين الوالدين والطفل، الفرد والجماعة.

لقد توصل فرويد إلى رؤى ثورية بالنسبة لعصره في النمو الاجتماعي للطفل، إلا أنه نظر لهذه على أنها أقرب للفرضيات المساعدة في مهمته الأساسية، المتمثلة في إنجاز نظرية علمية في علم نفس الأعماق. وبداية في عام 1921، بعد قد انهارت دول كانت تعد راسخة، انتقل فرويد إلى تعميم معارفه حول اللاشعوري والدوافع ومركب أوديب إلى علاقة الإنسان-المجتمع. وممسوساً بتهييج هدمية هائلة في الحرب العالمية الأولى استند فرويد في عمله الثوري «علم نفس الجمع وتحليل الأنا» إلى عالم الاجتماع الفرنسي لي بون Le Bon. ففي الحالة الأصلية يمكن مقارنة المجتمعات الإنسانية بالجموع البدائية، حيث كانت همجية وغير محتشمة وسريعة الاستثارة. وبداية من خلال عملية تنظيم وضبط انبثقت من ذلك في مجرى تطور الحضارة «جموع مصطنعة»، أي المجتمع ومؤسساته التي تتصف بناحية التنظيم والوعي الأخلاقي الأعلى. وللمرة الأولى نجد هنا لدى فرويد بشكل منهجي فكرة أن السلوك والخبرة الإنسانيتين تسهم

فيهما قوى متنوعة للمحيط الاجتماعي، أي قوى الطبقة، أو الشعب أو العرق أو الطائفة. إلا أن فرويد اعتبر هذه الطبقة من الحضارة والأخلاقية هشة جداً. ففي أوقات الأزمة سرعان من تكتسب الصفات الهدامة للجموع البدائية، التعصب والوحشية وغضب التدمير اليد الطولي وتهدد الفرد بالدرجة نفسها التي تهدده فيها دوافع الهو. وبما يشبه الأنا يمثل المجتمع المنظم في أول عمل علم نفس اجتماعي لفرويد مجرد طبقة حماية رقيقة، يمكنها أن تنكص بسهولة إلى غوغائية متمردة وحشود مسعورة. ويرى إيركسون أن فرويد «قد وصف الناس المثقفين والعاقلين - أي أمثالنا- في مرحلة الثورة أو ما قبل الثورة كشخص، (يمكنه في أي وقت أن ينتسب للحشد) أو يمكن أن للحشد أن يسحبه. فهذا الإنسان - وأناه- يعيش إذا تحت خطر مزدوج، أن يباغت من دوافعه ومن الحشد» (1957 «أ»، صفحة 46).

ولاحقاً، في الكتابات الناقدة للحضارة لعمله المتأخر، تفاقم تشاؤم فرويد. فالعائق الكبير للثقافة هو العداوة الطبيعية للناس بين بعضهم البعض. فقط من خلال التعاليم الأخلاقية الصارمة يحتمل لجم لأنانية والجنسية المطلقة والاستعداد الكامن للعنف. والتربية هي حادث مشحون بالخوف للتقييد والتخلي، والأفراد والثقافة هما متعاديان من حيث المبدأ. والعصاب هو الثمن لتطور الثقافة «والنية أن الإنسان (سعيد)، ليست متضمنة في برنامج (الخلق)» (الأعمال الكامنة XIV، صفحة 432).

وهكذا توصل فرويد في نهاية حياته لرؤى أصولية fundamental حول العلاقة بين الإنسان والمجتمع، التي كان بإمكانها حسب ريشتر (Richter, 1976) أن تتوسع إلى نظرية ثورية في المجتمع ونقد الثقافة من وجهة نظر تحليلية نفسية. ومع ذلك فقد اعتبر فرويد نفسه وطريقته من حيث المبدأ غير معني بالسياسة. والتناقض بين طبيعة الدافع البيولوجية للإنسان ومقتضيات الجماعة الثقافية لا يمكن تجاوزها، فالمجتمع قلما يتغير بالمعنى الإنساني. وفي العلاج النفسي التحليلي انصب اهتمام فرويد على إنضاج المريض، على الاستبصار في الكوابح الداخلية والتغيير، ولم يهتم كثيراً بالتشكيك بالظروف الاجتماعية الخارجية السائدة من خلال العمل السياسي.

كما أن خلفاء فرويد المباشرين قد مارسوا حسب إيركسون بناء نظرية علم نفس اجتماعي تحليلي نفسي بصورة مترددة. فقد تحدثت آنا فرويد (1936) عن «الأنا الدفاعي»، الذي عليه أن يتدرع دائماً بآليات دفاعه ضد تهديدات العالم الخارجي أيضاً. وهاينس هارتمان (Heinz Hartmann,1939) وصف للمرة الأولى إنجازات تكيف الأنا مع المحيط الاجتماعي واستخلص هنا أهمية التقاليد والمؤسسات الاجتماعية بالنسبة لتطور الشخصية. إلا أن هذا قلما غير شيئاً من أن العلاج التحليلي النفسي كان يهدف إلى فصل انغماس المريض مع عالم حياته اليومية كي يتمكن من تفتيح عالم هواماته اللاشعورية وأحلامه. واضمحلت العلاقات الاجتماعية وصراعات المريض، حياته الأسرية وعمله، الجو الثقافي الخاص، الذي عاش فيه، إلى مجرد «محيط» أو «محيط خارجي». ومن خلال التبصر التقشفية حاول أوائل المحللين النفسيين أنفسهم جعل الطبقات الكامنة والغامضة للروح متيسرة للمنطق المستنير. في حين كان في ذلك الوقت يتجمهر في «المحيط الخارجي» همجيون فاشيون سرعان ما باتوا بعد ذلك بوقت قصير يهددون حياة هؤلاء المفكرين اليهود.

وينتقد إيركسون بحدة النموذج العلمي الطبيعي لجهاز نفسي مغلق على ذاته و «محيط» يظل في الكتابات التحليلية النفسية التقليدية مجالاً مبهماً، غير محدد بدقة، تم الإدعاء أنه «موجود في الخارج، فقط لمجرد أنه ليس في الداخل-ليس داخل جلد جسم الفرد أو داخل جهازه النفسي أو داخل ذاته بالمعنى الأوسع» (1981 «أ» صفحة 230). ويريد إيركسون مواصلة توسيع الأفكار العلم نفس اجتماعية المتأخرة لفرويد و«المظهر الاجتماعي النفسي» لعلم النفس التأملي[1] Meta-Psychology الذي افترضه هارتمان Hartmann ورابابورت Rapaport وفهم الإنسان على أنه مخلوق داخل على الدوام في حوادث اجتماعية أو صراعات سياسية. ولكن من أجل ذلك لابد للتحليل النفسي أن

---

1) ما وراء علم النفس، أو علم النفس التأملي أو التبصري، الذي يهدف إلى إكمال حقائق علم النفس وقوانينها القائمة على الملاحظة والفحص التجريبي أو الإمبريقي بالتأمل في العلاقة بين العمليات النفسية والعمليات الجسمية أو في مكانة العقل في الكون.

يبتعد بشكل نهائي عن التفكير الاقتصادي للقرن التاسع عشر بالقوى والأجهزة والهيئات باتجاه التفكير التبيؤي للقرن العشرين بالتفاعلات والتشابكات والتنشيط المتبادل وعمليات النمو المشتركة. ويرى إيركسون أن الأمر يتعلق من التحرك جيئة وذهابا بين الدوافع الداخلية وصور اللاشعوري وحقول الطاقة الداخلية للعلاقات البين إنسانية والمؤسسات الاجتماعية، من دون اختزال مجال على المجال الآخر: «فقط التحليل النفسي وعلم الاجتماع معاً قادران في النهاية على رسم مجرى الحياة الفردية داخل سيناريو مجتمع متحول» (1981 «أ»، صفحة 42).

ويرى إيركسون أنه لا يوجد اليوم أي علم نفس ونظرية اجتماعية جديين قادر على تحمل السقوط في تفكير ما قبل فرويدي. فقد فتح فرويد الأعين على مقدار الأضرار الكارثية التي يمكن لروح الطفل أن تعانيها من خلال أساليب التربية الخالية من الحب والمهملة. وبالطبع ليس هناك أدنى سبب لوضع الطروحات الباكرة لعلم نفس الجموع جانباً بصورة متكبرة. إذ أن مجرد النظرة لماضينا الباكر القريب تظهر مدى هشاشة طبقة الحضارة نفسها في أمة تبدو متحضرة، ومدى السرعة التي يطيح فيها الاستعداد لارتكاب أعمال وحشية لا حدود لها باعتراضات المنطق والأخلاق. ومن ناحية أخرى يريد إيركسون أن يلفت النظر إلى جانب الشذوذات والأخطار إلى عدم القابلية الصافية للاستغناء عن المجتمع المنظم. فمن دون السند الاجتماعي لا يمكن لأي طفل أن يعيش ومن دون قوانين ومؤسسات فإنه لا يمكن تصور التواصل والتعاون الضروريين للحياة بين الناس، ومن دون تقاليد ثابتة لا يمكن للمكتسبات الثقافية أن تنتقل إلى الأجيال اللاحقة. ولا يهتم إيركسون كثيراً بالموضوع السائد، ما الذي يحرمنا منه جميعاً حادث التنشئة الاجتماعية. بل أن المسألة الأساسية هي ما الذي يمنحنا إياه المجتمع، ما الذي يحفزنا عليه. كيف تعمل شبكة التنظيمات والمؤسسات والتقاليد المعقدة بشكل هائل؟ ما هي القوى الإيجابية الكامنة خلف التفاعل البناء بين الفرد والجماعة؟ ومن ناحية أخرى ما الذي يجعل المؤسسات متكررة الجمود وهل هي مسؤولة عن خلل المجتمع؟

ويمكن مقارنة تطور حضارة الإنسانية بالتعلم وفق المحاولة والخطأ. فمنذ البداية

تم الاحتفاظ بالأشكال التي برهنت صلاحيتها من الحياة المشتركة والتعاون، وتأسيسها وتوريثها كتقليد مشترك للأجيال اللاحقة. والمؤسسات، بدءاً من العادات البسيطة للمجتمعات البدائية وانتهاء بالتنظيمات الكبيرة Super-organization للمجتمعات الضخمة Mega Societies، تمثل بالنسبة لإيركسون لب أي تنظيم اجتماعي. وهو ينطلق من فرضية أساسية مفادها «أن دورة الحياة الإنسانية (بمقدار ما هي مرغوبة وحساسة) والمؤسسات الاجتماعية (بمقدار ما هي قابلة للفساد ولا يمكن الاستغناء عنها) يتطوران معاً» (1982، صفحة 269) وكلاهما معاً يعوضان عن التنظيم الغريزي للسلوك الحيواني. وليس من معنى للسؤال من كان أولاً: الإنسان أم المجتمع.

فمنذ البداية سارت حياة الإنسان بشكل متشابك مع المؤسسات. وعملت المرافق الاجتماعية من نحو الأمومة أو الأسرة أو إجراءات الرعاية الطبية أو مراكز الإرشاد على تأمين الحماية المثلى للمواليد الجدد ودعم سلوك التربية الوالدي. فالتنشئة الاجتماعية تعني الترعرع في شبكة من المؤسسات مطردة التوسع، الروضة، المدرسة، الجماعة الدينية، النظام الاقتصادي ونظامي العمل والقضاء لمجتمع ما. والمؤسسات وإن كانت ميالة دائماً للجمود والخلل، تمثل بالأصل قوى محافظة على الحياة. وهي لا يمكن التخلي عنها لإشباع الحاجات الجسمية، وتنظم الحياة الإنسانية المشتركة وتكبح الصراعات والمخاوف، وتلهم القدرات الإبداعية وتلهم الإيمان والأمل. ففيما إذا كنت أمارس مهنتي أم أستخدم وسائل النقل أم أتسوق أم أعمل في منصب شرف أم أنتمي ناد رياضي أم أسافر في إجازة: فلأني أتحرك دائماً في مؤسسات وأعتمد على المؤسسات وأشارك في العمل في مؤسسات. وحياة الإنسان بدءاً من العلاقات الخاصة وانتهاء بجهود التنظيم السياسي في الدولة والمجتمع هي عملية مستمرة من التواصل والتخطيط والتعاون. فكل التفكير والإحساس والتصرف انتهاء بأعمق طبقات اللاشعور تسهم في تحديده حياة المؤسسات، التي تقودنا وتوجهنا، التي نحتك بها والتي يمكنها أن تجعلنا ننهار في مخاوف وصراعات وخيمة.

ويرى إيركسون أن التحليل النفسي المبكر قد أهمل ظاهرة التنظيم الاجتماعي في

تأثيراته على الأنا الفردية. فلو كان الإنسان مجرد «جهاز نفسي» مغلق في ذاته، فلسوف لن يتمكن مرة من تدبير أمر من الأمور.

لقد أشار إيركسون إلى التعقيدية العالية للعملية الاجتماعية وحساسيتها للخلل. إذ أن بناء تنظيم اجتماعي من القوى والآراء والاهتمامات المختلفة ومن الجماعات والروابط والمنظمات ، قابل للحياة لا يحفظ حياة الفرد فحسب وإنما يمنحه الرضا والفخر ومعنى الحياة، هي، بالتحديد في عِشرة society معقدة سريعة التحول مهمة صعبة بشكل لا يقدر، لا يجوز لها أن تخرج ولا لحظة عن السيطرة. ويرى إيركسون أن إطلاق تسمية «جماعة Mass» على المجتمع وهو مفهوم يوحي بالفوضى واللاتنظيم، هو تبسيط كبير جداً. كما لا نستطيع كثيراً أن ننظر لعلم الاجتماع على أنه «علم نفس تطبيقي»، كما يرى فرويد أكبر فرداني (الأعمال الكاملة XV صفحة 194)، وهذا يعني الرغبة في اشتقاق الحدث الاجتماعي كاملاً من العمليات النفسية الفردية. فالمجتمع، وعلى الرغم من أنه من صنع الإنسان، هو حقيقة مستقلة بقانونيات مستقلة. فالكنيسة هي أكثر من مجرد مجموع أعضائها والزواج هو أكثر من مجرد الدافع الجنسي للمرأة والرجل. وكذلك لا يمكن بالنسبة لإيركسون تفسير الحركات الجماهيرية الهدامة بالمطابقة مع صور الأمراض الطبية النفسية. فمن المؤكد على سبيل المثال أن الحروب الأهلية تستثار من خلال التقديرات الخطأ للسياسيين ومن خلال مشاعر الغضب والإمراضيات النفسية للأفراد. إلا أنه عندما ينفجر الكره المتراكم فإن التطور اللاحق يسير عندئذ وفق قانونيات خاصة لا تعود قابلة للضبط.

ويرى إيركسون أنه على التحليل النفسي أن «الاعتراف باستقلالية الحدث الاجتماعي مثلما يعترف باستقلالية الأنا. فالنظر للراشدين دائماً على أنهم أطفال الماضي والمؤسسات على أنها إسعاف لأحلام الطفولة الضائعة، برهن نفسه على أنه نظرية اجتماعية غير كافية» (1957، صفحة 62).

وصف فرويد الإنسان في نظريته حول النرجسية بأنه أناني أصلي وفرداني والكره في العلاقة بالموضوع «بأنه أقدم من الحب» (الأعمال الكاملة .X صفحة 231). ولكن

هل يستطيع مخلوق متمركز أساساً على نفسه أن يحافظ على استمرارية تنظيم اجتماعي دائم؟ هل القوى كالحب أو الرعاية أو الولاء هي نتيجة الضغط الخارجي وحده في التربية؟ ومن دون التشكيك بوضوح بفرويد، تبدو لدى إيركسون رؤية أخرى. فالإنسان بالنسبة له يعتمد منذ الولادة على الاتصال، مخلوق يتطور من خلال الارتباط الاجتماعي ويجد المعنى في الجماعة: «النرجسية الطفولية الذي يقال عنها أنها تكافح بجسارة ضد انهيارات محيط مخيب، تتغذى في الواقع من الإغناء بعالم المعنى التشجيع الذي يمنحها إياه هذا المحيط بالذات» (1981 «ب» صفحة 40). وكلما ارتبط المرء أكثر، حمل الهم، تحمل مسؤوليته كمخلوق سياسي[1] بالمعنى الأوسع، فإنه سيشعر بالحيوية والرضا أكثر. ويصف إيركسون عالم المشاركة الاجتماعية بأنها «واقع» الفرد Actuality of Individuum[2]، «عالم المشاركة، متقاسماً مع المشاركين الآخرين» (1966 «ب»، صفحة 150)، ويعتقد أن مفهوم فرويد عن الواقع يشمل الواقع Reality والفعلية actuality، أي عالم حقيقة مقوم بشكل منطقي مع تنشيط متبادل لأناس متعاطفين» (1937، صفحة 824). وفي الواقع لا يمكن أن ينشأ شعور أصيل بالواقع إلا عندما ندرك العالم بفاعلية نشهد هنا الصدى والمشاركة والتأثير.

وفي تأكيده على الاستبطان Introspection والتأمل Contemplation فقد ركز التحليل النفسي بالنسبة لإيركسون على الواقع النفسي الداخلي للإنسان، إلا أنه تم إهمال واقعه actuality لمدى بعيد. فحتى النسق الإكلينيكي - يجلس المحلل النفسي خلف المريض المستلقي على الأريكة- يكاد يستبعد كل وجوه المواجهة الاجتماعية الطبيعية: إذ ينعدم اتصال الوجه والعيون ومن ثم ظلال الفروق[3] nuance للتبادل اللفظي للإشارات؛ ويقنن الاسترخاء كل نزوعات التفريغ الحركي والعنف باتجاه

(1) تعني هنا الحكمة والحصافة Politic.

(2) حقيقة راهنة، موجودة الآن، متحقق.

(3) الفروق الدقيقة جداً في التعابير أو المعاني التي تكاد لاتدرك.

الاستبطان؛ وبدلاً من المحادثة البناءة السيلان الطلق لتداعي المريض وتأويلات بين الحين والآخر. وفي الواقع فإن هذا الإجراء هو الأسلوب الأمثل لاستقصاء اللاشعور. فالمُحَلَل (الذي يتم تحليله) يستطيع نقل الرغبات والمخاوف التي تبدو أنها مضت منذ وقت طويل على المُحَلِل (القائم بالتحليل) غير القابل للوصول إليه الجالس خلفه، ويعيشه بالتبادل كأم حامية أو كأب معاقَب أو منافس حاسد. ومن ناحية أخرى فإن الطريقة لا تفصح عن الكثير حول الكيفية التي يبدو فيها السلوك الاجتماعي للمريض خارج المختبر الإكلينيكي. بل على العكس: فبالنسبة للمحلل النفسي فإن «النشاط» الاجتماعي الكبير يعيق تفتح النزوعات اللاشعورية، وفي بعض الأحيان تخبو بالنسبة للمريض علاقاته الاجتماعية الأخرى بالنظر لعلاقته القيمة بالمعالج. وليس من النادر أن تتعرض التحليلات المفرطة الطول لخطر التحول إلى استبصار تقوقعي[1] esoteric، بديل عن العلاقات غير الموفقة وتهرب من مسؤولية حياة الرشد.

لقد كان هدف المعالجة التحليلية النفسية بالنسبة لفرويد هو تقوية قدرة الأنا على الاستبصار. وفي الواقع فإن كم كبير تشويهات الإدراك اللاشعورية يسهم في المسؤولية عن الصراعات الإنسانية. فنحن نعيش الآخرين كمهددين أو غير مريحين لأننا نسقط عليهم نزوعاتنا العدوانية والجنسية الخاصة. ويعاني الإنسان منن صعوبات خاصة مع أطفاله لأنهم يمثلون بالتحديد تلك الجوانب التي يرفضها المرء في ذاته. أو أن الإنسان يراقب شريك حياته بغيرة مفرطة، إلا أنه يغطي بهذا نزوعات الخيانة لديه. ومن خلال معالجة تلك الإسقاطات بالاستبصار الداخلي التحليلي النفسي وتهديم التزمت والمخاوف والسماح للرغبات المكبوتة بالوصول إلى الشعوري، فإن هذا الاستبصار يحقق حسب إيركسون جزءاً واحداً فقط من العمل. إلا أن التقوية الخارجية للأنا من خلال قيام العلاج بتقريب المُحَلَل (الذي يتم تحليله) من القوى المغذية للحياة الاجتماعية، هي على نفس الدرجة من الأهمية بالنسبة لعملية الشفاء. ويتحدث إيركسون

(1) مقتصر على فئة قليلة، مفهوم من قبلها وحدها.

عن «مضاعفة الطاقات Multiplication of Energics» (1973، صفحة 824)، عندما يخبر المريض الوحيد والذي يبدو رافضاً لنفسه المشاركة من جديد في الواجبات الاجتماعية والحصول من خلال ذلك على التضامن والاعتراف.

كما ينتقد إيركسون في نقاط أخرى أحادية علم النفس الاجتماعي التحليلي النفسي الباكر. فهاينز هارتمان (Heinz Hartmann, 1939) قد وصف نمو الشخصية على أنه «التلاؤم المفترض توقعه في المتوسط مع المحيط» ، حيث يرى إيركسون أنه بهذا قد اشتمل القيل جداً من طبيعة التحول التاريخي للوجود الشخصي والاجتماعي. فالتنشئة الاجتماعية الإنسانية ليست تعويداً وحيد للنفس في عالم متوسط تخيلي، يمكن مقارنتها مع تعشق الجهاز الغريزي الحيواني في مخطط حياة النوع المستمر لآلاف القرون. فالأمر يتعلق بسلسلة كاملة من المحيطات التي على الفرد أن يتلاءم معها في المراحل المختلفة لدورة حياته. وكذلك تواجه الثقافة مهمة دائمة تتمثل في مناغمة المؤسسات ذات السرعات المختلفة في التحول مع بعضها، والحفاظ على التعاضد في تنوع القوى والأفكار الاجتماعية. فالكثير من المحافظة conservatism تقود إلى التضيق الفكري والظلم الاجتماعي والتوترات السياسية. ومن ناحية أخرى يمكن للتحول السريع وغير الهادف أن يشكك في مشاعر هوية جماعات واسعة وأن يوقظ المخاوف اللاعقلانية. وكل شكل من السياسة بالمعنى الأوسع هي سعي لبناء توازن دقيق بين القوى المحافظة والتحررية، بحيث يبقى في الحالة المثلى الشعور بالأمن والتدفق المستمر بالنسبة للغالبية العظمة من الناس، وللأطفال الحساسين للقلق بشكل خاص. ولهذا السبب تقتضي إيكولوجيا الإنسان وفق إيركسون «إعادة تلاؤم طبيعية مستمرة وتاريخية وتقنية، وهو ما يوضح في الوقت نفسه أن الترميم المستمر، وإن كان غير ملحوظ بصورة واضحة، لتقاليد كل جيل جديد من المواليد هو وحده القادر على ضمان شيء ما، يشبه (ما يمكن توقعه بصورة متوسطة) فيما يتعلق بالمحيط. واليوم، حيث تولت القيادة التغيرات التقنية السريعة في العالم ككل، فإن مشكلة تشييد وصيانة استمرارية متوقعة بشكل متوسط لتنشئة وتربية الأطفال في صيغ مرنة قد تحولت إلى قضية البقاء الإنساني» (1981 «أ»، صفحة 231-232).

والجهود من أجل الحفاظ على استمرارية تنظيم اجتماعي هي شديدة التنوع في البيئات الثقافية المختلفة لهذه الأرض، وتبدو في بعض الأحيان غريبة وشاذة، بحيث أن الناس من أطر ثقافية مختلفة غالباً يفتقدون إلى خبرة الانتماء المشترك للنوع نفسه. ففرويد مازال يرى في ارستقراطية القرن التاسع عشر النظام الاجتماعي البديهي؛ وظل التفكير في الشعوب غير الأوروبية غريباً عنه. وكثير من سمات مرضاه، الذين يعكسون تشابكهم مع محيط فينا الأرستقراطي، فسره فرويد على أنه أصل الدافع، كثابت بيولوجي إذا جاز التعبير. وقد أقر هارتمان بأن الحس الإنساني السليم يجعل المرء يعيد النظر في الفروق الثقافية، بأن هذه الفروق تصبح غير ذات معنى كلما تحرك المرء في التحليل النفسي أكثر في الجوهر الداخلي للاشعوري. وبالمقابل يطالب إيركسون "بأن وعي الفروق الثقافية لدى المحلل (يمتد لأبعد من مجرد الحس الإنساني السليم)" (1981 "أ"، صفحة 233). وإحدى نقاط عمله الأساسية هو محاولة تفسير التحليل النفسي في ضوء الأنثروبولوجيا الثقافية Culture anthropology وتوسيعه من خلال ذلك. إنه يظهر مأسوراً بالتنوع المختلف للتقاليد والعادات وصور العالم الدينية لأطر ثقافة هذه الأرض، ويريد أن يوصل الإحساس بمدى حساسية النظر بغفلة إلى أشكال الحياة الخاصة بأنها الشكل الوحيد الممكن والتسرع بالتشكيك بمعايير شعب أجنبي[أ].

3.2 فكرة التنظيم المتبادل

قدمت معرفة فرويد بمدى القوة التي يميل فيها الراشد بصورة غير ملحوظة إلى نقل مخاوفه وصراعاته غير المحلولة إلى المواقف الحياتية الراهنة، رؤى جديدة غير معروفة لا عهد لنا بها لفهم الصراعات الزوجية والأسرية والجمعية. إلا أن تحليل الجذور اللاشعورية لاضطرابات العلاقة الإنسانية سرعان ما ضلل إلى موقف تشاؤمي، بالدرجة الأولى في رؤية الفشل في التعايش الاجتماعي. بالمقابل يسأل إيركسون أيضاً، كيف يبدو جوهر العلاقات الناجحة، ما هي الدوافع الاجتماعية البناءة الكامنة خلف ظواهر من نحو التضامن والصداقة والتعاون والاعتناء والحب. فلابد للطموحات الأساسية

للتطور نحو الحفاظ على الذات والنوع أن يستمر في السلوك الاجتماعي للإنسان. إذ لا يمكن أن يعقل أن يكون الإنسان خطأ تصميمي مضاد للمجتمع والمجتمع بالأصل جهاز قمع مرعب. ويتحدث إيركسون عن ميل «توالدي generative» في الأنا والمؤسسات الاجتماعية، نحو التنظيم الاجتماعي، يتحقق فيها توازن كبير قدر الإمكان بين الحاجات الفردية والمقتضيات الاجتماعية ويتم فيها ضمانة حماية الجيل التالي بشكل خاص.

وبالطبع فإن هذه النزعة للعلاقة المتبادلة البناءة هي لدى الإنسان أكثر غموضاً وحساسية للاضطراب مما هو الأمر لدى الأنواع الحيوانية العليا، حيث تتشابك الأنماط الغريزية مع بعضها بما يشبه المسننات وتضمن انسجام تام للسلوك مع مخطط حياة أبناء النوع ومع المحيط الجغرافي. ولابد للإنسان أن يكتسب كل ما يحتاجه من أجل بقاءه تقريباً في طفولة طويلة بدرجة كبيرة. وعليه بشكل خاص أن يتعلم أن يتصرف اجتماعياً وأن يراعي الآخرين وأن يلاءم اهتماماته مع الجماعة. وبما أن الحاجات البيولوجية الدافعية بالتحديد لدى الإنسان ليست مقيدة بأنماط غريزية مولودة فلابد بشكل خاص من تدجين الدوافع الجنسية العنيفة والعدوانية للطفل، وهي عملية مرتبطة بكثير من المخاوف والصراعات. وحتى اليوم لم يكن هناك مجتمع استطاع إشباع الحاجات الخاصة لأعضائه، وكبح مخاوفهم. لقد دمر فرويد أسطورة الطفولة المشرقة وبرهن مدى الوخامة التي تستطيع بها طرق التربية الكابتة تشويه «الذكاء المشع» للطفل. لقد كانت إشارة التحليل النفسي إلى المقدار الكبير للعنف ضد الأطفال، الذين مازالوا حتى اليوم يضربون بلا رحمة أو يتم استغلالهم كقوى عاملة رخيصة أو يتم استغلالهم جنسياً أو قتلهم، من المناقب الكبيرة للتحليل النفسي.

بالإضافة إلى ذلك لابد وأن تكمن في الراشد نزعة غامضة للرعاية، ذلك الشكل الضامر لسلوك الحماية الغريزي للأمهات الحيوانات تجاه صغارها. ويرى إيركسون أن قلة حيلة المولود الجديد نسبية، فهو مجهز بأشكال تعبير، تستثير الرعاية وسرور الراشدين. فابتسام وقبض وتمسك الرضيع يستثير دوافع الأم لتغذيته وحمايته ولعناقه. ومن خلال

ذلك يتم إيقاظ القوى الأساسية بالثقة والأمل في الطفل، التي تعزز بدورها الحب ورعاية الأم. فالحب بين الأم والطفل نموذجاً أولياً إذ جاز التعبير - كما يسميه إيركسون- «التنظيم المتبادل»، حيث يعير الناس سلوكهم على بعضهم البعض، بحيث تتم تنمية المشاركين جميعهم في إمكاناتهم[ii]. والتنظيم المتبادل موجود في كل مكان حيث يقبل الأفراد والمجموعات على بعضهم بثقة، ويتعاونون ويتشاركون، ومستعدون لتقبل الآراء المختلفة أو مسامحة بعضهم البعض. ويطلق إيركسون على الدوافع الكامنة خلف الأشكال المختلفة للسلوك الغيري «الفضائل»، ليس بمعنى تعاليم أخلاقية معينة، وإنما بمعنى «نوعيات القوة الإنسانية» (1966 «ب»، صفحة 243). ويتعلق الأمر بقوى «وجدانية» كالأمل أو قوة الإرادة أو الاجتهاد أو الحب أو الرعاية أو الحكمة، التي تقابل الانفعالات «الفطرية antipathctic» كالغضب أو الشك أو الغيرة أو الخجل. والفضائل هي المعادل للغريزة الاجتماعية الحيوانية إذا جاز التعبير، التي من دونها لا يمكن للحياة المشتركة أن توجد. ويتحدث إيركسون عن «صخرة أساس القوة الحيوية» (1966 «أ» صفحة 130)، التي أقامت عليها الثقافات المرة تلو الأخرى صروحها الأخلاقية والدينية.

ويتعلق أمل وألم تطور الشخصية وكذلك أيضاً مصير ثقافة ما بنشوء تعاضد موثوق بين الوالدين والطفل في الطفولة المبكرة وبنمو فضائل منعشة. وبالمقابل فإن الطفل الذي لا يشعر بالحب يطور تكتيكات معارضة ترفع من جهتها الرفض الشعوري أو اللاشعوري للوالدين وتجعل من الطفل يغرق في مزيد من الغضب واليأس. وغالباً ما تحصل مواقف يحاول فيها الطرفان تنفيذ رغباتهما بشكل متبادل، بدلاً من التعامل مع بعضيهما بتفاهم. ويتواجد أبكر فشل في التبادلية بين الوالدين والطفل كنمط أساسي في كل الصراعات، حيث لا يعود الناس أو جماعات قادرين على تحمل وتفهم بعضهم الأخر، بل يعيقون بعضهم البعض. فتتصلب الجبهات وينمو الميل للشك والإسقاطات، ولا تتحرر الطاقات بل تتبدد. ويتحدث إيركسون عن الغضب الخاص الذي «يتراكم باطراد حيث يمنع الإنسان من تنشيط الفضائل والسمو بها» (1966 «أ»، صفحة 127-

128)، وتستقر لدى الإنسان في أشكال العداوة اللاعقلانية وهو أمر غير معروف في علم الحيوان بين أفراد النوع نفسه. ويرى إيركسون أنه من حيث المبدأ لابد لكل مجتمع، من أجل إرادة البقاء لوحدها، أن يحرص لدى أعضاءه على إيقاظ أكبر قدر ممكن من التضامن والاستعداد للتضحية، وتنمية القوى التعاطفية والتقليل من المشاعر المقيتة antipathctic أو توجيهها نحو الخارج. ويهدف برنامج التربية في مجتمع ما بالأصل إلى تنمية قوى وقدرات الطفل بشكل مثالي قدر الإمكان وتوجيهه بالتدريج نحو الطموحات التقنية أو الاقتصادية أو القضائية أو العلمية الخاصة. ومن دون حماس ونقد الشبان سرعان ما ستتجمد المؤسسات. فإذا ما وجد الراشد هويته، تنتقل الرعاية التي خبرها وهو طفل وشاب إلى الرغبة بإنجاب جيل جديد وتولي المسؤولية عن مصير مجتمعه.

وبهذا فإن دورة الحياة الفردية وعملية الجيل Process of Generation والمؤسسات متشابكة مع بعضها بصورة لا يمكن فصلها، عملية دائرية مستمرة من الإنتاج والتدوير Production and Rcproduction للحياة الإنسانية، التي تغطي التكاثر البيولوجي- الغريزي في عالم الحيوان وتحل محله. وهذا يعني، كما يرى إيركسون «بأن أطوار حياة الفرد (هي حياة متداخلة)، متشابكة مع أطوار حياة الآخرين، الذين يدفعونه للأمام كما يدفعهم هو للأمام » (1966 «أ»، صفحة 102). وبهذا فإن القوة الإنسانية تتعلق «بعملية كلية تنظم في الوقت نفسه تسلسل الأجيال وبنية المجتمع. والأنا هو المنظم لهذه العملية في الفرد» (1966، صفحة 140).

وبالطبع فإن إيركسون يطور هنا تنظيماً مثالياً، بالشكل الذي حدده فيه التطور بشكل غامض كلية والذي مازال بالإمكان ملاحظته في الشعوب البدائية. وكلما تطورت المجتمعات بشكل أكثر تعقيداً أصبح من الصعب مزامنة الاهتمامات الفردية والجمعية. فكل القواعد والاختراعات الاجتماعية هي مجرد إسعافات أولية تميل باستمرار للجمود والخلل. في كل تنظيم اجتماعي تتسلل اللامساواة والظلم والفساد والنفاق والعنف، المؤشر الاجتماعي لعيوب ومخاوف الفرد.

وكل المؤسسات الاجتماعية التي ينشئها الإنسان تستقل بذاتها، وتمارس على الفرد وبين الأفراد السلطة، ويمكنها أن تصاب بالأمراض وأن تتطور في الحالة المتطرفة إلى قوى مضادة للحياة. فالتنظيمات الاجتماعية الإقطاعية، بداية تفاعل مثالي بين القادة والأتباع، انحرفت نحو سلطة أبوية كابتة.

وقادت التقنيات والأشكال الاقتصادية الجديدة إلى النهضة الصناعية وترافقت عندئذ مع بؤس جماعات واسعة.

وأطلقت الجماعات الدينية رؤى جبارة من الحب والأمل ورأت في فترات الأزمة بأنه عليها الدفاع عن المعتقد بوسائل العنف المجرد. ويمكن في المؤسسات المتجمدة أن تتوقف عمليات الحوار الضرورة للحياة. ولا تعود توقظ لدى أعضائها الفضائل المنشطة بل على العكس تستغل مخاوف الطفولة، من أجل تعطيل القدرة على الحكم والتقويم لدى الفرد إلى أكبر مدى ممكن. والأنظمة الاستبدادية، التي قد تكون متباعدة جداً عن بعضها إيديويوجياً تعتمد كثيراً على طرق متشابهة من الترهيب والتأثير: استخدام منع التفكير، القسم بسلطة عليا لا تطال، توجيه الغضب نحو عدو خارجي مشيطن، التلقين المنهجي للأطفال والشباب.

فإذا ما تقدم تنوع المؤسسات المسيطرة كثيراً، وأصبح ضغط المعاناة لفئة واسعة من الجماهير كبيراً جداً، تشعر صفوة المجتمع بأنها مدعوة إلى إعادة أصالة القيم الأساسية. وغالباً ما يسبق ذلك شخصيات قيادية، تمنح المزاج الثوري الحافز الأساسي وبالتالي تحرك عجلة التغيرات الاجتماعية.

لقد كان كفاح مارتن لوثر ضد فساد كنيسته بالنسبة لإيركسون المثال النموذجي لمثل عملية التحول هذه. وتظهر النظرة الحصيفة للتاريخ أن الثورات الكبرى أو الإصلاحات أو النهضات لا يمكن أن تسير بدون أية أضرار إلا في أندر الحالات.

فظواهر الانحلال الاجتماعي توقظ مخاوف شديدة لدى الجماهير الواسعة وتجعل الغضب المتراكم يتجلى في شكل مرعب. وغالباً ما تنتهي الفترات الانتقالية الثورية في

سيطرة استبدادية مرعبة، يتم فيها إعادة بناء علاقات القهر القديمة بطريقة أشد شناعة (اليعاقبة[1]، الستالينية).

وكثيراً ما تمت إساءة فهم تفكير إيركسون العلم نفس اجتماعي، حيث فهم وكأنه أراد أن يرسم صورة شبه مسالمة بين الفرد والمجتمع. فالتنظيم المتبادل هو أقرب للرواية المثالية، لا يستطيع السلوك الإنساني سوى الاقتراب منها فقط، على نحو ما يتم

(1) جماعة سياسية متطرفة عرفت بنشاطها السياسي الإرهابي أثناء الثورة الفرنسية. واليعاقبة عرفوا بهذا الاسم لعقد اجتماعاتهم العامة في قاعة كانت تخص في الماضي الرهبان اليعاقبة ،وينتمي غالبية اليعاقبة إلى الشرائح الميسورة والمثقفة من الطبقة الثالثة،والنوادي اليعقوبية كانت هي التنظيم الثوري الذي ينظم صفوف الثوار.

كون اليعاقبة جيشاً وطنياً ضخما ضم الآلاف من فقراء المدن ، لمواجهة الثورة المضادة القادمة من الخارج ، وفى الداخل استخدم اليعاقبة المقصلة لإعدام قيادات الثورة المضادة من النبلاء .

وفى عام 1792 بدأت الخلافات تشتعل داخل الجمعية الوطنية فانقسمت إلى يمين ويسار . اليمين يريد ملكية دستورية مع إلغاء القوانين الإقطاعية ،واليسار يريد القضاء نهائيا على النظام القديم. قاد اليسار ماكسمليان روبسبير وسان جوست ومارا الذين انتموا إلى اليسار.

بعد انتصار الفرنسيون في الحرب ، دخل اليعاقبة في أزمة حادة كان للمقصلة فيها وجود طاغ، فبينما طالب اليمين بإنهاء الثورة وإجراءاتها الاستثنائية، بزغ يسار جديد أكثر راديكالية من اليعاقبة طالب بتأميم البنوك، وبرز منهم بابوف الذي اصدر بيان سنة 1795 كتب فيه أن الثورة لن تكتمل ما لم يحصل كل فرد على حصته من خيرات هذا العالم حصة تعادل تماما حصة الآخرين وللوصول لهذه المساواة الحقيقية يتحتم إلغاء الملكية الخاصة على الفور لان كل إعادة توزيع عادل للثروات لن يقيض لها الاستمرار ما دامت الملكية الخاصة قائمة .

كان من المستحيل في تلك اللحظة تحقيق آمال ذلك اليسار الجديد ،لان غالبية فقراء المدن كانوا من صغار التجار والصناع وليسوا طبقة عاملة في مصانع، وكان هؤلاء يحلمون بعالم متساوي من صغار الملاك وهذا أيضا ما كان يعبر عنه روبسبير كزعيم لليعاقبة، وفي نفس الوقت لم يكن من الممكن إبقاء الوضع على ما هو عليه فالبرجوازية تريد إنهاء حالة المظاهرات والتمردات شبه الدائمة،وللخروج من الأزمة قام روبسبير بالإطاحة بيمين اليعاقبة الذين كانوا يطالبون بإنهاء الثورة ،فبعث بدانتون خطيب الثورة الشهير إلى المقصلة، ثم أطاح أيضاً باليساريين من أمثال هيبرت.

ثم مالت الجمعية إلى اليمين الذي استطاع بمؤامرة صغيرة إرسال روبسبير وسان جوست إلى المقصلة.

بعد إعدام روبسبير سيطر اليمين على الأمور وأغلقت النوادي اليعقوبية،وطورد اليعاقبة في كل مكان،وأعدم منهم الكثيرون،وألغى الكثير من القرارات والقوانين الثورية. ولكن ظلت مبادئ الثورة الفرنسية "الحرية والمساواة والإخاء" تحلق فوق المجتمع الطبقي الجديد القائم على الاستغلال الرأسمالي منتظرة ثورة الطبقة العاملة الحديثة لتكمل ما بدأته الثورة الفرنسية .

الكفاح من أجله باستمرار بدءاً من العلاقات الخاصة وانتهاء بالسياسة العالمية. ويبدو أن هناك ميل أساسي في تاريخ الثقافة، يربط عدداً متزايد الاطراد من الشعوب مع بعضهم في تفاهم وتعاون. وعلى هذا الطريق وجد ويوجد ضلالات ونكسات مرعبة، تم فيه تعطيل مبدأ التبادلية كلية إلى حد ما. فالعصور الدموية للتاريخ والرؤى الأخلاقية الكبيرة قد قادت على الأغلب بعد وقت قليل لاحق إلى مآس مرعبة: تناغم الروح-الجسد في العصور القديمة وموت سقراط؛ حلم كلمات المسيح وكابوس غالغن وشايترهاوفن Galgen & Scheiterhaufen؛ الحركة الاشتراكية وأرخبيل غولاج[1]؛ طريقة اللاعنف لدى غاندي والمذابح بين المسلمين والهندوس. فحتى اليوم لم يكن هناك مجتمع مثالي. وطوال الحياة يتم جر الفرد في صراعات اجتماعية وسياسية واسعة جداً، تحطم توازنه النفسي بمقدار ما تفعله به المخاوف الطفولية المكبوتة.

وعليه لا يستطيع إيركسون سوى تأكيد الرؤية الأصلية لفرويد المتمثلة في مدى التعلق الكبير لمصير الإنسان بالاهتمام الوالدي المحب والتقاليد المانحة للدعم في الطفولة المبكرة. وبإلحاح ينصب نفسه محامياً للطفل ويناشد مسؤولية الوالدين. إذ أنه من المهم

(1) يصف الكساندر سولجتسن (Alexandr Solzhenitsyn) في كتابه «أرخبيل غولاغ (Gulag Archipelago) معسكراً سوفيتياً لأسرى الحرب جردت فيه طائفة من العلماء والمفكرين من جميع الأمتعة البدنية والخارجية وفرضت عليها أشغال شاقة. وكانت تعطي ما لا يزيد على بضع أو نصات من الخبز يومياً فيقول: «في معسكر سماركا كانت طائفة من رجال الفكر في عام 1946 قد وصلت إلى شفا الهلاك. فقد أنهكهم الجوع والبرد، والشغل الذي يفوق طاقتهم. بل لقد حرموا حتى من النوم. ولم يكن لديهم مكان يستلقون فيه إذ لم تكن قد بنيت ثكنات المخابئ. فهل لجئوا إلى السرقة؟ هل اشتكوا؟ هل تذمروا من حياتهم المتلفة؟ كلا. ولما كانوا يتوقعون اقتراب الموت منهم في غضون أيام لا أسابيع فانظر إلى الطريقة التي قضوا بها أوقات الفراغ التي اتسمت بالأرق وهم يجلسون متكئين على الحائط. لقد جمعهم تيموفيف ريسوفسكي على شكل ندوة دراسية، وبادروا إلى تشاطر ما كان يعرفه أحدهم ويجهله الآخر. وهكذا ألقى كل منهم محاضرته الأخيرة على الآخرين. الأب سافلي تحدث عن «الموت غير المشين»، وتحدث مهندس كهربائي عما سيكون عليه علم الطاقة في المستقبل، وتكلم عالم اقتصادي من لينينغراد عما لاقته الجهود الرامية إلى وضع مبادئ علم الاقتصاد السوفيتي من فشل بسبب الافتقار إلى أفكار جديدة. وتحدث تيموفيف نفسه عن مبادئ علم فيزياء الجسيمات الدقيقة. ومن جلسة إلى أخرى أخذ عدد المشتركين يتناقص، فقد صاروا فعلاً في مستودع الجثث. هذا الصنف من الرجال هو الذي يستطيع أن يبدي اهتماماً بكل ذلك وهو يحس فعلاً بخدر الموت الداهم. هذا الصنف من الرجال هو المفكر.

قيادة الطفل ووضع الحدود، توصيل له الشعور بالقيمة نفسها. وكل طرق التربية التي تعمل بالعنف أو القهر أو الرشوة أو التخجيل تترك طوال الحياة مشاعر العجز والجرح. فقد يبدو الطفل للخارج بأنه يتصف بالطاعة العمياء، إلا أنه يطور في الداخل شك حارق بحسن نوايا الراشدين وينتظر ذلك اليوم الذي يصبح فيه كبيراً كفاية من أجل الرد للآخرين ما فعلوه به. وفي كل علاقات السلطة غير المتوازنة بين الفقر الغنى، الأسود والأبيض، الرجل والمرأة تنعكس العلاقة المضطربة بين الراشد القوي والأطفال الأدنى. ويرى إيركسون أنه ربما «تصبح قناعتنا الراسخة يوما ما أن أكبر جريمة هي تشويه الروح الطفولية إذ أنه هنا يتم خرق مبدأ الثقة في الحياة» (1975 «أ»، صفحة 75).

3.3 الأنواع الزائفة للكينونة الإنسانية

في النشوء الاجتماعي الممتد عبر آلاف السنين شكلت الإنسانية مجموعات فرعية مختلفة، قبائل أو شعوب أو أعراق أو طبقات أو جماعات دينية، طورت وعياً قوياً بالذات وحددت نفسها عن الجماعات الأخرى، وغالباً إلى درجة أنهم قد فقدوا الوعي بانتمائهم للنوع نفسه. واستناداً إلى كونراد لورنس Konrad Lorenz يتحدث إيركسون عن «الأنواع الزائفة Pseudo Kids» أو «الأجناس الزائفة Pseudo Species» للكينونة الإنسانية. وإيجاد الهوية الاجتماعية هو عبارة عن طفرة (تمايز Speciation)[1]. فالمخلوق الطفولي المرن جداً من الناحية البيولوجية تتم تنشئته اجتماعياً Socialization ضمن نسخة ثقافية محددة جداً للكينونة الإنسانية، تحفر فيه شكل حياة الأسرة أو الطائفة أو الملة أو الأمة بشكل أكبر من استعداده الوراثي. ومنذ البداية يجري في عروقه تنمية ولاء خاص لجماعته الخاصة، والكيفية التي ينبغي التفكير والإحساس فيها - بما في ذلك كل الأحكام المسبقة ضد الآخرين، الغرباء. فالإنسان بالنسبة لإيركسون مخلوق متمحور حول العرق ethnocentric، يميل بداية إلى الإحساس أن شكل حياته الخاص هو الشكل الوحيد الممكن.

(1) مفهوم بيولوجي ويعني نشوء أفراد جديدة تختلف في صفاتها عن صفات أجدادها.

وعبر التاريخ كله كانت الأنواع الزائفة متناقضة تجاه بعضها البعض. فقد كان الغريب من جهة مصدراً للفضول، وكان الكرم أحد الوصايا العليا في غالبية الثقافات. وبالذات فقد جلب التسامح تجاه تأثيرات الثقافات الأخرى والاستعداد لتبني الأفكار أو التقنيات أو العادات أو المعتقدات الدينية ضمن برنامج الحياة الخاص لحظة حاسمة للتقدم في الحضارة الإنسانية. ومن ناحية أخرى فإن تاريخ الإنسانية هو تاريخ الحروب والاحتلال، التهجير أو الاستعباد أو إبادة شعوب كاملة. وكانت المواجهات بين المخلوقات الزائفة المتعادية ومازالت في بعض الأحيان مترافقة بالإفراط في العنف، بشكل غير معروف في عالم الحيوان بين أفراد النوع نفسه.

وربما يكمن أصل تشكل الأنواع الزائفة في التاريخ المبكر للبشرية. إذ يعتقد أن أولى «الثقافات»، أي الروابط القبلية الرخوة، تقوقعت على نفسها خائفة من بعضها. وهنا يحتمل أن تكون جذور الحكم المسبق المتمركز حول العرق كامنة، المتمثلة في خبرة المنطقة الخاصة لوحدها على أنها «العالم» وأفراد القبيلة الخاصة لوحدهم على أنهم «الناس»، وبالمقابل تجنب الغرباء بقلق والإحساس بهم غالباً بشكل سحري على أنهم منبع الشر. وفي مجرى التاريخ حصل توسيع واختلاط مطرد الكبر للمخلوقات الزائفة وصولاً إلى فكرة الإمبراطورية العالمية والديانات العالمية. إلا أنه أيضاً في الدول الكبرى انفصلت مستويات أو طبقات أو طوائف عن بعضها بصورة قاطعة وكأنها لا تنتمي للنوع نفسه وعلى ما يبدو تستمر عملية التطور في التكوين الاجتماعي socio genesis. فالإنسانية لم تنشأ دفعة واحدة، وإنما لابد لها وأن تكون بداية قد وصلت عبر كثير من المتاهات والانتكاسات إلى أنها تشكل نوعاً مترابطاً ومخلوقات لها الحقوق نفسها.

وبسرعة لم تكن معروفة من قبل انصقلت في العقود الأخيرة فروق أخلاقية وأرستقراطية ودينية. وتمنح أقنية التواصل العالمية اليوم وعياً إنسانياً عالمياً. ومع ذلك حصل في القرن العشرين إفراط مضر في الإبادة التقنية المخططة بدم بارد، غطت على كل المواجهات التي ظهرت حتى ذلك الحين بين الأنواع الزائفة. ويشعر المرء بعمق تأثر إيركسون فيما يتعلق بالزيادة المرعبة للتعصب الديني والسياسي، فقد كان من الممكن أن

يكون هو نفسه بلا سبب ضحية للهذيان العرقي الاشتراكي القومي. ويرى أن بناء تضامن عالمي بين كل الشعوب أن تكون هدفاً ذا أولوية للسياسة الراهنة ولأن يتحول بحث الجذور اللاشعورية لتشكل الأحكام المسبقة والاستعداد للعنف في الجماعات الصغيرة والكبيرة إلى مهمة ملحة للتحليل النفسي[iii].

ويقصد إيركسون التمايز الزائف Pseudo Speciation، «أنه تقوم بين (الأنواع) نفسها و «الأنواع» الأخرى فروق حتمية، يمكنها أن تشمل سواء التباينات شديدة التطور للجماعات الإنسانية أم أيضاً الفروق الصغيرة والأصغر، التي تمكنت من أن تحظى بأهمية كبيرة » (1978، صفحة 62).

وكلمة «زائف Pseudo» ينبغي ألا تذكرنا بالدرجة الأولى بالكذب أو الخداع. فهدف إيركسون هو تلك المجموعة من القناعات والأوهام، التي تحاول فيها المجموعات رفع أهميتها الذاتية. والأساطير وكتابة تاريخ الشعوب مليئة بتصورات الوقوع في مركز العالم، بالاختيار من الله والقدر، لتمثيل الصيغة الحقيقية للإنسانية وأولوية حق القيادة للجماعات الأخرى. وقد كرست المخلوقات الزائفة مطلب كونها نوعاً ذو امتيازات جزءاً كبيراً من أخلاقها وتفكيرها وطموحاتها وحاولت بضغط خاص تعليم ذريتها هذه القناعات. وقد سخرت المذاهب الدينية والإيديولوجيات السياسية، بل حتى النظريات العلمية حتى الوقت الراهن لتأكيد التفوق الذاتي تجاه «الأعراق الأقل قيمة»، أو الشعوب المعادية أو «الكفار».

كان التمايز الزائف بالأصل آلية بقاء. فمن أجل الصمود كمجموعة كان لابد للمرء من جعل شكل وجوده الخاص مطلقاً، لابد من عدم الإحساس والولاء بالدرجة الأولى إلا لأعضاء الجماعة الخاصة. ومن أجل عد تمييع القيم الذاتية كان لابد من الدفاع ضد كل تبني التأثيرات الغريبة، والحفاظ على نوع من الانتقائية في الاتصال بالخارج. ورفع الفخر بالانتماء إلى جماعة ذات حظوة الولاء لروح الجماعة وشكله الاقتصادي، وأنشأ شعوراً خاصاً بالتعاضد بين أعضاء المخلوقات الزائفة. تم تقييم

الشعور الخاص بالذات من خلال المشاركة بنرجسية-الجماعة، وهو ما تمكن من تغطية مشاعر الاغتراب والخوف من الموت. وقد أوقظ هذا إلى حد ما إنجازات ثقافية غير معقولة وأعلى أشكال الاستعداد للتضحية وصولاً إلى بذل النفس في سبيل قضية خيرة، «عادلة». إلا أن الانفصال عن الخارج سرعان ما ترافق - وهذا هو الجانب الأكثر قتامة «للزائف» مع ميل نحو إسقاط الجوانب السلبية الذاتية على الجماعات الأخرى أو استغلال هذه الجماعات اقتصادياً.

وبين الشك تجاه الغريب ليست المسافة بعيدة جداً عن آلية الإسقاط. فحتى الطفل سرعان ما يشعر بالوجه الغريب على أنه مهدد له. وكل الجماعات تستغل عمليات الإسقاط اللاشعورية لتعزيز هويتها الذاتية. وفي الثقافات الأخرى كانت افتراضات التفكير السحري جذابة، للإحساس بالذات كمصدر للحق والحقيقة والخير، وخبرة النقص والشر كقادم من الخارج. ويتحدث إيركسون عن «ميل الإنسان، لضمان شعوره بالتفوق من خلال وضع جماعات كاملة من البشر مع بعضها وتغطيتها بالأحكام المسبقة» (1982، صفحة 182). وجُعلت الجماعات أو الأقليات الأخرى التي تعيش بين ظهراني الجماعة مساحات إسقاط لذلك الذي ينكره المرء في ذاته -الفجور الجنسي، والحسد والكره والعداوة. ومثل اتجاهات الأحكام المسبقة هذه ترفع بشكل مصطنع الوعي بالجماعة الذاتية وتقنن المشاعر السلبية بالخيبة والغضب نحو الخارج وتصهر المجتمعات في الصراع ضد الأعضاء ومخالفي الرأي.

بالإضافة إلى ذلك هناك دائماً صراعات مصالح حقيقية تسبب المواجهات بين الأنواع الزائفة أو تؤججها. فقد كان الصراع حول المواد الخام أو على بلد مثمر أو قوى عمل رخيصة على ما يعتقد هو مصدر الحروب. فالشعور بالانتماء لأمة ذات حظوة أو بامتلاك «العقيدة الصحيحة»، برر الأشكال غير المعقولة من الوحشية والخبث وأفادت بانتظام كحجة من أجل استغلال الشعوب المهزومة أو المستعمرة بلا رحمة.

وعلى الرغم من الكثير من الضلالات والانتكاسات يبدو في التطور الإنساني

وجود تحرك نحو التفاهم المتدرج للمخلوقات الزائفة، لتهديم التناقضات الطبقية والطائفية، ونحو التسامح الدمقرطة Democratization. وتعلن الأديان العالمية وحركات التنوير والاشتراكية أن هدف التاريخ يتمثل في رؤية الأخوة العالمية، على الرغم من أنه قد حصلت مواجهات متوحشة في الخلاف حول من هو الممثل الوحيد للطريق الحقيقي نحو الخلاص. فالانغلاق تجاه الغرباء يبدو لدى الأفراد والجماعات على علاقة مباشرة مع قوة مشاعر الهوية. ففي تعاضد الجماعات المهددة غالباً ما تطورت بشكل خاص ميول رهابية من الأجانب xenophobia[1] من خلال بناء أسوار الحدود أو منع الكتابات الأجنبية أو تسلح عسكري غير محدود. وتبدو المخلوقات المتعادية أنها من حيث المبدأ تشحذ نفسها في مراحل الانتقال التاريخية أو الأزمات الاقتصادية، عندما يتم البحث عن «المسؤولين» عن الزعزعة الداخلية والضيق الخارجي. وفي مثل هذه الحالات يفسح المجال للديماغوجيين[2]، لتهييج التناقضات الأخلاقية والدينية التي كانت متخفية لفترة طويلة. وبلغة التحليل النفسي فإنه سرعان يتحول عندئذ الميل نحو الإسقاط إلى التماهي الإسقاطي: فالمرء لا يطلق الشر من داخله فحسب وإنما يشعر أنه مهدد من الشر المسقط، وعليه أن يتحصن، وأن يضرب في الأول كي لا يتم تدميره هو

(1) رهاب الأجانب.

(2) الديماغوجية (تحريض الجماهير) بالمعنى المستخدم اليوم القدرة على كسب تعضيد الناس ونصرتهم عن طريق استثارة عواطفهم واللعب بأحاسيسهم ومشاعرهم وليس عن طريق الحوار العقلاني معهم، والديماغوجي هو الشخص القادر على الوصول إلى السلطة السياسية مستخدماً مهاراته الخطابية ، حيث يستطيع أن يتحكم في انفعالات المستمعين إليه وأن يدفعهم إلى التحرك في الاتجاه الذي يريده هو بالرغم من وجود اعتبارات كثيرة موضوعية ترجح عدم التحرك في هذا الاتجاه ، ويرى العديد من المفكرين أن الديماغوجي لابد أن يكون متصفاً أصلاً بصفات كاريزماتية وبصفات قيادية ، وأن يكون شديد الثقة بنفسه وقادراً على أن ينقل ذلك الشعور بالثقة للآخرين بحيث يظهر لهم وكأنه مقتنع تماماً بصدق ما يقوله لهم رغم علمه التام بزيف ما يدعيه ، ودائماً ما يعزف الديماغوجي على وتر قدرته على الرؤية المستقبلية لأخطار تحدق بالشعب ولا يستطيع أن يراها ، فيدعو الناس للتكتل وراءه ليحارب بهم قوى الطغيان التي يعلم دونهم أنها تحاول قهرهم والسيطرة عليهم ، والديماغوجي يكون دائماً مهتماً بالوصول إلى السلطة أكثر من اهتمامه بالصالح العام ، ومن ثم يكون مستعداً دوما لتبني سياسات ذات عواقب وخيمة بالنسبة للشعب إذا ما كانت هذه السياسات ستحقق هدفه الشخصي في الوصول إلى السلطة أو البقاء فيها .

نفسه. ومن المؤكد قد يكون الفاعل في العدوان في حروب الاحتلال والحروب التجارية عدوان أداتي موجه أكثر، في حين في الحروب الأهلية والمواجهات الدينية يكون الفاعل أكثر هو الخوف من فقدان الهوية والإسقاط المشحون بالكره. ولكن إذا ما بدأ لولب العنف والعنف المضاد بالدوران تختلط عندئذ مشاعر التهديد اللاعقلانية مع الكره المتراكم والصراع حول المكاسب الاقتصادية لينتهي بإفراط هذياني من التهديم واللاإنسانية.

في أشد نتائجها رعباً انتهت المخلوقات الزائفة في أوقات الأزمات مرة تلو الأخرى إلى أن داس تعظيم الذات النفاقي والكذب وتشويه الواقع على قوى المنطق والتسامح وتنتهي الإنسانية عند حدود الجماعة الخاصة. ومن المميز أنه في المواجهات القتالية يتم بوساطة الدعاية إنكار كل الصفات الإنسانية عن الجهة المضادة. فالعدو، بغض النظر، عما إذا كان الأمر يتعلق بالنساء أم بالأطفال أم كبار السن، يتحول إلى فئة ينبغي محاربتها، بقعة قذرة في منظار العدسة المقربة، حشرة ينبغي سحقها صناعياً أو مجرد هدف استراتيجي في برنامج توجيه الصواريخ الذاتية. فيقتل المرء من دون أي وعي بأنه يقتل عضواً من نوعه هو. ويتحدث إيركسون عن توليف خطير «من التخصص التكنولوجي (بما في ذلك كل التسلح)، والعفاف righteousness الأخلاقي وما يمكن أن نطلق عليه إقليمية الهوية Territoriality of Identity، والتي بمجموعها تجعل من الإنسان ذئب لأخيه الإنسان[1] hominem hominis Lupus بصورة أسوأ مما هو الأمر عليه بين الذئاب مع بعضها. إذ أنه إذا ما استحوذت على الإنسان هذه التركيبة من التسلح القاتل والنفاق الأخلاقي وهلع الهوية، فإنه لن يعود في وضع فقدان الشعور كله بالانتماء للنوع فحسب وإنما أيضاً ينقلب بتوحش ضد الجماعات الأدنى الأخرى، وهو أمر غير مألوف في العالم الاجتماعي للحيوان» (1981، صفحة 313).

(1) رؤية ميكيافللي وهوبز للإنسان (الإنسان ذئب لأخيه الإنسان) وهي رؤية طورها داروين واستفاد منها ماركس، وهي الرؤية التي سيطرت على العلاقات الدولية والإنسانية، وعلى اقتصاديات السوق، سواء على المستوى المحلي أو المستوى العالمي.

ويظهر التاريخ المقبض للاستعمار والإمبريالية أن الأنواع التي وقعت تحت سيطرة أنواع أخرى لم يتم تبخيسها من خلال الأحكام المسبقة فقط، وإنما ظلمت كذلك تعليمياً وقانونياً وسياسياً. ويرى إيركسون أن علاقات السيطرة غير المتعادلة قد تحولت إلى مزمنة من خلال حقيقة أن الناس المذلولين يميلون للتماهي مع دورهم السلبي: «فالفرد الذي ينتمي إلى أقلية مقموعة ومُستَغَلَّة والمدرِكة للمثل الثقافية السائدة، ولكنها ممنوعة من أن تحذو حذوها، يميل إلى مزج الصور السلبية التي تسندها إليه الأكثرية المسيطرة مع الهوية السلبية المألوفة في مجموعته الخاصة» (1981 «أ» صفحة 318). وغالباً ما يظهر الناس المُستَغَلّين أمام أولادهم بلا قيمة، حيث يفتقدون من خلال ذلك إلى نماذج حافزة للتماهي ويحدث ما يشبه التوريث للهويات السلبية عبر الأجيال. ويذكِّر إيركسون بالأقليات الملونة في الولايات المتحدة الأمريكية الذين لم يتمكنوا بناء على التبخيس الداخلي الذاتي لأنفسهم إلا من التحرك ضمن المرتبة الأدنى من المجتمع الأمريكي. وقد تكرر تطرق الكتاب السود في خمسينيات القرن العشرين للإحساس بحياة الحجب invisibility أو اللامسموعية inaudible أو الغفلية nameless وأصبحوا متحدثين باسم تشتت الهوية في حين أن كثير من الشبان الملونين وجدوا في العنف السطو المسلح بقية من احترام الذات.

وقادت مشاعر النقص وكره الذات الكامن لدى مجموعات القاصرين إلى كبح متجذر بعمق في الاستفادة من المساواة حتى عندما تم تقديم هذه المساواة في عمليات دمقرطة تدريجية. وعلى العكس: يمكن للمساواة الفجائية أن تفجر الغضب القابع منذ أجيال تحت الرماد بطريقة غير مضبوطة، بداية على شكل عداوات بين بعضهم، ولاحقاً على شكل عنف انتقامي ضد الأسياد السابقين. ويرى إيركسون أن معالجة الاستعباد الداخلي وتهديم كره الذات المنتشر diffuse وجعل الاتفاقات السرية (الصفقات deals) بين المقموعين وقامعيهم مدركة، أي ذلك الخليط من تأييد الحكم السلبي والمكسب الثانوي للمرض، الذي يسهم بانتظام الديناميكية اللاشعورية للعلاقة في علاقات سيطرة غير متوازنة، تعد جزءاً من التحرر الحقيقي. ولنتأمل في الوضعية الباسمة-

الخاضعة التي يبديها معظم العبيد الزنوج من أجل جعل وجودهم محمولاً. وبعضهم كسب بهذا الكثير من التأثير على أسيادهم البيض بحيث أنهم أحسوا بأنه لا يمكن الاستغناء عنهم. وهذه البقية من الهوية الاجتماعية واحترام الذات جعلتهم يقبلون بقناعة دورهم الأقل قليل القيمة .

واستناداً إلى كونراد لورنس وصف إيركسون التنوع الثقافي للأنماط الحياتية الإنسانية بوصفها «أنواع زائفة» للوجود الإنساني، وهو مفهوم بيولوجي يستخدم لظاهرة اجتماعية جوهرية بحد ذاتها، وربط بهذا المذهب نوع من الرؤية التاريخية ونظرية للهدمية destructivity الإنسانية. فالإنسان في وضعه الراهن يبدو بأنه مخلوق انتقالي، عليه أولاً أن يتعلم تنمية وعيه خارج إطار جماعته المرجعية الأساسية بالانتماء للنوع نفسه مع الناس كلهم. فعبر آلاف السنين القليلة التي ارتقى بها الإنسان –استناداً إلى التوقيت الكوني- بسرعة خارقة من صياد وجامع إلى مخترع للتقنيات العالية، نجم في هذه العملية التطورية تقدم مدهش. إلا أن الضحايا على هذا الطريق كانت كبيرة كذلك. وكجوهر الخلق الوحيد أصبح الإنسان مستعداً لاستغلال أفراد جنسه أو تعذيبهم أو قتلهم. ومن المؤكد أنه لا يوجد بالنسبة لهذا الميل للتهديم تفسيرات وحيدة البعد. إلا أن إيركسون يرى سبباً أساسياً يكمن في نقص الوعي بالانتماء إلى النوع نفسه، الذي يعطل في الحالة المتطرفة آخر عتبة من الكف للتعذيب والقتل.

وبصورة مختلفة عما هو الأمر لدى فرويد الذي تحول في النهاية بسبب همجية الناس بين بعضهم البعض إلى متشائم الثقافة، فإننا نلمح تجود تفاؤل حذر لدى إيركسون. فهو يقر إضافة رؤية مستقبلية، تصور عن شعور عالمي بالتضامن بين الناس جميعاً، أخلاق كونية، تنسيق عالمي للسياسة في حل المشكلات العالمية، بحيث يتم إنجاز مقدار من العدالة والرخاء على هذه الأرض، يعد كل طفل مولود حديثاً بوجود يليق بالبشر. ويعتقد «بأن القوة الدافعة potential الأشمل والأكثر تشبعاً للهوية في العالم الراهن هو القدرة التقنية» (1981 «أ»، صفحة 332)، وربما لا يمكن حل المشكلات المستقبلية الجبارة على أعتاب الألفية القادمة إلا من خلال تنسيق الجهود التقنية والطبية والبيئية.

لم يكن التقدم في التفاهم العالمي في يوم من الأيام كبيراً مثلما هو في هذا القرن. ومن ناحية أخرى لم ينمو كذلك في يوم من الأيام مثل هذا التنافس القاتل بين الأنواع الزائفة المتعادية مثلما هو الآن. فالتقنية نفسها التي أتاحت اليوم تواصل شامل للعالم كل، فإنها من ناحية أخرى توجه الرؤوس الحربية للصواريخ النووية. فإذا ما استمرت الأنواع الزائفة بالمضي من دون مراعاة مسؤوليتها العالمية في تأكيد مصالحها بصورة أحادية الجانب ، ومحاربة بعضها البعض وإخضاع بعضها البعض بعنف، يتهدد خطر الكارثة النووية أو البيئية. فقبل حركة السلام والبيئة بوقت طويل لسبعينيات وثمانينيات القرن العشرين أصبح إيركسون من المنذرين الكبار بالانقلاب. ففي تاريخ الإنسانية لابد بإلحاح حصول تحول في الوعي: خطوات نزع السلاح وتفكيك علاقات السيطرة الاستبدادية ودمقرطة عامة وتوازن بين الاقتصاد والتبيؤ والحوار بين الأمم الصناعية والعالم الثالث. وعلى الناس القيام بمسؤولياتهم المشتركة عن الإبداع، أن يودعوا أنانية الجماعة أحادية الجانب والابتعاد عن «نظريات التاريخ الساذجة» التي ترى أن كل مصائب العالم سببها الشعوب أو الإيديولوجيات الأخرى «الشريرة».

وفي اللحظة التي لم تزل فيها سيادة المنطق غير متشرة كثيراً من أجل استخدام التقنيات العالية بمسؤولية كاملة، فإن الإنسانية واقعة في مرحلة حرجة. فبعد نهاية المواجهة بين الشرق والغرب تتهدد التناقضات الدينية والقومية بالاشتعال ثانية، وتداس حقوق الإنسان في كثير من دول العالم بالأقدام. وتدل الصور المرعبة عما يسمى «التنظيف العرقي» أو إرهاب الأصولية الدينية على الانتكاس إلى الأشكال الأسوأ من اللاتسامح والخرافات. ولا يمكننا في هذا الوقت إلا وأن نخمن ما لذي سيحدث لو تم التعبير عن صراعات الهوية تلك بالأسلحة الحديثة.

3.4 التطقيس الاجتماعي

تقصد أبحاث السلوك بمفهوم «الطقس Ritual» الشعائر الاجتماعية الغريزية المحددة بتاريخ النوع لدى الأنواع الحيوانية، من نحو طقوس التحية والحب الغنية

بالخيال بصورة كبيرة بين الذكر والأنثى أو شعائر الصراع الذكية بين متنافسين. وعلى الرغم من أن السلوك الاجتماعي الإنساني أكثر مرونة بصورة متنوعة ويصعب التنبؤ به، توجد هنا أيضاً تطقيسات متنوعة، تدعم بصورة غير ملحوظة الشعور الشخصي والجمعي بالهوية(iv). وفي هذا الأمر لا يفكر إيركسون بالدرجة الأولى بالشعائر الاحتفالية أو الاحتفالات الفخمة . بل أن ما يهمه هو مئات العادات المألوفة للحياة اليومية، «العادات اليومية المتكررة بطريقة لعبية، المعبرة بدقة» (1978 «ب» صفحة 64)، التي تجلب للسلوك الاجتماعي السلاسة والروتين. فالطقوس تيسر مجريات العمل وتنظم الحياة المشتركة في الأسرة والجماعات والمؤسسات، وتحدث في مناسبات معينة دائمة التكرار بما يشبه الارتكاس. بالإضافة إلى ذلك فإنها تمنح الانفعالية شكلها. وغالباً ما يتم التعبير عن التقدير أو الحزن أو الغيرة أو الحماس الديني عن طريق الطقوس ويمكن أن تثير مشاعر قوية. ولنتأمل في رثائيات دعاء الموت اليهودي أو روعة الطقوس الدينية الكاثوليكية أو فرحة عادات الزواج الثقافية المختلفة. الطقوس تحقق الترابط والتآلف بين الناس، وتؤثر بصورة مضادة للمشاعر المتناقضة والاغتراب ومن ثم فهي بالنسبة لإيركسون «عضو ربط مهم بين نزوع الأنا نحو التوجه في الزمان والمكان ورؤى العالم....، التي تسود مجتمع ما» (1978 «ب»، صفحة 67). وكلما كان مجال السلوك أكثر جوهرية بالنسبة للجماعة، كان الطقس أقرب ليتحول إلى شعيرة مفيدة محددة بدقة في مجراها، تثير لدى المشاركين رعشة انفعالية.

وفي المناطق المقيدة بشدة بالتقاليد ما زالت الطقوس حتى يومنا هذا جزءاً من العادات، وتحدد المظهر أو الملبس أو التعبير عن المشاعر بشكل خاص في المواقف الحدودية للوجود (طقوس الولادة أو الزواج أو الموت) أو بأعياد الدورة السنوية. وقد حققت كل الأنواع الزائفة في مجرى تاريخها تطقيساتها الخاصة ritualization وكان الحفاظ على الطقس مطلباً ملزماً لمخطوطة التقاليد والأخلاق المشتركة. وغالباً ما حسمت الفروق الصغيرة في السلوك الانتماء لشعب من الشعوب أو لطبقة ما أو لطائفة، في حين استثارة أشكال التعامل الغريبة من نحو عادات الطعام المختلفة أو التعاليم

الوقائية الاستغراب. وعلى الرغم من أن أنه في عصر التواصل والتعاون العالميين قد انصقلت الكثير من التقاليد الرابطة فما زلنا متأثرين برسوخ العادات السلوكية بمحيط ثقافتنا إلى درجة أننا غالباً ما نعدها النوع الوحيد الممكن من الوجود الإنساني ونتساءل لماذا لا يتصرف الجميع مثلنا. ولنتذكر الصعوبات التي يواجهها الأوروبي في التلاؤم مع أشكال اللباقة اللطيفة جداً ومحرمات بلد شرقي[1].

ولا ينظر إيركسون للطقوس بأي شكل من الأشكال على أنها مجرد قوالب نمطية مجرد معطاة. بل أنها «لعبية ومع ذلك فهي شكلية؛ فهي تصبح مألوفة من خلال التكرارات إلا أنها تبدو دائماً مليئة بالمفاجآت» (1988، صفحة 55). فالطقوس بين المحبين على سبيل المثال تتطابق مع رؤية ثقافية محددة؛ ومع ذلك تتجلى في التعابير والنظرات، وفي الغزل والاتصال الشهواني حالة من الارتجال improvisation الشخصي، تجعل من السلوك لايبدو جامداً وغير انفعالي.

ويعتقد إيركسون أنه «يتم جعل الطفل متآلفاً مع الطقوس» (1978، صفحة 46) منذ البداية. ففي الأسلوب الذي تستجيب فيه الأم للرضيع، وتطعمه وترفعه ثم تلقيه ثانية، تتحدد عادات ثابتة. والمقابلات الدورية مع الأم تثير لدى الطفل الشعور بالتبادلية المألوفة، وتجلب حالة من الانتظامية في عالم الأحاسيس المشوشة وتسمح بهذا بتحديد واسع للذات عن العالم الخارجي. وهذا الاعتراف الأمومي المطوقس ritualizatc هو الشكل الأبكر والتعزيز الابتدائي لشخصنا، وينشئ شعوراً بالألفة والمشاركة الوجدانية، بالشكل الذي يفترض لها أن تعود للظهور فيه في كثير من طقوس الترحيب والتعبير عن الصداقة في الحياة اللاحقة (النظر في عيون الآخر، العناق، التقبيل). ويرى إيركسون نجاح تربية ما تتعلق بصورة أساسية بأن يترعرع الطفل في طقوس مقنعة لأسرته وجماعته الثقافية. وبالتحديد لأن الدوافع الإنسانية ليست مقيدة بأنماط غريزية، وينبغي تقنينها في الطقوس الاجتماعية، التي تمثل مانحاً للشكل –وفي في الوقت نفسه

(1) أو العكس.

كبح-للطاقات السيرورية الأساسية ومن ثم تدعم الأنا توكيد مبدأ الواقع ضد هيجانات الهو. ولنتذكر عادات الطعام والشراب لثقافة ما، أو التقاليد التي يتم من خلالها تنظيم الاتصالات الجنسية بين الرجل والمرأة أو الأعراف وأشكال اللباقة التي يجوز من خلالها التعبير فيها عن العدوان. ويمثل التطقيس بالنسبة لإيركسون بالمعنى الأمثل «التشكيل الإبداعي Creative formalization. تساعد سواء على كبح الفيض النزوعي أم على تقييد الذات القهري، وعلى كبح الشذوذ الاجتماعي وكذلك في الوقت نفسه القمع الأخلاقي» (1978 «ب»، صفحة 66). وحتى في المواجهات العدائية كان ومازال هناك نوع من الطقس الكابح (تاريخ المبارزة، قواعد الروح الرياضية محددة في إدارة الحرب)، في حين علينا التحدث في حال الخرق المتطرف للهدمية الإنسانية في المذابح والمجازر عن نزع مطلق للتطقيس total De-Ritualization.

وبالطبع يمكن للطقوس أيضاً مثلها مثل كل الاختراعات الاجتماعية كلها للإنسان، أن تنحرف نحو المرضية، ودائماً هناك حيث تتم التضحية بالروح في سبيل النص، تفقد الطقوس وظيفتها المحررة المنمية للجماعة وتتجمد في «تطقيس» مرضي كما يقول إيركسون. ففي الاتصالات الأولى للمولود الجديد بالعالم يمكن أن يتأذى الاستعداد للتطقيس بشدة أو يدمر كليه. فإذا ما كان الحوار مع الأم غير كاف أو غير موجود على الإطلاق، يستجيب الرضيع بتكرار لانهائي ويائس من الإيماءات النمطية. فالتكشيرات الغريبة grotesque grimace وطريقة الفصامي أو الاستحواذات المستنزفة بشدة للوقت عند العصابي القهري تستهلك طاقات جبارة في تصرفات لا معنى لها، تشوه بالذات الاتصال الباعث على الرضا بعالم العلاقات والمشاعر. وحتى طقوس الحياة العامة يمكن أن تصبح جامدة وخالية من المعنى، وذلك عندما تصبح لعنصر قهري - شكلاني formalistic اليد الطولي وبالتالي يخنق العمل الاجتماعي المشترك والإحساس بالمس الانفعالي. وتختزل القناعات الدينية الورعة إلى تصرفات قهرية ميكانيكية أو المراسم السياسية إلى تمثيليات سطحية. وتستغل الأنظمة القهرية الاستبدادية كالفاشية بانتظام الطقوس بطرقة هدامة. فالمسيرات المخرجة بإتقان أو التقديس المثير للشجن pathetic

للأموات أو الأشكال التعصبية لتقديس القائد تفرخ جواً من المبالغة الهذيانية بتقدير الذات وتوجه بشكل منهجي الكره نحو الخارج إلى الأقليات ومخالفي الرأي.

لقد سعى إيركسون وبصورة عميقة لفهم طبيعة وتطور الاستعداد الإنساني للتطقيس بصورة أقرب. لأنه يعتقد بأن كل طقس مبني من سلسلة من المركبات الأساسية - والخلل الوظيفي المطوقس المطابق-، تبدو جذوره كامنة في الصلة بمراحل دورة الحياة.

فالمراسم الاحتفالية من نحو الأشكال الفخمة من الطقوس الدينية، ترفع المرء من واقع الحياة اليومية وعلى ما يبدو تحيي المشاعر الأبكر من عمر الرضيع، ذلك الإحساس النرجسي القديم، بالاختيار كمخلوق وحيد من قوة طيبة وبالانصهار في الوقت نفسه بانسجام مع المحيط. ويتحدث إيركسون عن «العنصر الخارق للطبيعة numinous Element» للطقس. أما الخلل الوظيفي المطابق فهو «التأليه Idolism» ، حيث تحل الأشكال التعصبية العمياء من الخضوع أو التملق غير الأصيل مكان الاحترام الحقيقي، كما هو الحال على سبيل المثال في العبادة الوثنية للقائد في الدول الاستبدادية.

ثم أنه لا يوجد أي طقس لا يفرق بشكل ما بين الخير والشر، بين المسموح والممنوع. ويطلق إيركسون على هذه المركبات التقويمية «العنصر القضائي juridical Element» للطقس ويصنفه ضمن المرحلة الثانية من دورة الحياة، حيث يتم تنظيم وتقييد الإرادة الجامحة للطفل الصغير من خلال تعاليم الوالدين. وأكثر ما يتضح هذا المظهر في الطقس العام لعملية العقوبة، حيث يتم التقرير حول الذنب أو البراءة عبر صيغة منظمة بدقة. والخلل الوظيفي المقابل للحالة القضائية هي «النصية[1] legalism»، التمسك الأخلاقي (والسادي على الأغلب) بفضيحة وعقاب المتهم وكذلك مساعيه الإفلات من خلال استعراض الندامة الفارغة.

(1) التقيد الحرفي أو المفرط بالقانون أو بشرع ديني أو أخلاقي.

وهناك أيضاً «عنصر درامي Dramatically Element» ينتمي للطقس، يظهر بشكل خاص في المناسبات الاحتفالية أو الاستعراضات العسكرية أو المسيرات، حيث تتم ممارسة الوظائف والأدوار بانفعالات pathos احتفالية. ويعد المسرح والفيلم هما المكان الذي يتم التعبير في تمثيل راشد عن الصراعات الأساسية النموذجية للحياة بتكثيف دراماتيكي. وهنا يرى إيركسون تشابهاً مع سن اللعب في السنة الرابعة والخامسة من الحياة، التي لم يكن فرويد على خطأ في إطلاقه عليها تسمية دراماتيكية. أما التطقيس المطابق فهو ذلك «التمثيل» غير الأصيل غير الملزم بالشكل الذي يمكن ملاحظته في الاستعراضية السطحية للمشاهد الهستيرية.

وكلما كان الطقس أكثر احتفالية، كان لابد له أن يسير وفق تصويرة Schema أكثر دقة، لا يفسح مجالاً للانحراف والارتجال Improvisation. ويتحدث إيركسون عن عنصر تطقيس «الإنجاز الطرائقي methodical achievement» ويصنفه ضمن سن التعليم الأساسي، حيث يطلب من الطفل للمرة الأولى في الحياة المدرسية الانضباط والنظام. والخلل الوظيفي المطابق هو «الشكلية formalism» التي تتمثل في النزعة نحو الكمال الذي قد يصل إلى استعباد الذات، وهو ما يهدد بخنق العفوية وغنى الأفكار في التصرفات الخاصة والحياة العامة.

والطقس يثير التضامن والمشاركة، ولكن فقط بالنسبة للمشاركين والمنتمين إلى ذلك. ويطلق إيركسون على هذه الاقتصارية exclusivity في تطبيق الطقس حالة «الإيديولوجي Moment of Ideological». وتمتلك هذه الحالة صلة قوية بخبرة الشباب، التي غالباً ما تفرق بصورة متطرفة بين اللطيف والصاد، المنتمين والغرباء. ويمكن لحالة تحديد الذات أن تنقلب بسهولة إلى الخلل الوظيفي «للاستبدادية»، أي الرفض الأعمى المشحون بالكره للناس والجماعات الأخرى التي تبدو بأنها تهدد مشاعر الهوية الذاتية.

فما هو الإسهام الرئيسي لحياة الرشد في منشأ التطقيس؟ يعتقد إيركسون بأنها قدرة

الراشد على أن يصبح نفسه جامعاً للطقس والتوصيل للجيل الناشئ مجموعة من أنماط السلوك الراسخة بطريقة مقنعة. إنه يتحدث عن عنصر التطقيس «التوليدي» «generational Ritualization element»، كل تلك الأشكال التي يمارسها فيها الراشدون سلطتهم في دور الوالدين أو المعلم أو المدير أو الطبيب بطريقة مقنعة. لقد استندت السيطرة الذكورية على السلطة المطوقسة منذ القديم. ولنتذكر هالة التقديس التي أحاط بالملوك أو الرؤساء أو الأنبياء أو العرابين، والتي سرعان ما انقلبت إلى «سلطة مستلِبة بشكل مقزز» غير أصيلة في كل أشكال الممارسة بدءاً من دوجماتية شديدة التدقيق وانتهاء بالقمع الاستبدادي.

وكواحد من أوائل المحللين النفسيين لفت إيركسون الأنظار إلى مدى القوة التي تتعزز بها مشاعر الثقة والهوية عند الإنسان وصولاً إلى عمق طبقات اللاشعور من خلال الطقوس الخاصة والعامة، وذلك ليس فقط في مراحل النمو الهشة من الطفولة فحسب وإنما عبر دورة الحياة ككل. وهو ينطلق في هذا الموضوع من أبحاث السلوك أيضاً ويستخلص تطابقات ليست خالية من الإشكالية بين أنماط الغريزة للأنواع الحيوانية العليا والسلوك الاجتماعي الإنساني. ويبدو الميل للتطقيس لدى إيركسون، حتى وإن كان متأثراً ثقافياً وفردياً، متجذر في الذخيرة الوراثية للإنسان. ولكن فيما إذا كان الأمر هنا يتعلق بمواصلة تطورية للطقوس الحيوانية أم لا فهذا ما لا يمكن برهانه. وبحب كبير للتفاصيل يشرِّح إيركسون الطقس إلى مركبات مختلفة مع اضطراباته المطوقسة المطابقة. إلا أنه علينا هنا التساؤل فيما إذا كان يحاول بشكل صنعي إلى حد ما في بعض الأحيان تصميم تقارب صنعي مع نموذج دورة الحياة. ومن المؤكد أنه يمكن ملاحظة العناصر التي ذكرها إيركسون، مرة في شكل قوي وأخرى في شكل أضعف، في الطقوس للإنسانية. إلا أن الافتراض بأن الطقس يتكون من هذه العناصر فقط وأن هذه المراحل فوق ذلك تتجذر في مراحل دورة الحياة، فإن الأمر مجرد افتراض. وعلى الرغم من أن إيركسون يمس المنشأ المرضي الاجتماعي للتطقيس، إلا أنه يميل أقرب لإبراز الوظيفة المنمية للمشاركة للطقوس. ولا يجوز أيضاً إهمال أن الكثير من الطقوس

العامة والخاصة تدفن الأصالة والعفوية وتجعل وتجعلها تغرق في روين قاتل للروح، وأن المؤسسات من نحو التدريب العسكري يمكن أن يدفع الوحدات العسكرية الخاصة إلى القتل الآلي.

ومن السهل للمرء أن يفكر في هذا الموضوع بطريقة استرجاعية nostalgia بالتقاليد الراسخة للثقافات البدائية أو المجتمعات الطبقية الأرستقراطية أو المجموعات العرقية ذات التقاليد الذاتية القوية. وبالنظر إلى التحول السريع للمجتمعات الصناعية الحديثة والاختلاط المتزايد باستمرار للثقافات فإن الطقوس غالباً ما تتهذب أو تبدو خالية من المعنى. وذلك الذي يتم استحضاره في وسائل الإعلام بأشكال متنوعة بوصفه «الوعي الوطني» أو ما يبيعه المستثمر السياحي على أنه «الفلكلور الأجنبي»، لم يعد قادراً على توصيل قوة إقناع عادة مجربة عبر أجيال عدة. ومن ناحية أخرى، يرى إيركسون، أنه يمكن ملاحظة ميل للتطقيسات العفوية، المخلوقة ذاتياً، وبالتحديد في سلوك الشبان الراهنين، الذين قلما زالوا مرتبطين بتقاليد داعمة. ففي اللباس والحركات وطريقة الكلام يصنع الإنسان «أسلوبه» الخاص، «مشهد» يمنح الثقة والانتماء. وما يحدث في أيامنا هذه في المجموعات المتطرفة المستعدة للعنف والرجعية من عودة الاهتمام بتقاليد غريبة من العصور الحالكة، ينبغي أن يثير القلق. ومن الصعب يحدد التي ساعد فيها الميل للتطقيس، الذي ساعد بالأصل بقوة تعاضد أنواع زائفة خاصة exclusive، سلوك الناس في عالم المستقبل المتزايد التقارب باطراد.

3.5 الاستهداد

وحدها كوارث القرن العشرين وصور جبال الجثث والمدن المدمرة تدفع للتساؤل فيما إذا كانت لا منطقية الإنسان هي بالفعل عامل خلل[1] لا يمكن السيطرة عليه في الحدث الطبيعي. وليس صحيحاً أن إيركسون لا يرسم إلا صورة متناغمة للتنشئة

(1) متغيرة دخيلة في لغة البحث العلمي.

العملية الناجحة. ففي كثير من ملاحظاته وبشكل خاص في مقالته «حول الاستبدادية About Totalitarism» درس منبع وجوهر السلوك الاستبدادي، الذي يتم فيه تعطيل الميل للتنظيم المتبادل والتطقيس الكابح للعدوانية كلية على الأغلب(٧).

كيف يمكن أن يحدث أنه عند انفجار حرب أهلية ما أن تقوم جماعات من الشعب، عاشت حتى الآن مع بعضها بسلام عبر أجيال بقتال بعضها فجأة وكأنها أعداء لدودة لبعضها البعض.؟ فما الذي قد يكون الأمر الحاسم في أن أمة تبدو متنورة كالألمان كانت مستعدة للسماح لنفسها بالعدوى بشعارات بدائية لمتعصب عرقي؟ يوجد حتى اليوم عدد كبير من محاولات التفسير الطبي النفسي والعلم نفس أعماقي للاشتراكية القومية أو شخصية آدولف هتلر على سبيل المثال، التي انطلقت في الغالب من نموذج أساسي مرضي. أما إيركسون فلا يريد بالمقابل النظر للاستبداد على أنه نكوص إلى هذيان جماعي أو عزوه إلى مرض عقلي (من نحو البارانويا على سبيل المثال) أو إلى بنية طبع معينة (من نحو الشخصية «السلطوية»). فهو يرى أنه يكمن خلف الخبرة والتصرف الاستبداديين تبادل بين حالة من الكلانية النفسية entireness في حالة من الوحدة النفسية psychical Totality، بالشكل الذي يمكن أن تظهر فيه (أي الحالة) متكررة في مزاجنا اليومي. ويرى إيركسون أن «الكلانية تبدو في الوقت نفسه وكأنها تعني تجميعاً من أجزاء، حتى من أجزاء شديدة التنوع، تظهر في الجماعات والمنظمات المثمرة. وعليه فالكلانية كبنية تُبرز تبادلية متقدمة، عضوية، سليمة بين وظائف وأجزاء متنوعة داخل كلٍ، حدوده مفتوحة وسيالة. وعلى العكس من هذا فإن الاستبداد يوقظ بنية يتم فيها التأكيد على المحدودية المطلقة: فبالنظر لرسم محدد وتعسفي للحدود لا يجوز لما ينتمي للداخل أن يترك في الخارج ولا يجوز لما ينبغي له أن يكون في الخارج أن يترك في الداخل. فالاستبدادية totality هي شمولية بالمطلق كما هي استقصائية بالمطلق، بغض النظر فيما إذا كانت الفئة التي يتم جعلها مطلقة هي فئة منطقية أم لا وفيما إذا كانت الأجزاء المكوِّنة تمتلك بالفعل صلات مع بعضها أم لا» (1981 «أ»، صفحة 80).

وعلى ما يبدو فإن الكلانية تمثل حالة نفسية متوازنة أكثر نضجاً. فالمرء يستطيع النظر لنفسه وللآخرين وتحملهم بكل التنوع والنقص. فإذا ما هددت بالمقابل المخاوف والنزوعات الدافعية القديمة بإغراق الأنا من الداخل أو شعر المرء بأنه مهدد بمخاطر حقيقية أو مخمنة من الخارج، فلابد من تثبيت التوازن النفسي من خلال انقسامات متطرفة. فيبدأ المرء بخبرة نفسه وجماعته على أنها خالية بالمطلق من التناقضات و«خبرة»، ويشعر أن كل شيء سلبي، مسبب للقلق على أنه قادم من الخارج، من الأعداء أو من الذين يختلفون عنه في المعتقد أو من أعداء الجماعة. وينجم التقسيم المتطرف الذي تشترك فيه كل العقائد الاستبدادية، إلى خير وشر، صديق وعدو، طاهر وغير طاهر، المتحررة من عبء التفكر التسامح. ومنذ تلك اللحظة لا يعود الطريق بعيداً جداً عن النزوع البدائي نحو عزل ممثلي الشر أو تهجيرهم أو استئصالهم كلية، من أجل التخلص بهذا من كل الشر في العالم بضربة واحد.

لقد أظهر التحليل النفسي مدى قوة سيطرة الميل للاستجابات الاستبدادية على الحياة النفسية للطفل. فبشكل مفاجئ كلية يمكن للأمزجة أن تنقلب: فلنتأمل بالقلق المطلق للرضيع من الغريب، الوجه «الشرير»، أو التمسك المتطرف للطفل الصغير بوجود حيوان من الصوف أو نوبات العناد التي لا يمكن التأثير بها بأي شكل في المرحلة الشرجية. كما يميل الراشد في نوبات غضبه وأحكامه أو أحكامه المسبقة أو تقديساته لنكوص مؤقت إلى أساليب خبرة استبدادية: مشاعر نقص مدمرة بعد الفشل، الكره المتطرف للشريك السابق الذي يتم تحميله مسؤولية تعاسة الحياة الخاصة أو التبجيل الأعمى لحزب سياسي. كما نلاحظ الميل للتقسيم الأسود-الأبيض للعالم كموقف معتاد في كثير من اضطرابات الشخصية الباكرة. فالمرضى الحدوديون لا يستطيعون تحمل أي تناقض في علاقاتهم الوثيقة، ويتأرجحون بين تقديس أعمى وتبخيس متطرف للآخرين، في حين يلجأ المتعصبون من كل الأطياف إلى استئصال أشواك الشك الإيماني اللاشعوري من خلال مزيد من الخضوع الأكثر تطرفاً لسلطة مقدسة تقديساً أعمى.

ولكن كيف يحصل نكوص دائم إلى عوالم استبدادية من الأفكار لدى جماهير

واسعة، إلى درجة يصبح المرء ميالاً نحو الحديث عن نوع من الجائحة النفسية؟ إنها على ما يبدو لحظات الانتقال الكبرى من التاريخ - يتحدث إيركسون عن «فراغ الهوية Identity-Vacua»، التي تولد الاستعداد لمثل تلك الحالات المتطرفة. فدائماً عندما يتم التشكيك بالتنظيمات السياسية القائمة بصورة شديدة أو يتم التغلب عليها بشكل سريع جداً - الانهيار المفاجئ لمجتمع طبقي، التصنيع المتسرع لبلد نام-، يسهم هذا في زعزعة الهوية لدى طبقات واسعة من الشعب. وتمتزج المخاوف الواقعية من تهديد الوضع الاجتماعي الخاص أو انحلال القيم المانحة للدعم مع مخاوف الطفولة متحولة إلى مزاج هلع مهدد بصورة خفية. فإذا ما أضيفت إلى ذلك أزمات اقتصادية فإن الغالبية العظمى من الناس تصبح مستعدة للعدوى بالشعارات التعصبية. فإما أن يريد المرء الدفاع عن النظام المُهَدَّد ضد التحديث، كما هو الحال في العودة إلى الأصولية الدينية المتعصبة، ويعيش كل العقليات التقدمية على أنها معتد مهدد للمناقب الخاصة التي أصبحت هشة. أو يتلاءم المرء كلية مع اتجاه انقلابي، كما هو الحال في الثورات الدموية للتاريخ، يعد بالخلاص من خلال استئصال متطرف للتنظيمات والسلطات القديمة.

لقد درس إيركسون الاستبداد بشكل خاص من خلال التطور الوخيم لبلده. فانهيار التنظيم الاجتماعي الأرستقراطي الممتد لقرون خلّف في ألمانيا القرن العشرين بالإضافة إلى إهانة خسارة الحرب شك جذري في قوة الديمقراطية الناشئة حديثاً. وعندما ترافق التضخم والبطالة الجماهيرية عن العمل مع الأزمات الاقتصادية الوخيمة، نمى التطلع نحو صورة أبوية ذات قوة جبارة. وطبقت عقيدة القائد الاشتراكي القومي - كما هو الحال في ديكتاتورية ستالين- فكرة الدولة المطلقة في الواقع. وللمرة الأولى توفرت لهذه الأنظمة تقنيات حديثة من وسائل الإعلام وإدارة الحرب والإبادة الجماعية، بحيث أصبح بالإمكان ارتكاب جرائم مخططة بدقة بصورة لم تكن معروفة مسبقاً على الإطلاق.

وذلك الذي أطلق عليه الاشتراكيون القوميون تسمية «التنظيم»، أي تسوية

القدرة الفردية على الحكم والنقد وتجميع كل القوى الاجتماعية في جهاز أوامر هرمي وحيد، يبدو مثالاً نموذجياً للدولة الاستبدادية. فلا يعود بالإمكان تحمل التنوع والنسبانية والضعف. ويعود المرء لمبادئ راسخة كلية، ويتماهى مع ذات كبرى («القائد» ، «الحزب»)، ويسقط القلق والهدمية كلية على الخارج على أعداء الدولة والطفيليات، التي يشعر المرء أنها تهدده بصورة غير منطقية. فتحصل إعادة ترتيب استبدادية لصور الذات. فتصبح عناصر الهوية السلبية القديمة حسب إيركسون هي المسيطرة كلية بمعنى «التوبة السلبية» (1981 «أ» صفحة 328). فتضيع التحفظات النقدية في خضم التصفيق الصاخب للمسيرات الجماهيرية. ويحل الضمير الجماعي محل الضمير الفردي إذا جاز التعبير، وهو ما يجعل الفرد مستعداً للمشاركة بالتصرفات الهدامة، والمتناقضة كلية مع مفاهيميه القيمية وأنماط سلوكه حتى الآن. وفي الواقع يبدو، كما يستنتج ألكسندر ميتشرلش (Alexander Mitscherlich,1977a)، أن التماهي مع الشعارات والحركات الجماهيرية يتناقض مع التشكل الشخصي للهوية، حيث يدور المرء لسنوات طوال، وغالباً تحت الشك والأزمات، حول موقف شخصي: فبدلاً من الحكم الشخصي المستبصر يحل الاستسلام الأعمى لأشكال بدائية من الأحكام المسبقة؛ وبدلاً من الظهور الواعي بالذات يحل الخضوع لطقوس جماهيرية مخططة بدقة؛ وبدلاً من التبصر والتسامح الرفض المشحون بالكره.

وعلى الرغم من أنه يبدو وكأن الاستبداد يسيطر على الناس بشكل مفاجئ، إلا أنه تبدو فيه تناقضات منكورة طويلاً مع التفريغ المفاجئ. وعلى الرغم من أن خبرة العالم الاستبدادية غالباً ما تبدو بالنسبة للمراقب الخارجي وكأنها هذيانية تقريباً، فإنه من الخطأ حسب إيركسون، النظر للحدث على أنه فقط آلية مرضية. وبالذات فإن الخلط بين أشكال التفكير المنطقي وغير المنطقي - من نحو وجود التشنيع السيئ والتحليل الحاد في خطابات غوبلز[1] إلى جانب بعضها على سبيل المثال جعل من الاستبداد خطير

(1) وزير الإعلام النازي في الحرب العالمية الثانية

بهذا الشكل. ومن المؤكد فإن فكرة جعل أقلية قومية مسؤولة عن كل الشر في العالم، هي إسقاط بدائي ولا تتناسب مع حالة المنطق المتنور، الذي حققته البشرية في هذه الأثناء. ومع ذلك فقد تم تأجيج الأفكار الهذيانية المضادة للسامية في آلة إعلامية شديدة المنطقية، وتم تطبيق الهولوكوست في الواقع بذكاء محترف بارد. ويخلص إيركسون إلى نتيجة مفادها: «أنه إذا ما تم فقدان الطبيعة الإنسانية بناء على انحرافات عن طريق الصدفة أو مرتبطة بالنمو للكلانية الجوهرية، فإنها ترمم نفسها والعالم من خلال الاستعانة بذلك الذي نريد تسميته بالاستبداد. وكما أشرنا، فإنه من الحكمة الابتعاد عن اعتبار هذا على أنه مجرد آلية نكوصية أو طفولية. إنه طريقة متناقضة، وإن كانت أيضاً بدائية في التعامل مع الخبرات ومن هنا فإنه يمتلك نوع من القيمة التلاؤمية والبقائية، على الأقل في الحالات العابرة. إنه ينتمي لعم النفس الطبيعي» (1981 «أ»، صفحة 80).

ومن هنا ينطلق إيركسون من الفرضية الأساسية «بأن الاستبداد يقوم على إمكانات إنسانية كامنة عالمياً، وبهذا متشابك مع كل مظاهر الطبيعة الإنسانية، السليمة والمرضية، الراشدة والطفلية، الفردية والبانية للمجتمع» (1981 «أ»، صفحة 76-77). إلا أنه لابد من إيقاظ هذه الاستعدادات من قبل الديماغوجيين في أوقات الأزمات السياسية. وضمن الشروط الاجتماعية الطبيعية ربما كان روبسبير [1] Robespierre سيظل فاضلاً Moralist معتدلاً، وتطور آدولف هتلر إلى معاصر غريب الأطوار بأفكار منحرفة. إنه التقاء تطور كارثي في الشخصية مع وضع تاريخي كارثي، هو الذي يبدو أنه يستحضر بشكل متكرر للمآسي السياسية الكبرى. ومن هذه الناحية فإن لابد حسب إيركسون من عدم أخذ الأفراد الخطيرين بعين الاعتبار فحسب وإنما أيضاً

(1) روبسبير مكسيمليان ROBESPIERRE MAXMILIEN 1758 -4179 أحد أبرز رجال الثورة الفرنسية قام بالقضاء على خصومه السياسيين، وبدأ بذلك عهد حافل بالإرهاب حيث كانت نتيجة أعماله القضاء على أربعين ألف (40,000) شخص.

الأوضاع التاريخية الخطيرة، وتقوية قوى التبصر والتسامح والمنطق، وبالتحديد عندما تتعرض روح عصر ما للتهييج.

وكمحلل نفسي يتساءل إيركسون عن الطريقة التي تجعل فيها الطفولة والشباب الناس مستعدين للاستبدادية، ويؤكد على ثلاثة مراحل نهائية، يكون فيها الشعور بالكلانية النفسية مهدداً بشكل خاص. ويذكر بالدرجة الأولى خبرات اللاحول والاغتراب المتطرفة للرضيع، القابعة في الطبقات الأعمق للروح في شكل ما يشبه المخاوف الذهانية من الذوبان أو العزلة أو الشر المتطرف. فإذا ما تم التشكيك بصورة متطرفة بالمحيط الاجتماعي المعاش لاشعورياً على أنه مرغوب أمومياً، فإن هذه المخاوف تهدد حسب إيركسون النفس بالغرق: «يمكن لكل مخلوق إنساني بين الحين والآخر أن ينكص في شكك جزئي، إذا ما تمت زعزعة عالم توقعاته حتى النخاع» (1981 «أ» صفحة 82). وكل أشكال التطرف أو الفاشية أو العنصرية، كما يستنتج بوليبر (Bohlcbcr,1992) وهايم (Heim,1992)، هي في النهاية آلية حماية لمنع المخاوف الوجودية العميقة من خلال الانقسامات المطلقة، من النوع الحدودي: فالجماعة الذاتية أو القناعات السياسية أو الدينية الخاصة تتحول إلى موضوع للخضوع الآمن كلية. فيتحد المرء مع موضوع مثالي أو عرق أو قائد أو أمة، ينكص إلى حالة الرضيع إذا جاز التعبير، الذي يمكنه أن يشعر في ثقة ما قبل متناقضة بالتمام والكمال بأنه في حمى «أم طيبة». وفي الوقت نفسه يتجلى الشكل القديم في غضب كلي تجاه أولئك الذين يهددون الهوية الذاتية الهشة لمجرد حقيقة كونهم مختلفين. وبما أنه لا يجوز أن يوجد شك على الإطلاق بالجماعة الذاتية أو بالقائد المؤله فلابد مراراً من تأجيج الكره نحو الغرباء في مسيرات جماهيرية ضخمة.

ويرى إيركسون الأزمة الكبيرة الثانية للكلانية في الطور الأوديبي من النمو. فبالتحديد في بدايات تطور الضمير يمكن للأطفال أن يطوروا مشاعر ذنب متطرفة. وعلى الرغم من أن الحكم الأخلاقي يصبح لاحقاً أنضج وأكثر تسامحاً، فإن الجذور البدائية للضمير تظل باقية في الطبقات اللاشعورية للروح. فالأنا الأعلى يستطيع في

أطوار اتهام الذات والاكتئاب أن يجعلنا نشعر «بالسوء الكلي»، إنه يستطيع أن يدفعنا، مُسقَطاً على الخارج، إلى معاملة الناس الآخرين وكأنهم أسوأ ما ذاتنا. وفي الأوقات الأزمات من السهل أن يضيع الحكم الأخلاقي المتبصر للأنا، تصبح الأخلاق «أضيق، وأكثر فتنة، وأكثر اقتصاراً[1] وأقل تسامحاً، وكأنه ينبغي معاملة الخطر الخارجي وكأنه خطر داخلي» (1981 «أ» صفحة 53). وكل استبداد يقود إلى التحرر من تأنيب الضمير بأن يجعل بصورة شديدة التطرف أشخاصاً محددين أو مجموعات معينة من خلال اتهامات مفرطة بشكل مناف للمنطق مسؤولة عن كل الأوضاع التعيسة الممكنة. ويستغل التهييج الاستبدادي حسب إيركسون مشاعر الذنب الطفولية الباكرة «بأن يدفع الناس إلى إسقاط السوء المطلق بلا استحياء وبشكل جماعي على ذلك (العدو) الداخلي والخارجي، الذي تعلنه الفتاوى الجمهورية والإعلام بصورة مطلقة على أنه سافل وحشرة، في حين على التائب باعتباره فرد من أمة أو عرق أو طبقة يباركها التاريخ، أن يشعر بأنه بخير» (1981 «أ»، صفحة 86). وفي الحقيقة فإن المعاملة المذلة والسادية لضحايا نظام استبدادي تنطبق مع النزوعات الثأرية للأنا الأعلى الطفولي. إلا أن الأمن الذاتي والعفة يكونان هشان. والشر المزاح نحو الخارج يهدد دائماً بالتسلل ثانية فيها بين الصفوف، لهذا لابد للمخابرات وشبكة من المخبرين أن يراقبوا مثل الأنا الأعلى المزاح للخارج أي نزوع لدى الشعب. وتشترك الأنظمة الاستبدادية جميعها بالجو الأساسي من الشك الزوري (البارانوئي)- الخائف. ومن يبحث عن مذنبين لابد وأن يظل دائماً على حذر من ألا يصبح هو نفسه متهماً.

وإلى جانب انقسام الشك ومشاعر الذنب يمثل الاستبداد بالنسبة لإيركسون محاولة إيجاد تعريف جديد بشكل متطرف للهوية الشخصية والجماعية. إنه يعكس الأزمة الثالثة لمشاعر الكلانية في عمر المراهقة. فالشاب، المهدد بالشك الذاتي ومخاوف أزمة الهوية، يدرك بحساسية مفرطة في الغالب عدم الكمال الاجتماعي وحالات

---

(1) أي محصورة بجماعة معينة وممنوعة عن جماعة أخرى.

الاغتراب السياسية. وفي طور القنوط يمكن أن يحدث بسهولة أن يخبر محيطه على أنه غير كامل «كلية» ويتوق نحو مجتمع «مثالي» مختلف كلية. والشبان حساسون بشكل خاص للإيديولوجيات التي تقدم إجابات بسيطة جداً عن سوء العالم وترشدهم إلى طرق تبدو مليئة بالأمل نحو المستقبل، وغالباً ما يكون الثمن هو العودة المتطرفة للارتباطات والقيم القديمة. وبالتحديد هناك في المكان الذي أضر فيه بجد التطور التكنولوجي والاجتماعي بدرجة كبيرة بالهوية المتجذرة بعمق (من نحو التطور الزراعي أو الإقطاعي أو الأرستقراطي على سبيل المثال)، يشعر الشباب حسب إيركسون «بأنهم معرضون فردياً وجمعياً للخطر، فيصبحون بناء على ذلك مستعدون لدعم المذاهب التي تقدم انغماساً كاملاً في هوية مصطنعة (القومية المتطرفة، العنصرية، الوعي الطبقي) ولعنة جماعية لعدو الهوية الجديدة المنمط كلية» (1981 «أ» صفحة 89). ويعتقد إيركسون أن هذه الأزمة الكبيرة الثالثة للكلانية هي أشد ما يولد الاستعداد في الدورة الحياتية الإنسانية للاستبداد.

لقد ميز إيركسون الحالة النفسية الأنضج للكلانية عن الحالة الأكثر بدائية للكلانية، التي تستحوذ في أوقات الأزمات السياسية بشكل دائم على جماهير عريضة وتتحول إلى أساس للاستبداد. ولا يريد إيركسون التسرع في وصم هذه العملية بالمرضية، وإنما فهمها على أنها استجابة بدائية للحياة النفسية الطبيعية، وفي النهاية كنوع من آليات حماية النفس من انهيار الهوية. وبشكل أفضل من اللجوء إلى الأمراض النفسية أو بنية طبائعية شاذة ربما يفسر هذا النموذج لماذا يستطيع الأفراد بعد تجاوز الأزمة الشخصية أو التاريخية أن يعودوا إلى مستوى الكلانية النفسية. ولنتذكر الأعوان الفاشيين الذين اندمجوا بصمت في عجلة الدولة الديمقراطية، أو الإرهابيين المشهورين الذين عاشوا كمواطنين غير ملفتين للنظر بعد أطوار من الفعل المسعور لسنوات طويلة. ولكن ألم يسبب الاستبداد الحديث أشكال من الفظائع، تفوق أي قدرة إنسانية على التصور؟ أيستطيع المرء من خلال نظريات علمية فحص الحالة العقلية لهتلر أو

هيملر[1] Himmler أو فرايسلر[2] Freisler أو مينغيل[1] Mengele، وهل يمكن بهذا

(1) هينريك هيملر (7 أكتوبر 1900 إلى 23 مايو 1945) - من أقوى رجال أدولف هتلر وأكثرهم شراسة. قاد فرقة القوات الخاصة الألمانية والبوليس السري المعروف بالجيستابو وأشرف على عمليات إبادة المدنيين في معسكرات الموت الألمانية. وُلد بالقرب من مدينة ميونخ لعائلة متوسطة الدخل وكان أبوه مدير مدرسة. التحق هيملر بالفوج البافاري الحادي عشر ولم تسجّل له أحداث عسكرية تذكر. وبعد الحرب العالمية الأولى، انضم لأحدى الكتائب اليمينية المتطرفة وما أكثرها في ذاك الوقت والتي كانت ممتعضة أيها امتعاض من خسارة ألمانيا للحرب وقرروا الدفاع عن الحدود الألمانية من انتهاكات الجيش الأحمر والعمل على إجهاض أي تحركات شيوعية من داخل ألمانيا. وفي عام 1923، انضم هيملر للحزب النازي المتطرف وأوكل إليه هتلر قيادة القوات الخاصة المعنية بحمايته الشخصية «SS». وبتعيينه قائداً للقوات الخاصة، طوّر هيملر القوات الخاصة بشكل جيّد حتى أصبحت من أفضل الميليشيات المدربة عسكرياً. وفي الوقت الذي كان يتراوح عدد القوات الخاصة 280 عنصر في عام 1929، وصل مجموع عناصر القوات الخاصة إلى 52000 عام 1933. وكان هيملر يقوم على فحص كل طلب التحاق في القوات الخاصة على حدة للتأكد من نقاء دم المتقدم للطلب حيث لم يرضى هتلر بعناصر القوات الخاصة الغير منتمين للعرق الآري.

ولم تكن القوات الخاصة «SS» هي الأكبر في الجيش الألماني، فقد سبقها في الحجم والقوة الكتيبة الضاربة والمعروفة بـ «SA». ووُفق هيملر بالتعاون مع «هيرمان غورينغ»، الأب الروحي للجيستابو من إقناع هتلر من الخطر الذي يمثله تنامي قوة الـ «SA» واحتمال استعمال الـ «SA» للإطاحة بهتلر ونظامه. اقتنع هتلر بخطر «روهم» ، قائد الـ «SA» ووافق على تصفيته جسدياً وهذا ما تم على يد هيملر وغورينغ. أصبحت الساحة شاغرة لهيملر وأصبح الرجل الأوحد فيما يتعلق بالأجهزة الأمنية للرايخ الثالث. بل وعظمت قوة هيملر عندما آل جهاز البوليس السري، الجيستابو تحت إمرته. (المصدر الموسوعة الحرة)

(2) د. رولاند فرايسلر (1893-1945): وزارة الرايخ للعدل، سكرتير دوله. مثل فرايسلر في مؤتمر الفان سي تلك الوزارة والتي وقبل كل شيء ومنذ «قوانين نورنبيرغ» عام 1935 قادت الاضطهاد القانوني لليهود الألمان وخصوصا ممارسة التجريد المنظم من حقوقهم. اعتبر فرايسلر «الضامن لروح الوطنية الاشتراكية (النازية)» في أغسطس 1942 عين كرئيس للمحكمة الشعبية ألعامه. في موقعه هذا يحصى عليه وعلى أعضاء آخرون في المحكمة آلاف أحكام الإعدام بحق المعارضين السياسيين.

ولد في تسيل كابن لمهندس دبلوم، عائله بروتستانتيه مجدده. المدرسة ألمتوسطه في آخن ، الثانوية ألعامه 1912 . دراسة الحقوق في جامعة كيل. 1914 الخدمة العسكرية كعضو سريه مؤخرا ملازم ثان. أكتوبر 1915 حتى 1920 معتقل سياسي في روسيا. 1922 الحصول على الدكتوراه في القانون. منذ 1924 محامي في كاسل وإداري المدينة لقسم الاجتماعي الشعبي. في يوليو 1925 الانضمام إلى الحزب الوطني الاشتراكي (النازية) (NSDAP) 1932 عضو برلمان في البرلمان الإقليمي لبروسن. وفي نفس العام عين كمدير وزاري في وزارة العدل لبروسن.

منذ يونيو 1933 سكرتير دوله، عضو في المجلس الاستشاري لبروسن. أكتوبر 1935 عضو الأكاديمية للحقوق الألمانية ومدير القسم الحقوق الجنائي. ابريل 1935 سكرتير دوله لوزارة العدل لبروسن وللرايخ مجموعه ومن ضمن صلاحياته الأحوال الشخصية، تشريع قوانين جنائية، وتنفيذ الأحكام الجنائية. قتل في غارة جوية على برلين في 3 فبراير 1945.

تقدير رؤية apocalypse غرف الغاز وإطلاق الرصاص على الجمهور وقذف مساحات واسعة بالقنابل؟ ألا يبدو اعتبار كل ذلك على أنه انسحاب إلى مستوى بدائي للوظيفة النفسية، في النهاية على أنه متغيرة متطرفة لعلم النفس العادي، شديد الحصافة؟.

لقد أظهر إيركسون الظواهر الاستبدادية في سياقات عدة، بدءاً من الرفض المفاجئ للعب عند الأطفال مروراً بالإيديولوجيات المتطرفة للطوائف الشبابية والأزمة الدينية للوثر وصولاً إلى بناء الدولة الاشتراكية القومية. وعلى الرغم من أن الحالات النفسية الاستبدادية وسماتها الأساسية تتشابه، إلا أنه من المؤكد أن هناك فروق بين مواقف المرضى الحدوديين والتطرفات الإيديولوجية عند المراهقين المتأخرين أو الضروب المختلفة للاستبداد السياسي. ومن المحتمل أن هناك من الاستعدادات للحالات النفسية الاستبدادية التي تتحالف بشكل خاص جداً مع بنية الشخصية للفرد أو لطريقة في الحياة، أو لعقلية أو تاريخ شعب ما وتتخذ بهذا أشكال مميزة جداً، لا تقارن.

فهل يستطيع إيركسون أن يشمل المساحة كاملة من الناس في نظام استبدادي بدءاً من المقتنعين بشكل أعمى والمنقادين والمرتابين في السر، وصولاً إلى الجماعات الصغيرة من المقاومين؟ من المؤكد أنه لا يوجد خلاف حول أن عدد من الناس يتأثرون بالأفكار الاستبدادية ويشارك في تطبيق الاستبداد أكبر بكثير مما يريدون لاحقاً إدراكه. فبدون جيش من العساكر والتقنيين والبيروقراطيين المشرعين المخلصين لم يكن بالإمكان الحفاظ على استمرارية عجلة الدولة الاشتراكية القومية. ولكن ألا ينكص الجميع، وحتى الجماهير الواسعة من المساعدين إلى هذه الآلية من النكوص؟ أليس المحرك الدافع للنظام الاستبدادي هو الخوف والانتهازية أكثر من التحمس الإيديولوجي؟ أليس المحدد للسلوك لدى كثير من البشر إلى حد ما هو الانقسام بين الهوية الخاصة والعامة أكثر من

(1) النقيب الدكتور جوزيف مينغيل من أشهر أطباء معتقل «أوشفيتز النازي الأول»، حيث قام أطباء وحدة القوات الخاصة بتنفيذ تجارب طبية في المستشفى في الثكنة العسكرية (المبنى) 10. وقاموا بإجراء أبحاث علمية دون أساس علمي على الأطفال والتوائم والأقزام، كما قاموا بإجراء تجارب لإصابة البالغين بالعقم والإخصاء القسري وتجارب إعاقة الحركة عن طريق خفض الحرارة بدرجة هائلة.

النكوص إلى حالة الاستبدادية totality؟ فيتلاءم المرء مع الخارج بصمت، يحاول النجاة بجلده، إلا أنه قلق داخلياً يشعر بالشك والخوف، يشيح بنظره، يصمت.

3.6 هل ميع إيركسون نقد فرويد للحضارة؟

وسع إيركسون المظهر النفسي الاجتماعي والتكيفي لعلم النفس التأملي metapsychology متجاوزاً الصياغات المجردة نظرياً بحق لهارتمان وعلماء نفس الأنا الآخرين وبنى جسوراً بين التحليل النفسي علم الاجتماع. فالمجتمع بالنسبة لعملية التحليل النفسي ليس «عالماً خارجياً» عديم المعنى، وإنما «واقع actuality» يتخلل الوجود النفسي كله. لقد أصبحت نقاط انتقاد إيركسون لعلم النفس الاجتماعي التحليلي النفسي المبكر اليوم جزءاً بديهياً من الذخيرة الفكرية ومعروفة للقاء المطلع، إلا أنها كانت عند نشرها جديدة وأسهمت في أن ابتعد التحليل النفسي منذ أربعينيات القرن العشرين عن الفردانية الأرستقراطية للقرن التاسع عشر وأخذ وظيفة النقد السياسي على محمل الجد. فقد أصبح أخذ المحيط الاجتماعي للمريض بعين الاعتبار، ودعمه في مشكلاته الحياتية الراهنة، بفضل تأثير إيركسون بالذات في معالجة اليافعين والمرضى ذوي الاضطرابات المبكرة جزءاً أساسياً من التقنية التحليلية النفسية وأسهم في نشوء تصورات علاجية جديدة، من نحو العلاج الزوجي والأسري والجمعي التحليلي النفسي.

من ناحية أخرى ينبغي، ومع كل مقتضيات النظر لعلم الاجتماع والتحليل النفسي معاً، التأكيد على وجود فروق لا يمكن تجاوزها بين كلا التخصصين. فعلم الاجتماع يعالج طبيعة وتنظيم الجماعات والمؤسسات وينظر للفرد هنا كحامل للمراكز والأدوار. وبالتحديد فإن أخذ إحساس ومعاناة الإنسان الكامنة خلف سلوك دوره الذي يبديه للخارج على محمل الجد وإبرازه إلى الشعور، كان ومازال من الاهتمامات أولية للتحليل النفسي. ومع أنه على التحليل النفسي أن يراعي باستمرار تأثير القوى الاجتماعية والصراعات السياسية على الحياة النفسية الإنسانية، فإنه تظل لعلم اللاشعور الفردي

الأولوية بالنسبة للتحليل النفسي، إذا ما أراد عدم التخلص من مكونات أساسية من هويته.

ومن المؤكد أن إيركسون لا يستطيع تطوير علم نفس اجتماعي شامل على أساس التحليل النفسي. ففي أعماله كثيراً ما نجد مقالات أو فصول أو ملاحظات تدور حول مواضيع أساسية علم نفس اجتماعية محددة. والقوس الرابط كثيراً هو محاولة إبراز نوع من «التنظيم الأساسي المثالي» للسلوك الاجتماعي الإنساني، العلاقة المتبادلة البناءة المعطاة بصورة غامضة من التطور evolution بين الوالدين والطفل، الفرد والمجتمع. ويربط مفهوم إيركسون «للتنظيم المتبادل» و «الفضائل الأساسية» التحليل النفسي مع الفكر المسيحي والتنويري والرومنسي. فالإنسان بالنسبة لإيركسون هو كائن تواصلي أساساً، يترعرع في الجماعة يجد المعنى من خلال المرجعية الاجتماعية المسؤولة. وما رآه فرويد على أنه ثابت أنثروبولوجي محدد للدافع impulse determinate anthropological Constant ، أي النرجسية والحسد والهدمية، ينشأ في التطور الطفولي المبكر على مايبدو بشكل ثانوي كنتيجة الاستعداد الشديد لاضطراب عملية التربية الإنسانية.

وبالطبع فإن نشوء تنظيم متبادل موفق بين مراحل دورة الحياة والمؤسسات الاجتماعية، بين الجيل الأكبر والأصغر يحتاج إلى تقاليد وقيم راسخة، بالشكل الذي أقرب ما نجده في الثقافات ذات الوعي الأسري والعشائري القوي. وعندما يتحدث إيركسون عن «أشكال تربية الأطفال التي تحددها التقاليد» أو عن «تفاعل الأجيال» كأحد «منابع قوة الفضائل» أو عن «طقوس الأمان لمخلوقات زائفة» مختلفة، فإنه ينطلق أحياناً من ملاحظة الحيوانات العليا أو الثقافات البدائية، فيشعر القارئ في أماكن كثيرة بأنه في تنظيم اجتماعي أرستقراطي أو قبيلة من العصور الماضية. وعند محاولة الإحساس، على الجانب الآخر من تمزق وبرودة مجتمعات الجماهير الحديثة، بحالة اتزان الناس والجماعة والطيبة، فربما يسقط المرء بسهولة في رؤية رومانسية. فحتى الشعور العالي بالانتماء عند الثقافات المحددة بالتقاليد يقوم على قواعد ومحرمات صارمة ويتطلب من الفرد ثمناً له. وحتى الآن ما زال لا يوجد في تاريخ البشرية مجتمع أمكن

فيها توحيد أهداف المؤسسات بشكل كامل مع مصالح الفرد. وحتى عتبة قرننا لم تتمكن غالبية المجتمعات من السماح إلا بمقدار ضئيل فقط من الأصالة والنقد لدى الغالبية العظمى من أفرادها، من دون تهديد كيانها بسرعة. بل أن طرق التنشئة الاجتماعية تهدف إلى تربية الفرد إلى مخلوق جمعي وتثبيته في أدوار وقوالب نمطية مسبقة الصنع من الحكم. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار مدى الفظاعة التي تتم فيها حتى يومنا هذا تربية الأطفال إلى حد ما، وبأية طرق كابتة تقمع فيها المؤسسات التناقض في أجزاء واسعة من العالم وكم من الشك وسوء استخدام السلطة والعنف الذي يحدد العلاقات بين الجماعات الصغيرة والكبيرة، فستبدو أفكار إيركسون عندئذ حول التنظيم المتبادل في كثير من المواقع وكأنها رؤية، تنعكس فيها كثير من أجزاء الحلم الأمريكي.

ومن المؤكد أنه ليس هناك خلاف بأن الهدف الأخلاقي والتربوي عند إيركسون، هو دفع كل أشكال العلاقات الإنسانية إلى مزيد من الاستعداد للحوار والتسامح والديمقراطية، والتأثير إيجابياً على العلاقة بين الوالدين والأطفال وعلى التربية وعلى الحركة المدنية وتحرير liberalization تنفيذ العقوبات. ومن ناحية أخرى تغري فكرة التنظيم المتبادل بسهولة نحو تصور أن عملية التنشئة الاجتماعية بلا مشكلات ومنسجمة. ويتهم النقاد إيركسون بأنه يريد بوصفه وريثاً لعلم نفس الأنا تمييع مبدأ فرويد في نقد الحضارة، من أجل تطوير تربية مزينة بالتحليل النفسي، متأثرة بالمبدأ الكالفيني[1] Calvinistic. وقلص الهوة التي مازالت لدى فرويد غير مراعاة بين الفرد

(1) مذهب كالفين اللاهوتي البروتستانتي الفرنسي (1509 -1564). يقول بأن قدر الإنسان مرسوم قبل ولادته. سار كالفن على خطى بولس الرسول والقديس أوغسطين في التأكيد على ما اعتبره سمو الله وسيادته على كل شيء. وتتقاطع أفكاره مع أفكار مارتن لوثر في أن تبرير الخطاة والخلاص يحصل عن طريق الإيمان فقط وليس بالأعمال. ولكن كالفن كان يعتقد بالاختيار المسبق، أي أن الإنسان بعد أن يخطئ لا يستطيع أن يمتلك الإرادة الحرة للتوبة، أما كل الذين سينالون الخلاص فأن الله كان قد سبق واختارهم قبل إنشاء العالم.

اعتبر كالفن الكتاب المقدس بأنه المرجعية الأولى ذات الشرعية والسلطة والتي يجب أن تخضع لها السلطات الأرضية، وقد نجح من خلال هذا الفكر بتشكيل حكومة ثيوقراطية في جنيف عرفت بنظامها المتشدد. واستنادا لرأي ماكس فيبر فقد لعبت الكالفينية دورا هاماً في ظهور العقلية الرأسمالية في أوربا، وذلك لقولها بأن النجاح على الصعيد المادي هو دلالة على نعمة إلهية واختيار مسبق للخلاص.

والثقافة إلى ما يشبه حالة التوافق. وتحول الأنا بآليته في التلاؤم إلى هيئة لمصالحة ما هو غير قابل للمصالحة. واهتمام إيركسون – كما هو اهتمام علم نفس الأنا كله عموماً– هو التلاؤم وشفاء العرض والقدرة على العمل، وليس الكشف الجسور عن اللاإنسانية التي كثيراً ما تتكاثر خلف سقف المدنية. ويتحدث هورن ولورنسر Horn & Lorenzer عن «العمى المنهجي عند إيركسون والفئات التي يستخدمها تجاه السلطة». إن القتالية المدمرة للتحليل النفسي القديم تفسد «أريحية النظام» (in Elord, Heinz & Dahmer,1978, P.13). وتبدو تطبيق إيركسون للتحليل النفسي لإيلورد Elord «أكثر فأكثر مشبوهاً وخطيراً». ويتساءل فيما إذا كان إيركسون، من دون أن يلاحظ، «يخدم جهاز السلطة لطبقة عليا بيضاء» (1978، صفحة 20). ويرى نويباور Neubauer أن كتابات إيركسون يتخللها «توق تنقية وتنظيف كالفيني» (1981، صفحة 317). وحسب بارين Parin فإن إيركسون قد تماهى بصورة حتمية مع تصورات قيم الفئات والطبقات المسيطرة في الولايات المتحدة الأمريكية، مع الأفكار البرتستنتية الأنجلو ساكسونية المحافظة، «بحيث أنه أصبح اجتماعياً ووطنياً أعمى» (1980، صفحة 656)[V1].

في مثل هذه الإجمالية تبدو مثل هذه الاتهامات غير محقة، إذا ما فكر المرء بمدى التزام إيركسون الشجاع بضحايا العنصرية والفقر والاستبداد. إلا أنه لم ينجرف في هذا ولا مرة في أي موقع متطرف واعتبر الإنسان فقط ضحية للديكتاتورية الاقتصادية والقهر الاجتماعي. كما أن علاقات السلطة المتسمة بالعنف والفساد السياسي يمثلان فشل الأنا والمؤسسات الاجتماعية في الوقت نفسه. وأنانية وخوف وانتهازية الفرد تزدهر في سوء الأحوال الاجتماعية مثلما تزدهر كل ذخيرة آليات الدفاع اللاشعورية، عندما نبرر على سبيل المثال الحروب الاعتدائية أو نسكت على معاناة المحرومين اجتماعياً أو نستغل موارد الدول المتخلفة بلا تحفظ لضمان مستوى حياتنا. فالأنا، عضونا لمواجهة الحياة، هو بالنسبة لإيركسون أيضاً مكان رشوتنا، و«فقط عندما ندون مدركين للجوهر الجماعي، الذي يتعلق به تكيف الإنسان، يمكننا التعرف على تلك التركيبة المكونة من الدفاع الداخلي والتصرفات السياسية، التي تكمن خلف توزيع السلطة

وتهدد بين الحين والآخر كل الفردانية والجمعية مع تحجر الأنظمة المشرعنة[1] legalize والبيروقراطية والتكنوقراطية: المقابل الشائع (لآليات الدفاع) الفردية» (1978 «ب»، صفحة 140).

يرى إيركسون أنه لابد أن يضاف إلى كل التزام اجتماعي الاستعداد الاستبصار الذاتي، وإلا سينزلق التصرف السياسي بسهولة في الفعل العصابي. ولا يجوز للمرء بأي شكل من الأشكال ألا يأخذ معارف فرويد حول اللاشعور. فالمخاوف الكامنة للإنسان، وعلى العكس من رؤاه المحلقة، لا تتيح له إجراء سوى تعديلات تدريجية جداً لمحيطه الاجتماعي. ومحاولات بناء نظام سياسي أكثر عدلاً بصورة سريعة جداً وبالعنف أحياناً، غالباً كفاية ما تنتهي بحالات متطرفة فوضوية. ومن هنا يظل واجبنا حسب إيركسون «رسم القوانين الثقيلة للنشوء العرقي phylogeny والتي لا تأخذ بسهولة بعين الاعتبار طوباويات الإنسان المنطلق بسرعة» (1975، صفحة 87).

ومن ناحية أخرى لابد من انتقاد إيركسون بأنه مع كل الالتزام السياسي، لم يعالج بوضوح كاف النصيب الذي يسهم فيه المجتمع في المعاناة النفسية. فهو يطالب «باستبصار جديد لا هوادة فيه في وظيفة وخلل المجتمع» (1982، ص ص 102-103)، إلا أنه لا يوضح نظرياً إلا القيل جداً كيف تسهم أشكال السيطرة التسلطية أو علاقات السيطرة والملكية غيرة المتساوية في تشويه النفس الفردية وترسو على سبيل المثال في إمراضية الأنا الأعلى أو في ضعف الأنا أو تغيرات دافعية جامدة. ويصف إيركسون العمل بوصفه «المشكلة الأكثر إهمالاً نظرياً وعملياً في التحليل النفسي» (1975 «أ»، صفحة 18)، ولكنه قلما يتطرق إلى مدى القوة التي يرهق فيها الاستغلال الاقتصادي أو ظروف العمل الاغترابية أو المنافسة المهنية أو العطالة عن العمل الحياة النفسية للراشدين وتسهم في حل الأزمات العصابية. إنه ينتقد توسعية expansionism وطموح المنافسة في اقتصاد السوق الأمريكي، مع العلم أن قائمته في «الفضائل الأساسية»

(1) المضفي عليها صفة الشرعية أو القانونية.

لدورة الحياة تذكر بقوة بتلك الأخلاق الكالفينية، بالشكل التي هي ضرورية فيه من أجل النجاح في الحياة الاقتصادية الأمريكية. ويريد إيركسون تحديد تأثير المؤسسات على نمو الشخصية. ومن ناحية أخرى ينطلق نموذجه حول دورة الحياة بشدة من تصور أساسي بيولوجي ويدور في سن الرشد فقط إلى حد ما حول العلاقات الخاصة في الزواج والأسرة. فإذا ما وجد الراشد المعني هويته يعود المجتمع في نظرية إيركسون ثانية إلى «عالم خارجي»، قلما يبدو له تأثير في الحياة النفسية الداخلية. ويطالب إيركسون إسهام متساو للمرأة في حل المشكلات السياسية الملحة ويطرح من ناحية أخرى نموذجاً محافظاً جداً حول تطور الهوية الأنثوية، تحتل فيها الأمومة مركز الصدارة. ومن المؤكد أنه لا يمكن للمرء اتهام إيركسون بأنه يريد تمييع مبدأ فرويد الناقد للثقافة. إلا أن ما ينتقده لدى آنا فرويد وهارتمان وعلماء نفس، يبدو أنه ينطبق كذلك على مبدأه الخاص: فهو يظل واقفاً في تصويريته conceptualization لعلم نفس اجتماعي ونقد للمجتمع مسند في منتصف الطريق.

ويشير إيركسون بشكل لا يدع مجالاً للشك إلى أن المصدر الأساسي للمعاناة الفردية وشدة الصراعات الاجتماعية تكمن في تخويف وقمع الطفل من خلال الراشدين: «إلا أنه من أجل أن نجعل العالم آمنا بالنسبة للديمقراطية ينبغي بداية جعله آمنا بالنسبة للطفل السليم. ومن أجل القضاء على القمع والاستغلال واللامساواة من العالم لابد لنا بداية من توضيح أن عدم المساواة الأولى في العالم هي تلك التي بين الطفل والراشد» (1981 «ب» صفحة 121). وبشكل حاسم يعلن إيركسون نفسه كل أشكال العنف في التربية. واقتراحاته التربوية تقنع بوجود درجة عالية من الجدية. ويتكرر الحديث عن «حكمة البرنامج الأساسي المولود»، الذي يوجه نمو الشخصية، عن «التربية المنمية» التي لا تحتاج إلا إلى ترك الطاقات الإيجابية للطفل «تنمو». إلا أن مثل هذه الأفكار المعجبة بروسو في بعض الأحيان تنطلق بقوة كبيرة من «منطق خيالي للطبيعة» (Baacke, 1971,

P.498). ولابد من الأخذ بعين الاعتبار أن برنامج النمو التنشؤي[1] epigenetically لا يوجد دائماً إلا في الشكل المؤسس2 فقط. فكيف يبدو «التفتح الطبيعي» للاستعدادات والقوى الطفولية في عالم الكمبيوتر والمنظمات الكبيرة؟ ألا ينبغي على الإنسان أن يأخذ بعين الاعتبار أن كل المؤسسات والقيم التي يقوم عليها تفكير إيركسون أصبحت اليوم مشكوكاً بها بالنظر إلى اختلال التقاليد المانحة للدعم وروح التجارة اللاوازع لها باطراد؟

تبدو مفاهيم إيركسون التربوية والسياسية عند القراءة الأولى حكيمة وإنسانية. إنه يتحدث عن نزع التسلح والديمقراطية والتضامن العالمي واللاعنف. إلا أن مقترحاته التي تعتبر عامة بحق تذهب بسهولة إلى أبعد من التحليل التفصيلي الشاق والتخطيط الاستراتيجي في حل المشكلات الاجتماعية الصعبة في عالم يزداد تعقيداً. أينبغي على المرء أن يعود للتقاليد من أجل إعادة إحياء القيم من نحو المسؤولية والحب والولاء والعطف، التي لا يمكن لأي جماعة أن تقوم على المدى البعيد من دونها؟ أم يحتاج الأمر تصورات جديدة كلية في الزواج والتربية والسياسة من أجل ضمان خبرة الاهتمام والقيادة لأطفال الجيل القادم؟

(1) التكون أو التخلق التسلسل والمتعاقب.

(2) المحول إلى شيء اجتماعي

هوامش الفصل الثالث:

(i) صاغ إيركسون نقده لعلم النفس الاجتماعي التحليلي النفسي التقليدي بشكل خاص في «الدافع والمحيط في الطفولة» 1957 «أ»؛ وفي فقرة «اجتماعية الأنا» في «الشباب والأزمة»، 1981 «أ»، صفحة 230-234؛ وفي الفصل الأول من «الهوية ودورة الحياة»: «نمو الأنا والتحول الاجتماعي»، 1981 «ب» صفحة 11-54؛ بالإضافة إلى فقرة «العالم الداخلي والعالم الخارجي» في: «تاريخ الحياة واللحظة التاريخية»، 1982 «ب»، صفحة 107-109؛ وفي الفصل الأول من «دورة الحياة الكاملة»: «مدخل. رؤى تاريخية حول (لعالم الخارجي) ، 1988 صفحة 13-26.

(ii) طور إيركسون أفكاره حول التنظيم المتبادل بشكل خاص في مقال : «القوة الإنسانية ودورة الأجيال»، في مجلة النفس Psyche ، 1966، الذي تم طبعه أيضاً في «الاستبصار والمسؤولية»، 1966 صفحة 99-145.

(iii) نجد أفكار حول الأنواع الزائفة في الفصل الفرعي: «الهوية السوداء»: في: «الطفولة والمجتمع»، 1982 «أ»، صفحة 236-240؛ وفي الفصل الثامن من «الشباب والأزمة»: «العرق والهوية الشامل» 1982 «د»، صفحة 175-196؛ وفي الفصول «عالم جديد، أنواع جديدة» و «التحرر والاستبصار» وفي «أبعاد هوية جديدة»، 1975، صفحة 61-68. وتوجد أفكار حول «طبيعة الطبقات الهندية والاستعمار البريطاني» في «حقيقة غاندي» ، 1978 «أ»، وبشكل خاص صفحة 314-330 وصفحة 506-526. قال حول هذا الموضع أيضاً إيردهايم Erdheim,1992, Heim,1992 & Schuster,1986.

(iv) يعالج إيركسون هذا الموضوع بشكل خاص في مقال: «منشأ التطقيس» في مجلة النفس 1968: وفي «لعب الأطفال والخيال السياسي»، 1978 «د»، صفحة 61-96؛ بالإضافة إلى فقرة «التطقيس» في «دورة الحياة الكاملة»، 1988، صفحة 53-69.

(v) توجد أفكار حول الاستبداد بشكل خاص في فصل «حول الاستبداد» في «الشباب والأزمة»

1981 «أ» صفحة 73-90، وفي «الطفولة والمجتمع»، 1982 «أ» صفحة 320-352؛ وفي «الشاب لوثر»، 1975 «أ» صفحة 114-119.

(vi) قارن حول هذا أيضاً:

Adorno 1955, Baacke 1971, Dahmer 1973, Marcuse 1957-58 or Schülein 1983.

الفصل الرابع

المراحل الثمانية لأطوار الحياة الإنسانية

4.1 نموذج التخلق المتعاقب لنمو الشخصية

منذ تأهيله في التحليل النفسي في فينا كان اهتمام إيركسون بالمواقف والأزمات النمطية في طريق الحياة الإنساني واحداً من المجالات الرئيسية. وما زال تصوره المؤلف من ثمان مراحل «الدورة الحياة» واحداً من أشهر نماذج النمو المعروفة في علم النفس الحديث[1]. كانت نقطة الانطلاق عند إيركسون هي الاكتشاف الأساسي عند فرويد حول الصراعات التي يسير فيها نمو الإنسان منذ الطفولة: «إذ أنه على الإنسان من أجل البقاء على قيد الحياة بالمعنى النفسي، أن يحل صراعات...إلى ما لانهاية، تماماً مثلما على جسده أن يكافح بلا توقف ضد التهدم الفيزيائي» (1981 «ب»، صفحة 56).

لقد رأى فرويد في الصراعات غير المحلولة للطفولة مصدر العصاب، الأمر الذي حظي من خلاله مفهوم الصراع على طعم أقرب للمرضي، السلبي. ومن ناحية أخرى فإن الحلول الناجحة للصراع تقوي المبادرة والثقة بالنفس وتدفع بداية نمو الشخصية للأمام. وبالنظر للمشكلات والمهمات والقرارات المتجددة باستمرار فإن الوجود الإنساني واقع تحت تغير مستمر حتى الموت. فالإنسان لا يستطيع ببساطة اعتبار المشكلات الحياتية وأزمات الراشد مجرد انعكاس لخبرات ومخاوف الطفولة. وللمرة الأولى يوسع إيركسون نظرية النمو التحليلية النفسية إلى ما بعد سن الشباب ويطرح نموذجاً شاملاً لمراحل الحياة، حيث يواجه الفرد طبقاً لذلك في ثمانية أزمات نمائية منذ الولادة وحتى الموت مهمات ومشكلات أساسية للوجود الإنساني. ويعنون هذه المراحل بعناوين متقابلة، تهدف إلى الوصف المفعم قدر الإمكان لفرص وأزمات مرحلة حياتية.

والأسئلة المهمة في السنة الأولى من الحياة على سبيل المثال هي فيما إذا كان الرضيع يلقى الترحيب من خلال الاهتمام المحب لأمه، ويكتسب مقداراً كافياً من الثقة ليندمج في الحياة، أو فيما إذا كانت الخبرات المقلقة من عدم الإشباع والتخلي ستترك خلفها مزاجاً أقرب للشكاك-المستسلم. والصراع بين «الثقة الأصلية» و «الشك الأصلي» Trust vs. Mistrust يتحول حسب إيركسون إلى أول أزمات النمو والأقرب لأن تكون مصيرية في الوجود الإنساني. وفي المرحلة الثانية من سنوات الحياة يبدو الطفل وكأنه مسحور بإمكاناته الحركية الجديدة للوقوف منتصباً والمشي. فهو يمشي إلى كل مكان، ويمسك الأشياء كلها، ويحاول في صراعات سلطة منهكة إخضاع المحيط لإرادته، إلا أنه غالباً ما يعيش نفسه تجاه الراشدين على أنه صغير وغير قادر. ويتحدث إيركسون عن «الاستقلالية مقابل الخجل والشك»، Autonomy vs. Shame & doubt باعتباره الصراع الرئيسي للمرحلة الثانية من النمو. وفي سن الروضة يصبح اللعب مع الأتراب مهماً، ويتسلل الصبيان والبنات إلى عالم الكبار في أدوار مشحونة بالخيال أو في فضول قاتل للأعصاب للمعرفة وينافسون في السر في خيالات جريئة على أن يحظوا بالجزء المعاكس من الوالدين. ومن ناحية أخرى يتم كبح هذه الرغبات والنشاطات الفياضة من خلال النمو المبادئ للضمير. ومن هنا فإن الوقت بين السنة الثالثة والخامسة من الحياة واقع في بؤرة توتر «المبادرة مقابل مشاعر الذنب» Initiative vs. Guilt.

ويعنون إيركسون سن التعليم الأساسي بعنوان «الاجتهاد مقابل مشاعر النقص» Industry vs. Inferiority. وهو سن التعلم المكثف، الذي يواجه الطفل للمرة الأولى بمطالب الإنجاز المدرسية، وبخطط وينفذ في وقت فراغه بنفسه إلى حد ما ويطور مواهبه ويرغب بهذا أن يعترف به الكبار. وبالمقابل يمكن للإخفاق المدرسي وعموماً خبرة عدم إنجاز شيء ما يذكر أن تترك خلفها مشاعر نقص طوال الحياة.

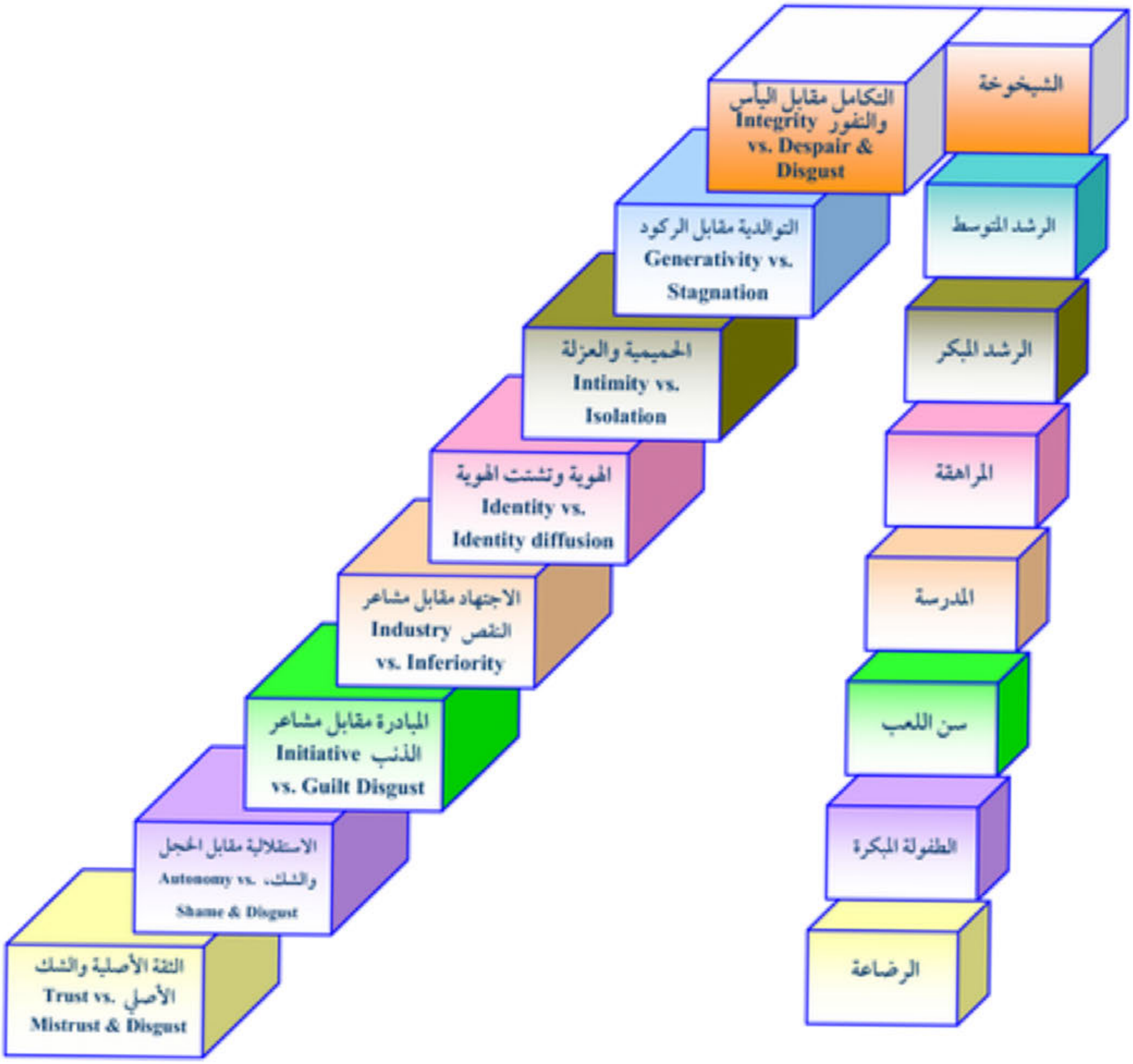
وعلى اليافع أن ينفصل عن محيط طفولته، وإعادة تحديد العلاقات بالأتراب وبالجنس الآخر وأن يتخذ قرارات مهمة فيما يتعلق بحياته الراشدة، وهو ما يمكن له أن يترافق مع توترات وأزمات وصولاً إلى الأعراض العصابية واللااجتماعية. ويضع

إيركسون المراهقة تحت موضوع «الهوية وتشتت الهوية Identity vs. Identity diffusion».
وبعد عشق الشباب المتقلب بصورة عاصفة في الغالب فإن الأمر في مرحلة «الحميمية والعزلة Intimity vs. Isolation» في سن الرشد المبكر يتعلق ببناء علاقة ناضجة مسؤولة بالجنس الآخر، يذهب إلى أبعد من الإشباع الجنسي الخالص أو مجرد الانجذاب الشهواني. فالسماح باقتراب الآخر في علاقة محبة والتمكن مع ذلك من أن يبقى الإنسان هو نفسه، يتحول إلى أساس علاقة تشاركية هانئة. وخطر هذه المرحلة من الحياة يكمن في الخوف من ارتباطات أعمق والشعور أن يبقى هو وحده مع ذاته على الرغم من وجود اتصالات جنسية عشوائية أو بالذات بسبب منها. وعن العلاقة الزوجية الحميمية تنبثق من جهتها الرغبة الطبيعية بإنجاب الأطفال وتربيتهم ليصبحوا كباراً، وحمل هم الجيل القادم. وتحتل خبرات الوالدية الجديدة كلية بالنسبة لإيركسون مركز حياة الرشد. ويعني الابتعاد عن المسؤولية تجاه الجيل اللاحق الإفقار وينتهي بركود نفسي مطرد التضخم . ويعنون إيركسون هذه المرحلة من دورة الحياة بمفاهيم «التوالدية مقابل الركود Generativity vs. Stagnation». فالكبير في السن يواجه أخيراً مهمة استخلاص الشعور بالمعنى من غزارة خبراته الحياتية وإعطاء الجيل التالي برزانة مثالاً لامتلاء طريقه في الحياة، وبالنظر لتراجع القوى الجسدية، خبرة المرض، والوحدة وهلع الموت. وهذه المهمة النهائية الأخيرة يعنونها إيركسون «التكامل مقابل اليأس والنفور Integrity vs. Despair & Disgust».

ويريد إيركسون أن يجعلنا نفهم عرض دورة الحياة على أنها «ظواهر اجتماعية نفسية متكاملة Integrated psychosocial Phenomena» (1966 «أ»، صفحة 102)، والنمو التدريجي للشخصية في محيطها الثقافي المعني كتفاعل مستمر بين الأنا والمؤسسات الاجتماعية. ومن هنا يفاجئنا عندما يستند في تفكيره النهائي بشدة إلى نموذج علمي طبيعي، مبدأ التخلق المتعاقب المنبثق بالأصل من علم الأجنة embryology. ويعني التخلق المتعاقب epigenesis النمو التدريجي من شيء بسيط إلى شيء أكثر تعقيداً وفق برنامج نضج بيولوجي. ومثال ذلك هو نمو الجنين في الرحم: فكل عضو جسدي

جديد ناشئ له معدل نمو محدد زمنياً. وواحد بعد الآخر يتسلسل نمو أجزاء الجسد المختلفة بالدور. ويتعلق النمو الكلي للجنين بأنه لا يجوز لأي عضو من الأعضاء تفويت موعد نموه، كي يصل إلى التنسيق الصحيح للحجم والطول لأجزاء الجسم مع بعضها والتناغم المتبادل المناسب لوظائف الأعضاء. وعند تضرر الجنين فإن العضو الأشد تضرراً، هو الذي يمر في هذه اللحظة بالوزن الأكبر في نسبة النمو؛ ناهيك عن أنه يتم لخبطة هرم النضج الكلي.

كما يستمر بعد الولادة حادث النضج التخلقي المتعاقب. وعلى الرغم من أنه لا تعود تنشأ أعضاء جديدة، إلا أن الجسد يستمر بالنمو طولياً وصولاً إلى قامة الراشد. ومن خلال النمو المتدرج للجهاز العصبي والعضلات والغدد الصماء تتوفر للطفل في السنوات الأولى من العمر إمكانات مباشرة لتفتح القدرات العقلية واللغوية والحركية، التي تلح للتشغيل والتمرن إلى حد ما. وكل حادث تنشئة اجتماعية، مهما كان المحيط الثقافي، يبدو حسب إيركسون بشكل من الأشكال متوقف على هذه الإمكانية Potential المُنضِجة. وتهدف مساعي الوالدين في التربية وتأثير المؤسسات الاجتماعية إلى استثارة القدرات الجديدة المتوفرة بشكل مثالي قدر الإمكان، وطرح مطالب على الطفل، التي تقدم استثارة للتمرن والمواجهة، ولكن ليست عالية جداً بحيث عليه أن يشعر بأنه مرهق ومثبط. بالإضافة إلى ذلك يعيش الطفل الكثير من التحولات المفاجئة والانكسارات الاجتماعية. ففجأة يطلب الراشدون بأن يعبر المرء عن نفسه بشكل مفهوم، ألا يقحم نفسه في أثناء كلام الراشدين، أن يكون نظيفاً، أن يتصرف بأدب، أن يكون دقيقاً؛ فجأة يترك الطفل في الحضانة لوحده أو أن يتعلم بأدب في صف مدرسي. وعبر الحياة كلها يترعرع الإنسان ضمن مهام حياتية جديدة ومحيطات اجتماعية ويبدو بالتحديد في بداية مرحلة جديدة غريباً ومنهكاً. ويصف إيركسون مواضيع حياته أيضاً «بالأزمات الاجتماعية النفسية المعيارية»، بأطوار «الحساسية المتزايدة واحتمالية Potential مرتفعة» (1981 «أ»، صفحة 96)، التي يتم التغلب دائماً في تفاعل مشحون بالتوتر بين الفرد والمجتمع أو تظل غير منجزة على الإطلاق ويمكن أن تتحول إلى مصدر للقلق والركود والعصاب.



مراحل النمو عند إيركسون

ومن الزاوية البيولوجية فليس هناك خلاف حول أن التخلق المتعاقب يستمر إلى حد ما في حوادث النضج المتدرجة للجسد الطفولي. إلا أنه بالنسبة لإيركسون، ومن المؤكد أن هذه فرضية شجاعة، هو مبدأ نمو موجه طوال الحياة لكل حوادث نمو الشخصية. وقد حاول توضيح تفكيره عن طريق رسم تخطيطي. ووفقاً لهذا الرسم التخطيطي فإن المراحل الثمانية لدورة الحياة هي مركبات برنامج أساسي تخلقي مرسوم مسبقاً في الذخيرة الوراثية. وبما يشبه أعضاء الجسم للجنين تتفتح مواضيع النمو المزعومة، بدءاً من اكتساب الثقة الأساسية Basic Trust في سن الرضاعة إلى البحث عن التكامل في سن الشيخوخة المتقدمة، في مراحل محددة معطاة من الحياة، تتصدر لفترة طويلة مركز السلوك والخبرة ليحل محلها الموضوع الوجودي التالي، إلى أن تنضج في يوم من الأيام كل الأجزاء إلى كل شغال. ويوضح إيركسون الصورة: «كل مركب يوحد في شكل ما (المحور العمودي) حتى قبل الوقت الذي يصبح فيه» خاص بالطور Phase-Specific، أي الوقت الذي تنشأ فيه أزمة اجتماعية نفسية نوعية، وهي تنشأ سواء من خلال النضج المطابق للفرد أم من خلال المطالب المتوقعة لمجتمعه. وبهذا يرتفع كل مركب ببطء صعوداً ويحظى في نهاية طوره على الحل الخاص به الدائم إلى حد ما. إلا أنه يظل مرتبطاً منهجياً مع المركبات الأخرى؛ فكلها تتعلق بنمو كل مركب على حدة في الوقت المناسب، مع العلم أن «الوقت المناسب» وسرعة نمو كل مركب منفرد (ومن ثم العلاقة بين بعضها) مرتبطة بفرادة الفرد بطبيعة مجتمعه (1981، «أ» صفحة، 149).

ويهدف هذا الرسم التخطيطي إلى رسم صورة، إلى أن يكون سقالة scaffold، ولا يستطيع إيركسون عندئذ إلا وأن ينصح، «إذا ما تمكن القارئ أن يغض النظر عن ذلك ثانية» (1981، «أ»، صفحة 148).

وكثيراً ما تم فهم تصورات إيركسون بطريقة مبسطة جداً. حيث أراد المرء أن يرفع من «مبادرته» وقصور «اجتهاده» أو أن يحظى بأي شكل بحالة «الحميمية» مع صديقته. والاختبارات العلمية قياس مقدار «الثقة الأساسية Basic Trust» أو «الهوية»

عند الفرد، وكأن الأمر يتعلق في تصور دورة الحياة بتعاقب تصويري متتال للمهمات التي «يحلها» المرء بشكل مقبول، من أجل الوصول في النهاية إلى حالة الشخصية الكاملة. لقد أراد إيركسون كل شيء عدا عن تقديم قائمة بأشكال التكيف الجديدة بالنسبة لنمو الفرد السليم «الناضج». وذلك الذي يبدو للوهلة الأولى وكأنه نموذج سهل التعامل، هو من حيث المبدأ أمر معقد. فكل نقطة من المخطط ترتبط بعلاقة منهجية مع بعضها، فكل واحد موجود قبل أن تحدث أزمته. ويوجد من كل المركبات أشكال مبكرة ولاحقة، ويتم المرور بكل المركبات من جديد في كل مرحلة من مراحل النمو وتطويرها. فإذا ما تصدر موضوع حياتي مركز الصدارة، من نحو اتخاذ القرار بالزواج في سن الرشد المبكر على سبيل المثال، فإن كل خبرات مراحل النمو السابقة تصب في هذه المرحلة، في حين تبدأ ملامح مواضيع الحياة اللاحقة بالتجلي. أأشعر بكفايتي من الثقة من أجل إثبات نفسي في العلاقة الزوجية؟ أأمتلك مبادرات كافية وخبرات إيجابية في عالم العمل وهوية مستقرة كي لا أشعر بأني خاضع لشريكي وتحقيق شخصيتي أيضاً خارج العلاقة؟ أأريد أولاداً أم أني مازلت أهاب من المسؤولية؟ أأريد أن أكبر مع شريكي أم أننا نطمح بعلاقة مؤقتة؟

ومن هنا لابد للإنسان عند دراسة المخطط التفكير دائماً بالمربعات الفارغة أيضاً إلى جانب المركبات الرئيسية. إذ لا يوجد نتائج نمو ترسخ لمرة واحدة. فالثقة الأساسية للرضيع، بداية إحساس عميق بالاسترخاء الجسدي، تستمر بالنمو عبر الحياة كلها وتتخذ دائماً ظلال nuance أكثر تمايزاً من المشاعر، بدءاً من حب الطفل لوالديه مروراً بتحمس اليافع للمحبوب والمثل وانتهاء الأشكال الناضجة من الإيمان والأمل في سن الرشد. وفي الوقت نفسه تحيي الثقة أيضاً أطوار النمو الأخرى، وتسهم في استقلالية ومبادرة الطفل أو في الحميمية المحبة للراشد. كما أن النظر للمظاهر الإيجابية للبرنامج الأساسي لوحدها وتجاهل ظواهر من نحو الشك أو الخجل أو الذنب كمصدر للمخاوف طوال الحياة يعد سوء فهم. إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش من دون شك على الإطلاق، والمبادرة من دون الإحساس بالخجل ستكون وقاحة، ومن دون خبرة المآسي والتشتت

سيكون اندماج الكبير في السن من دون عمق. ولا يوجد على الإطلاق حل ناجح كلية للأزمات؛ فالانتماء بين القوة والخوف يعد حاسماً في نموذج إيركسون ويسهم في تنفح شخصية واقعية: «فما يكتسبه الطفل في المراحل المنفردة، هو توازن نسبي بين الموجب والسالب؛ فعندما تميل كفة الميزان نحو الموجب أكبر، تكون الفرص أفضل للتغلب على الأزمات اللاحقة وللنمو الكلي غير المعاق. أما التصور بأنه سوف يتم في مرحلة ما من المراحل تحقيق حالة لا تطالها الصراعات الجديدة من الداخل ولا التغيرات من الخارج، هي مجرد إسقاط على الطفل لتلك إيديولوجية من النجاح التي تغمر أحلامنا النهارية الخاصة والعامة بطريقة خطيرة ويمكن أن تجعلنا عاجزين في الكفاح المطرد الصعوبة باستمرار من أجل وجود ذي معنى في عصرنا» (1981 «أ»، صفحة 69). وهذا يعني: يعتمد الأمر في المراحل المختلفة إلى حد كبير أو قليل على المركبات الإيجابية والسلبية، على توازن سيال، يتحرك في النمو القادم بشكل متكرر بهذا أو ذاك الاتجاه. وفي كل القرارات الجديدة والأزمات يتم دائماً مس صراعات الحياة الأبكر. ويمكن لنائبات الدهر الوخيمة أن تدفن الثقة والاستقلالية بصورة عنيفة، كما يمكن تهديم المخاوف الطفولية الباكرة بالتدريج من خلال الخبرات المشجعة في حياة الرشد.

4.2 فترة الرضاعة: «الثقة الأساسية مقابل الشك الأساسي»[1]

أطلقت على إيركسون تسمية «نفساني الثقة الأساسية»، تلك القوة الأساسية للتمكن من الاعتماد المشحون بالأمل على الحياة، كما تصبح حجر الزاوية لكل تقدير للذات ومنبع الصداقة والحب وجذر الإحساس الديني. فدائماً وفي كل مكان علينا أن نكون قادرين على الاعتماد، بغض النظر فيما إذا كنا نسأل شخصاً ما عن الطريق، أو نسمع نصيحة الطبيب أم نستخدم وسيلة مواصلات أو نثق بحب شريكنا. وفي العادة فإن مقدار كاف من الثقة بديهي لنا ولا نستطيع أن ندرك إلا من خلال الشك المتطرف

(1) Basic trust "versus" Basic distrust.

للاضطرابات الأوتزمية[1] والنفسية مدى الهشاشة الكبيرة التي يتوقع أن تكون عليه البذور الأولى للثقة والأمل لدى الرضيع. وبصورة مشابهة لغالبية ممثلي التحليل النفسي يرى إيركسون في الأم الشخص المرجعي المحدد لكل شيء في سنوات الحياة الأولى. فمن قدرتها على بناء علاقة انفعالية بين ذاتها وطفلها، يتعلق بالدرجة الأولى فيما إذا كان سيتشكل لدى الرضيع اتجاه أساسي تفاؤلي - ومشحون بالثقة أم اتجاه أساسي أقرب لليائس-الشكاك تجاه الحياة.

والولادة، الطرد المفاجئ من حالة داخل الرحم intra-uterine، تعني بالنسبة للوليد تغييراً متطرفاً. فها هي الرعاية الكلية حتى الآن عبر التبادل الكيميائي مع جوف الأم تستبدل بالتبادل الاجتماعي مع الأم الأشد حساسية للاضطراب. كما أن الأم تعيش المقدار الكلي للمسؤولية عن المخلوق الضئيل، الذي كان حتى الآن محمياً كلية في جسدها. وبسعادة وانشراح بعد خبرة الولادة يمكن أن يخالط الشك ومشاعر ثقل الحِمْل، والتي قد تسهم ضمن ظروف معينة في تعكر المزاج الاكتئابي في فترة النفاس. لقد أطلق فرويد على سن الرضاعة «المرحلة الفمية Oral Phases»، وفي الواقع فإن الفم، العضو المركزي في الأشهر الأولى من الحياة، يصبح «نظام العضو Organ modus» النمطي للفم، أي «الدمج incorporation» الضروري للحياة للسوائل المغذية، إلى نمط سلوك قائد. ففي البداية يتم وضع كل شيء في الفم وتتم الإجابة عن جميع المثيرات بشكل غير نوعي من خلال حركات المص. فالمص من ثدي الأم يمثل أولى الاتصالات الاجتماعية في حياة الإنسان؛ وفي الوقت نفسه فإن الفم هو أقدم عضو إحساس يوصل أولى الأحاسيس وخبرات الابتهاج اللمسية، حيث تصبح حسب فرويد منبع الحياة الجنسية. ويتحدث إيركسون عن الصدام الأول مع العالم، «عندما يوضع الوليد، الذي سلب منه الآن تعايشه symbiosis مع الجسد الأمومي، على صدر الأم. قدراته المولودة، المتناسقة إلى حد ما، على التلقي عبر الفم، تتطابق مع القدرات المتناسقة إلى

(1) التوحدية، الانغلاقية

حد ما وطواعية الصدر الأمومي لإطعامه والترحيب به. في هذه الفترة الزمنية يعيش الطفل ويحب من خلال الفم وبالفم، والأم تعيش وتحب من خلال ثدييها وبهما» (1982 «أ»، صفحة 66).

وينبغي بداية تعلم المص والشرب بالتدريج. والنزوع المبهم للالتهام لابد وأن يتم موائمته مع تقنية التغذية لدى الأم، مع العلم أنه على الرضيع أن ينسق الأعمال الحركية المعقدة جداً للمص والتنفس والبلع. وفي الأشهر الأولى لا يبدأ الطفل بالمص إلا عندما يتم وضع حلمة الثدي في فمه أولاً؛ لهذا يتحدث إيركسون بداية عن «نظام الاندماج-السلبي passive - incorporated Modus». ومن الوجهة الاجتماعية النفسية فإن الرضاعة هي جزء من علاقة الموضوع، توافق فيه الأم وسيلتها في العطاء مع الوسائل الطفولية للأخذ، ويصف إيركسون نمط السلوك الاجتماعي الأبسط والأبكر وسيلة «الأخذ» modality، وهذا يعني: «تلقي وأخذ ما يتم إعطاؤه» (1982 «أ» صفحة 70). ففي أسلوب العطاء الأمومي - الحنون، المسترخي، العطوف، الآمن، الحيوي، الخائف، غير المشارك- تتجلى فروق بين فردية كبيرة، تتعلق بشدة بالتاريخ السابق للأم وقبولها لأنوثتها وخبرة الحمل والاتجاه الشعوري واللاشعوري تجاه الطفل.

وهذه التفاعلات القاعدية التي تتكاثف لدى الرضيع في خبرة عميقة مع خبرات الدفء المحب في الحمل واللمس والمسك والهز، هي بالذات النموذج الأساسي للتنظيم المتبادل بين إنسانيين اثنين، يؤثر نجاحها أو فشلها على كل سلوك الاتصال اللاحق. ويعتقد إيركسون أنه يمكن لمشاعر المتعة الليبيدوية المترافقة مع ذلك ألا تشمل المصطلح «فمي Oral» إلا بصورة ناقصة «يبدو الفم وحلمة الثدي هنا أنهما يتحولان إلى المراكز المجردة لهالة aura عامة من الدفء والتبادلية، والتي لا يتم الاستمتاع بها باسترخاء والاستجابة لها من الأعضاء الهدف فقط وإنما من كلتا العضويتين ككل. وتبادلية الاسترخاء النامية بهذا الشكل ذات أهمية كبيرة بالنسبة للخبرة الأولى (لآخر) ودود. ويمكن القول (وبالطبع بطريقة صوفية) بأن الطفل الصغير، بأن يحصل، على ما يعطى، وبأن يتعلم، الحصول على شخص ما من أجل أن يفعل له، ما يرغب بأن يتم

فعله، يطور أساس الأنا الضروري كي يصبح مُعطياً. وحيث يفشل هذا ينهار الموقف في تنوع من المحاولات، للسيطرة من خلال الإكراه أو الهوام بدلاً من التبادلية» (1982 «أ»، صفحة 70).

وبالطبع فإن كل هذه الأحداث تكمن في ظلام المرحلة ما قبل الشعورية. ففي الأشهر الأولى من الحياة مازال لا يوجد لدى الوليد وعي ذاتي أو إحساس بالانفصال بين الذات وشخص الأم بعد. «فالإدراكات» الابتدائية rudimentary الأولى للرضيع ومن ثم بدايات أناه يتوقع أن تكون عبارة عن أحاسيس جسدية عميقة من التوتر والاسترخاء، من الإشباع وعدم الإشباع. ويعتقد بأن أول عضو جسدي يمكن للفم بالتدريج التميز من هذه الخبرة المنتشرة مثيرات منفردة أكثر تمايزاً كالحرارة وإحساسات الطعم واللمس. ويفترض إيركسون أنه باطراد متزايد ينتشر «النظام الدامج incorporated Modus» من بؤرتها في المنطقة الفمية إلى المجالات الحساسة للجسم ككل؛ أي أن الجلد وأعضاء الحس الأخرى تصبح «قادرة على الاستقبال» و«نهمة» باطراد للمثيرات المناسبة: «إلا أنه من الواضح أن الرضيع إلى جانب حاجته الجبارة للطعام سرعان ما يصبح مستقبلاً في كثير من الاتجاهات الأخرى. وكما أنه يريد ويستطيع أن يمتص من كل المواضيع الملائمة وابتلاع كل السوائل الخارجة منها، فهو أيضاً سرعان ما يريد ويستطيع أن (يسجل) بعيونه ما يظهر في محيط وجهه. كما يبدو أن إحساسه اللمسي (يسجل) ما يبدو أنه ملمسه مريح. وبهذا المعنى يمكن للمرء أن يتحدث عن (طور الدمج) incorporation Phasc، الذي يتصرف الطفل بشكل استقبالي- بصياغة نسبية- لما يتم عرضه عليه» (1981 «ب»، صفحة 64).

وفي حوالي الشهر الثالث من الحياة تكون القدرة على الإدراك قد تطورت إلى مدى يكون فيه الطفل قد أصبح يستجيب فيها لوجه الأم بالابتسام، أي للمرة الأولى إلى شكل خارجي، من دون الإحساس هنا بالانفصال بين الذات والعالم الخارجي. ويتحدث التحليل النفسي عن مرحلة تكافلية symbiotically Phases، ينصهر فيها الرضيع مع الشخص الذي يرعاه في نوع من «الوحدتين Tow-Unity». فالطفل يتذوق ويشم

حسب إيركسون الأم، ويحاول الولوج برأسه في جسدها، من أجل «استدماج» هذه الخبرة الممتعة. ويعتقد أن الجذور الأبكر للوعي والثقة الأساسية تكمن في فموية الرضيع، في الشعور العميق، بأن يكون منصهراً مع سلطة طيبة، تسكن الجوع وتدفئ وتمنح استثارات ممتعة. وطوال الحياة كلها يكون توصيل الثقة والأمل أقرب ما يكون من خلال الاتصال الجسدي. ويمكن للمرء التعبير عن المواساة والمشاركة الوجدانية من خلال الربت بشكل أقرب بكثير من مجرد الكلام، وكذلك يمكن إزالة سوء الفهم والخصام من خلال المصافحة أو العناق بسهولة أكبر مما هو الأمر من خلال النقاش الطويل.

بالمقابل تنشأ الأشكال الأبكر من الشك عن حالات الضيق والتوتر الجسدي للرضيع. فالنساء اللواتي سارت علاقاتهن بأمهاتهن بصورة متوترة أو اللواتي يشعرن بنفور لاشعوري ضد الشهوانية الجسدية، فإنه يصعب عليهن في الغالب الاستجابة بشكل حدسي لحاجات أطفالهن. ويمكن للقرب الجسدي الكبير جداً أن يوقظ العدوانيات المكبوتة. وأحياناً يفتقد الطفل عندئذ لمجالات خبرة بدنية، مما يقيد في المستقبل قدرته على الحنان والاسترخاء والاستغراق الجنسي. وغالباً ما يتم عندئذ البحث عن الاستثارة الجسدية بصورة ميئوس منها؛ فلنفكر بأية وسائل بدائية وصولاً حتى إلحاق الأذى بالذات يحاول المرضى الحدوديين الإحساس بأجسادهم. أو يتم تجنب الملامسة والحنان بصورة غير إرادية، وهو ما يمثل العرض المتكرر في اضطرابات الشخصية الفصامانية schizoid واضطرابات الشخصية النرجسية.

وبصورة مشابهة لأبراهام Abraham يقسم إيركسون الطور الفمي إلى مرحلتين. فمنذ الشهر السادس تنمو الأسنان ومعها تنمو القدرة العدوانية الفمية على القضم والعض والمضغ والبلع. ومع هذا النظام «الدامج بشكل فاعل active incorporated Modus» الجديدة يتغير السلوك الاجتماعي. فالطفل الآن يبحث عن الأم المشبعة بصورة غير صبورة، يصرخ منادياً لها، يتمسك بها. ويتحدث إيركسون عن الأشكال الأساسية البين إنسانية «التي تتجمع في الحالة الاجتماعية social modality للأخذ والتشبث

بالأشياء -بالأشياء التي يتم تقديمها وإعطائها بلا قيود إلى حد ما، والأشياء التي تميل إلى حد ما للانزلاق» (1981، صفحة 101).

ومنذ ذلك الحين يمكن للعلاقة أن تصبح أكثر توتراً. فها هو الرضيع السلبي حتى الآن يواجه العالم متسلحاً بأسنانه، يستطيع بصراخ يصم الأذن أن يطلب وأن يعض بعدوانية في حال الخيبة. وقد تستجيب الأم بتساهل محب «لمصاص الدماء» الصغير. غير أن الزعيق المستمر يمكن أن يجعلها يائسة ومنفعلة، وربما لأنه يتم هنا مس عدوانيتها الخاصة أو رغباتها الفموية غير المشبعة. عندئذ ينتقل غضب واستياء الأم ثانية للطفل عبر الجو. وفي هذا الجو يبدأ الطفل بالمطالبة بصوت أعلى ويطور الشكل المبكر من العناد المتحدي. أو أنه يكبت حاجاته ويطور مشاعر الذنب المبكرة نتيجة للخوف. وهذه الاتصالات الأولى المحددة من أنظمة العضو Organ modi والحالة الاجتماعية Social Modality تؤثر في السلوك الاجتماعي اللاحق: أيتعلم المرء أن ينتظر بصبر إلى أن يعطيه المرء شيئاً؟ أيتعلم توكيد رغباته مراعياً لغيره، ولكن بحزم؟ أم يطور اتجاهاً من الجشع الفموي، يتم توكيده بلامبالاة وعلى حساب مصالح الآخرين؟

ويخمن إيركسون أن الطفل يسجل كل هذه الحوادث بطريقة لاشعورية، إذ أن بقية أعضاء الحس «جائعة بشكل كبير جداً للمثيرات» ، التي يتوسع من خلالها حقل الإدراك بصورة مهولة: «فها هي العيون، بداية تبدو سلبية في تلقي الانطباعات، التي تصلها، قد تعلمت توجيه محرقها على المواضيع، و (إدراكها) وفصلها عن الخلفية غير الواضحة ومتابعتها. وكذلك تعلمت أعضاء السمع التمييز بين الأصوات المهمة وتحديد مكانها وإجراء التغيرات الملائمة في الوضعية، كرفع الرأس أو تدويره أو رفع الجزء العلوي من الجسم والانقلاب على سبيل المثال. وتعلمت الذراعين أن تمتد بتحكم وأن تقوم اليدين بالقبض» (1981 «ب»، صفحة 64). ويتوسع عالم رؤية الطفل، الذي تسيطر عليه حتى الآن خبرات التلامس، ليشمل خبرات الابتعاد الجديدة المُرشدة. ويصبح العالم الخارجي «مملوءاً» بالانطباعات؛ فيبدأ الرضيع عبر ذلك تخمين الاستمرارية الزمنية والترابط coherency المكاني، ويستطيع باطراد تنظيم المكان الحسي في عالم

إدراكات متمايزة. ومن خلال حالة Modality الأخذ والإمساك يستكشف الطفل محيطه الجديد. وتتم مراقبة الأشياء ومسكها ولمسها ووضعها في الفم وتركها تقع. ومن خلال التفاعل بين العين واليد تتشكل بالتدريج تصويرات استعرافية cognitive Schemata أكثر تمايزاً حول مواضيع العالم الخارجي (السرير، السقف، الحيوانات الصوفية...الخ)[ii]. وفي الوقت نفسه يستطيع الرضيع في الخبرات المتكررة باستمرار من الإطعام والحمل والمداعبة تمييز مظاهر متزايدة باطراد للشخص الذي يرعاه. فترتبط إدراكات تكون في البداية معزولة - وجه الأم، بريق عينيها، وقع صوتها، الأصوات عند قدومها وذهابها- بالتدريج متحولة إلى خبرة موحدة لشخصها.

ظهور الوجه المأمول، توجيه الكلام من صوت مألوف، انعكاس صورة الوجه في بريق عيني الأم هي التأكيد النرجسي الأقدم في حياة الإنسان، تمنح «الاعتبار» و «الاعتراف» الأول. ويعتقد إيركسون «بأن هذا الاتصال بالعيون يمثل...(حواراً) Dialog حيث يعد مهماً للنمو النفسي وفي الواقع فإنه مهم أيضاً بالنسبة لبقاء الإنسان بمقدار ما هو اتصال الفم-الثدي كمصدر للغذاء: ففي غياب الاتصال البصري يتجلى العجز الأكثر تجذراً (بالتلامس) مع العالم الأمومي» (1988، صفحة 49).

العيون تمنح الثقة أو العطف أو السعادة بشكل أصدق من الكلمات، وعبر الحياة كلها في كل طقوس التحية والاتصالات البين إنسانية العميقة نبحث في عيون الآخر عن ذلك التأكيد الأساسي لشخصنا. ولنتأمل المحبين الذين «يسكرون» بالنظرات برقة، وبالمؤمنين الذين يقدسون ملك الله، أو الأتباع المسحورين الذين يحاولون التقاط نظرة معبوديهم. وكذلك تبوح عيون الأم بالهم أو الحزن أو الرفض. وفي الخوف السحري للبدائيين من نظرة الأرواح الشريرة أو السحرة أو في وجه الشيطان يمكن تخمين مدى قدرة «النظرة الشريرة» في روح الطفل على إثارة الرعب المتطرف. والناس المقتلعين من الجذور قلما يسمعون ما يقوله لهم المرء، بل يتشبثون بانطباع الوجه أو نغمة الصوت. وأهم ما يميز المرضى اليافعين المضطربين بشدة بشكل خاص هو عدم القدرة على الاتصال البشري المشحون بالثقة، الذين يشعرون بأن وجه المعالج يتحلل أمامهم

وأنهم هم أنفسهم على وشك الانهيار، بمجرد أن ينمّوا مشاعر مشحونة بالحب تجاه الآخر.

وكلما كان الاتصال الجلدي والبصري بين الشهر السادس والعاشر أكثر أماناً وعطفاً، ظهر الطفل أكثر ثقة تجاه المحيط غير المألوف والأشخاص الغرباء. ومن هنا ينبغي تسمية ذلك حسب إيركسون بالإنجاز الاجتماعي الأول للطفل، «عندما يتمكن من إبعاد الأم من محيط وجهه، من دون التعبير عن غضب أو خوف زائدين، لأن الأم في هذه الأثناء قد أصبحت، عدا عن كونها مظهراً خارجياً يتم انتظاره بصورة أكيدة، يقيناً داخلياً. خبرة الثبات والاستمرارية وتشابه المظاهر تمنح الطفل شعوراً ابتدائيا[1] rudimentary بهوية الأنا؛ ويبدو أن هذا متعلق بأن الطفل (يعرف) عالماً داخلياً وأحاسيس وصور متذكرة وقابلة للتنبؤ في ارتباط ثابت مع عالم خارجي من الأشخاص والأشياء الموثوقة والتي ستعود للظهور ثانية بصورة أكيدة» (1982 «أ»، صفحة 241).

بالإضافة إلى ذلك ينظر إيركسون، وبصورة مشابهة لمالر Mahler وشبيتس Spitz وياكوبسون Jacobson وكيرنبيرغ Kernberg وكوت Kohut إلى المرحلة الفمية الثانية على أنها الوقت الحساس للاضطراب. فالانسلاخ عن الأمان الأصلي الفردوسي وبدايات الوعي الذاتي يبدو أنها تترافق لدى كل الأطفال مع عدم اليقين والخيبة، بالشكل الذي يتكرر فيها عرضه في الميثولوجيا الإنسانية بوصفه «الطرد من الجنة» أو «سقوط من السماء» بشكل جلي. ويتعلق الأمر هنا بمهمة صعبة جداً تتمثل بتنمية الشعور بالتحديدية delimitation ، ولكن في الوقت نفسه مواصلة القدرة على الشعور بأن المرء آمن في علاقة، وهو ما يتحول إلى مشكلة أساسية لكثير من صعوبات الاتصال التكافلية symbiosis للراشدين. وحتى أفضل الأمهات رعاية لا يمكنها أن تحمي الطفل كلية في نهاية السنة الأولى تقريباً من خبرات اليأس والألم. وحتى الآن كان تجويف الفم مصدر الأحاسيس المريحة. والآن تحفر الأسنان وعلى الرضيع أن يخبر أن الأم

(1) بدائي، غير متطور.

المعاشة حتى الآن بأنها جبارة لا تستطيع أن تزيل الألم الداخلي. وهذا المأزق الجسدي يتحول إلى مأزق اجتماعي، عندما تستمر الرضاعة في طور العض. فالطفل الذي اعتاد العض بأسنانه بقوة، من أجل التخفيض من الانزعاج، لابد له أن يتعلم المص من دون أن يعض. فإذا ما عض الأم بشدة فإنها تقوم بسحب صدرها، مما يرفع من حنق الرضيع. وهنا تنشأ مشاعر غضب وألم ثائر eruptive، التي يكاد إيركسون أن يمنحها أهمية محتومة: «تشير خبراتنا الإكلينيكية إلى أن هذه النقطة في التاريخ المبكر للفرد هي مصدر انقسام سيء»، حيث يقود الحنق ضد الأسنان الكاوية والحنق ضد الأم الساحبة للصدر، الحنق على الحنق الذاتي الذي لا حول له ولا قوة، كلها مجتمعة تقود إلى خبرة جبارة من الارتباك السادي والمازوخي، يترك بشكل عام كلية الانطباع، بأن المرء قد دمر في يوم من الأيام وحدته مع التربة الأمومية. ويعتقد بأن هذه الكارثة الأبكر في علاقة الفرد بنفسه وبالعالم هي المساهمة التطورية ontogenesis لنبوءة الجنة التوراتية، حيث فقد أول إنسانين الحق الدائم بأن يأخذا بلا جهد ما كان متوفراً لهما في يوم من الأيام؛ لقد قضما التفاحة المحرمة وأغضبا الله» (1982 «أ» صفحة 73).

علاوة على ذلك فإن غالبية الأمهات يعدن للاهتمام أكثر بمشاغلهن اليومية. بالإضافة إلى ألم مرحلة التسنين على الطفل أن يتعلم انتظار الأم، وتأجيل الرغبات الملحاحة، وتحمل التوتر. وتولد خبرات الجوع والبرد والصراخ اليائس مشاعر اغتراب الوحدة والتخلي. ويمكن للغضب اليائس أن يتصاعد ليصل للانتقام من الأم «الشريرة» التي خيبت الطفل، وعض صدرها ومن ثم إلحاق ألم سادي. غير أنه يتم طرد هذه الأشكال الأبكر من التعبير عن الهدمية الإنسانية حسب إيركسون من قبل الكبت الذي بدأ بالتحرك الآن إلى الطبقات الأعمق من اللاشعور. ويعتقد أن قرف الراشد من قضم اللحم النيئ هو عبارة عن تكوين عكسي Reaction formation ضد مثل هذه النزوعات الغريبة كلية عن الأنا، ويمكن للمرء في الانفجارات العدوانية الفمية للفصاميين أن يخمن وجود نوع من رغبات العض البدائية. وفي حين أن الحيوانات المفترسة تمزق ضحاياها بشكل آلي كلية موجه بالغريزة وتلتهمها، فإنه يبدو أن الخوف من فقدان حب الأم ومن ثم

أساس الوجود من خلال الهجوم العاض يمثل بالنسبة لإيركسون جوهر مركب الذنب الإنساني النوعي، وهو ما يكون معذباً جداً لكثير من المرضى الاكتئابيين: «في السوداوية (الميلانخوليا Melancholia) فإن ما يهرب منه الإنسان هي تلك الفموية الذاتية السادية والجشعة التي سئم منها ويريد التخلص منها وإنهائها من خلال أن يضع لنفسه نهاية. وهذه هنا لم تعد فموية Orality المرحلة الأولى من التعلق الخالية من الأسنان. بل هو جشع الفم المسلح بالأسنان وكل ما ينمو في طور التسنين أيضاً - بشكل خاص المرحلة القبيلة لما يتحول إلى ضمير (واخز)» (1975 «أ» صفحة 123-133).

وبالتالي فإن المرحلة الفموية الثانية هي ذلك الوقت الذي يظهر فيه الخير والشر، الحب والكره في عالم الطفل، وبداية يتم إبقائها منفصلة عن بعضها، كما افترض فرويد، بوساطة آليات الانقسام البدائية. فالرضيع يفصل ببساطة الخبرات الطيبة عن الشريرة، يتلمس استقبال «الأم الطيبة» في ذاته «اجتياف Introjections» وإرسال «الأم الشريرة» والغضب الشرير في داخله أيضاً نحو الخارج «إسقاط Projection». فخلف المخاوف واضطرابات العلاقة للذهانيين أو المرضى الحدوديين أو المكتئبين بشدة، وهو ما درسته ميلاني كلاين بصورة معمقة بشكل خاص، كثيراً ما نجد انقساماً متطرفاً بين الثقة العمياء والشك الابتدائي: النزوع البدائي للانصهار مع «الأم الطيبة» وحمايتها من التهديدات؛ مخاوف أن يصد أو يصرع من «الأم الشريرة»؛ مشاعر الذنب الشديدة من جرح الأم «الطيبة» من خلال العدوانية الذاتية ورغبات مطابقة في التعويض.

إلا أن هذه الانقسامات البدائية للمرحلة الفمية الثانية تضعف في حالة النمو اللاحق السليم للخبرات المتنامية والمنطق الذي يصبح أقوى. وبعد انفصال الذات والموضوع هناك خطوة أساسية تالية للنمو الاجتماعي الطفولي المبكر تتمثل في المعرفة بأن تمثيلات الأم «الطيبة» و «الشريرة» تنطبق على شخص واحد نفسه وتصبح مرتبطة في الخبرة الطفولية مع أمجية[1] الأم Mother-Imago. والتعبير المهم للثقة الأساسية

(1) الأمجيّة Imago: صورة ذهنية.

المتشكلة هي «ثبات الموضوع Object constancy»، أي القدرة على التمكن من الحفاظ على علاقة انفعالية مستمرة على الرغم من الخبرات وحالات المشاعر المتناقضة مع المحيطين، وكذلك على التمكن من تقبل سمات الطبع السلبية كجزء من هويته.

وبصورة أكثر خيالية من المحللين النفسيين الآخرين بين إيركسون في كثير من المواقع أهمية الأم بالنسبة لمواجهة السنوات الأولى. فالأم تجسد «العالم» الأول للطفل، والانتظامية والقابلية للتنبؤ في الاستجابات الأمومية هي أول تنظيماته الأولى للعالم. وطوال الحياة تجسد الأم - أو لاحقاً بدائل الأم كالأسرة، الوطن، الشعب، الدين- التطلعات البدائية للإنسان نحو الحب والحماية والأمان. وعليه يتعلق مصير الإنسان حسب إيركسون بشكل جوهري كلية، فيما إذا سيجد الطفل في بداية حياته «أماً طيبة كفاية»، تمنح الطفل خبرة أنه محبوب وذو قيمة. وعن ذلك يبدو أنه ينبثق الأمل، تلك القوة الأصلية للحي، التي تساعدنا في التغلب على الأزمات وصعوبات الحياة بل وحتى تمنحنا في المواقف التي تبدو بلا أمل أن نثق بنهاية طيبة. وحتى عندما تنجرح الثقة ويتحطم الأمل فلا بد وأن تظل بقية من أمل، وفي الواقع فإن اليأس المتطرف هو المرض حتى الموت. ويعرف إيركسون أول الفضائل وأكثرها أساسية في دورة الحياة على أنها الاعتقاد المستمر «بإمكانية تحقيق الرغبات الانفعالية، على الرغم من الضغوط المظلمة ومشاعر الغضب التي تميز بدايات الوجود» (1966 «أ»، صفحة 106). والثقة والأمل هما اللذان يجعلان الصداقة والحب ينموان، ويشكلان جوهر الأحاسيس الدينية العميقة وتميزان كل خلق ethic عن ذلك النُصح الأخلاقيّ moralism المعادي للحياة من حيث المبدأ. والشعور بالهوية الأبكر ربما من اجتياف التبادلية المحبة في بداية الحياة على النحو التالي: «أنا هو ما أملكه من أمل وإلهام» (1981 «أ»، صفحة 108).

وبالطبع فقد لا يكون هناك إنسان قادراً على الحياة من دون الشك السليم، وربما يقود الإفراط في الثقة بسهولة إلى المبالغة المرضية في تقدير الذات؛ ودليل ذلك المقامر سيء السمعة الذي يظل يأمل «بحظه الكبير» بصورة غير عقلانية، أو حماسة euphoria المهوس المعانقة للعالم، الذي يعيش نفسه وكأنه غارق في موضوع أمومي «طيب فقط».

وبداية عندما لا يعود هناك تلاؤم بين الأم والرضيع يسيطر القلق والغضب، تسبب الثقة الأساسية تجاه أمان الارتباط وصفاء المشاعر ضعفاً أولياً للشعور بالذات والأمن الاجتماعي.

وعن ذلك ينبثق إحساس أساسي من الاختلاف مع الذات نفسها والعالم، وهو ما يكمن في الغالب خلف الاتجاهات نحو الأمومة وفقر المشاعر الارتياب وعدم السعادة.

وعبر الحياة كلها يظل اهتمام الأم طبقة خبرة عميقة نرجع إليها بشكل لاشعوري في أحلامنا وهواماتنا وأوهامنا، وكما يظهر كذلك في بصورة أسطورية في الأحاسيس الداخلية المظلمة عن «الجنة المفقودة» أو عن «الزمن الذهبي» المنسي. فالرغبة في أن نجد في الآخر الأم المانحة للثقة، هي التوق الابتدائي في كل الاتصالات الاجتماعية وتمثل المعبر الأساس في كل تحليل نفسي. وكذلك يمكن لمشاعر شك المرحلة الفمية أن تظهر في حالات الاكتئاب أو الخوف الوجودي على أنفسنا، عندما نحس بأننا متشائمين جداً أو مرفوضين أو مغتربين أو يائسين. والمواقف الحدودية بالتحديد للوجود تمس الصراع بين الثقة والشك بشكل عميق: ولنتذكر على سبيل المثال التأرجح بين الأمل والخوف في أثناء مرض مهدد للحياة.

وطوال الحياة نتوق لأشخاص نستطيع «الإعجاب» بهم، يؤكدون وجودنا. والإجلال الذي نبديه للفنانين أو السياسيين أو القديسين أو لله يعكس حسب إيركسون الكثير من العلاقة المقدسة للطفل بأمه. وفي المواقف الاستثنائية لوجودنا أو حالات العادة أو البحران ecstasy أو النشوة trance يتم من جديد إحياء الإحساس الأول النرجسي من الانسجام الكلي مع الأم. ومثل هذه المشاعر تستحوذ المرء في لحظات العشق الحميم أو في الخبرات الوسيطية meditative أو لحظات الإلهام الفني.

لقد أرجع التحليل النفسي كم كبير من المتلازمات المرضية إلى العلاقة المضطربة بين الأم والطفل في السنة الأولى من الحياة. فالشك بالقرب الإنساني والمشاعر العميقة هي على سبيل المثال العرض الأساس للشخصيات الفصامانية Schizoid Personality

disorder. فمن خلال التحفظ الخجول أو الفظاظة أو التصويب الساخر على النقطة الأشد حرجاً للآخر يحاول هؤلاء الناس حماية الاكتفاء الذاتي والمسافة، ويبدون في المواقف الانفعالية قليلي الذوق غالباً. بالمقابل فإن الشك الأساسي لدى المكتئبين يقوم على التأمين بالعلاقات. فقط عندما يكون الآخر حاضراً واقعياً باستمرار، وعندما لا توجد على الإطلاق أية توترات، يمكن للمرء أن يثق بالعلاقة. لهذا لابد أن يتم تجنب بخوف كل ما يمكن أن يؤدي إلى الانفصال أو الصراع أو توكيد الذات أو العدوانية أو المطالب «الأنانية». ليس هناك أسوأ من الوحدة، التي يخشى منها لاشعورياً التي تمثل الإحساس بالترك الفارغ، وفي النهاية الانحلال. وبشكل حتمي تتراكم العدوانيات والحنق وتتحول في أنماط السلوك الاكتئابية الرائية للنفس ضد الشخص نفسه.

أما النرجسيون فيحمون أنفسهم من المشاعر الهدامة للحسد والشك من خلال بناء تصورات مبالغ بها عن الذات، التي تجعلهم شبه مكتفين ذاتياً من الاهتمام المحب للآخر. على المحيطين أن يعجبوا بهوامات الفخامة المتكلفة هذه ويعبرون عنها ويتم التخلي عنهم في حال فشلهم في هذه الوظيفة. أما المريض الحدودي فيتأرجح في تقسيماته للعالم إلى أبيض- أسود بين ثقة ساذجة وشك متطرف. فيتم تقديس أشخاص وجماعات محددة بلا تعقل ويستحوذون بالثقة المطلقة مثل «أم طيبة كلية» لزمن الرضاعة. في حين يصبح الآخرين وبطريقة غير واقعية أيضاً ما يشبه هدف الكره ضد «الأم الشريرة» الفاشلة. ويعد الانقلاب المتناقض بين كلتا الحالتين: الشريك الذي يتمسك به المرء بيأس، والذي يصده في أقرب فرصة بكره؛ الابن الطفل الذي يصبح في مواقف الفراغ مرساة الإنقاذ الوحيدة، والذي يدوسه المرء بعد وقت قصير لاحقاً بلا مبالاة.

إلا أن الفصاميين الأكثر تطرفاً في إصابتهم بالشك. فانهيار الاتصال البصري رفض الإقبال أو الطعام، الحوار مع الأصوات الهلاسية أو التكرار الذي لا معنى له لحركات نمطية يبدو وكأنه يوحي بانسحاب هذياني في الواقع الخاص، الذي يتم التخلي فيه عن أي أمل بالمعاملة ودودة بالمثل. ومع ذلك يمكن حتى في أنماط السلوك الشاذة أو المنحرفة أن يبدي مثل هؤلاء المرضى بارقة من الثقة. فحتى أصغر مجسات

الاتصال، من نحو السؤال عن الساعة على سبيل المثال، تمثل من منظور المرضى عروض علاقة كبيرة. وعلى المعالج أن يستجيب باهتمام موثوق كلية، شبيه بالخلاق من أجل تهديم الخوف الكارثي من العلاقة لدى هؤلاء الناس.

وأكثر المراحل التي وصفها إيركسون كانت سن الرضاعة والمراهقة[iii]. فمن دون أن يقول ذلك بصراحة يبدو أنه قد ابتعد عن القدرة الكلية omnipotence ومركب أوديب وعن رؤية، مثلما هو الحال في التحليل النفسي المبكر، الصياغة المصيرية للشخصية في المرحلة الأولى لدورة الحياة. وفي الأبحاث العلم نفس نهائية الحديثة يتم التشكيك بالدور الحاسم ككل، الذي يمنحه إيركسون للأم بوصفها مانحة الثقة والأمل. لقد عالج إيركسون الثقة والشك بوصفهما القوى الابتدائية الأساسية للحياة ما قبل اللفظية، إلا أنه لم يحاول ترميم الطور الفمي بثورة علمية جذرية مثلما فعل مالر Mahler أو شبيتز Spitz أو كيرنبيرغ Kernberg أو كوهوت Kohut أو كلاين Klein. وهذا يمنعه بدرجة ما من أن يطرح افتراضات جريئة جداً حول «الخبرات الفمية» أو القدرات أو الانصدامات المزعومة. فعلى المرء أن يضع نصب عينيه باستمرار بأن الأمر يتعلق في كل وصوفات وقت الرضاعة بإسقاطات استرجاعية للمحلل النفسي مستخلصة من مخاوف واستعدادات سلوكية لمرضى راشدين في طور من الحياة، غير قابل للتذكر ولا للاتصال Not-Communicable. فالمشاعر العميقة من الاسترخاء الجسدي لدى الرضيع لا يمكن مقارنتها مع مشاعر الثقة لدى الراشد. وإذا كان الحديث على سبيل المثال حول «خبرات الأم»، فإن الأمر لا يتعلق عندئذ هنا بشخصها الواقعي وإنما بأوهام رضيع Phantasms of sucking، تتشوه بدرجة عالية من خلال التقديسات أو العدوانيات أو الإسقاطات البدائية. كما أنه في بعض الأحيان لا يعرف المرء في شروحات إيركسون، فيما إذا كان الأمر يتعلق بعمليات نمو واقعية في بدايات الحياة النفسية أم «بناءات متخيلة»[1] adultomorphe Constructions» (Heinz Kohut).

---

(١) بيانات استرجاعية: أي استنتاجات عن الطفولة من أقوال الراشد.

وعدد من أطروحاته، من نحو رؤية جذور ظواهر مختلفة بهذا الشكل كالضمير أو الأشكال الراشدة للاكتئاب أو مشاعر الذنب الدينية في رغبات العض عند الرضيع، تبدو شديدة التأملية.

4.3 سن الطفولة: «الاستقلالية مقابل الخجل والشك»[1]

في السنة الثانية من الحياة تحمل القدرات الحركية الجديدة كالزحف والوقوف والحركة والمشي معها نمو جبار في الاستقلالية. وكالنشوان يحاول الطفل السيطرة على عالم محيطه، ويصطدم بالزوايا والحواف، يسقط متأذيا على رأسه، يسحب غطاء الطاولة أو يحطم المزهرية. وغالباً ما تكون أعصاب الوالدين على المحك، حيث أن الطفل يكتشف إرادته الخاصة في هذه السن ويحاول توكيدها بلا هوادة من ناحية، ومن ناحية أخرى تقف بدايات خبرة الاستقلالية على أرجل من فخار. فالأطفال يدكون بوضوح كبير أيضاً أنه مغلوب على أمره تجاه الراشدين الجبارين، ويستجيبون بحساسية إذا ما سخر منهم أو تم تخجيلهم. وهنا تكمن جذور الإحساس - الخاص بالإنسان فقط- بالعجز والافتضاح: أي الخجل.

فمن خلال النمو السريع للعضلات في السنة الثانية من الحياة أصبح الطفل الآن قادراً ليس فقط على الأخذ والاحتفاظ وإنما على الترك أيضاً، أو التخلي أو الرمي. إنهما كلا النظامين من أنظمة العضو Organ modi، أي «الاستبعاد Elimination» و «الاحتفاظ Retention»، التي ينبغي أن يتم تعلم المفاضلة بينهما بالتدريج، كي يحصل تسلسل حركي متناسق. وأقرب ما يكون نموذجاً لعملها هو العضلة العاصرة. فمع نضج الوظائف العصبية للنخاع الشوكي التي تتيح السيطرة على وظائف الأمعاء والمثانة، يصبح الطفل قادراً على الاحتفاظ بفضلاته أو إخراجها بصورة مقصودة. وقد رأى فرويد في أحاسيس المتعة الشرجية دافعاً جنسياً جزئياً، وأعتقد أن الأطفال لا

(1) Autonomy vs. Shame & Disgust.

يعيشون في هذه الفترة فضلاتهم على أنها قذرة أو مقرفة، وإنما على العكس على أنها الأشكال الأولى «للتملك» والقدرة الإنتاجية، وهي أطروحة، استثارت لدى معاصريه اشمئزازاً أكثر من نتائجه حول الجنسانية إلى حد ما. ومع ذلك ليس هناك شك لدى إيركسون بأن وظائف الإخراج ترتبط بمشاعر متعة وتشغل مناطق الجسد الخلفية المشحونة بالغموض وعالم البراز faeces الخبرة الطفولة بشدة. ففي لاشعور الإنسانية دارت حول هذا الموضوع الكثير من التخيلات والمخاوف السحرية. ولنتذكر المساواة بين المال والذهب والروث في الأساطير والخرافات أو كل الوصوفات «الشرجية» في وصف الشيطان والسحرة في العصور الوسطى.

وللمرة الأولى يتم في هذه المرحلة من النمو طرح مطالب من عمليات الجسد التي كانت تجري حتى الآن بصورة لاإرادية. وعلى الطفل أن يتولى القيام بإخراج فضلاته في أوقات محددة وأماكن ثابتة، وأن يتحمل حتى هذا الوقت مشاعر التوتر، أي أن يمسك نفسه كي يستبعد عندئذ إنذارات أمه. ولديه إمكانية الاستجابة لمطالب المربي بإرادته أو أن يستجيب بمعارضة وعناد. وبهذا يتم بصورة مثالية في إطار تدريب الأمعاء والمثانة نقل الأنظمة الدافعية للاستبعاد Elimination والاحتفاظ Retention إلى الموجهات الاجتماعية social Modality «الإمساك والإعطاء». وحسب إيركسون توجد ثقافات لا تعطي العمليات الشرجية قيمة كبيرة وتترك للطفل الوقت لتنظيم وظائفه الجسدية بالتدريج. غير أنه يمكن في الأسر المتسلطة ذات السمات المتزمتة أن تتخذ التربية على النظافة طبيعة تدريب صارم، يتم ترويض الطفل فيها كالآلة، التي عليها أن تعمل دائماً بشكل بصورة نظيفة ودقيقة. ويحتاج تعلم وظيفة جسدية جديدة الوقت. فإذا ما استجاب الوالدان بصورة غير صبورة إذا ما حصل شيء «في السروال»، وأظهرا تقززهما بوضوح مفرط تجاه البراز، يمكن لهذا أن يستثير مشاعر خجل شديدة وفي أحوال معينة تغريب الطفل عن وظائفه الجسدية السفلية وبشكل عام عن الوظائف الحيوية. بالمقابل من الممكن أن يسهم مديح الأم، أي خبرة، القدرة على الإنتاج بنفسه والإعطاء بناء على الرغبة، بالشعور بالفخر والاستقلالية.

ففي سلوكه ككل يتعلم الطفل الصغير التنسيق بين عدد من الإنجازات الحركية، يمكن التعرف فيها دائماً على النمط الأساسي من الإمساك والترك. ويبدو الطفل مستحوذاً بالنزوع، إما بتلقي كل المواضيع من المحيط والتمسك بها أو رميها بعيداً بسعادة غامرة، وتجميع أشياء بعناد أو التخلي عنها فجأة.

ومن المألوف أن نلاحظ مشاهد حيث يتمسك الطفل بألعاب ويدافع عنها «كملكية فريدة» بعناد ضد الكبار ليعود بعد قليل للتخلي عنها بلا اهتمام؛ أو أن يتمسك بوالديه بحنان ليعود فيصدهما فجأة.

والخطوات الاستكشافية الأولى تفتح إمكانات عبور جديدة غير متوقعة على العالم. فالطفل يجري بفضول ساذج نحو المحيط، ويستكشف البيت والحديقة ومكان اللعب، ولكن ليس من دون العودة للأم بين الحين والآخر، من أجل التأكد من وجودها الموثوق. وإلى جانب الرجاحة العقلية تمنح المشية السليمة الإنسان استقلالية ترفعه فوق حسه الحيواني. فالقدرة على الوقوف تمنحه مساحة نظر بصرية أوسع مختلفة.

والحرية الرائعة وتمايز اليدين هي شرط الإمكانات اليدوية الممنوحة للإنسان فقط، من نحو صنع الأدوات والأسلحة، الكتابة أو الإبداع الفني.

وتعريض الأعضاء الجنسية الذكورية أو الصدر الأنثوي للنقد مسؤول عن بعد آخر من الاتصال الشهواني وينتج في الوقت نفسه مشاعر خجل خاصة بالإنسان لوحده.

ويشير إيركسون إلى العدد اللامحدود من الدلالات connotation اللغوية المرتبطة بخبرة الانتصاب[1]. ولنتذكر الفخر، «في المسؤولية عن شيء ما[2]»و«في المقاومة[3]» و

(1) Aufrechtstehen.

(2) einstehen.

(3) Widerstehen (اللاحقة suffix، أي المقطع الذي يضاف إلى نهاية الكلمة بغية تشكيل معنى جديد، Stehen تعني باللغة الألمانية الوقوف أو الانتصاب).

«قوة الشكيمة[1]». ولكن بالتحديد لأن الوقوف مرتبط دائماً مع تهديد للتوازن فلابد للناس أن «يتعاضدوا مع بعضهم[2]». فنظرتنا المجسمة stereoscopic تجعلنا نرى ما هو موجود فوقنا أو تحتنا أو خلفنا. ويمكن للمرء أن يشعر «بأنه مغلوب على أمره»، وخبرة النمو قد تعني «النمو فوق الآخرين»، تركهم «تحت» أو «في الخلف» أو حتى «النظر إليهم من الأعلى». ومن ناحية أخرى يمكن للآخرين أن يهددوا استقلاليتنا، أن «أخرجونا عن طورنا» ويدفعوننا للانهيار.

وغالباً ما يعيش الوالدين هذه المرحلة من العمر على أنها مرهقة. فبرعمهم يجري معترضاً إياهم في كل مكان، يتدلى من النافذة ويتفحص مقابس الكهرباء، ويتسلق مندفعاً على الكراسي والطاولات، يحاول الوصول إلى كل الأشياء في محيطه ولا يهاب إذا ما اصطدم أو إذا ما تحطمت الأشياء. وعلى المحيط الاعتراف مادحاً بتقدم السيطرة على الجسد وفي الوقت نفسه إبعاد الخطر في الوقت المناسب من دون إشعار الطفل بأنه غبي وملخوم. والوالدان مفرطا التخوف اللذان يهرعان باستمرار خلف الطفل ويبعدان عنه كل شيء مباشرة، سرعان ما يكبحان نزعة التوسع الطفولية، وغالباً ما يحاول الطفل بعناد كلي وبلا استسلام تنفيذ رغباته: فعند الطعام أو الاغتسال أو الاستحمام أو الاستلقاء في السرير لا ينبغي أن يتم أي شيء إلا وفق طقوس محددة كلية؛ فأقل التضررات تعني فقدان متطرف للسلطة. فإذا ما أضيف إلى ذلك ولادة أخ جديد يمكن أن تحدث نوبات غضب وعناد جبارة. رمي النفس على الأرض في وسط المدينة، اللعب باليدين بالطعام أو إقياء الطعام، الامتناع عن الذهاب للنوم أو الامتناع عن النوم هي الأسلحة المتوفرة للطفل في ترسانة الأشكال الطفولية الباكرة من الاحتجاج.

وعلى الوالدين أن يوضحا لطفلهما بخليط من الثبات والتسامح، بأن عليه أن يراعي، وأنه لا يستطيع أن يجول ويصول في كل مكان، من دون إرهاقه هنا وكسر إرادته. فإذا

(1) المعنى الحرفي هنا إظهار صلابة الظهر (وتقول العامة فلان ظهره قاسي).

(2) Zueinander stehen.

ما أصيب المربون بالتثبيط بسرعة وأصبحا غير حازمين فإنه سرعان ما يتطور دكتاتوريون صغار. ومن ناحية أخرى يحاول كثير من الأهل إبقاء طفلهم «صغيراً» من خلال الممنوعات الصارمة، لأنهم يشعرون بالتهديد اللاشعوري من خلال الاستقلالية المتنامية. فإذا ما كان جو التربية شديد السلطوية، يطور الأطفال نحو الخارج طاعة عمياء، في حين تتراكم في الداخل مشاعر اليأس والغضب. وتعني خبرة أن سلوكهم الخاص يتم تقييمه من الراشدين في الخبرة الطفولية على أنه تكيف عنيف. فالمديح واللوم، الخير والشر، الصح والخطأ تخلق منذ الآن قطباً سلبياً وقطباً إيجابياً في صورة الذات. وللمرة الأولى يبدأ الإنسان هنا الخجل من جوانبه الناقصة وإخفائها أمام الآخرين. فإذا ما عوقب الطفل مراراً بوحشية أو تعرض للسخرية بسبب لخمته يمكن أن تتحطم ثقته بنفسه بصورة وخيمة. وربما يتسع هنا كبح العدوانية الناشئ عن المرحلة الفمية إلى كبح محبوس retentive، وهو ما يميز كثير من صور الحالات الاكتئابية والعصابية القلقية. فمثل هؤلاء الناس لا يستطيعون التمسك بإرادتهم إلا بصعوبة، أو يعاندون أو يقولوا لا، وإنما يستجيبون بسرعة على الضغط الفعلي أو الموهوم بالميل للتنازل والتخلي والاستسلام. ومن ناحية أخرى يمكن للتقييدات المفرطة والتخجيل أن تستثير أيضاً العداوة والعناد، وهو مسطرة لاتجاهات الامتناع الاجتماعية اللاحقة من اللامبالاة أو كثرة التبرم. ومن هنا فإن هذه المرحلة حسب إيركسون «حاسمة بالنسبة للعلاقة بين الإرادات الطيبة المحبة وقصور الذات المشحون بالكره، بين التعاون والعناد وبين القدرة على التعبير عن الذات والتقييد القهري للذات أو الإذلال المهين» (1981 «أ»، صفحة 111).

فإذا ما غلبت في المرحلة الثانية من النمو الخبرات المشجعة فإن الثقة الأساسية تغتني من خلال الشعور بالاستقلالية، في التمكن من الوقوف على القدمين والسيطرة على الجسد. فتنبثق عن ذلك تلك القوة، بوصفها الفضيلة الأساسية الثانية، التي يستطيع من خلالها الإنسان توكيد مبادئه واهتماماته بلا وجل، من دون عدم مراعاة الآخرين من خلال العناد. ويعرف إيركسون الإرادة على أنها «العزم المستمر على ممارسة

الاختيار وتقييد الذات بحرية، على الرغم من خبرات القلق والشك في الطفولة التي لا يمكن تجنبها. والإرادة هي الأساس بأن نقبل القانون والضرورة، وهي متأصلة في حكمة الوالدين اللذان يتصرفان بروح القانون» (1966 «أ»، صفحة 107). وتمنح الاستقلالية وقوة الإرادة الثقة بالنفس والقدرة على توكيد الذات في كل الخبرات الاجتماعية للحياة المقبلة، سواء تعلق الأمر بالتعبير عن رأي سياسي أم ممارسة مهنة ما بمسؤولية أو الدفاع عن النفس ضد الميول التدميرية للإيحاءات الاستهلاكية وأجهزة الإدارة. وبالتالي فإن نمو الهوية في سن الطفولة المبكرة يقول: «أنا، ما أستطيع أن أكونه مستقلاً» (1981 «أ»، صفحة 116).

والإكراه والعناد القهري هي الأجزاء المرضية المعاكسة للإرادة السليمة. ويبدو أن الناس يخضعون لإرادة الآخرين ويحولون عندئذ هذه الإرادة إلى قهرهم (قسرهم) الذاتي. وغالباً ما تكمن جذور مثل هذا النوع من الاضطرابات بالنسبة لإيركسون في الخنق المفرط لرغبات توكيد الذات الطفولية: «إذ أنه عندما يتم منع الطفل من الخبرة التدريجية والموجهة لاستقلالية الإرادة الحرة (أو إذا ما تم إضعافه من خلال فقدان الثقة الأساسية، فإن كل نزوعاته للمعرفة والاستقصاء تنقلب ضده.

وسوف ينشغل بنفسه هو بصورة مفرطة، وينمو لديه نضج مبكر للضمير. وبدلاً من تملك عالم الأشياء وتجريبها بتكرارات هادفة، يركز الطفل بصورة قهرية على عمليات جسمه المتكررة. ومن خلال هذا التمركز حول الذات فإن الطفل سيتعلم بالطبع عندئذ، توجيه محيطه نحوه من جديد وممارسة من خلال مطالب تمتد من العناد حتى مطالب منفردة مفصلة من الاهتمام الدقيق، سلطة هناك، حيث لا يمكنه تحقيق تنظيم متبادل كبير. ومثل هذه البيروويةٍ[1] pyrrhonism هي الشكل الطفولي لعصاب قهره اللاحق. إنها المنبع الطفولي للمحاولات اللاحقة للتمسك بالحرفية بدلاً من الروح في سن الرشد» (1982 «أ»، صفحة 246).

---

(1) مذهب الشك عند الفيلسوف الإغريقي بيرو Pyrroh (365-275 ق.م.)

ويمثل التماهي الكلي مع النزوعات التمردية الخاصة -التحدي أو السلبية[1] negativism أو العناد المزمن - بالنسبة لإيركسون الشكل المشوه المعاكس للاستقلالية السليمة. دائماً فعل عكس ما يتوقع من المرء، توهم بكينونة ذات ظاهرية، غير أنها في الواقع كينونة ذات غير هادفة وشكل مسبب للتمرد. والمتبرم المزمن والهجّاء يقف في طريق نفسه ويبدو غالباً وكأنه مستحوذ غير مريح. وسواء الإكراه أو الجموح القهري يرتبطان إلى حد ما مع التمثل غير الملائم لمشاعر الخجل، القوة الباثوسيكولوجية للاستقلالية. والشخصيات القهرية بالتحديد تعاني من قلق مفرط من التخجيل ولهذا السبب عليهم التمسك بصورة مربكة بدقة بالتعليمات الخارجية والعادات.

والشيء المميز جداً هو وضعية الشك المحرق بكل شيء، بما «يمكن أن يصدر عن الشخص» أو بما «يترك الإنسان خلفه». كل ما يقال أو يكتب أو يصنع لابد من إعادة فحصه وتحسينه مراراً من خلال وضعية نمطية من «النظرة الثانية». وفي الإنكار التمردي لكل المحرمات بالمقابل، من نحو في الاستعراض العنادي للإهمال ونزعة التوسيخ أو في الخجل من المدراء والمؤسسات (غالباً مع سباب فمي)، تظهر بالنسبة لإيركسون فرط التعويض عن خبرات الخجل الطفولية. وهذه التركيبة من فقدان الحياء المتحرر تمثل بالطبع المحاولة اللاشعورية للخجل من تلك الاستقلالية، التي جعلت المرء يوماً ما عاجزاً.

لقد كان إيركسون أحد أوائل المحللين النفسيين الذين درسوا بعمق الإحساس بالحياء، الذي ظل يصنف لفترة طويلة في الثقافة اليهودية-المسيحية ضمن الشعور بالذنب ولم يتم وصفه بصورة أقرب إلا منذ عهد قريب من قبل باحثي الوجودية على سبيل المثال، في خصوصيته النفسية[١٧].

ففي الخجل يتعلق الأمر بإحساس مزعج، في أن يتعرض المرء للنقد بطريقة مربكة

---

(١) موقف عقلي متسم بالشك في جل ما يؤكده الآخرون، أو نزعة للقيام بعكس ما يطلبه الآخرون.

أو أن يضبط في العلن، أو أن يفضح أو أن يهان. وتتألف التدرجات الأساسية المأساوية لخبرة الخجل من الشعور بعدم القابلية للإفلات. فالمرء لا يستطيع تجنب الموقف المحرج، ويشعر بصورة تكاد تكون مؤلمة بأنه واقع تحت نظرات الآخرين، ويخشى السخرية أو الاحتقاراً في حين أن الشعور بالذنب يعكس صراع جهات داخلية بين الأنا والأنا الأعلى ويصبح مدركاً شعورياً من الناحية الداخلية النفسية على أنه «صوت الضمير»، فإن الخجل هو خبرة فقدان الهيبة في علاقة الأنا بالآخرين وله علاقة بالنسبة لإيركسون مع اتصال الوجه والعينين: «فالمملوء بالخجل يرغب....إجبار العالم، على عدم النظر إليه أو عدم الاهتمام بموقفه المخجل. إنه يتمنى لو استطاع تدمير كل عيون الجميع. وبدلاً من هذا يجد نفسه يتمنى لو يرتدي طاقية الإخفاء» (1982 «أ» صفحة 247).

لقد كان الخجل الكامن من خرق مفاهيم شرف ومحرمات محددة واحداً من أقوى المنظمات السلوكية في المجتمعات المقيدة بالتقاليد وحتى وقتنا الحاضر. ولنتذكر التاريخ المأساوي للتبارز أو الانتحار نتيجة فقدان الشرف. وما زالت الكثير من طرق العقاب تعمل حتى يومنا الراهن مع مشاعر الخجل (وضع الوجه أمام الحائط أو تجاه عمود التشنيع، التجريد من اللقب أو الرتبة degradation، فقدان الحقوق المدنية). وفي عصر النسبانية العامة للأخلاق غالباً ما يبدو الخجل ومشاعر الذنب بأن أحدهما يحل محل الآخر في معناه المنظم للسلوك. فلم تعد المبادئ المتمثلة، وإنما الخجل الكامن، من أن «يضبط» المرء ومن فقدان الاحترام علناً، هي التي تجعل كثير من الناس في أيامنا هذه يلتزمون بالقانون والأعراف.

ويرى إيركسون أن شعور الشك يرتبط بصورة وثيقة مع الإحساس بالخجل، وكأنه «أخ الخجل: ففي حين يبدو أن الخجل يرتبط ويبقى ويستبان بالوعي، فإن الشك يرتبط أكثر مع شعور بأن الإنسان له أمام وخلف - وبشكل خاص له «عجز». إذ أن هذه الخلفية من الجسد مع بؤرتها العدوانية والليبدوية في العضلة العاصرة والمقعدة لا يمكن أن يدركها الطفل وتتم السيطرة عليها ضمن ظروف معينة بإرادة الآخرين» (1981 «أ»، صفحة 113-114). والشك الطفولي المبكر يترك عدم ثقة طوال الحياة -

ومشاعر تهديد تجاه الخفايا وغير المألوف خارج محيط وجهنا. ومن هنا يمس القلق بأن يغدر بنا أحدهم «في الظهر» أو يتناولنا الآخرون من «وراء ظهرنا»، وهو ما يجعلنا دائماً معتمدين على الآخرين الذين «يسندون ظهرنا»[1]. وكل إنسان يعرف مشاعر الخجل والشك، عندما يشعر بعدم الأمان في مجموعة جديدة، ويشعر أنه في المكان الخطأ، عندما يفشل في ظهور علني أو عندما يُضبط المرء زلة ما. ومن ناحية أخرى يوجد في الدفاع عن المجال الحميمي الشخصي إحساس طبيعي بالخجل كشرط للفخر والكرامة والتكامل. وبداية عندما يتم الاستنبات والاستغلال المبالغ به للخجل في الطفولة المبكرة فإن الإنسان يغترب عن ذاته ويمكن أن يتحول العرض الأساسي إلى اضطرابات قهرية أو اكتئابية أو هيستيرية.

ولا يوجد ما يمكن ألا يخجل منه الإنسان غير الواثق من نفسه، المظهر غير الجذاب، النقص في درجة التأهيل، نقص اللياقة الخاصة أو انخفاض الدخل.

وبالتحديد يتضح عند وصف السنة الثانية من الحياة كيف «يترجم» إيركسون نظرية فرويد في الليبدو في مضامينها الاجتماعية والأزمات. ومن المؤكد تلعب الحوادث الشرجية دوراً كبيراً في أحاسيس وهوامات الطفل، إلا أن المرحلة الثانية من الحياة لا تقتصر وحدها على حوادث حول المرحاض. والطفل يستمد الاستقلالية بشكل خاص من السيطرة على الجسم والنزعة للامتلاك الحركي لهذه المرحلة، وهي وخبرات ربما لم تتم مراعاتها بشكل كبير في التحليل النفسي، لأن وضعية الاستلقاء على الظهر عطلت بعد الانتقال المكاني والرؤية المجسمة. وبشكل أعمق من غالبية المحللين النفسيين الآخرين من قبله وصف إيركسون الفروق الدقيقة المعقدة للخجل، بالشكل الذي تظهر فيه في أيامنا هذه في الاضطرابات المتنوعة لشعور الوجدان النرجسي بالذات self-feeling of narcissistic affect بكل براعة. ولكن فيما إذا كان بإمكان المرء بالفعل أن يعزو كل ظواهر القهر بدءاً من استحواذات الحياة اليومية وصولاً إلى الأمراض

(1) يشدون وزرنا.

القهرية الطبية النفسية، في سببها الأساسي إلى خنق الإرادة الطفولية، فإن ذلك يظل مجرد تخمينات.

ومن المؤكد أن السؤال فيما إذا كانت تتم ضمن ظروف المساواة في المجتمعات الصناعية الحديثة تنمية الاستقلالية وقوة الإرادة لدى العدد الأكبر من الأطفال بدرجة كافية بعد، هو سؤال جوهري. فالعروض الاستهلاكية من كل الجوانب، والسيل الإعلامي أقرب لأن تنمي لدى الوالدين المزعزعين في مبادئهما التربوية ونقص المجال في إمكانات التفتح الحركي النكوص لوضعية مطالب سلبية فمية أو أشكال من التوكيد غير المراعي للآخرين للذات وهي قلما تتفق مع تصورات إيركسون عن الاستقلالية السليمة.

4.4 سن طفل الروضة: المبادرة مقابل مشاعر الذنب[1]

تفتتح المهمة النهائية التالية «المبادرة مقابل الشعور بالذنب» من ثلاثة دفعات نهائية قوية في السنة الثالثة من الحياة: «1- يتعلم الطفل التحرك بصورة أكثر حرية وقوة ويكتسب من خلال ذلك حقل نشاط آخر، يبدو له غير محدود؛ 2- تكتمل قدراته اللغوية إلى درجة أنه يستطيع فهم الكثير ويسأل عن الكثير، ولكنه أيضاً يلتبس عليه الكثير؛ 3- توسع اللغة وحرية الحركة مع بعضها عالم تصوراته بحيث أنه يخيف نفسه من صوره الذاتية التي يحلم بجزء منها ويفكر في جزئها الآخر» (1981 «ب»، صفحة 87). وما يقصده إيركسون بالمبادرة يمتد لأبعد من التوكيد الخالص للذات للسنة الثانية من العمر. فالأطفال يصبحون للمرة الأولى قادرين على الالتزام بمهام ملموسة، وتنفيذ مخططات وتحقيق أهدافهم الخاصة، وهذه عبارة عن نوعية سلوكية تعبر عن نفسها في التماهيات ولعب الأدوار في هذه المرحلة بطريقة خصبة جداً بالخيال. وبالتوازي مع هذا ينشأ الضمير، ذلك العضو الإنساني النوعي لمراقبة الذات، يراقب كل التصرفات

(1) Initiative vs. Guilt Disgust.

العفوية ويقيدها. فإذا ما تم تقييد المبادرة الطفولية بشدة من خلال مشاعر الذنب المفرطة يمكن أن ينجم عن ذلك كبح عصابي طوال الحياة.

وتتجلى المبادرة المتزايدة في هذا السن بصورة خاصة في سلوك فضول متزايد. فالطفل يمزق الألعاب الصوفية المحشوة ويفكك الساعات والأجهزة ويطور ولعاً لا يكل بالمعرفة حول حياة الراشدين. فمنذ الآن يستطيع الأولاد والبنات أن يصبحوا في اللعب والخيال كل شيء وأي شيء، يتخيلون أنفسهم في أبطال كتب الحكايات والأفلام، ويقلدون أدوار الشرطة أو رجال المطافئ أو الأطباء أو المشهورين أو الرياضيين، ويتخيلون أنفسهم مثل والديهم، يمتلكون بيتاً أو يقودون السيارة. وفي هذه المرحلة الثالثة من النمو يكون الليبدو قد أزيح إلى المنطقة التناسلية. فيحقق الأطفال لأنفسهم من خلال اللعب بأعضائهم الجنسية مشاعر السرور ويتمحور جزء من المبادرة والولع بالمعرفة لهذه المرحلة على إيضاح الدقيق للهوية الجنسية الذاتية. فيهتم الأطفال الآن بشكل أكثر كثافة بالفروق الجنسية ولا يملون من فحص أجسادهم من خلال لعبة الدكتور مستثارين من خلال الدوافع الجزئية للاستعراضية exhibitionism والاختلاسية voyeurism. ويتم إدراك العلاقة الجنسية بين الأب والأم بصورة غامضة. فمن خلال خليط من الفضول والقلق يطرح الصبيان والبنات تخمينات حول أسباب الفروق الجنسية والممارسة الجنسية والتكاثر والحمل والولادة أو يحاكون بطريقة لعبية العملية الجنسية Coitus. وبالطبع لا يكون عضو الصبي الذكري قادراً على الولوج في جسد ما. بالإضافة إلى ذلك يبدو كل عدم الاستقرار الحركي والفضول الملحاح في هذه المرحلة من العمر وكأنه «مُقتحِم»[1]، ويعتقد إيركسون بأنه يتم التعبير عن المنظومة القضيبية phallic Modus على الأقل رمزياً في مجموعة من التصرفات والتخيلات المطابقة: «إنها تشمل الإلحاح على الآخرين والاعتداء عليهم من خلال الهجوم الجسدي؛ والولوج في أذنيهم ووعيهم من خلال الكلام العدواني؛ واقتحام في المكان من خلال التطواف

(1) ملحاح.

القوي؛ واقتحام المجهول من خلال الولع النهم بالمعرفة» (1981، «ب»، صفحة 89).

ويتجه التوجه الجنسي للصبي نحو قضيبه الجنسي. فهو فخور بهذا العضو البارز للخارج، القادر على الانتصاب، وفي الواقع «المميز» و «القوي»، يمنحه أحاسيس مريحة - ممتعة عندما انتشار رائحة بوله المنثور وعند الاستثارة اليدوية. أما البنات الصغار فالأمر أصعب عليهن، لأنهن لا يمتلكن هذا الجزء الملموس من الجسد بالمقارنة مع البظر clitoris الصغير والمختفي ومن ثم تنقصهن الكثير من المكاسب في كثير من الأطر الثقافية. وضمن ظروف معينة يمكن للانزعاج من الإجحاف الموهوم أن يسبب في الغالب إحساساً كامناً لاشعورياً بالدونية تجاه الرجل، وهو ما وصفه فرويد تحت مصطلح «حسد القضيب».

اختار إيركسون فيما يتعلق بسعي الطفل «الولوج» في عالم الكبار في اللعب والبناء والتشكيل، وتقليد المثل العليا الكلمة «فعل[1]» بالمعنى الإنجليزي «أنجز being on the make»، على ما يبدو لوصف المظهر الاجتماعي للسلوك الحركي-القضيبي -phallic locomotoric: «تجعلنا الكلمة نفكر بمتعة المنافسة، بالطموح نحو الهدف ومتعة الاقتحام. ولدى الصبي يظل تركيز الفعل على التدخل المباشر (لتحقيق الهدف، لجعل البنت to make a goal, to make a girl)؛ والفتاة سوف تنصرف عاجلاً أم آجلاً نحو إنجاز طريقها بحيث أنها تجعل من نفسها جذابة ومحبوبة. وهكذا يطور الطفل الشروط المسبقة للمبادرة الذكرية أو الأنثوية، أي لاختيار الأهداف الاجتماعية ومتابعتها باستمرار» (1981 «ب»، صفحة 92).

وكلمة «عمل machen» يصعب مساواتها بالدلالات التي لا تحصى للكلمة الإنجليزية «to make». ومع ذلك فإن المطابقة بين الأنظمة التناسلية «الولوج[2]

(1) الكلمة الألمانية machen: عمل، فعل، أنجز، تصرف، أقام أتم، صنع، قام بعمل ما...الخ. وتستخدم في سياقات كثيرة حسب المعنى، وقد يقابلها بالإنجليزية to make إلا أن الكلمة الإنجليزية لها دلالات أوسع بكثير من الكلمة الألمانية.

(2) التدخل، الاقتحام، الاختراق،النفاذ intrusion, irruption, penetration, permeation.

penetration« و«الاحتواء to begird» ليست منطقية كلية. ففي هذه المرحلة من النمو يظهر أن إيركسون يصمم دورة حياته من المنظور الأقرب للذكورية وينقاد هنا من قبل القوالب النمطية الجنسية الإشكالية. وما يصفه تحت المبادرة الطفولية هو أقرب إلى النشاطات الذكورية- الصبيانية. ويبدو أن أعلى مطلب للفتاة هو أن تحظى بإعجاب الرجل و «اصطياده» من خلال ذلك في يوم من الأيام.

ينظر التحليل النفسي لهذه المرحلة من النمو على أنها مرحلة حاسمة جداً لأنه هنا تبدأ للمرة الأولى الجنسانية الطفولية بالتوجه بالمشاعر والخيالات على شريك ملموس. وقد أكد فرويد في نظريته حول النمو، ما عرفه كثير من الشعراء والأدباء دائماً بصورة حدسية: فالصبيان والبنات يختارون الجزء المعاكس لجنسهم من والديهم كموضوع للحب الأول في حياتهم ويطورون ارتباطاً عاطفياً- حانياً، مكثفاً به. وبهذا يكون قد تم تمهيد الأرضية لتلك العلاقة الثلاثية المشحونة بالصراع، التي أطلق عليها فرويد بالقياس إلى الأسطورة الإغريقية «مركب أوديب Oedipus complex». فالابن الصغير أو البنت الصغيرة يريدان الاهتمام بهما من الوالد من الجنس المعاكس لهما، ويسعيان نحو الحصول على محبته، يحبون النوم إلى جانبه في السرير أو أن يقوموا معه بأشياء لوحدهم. فخلف دلال البنات على آبائهم أو الاهتمام الحنون للصبي تجاه أمه يكمن وفق الرؤية التحليلية النفسية حدث دافعي كبير. ويتم استثارة الأطفال جسدياً من والديهم ويربطون معهم خيالات شهوانية. وكأن الأمر يتعلق بأول «مغامرة حب» مسبَّقة، تتحول فيها صورة الوالد من الجنس نفسه باضطراد إلى ند محسود ومنافس مزعج.

ويمكن لمشاعر الغيرة المخفية أن تتصاعد إلى تصورات شديدة الجرأة، في الرغبة بالحلول محل الأب أو الأم في أدوارهما الزوجية، وهو ما يتضمن الرغبة السرية بأن يذهب أو يزال[1]. وعبر شهور تصطدم الهوامات الأوديبية للطفل بصراعات ومشاعر ذنب، إذ أنه يظل في النهاية يحب الجزء المطابق من الوالدين أيضاً، كما عليه أن يخشى

(1) الجنس المعاكس من الوالدين

بالدرجة نفسها من أن يعاقبه المزاحم الجبار بشدة. وقد يتصاعد هذا إلى مخاوف، وبالذات من أن يتم قطع تلك الأجزاء من الجسد بالذات، التي تستمد الاستثارات المحرمة مبتغاها المحرم: فلدى الصبي الخوف من فقدان العضو الذكري، ولدى البنت بأنها قد فقدت عضوها أصلاً (مركب الإخصاء) أو بالمعنى الأوسع أن يجرح أو «يشذب» في إمكاناته-للمبادرة. ويقول إيركسون حول الصراع الأساسي لهذه المرحلة: «ففي حين أن الصراع حول الاستقلالية يركز في أسوأ الحالات على تعطيل المزاحم ولهذا فقد ظهر أكثر من خلال صب الغضب الغيور على الأخ الأصغر، ينشأ مع المبادرة المتنامية تمرد مسبّق تجاه أولئك الذين كانوا أول الموجودين هنا والذين لهذا تمكنوا بعتادهم المتفوق الحفاظ على ميدانهم، الذي تتوجه إليهم مبادرتهم. فتظهر الآن الغيرة والمنافسة، وهذه غالباً ما تكون محاولات مريرة ومع ذلك فاشلة لتأمين منطقة من الامتياز غير القابلة للمنافسة، في صراع نهائي على الأب أو الأم، والفشل المحتم والضروري يقود إلى مشاعر الذنب والقلق» (1981 «ب»، صفحة 39).

وبعد وقت طويل من القتال الصراعي والمشاعر المتنازعة يقر الطفل بهزيمته ويكبت رغباته السفاحية incestuous إلى اللاشعور، وهي خبرة لها عواقب عميقة حسب إيركسون: «فالسيطرة المتقدمة على جهاز الحركة والاعتزاز بكونه كبير كالأب أو كالأم، إلا أنها تحظى بصدمة ثقيلة من خلال المعرفة بأن المرء خاضع بوضوح في المجال الاجتماعي، ودفع إضافي من خلال أن المرء نفسه لن يكون أبداً في المستقبل البعيد الأب في علاقته الجنسية بالأم أو الأم في علاقتها الجنسية بالأب. والعواقب الانفعالية العميقة جداً المنبثقة عن هذا الاستبصار وما يرتبط بذلك من مخاوف سحرية هي ذلك ما أطلق عليه فرويد مركب أوديب» (1981 «ب»، صفحة 90).

وقد وصف فرويد مركب أوديب على أنه «المركب الجوهري لكل عصاب» (الأعمال الكاملة VIII، صفحة 50)، وعموماً كنقطة تلاقي مصيرية لنمو الشخصية، تميز بطرق متنوعة سمات الطبع والسلوك الاجتماعي لإنسان ما. والعلماء اللاحقون من التحليل النفسي حققوا كماً من طرق التمثل الطبيعية نسبياً حتى المرضية الشديدة لمركب

أوديب. إذ يمكن للمرء أن يظل طوال حياته مثبتاً على الإشكالية الأوديبية، من نحو أن يقيس نفسه باستمرار بمنافس جبار أو عليه دائماً أن يشكك برموز السلطة. ويمكن للمرء أن يتجنب المركب بشكل سلبي. كأن لا يتنافس الصبي على سبيل المثال مع الأب وإنما يطور اتجاهاً خضوعياً - رخواً تجاهه، ويتماهى أنثوياً، وهو ما يمكن أن يكون صعوداً في الجنسية المثلية اللاحقة. ومثل هذه الاتجاهات الأنثوية-السلبية من جهتها يمكن ثانية أن تتم المبالغة في تعويضها من خلال ظهور مفرط الرجولة، قلما تجعلنا نقدر مخاوف المنافسة والإخصاء الكامنة خلفها. والناس الذين يكونوا دائماً تحت طاقة كاملة عليهم دائماً أن يصدوا من خلال مبادرة تجري دائماً بكامل طاقتها مشاعر الذنب والمنافسة ويمارسون عملية استنزاف لجسدهم، مما يكون له حسب إيركسون نصيباً شديد العواقب في «أمراض عصرنا السيكوسوماتية كثيرة النقاش» (1981 «ب» صفحة 123).

التغلب الكامل على مركب أوديب لا ينجح أبداً. فكل إنسان يحمل في أعماقه وبشكل كامن صورة حلم سرية عن «الشريك المثالي أو يخشى من القصاص أو الهزيمة الأوديبية، ومن الرغبات السرية ونزوعات الغيرة والمخاوف التي تمس مراراً في الهوامات الشهوانية والإغواءات والإغراءات الكامنة للحياة اليومية ففي كل علاقة ثنائية حميمية يمكن أن يكون الثالث موضوعاً للتلهفات الأوديبية القديمة أو يمكن أن يتحول إلى منافس مزاحم. ولكن لا نستطيع الحديث عن وجود تمثل عصابي لمركب أوديب إلا عندما تعاق المواجهة المناسبة لسن الرشد بشكل شديد. ويمكن هذا أن يكون موجوداً على سبيل المثال عند الناس الذين على الرغم من أنهم جذابون وذواقون إلا أنهم لا يستطيعون الدخول في علاقة طويلة على الإطلاق، أو لدى الهستيريين الذين لا يعودون يحسون بأي شيء على الإطلاق، بمجرد امتلاكهم «الشريكهم الحلم». وفي كل الأحوال يكشف التحليل العلم نفس أعماقي التثبيت على صورة مثالية للأب أو الأم، لا يستطيع أي شريك واقعي المنافسة معه على المدى الطويل.

وكثيراً ما تم رفض مذهب فرويد في مركب أوديب باعتباره مبالغة مطلقة، وحتى

داخل علم نفس الأعماق افترقت الطرق عند هذا الموضوع. فكثير من ممثلي علم النفس الفردي والمحللين النفسيين الجدد رأوا أن حاجات الاعتبار والأمن هي المحدد الفاصل للتودد الأوديبي عند كثير من الأطفال، إلا أنهم رفضوا وجود مركب أوديبي عام وقبله الدوافع الجنسية الكامنة خلفه. ويلفت إيركسون النظر إلى أن الأمر يتعلق هنا بحدث لاشعوري عميق وغير منطقي. وبالطبع من الممكن للصبي الصغير ألا يبتغي جنسياً أمه أو يطيح بوالده بصورة تشريحية خالصة pure anatomic. ومع ذلك ستظهر عاجلاً أو آجلاً مشاعر المنافسة والغيرة الأوديبية كنسج من الهوامات اللاشعورية في كل تحليل نفسي، كثيراً ما نعثر على صراع الأب-الابن كدافع أساسي في التاريخ والأدب العالمي. ويظل إيركسون عند الرأي القائل بأن مركب أوديب يمثل بداية مرحلة مهمة في النمو الطفولي وأنه ينبثق من منابع دافعية - بيولوجية. والكره المكبوت للطفل للوالدين الجبارين ينتقل في سن الرشد إلى كل الصراعات الممكنة مع المنافسين والمتسلطين وذوي الامتيازات، ويقوي الترسانة الداخلية للهدمية ويمكن أن ينفجر في مواقف الأزمة بصورة مزعجة. وبالنظر لأهوال التاريخ يعتقد إيركسون بأن التحليل النفسي لا يستطيع إلا وأن يؤكد التكهن القائل: «بأن كل طفل جديد هو حامل ممكن للّعنة الأوديبية، وقتل الأب مازال دائماً تفسيراً أكثر تصديقاً بالنسبة لكل آفات العالم من قتل الطفل» (1982، صفحة 231).

ولكن إيركسون لا يرى في هذا الموضوع المخاطر فقط، وإنما يريد أن يلقي الضوء أكثر على إمكانات النمو الإيجابية، المنبثقة عن التغلب الناجح على مركب أوديب. فمن خلال كبت الرغبات السفاحية incestuous يتم تحرير الكثير من الطاقات من أجل أهداف أخرى. وفي هذه المرحلة من النمو بالتحديد فإن الأطفال مستعدون ليتعلموا بسرعة وفضول، وذلك على حقول المبادرة حيث لا يحتل النقص[1] تجاه الوالدين وزنا كبيراً. ففي اللعب المشترك أو التركيب أو ممارسة الرياضة يكون الأب بالنسبة للصبي

(1) أقل من الوالدين، أو مغلوب على أمره تجاههما.

والأم بالنسبة للبنت رمز تماهٍ قوي، يبدأ المرء تشكيل دوره الجنسي الخاص عبر مثالهم. فإذا ما تمكن الوالدان من الإيصال لطفلهم في التخطيط للحياة الأسرية أو في رحلات الإجازات خبرة القيمة المساوية، وإن كان هناك فرقاً في العمر، فإنه يمكن أن تترعرع عن ذلك علاقة رفقة، تقلل الكثير من مشاعر النقص والغضب الكامنة، التي تنشأ عادة من المواجهة بين الجيل الأكبر، الأقوى والجيل الأصغر، الأضعف.

عندئذ يتماهي الصبيان والبنات مع عالم قيم والديهم بشكل أقوى، وتنتظم كل التحذيرات والتعاليم التي خبرها الإنسان منذ الطفولة المبكرة في أول منظومة أخلاق مترابطة. لقد تحدث فرويد عن الأنا الأعلى، المرحلة ما قبل الطفولية لضمير شخصي ناضج. ومثل الحاكم governor الداخلي تحرس هذه الجهة الداخلية الصارمة منذ الآن كل الهوامات والقرارات العفوية، وتستجيب بمشاعر الذنب ونزعات عقاب الذات، إذا ما ذهب الطفل «بعيداً في أفعاله وكلماته». ويرى إيركسون أن الطفل يشعر الآن «ليس محرجاً فقط، إذا ما تم اكتشاف جرائره، وإنما يبدأ أيضاً بالخوف من الاكتشاف. إنه يسمع صوت الله إذا جاز التعبير من دون أن يراه. بالإضافة إلى ذلك يبدأ بالشعور بشكل آلي بالشعور بأنه مذنب فيما يتعلق بالأفكار المجردة وأفعال لم يرها أحد. وهذا هو الحجر الأساس للمبادئ الأخلاقية Morality بالمعنى الفردي» (1981 «ب»، صفحة 94).

وهذا الدمج consolidation الأول للضمير يحصل في مرحلة من عدم النضج الاستعرافي النسبي يضاف إليها التعلق الأعلى بالراشدين. فالأطفال لا يزالون في هذه المرحلة غير قادرين على فهم معنى التعاليم وتوقع مقدار الضرر الممكن. وأحياناً تنمو لديهم مشاعر ذنب متطرفة بسبب صحن مكسور أو يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن أمور ليس لهم فيها موضوعياً أي ذنب (حزن الأم، طلاق الوالدين). ولهذا السبب بالتحديد يرتبط الأمر هنا بالوالدين المحبين والمتفهمين. فكل طرق التربية التسلطية- التخويفية توقظ في روح الطفل مخاوف شديدة وتترك الانطباع وكأن الأمر أن الأخلاق تعني تعسف وجبروت السلطة. وفي بعض الأحيان ينتظر الطفل عندئذ ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن يرد فيه للآخرين ما فعلوه به.

وكلما سار سن اللعب بصورة أكثر حيوية نمّى الطفل بشكل أكثر وضوحاً المتعة في التعبير عن ذاته في اللعب والرياضة والخلق الفني، ويحافظ على كنز من عالم الأفكار والفضول ونزعة البحث في حياة الرشد، بالشكل الذي لا غنى عنه بالنسبة للأشكال الراشدة للعب والفن والمسرح ...الخ. والمبادرة المكتسبة هنا تجعل الصبيان والبنات مستعدين واعين بذاتهم ويتابعون مهماتهم بتوثب. ويتحدث إيركسون عن الفضائل الجديدة «للتصميم»، عن «الشجاعة»، على وضع الأهداف المدركة على «أنها ذات قيمة نصب العينين ومتابعتها، بدون أعاقة من خلال هزائم الهوامات الطفولية، ومن خلال مشاعر الذنب والخوف الشال من العقوبة» (1966 «أ»، صفحة 110). المبادرة والتصميم من ناحيتهما يصبحان لاحقاً شرطان لنشوء «الإقدام» في الطموحات الاقتصادية والتقنية لسن الرشد. وعليه يكمن بالنسبة لإيركسون نمو الهوية في هذه المرحلة في القناعة المتزايدة، «من دون أن أكون مكروباً بمشاعر الذنب، بأن أصبح، ما أتصوره عن نفسي» (1981 «أ»، صفحة 124).

وبالمقابل تشل مشاعر الذنب المفرطة الحجم المبادرة والخيال. كل الرغبات العفوية، كل ما يمكن أن يستثير المنافسة، كل رأي خاص كل تمثيلات الذات تبدو وكأنها مقموعة من رقيب لوام. والكبح هو ظاهرة تميز الكثير من الأعراض العصابية، بدءاً من ضعف التفكير واضطرابات الكلام عبر تشنجات الإيماءات والحركات وصولاً إلى فقر المشاعر والعجز الجنسي impotence. وكل أسباب الاتجاهات غير المفهومة المعيقة للذات – من نحو الفشل المزمن في الدراسة أو المهنة أو اختيار شريك حياة غير ملائم على الإطلاق على سبيل المثال- غالباً ما يردها التحليل النفسي إلى مشاعر الذنب اللاشعورية حول المنافسة مع الوالد من الجنس نفسه. وبالطبع يمكن أيضاً أن يحدث فرط تعويض في مخاوف هذه المرحلة من النمو. فالهستيري هو شخص دائم البحث عن اتصالات وأفكار جديدة، كثير المبادرة نحو الخارج؛ ولكن خلف قناعه ودوره الذي يمثله غالباً ما تكمن عدم الثقة ومشاعر الذنب والنقص.

وبكثير من التعاطف والفكاهة يصف إيركسون حيوية وغنى أفكار سن اللعب.

وبصورة أكثر تفاؤلاً من فرويد يرى إيركسون هنا مرحلة لعب الأدوار الغني بالخيال والمواجهات البادئة مع سن الرشد. وهذه المبادرة التي ينبغي النظر إليها على أنها تصعيد للسلوك القضيبي phallic «المقتحم» هي إحدى تأملات نظرية الليبدو. ومنذ هذه اللحظة على أقصى تقدير لابد للمرء أن يتساءل، فيما إذا كانت مراحل النمو لإيركسون تمثل بالفعل مواضيع حياتية عالمية، ملزمة لكل الثقافات والعصور. ألا تتطابق تعابير من نحو «الاستقلالية» أو «المبادرة» أو «الاجتهاد» أو «قوة الإرادة» أو «التصميم» مع أخلاق العمل الكالفينية، ألا يتعلق الأمر بفضائل تمثل «الأمريكي الطيب»؟ وحتى الأزمة الأوديبية يمكن عبورها بشكل جيد، عندما يتعلم الأطفال فقط، كيف يتعاون «الشركاء المنسجمون». ومن ثم ربما يمكن لهذه المرحلة من النمو من النمو أن تمهد بشكل جيد لرجل الأعمال المحب للتجربة الذي تعلم كطفل اقتناص فرصه من دون الكثير من مشاعر الذنب الكابحة.

4.5 سن التعليم الأساسي: «الاجتهاد مشاعر النقص»[1]

منذ السنة السادسة من الحياة يكتسب الصبيان والبنات باطراد متزايد المعرفة ويريدون اختبار مواهبهم. ويمكنهم الاندماج باجتهاد وهم في موقف إنجازي . وهنا يتفتح الاجتهاد لدى الطفل والاعتزاز بإنجازه الخاص والابتهاج بإكمال عمله وإبداعيته، في حين يتم في حال الخبرة الكبيرة لعدم الصلاحية مشاعر نقص قوية وعلى الأغلب مدى الحياة. ولا تعود تمتلك خبرة هذه المرحلة النهائية بالنسبة لإيركسون مجرد طبيعة لعبية: «بما أن النشاط يعني أيضاً أن المرء يفعل الأشياء إلى جانب الآخرين ومعهم فإنه ينمو في هذه المرحلة شعوراً دائماً بتقسيم العمل والفرص المختلفة – وهذا يعني شعور بروح العمل في ثقافة ما» (1981 «أ» صفحة 128).

ويبدو بأن كل المجتمعات تقوم باستغلال القدرات المعرفية العليا للمرحلة الكامنة

(1) Industry vs. Inferiority

بطريقة خاصة كوقت للتعليم. فحتى لدى الشعوب البدائية يتعلم الأطفال استخدام الأجهزة والأسلحة والأدوات ويصبحون بالتدريج متآلفين مع الأدوار الاجتماعية كصيادين حيوانات وسمك أو صناع أو طباخات أو خياطات. وفي مجتمعات المعرفة يذهب الأولاد والبنات للمدرسة لعدد محدد من السنوات وعليهم أن يتعلموا الاندماج في جماعة من الأتراب، واحترام سلطة المعلم وأن يعملوا بالتزام للمرة الأولى لفترة زمنية أطول.

ويعد إيركسون إلى جانب أنا فرويد Anna Freud وآيشهورن Aichhorn من أوائل المحللين النفسيين الذين بينوا العالم الاجتماعي الخاص للمدرسة وأهمية التعلم لنمو الشخصية وقدموا مساهمات مهمة للتربية المدرسية من منظور التحليل النفسي. فالمدرسة تكسب ذخيرة أساسية من المعرفة وتشكل صورة العالم واهتمامات الإنسان. وعبر الحياة كلها تظل فترة المدرسة راسخة في الذاكرة كمجمع من الصور والخبرات: طريق المدرسة، بناء المدرسة، ذكريات عن تلاميذ المدرسة والمعلمين الذين كان يخاف المرء منهم أو مع الذين تشيطن معهم أو الذين أصبحوا مثلاً أعلى.

والمدرسة بشكل خاص هي المكان الذي تم فيه للمرة الأولى في حياة الطفل تقويم نجاحه وفشله بشكل منهجي. فاهتمام الوالدين والمعلمين واعترافهم يرتبط الآن بالإنجاز المدرسي. والطفل يعيش نفسه على أنه كفء أو غير كفء، متفوق أو أقل من غيره، مجتهد أو غير متحمس، وهي خبرات جديدة، تصب في هوية العمل البادئة بالتشكل. وتؤكد دراسات إمبيريقية حديثة كيف يقوي النجاح المدرسي عموماً مشاعر الكفاءة والمظهر الاجتماعي للطفل، في حين يمكن للخبرات المدرسية السلبية أن تدمر مشاعر القيمة الذاتية - وبالمطلق الدافعية للعمل المنهجي- بصورة وخيمة. وفي البدايات بالتحديد لا يحتاج الإخفاق الدراسي إلى ربطه بأي شكل من الأشكال مع انخفاض الموهبة. فالإنجاز له دائماً علاقة بالمنافسة. وفي بعض الأحوال يحدث نقل الميول التنافسية للمرحلة الأوديبية إلى جماعة الأخوة الموسعة للتلاميذ: إذ يرغب المرء في سره أن يكون أفضل أو أذكى أو أقوى من الأطفال الآخرين، ولكنه يخشى من

ناحية أخرى حسدهم ومن الممكن أن تنمو لديه مخاوف من الدرجات والاختبارات، التي تنعكس في كبح التعلم والتفكير. وبشكل لاشعوري يمكن للمعلم أن يمثل أباً رخواً جداً أو مهدداً جداً، يتحداه المرء أو يطور تجاهه الخوف، ويمكن للمعلمة أن تتحول إلى أم صادة جداً يشعر المرء أنها ترفضه وتسيء فهمه. كما يصبح حسب إيركسون الظلم الاجتماعي مدركاً في سن التعليم الأساسي. فالخيبة إرادة التعلم ليست هي الأمر الحاسم للحصول على الفرص في المجتمع بل لون الجلد والمرتبة الاجتماعية أو غنى الوالدين، يمكن أن تثبط الطفل بعمق وتقود لتراجع شديد في الإنجاز.

ومن دون البناء الحافز «العلاقة نقل إيجابية» لشخص المعلم فإن الطفل يكاد يظل غير قادر على الامتلاك الليبدوي للمادة التعليمية ولعالم المدرسة عموماً. وعلى معلم مرحلة التعليم الأساسي الاعتراف بمساعي تلاميذه، من دون المبالغة وإكسابهم عند الإخفاقات إحساساً بالفروق المختلفة في القدرة، من دون خجل. ومن المؤكد أنه لا يمكن للمعلمين أن يجروا تحليلاً نفسياً، إلا أنه عليهم حسب إيركسون أن يمتلكوا الكثير من المعرفة العلم نفس أعماقية من أجل التمكن من التمييز بين انخفاض الموهبة العقلية الحقيقية وأزمات التطور العصابي. كما أنه من المهم وضع النقل المعاكس على التلاميذ نصب الأعين. فمن الممكن للمعلم أن يفضل أفضل رياضي أو أجمل بنت، أن يقاوم في الطفل المتحدي نزوعاته التمردية الذاتية أو يوقظ فيه منخفض الموهبة حيرته الذاتية.

لا يظل تفتح خبرة الاجتهاد مقتصراً على المدرسة فقط. إنه الوقت الذي يكتشف فيه الصبيان والبنات اهتماماتهم ويمارسون هواياتهم الأولى ويذهبون إلى النوادي الرياضية ويأخذون دروس موسيقى ورقص الباليه. والمهم هو أن يمتلك الوالدان نظرة لمواهب طفلهم من دون أن يسيئوا تخطيط وقت فراغه بطريقة مفرطة اللطافة. ففي هذه المرحلة يلقي الأطفال أهمية كبيرة بصورة خاصة على اعتراف الراشدين. فعلى الأب أن يرافق أولاده إلى ملعب الرياضة أو يساعد في إصلاح الدراجة أو بناء لعبة سكة القطار؛ يجب الطفل أن يمثل دوراً أو يعزف مقطوعة أمام الوالدين ويحظى بالتصفيق. وأن يتمكن

من القيام مع مثل أعلى راشد بتركيب وتفكيك شيء ما وأن يعمل وأن يتم تقبله في هذا كشريك متساو الحقوق. فإذا ما تم ترك الطفل في هذه السنوات على راحته بدرجة كبيرة، عندئذ يغلب أن تظل كل مواهبه ومجالات اهتماماته بائرة.

وهكذا ينمو في الطفولة المتأخرة اتجاه أساسي للعمل والإنجاز والإبداعية. أما المساهمات الباقية لسن المدرسة في الهوية فتقول: «أنا، هو ما أستطيع تعلم جعله يعمل» (1981 «أ»، صفحة 130). فإذا ما غلبت الخبرات المشجعة ينمي الطفل الثقة بالذات في كفاءاته الذاتية Self efficacy ويصبح مستعداً للتعاون بدأب واجتهاد. وعن ذلك تنبثق ثانية الفضيلة الأساسية الرابعة «الكفاية»، «الاستخدام الحر للمهارة والذكاء في تنفيذ الواجبات، غير معاق من مشاعر النقص الطفولية. إنها أساس المشاركة التعاونية بالتقنيات وتقوم من ناحيتها على منطق الأدوات والمعارف» (1966 «أ»، صفحة 112). أما خطر سن التعليم الأساسي فيكمن في نمو مشاعر النقص المعذبة المتمثلة في عدم الصلاحية لأي شيء وأن المرء أقل من الآخرين ولا يمكنه أن ينجز شيئاً، وهو ما يمكن أن يكمن لاحقاً خلف كل الأشكال الممكنة من النفور من التعلم واضطرابات العمل. وفي عدد كبير من الأعراض العصابية للراشدين - رهاب الاحمرار المزمن أو الفشل غير المفهوم في الإنجاز أو الخوف من الامتحان أو التكلم أمام الجمهور- يبدو أن الخبرات السلبية لسن المدرسة مرتبطة بالمخاوف والصراعات الطفولية الباكرة.

وكواحد من أوائل المحللين النفسيين قام إيركسون بتقويم المرحلة الكامنة وأشار إلى مدى إسهام الاعتراف بالإنجاز الطفولي والمهارة بتقوية الأنا[٧]. ويتحدث إيركسون القليل جداً عن خطر أن يحاول الأطفال في مجتمع المنافسة الحديث، حيث يحدد النجاح المدرسي حصول الطلاب على المقاعد الدراسية المحدودة، الاستمرار الحصول على الاعتراف من خلال إنجازهم فقط، وبشكل خاص عندما يكون عليهم أن يخففوا بالإضافة إلى ذلك من خلال النجاح الخارق الشك النرجسي للوالدين بالذات. فيحاول مثل هؤلاء الأطفال وبصورة معذبة لذاتهم تحقيق مثل الكمال المفرطة، فيلوح هناك خطر ضمور اللعب والإبداعية والانفعالية. وفي سن الرشد ينبثق عن ذلك بسهولة

أشخاص مستعرضون لذاتهم مفرطوا الطموح، يستمدون التوكيد فقط من خلال استعراض قدرتهم، أو أولئك المدمنين على العمل المكدودين، يصدون مشاعر القلق أو الاكتئاب أو الذنب الكامنة من خلال واجب العمل القهري.

ومن الممكن أن تأخذ هذه المرحلة الرابعة من النمو «طبيعة جدية» وتهيئ على الاندماج في عالم عمل المجتمع. وقد رأى فرويد العمل على أنه جزء من العبء وتقييد الدافع الثقافيين وقلما اهتم بشكل أقرب بتأثير النشاط المهني على الحياة النفسية للراشد. أما إيركسون فقد اعتبر العمل الذي يشكل جزءاً كبيراً من حياتنا اليقظة ويؤثر على صورة الذات والوضع الاجتماعي، على أنه أحد أكبر مجالات مشكلات التحليل النفسي المهملة. ويعتقد إيركسون أنه في كل العصور قد أسس البشر هويتهم من عملهم، وجدوا ويجدون رضاهم في الغنيمة المقتنصة أو المحصول المجني أو البضائع المنتجة أو الخدمات الاجتماعية أو مشكلة تقنية محلولة. لقد كان تأكيد إيركسون على لحظة السعادة الناجمة عن القوة البناءة مهماً، وهو ما يعد اليوم في إعادة تأهيل المرضى نفسياً أساسياً بدرجة كبيرة. ولكن أليست إمكانية تحقيق الذات في العمل هي امتياز لجماعة ذات حظوة؟ هل يمكن أن يعدل المرء مع عدد كبير من البشر الممسوحة شخصيتهم ضمن ظروف العمل الرتيب monotone، ناهيك عن الجماهير المعذبة في العالم الثالث، الذين عليهم أن يسدوا الحد الأدنى من رمقهم في كدح لا يليق بكرامة الإنسان؟ كما أنه من المثير للدهشة ألا يتابع إيركسون هذا الموضوع حتى النهاية. فهو قلما تطرق للكيفية التي يدخل الاجتهاد في نهاية الشباب بشكل ملموس في هوية عمل وما هي تأثيرات النشاط المهني على خبرة الذات عند الإنسان الراشد.

فإيركسون مدرك بأن نمو الشخصية في المجتمعات الصناعية الحديثة حيث يحدد الغنى والنجاح المهني المظهر الاجتماعي وتهدد روح التجارة المسعورة بتقويض كل القيم الاجتماعية، غالباً ما ينتهي مع المرحلة الرابعة من النمو تقريباً. ومسائل الروح المعنوية ومشاعر النقص وإيجاد المعنى تنضوي تحت الصراع في سبيل الأهداف الاقتصادية. وباطراد يتحول الناس في هذه الأيام إلى نتاجات لاجتهادهم ويشبهون الآلات التي

تعمل بشكل تام. فعلى المرء أن «يسوق نفسه» للخارج بشكل جيد، وأن «يستثمر في العلاقات»، و «يصلح» المشكلات. فالأمر يتعلق برفع درجة المكاسب إلى أقصى حد وبالنجاح والفاعلية على حساب طبيعة مُستَغَلّة وعلاقات مُغَرَّبة. ومن المؤكد أن النجاح التقني في أيامنا يخطف الأنفاس، إلا أنه بالنظر إلى للإمكانات المخيفة، بدءاً من التلاعب التقني الجيني بالذخيرة الوراثية وانتهاء بالإبادة الجماعية الموجهة بالكمبيوتر، فإننا نحتاج إلى أكثر من أي وقت مضى إلى المبادئ الأخلاقية، كي يستخدم الإنسان قدرات اجتهاده في صالح نوعه البشري وليس ضده.

4.6 المراهقة: «الهوية مقابل قصور الهوية»[1]

سحر سن الشباب، تلك المرحلة من الحياة التي يغلب لها أن تعاش بكثافة ويمكن تترافق مع أزمات عميقة، منذ قديم الزمان الأدباء والفلاسفة. ويرى إيركسون هنا مرحلة من التجريب حيث تنضج في الشاب اليافع قرارات مهمة، حول كيف سيعيش ومع من يريد العيش ومن أجل ماذا يريد أن يعيش. والعبور إلى هوية الراشد المسؤولة عن نفسها هي مهمة صعبة. «فكيف يمكن للمرء توقع أن مرحلة ´شاذة´ كالمراهقة يستطيع تجاوزها؟» يتساءل إيركسون (1981 «ب» صفحة 144). وكيف، على المرء أن يتساءل، ينبغي حل مثل هذه المهمة بالنظر لمحمومية وسن بلوغ المجتمعات الصناعية الحديثة؟ ففي الثقافات البدائية والمجتمعات المحددة المقيدة بالتقاليد بشدة يجري العبور إلى سن الرشد بلا مشكلات على الأغلب. وكلما تطورت المجتمعات تقنياً أكثر وازداد تقسيم العمل طالت مدة التعليم والتخصص عند الشباب، بحيث يتزايد التباعد بين دخول النضج الجنسي والوصول إلى الرشد الاجتماعي.

ويتحدث إيركسون عن «تعليق اجتماعي نفسي psychosocial moratorium»، أي وقت انتظار مرخص اجتماعياً، حيث ينمو الشاب بالتدريج إلى وضع الراشد: «وهنا تتم

(1) Identity vs. Identity diffusion.

إعاقة الفرد الذي أصبح ناضجاً جنسياً والمكتمل في وظائفه العقلية في قدراته الجنسية النفسية على الحميمية وفي استعداده الاجتماعي النفسي للوالدية بدرجات مختلفة. ويمكن وصف هذه المرحلة بالتعليق الاجتماعي النفسي، وفي أثناء ذلك يبحث الإنسان عن مكانه من خلال التجريب الحر للأدوار في قطاع ما من قطاعات المجتمع، ركن، محدد بدقة ومع ذلك كأنه مصنوع من أجله. ومن خلال ذلك يكتسب الراشد الشاب الشعور الأكيد للاستمرارية continuity الداخلية والاجتماعية، الذي يشكل الجسر بين ما كان عليه كطفل وما سيكون عليه الآن؛ جسر هو في الوقت نفسه صورة، يدركها هو بنفسه، ترتبط مع الصورة التي يتم التعرف من خلالها عليه بين جماعته، مجتمعه» (1981 «ب»، صفحة 137-138).

تبدأ المراهقة من خلال دفق الهرمونات في بداية البلوغ. وخلال فترة زمنية قصيرة «ينطلق» الجسم نحو الأعلى. ويقود نمو الصفات الجنسية الأولية والثانوية وبداية الحيض menstruation أو الاحتلام pollution إلى خبرة ملموسة للهوية الجنسية. ويمكن لهذه الخبرة الجسدية الجديدة أن تكون مصدراً للفخر والاستقلالية. فالإنسان يشعر بأنه قوي وجذاب بين أترابه.

ومن ناحية أخرى يزعزع النقص الجسدي الفعلي أو المفترض (الوجه البشع، صغر حجم الثديين)، ومشاعر القرف الكامنة من أمور الدافعية الجسمية أو عدم الرضا عن الدور الجنسي الذاتي هوية البالغ.

ويزود التكيف الهرموني للنضج الجنسي الهو بوقود جبار. إذ لا يتوفر بعد موضوع جنسي ملائم للتوتر الجنسي؛ فالدافع يمتلك طبيعة الملحاح ويعلن عن نفسه من خلال الهوامات الجنسية المتصاعدة، مرتبط على الأغلب بأفعال من التهيج الذاتي[1] autoerotism. وقد وصف التحليل النفسي المراهقة بأنها زمن ضعف الأنا. إذ يمكن لدوافع وهيجانات الهو أن تنفجر بصورة يتعذر ضبطها في سلوكات وتستثير من ناحية

(1) تهيج ينشأ من غير مثير ظاهري أو معروف.

أخرى مشاعر ذنب متعاظمة للأنا الأعلى، كما هو مألوف بالنسبة لتأرجحات المزاج المتطرفة والتغيرات السلوكية المفاجئة للبالغ.

وبصورة خاطفة يتكرر النمو الجنسي الطفلي الباكر مرة أخرى. فتتجلى التثبيتات الفموية في الاتجاهات الاستهلاكية السلبية: حيث يهدف فرط تناول الطعام، والتدخين واستهلاك العقاقير تغطية التوتر الداخلي. وفي الصراع مع الوالدين أو المعلمين أو الأتراب يتصاعد ثانية العناد وانتقام المرحلة الشرجية أو مشاعر المنافسة والغيرة الأوديبية. وعندئذ تترسخ هنا الإعاقات الممكنة للنمو الجنسي الطفولي الباكر، ويمكنها على سبيل المثال أن تلوح من خلال الأطوار الجنسية المثلية أو الهوامات السرية الشاذة.

غير أن المسؤول عن أزمة الهوية لدى المراهق ليست النكوصات إلى النمو الجنسي النفسي فقط وإنما أيضاً الوضع الاجتماعي غير الواضح عموماً. فالارتباط بالوالدين وعالم قيمهم أصبح مشكوكاً به، ومن ناحية أخرى مازال المرء لا يمتلك وضعيته الخاصة الأكيدة. وبما أن الصعوبات الراهنة تمس بشدة نقاط جراح الماضي بالتحديد، فإن اليافعين يستجيبون بحساسية. فأية ملاحظة لا قيمة لها للمعلم أو نزاع بسيط مع الوالدين يمكن الآن أن يعاش بأنه مذل بشكل كارثي. ومن السهل لهذا أن ينتهي بارتباك في الدور، وهو ما يمثل بالنسبة لإيركسون خطر هذه المرحلة: فالمرء لا يعرف من هو وما قيمته وماذا يريد ويشعر بالخجل والعزلة وسوء الفهم في مزاجه الوحيد الذي يضيق بالعالم، ويشك في معنى الوجود. ومثل هذه الحالات المزاجية، التي يمر بها كل إنسان شاب، يكون أثرها أكثر عمقاً كلما كانت الهوية أقل نضجاً من خلال الصراعات المبكرة. فالشعور المتجذر بعمق منذ الطفولة الباكرة بأنه غير محبوب وفائض، يتعزز من خلال الفشل في المدرسة أو التأهيل المهني؛ فيمكن لشك فصاماني تجاه صدق المشاعر أن يتفاقم بشكل غير عادي من خلال علاقة حب خائبة؛ وتمس السخرية من الأتراب مشاعر ذنب الطفولة بطريقة معذبة.

ومن هنا فإن السؤال الأساسي يتمثل فيما إذا كان يتم دعم كل إنسان شاب في هذه المرحلة المزعزعة من محيطه بصورة كافية. فهل يستطيع الاعتماد على والديه، هل سيتقوى

الأنا لديه من خلال النجاح في المدرسة والتعليم، هل يمتلك الدعم الكافي في جماعة الأتراب؟ فحتى عندما يبدو كثير من المرهقين ظاهرياً مترفعين أو رافضين، فإنهم يمتلكون حسب إيركسون حاجة غير طبيعية للتعرف عليهم والاعتراف بهم من محيطهم. والمحللون النفسيون الذين يحافظوا على كثير من «التقشف» في التعامل مع المرضى اليافعين، سرعان ما يعانون من الفشل إذ أنه «من المهم جداً بالنسبة لتشكل الهوية عند الشبان أن يحصل على إجابة وأن يُمنح الوظيفة والوضع كشخص يمتلك نموه التدريجي وتغيره معنى في عيون أولئك الذين يبدؤون بحبه» (1981 «ب»، صفحة 138). وبصورة مكتومة يدور الكثير في الخبرة الشبابية حول السؤال عن الأمانة والإخلاص. فهل عالم الراشدين مثمر كفاية، أيستطيع المرء الثقة بالمثل العليا، هل المشاعر أصيلة، الصداقات موثوقة؟ ويرى إيركسون أن الشباب ليس مجرد زمن ضعف الأنا والاستغراق بالذات المتمركز حول الأنا بأي صورة من الصور. فالشبان بالتحديد قادرون على أشكال مدهشة من الولاء والالتزام loyalty and Engagement، إذا ما بدا لهم المحيط موثوقاً كفاية. والفضيلة الجديدة المنبثقة هنا هي الإخلاص، «القدرة على المحافظة على الواجبات على الرغم من التناقضات التي لا يمكن تجنبها لمنظومات القيم. إنها حجر زاوية الهوية وتستمد إلهامها من الإيديولوجيات الصادقة والأصحاب المتعاطفين» (1966، صفحة 113).

ويعد التحمس لموسيقى البوب[1] ونجوم السينما والرياضيين، وأحياناً للسياسيين

(1) موسيقى البوب موسيقى شعبية منتشرة في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا واغلب الدول الأوربية. ومن أشهر من غنى البوب: ملك البوب مايكل جاكسون ويتني هيوستن وجلوريا ومادونا وجورج مايكل (ملك البوب) ونيللي فرتادو وبرتني سبيرز (أميرة البوب) وأفضل فريق في تاريخ البوب على مدى العصور باك ستريت بويز وجيسيكا سمبسون وإنسينك وغيرهم الكثير. بدأت في أمريكا عام 1950 وهي تتنوع مابين الجيتار الكهربائي والدرامز والأورغ (آلة موسيقية) واصلها يتكون من تجمع الموسيقى الشعبية الأمريكية قديماً مثل الروك والبلوز (نوع موسيقى صوتي وآلي يتحدر من أغاني أشغال للزنوج في الولايات المتحدة والغوسبل. يتغنّى فيه المغنون بحزنهم وأساهم. كان للبلوز أثر بليغ في الموسيقى الأمريكية الشعبية فآثاره ملموسة في الجاز والريذم أند بلوز والروك أند رول والهارد روك والبوب وغيرها وكثيراً ما تأتي مثل البوب والروك وهكذا). تعتبر موسيقى البوب من أشهر أنواع الموسيقى العالمية. بوب (pop) مأخوذة من الكلمة (popular) باللغة الانكليزية وتعني مشهور أو شعبي.

الكارزمين[1] أو المثل العليا الدينية، ظاهرة غالبة في المراهقة المبكرة والمتوسطة بشكل خاص. وهذه الهيجانات المُعجَبة الإيجابية فقط،، التي يتم أبدائها تجاه المعبود[2] Idol، غالباً ما تقف في تناقض جسيم مع مقدار تحفظات الوالدين. والانصهار مع «موضوع فخيم grandiose Object» يحمي في هذه المرحلة التوازن النرجسي المُهَدَّد لليافع؛ فغالباً ما تحصل مقارنة مطلقة بالمعبود في الثياب أو الكلام أو أسلوب الحياة. بالإضافة إلى ذلك يمكن للمرء مع اختيار نجم ما أو ثوري سياسي، يشكل رعباً للوالدين، أن ينقل الاحتجاج الأوديبي. إلا أن البحث عن المثل العليا والقدوة لا تتخذ أغراضاً دفاعية فقط. فهنا تستمر بالنسبة لإيركسون خطوات مهمة أيضاً للتشكيل المستقل لمثال الأنا I-Ideal وعالم القيم الشخصي.

وغالباً ما يكون الاعتراف من قبل الأتراب في هذه المرحلة أهم من المركز في الأسرة أو من النجاح المدرسي، ولا يكون الميل في أية مرحلة من مراحل الحياة للبناء العفوي للجماعات واضحاً كما هو الحال في المراهقة. وإيركسون لا يفكر كثيراً بالمنظمات

(1) الكاريزما Charisma: كاريزما كلمة يونانية الأصل معناها النعمة الإلهية، ويقصد بها السمة التي تتميز بها شخصية فرد وتجعله يؤثر ويملك سلطة غير طبيعية على الناس، وفي علم الاجتماع يشير هذا المصطلح إلى مجموعة من الصفات تتحقق عند الذين يملكون قوة القيادة ويمارسونها بصورة خارقة للعادة

يميز ماكس فيبر الهيمنة الكرزماتية من الأشكال التقليدية، أو حتى العقلانية – القانونية من ممارسة السلطة. فهو يرى أن الكرزما تنهض على مقدرة فائقة للعادة يتمتع بها فرد، نبي أو حكيم، أو حتى محارب، يمتلك خصالاً فائقة للطبيعة. هذا الفاعل الممتاز يجب أن يعترف به أتباعه، إذ أن مزاياه التي لا تفسير لها تؤدي إلى أن ينتفع منه جميع الذين يتبعونه. ما من تنظيم، ما من قانون ينظم هذه الوحدة العاطفية التي تقوم بين الرئيس وأتباعه، تلامذته أو أنصاره. بهذا المعنى، تتعارض الهيمنة الكرزماتية كلياً مع الهيمنة العقلانية البيروقراطية ومع الهيمنة التقليدية البطريركية (الأبوية) التي تخضع هي أيضاً إلى قواعد صارمة. لذلك، وبما أن للهيمنة الكرزماتية، بحسب فيبر، صفة «ثورية» في النطاق الذي تذهب فيه إلى أشكال أخرى من النظام الاجتماعي والسياسي، تكون هذه الهيمنة «قدراً» يبقى هو أيضاً غريباً عن عالم الاقتصاد. على أن الهيمنة الكرزماتية قد تعرف عملية الرُوْتَنَة routinisation والتَّمأسُس institutionalization، الذي يلبّي احتياجات الأتباع الراغبين في ضمان الديمومة للجماعة فيما هم يحافظون على دورهم الخاص. فهي تنطوي على الانتقال الوراثي المؤسس مثلاً على الدم والمقدس بواسطة مختلف الطقوس. إلا أن ثمة مفارقة من حيث أن لا شيء يضمن أن يملك الوراث بدوره تلك الخصال الشخصية المحصنة اللازمة للكرِزما.

(2) عبادة الشخص، وثن، إله زائف، وتعني في المراهقة إعجاب شديد إلى درجة التماهي.

الشبابية الموجودة بشكل مؤسساتي، وإنما باللقاءات الشبابية غير الرسمية، والمشاهد المتنوعة والثقافات الثانوية بأشكال مختلفة كلية من الموضة والحياة. ومثل «جماعات الأنداد peer groups» هذه تمثل بالنسبة لكثير من الشبان مكان هروب، نوع من الركن الاجتماعي تجاه ضغط المدرسة وعالم الراشدين. فالمرء يريد أن يكون مع الناس، يتحدث، يحظى بالتضامن. وهنا يوجد إطار يحيط به البصر، حيث يقترب فيه من الجنس الآخر، يجمع خبرات شهوانية، حيث يسترسل عند سماع الموسيقى أو الرقص، أو يجرب حدوده في مغامرات خطيرة. والجماعة هي المكان حيث يتصرف المرء بشكل مختلف، يستطيع فيها تجريب أسلوبه في الموضة والثياب والمظهر، ويتم احترامه في هذا من الشبان الآخرين. وبصورة كامنة يتعلق الأمر بالنسبة لإيركسون في الاتصالات بالأتراب بقوة بعرض الهوية وتحديدها. فالشبان يكونوا «أحياناً مرضى، وغالباً غريبي الأطوار، مشغولين Preoccupation بالسؤال كيف يبدون في عيون الآخرين مقارنة بما يشعرون أنهم عليه، وبالسؤال كيف يمكن ربط الأدوار والمعارف المصقولة cultivate Rolls حتى الآن مع قدوات اليوم المثالية» (1981 «أ» صفحة 131).

فإذا ما ترفع المرء ساخراً عن آراء الراشدين أيضاً فإن قوانين الامتثال في الجماعات الشبابية الثانوية تكون صارمة عادة والانتماء لا يكون بديهياً. وغالباً ما لابد لجماعات الأنداد استعراض اختلافها عن بعضها في التعبير الصارم لثيابها وسلوكها ورؤاها. وهذا التماثل uniformity في الظهور وعدم الانتقاد تجاه القواعد الخاصة والأهداف الجماعية تؤثر حسب إيركسون ضد مشكلات الخجل وقيمة الذات النمطية لهذه المرحلة من النمو: «فالشبان يمكنهم....الإحساس «بالعشائرية» الملفتة وأن يستبعدوا بصورة وحشية كل أولئك (المختلفين) في لونهم ومحيطهم الثقافي وذوقهم وفي مواهبهم وغالباً إلى حد الظلال الطفيفة من الفروق في الملابس والحركات، والتي تعتبر بالذات علامة على الانتماء لجماعة ما أو عدم الانتماء. ومن المهم فهم مثل هذا النوع من عدم التسامح على أنه دفاع ضد شعور تشتت الهوية – الأمر الذي لا يعني بأنه على المرء التسامح معها أو المشاركة بها. إذ أن الشبان لا يساعدون بعضهم البعض فقط من

خلال الكثير من الصعوبات، وذلك بأن يشكلوا عصابات ويرفعون أنفسهم ومثلهم وأعدائهم إلى قوالب نمطية؛ فهم بهذا يختبرون وعلى سبيل التناقض قدراتهم المتبادلة على الحفاظ على الولاء» (1982 «أ»، صفحة 257).

وعلاقة الحب الأولى تعاش بعنف شديد بصورة خاصة. فالافتنان بالجنس الآخر والمحاولات الأولى الاقتراب من شريك ممكن من خلال الحديث، تحتل دفعة واحدة مركز اهتمام الإحساس والتفكير الشاب، وتنسي المدرسة والأهل والأتراب. فالشباب يدخل وفق إيركسون في مرحلة الهيام، «وهو ليس بأي شكل من الأشكال كلية أو بصورة غالبة هيام جنسي- ناهيك عن أن التقاليد المسيطرة تتطلب ذلك» (1982 «أ» صفحة 256). ويشعر المرء نفسه بأنه متسام، يرى العالم بعيون جدية كلية، لا يدور في أفكاره ومشاعره إلا حول الشريك، الذي يعيد إحياء المشاعر الجياشة من الطفولة الباكرة، وكأنه يمثل مثال وطيبة الأم الباكرة. وفي الحديث والتقارب الجنسي يشعر الإنسان الشاب للمرة الأولى حالات مشاعر الحميمية المثيرة، ويعتقد بأنه منصهر مع أفكار ومشاعر المحبوب، إلا أنه يمكن أن يعيش أيضاً مشاعر خاصة بالتوتر، وكأنه من الممكن أن يهدد القرب الكبير استقلاليته وهويته.

ولا نستطيع مقارنة هذه الصداقات والخبرات الشهوانية الأولى مع الجنس الآخر مع الحميمية لدى الراشد بعد. فبمقدار ما تكون المشاعر الشبابية عاصفة، تكون أيضاً هشة وأحياناً يمكن قطع العلاقات ثانية من دون أية مراعاة في بعض الأحيان ويبحثون عن علاقات جديدة. والتجريب مع الكثير من الصداقات يهيئ اختيار الموضوع النهائي، ويفترض أن يوصل الإحساس أي شخص يمكن أن يشكل تكميلاً بشكل دائم. وإحدى أهم الأسئلة التي تطرح بانتظام بالنسبة للشبان اليافعين هي كيف يراهم الجنس الآخر ويعترف بهم. ويرى إيركسون حُب الشباب إلى مدى كبير على أنه «محاولة للوصول إلى تحديد واضح لهويته، وذلك من خلال إسقاطه صور ذاته المشتتة diffuse على إنسان آخر ويراها بالتدريج في الانعكاس بشكل أكثر وضوحاً. لهذا يتكون الحب الشاب من أحاديث بصورة واسعة» (1982 «أ»، صفحة 265). ويمكن

للخبرات الجنسية المبكرة جداً أن تطمر هذا المجال المشوق من التواصل والافتتان الشهواني. إذ يتحول الآخر إلى مجرد موضوع للدافع، وغالباً ما لا تعود العلاقة كإشباع موسع للذات، الأمر الذي يلحق الأذى الكبير بنمو الحميمية الناضجة في سن الرشد المبكر أو قد يجعلها غير ممكنة.

أما تحليلات إيركسون للمسائل الشبابية المتعلقة بالتعليم والتأهيل المهني فهي مختصرة. وهو يرى أنه يمكن للتردد حول المستقبل المهني أن يزيد من حدة أزمة الهوية إلى حد كبير. وغالباً ما ينبثق عن ذلك تعليق moratorium عفوية، ذاتية الاختيار، تطول من خلاله المراهقة لتمتد إلى سن الرشد. فيلتحق المرء بالخدمة العسكرية، ويقوم بعمل خدمة اجتماعية لسنة، يمارس أعمالاً مؤقتة، ينهي قبل اختيار دراسته دورة ما أو يكتب قبل الالتحاق بالحياة المهنية أطروحة الدكتوراه. كما يمكن أن يتعلق الأمر أيضاً «بوقت مبدد بشكل مفيد»، وذلك بأن يقوم المرء بشيء «مختلف كلية»، يقيم في بلاد أجنبية لأشهر، يعيش في كمونة commune أو ينسحب إلى جماعة إيديولوجية للتأمل. ومثل هذه الأطوار ذاتية الاختيار من الوقت المتحرر من القرارات والرحلات والصداقات والخبرات الساحرة، غالباً ما يتم تذكرها لاحقاً على أنها أجمل مراحل الحياة: متحرراً من ضغط محيط معاش على أنه خانق يتعرف الإنسان على أناس جدد ويكتشف عوالم، يستطيع الإنصات لفترة طويلة لحاجاته ومواهبه الداخلية والتغلب في هذا في بعض الأحوال المخاوف والصعوبات العصابية.

ومن ناحية أخرى يمكن للتعليق الممدد إلى ما لانهاية أن يزيد من أزمة الهوية. إذ يمكن للمرء أن يقطع عدة تدريبات، يبدل أكثر من مرة تخصصه الدراسي أو يؤجل الامتحان لمرة أخرى أو نقاش الأطروحة، يؤجل مراراً قرار الزواج، يتهيب من أي واجب مهني. وإذا ما لم ينموا ذلك إلى شكل من أشكال حياة ما بعد المراهقة («الطالب الأبدي»، «المخلوق ليكون عازباً»)، سيشعر الراشدون الشبان في يوم من الأيام بأن الوقت يجري من بين أصابعهم، فيخافوا أن يصبحوا متخلى عنهم، أو أنهم فوتوا كل الفرص المهنية. والضغط على اتخاذ القرار والخوف من اتخاذ القرار الخطأ وتضييع رغباته

وإمكاناته، تستثير الحيرة ومخاوف المستقبل. وكثير منهم يحاولون وضع نهاية لكل الشكوك من خلال اتخاذ قرار مفاجئ. فيختارون بتردد مهنة أو يرتبطون بشريك لا يحسون تجاهه بالكثير، ليعودوا على الأغلب في وسط الحياة ليعانوا من أزمة هوية من جديد.

كتب إيركسون ومقالاته حول المراهقة، والتي لا يمكن استيفائها حقها في هذا الشكل المضغوط، جعلته واحداً من قياديي سن الشباب في علم نفس النمو الحديث[٧٦]. وإيركسون نفسه قد مر في هذه المرحلة الحياتية بشكل مكثف ومتأزم؟ ويلحظ المرء تحمسه لمثالية وعمق مشاعر سن الشباب، وكذلك تعاطفه لمعاناة وصراعات المرضى الشبان. ومن المؤكد فإن إيركسون قد سعى لتوضيح تنوع أنماط السلوك المراهقي. ومع ذلك فإن المرء غالباً ما يلحظ لديه في وصوفاته أنه يضع نصب عينيه أنماطاً محددة جداً من الشبان، مثاليون جديون، محبون رومانسيون، متعطشين للمعرفة، جوالون في التعليق Moratorium بشكل نهم للمعرفة.. ولا يمكن للمرء أن يصد الانطباع، بأن إيركسون متأثر بشبابه هو، بخبراته مع طلابه ومرضاه الشبان وبالإضافة إلى التجلي الرومانسي لسن الشباب في الفلسفة والأدب. فهل تنطبق وصوفاته على الشباب من كل الطبقات الاجتماعية أم أن إيركسون يضع نصب عينيه بالدرجة الأولى طلاب الجمنازيوم[1] Gymnasium والطلاب الجامعيين، الذين يتوفر لهم التأهيل المطابق والدعم المادي من والديهم ليتمكنوا من المرور بفترة تعليق مطولة وتجريب أدوار بشكل فاعل؟

من المؤكد فإن محاولة الرغبة في وصف بروفيل مميز للنمو الشبابي، هو مجرد وهم قلما زال يفعله ممثل لعلم نفس النمو في أيامنا هذه؛ ومع ذلك فقد أنجز إيركسون بعض المهام الأساسية والأزمات، وبعض الخصائص المميزة للسلوك والخبرة الشبابيين. ولكن كيف سيمر المراهق بشكل بهذه المرحلة بشكل ملموس، فإن ذلك يتعلق بدرجة عالية بالجو الثقافي الاجتماعي والتاريخي المعني. ففي عصرنا فإن سن الشباب أقرب

(١) شكل من المدارس الثانوية في ألمانيا.

«المحيط انتهاء مشتت diffusc» (Baackc, 1987)، مفتت إلى تنوع كبير من أشكال الحياة والأذواق والاتجاهات. فلم تكن المثل متنوعة، والثقافات الثانوية مختلفة، وأنماط العلاقات الزوجية والتعليق وإيجاد الهوية مختلفة الأنواع في أي يوم من الأيام بهذا الشكل. وتصور إيركسون بأن المرء يختار مهنة ويتزوج ومن ثم يدخل في سن الرشد قلما هي موجودة اليوم. فمن خلال تسبيق النشاط الجنسي، وتأجيل إيجاد المهنة بالمقابل إلى مدى بعيد، فلم تعد إرادة التسريع في أن يصبح الإنسان راشداً مثيرة كثيراً. وأصبحت الهوية باطراد لا تتضح إلا في مجالات جزئية فقط، في حين يحافظ المرء على وضع التعليق في مجالات حياتية أخرى. والاتجاهات النكوصية الطفولية، والمواضيع وأطوار النمو المراهقية لسن الرشد تبدو غالباً متداخلة: فالمرء يعيش مع صديقة إلا أنه يظل متعلقاً مادياً بالأسرة؛ أو ينجب المرء أولاداً في أثناء الدراسة أو يصبح للمرء دخل ومع ذلك يظل قاطناً مع الأهل.

4.7 سن الرشد المبكر: «الحميمية والتباعد مقابل العزلة»[1]

كلما ازداد إيجاد الراشد الشاب لنفسه أكثر كان أقدر على التسليم لشخص آخر، من دون الخوف من فقدان الأنا. فبعد العشق الجارف في سن المراهقة تصبح الحميمية الحقيقية ممكنة أولاً، «الانجذاب المتبادل لإنسانين ناضجين» (1983، صفحة 30)، الذي يتجاوز مجرد الاهتمام الجنسي أو الافتتان الشهواني الصافي. واختيار الشريك وتعيير إيقاع الحياة الخاصة على اتجاهات وعادات الآخر والعلاقة المتغيرة بالوالدين والأصدقاء، هذه كلها المواضيع الأساسية لسن الرشد المبكر بالنسبة لإيركسون. ففي الاستعداد للتضحية وعمل الحلول الوسط، عندما تختفي مرحلة العشق العارم ويدرك الإنسان نفسه بشكل أوضح في محدوديته، تنبثق وتصمد فضائل الحب، «تبادلية الولاء»، تقضي على التنافر antagonism، الكامن في الوظائف المتقاسمة. فهي تخترق حميمية الأفراد وهي بالتالي أساس الطموحات الأخلاقية (1966 «أ»، صفحة 118). وكلما

---

(1) Intimity vs. Isolation.

ازداد توفيق مثل هذه الحميمية ينشأ هنا أساس الرفقة الحقيقية، التي تستطيع الصمود مرة تلو الأخرى من جديد في مطالب وأزمات سن الرشد وتحفظ العلاقة حية ومذهلة حتى الكبر.

والعزلة Isolation هي عكس الحميمية بالنسبة لإيركسون، وهي عدم القدرة على الدخول في علاقات أعمق وما ينجم عن ذلك من «قلق، أن يظل المرء لوحده و(غير معروف)» (1988، صفحة 92). ويمكن لهذه العزلة أن تختفي وراء كثير من الأعراض: الانسحاب الخجول، الإحساس بالفراغ والبعد في حضور الجنس الآخر، وعدم القدرة على الحديث عن المشاعر أو إدراك المشاعر لدى الآخرين، وكثير من أشكال الاضطرابات الجنسية وانتهاء بالمخاوف شبه النفسية، من فقدان الهوية الذاتية عند الاتصال الوثيق بالشريك.

والحميمية لا تعني تعايشاً دائماً symbiosis، ولا فقدان الذات في أحلام العوالم الطفولية. إذ يمكن لكلا الشريكين أن يمضيا في طرقهما الخاصة أن يكون لكل واحد شخصيته وأن يختلفا أيضاً. إلا أنها يمنحان بعضهما مرة تلو الأخرى الشعور بأنه يمكنهما دائماً الاعتماد على بعضيهما - من خلال ملامسات صغيرة وتدليل، الذهاب في نزهة مشتركة، في التسامر في نهاية اليوم. ويتعلق الأمر بشعور المشاركة والتأييد، يتصاعد في كثير من لحظات الحديث أو التقابل الجنسي إلى انصهار عميق مع أفكار ومشاعر الشريك: «قوة جبارة مُؤَكَّدة تخترق هذا اللقاء من الأجساد والأمزجة بعد وقت طويل من سن ما قبل الرشد الطويل بشكل خطير لدى الإنسان» (1988، صفحة 92).

ومحاولات الوصف العلمية هنا تبدو ركيكة. وكان الشعراء والفلاسفة قد استطاعوا التعبير عن تلك المشاعر السعيدة المنسجمة، التي ينغمس فيها المرء في شريكه ومع ذلك يحس بهويته بصورة لم يسبق لها مثيل أبداً. ولنتذكر أفلاطون ومواضيع الحب الرائعة.

ومنذ الآن تتعلق قوة الأنا بالنسبة لإيركسون بارتباطه المشترك، ونمو هوية هذه المرحلة تقول: «نحن ما نحَب» (1981 «أ» صفحة 141). فالمرء يمكنه أن يمنح بشكل

متبادل المشاعر بأن الآخر عنده إنسان مهم، يقين أساسي يجعل من ميول الغيرة والتشبث زائدة عن اللزوم. وعليه يصبح الزوجان منفتحات على الاتصال المنعش مع الآخرين ويكون في الوقت نفسه قادراً على الحفاظ على مساحة من الحرية بالنسبة لعلاقته الخاصة فقط، وبدرجة معينة تجاه الوالدين ومحيط الأصدقاء، ولكن أيضاً تجاه الأطفال الخاصين. ومن هنا فإن الشرط والظواهر المرافقة لكل حميمية بالنسبة لإيركسون هي أيضاً لحظة التباعد، «الاستعداد لعزل القوى والناس وتدميرهم إذا اقتضى الأمر، الذين تبدو طبيعتهم مهددة والذين يبدون أنهم يهددون (منطقتهم) في مجال العلاقات الحميمية الخاصة» (1982 «أ» صفحة 258). ويمكن لعزلة الحميمية الموفقة، كما يؤكد كيرنبيرغ (Kernberg, 1992)، أن تستثير بسهولة الحسد والغيرة ويغلب أيضاً أن تكون شوكة في عين المؤسسات. وتاريخ المحبين الرومانسيين الذين يقفون في وجه محيط عدائي، تمثل دائماً محركاً متكرراً باستمرار للأدب العالمي.

وتعد الرغبة بحميمية دائمة مع الحبيب من التشوقات الأصلية للإنسان. فبتأثر عميق وصف الشعراء والرومانسيون تلك الأحاسيس من التوق في علاقات الحب لدى الراشدين الشباب - وعانوا أنفسهم من صعوبات كبيرة في الغالب في أن يعيشوا حميمية حقيقية في علاقاتهم مع شركائهم. وبالتحديد في عالم يصبح أكثر تعقيداً وبرودة يميل كثير من الناس إلى حشر حنينهم للأمن والسعادة فقط في علاقة ويتخمون أنفسهم هنا. وكثير من الصراعات الزوجية والشركاء تكمن خلف الاكتئابات والشكاوى الجسدية في أيامنا هذه وهي غالباً ما تكون السبب في استشارة متخصص نفسي. وغالباً ما تكون العلاقة قد نمت إلى جانب بعضها البعض؛ فالحديث أصبح أكثر رتابة والجنسية أكثر سطحية والعلاقات اليومية تجمدت. ويمكن أن يظل وعدم الرضا عن الرتابة المتسللة مموهاً: جدول المواعيد المزدحم دائماً القلق على الأولاد أو الوالدين، برنامج التلفزيون المتكرر يومياً أو بناء البيت تحجب إلى درجة ألا يظل هناك إلا القليل من الحوار والألفة في العلاقة. كما ثبت أيضاً أن القرب الشديد جداً من الحميمية يؤثر بشكل معيق. فتحت حجة الصراحة المطلقة يراقب الزوجان بعضهما باستمرار، يريدان

عمل ومناقشة كل شيء مع بعض، فهم كل خلجات الآخر، وكأنه يمكن لأي اختلاف أن يدمر التعايش الهش بضربة واحدة. إلا أن الرغبة بالحميمية الكاملة والمستمرة بالتحديد تقود على المدى البعيد إلى عدم الارتياح وتوتر الأعصاب. ويمكن للحب أن ينقلب إلى كره وملاحقة متبادلة بشكل خاص في العلاقات بين الشخصيات النرجسية والحدودية.

وقد أوضح العلاج الزوجي التحليلي النفسي، مدى الأذى الذي تلحقه الصراعات الطفولية غير المحلولة وبالتحديد لقدرة على الحب عند الراشدين. فمن خلال الإسقاط والتماهي الإسقاطي يناور الأزواج ضمن أدوار متضيقة، مرضية. فالشريك يعاش على أنه الأم غير الموثوقة- الباردة أو أب قاس- متسلط. فهو يمثل جزء من الدافعية الذاتية المرفوضة، التي يتبرأ منها المرء، الضمير الذاتي المعاقِب الذي يخضع له المرء بشكل مازوخي أو يتمرد عليه غاضباً-يائساً. وبدلاً من أن ينمي أحدهما الآخر بشكل متبادل يركد الشريكين باطراد مرة تلو الأخرى في طقوس نزاع تجري دائماً على النفس الوتيرة ويظلون غرباء عن بعضهم على الرغم من القرب الخانق على الغالب.

وبالطبع فإن الحميمية لا تتحقق بالنسبة لإيركسون في العلاقات التشاركية والزوجية فقط. فالأمر يتعلق بالقدرة الأساسية على التمكن من جعل النفس تغتني وتُمس من الخارج. وحتى الناس الذين لا يريدون أو لا يستطيعون إقامة علاقات تشاركية دائمة يشعرون في الصداقات أو الخبرات الجماعية أو الالتزام الاجتماعي المسؤول بتلك المشاركة المشحونة بالحب بالندية، المنبثقة عن تضيق الأنا الخاصة. وبالمقابل يقبع في لب العزلة الابتعاد، الإحساس بأن المرء غير مفهوم، الإحساس بعدم التكامل، بالشكل الذي يكمن فيه خلف كثير من شكاوى اضطرابات العلاقة للناس المستوحدين. ومن المؤكد تصب في هذه الأحاسيس المخاوف الطفولية؛ إلا أن العزلة من حيث المبدأ هي إمراضية مستقلة للجوهر مستقلة لحياة الراشدين autonomic Kernel pathology. ويمكن تغطيتها من خلال إشباعات بديلة جديدة، إلا أن عدم الرضا والشعور بالخواء سيعبر عن نفسه عاجلاً أم آجلاً.

يشتمل وصف إيركسون للحميمية الكثير مما يفهمه التحليل النفسي تحت هدف

النمو «الجنسانية Genitality»، أي القدرة على النضج، القدرة على العلاقات الجنسية المتحررة إلى مدى بعيد من ميول الإهاجة الذاتية autoerotism والسفاحية incestuous. إلا أنه غالباً ما تمت إساءة فهم مفهوم الجنسانية، وكأن الأمر يتعلق هنا بحالة من الإشباع الجنسي الدائم، وكأن معنى وهدف المعالجة التحليلية النفسية، هو في أن يعيش الإنسان أكبر عدد ممكن من الانتشاءات الجنسية مع «مواضيع حب» متبدلة. وبشكل مشابه لرايك Reik وبالينت Balint، لا يخلط إيركسون القدرة على الحب مع لياقة الوظائف الجنسية المجردة. فحتى الأشخاص المضطربون بشدة في العلاقات تظل الجنسية عاملة على الأغلب بالمعنى الميكانيكي، على الرغم من أن الحنو والثقة تظل ماثلة بشكل قليل فقط. وقد أجاب فرويد عندما سؤل مرة عن هدف العلاج التحليلي، باقتضاب: «الحب والعمل»، ويرى إيركسون أن الأمر يستحق التفكير بهذه الصيغة البسيطة: «إذ أنه عندما يقول فرويد (الحب)، فإنه يقصد كذلك الحب الجنسي المجرد والحب الجنسي؛ very sexual Love and sexual love؛ وعندما يقول (الحب والعمل) فإنه يقصد بذلك إنتاجية عمل عامة، لا تستنزف الفرد كلية ولا تخطف منه حقوقه وقوته في أن يكون مخلوقاً جنسياً ومحباً. وهكذا ومع كل التفكير فإننا لا نستطيع أن نحسن من هذه الصيغة» (1982 «أ»، صفحة 259).

وفرويد نفسه قد خاطب دائماً كرامة الإنسان الفرد، ولم ينصح على الإطلاق باستغلال الآخر «كموضوع» للحاجات الخاصة. ومفهومه عن الجنسية يشمل من حيث المبدأ الربط بين الحب Love والشهوة Eros والجنس Sexus. كذلك نجد لدى إيركسون التعبير عن الحميمية المشتركة في حياة جنسية باعثة على الرضا، بمقدار ما ترفع الجنسية الثقة واللهفة، والاتصالات العشوائية كما هو الأمر في تقديس الجنس في عصرنا يتعارض بالنسبة لإيركسون على المدى البعيد مع الحميمية الحقيقية. فلم تعد الجنسية تمتلك تلك الجاذبية الشديدة، لأن مثل تلك العلاقات لا يمكنها أن تجلب شيئاً مشوقاً أصلاً. فالمرء كشخص لا يكون حاضراً بشكل صحيح ولا يستشعر الشريك كشخص. ولهذا السبب بالتحديد يجد المرء نفسه مجبوراً على رفع نشاطاته الجنسية على أمل واهم التخلص من مشاعر الوحدة.

ويريد إيركسون ضبط precision نظرية الجنسية التحليلية النفسية. وطبقاً لذلك «لابد لطوباوية الجنسية أن تشتمل على التالي:

1- تبادلية النشوة،

2- مع شخص محبوب،

3- من الجنس الآخر،

4- يريد المرء معه تقاسم الثقة المتبادلة ويستطيع ذلك،

5- ويكون المرء معه قادراً ويمتلك الإرادة لجعل أطر حياة

أ - العمل،

ب- التكاثر،

ج- الراحة

منسجمة مع بعضها، من أجل ضمان أن تمر ذريته كذلك بكل مراحل النمو الباعث على الرضا» (1982 «أ»، صفحة 260).

والجنسية هي واحدة من أكثر أشكال التنظيم المتبادل المثرية والقابلة في الوقت نفسه للاضطراب بين إنسانين. وهي تتألف حسب إيركسون «من القدرة الحرة، على تطوير قدرة نشوية خالية من الاضطراب، بحيث أنه يتم تجلي الليبدو الجنسي في أثناء المشاركة المشاعرية الكاملة سواء من القضيب أم من المهبل (وليس مجرد «نقل» التاجات الجنسية المفرغ كما يرى كينزي» (1982 «أ»، صفحة 259). ويستطرد: «الحقيقة الكلية بأن مخلوقان متشاركان في شبوب الرعشة يعيشان خبرة قصوى من التنظيم المتبادل، تحطم بشكل ما رأس العداوات والغضب الكامن على أساس اختلاف الذكورة والأنوثة، من الواقع والخيال، من الحب والكره. وتقود العلاقات الجنسية المُشبعة إلى أن الإنسان يصبح أقل استحواذاً من الجنس، وأن فرط التعويض يصبح أقل أهمية، وتصبح مجاهدة النفس على العفة لا لزوم لها» (1982 «أ»، صفحة 259-260).

وقد وصف إيركسون الحميمية الموفقة بأنها شرط جوهري لصحة ورضا الإنسان الراشد، وأنار في هذا مفهوم فرويد عن الجنسية في وجوهه الانفعالية والروحية. فمنذ

وصف المرحلة الأولى لحياة الرشد يصبح مدى المركز المرتفع الذي يعطيه إيركسون للعلاقات الخاصة واضحاً. فلا يوجد اختلاف حول كون مسائل الشراكة والجنسية تحتل أهمية كبيرة في سنوات العشرينيات والثلاثينيات من العمر. ومع ذلك قلما يناقش إيركسون مواضيع أخرى في مرحلة النمو هذه، كمسائل التعلم أو الدراسة أو وضع القدم في محيط مهني. ناهيك عن أنه يلاحظ أنه ينطلق في تحليل سن الرشد من رؤى مثالية بحق. ويصف إيركسون الحب الرومانسي الذي يرسو في الشراكة طوال الحياة الناضجة. إلا أنه قلما يتحدث عن الأزمات الزوجية والتصادمات والاضطرابات الجنسية النمطية، والتي هي في العادة موضوع العلاج الزوجي التحليلي النفسي. وعلى العكس: ففي هذا الموضوع بالتحديد سرعان ما يقود التفريق بين الحميمية والعزلة القارئ إلى أن يضع نصب عينيه فقط العلاقة الزوجية الموفقة كلية أو الفاشلة كلية. إلا أنه أليس من طبيعة كل علاقة تستمر لفترة أطول أن تتأرجح ذهاباً وإياباً بين كلا القطبين: فترات الانجراح ولحظات المشاركة مع بعضيهما؛ المراحل الطويلة من الركود، حيث يعتقد الإنسان أنه يصطدم بجدار، الانسحاب عن الآخر، ومراحل عودة التقارب حيث يكتشف المرء من جديد الجوانب السعيدة؟

ويطرح السؤال نفسه فيما إذا كانت تصورات إيركسون مازالت تطال مواقف حياة غالبية الناس في أيامنا هذه. وبالنظر للأزمة المتزايدة لمؤسسة الزواج والتفكك الواسع للأخلاق الجنسية التقليدية تهدد الإخلاص والعلاقة طوال الحياة بأن تصبح نادرة rarity. وعلى الأقل يبدو كثير من الناس في المؤسسات الحديثة على العموم بأنهم لم يعودوا قادرين على تنمية نضج في الشخصية، للاندماج مع بعضهم بالفعل ويأخذون بعين الاعتبار التضحية والحلول الوسط. ولعل وظيفة الرغبات الخادعة نحو الفهم المطلق والسعادة الأبدية هي أقرب إلى تغطية قصور النمو الطفولي المبكر. حيث يريد المرء الانصهار مع الشريك مثلما ينصهر مع أم مثالية في تعايش وثيق وعند أقل خيبة التفتيش مباشرة عن علاقة «مثالية» جديدة. وبالدرجة نفسها التي تحقق فيها الحميمية يبدو أن الاستهلاك الجنسي الذي يشبه الإدمان يتحول إلى نوع من العقار البديل. فالإعلانات

ووسائل الإعلام توهم بالمواجهة السطحية الموجهة بمبدأ اللذة، حيث لا يمكن لشيء كالحميمية أن يحصل وحتى أنه غالباً ما لا يتم البحث عنه أصلاً.

4.8 أواسط الحياة: «التوالد مقابل الركود»[1]

من البديهي أن تنبثق الرغبة بالتوالد Generativity عن الحميمية المشتركة بالنسبة لإيركسون، «الاهتمام بتأسيس الجيل التالي وقيادته» (1981 «أ»، صفحة 141). فالجنسية أو النجاح المهني لوحدهما لا يجعلان حياة الرشد باعثة على الرضا. وكل إنسان يمتلك حسب إيركسون الرغبة الوجودية، باستمراريته في الجيل التالي. فإذا ما لم يتم إشباع هذه الرغبة فإنه يرسو في ركود نفسي. فالفخر بكون المرء أباً أم أماً، السعادة بترعرع الأطفال الخاصين، خبرة تعليمهم شيئاً ما، مشاركتهم السعادة والمعاناة في الحديث، هي بالنسبة لإيركسون الثروة الأساسية في حياة الراشد.

وهنا تنبثق فضيلة أساسية جديدة تتمثل في الرعاية، «وهو الهم المتسع باطراد على ما تم إنتاجه عبر الحب أو الضرورة أو الصدفة؛ وهذا الهم يتغلب على التناقض الذي يلازم الواجبات غير القابلة للنقض» (1966 «أ»، صفحة 119).

ومن خلال طرق الوقاية من الحمل يمكن للناس اليوم توجيه رعايتها لعدد قليل من الأطفال ويستغلون الطاقة الباقية لإمكانات أخرى في بناء الحياة. إلا أن تنظيم النسل يتطلب بالنسبة لإيركسون رؤى نفسية وسياسية جديدة: «فعجرفة النسل المنظم تتطلب سياق اعتقاد جديد: إنها تتطلب نظاماً عالمياً، يضمن لكل طفل نقرر ولادته، الفرصة نفسها للنمو الكامل، وتستند على الواجب التوالد» (1982 «ب»، صفحة 254). فإذا ما ظلت وظيفة التوالد مقموعة كلية بسبب الأريحية أو الاعتبارات الاقتصادية أو باسم الشهوانية المتحررة، فإنه يتم إنكار الحاجة الوجودية للوالدية والرعاية. فلا يعود بالنسبة لإيركسون يوجد إحباط جنسي فحسب وإنما أيضاً «إحباط إنجابي»، يستتبع في

(1) Generativity vs. Stagnation.

المجتمعات الحديثة عواقب مرضية نفسية شبيهة بكبت الجنسانية Sexuality في أيام فرويد.

والراشدون الذين لا يتم تحديهم من الأولاد، يبدون في نموهم راكدين في يوم من الأيام. ويتحدث إيركسون عن «النكوص إلى الحاجة القهرية الخاصة إلى الحميمية الزائفة Pseudo intimity»......، المرتبطة على الأغلب مع شعور عارم بالركود وإفقار الشخصية. عندئذ غالباً ما يبدأ الأفراد بتدليل أنفسهم، وكأنهم هم أنفسهم ابن أنفسهم الوحيد – أو ابن شخص آخر الوحيد -. «وحيث تشجع الظروف الخارجية، تتحول الفردانية الجسمية أو النفسية إلى عربة للانشغال بالذات» (1982 «أ»، صفحة، 262). ومن المؤكد أن تصب في مثل هذه المواقف الصراعات الطفولية. إلا أن الركود بالنسبة لإيركسون هو إمراضية Pathology مستقلة لسن الرشد المتوسط، وهو ما نلاحظه غالباً مغطى بالعمل القهري أو بالبحث عن إشباعات بديلة متجددة باستمرار، إلا أنه على المدى البعيد يستتبع معه مشاعر عدم الرضا والفراغ، الذي يمكنه أن يسهم بالأزمات العصابية أو في حالات اليأس الاكتئابية في سن الرشد.

ومن المؤكد فإن الحقيقية المجردة لامتلاك الأطفال لا تعني بشكل آلي تحقيقاً للوظيفة الاستمرارية. ففي مرحلة الوالدية تتجلى نقاط ضعف النمو السابق بصورة لا مثيل لها في المراحل النهائية الأخرى. ويمتد طيف رفض الأطفال من عدم الاهتمام البارد وصولاً إلى سوء الاستغلال الجنسي وسوء المعاملة الجسدية. وقد أظهر التحليل النفسي مدى تنوع طرق استغلال الوالدين للأطفال من أجل حاجاتهم الخاصة، إنهم يجعلونهم دمية أطفال[1] أو شريك بديل أو موضوع مثالي نرجسي أو مساحة إسقاط للضعف الذاتي[vii].

وعندما يبدأ اليافعون بالدفاع عن أنفسهم ضد إهمال الوالدين أو الأدوار التي ألبسوها إياهم، فمن الممكن أن يتعزز لدى الراشدين بشكل مطرد الاغتراب عن أولادهم هم من خلال شعور الركود.

(١) لعبة أو حيوان قماشي لايستطيع الطفل النوم في سريره من دونه.

وبالطبع لا يقتصر النزوع التوالدي على تربية الأولاد، وإنما يمتد بشكل كامن نحو كل ما يتجه المرء ويخلفه، يبدعه وما يثمر عنه. ويهتم إيركسون بشكل عام بالمسؤولية، التي يتولاها الإنسان الراشد عن استمرارية المجتمع، بما أسمته الهندوسية «هم العالم». وهناك الإمكانات المتنوعة جداً للكيفية التي يستطيع من خلالها الناس الذين ظلوا من دون أولاد تصعيد الدافع الأساسي، من نحو المهن المساعدة أو الشفائية، أو من خلال المشاركة بالجمعيات الخيرية أو مساعدة منظمات السجناء أو منظمات البيئة، أو من خلال رعاية الأطفال في العالم الثالث. وكذلك القساوسة والرهبان الذين يتخلون بشكل مقصود عن إنتاج الأولاد، يتولون في الجمعيات أو المدارس أو المستشفيات مسؤولية الصالح العام. ففي الرعاية، التي تبديها الشخصيات الخيرة تجاه أفقر الناس والمحرومين من حقوقهم، ربما تتجلى أشد درجات الدافع التوالدي الأساسي وضوحاً.

ومن المؤكد يوجد مراراً في سن الرشد أوقات من الإنهاك والرتابة. وبالذات الأشخاص الخلاقين بدرجة عالية جداً، من نحو الفنانين أو الموسيقيين أو الكتاب، غالباً ما يمرون بأطوار صعبة من الركود. ومع ذلك فإن جوهر معنى الحياة عند الراشد بالنسبة لإيركسون يتمثل في مقدار المسؤولية، التي يتولاها في أواسط العمر. وعلى الرغم من أن المرء قد لا يقدم شيئاً مؤثراً في العالم، فإن الرضا يتحقق في الاستمرارية من خلال الأولاد ويسهم في جزء قليل من أنسنة العالم. ويرى إيركسون أنه من الممكن استناداً إلى الاضطرابات النرجسية، «بأن الانشغال المفرط بالذات، الملاحظ في أيامنا هذه لدى كثير من الناس، يمكن عزوه لدى البعض منهم إلى كبت الرغبة للاستمرارية وإنكار الشعور بالخسارة الناجم عن ذلك» (1988، صفحة 68). وفي حين يتحقق النزوع التوالدي نحو الخارج تقريباً في رعاية الآخرين، يسير النمو النرجسي في دوائر تغلق نفسها باستمرار حول الشخص المعني. فلا تعاش إلا الأفكار والمشاعر والاهتمامات الذاتية على أنها واقع بالفعل. وكل ما يفعله المرء، حتى وإن كان يمتلك مسحة غيرية، فإنه يخدم صقل cultivation هوامات العظمة الذاتية المتكلفة grandiose fantasy. وعلى الرغم من أن اضطرابات الشخصية النرجسية غالباً ما يمكن لها أن تبهر

محيطها بواجهة مشعة من النجاح أو الغنى أو المعرفة، ويعرفون كيف يبررون (يعقلنون rationalization) بصورة كاملة شعورهم الناقص بالمسؤولية، إلا أن انشغالهم الداخلي مع ذاتهم لا يشع على المدى البعيد إلا البرود. وفي الآثار الدالة على جنون العظمة megalomaniac monuments لكثير من المستبدين يتجلى على سبيل المثال كل شذوذ الرغبة الإنسانية لأبدية الذات.

وبإلحاح شديد يؤكد إيركسون على الحاجة الأساسية للإنسان للوالدية والرعاية، فإنه غالباً ما يتم إنكار النزعة الحديثة للاستمتاع وتحقيق الذات، إلا أنها مع ذلك تبدو كامنة خلف «السقطات» الكثيرة، التي تقود إلى الحمل غير المرغوب كما يزعم. وذلك ما يفهمه إيركسون تحت الاتجاه الأساسي التوالدي، يرتبط كثيراً «بالاتجاه الحياتي المحب للحياة biophilia» كما وصفها إيريك فروم Erich Fromm. وإشارة إيركسون إلى مسؤولية الإنسان الراشد عن مصير الجيل التالي كان مهماً في عصر كان يعاش فيه باطراد أي واجب على أنه تقييد للذاتية ويهدد فرط استغلال الأرض الفج لموارد الطبيعة بتدمير أسس الحياة على كوكبنا. وفيما إذا كان اليوم عدد كبير من الناس بالنظر للأسر المتداعية وظروف العمل المغتربة وصناعة وقت الفراغ المخدرة ما زالوا قادرين أن يعيشوا هذا الدافع الأساسي التوالدي بجدية، كما يتخيل إيركسون، فإن هذا مدعاة للشك. مقابل ذلك فإن عدم النضج الشخصي للفرد ليس وحده المسؤول وإنما التشكيك تقريباً بكل القيم التقليدية في عالم مقاد بقانون المال والنجاح. وقد اتضح لنا منذ البداية أن وصف إيركسون لسن الرشد تدور كثيراً حول العلاقات الأسرية الخاصة. فهل يفترض أن تكون كل النشاطات في أواسط العمر توالدية، وهل لكل شيء آخر وقع الأنانية والتحقيق الخطأ للذات؟.

4.9 سن الرشد المتأخر: «التكامل مقابل اليأس والنفور»[1]

وأخيراً يواجه الإنسان الكبير في السن مهمة منح طريق حياته تتميمه (اكتمال)، أي اشتقاق من كم من الخبرات والذكريات شعور بالكلانية والحكمة الفردية. ويرى إيركسون هنا نوع من التكامل consolidation الأخير الشخصية، الذي يسبق يأس الشيخوخة: «فقط ذلك الذي يتجمل همّ الأمور والناس بطريقة من الطرق وتلاءم مع الانتصارات والهزائم، المرتبطة بذلك، بحيث تحول شاه أم أبي إلى مصدر المخلوقات الأخرى ومبدع الأشياء والأفكار – فقط مثل هذا الإنسان يمكنه بالتدريج جني ثمار هذه المراحل السبعة. ولا أجد كلمة تعبر عن ذلك أفضل من تكامل الأنا Integrity of I» (1982 «أ» صفحة 262-263). إلا أنه يمكن أن يصبح ى مثل هذه الحكمة في سن الشيخوخة صعباً، إذ أن كل عمليات التنظيم الثلاثة للحياة تنزلق بقوة في الخطر. فالعضوية تصبح أكثر هشاشة ومعرضة للأمراض وتتراجع الوظائف النفسية لأعضاء الحس أو الذاكرة؛ ومن خلال الانتقال إلى التقاعد يتم إعفاء الفرد من الواجبات الاجتماعية المهمة. واختفاء القوى الجسدية وفقدان الأصدقاء القريبين والخوف من الموت المقترب يمكن أن يرهق كبار السن ويقود إلى مشاعر اليأس، وهو ما يمثل بالنسبة لإيركسون القلق الأساسي للشيخوخة؟

وما يقصده إيركسون بالتكامل يرتبط كثيراً مع فرضية الصيرورة الكائنة. فبنظرة للوراء يمكن للمرء تقبل طريق حياته، ولا يعود يحتاج كثيراً للتشاجر مع الوالدين والمصير والظروف فقد حقق المرء قدراته، وأنجب الأطفال وقدم مساهمته للمجتمع ووجد الرضا الداخلي على الرغم من كل الآلام، وعلى الرغم من كثير من الضياع والخيبات. لقد حقق المرء في أسلوب حياة محيطه الثقافي من دون أن يضطر للانعزال بضعف لاختلافه. ويتحدث إيركسون عن «الشعور الرفاقي بالارتباط مع تنظيمات الأوقات والطموحات الغابرة، وبالشكل الذي يتم التعبير فيه في الأعمال البسيطة وكلمات ذلك الوقت. وعلى الرغم من أن الإنسان المتكامل يدرك نسبانية كل أشكال

---

(1) Integrity vs. Despair .

الحياة المختلفة، التي تمنح الطموح الإنساني معنى، فإنه مستعد للدفاع عن كرامة شكل حياته ضد كل التهديدات الفيزيائية والاقتصادية» (1982، صفحة 263).

ويقصد إيركسون بالتكامل Integrity خبرة مضاعفة. فمن جهة تصل الحياة الفردية إلى نهايتها. ومن ناحية أخرى ينمي الإنسان الكبير الشعور بسمو transcendence هويته واستمراريته في سلسلة الأجيال، وهو ما من شأنه أن يوازن الكثير من اليأس حول الآخرة الفردية. وما يهم إيركسون هو إحراز الشكل الأنضج والأخير من الثقة في الحياة، وهو ما تعبر عنه بشكل مؤكد «كلمة الإيمان» (1988، صفحة 80). فالإنسان المؤمن يأمل بالتحقق في العالم الآخر. إلا أن حتى من لا يعتقد بالحياة بعد الموت يستطيع هنا أن يُغمر بشعور الرضا بأنه حتى هنا تتحقق في النهاية خطوة إيجابية في تطور الإنسانية وأن الإنسان نفسه قد أسهم مساهمة صغيرة في هذا التيار الحياتي. وطبقاً لذلك فإن نمو الهوية في الشيخوخة يعني: «أنا ما عشته» (1981 «أ»، صفحة 144).

فإذا ما غاب مثل هذا الجرد الإيجابي للحياة الخاصة، ينمو اليأس والاستسلام، الأمر الذي من شأنه أن يتجلى بطرق مختلفة: الحزن والمرارة والشكاوى الجسمية النفسية والمخاوف المراقية (الهيبوكوندرية) والشعور المستسلم ببعثرة الوقت وتفويت أشياء مهمة. ففي النهاية لم يجد الإنسان شيئاً دائماً، يمنح الحياة الرسوخ والمعنى، يريد أن يبدأ الإيمان والمثل والصداقة والحب مرة أخرى من جديد. وهذا الشك يحمل في طياته بالنسبة لإيركسون «غالباً مظهر النفور Despair، اتجاه كاره للبشر misanthropy أو لوم احتقاري مزمن لمؤسسات معينة أو لأشخاص معينين - نفور واستقباح - لا يسير مع رؤية حياة متقدمة في السن، يعبر عن احتقار الإنسان لنفسه هو ضد نفسه» (1981 «أ»، صفحة 143).

وبالطبع لا توجد مجموعة من الشيوخ المستنيرين من جهة ومن الشيوخ الكارهين اليائسين من جهة أخرى، بل أن خبرة كبار السن تتأرجح بين كلا هذين الشعورين الأساسيين جيئة وذهابا. وبالتحديد تنبثق بالنسبة لإيركسون من الفرضية التي لا ترحم حول الجوانب المأساوية أيضاً للوجود آخر الفضائل الإنسانية الأساسية، فضيلة

الحكمة، تلك القوة الخاصة لكبار السن «في كل معانيها المرافقة، بدءاً من «النكتة» الناضجة وانتهاء بالمعرفة المتجمعة والحكم الناضج. إنها روح المعرفة، المتحررة من النسبانية الزمنية فقط. فالحكمة إذاً هي الانشغال المتباعد distanced بالحياة نفسها، بالنظر للموت نفسه. إنها تحافظ على/ وتمنح اندماج الخبرات على الرغم من أفول الوظائف الجسمية والعقلية. إنها تجهز إجابات عن حاجة الجيل التالي لموروث متكامل، ومع ذلك تظل مدركة لنسبانية كل المعارف» (1966 «أ»، صفحة 121-122).

لقد صاغ إيركسون هذه الأفكار في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، عندما كان هو نفسه بعيداً جداً عن هذه المرحلة من الحياة وكان الوصول إلى هذا السن المتقدم غير متاح إلا لقلة من الناس. أما اليوم فيمثل السن بالنظر للمجموعة المتزايد باطراد من الشيوخ مقطعاً مستقلاً من الحياة، وأصبحت دراسة الأنماط المختلفة من الحياة في الكبر موضوعاً علمياً متخصصاً. وكثير من يرغبون أن يحصلوا على الراحة، ولا يحافظون إلا على القليل من الاهتمامات والاتصالات، ويقومون بدور الجدين. في حين يصبح آخرون أكثر فاعلية ويمارسون هوايات جديدة، يدرسون أو يقومون بالرحلات. ومهما كان الشكل الذي يصمم فيه المرء حياته، فإن الوسيلة المثلى ضد الشك والوحدة بالنسبة لإيركسون، هي البقاء خلاقاً أطول فترة ممكنة والعمل من أجل الآخرين، من نحو في منصب شرف أو في نادي الشيوخ أو في العمل الاجتماعي: «من دون سؤال يمكن ولابد لكبار السن الاحتفاظ بوظيفة توالدية - كريمة. إذ أنه ليس هناك من شك بأن عدم استمرارية الحياة الأسرية كنتيجة للمجتمع المتقلب تسهم بشدة بغياب ذلك الحد الأدنى من المشاركة الحية، اللازم للبقاء نابضاً بالحياء بالفعل. وغالباً ما تبدو المشاركة الحية الناقصة الموضوع التوّاق[1] nostalgia، الذي يكمن خلف الأعراض العامة، التي تقود كبار السن إلى العلاج النفسي. وبالفعل فإن شكهم يتكون في جزء كبير منه من الشعور الدائم بالجمود» (1988، صفحة 81).

---

(1) الحنين أو التوق إلى الماضي.

وتمثل تحفة إنغمار بيرغمان[1] Ingmar Bergmann بعنوان «فراولة برية» بالنسبة

(1) مخرج سويدي في 14 تموز/ يوليو 1918 في اوبسالا شمال ستوكهولم واخرج أكثر من أربعين فيلما طوال حياته الفنية الطويلة، بينها «صرخات وهمسات » (1972) و«مشاهد من الحياة الزوجية» (1974) و«سوناتة الخريف» (1978) و «فاني والكسندر» (1982) وهو فيلم بمثابة وصية. توفي عام 2007. وكان واحداً من أواخر عمالقة القرن العشرين. سينما إنغمار بيرغمان، تراوحت مواضيعها بحسب مسيرة مبدعها. ففي الأربعينات والخمسينات كانت أجواء الحياة السويدية، المتوحدة الكئيبة، هي الغالبة على أفلام تلك الحقبة. ولكن اعتبارا من الستينات، وجدت مشكلات الإنسان ككل، الوجودية والمصيرية، مكاناً راسخاً في أفلامه؛ كما في «صمت الإله» و «الصمت» و «اليانور» المتسائلة عن الشك واليقين. ومع دخول الشاشة الصغيرة إلى الحياة المنزلية وصيرورتها كجزء غير منفصم منها، التفت إلى المسلسلات الدرامية وقدم مساهمات فيها مهمة ومميزة ؛ مثل «مشاهد من زيجة»و «فاني والكسندر». هذا الأخير، سبق أن أنتج كفيلم روائي طويل في بداية الثمانينات، وكان من آخر أعماله.

كانت أفلامه حافلة بالثراء والتنوع إلى حد مدهش منذ فيلم «ميناء السفن العابرة»وحتى أفلام الحداثة المعقدة المتمثلة في فيلم «القناع» (1966) قدم في أفلامه نماذج عدة للتلوث الذي يعم عالم الواقع وهي الطريق التي عنى بها روب غريبه عناية فائقة وكان أول من ابتدعها والتي تتيح للراوي التقليدي أن يظهر في اللقطات نفسها التي تصور مشاهد في أيامه الخوالي، كما نرى لدى أورسون ويلز في «المواطن كين» وألف سيبرج في فيلم «الأنسة هول»، أما برغمان فقد توسع في تطبيق هذه الفكرة في فيلم «الفراولة البرية»(1957) وقد حافظت كلمات الراوي المدونة في السيناريو المنشور على التأثير الخاص الذي ينشده من استخدامه لهذه الطريقة .حيث تقول هذه الكلمات « لا أدري كيف حدث ذلك، ولكن الواقع الذي أراه بوضوح في ضوء النهار قد تحول إلى فيض من الصور المتتابعة تشبه الحلم، بل إني لا أدري أهي حلم أم ذكريات أثارتها قوة الحوادث الواقعية. كما أنني لا أدري كيف بدأت، ولكنني أحسب أنها بدأت مع سماع نغمات تعزف على السيناريو». ليس الأمر هنا محاكاة أسلوب بروست، لأن ظهور الراوي الطاعن في السن قد أحدث توترات جديدة في عالم يتأرجح بين اليقظة والنوم، عالم حافل بالذكريات والأحلام الموغلة في أعماق الشخصية، وكذلك تجاربه في هذا العالم أحدثت توترات، فقد اكتشف أنه لا يستطيع أن يتجاذب أطراف الحديث مع ذكرياته بسهولة.لكن هذا الأسلوب الخاص الذي اتبعه في فيلم «الفراولة البرية»، كما أن هذا النوع من الختام الذي يسوده الإذعان والاستسلام وينطق بالهدوء والرضا لم يعد هو الختام المألوف لأفلامه اللاحقة.في سياق فيلم «الفراولة البرية» استخدم خامة ذات تباين شديد وهي تباينات صارخة ظهرت بين الأبيض والأسود، حين مزج بين نوعين؛ الفيلم الخام حبيبي وخام ناعم غير حبيبي. فبينما صورت مناظر الذكريات العاطفية بفيلم ناعم غير حبيبي، صور كوابيس الشخصية الرئيسة بخام حبيبي، ما جعل الموقف مكثف التحديد مشهد الكابوس الذي يفتتح فيلم «الفراولة البرية» فإذا كانت البطلة تريستانا في فيلم «بونويل» ترى في الحلم رأس الوصي يطل عليها وكأنه اللسان الرقاق في جرس الكنيسة، ومن هذا المشهد يحدث القطع فجأة على استيقاظها في سريرها ليعتري المتفرجين شعوراً بأنهم كانوا يشاهدون حلماً في أحلام تريستانا، ولأنه لا توجد نقطة ابتداء للحلم، فإن المتفرج يتساءل أين بدأ وفضلاً عن ذلك، لا يتطور المنظر على طريقة الأحلام، فالعكس تماماً يحدث لدى برغمان في فيلم «الفراولة البرية»، فما يتراءى أنه حلم ويتضمن بداية ولكن بلا نهاية. فالشخصية الرئيسة في الفيلم ايزاك بورج الأستاذ الجامعي العجوز في طريقه الآن إلى «لوند»، حيث من المقرر أن يتسلم جائزة تقديراً لعمله

لإيركسون واحداً من العروض الفنية الساحرة لأزمة الشيخوخة[viii]. فالفيلم يصف كيف أن الدكتور بورغ Dr. Borg البالغ من العمر 77 سنة يسافر مع زوجة ابنه من لوند إلى ستوكهولم، كي يتلقيا في اليوم التالي وساماً عالياً. فتتكاثف كل مراحل وتحولات دورة الحياة في رحلة اليوم. فمنذ البداية يدور في رأس بورغ حلم، تابوت، يسقط مصلصلاً من سيارة لنقل الموتى كانت تسير، ويُفتح، فإذا بوجه الميت هو وجهه هو، يواجهه بخوف الموت المتسلل. وبشكل نصف واع يدرك بورغ أنه كان ناجحاً مهنياً، إلا أنه فشل اجتماعياً. ومارينا حامل تحمل حفيده في بطنها، وهو ما يذكر بورغ أنه لم يكن يوماً ما على علاقة طيبة صحيحة بابنه. موقفه المنطقي بشكل جيد تجاه الحياة هو الخلل الحاسم في شخصيته كما في عائلته الأصل. ولمسافة في الطريق يقل كلاهما ثلاثة شبان معهما في السيارة؛ وهم يمثلون حميمية حياة الرشد. يهوي بورغ في أحلام نهارية؛ فيرجع إلى علاقة حبه الخائبة ويقابل لاحقاً أمه الكبيرة في السن. فخلف واجهته التي تبدو متكيفة فإن بورغ قد ظل وحيداً. فهو لم يستطع في حياته أن يعطي كفاية ويكافح مع شكه.

ويرجع الفضل لإيركسون باعتباره واحد من أوائل الباحثين الذين جعلوا الشيخوخة في مركز اهتمام علم النفس، التي كانت حتى ذلك الوقت مصنفة بصورة

المتميز، وتتسم رحلته بالانفصام المكاني، إذ تكثر نقلات القطع التي ينعكس فيها اتجاه الكاميرا، ما يجعل المتفرج عاجزاً عن تخيل مكان متماسك مترابط، ويبدو أن بورج يراوده حلم اليقظة في منظر يتوقف فيه عند مهد طفولته .هناك مؤشرات تقليدية لحلم يقظة سينمائي فالإضاءة تكسب مظهر التعريض المفرط للنور، وأعالي الشجر تهتز في بطء، والسحب تسبح عالياً في الفضاء، وتبدو هيئة ايزاك تأملية مستخرجة، ومع بقائه رجلاً عجوزاً يجوس متنقلاً بين الناس وحوادث طفولته يتكلم مع فتاة تدعى سارة افتتن بها في شبابه، ويبدو أن هاتيك الحوادث الغريبة الشاذة ينبغي أن تؤخذ على أنها جزء من حلم يقظة، ومع هذا يتقوض هذا التأويل عندما يخرج بورج في نهاية المشهد من المنزل مباشرة إلى الوقت الحاضر من دون تحول يمكن إدراكه أو تمييزه، ويلوح أنه عاش في حلم يقظة له بداية لكن بلا نهاية، وتتقوض الثقة من تأويل حلم اليقظة أكثر من ذلك، إذ بخروجه من الماضي مباشرة إلى الحاضر يقابل الرجل العجوز سارة أخرى سارة الحاضر وتلعب دوري سارة الماضي وسارة الحاضر الممثلة نفسها لتزيد من حيرة المتفرجين في الكيفية التي يمكن أن يفرز بها حقيقة اندماج بورج في ماضيه، ويؤدي تراكم اللقطات العكسية والعناصر المتضاربة غير المترابطة إلى مزيد من ارتياب المتفرج في فهم تصرفات ايزاك بورج، حيث لا توجد نهاية للحلم، وربما لم يوجد حلم على الإطلاق.

خطأ في الغالب بوصفها مجرد مرحلة التهدم الجسمي والذهني. فقد وصف إيركسون المرحلة الثامنة من دورة الحياة بأنها نوع من المصالحة الأخيرة للأنا مع الواقع ويقترب في هذا في تصوراته من تصورات «تحقيق الذات» في علم النفس الإنساني أو من «النرجسية الناضجة mature narcissism» لهاينس كوهوت (Heinz Kohut, 1973). وبشكل مباشر يفكر المرء بالشخصية من الطراز الأصلي archetype للحكماء الكبار في الحكايات والأساطير وتاريخ الأديان أو بشخصية رجل الدولة الأقدم elder statesman. ولكن هل تنطبق وصوفات إيركسون المثالية على معظم شيوخ اليوم؟ هل يتعلق الأمر في الشيخوخة بالفعل بدرجة كبيرة هكذا بإيجاد المعنى والحكمة والسمو، أم يدور المرء بالدرجة الأولى حول أمور الحياة اليومية كما هو الحال في المراحل الحياتية الأخرى؟ من المؤكد أن السعي للحصول على التتميم rounding في الذكريات الذاتية هي صفة مميزة لخبرة كبار السن وكذلك المراحل المؤقتة من الحزن واليأس. غير أن هذه الظواهر تحصل في مراحل الحياة الباكرة بالمقدار نفسه أيضاً! وفي الختام فإنه قلما تستطيع مفاهيم عامة جداً من نحو التكامل والشك أن تقيس الاتجاهات المتنوعة جداً وأنماط السلوك، التي يخبر فيها المرء مشكلات الحياة النموذجية ويواجهها فيها، من نحو التغيرات في العلاقات الشخصية أو فقدان إنسان عزيز أو الانتقال إلى دار الشيوخ أو التعامل مع الأمراض والعاهات الجسدية ومواجهة الاحتضار والموت على سبيل المثال. كما يطرح السؤال فيما إذا ما زال كبار السن في هذه الأيام يستطيعون ممارسة وظيفة المثل الأعلى للجيل الناشئ بهذه الدرجة، أو فيما إذا كانت الخبرات الأكثر تكراراً هي نوع من الخلط ولم تعد تؤخذ كثيراً على محمل الجد؟

4.10 مساهمة إيركسون في علم نفس النمو

قدم إيركسون بنموذج دورة الحياة أكثر العروض تأسيساً للنمو الإنساني من وجهة نظر علم نفس الأعماق. فقد وسع مذهب النمو التحليلي النفسي للمرة الأولى إلى سن الرشد ويعد من العلماء القلائل في علم نفس النمو، الذين وضعوا نموذجاً كلياً لسيرة

الحياة الإنسانية من الولادة وحتى الموت.و انطلاقاً من كلا الرؤيتين الكبيرتين للتحليل النفسي، أي نظرية الليبدو ونظرية نمو الأنا، تبنى إيركسون الكثير من ظواهر النمو، وتغيرات التفكير والفهم والأطر الاجتماعية وآليات الدفاع، وتفتح الفضائل والضمير. ويرجع الفضل له في تشبيك كل هذه «الخطوط النهائية»- كما أسمتها آنا فرويد وبالتالي طرح نموذجاً لدمج رؤى النمو لنظرية الليبدو وعلم نفس الموضوع وعلم نفس الأنا مع بعضها ونصب جسور مع علماء علم النفس الأكاديمي(ix). فنمو الدافع والأنا هما عند إيركسون أجزاء لبرنامج أساسي متفتح تخلقياً، يشكل الخميرة البيولوجية للتفاعل والمطالب الاجتماعية المراحلية الجديدة في كل مرة. ويتعلق الأمر في النهاية بنموذج متدرج ذو توجه بيولوجي، يرجع إلى تصورات فلسفية ذات جذور عميقة، حول مبدأ الكمال الأرسطوطاليسي[1] entelechcia وصولاً إلى أفكار التفتح الرومانسية عند هيردر[2]

(1) يرى أرسطو أن المادة تنزع لتكون صورة أي كيان محدد للغاية والوظيفة بمعنى أن هناك هدفاً وغاية لكل موجود وهذه الغاية كما يراها هي الكمال، محاولة النفس لتحقيق الكمال الأزلي.

(2) يوهان هيردر فيلسوف كبير ذو تأثير واضح على الحضارة الألمانية، فضلاً عن أنه من كبار منصفي الإسلام. ولعل مقولته: « لقد هبت رياح الدين والشرف وتذوق الجمال الإسلامية على الأوروبيين، فأغنت فيمهم... » دليل جلي على ذلك. ولد الفيلسوف الألماني يوهان غوت فريد هيردر في 25 أغسطس/ آب 1744 في موارنغين، حيث عمل والده كمعلم وقائد لفرقة الموسيقى الكنيسة، وفي وقت لاحق انتقل إلى كونيغسبيرغ لدراسة الطب والفلسفة وعلم الأديان. بعدها شغل وظيفتي مدرس وراهب في المدرسة الدينية بمدينة ريغا. ثم أصبح خطيباً في مدينة بوكيبورغ. في العام 1769 سافر هيردر إلى باريس حيث جادت قريحته بكتاب «العاصفة والضغط»، ليتنقل بعدها إلى فايمر Weimer، تلك المدينة التي احتضنت مفكرين وفلاسفة على غرار غوته وشيلر ونيتشة الذين عاصرهم هيردر. وعاش في فايمر Weimer حتى وفاته في أغسطس/ آب عام 1803.

عاصر هيردر علماء كبار ومفكرين مثل لايبتز وليسنغ، كما تأثر بمفكرين وفلاسفة مثل كانط وهامان. وقد عُرف عنه موقفه الرافض لفلسفة نقد العقل للفيلسوف ايمانويل كانط. كما عارض المفكر وولف في تجزئته للنفس البشرية داعياً إلى اعتبارها جزء متكامل. ومن أبرز ما دعى إليه هيردر الاهتمام بعنصر اللغة، كونها هي أساس أي تطور. وتأتي اللغة حسب مفهومه في المقدمة ثم تتبعها المعرفة والحكمة. كما أن اللغة برأيه هي التي تجعل من الإنسان إنساناً، لذلك قام هيردر بمحاولات لتأريخ اللغة، أي دراستها من خلال تاريخ تطورها. وإما إذا كان من الممكن دراسة أصل الإنسان عن طريق تاريخه فأنه من الممكن أيضاً دراسة كل لغة عن طريق تأريخها، ودعى هيردر احترام الفروقات الثقافية بين الحضارات والأجناس ، وأوضح انه من خلال هذه الفروقات فقط، وهي التي تميز كل حضارة إنسانية عن الأخرى، يمكن فهم الحضارة الإنسانية بشكل عام. وفي كتابه «أفكار حول فلسفة تاريخ الإنسان» أطرى هيردر على شخص الرسول الكريم وأبدى حماسه لفكرة

Herder أو فروبيلز[1] Froebels. وتدور مراحل النمو عند إيركسون، وبشكل مشابه لهافيرست (هافجهرست) Havighurst، حول المشكلة الأساسية المحددة مسبقاً بيولوجياً في حياة كل إنسان فرد. أما الكيفية التي تعاش فيها هذه المرحلة وتتم مواجهتها، فيتعلق الأمر بخبرات التنشئة الاجتماعية في ثقافات وعصور مختلفة كلية وبالتمثل الفردي لمصير الحياة الشخصي.

ويؤكد النموذج التخلقي وفق ميرتينس (Mertens, 1983) إعادة التشكل النوعية الحادثة باستمرار، وليس الانحلال، لبنى الشخصية الباكرة في خبرات التنشئة الاجتماعية وخبرات التعلم. ومن هنا فإن كل مرحلة من مراحل النمو تمتلك موضوعها وأهميتها الخاصين ولا يمكن أبداً تقليصها كلية على الخبرات الباكرة. ويشكك إيركسون بتصور فرويد المتمثل في أن الإنسان الصغير يكون في السنة الثالثة أو الرابعة قد انتهى ولاحقاً «يظهر بالتدريج ما هو مغروس فيه» (الأعمال الكاملة XI، صفحة 369). فالنمو يعني بالنسبة له المواجهات المندرجة باستمرار متكرر في الماضي والحاضر والمستقبل، حيث هناك فرصة من حيث المبدأ للتغلب بالتدريج على القصور والانصدامات والمراحل الماضية. وبهذا يعارض إيركسون كل تفكير تبسيطي آلي: فالأحداث في أثناء مرحلة محددة من مراحل النمو أو سلوك تربية محدد للوالدين لا يمكن على الإطلاق استخدامها

وحدانية الخالق. كما أبدى إعجابه بتعاليم الإسلام التي منحت المسلمين الأمان والاطمئنان النفسي. ورأى هيردر أن الحروب الصليبية كانت «فرصة ثمينة» لأوروبا لتفهم الكثير عن حياة المسلمين وحضارتهم. كما أبدى يوهان هيردر إعجابه بالقرآن الكريم حيث قال: «لو كان للجرمانيين كتاب كلاسيكي بلغتهم كالقرآن الكريم لما أصبحت اللغة اللاتينية مسيطرة عليهم، ولتعذر تفرقهم وتشتتهم ضمن الشعوب المختلفة المجاورة».

(1) وضع المربي الألماني فردريك فروبل الأسس الفلسفية لرياض الأطفال والتي وصلت إلى أعلى نقطة لها في بيئة التعلم قبل المدرسة وذلك في أوائل القرن التاسع عشر.

إن كلمة رياض الأطفال لها معنى: وهو حديقة الأطفال وتتضمن فكرة إن الأطفال مثل نباتات الحديقة يجب إن نتولاها بالعناية الفائقة لتنمو وتزدهر.

وقد اهتم فروبل بقيمة اللعب والخبرات الحسية بالأشياء كأساس لتعلم الطفل. وتتضمن مبادئه إعداد الأطفال ليعبروا عن ذاتهم وينموا شخصيتهم ويشاركون اجتماعيا. وعادة مايلتحق الأطفال في الأطفال في سن خمس سنوات ويقضون من ثمانية إلى عشر شهور في بيئة تعلم تسبق العمل الأكاديمي في الصف الأول الابتدائي.

من أجل تفسير سببي أحادي لمشكلات وعصابات الراشدين، حتى لو أن هذه الرؤية ما زالت موجودة اليوم بعناد لدى عدد لا بأس به من المحللين النفسيين.

ومخطط دورة الحياة هو نموذج توضيحي، مازال حتى اليوم يمثل نموذجاً رائداً في علم النفس النمائي الأمريكي، وأصبح موضوعاً لمشاريع بحث وأطروحات لا تحصى ناهيك عن أنه أوقظ الاهتمام الكبير لدى المؤرخين وعلماء الاجتماع والفلاسفة ورجال الدين. وكذلك بالنسبة لكثير من الجمهور، وبشكل خاص الوالدين المهتمين بمراحل نمو أطفالهم، فإن دورة الحياة الإيركسونية تعد توجهاً موضحاً، وربما لأن إيركسون أقرب في وصفه لمجرى النمو الطبيعي، فإنه يشجع الوالدين والمربين بدلاً من الإشارة بالدرجة الأولى إلى أزمات النمو والمخاوف. ويطلق إيركسون على النتائج الإيجابية لمراحل النمو تسمية الفضائل، مع العلم أنه لا يتضح بماذا تختلف عندئذ الفضائل من نحو الأمل أو الإرادة أو الطموح على سبيل المثال عن «المركبات الإيجابية من نحو الثقة الأساسية basic trust» أو الاستقلالية أو المبادرة.

وعلى الرغم من أن إيركسون يدعم تصوراته عن دورة الحياة بدراسات تاريخية وعلم الشعوب البدائية أيضاً، فأنها مستخلصة بصورة أساسية وكما هو الحال في كل مكونات التحليل النفسي من ملاحظات إكلينيكية ولا تخدم كما يلحظ بيرغيوس Bergius، «بالدرجة الأولى بناء المعرفة العلم نفس نمائية، وإنما الممارسة العلاجية النفسية والإيحاءات المقصودة وغير المقصودة الفاعلة فيها» (1972، صفحة 196). فالأمر يتعلق بتأويلات وترميات، بشكل لاتصل فيه إلى استيفاء مطالب الدقة العلمية العالية، وهو ما يجعل من خطر الافتراضات والتحيزات الشخصية أكبر. كما تم انتقاد أن المراحل الثلاثة لحياة الرشد على الأقل تدور بشدة حول العلاقات الشخصية في الزواج والأسرة وتمتلك «بقوة صبغة معيارية أخلاقية» (Thomac, 1968)، يتجاوز على الأغلب الوضع الحياتي للإنسان المتوسط. فمراحل الحياة المتعاقبة وراء بعضها بشكل متدرج تكاد تقترب من تصور طموح يتقدم للأمام وواعد باستمرار ووجوب عمل دائم على كمال الشخصية. كما أنه يمكن لتعابير من نحو «الاستقلالية» أو «المبادرة» أو

«الاجتهاد» أو «الطموح» أو «المثابرة» بسهولة أن تلتقي مع إيديولوجيا النجاح في مجتمعات الإنجاز الراهنة. أما مدى سهولة إمكانية اتخاذ مثل هذه الفضائل طبيعة لا ترحم أو مرضية، فهذا ما لا يستخلصه إيركسون. كما أنه لا يمكن تجاهل أن مراحا إيركسون تدور نوعاً ما حول أنماط الوجود الذكورية وتهمل في بعض الأحيان المواضيع وأنماط الخبرة الخاصة للتنشئة الاجتماعية الأنثوية(X).

وعلى الرغم من أن إيركسون ينتقد نقص التوجه النفسي الاجتماعي للتحليل النفسي الباكر، فإنه يصمم مراحل نموه كأجزاء من برنامج نضج مولود. وهذا الأمر يؤيد أن «الشخصية تنمو في فترات، محددة مسبقاً من خلال استعداد العضوية الإنسانية، وينبغي أن تدرك بشكل شعوري وتعاش فاعلة عبر أفق اجتماعي متوسع» (1981 «ب» صفحة 58). ومن المؤكد توجه دفعات النضج البيولوجي في الطفولة الكثير من أطوار النمو الجديدة. غير أنه مع الدخول في المراهقة على أقصى تقدير فإن ما يسبب النمو والتغير هي تأثيرات تاريخية-اجتماعية متحولة وظروف مصيرية شخصية بالدرجة الأولى.

ولكن ما هي دفعات النمو البيولوجية على سبيل المثال التي يفترض أن تستثار من خلالها مراحل سن الرشد؟ يعتقد رشتر (Richter) بأن إيركسون لم يستطع من حيث المبدأ كفاية تحقيق مطلبه بتقديم استمرارية منهجية لنظرية النمو الفرويدية إلى سن الرشد: «فإذا ما غض المرء النظر عن مرحلة التوالدية، فإن كلا المهمتين الأخيرتين المذكورتين من إيركسون لا تبدوان بالضرورة كمشكلتين نهائيتين مرتبطتين بالمرحلة. فالمرء لا يريد فهم، لماذا لا تكون القدرات على الحميمية والتباعد من جهة واكتساب ما يفهمه إيركسون تحت التكامل، أن تبدأ منذ نهاية المراهقة. فمضمونيا يكتمل بمساعدة العمليات الموصوفة تحت الحميمية والتباعد وإيجاد التكامل تشكيل الهوية الشخصية. والمرء قلما يستطيع التعرف نوعياً على مواضيع نهائية جديدة لسن الرشد المتوسط والمتقدم» (1978، صفحة 47).

غير أنه في الثقافات المرتبطة أكبر بالتقاليد ما زال بالإمكان حتى اليوم ملاحظة

مراحل دورة الحياة في شكل متمايز عن بعضه بوضوح. أما في المجتمعات الصناعية التعددية الوظائف فإن ملاحظة مجريات النمو تتزايد ندرة، حيث يواجه الفرد مرحلة فمرحلة مهمات وفي كل مرة يترعرع موضوع حياة جديد. فبصورة غالبة باستمرار يتم تسبيق مهمات نهائية، أو تطويلها، أو تأجيلها أو حلها إلى حد ما، أو يُرجع إليها ثانية أو طيها. وأطفال الأسر المطلقة يعيشون في وقت مبكر جداً حميمية غير سليمة كشريك تعويضي عن أحد الوالدين أو عليهم أن يتولوا مسؤولية والدية عن الأخوة الأصغر. خبرات الجنسية الحميمية يتم تقديمها إلى سن الشباب، في حين أن إيجاد المهنة غالباً ما يمتد حتى العقد الثالث من الحياة. ويتعامل المرشدون والمعالجون النفسيون في أيامنا هذه مع كثير من المرتجعين ذوي مسودات حياتية غير مستقرة بشكل مربك: فالمرء يتزوج لينفك من منزل الوالدين ولإيجاد هويته، يغطي من خلال الهم على الأولاد التوترات الزوجية. وينفصل الإنسان وينكص مرة أخرى لفترة زمنية إلى أشكال من حياة المراهقة، يعشق من جديد ليواجه بعد وقت قصير لاحق بمشكلات الحميمية القديمة. ويختار في سن الرشد المتوسط مهنة جديدة كلية، يتطلق بعد عشرين سنة من الزواج، يعيش فترة طويلة لوحده، ليعود فيرتبط مرة أخرى بشريك جديد.

هوامش الفصل الرابع:

(i) عرض المراحل الثمانية لدورة الحياة في مقاله «النمو وأزمات الشخصية السليمة»، في Psyche 1953، والذي أعيدت طباعته ثانية في الفصل الثاني من «الهوية ودورة الحياة»، 1981 «ب»، صفحة 55-122؛ بالإضافة إلى ذلك في الفصل الثالث من «الشباب والأزمة»: «دورة الحياة: التخلق المتعاقب epigenesis والهوية»، 1981، 1981 «أ» صفحة 91-144: وفي الفصل السابع من «الطفولة والمجتمع»: «المراحل الثمانية للإنسان»، 1982 «أ» صفحة 241-270؛ وفي الفصل الثالث من «دورة الحياة الكاملة»: «أهم أطوار النمو الاجتماعي النفسي»، 1988، صفحة 70-110؛ كما يصف إيركسون مراحل نموه في «الإدراك والمسؤولية»، 1966 «أ»، صفحة 99-145؛ «لعب الأطفال والخيال السياسي»، 1978 «ب»، صفحة 69-96؛ «الشاب لوثر»، 1975 «أ»، صفحة 156-170 و266-276 و280-293؛ «حقيقة غاندي»، 1978 «أ» صفحة 35-40.

(ii) قارن Hoffer,1974

(iii) قارن Nadig,1985

(iv) قارن Amati,1990.

(v) قارن حول موضوع التحليل النفسي والتربية المدرسية فورستناو (Fuersenau,1974) وكورنر (Koerner,1983) وموك (Mock,1980).

(vi) قارن حول موضوع علم النفس أو التحليل النفسي لسن الشباب
Baake,1983 & 1987; Blos,1973; Doebert & Nunner-Winkler,1975: Anna Freud,1960-1961; Muuss,1971).

(vii) قارن على سبيل المثال (Bendek,1959: Richter,1969; Stierlin,1975)

(viii) أنظر (Erikson, E. H. (1978 c) ، «دورة حياة الدكتور بورغس».

(ix) حول نظرية النمو عند إيركسون كتب على سبيل المثال:
Bergius 1972, Baltes und Schaie 1973, Maier 1965, Lerner 1976, Linn 1991, Oerter und Montada 1982, Ornella 1984, Piers 1982, Schraml 1968b, Thomae 1968, Trautner 1978.

(x) قارن (Lessig,1982;Janeway,1971).

الفصل الخامس

إعادة صياغة نظرية الدافع

5.1 الأنظمة والعالة

بغير إرادته اصطدم الفاضل moralist فرويد بمقدار كامل من الهيجانات agitation الجنسية اللاشعورية الكامنة خلف الأعراض الغريبة لمريضاته الهستيريات. وبشجاعة تجاهل نفاق معاصريه وأصبح أول عالم يهتم بقرب «بالطبقات النفسية الأدنى» للدوافع والانفعالات. فالدوافع كالجوع أو العطش أو الجنس أو العدوانية أو الخوف وتجنب الألم، باعتبارها القوى البيولوجية الأساسية للحافظ على الذات والنوع، هي الحوافز motivation الأساسية في الحياة النفسية للإنسان، من دون إشباعها المستمر سيتعرض وجودنا مباشرة للخطر. وجزء كبير من الطموح الإنساني والتنظيم الاجتماعي يدور حول ضبط وتأمين الحاجات الجسمية.

ولم يكن فرويد على الإطلاق مدافعاً عن شهوانية منفلتة في يوم من الأيام. وفي إطار مذهب الدافع المطرد التعقيد درس باستمرار التفاعل الصراعي لضروب متعددة من الدوافع كمصدر للديناميكية النفسية. ومع ذلك فقد ظل الدافع الجنسي منذ البداية في محور تفكير فرويد، وطور كل مكونات التحليل النفسي تقريباً في المواجهة مع ظاهرة الجنسية الإنسانية. وقد تم رفض طروحات فرويد، حول العلاقة بين الجنسية الطفولية والجنسية الشاذة على سبيل المثال، من العامة بغضب، إلا أنها قادت أيضاً داخل حركة التحليل النفسي إلى خلافات عنيفة. فقد كان من المميز أن «المنشقين dissidents» كآدلر أو يونغ أو رانك قد تبنوا أجزاء كثيرة من تفكير فرويد، إلا أنهم أضعفوا أو حتى شككوا كلية بمذهب الدافع، وبشكل خاص أهمية الجنسية. وعلى الرغم من كل ذلك

النقد والتعديلات فإن «المظهر الديناميكي» ظل المكون الأساسي لصورة الإنسان في التحليل النفسي: إذ يوجد نصيب دافعي، منطقة قلقة حيوية - بيولوجية في الحياة النفسية، لا يمكن السيطرة عليها على الإطلاق كلية بالمنطق والإرادة، باعتبارها مصدراً للهوامات الجبارة والهيجانات.

وإيركسون لم ينتقد في أي وقت من الأوقات أسس التحليل النفسي. وربما لا يكون من المنصف اعتباره تعديلياً revisionist، قدم لأمريكا المتزمتة1 puritanical تحليلاً نفسياً منظفاً من الجنسية. إلا أن إيركسون انتقد في نماذج فرويد في الشخصية النظر للتوترات الدافعية على أنها بمعنى ما الطاقات الدافعية الفيزيائية «للجهاز النفسي». فمن حيث المبدأ فإن الدوافع الأساسية لدى الإنسان متجذرة في كل مجالات الشخصية وترتبط مع أمزجة ومشاعر غامضة، وتصبح جزءاً من السلوك الاجتماعي، تلهم الخيال والإبداعية. وتوضيح الارتباط المباشر لمحيط الدافع وبشكل خاص مع النمو الاجتماعي ونمو الأنا يمثل المطلب الرئيسي لتوسيع إيركسون لمذهب الدافع التحليلي النفسي. والتصور النظري الحاسم هو الأنظمة والحالة[1] Modi and Modality.

لقد ميز فرويد بين مركبات عدة من الدافع:

1- مصدر الدافع، أي مراكز الاستثارة (الهيجان[2]) البيولوجية، القابلة للتحديد في مجالات جذع الدماغ، من نحو الشعور بالجوع على سبيل المثال؛

2- هدف الدافع، أي تهديم توترات الانزعاج التي تصبح مطردة القوة في حال عدم الإشباع (تناول الطعام، الشبع)؛

3- موضوع الدافع، أي الشخص أو الشيء الذي يتم معه أو من خلاله تحقيق الدافع، من نحو صدر الأم الذي يجود بالحليب على سبيل المثال؛

(1) البيوريتاني، أو التطهيري، أو المتزمت: التطهيرية بالأصل جماعة بروتستانتية في إنجلترا ونيوإنجلاند في القرنين 16 و17، طالبت بتبسيط طقوس العبادة وبالتمسك الصارم بالأخلاق الفاضلة وأهداب الدين.

(2) المترجم.

4- تمثيلات الدافع drive representations، أي كل التصورات والمشاعر المختلفة التي تمثل حدث الدافع البيولوجي غير المُدرك بحد ذاته في الوعي الإنساني، من نحو الحب والاشتهاء، الرغبة، الغيرة، الحنق على سبيل المثال.

وفي حين أن فرويد اعتبر الدوافع بأنها أكثر مصادر الطاقة الداخلية، المحافظة على استمرارية الرغبات والإرادة، فإن إيركسون يريد أيضاً أخذ مركبات السلوكية الخارجية للدافع بعين الاعتبار. ومن وجهة نظر علم النفس التأملي metapsychology يمكن اعتبار مفهوم النظام Modus عند إيركسون على أنه تصوير أوسع للدافع، النشاط الخارجي المميز للعضوية تجاه موضوع الدافع، من أجل تحقيق هدف الدافع (من نحو «التهام» حلمة ثدي الأم أو «إيلاج العضو في المهبل») على سبيل المثال.

فمباشرة بعد الولادة يتم تنشيط الأنظمة Modi من خلال التوترات الدافعية لضمان البقاء. والفم مشكل تشريحياً من أجل تلقي الغذاء في داخله وابتلاعه، حتى وإن كان أيضاً يستطيع الإغلاق أو بصق الأشياء. ويبدأ الشرج Anus والإحليل urethra بإخراج نتاجات الهضم الزائدة. وعلى ما يبدو فإن الأنظمة هي آليات الحفاظ على الذات والنوع التي أصبحت باضطراد متزايد أكثر تعقيداً في مجرى التطور النوعي للعضويات الحيوانية والنباتية، فالعضويات البسيطة من نحو الأميبات[1] amoeba لا تحتاج إلا إلى عمل الالتهام للبقاء. ونشأ لاحقاً جهاز إخراج خاص، وفي مرحلة أكثر تعقيداً من التطور تطورت أعضاء ووظائف لعملية التكاثر.

والاستخدام الصحيح للأنظمة لا يتوفر للرضيع بصورة غريزية، وإنما عليه أن يتعلمه في تفاعل مع أمه. ففي بداية الحياة لا نستطيع الحديث عن دوافع متمايزة بعد. فالحالات المبهمة من الانزعاج تدفع الرضيع نحو صدر الأم. وفي الالتقاط الانعكاسي والتوثب، وفي الالتهام النهم لحلمة الثدي يكمن شيء ما عدواني بالمعنى التقاربي الأصلي، أي الاقتراب من الأشياء والأشخاص. ومن خلال المص يتم إشباع دافع البقاء. وفي

---

(1) المتمورة: حيوين وحيد الخلية يتغير شكله باستمرار.

الوقت نفسه يمنح التدفق الدافئ للحليب والاحتضان الرقيق من جسد الأم أحاسيس مريحة-ممتعة، التي اعتبرها فرويد مصدر الحياة الجنسية. ومن أنماط خبرة مسهبة diffuse كلية للرغبة وعدمها يتعلم الطفل بشكل متزايد التحسن التمييز بين مشاعر الجوع أو العطش أو البرودة وتهديم هذه الحالات من التوتر من خلال أنماط سلوكية أكثر تحديداً. وبصورة مشابهة لفينيخل Fenichel أو شبيتز Spitz أو ياكوبسون Jacobson اعتبر إيركسون الدوافع بداية بأنها طاقات غامضة ونزوعات انعكاسية تنتظم بالتدريج في مجرى النمو الطفولي مع بعضها في دوافع مولودة وأنماط سلوك.

ومنذ البداية تلح الأنظمة على الاتصال بالعالم. ويتحدث إيركسون عن «طرق التقارب الجسدي» (1982 «أ»، صفحة 90)، التي يتم تشكيلها بصورة مختلفة كلية في البيئات الثقافية والأسرية. ومن المنظور الجنسي النفسي فإن المص من صدر الأم هو إشباع للدافع ومن الناحية الاجتماعية النفسية يحدث هنا اتصال بين الأم والطفل، تبادل من الحنية، التعرف والاعتراف المتبادل، الذي يعد أمراً حاسماً بالنسبة للسلوك الاجتماعي اللاحق للإنسان. وجزء كبير من التنشئة الاجتماعية الطفولية تتكون بالنسبة لإيركسون بمعنى ما من «تضبيط» الأنظمة الدافعية في العادات الاجتماعية لأسرة ما وجماعة ثقافية. والنزعة النهمة - غير الهادفة للالتهام يتم تحويلها في الاتصال مع الأم إلى عطاء وأخذ رقيقين. وفي إطار التربية على النظافة يتعلم الطفل الصغير السيطرة على الأنظمة الشرجية، أي الإمساك بفضلاته وإخراجها بعدئذ في المكان والزمان المناسبين. والحالات Modality تكون على ما يبدو بداية أشكال مصاغة اجتماعياً لإشباع الحاجات، التي تتوفر للطفل في مجرى النمو اللاحق، أيضاً بغض النظر عن حدث الدافع، كنمط سلوكي مستقل. ومن التطعيم والإطعام على سبيل المثال يتطور بتعقيد مطرد التزايد نمط التبادلية الاجتماعية وصولاً إلى الأشكال شديد الصقل من تبادل المشاعر والأفكار. وفي مئات من نشاطات الحياة اليومية كثيراً ما يمكن ملاحظة حالات Modality العطاء والأخذ والإمساك أو التخلي كأنماط أساسية.

بالإضافة إلى ذلك يترافق نمو الدافع الطفولي المبكر مع سلسلة من الخبرات الحسية:

الجريان المريح للحليب عند المص السلبي؛ العاض، المقطِّع، الممزق للنظام الفموي الفاعل؛ مشاعر الامتلاء الداخلي أو الإخراج المريح للمرحلة الشرجية أو صلابة الخبرة القضيبية وتقويمها لنفسها. ومن المؤكد أن الأمر يتعلق بأساليب إدراك مبهمة كلية، لا يمكن مقارنتها مع تمثيلات الدافع فائقة الجمال عند الراشد. ومع ذلك فإن مثل هذه الطبقات الأعمق من الخبرة يتم مسها في الخيالات أو الأحلام أو الحالات المرضية النفسية. ففي عالم صور رمزية الحلم مثلاً يمكن حسب إيركسون برهان النظم والحالات Modi and Modalitics الطفولية بانتظام. ويظهر النظام الاحتفاظي retentive على سبيل المثال في الأموال المجمعة والسدود الممتلئة والبوابات المحصنة. ومن خلال عبور المخارج أو الأبواب أو رش الماء من الخرطوم تظهر الخبرة الإقصائية أو الطاردة eliminative، الحقن أو السهام أو السكاكين التي تدخل الجسم تعبر عن النظام القضيبي Phallic Modus.

وبهذا فإن الأنظمة تحث نمو النمو المعرفي والذكاء المتحول إلى حالات Modalities، على الرغم من أن إيركسون لا يناقش هذا الموضوع بتفصيل[11]. فحتى في اللهجة العامية يظهر القرب بين البلع الفمي وتلقي المعلومات من خلال أعضاء الحس («التعطش للمعرفة»، «شهية» للمعرفة، «متعة الأذن»، «بهجة العين»). ويبدو أن أهم الوظائف الذهنية الأساسية تسير وفق نموذج الأنظمة Modi: فدماغنا يستقبل المثيرات، وأحياناً، عند سماع معزوفة على سبيل المثال، على شكل استمتاع مسترخ (نظام فموي-سلبي Oral-passive Modus)، وأحياناً عند القراءة أو الإصغاء، على شكل التقاط المعلومات (نظام فموي فاعل)، وأحياناً بأن يلح المرء على الآخرين أو يتعمق بشدة في مجالات مشكلات ما (النظام المقتحم). فالمعلومات المهمة يتم التقاطها في الذاكرة (نظام الاحتفاظ)، وأخرى تسقط (النظام الطارد). وحياتنا العقلية تستمر بالنمو بلا كلل، وذلك بأن نتلقى المعرفة و«نهضمها»، ونتحفظ في النقاش مع الآخرين أو نقر لهم، نحتفظ بها في الذاكرة أو ننساها مع الزمن.

وفي كل تربية تتم تنمية الأنظمة والحالات بصورة مختلفة كلية أو كبحها. فالوالدان الخوافان يميلان إلى قمع أو الأخذ أو الإمساك العدواني؛ وفي جو أسري قهري يتعلم

الطفل لأن يكون متحفظاً في رغباته وتفكيره وأسئلته العفوية، في حين أن الأجواء الأسرية الهستيرية تبدو أنها تنمي لدى أولادها اتجاهات الفضول المقتحم. وتتصقل أنظمة وحالات محددة في مجرى التربية لتتحول إلى عادات نمطية للسلوك والتعبير عن المشاعر والتفكير وتصبغ تشكل الطبع في الشخصية بصورة جوهرية. مثال ذلك الناس الذين لا يستطيعون في تواضعهم الحذر «التوثب» و«الإمساك»، في حين آخرين يطلبون ويأخذون من دون أي تأنيب للضمير؛ والأشخاص الذين «يتحفظون» قهرياً وآخرين من الذين يميلون بسرعة «لبذل» وقتهم أو مشاعرهم؛ والناس الذين يبدون «اقتحاميين» في كلامهم وإيماءاتهم، ومفرطي الرعاية الذين يمتلكون دائماً الحاجة «لاحتواء» الآخرين «أمومياً».

وتحت تأثير السلوكية الأمريكية درس إيركسون مركبات السلوك الخارجية بدقة. يرى وولف (Wolf, 1974) أنه يبدو أن الأنظمة Modus لا تقوم على سلوك الطعام والإخراج الواقعيين وإنما ترجع إلى تصويره schema مولودة خلف هذه النشاطات الظاهرة. وعلى ما يبدو فإن الأنظمة هي وظائف أعضاء مولودة، يتم استخدامها للإشباع الدوري للحاجات. وهنا تنفصل الخبرات وعمليات التعلم المعمولة بالتدريج عن حدث الدافع وتتطور حالات Modalities عقلية واجتماعية مطردة التعقيد باستمرار. ومن هنا يمكن نظرياً من خلال برنامج الأنظمة والحالات نصب جسر نظرية الليبدو والتصورات التحليلية النفسية الأحدث حول نمو علاقات الموضوع والأنا. بالإضافة إلى ذلك توجد نقاط اتصال بالمبادئ الأخرى، بدءاً من علم الغرائز لأبحاث السلوك وصولاً إلى مراحل النمو العقلي عند بياجيه[iii]. وللأسف فإن إيركسون لم يعرِّف أبداً الأنظمة والحالات Modi and Modalitics بصورة صحيحة ويسندها إلى نظريات بشكل أكثر منهجية إلى مشابهات لوجهات نظر علمية أخرى. وهكذا يظل هناك بعض الغموض. فما هو النظام Modus بالضبط، هل هو وظيفة جسدية، أم شكل من إشباع الدافع، أم منعكس اجتماعي؟ وأين يكمن الفرق الدقيق بين الأنظمة والحالات؟ هل على المرء الحديث عن الأنظمة في النشاطات المنطلقة من الفرد وعن الحالة Modality عندما تأخذ هذه التصرفات طبيعة بين إنسانية؟ هل يوجد عموماً «النظام الصافي pure

«Modus»، أم أنه يتشكل اجتماعياً منذ الولادة من خلال كل سلوك، أي يظهر بشكل من الأشكال كحالة as Modality؟

من منظور نظرية الدافع التحليلية النفسية يمكن النظر للحالات على أنها نتاجات تصعيد أو تحييد Sublimation- or Neutralization Products. ويبدو أن إيركسون يواصل الفرضيات الأساسية لفرويد، حيث ينبثق النمو العقلي والاجتماعي للإنسان من حدث الدافع البيولوجي drive event؛ فالطاقات والآليات التي تلح بالأصل على التفريغ بأسرع وقت ممكن، تمر «بتحول في الوظيفة» وتصبح في مجرى عملية التنشئة الاجتماعية سمات متلائمة للسلوك. إلا أن إيركسون ليس مُنظراً صارماً مثل هارتمان Hartmann أو رابابورت Rapabort، اللذان حاولا من خلال دقة أكبر ملائمة تصور الدافع والطاقة التحليلي النفسي مع نظرية الأنا. وتظل هناك أسئلة معلقة: من المؤكد أن الأنظمة والحالات مازالت تظهر في سن الرشد. إلا أنه هل ينبثق كل السلوك الاجتماعي والعقلي للإنسان من دوافع وأنظمة الطفولة؟ أم توجد في الأنا أجهزة مستقلة، تتفتح وفق قوانين نموها الخاصة؟

5.2 العامل الثقافي للأنظمة الطفولية

على ما يبدو فإن الأنظمة عند الإنسان هي بقايا ضامرة من الغرائز الحيوانية. وبهذا فإن إيركسون يعالج الموضوع الواقع في المجال الحدودي بين التحليل النفسي والبيولوجيا وأبحاث السلوك. إنه يريد التمييز بين مفاهيم «الدافع Drive» و «الغريزة Instinct» بوضوح أكبر، والتي غالباً ما تستخدم بصورة مترادفة - حتى في الاستخدام العلمي. فلدى الحيوان فإن كل تجليات الحياة مرتبطة بطقوس غريزية ثابتة، وكل آليات الحماية والتكيف المولودة تتمتع بأعلى درجة من الصلاحية. فإذا ما تجاوزت طاقة الدافع المتراكمة (يستخدم إيركسون[1] هنا instinctual) حداً حرجاً، فإنه ينبثق عن مثير خارجي

(1) سنستخدم هنا «غريزي» كترجمة لها.

محدد تصويرة سلوك Behavior Schema مبرمجة مسبقاً، من نحو تناول الطعام أو التزاوج أو الهروب (يستخدم إيركسون هنا الكلمة instinctive[1]). وتظل الطاقة الغريزية instinctual Energy وأنماط السلوك الفطرية instinctive Behavior مرتبطة ببعضها البعض بصرامة وتتبع في النهاية الضرورة البيولوجية. والجهاز الغريزي معبر بشكل مثالي على محيط الحياة الخارجي والسلوك الاجتماعي للحيوانات الأخرى، بحيث أنه لم يحصل مرة أبداً أن حدث تضرر جدي لشريك النوع عند القيام بطقوس القتال.

أما الدوافع الإنسانية بالمقابل فهي عبارة عن طاقات ملحاحة منبثقة عن أنماط غريزية، على الطفل أولاً أن يتعلم توجيهها وإشباعها. إذ توجد لدى الإنسان الأشكال المختلفة من تناول الطعام أو الاتصال الجنسي أو حسم العدوانيات، والتي لا تعمل بشكل مضمون على الإطلاق كما هو الحال في الغرائز الحيوانية. فالإنسان يعرف رغبة إشباع الدافع، ويحاول غالباً الحصول عليها بمقدار أبعد بكثير من المقدار البيولوجي والاجتماعي المحمولين، حيث كل نظام اجتماعي معني بالاحتكاكات وصراعات الاهتمامات. ويمكن للدوافع لدى الإنسان أن تتصاعد وأن تأخذ طابعاً لا اجتماعياً (الإدمان، الجشع، الشذوذ، والهدم). لقد أوضح فريد بشكل حاسم، مدى قيام كل ثقافة على أساس التخلي عن الدافع، ومدى صرامة المؤسسات الاجتماعية والأخلاق والدين في محاولة خنق الجشع أو الجنسية المنحرفة أو العدوانية الهدامة في مهدها. والتربية الإنسانية حسب فرويد هي نوع من التدجين الذاتي Self domestication، هي المعبر من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع. فالطفل الأعمى بالأصل والساعي بلا هوادة نحو الإشباع عليه أن يتعلم في عملية تربية منهكة وقاسية كبح رغباته وتوجيهها اجتماعياً والتخلي عنها، وهو ما يترافق مع كثير من الخيبات والقلق.

وإيركسون أيضاً يرى التربية في الغالب بأنها عملية تشكيل الدافع، إلا أنه يسعى إلى تعميم أفكاره حول مقبل التكيف pre-adaptation بين الفرد والثقافة على هذا

(1) سنستخدم هنا «فطري» كترجمة لها.

الموضوع أيضاً. إذ لا يمكن أن يكون بأن التطور قد أنتج مخلوقاً غير متكيف كلية من الهيجانات العمياء المستعرة، التي لا يمكن ترويضها إلا من خلال إجراءات تربية قاسية بل الأرجح أن أنه لابد وأن يكون حتى عند الإنسان قد استمر التفاعل الفطري المعطى من التطور بين أمهات الحيوانات والصغار. ومن المؤكد فإن أنماط سلوك الأم والرضيع لم تعد فطرية. فبالإضافة إلى ذلك يكمن في الاستعداد الدافعي للطفل طاقة مبهمة للاتصال، يوقظ النزعة الغامضة للأم للسلوك الرعائي. ويرى إيركسون أنه من حيث المبدأ لابد أن يكون المجتمع مهيئاً إلى تشكيل هذه الطاقة الكامنة الدافعية للتبادلية إلى أنماط سلوك اجتماعية وحوافز Motivation، تنسجم بشكل أمثل قدر الإمكان في التنظيم الاجتماعي المشترك وتسهم بالحفاظ على استمراريته.

لا توجد أية ثقافة تستطيع تحمل كبح دوافع ورغبات الطفل بصورة غير نوعية، والتصرف فقط بعجز وخوف. إن ما يتم كبته في مجرى التنشئة الاجتماعية هو مثل هذه الأنظمة والحالات التي تؤثر بشكل ضار في برنامج الحياة المشترك فقط، حيث ستكون التربية أساساً ساعية ليس لتوصيل هذا الفشل بفظاعة، وإنما لموازنته من خلال الحب والاهتمام. ويبدو حسب إيركسون أنه توجد علاقة بين شكل الحياة وقيم ثقافة محددة، بين أنماط التربية التقليدية والنمو ما قبل التناسلي للطفل. وعلى الأقل في منظومات التربية المقيدة بالتقاليد يمكن للمرء ملاحظة كيف يتم من خلال الفروق في الرضاعة والفطام ablactation أو في التربية على النظافة، أو في التعامل مع الغضب الطفولي أو الاستمناء خلق نمط محدد من الشخصية، ينسجم بشكل مثالي مع الإطار الثقافي المعني. ومن هنا يريد إيركسون توسيع نظرية الليبدو في بعد نفسي اجتماعي: «فما قبل الجنسية لا توجد فقط من أجل الجنسية. بل أنه يحدث أيضاً استخدام للاهتمامات الليبدوية في المواجهات الباكرة للعضوية النامية في نمط محدد في تربية الأطفال، وذلك في إعادة تشكيل الأنماط المولودة لاقتراب العضوية – (العدوان) الأصلي، الذي مازال غير عدائي، من الحالة الاجتماعية للثقافة Social Modality of Culture » (1957 «أ»، صفحة 55).

والمجتمعات الحربية تدفع أطفالها بسرعة من سلبية تلقي الرعاية الفموية، وتربي على الشجاعة وتوكيد الذات والخضوع والانضباط discipline والطلب الحازم، والتوثب والإصرار. والثقافات الدينية الصارمة بالمقابل تقمع العدوانية المفرطة بمقدار ما تمنع الفضول الجنسي والاستمناء. وفي المجتمعات الزراعية يحتل استصلاح الأرض وحرثها وزرعها ورعايتها وجني المحصول محور الآمال والمخاوف المشتركة ومن ثم دورة شهوة وشبع المرحلة الفمية. وفي الثقافات الكانزة يرفع الأخذ والاحتفاظ بالملكية من المظهر الاجتماعي، في حين أنه في المجتمعات البدوية التي لا تعرف الملكية الخاصة فإن بقاء العشيرة يتعلق بتقسيم المخزون المشترك. وهنا يتحول الكرم، العطاء والأخذ غير المحدود إلى أعلى الفضائل في التربية، في حين يتم استنكار التجميع والتوفير.

لاحظ إيركسون في رحلة بحثه الأنماط المختلفة من التربية. فهناك شعوب بدائية ترضع أطفالها بلا حدود أو تقوم بفطامهم فجأة، أو تلف الرضيع على لوح خشبي وتحمله لساعات طويلة على الظهر، أو تطعم الطفل مباشرة عندما ينهنه أو تتركه يصرخ حتى يزّرق لونه، وثقافات تستثير غضب الطفل بصورة منهجية أو تحاول بصرامة قمع كل أحاسيس المتعة الجسدية. وكثير من تربية المجتمعات البدائية قد يبدو من المنظور الأوروبي قاسياً وعنيفاً بشكل غير لازم. ومع ذلك فإن مثل هذه الأنماط من التربية حسب إيركسون تحاول بصورة شبه فطرية تلقف خيبات ومخاوف الطفل من خلال جو الأمن والاهتمام. إن الفخر بكون الإنسان محبوباً ومعترفاً به يطغى على كثير من التربية القاسية وفي الواقع تبدو الثقافات المتجانسة أنها تمتلك نوع منهجي، «الضمان دفع معنوي أعلى ومظهر أسمى بالنسبة للضحايا والحرمان الذي على الطفل أن يتحمله في عملية صيرورته ليصبح طيباً وقوياً» (1982 «أ»، صفحة 146).

وفي أبحاثه الأنثروبولوجية الثقافية يريد إيركسون فحص نظرية فرويد في الليبدو بصورة أقرب بالنظر إلى أهميتها بالنسبة الاجتماعية ويواصل في هذا أفكاره عن التنظيم المتبادل في عملية التربية[٤٧].

فالإنسان ليس بالمخلوق يتكون من صفحة بيضاء tabula rasa ولا هو مبرمج مسبقاً بأنماط غريزية. إذ يتم تشكيل برنامج أساسي أكثر نضجاً من الناحية التخلقية التعاقبية من نزوعات الدافع والأنظمة السلوكية بطرق مختلفة كلية حسب الضرورات في تنظيم اجتماعي محدد. فالدوافع ليست قوى معادية للثقافة منذ البداية، وإنما توفر ما يشبه الطاقات الدافعية للعملية الاجتماعية نفسها. والأمر الهام هو فيما إذا كانت الصراعات والمخاوف التي لا يمكن تجنبها لتربية الدافع تتوازن من خلال خبرات الاهتمام والأمن الاجتماعيين. وبالنسبة لإيركسون ليست الخيبة بحد ذاتها وإنما الخيبات غير المستفاد منها اجتماعياً هي التي تقود للقلق والعصاب.

وأيضاً هنا يبدو أن إيركسون ينطلق من نوع من «التنظيم الأساسي» للحياة، التي يمكن ملاحظتها بأشد صورها أصالة في المجتمعات المقيدة بالتقاليد، حيث «الحكماء»، يصوغون في الأجيال أشكال مجربة لتربية الأطفال من دون صراعات كبيرة بما يشبه «شخصية مثالية»، تنسجم بشكل مثالي تقريباً في الإطار الكلي للثقافة.

فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار بكم من القسوة والتخويفات عملت طرق التربية لكثير من الحضارات، فإن تصورات إيركسون تبدو في بعض الأحيان متفائلة بحق. ففي تعددية وحمى المجتمعات الصناعية الحديثة، وبالنظر للوالدين القلقين وإلى إغراق الأطفال بإشباعات بديلة، فإنه قلما يمكننا اليوم ملاحظة شيء من هذه التأثيرات الحاسمة على النمو ما قبل الجنسي.

وبنظريته حول تشكيل الأنظمة إلى حالات فإن إيركسون استطاع جعل جزء من تطور الشخصية الطفولية معقولاً. ولكن ما الدور الذي تلعبه تأثيرات التنشئة الاجتماعية الأخرى والتماهيات المختلفة وعمليات التعلم في المؤسسات والمحيطات الاجتماعية المختلفة التي تشتبك بها حياة الطفل منذ وقت مبكر وتأثير وسائل الإعلام على الخيال والسلوك عند الأطفال؟

5.3 الليبدو والعدوان

كيف يرى إيركسون التفتح المتدرج للجنسية الطفلية إلى جنسية «تناسلية» للراشدين، ذلك الجزء من مذهب الدافع التحليلي النفسي، الذي سبب حتى اليوم أشد السخط؟ وما هي أهمية دافع العدوان بالنسبة لإيركسون، الذي يمكن أن يأخذ عند الإنسان مثل هذا التطرف من الحنق المدمر القاتل، إلى درجة أن فرويد قد تحدث في آخر عمل له حول ثنائية الدافع شبه الفلسفية عن «دافع الموت»؟

فمنذ بدايات التحليل النفسي اصطدم فرويد بمقدار غير متوقع من الهوامات الجنسية المنحرفة والعنيفة في لاشعور مرضاه. وبداية عالج فرويد علمياً بصورة أقرب الشذوذات، التصرفات، التي يحصل فيها استثارة جنسية وتفريغ كاملين من دون جماع جنسي coitus فعلي. واستخلص فرويد بأن الجنسية ووظيفة التكاثر بالأصل ليستا متطابقتان. فالنمو الجنسي يبدأ مع الولادة، ويتجلى في كل الأشكال الممكنة للبهجة الجسمية، وتنمو عبر أطوار قبل جنسية نمطية للطفولة ويرسو بداية في سن الشباب في الجنسية «التناسلية» للراشدين.

وبالأصل تتكون الجنسية الإنسانية – تحدث فرويد بشمولية عن «الليبدو» – من مصادر مختلفة جداً، وبدت الجنسية الشاذة بالنسبة لفرويد ليست غير «الجنسية الطفلية المتضخمة، المفككة إلى استثارات منفردة» (الأعمال الكاملة XI صفحة 231). والتصرفات الشاذة – من نحو ممارسة الجنس من خلال الاستثارة الفمية أو الشرج والوصول للنشوة من خلال الاستعراض أو استخدام تميمة كبديل عن الشريك أو إلحاق الألم المتبادل على سبيل المثال – هي وفق رؤية التحليل النفسي تثبيتات على المراحل الطفولية لدافع الجنس.

استثارت نظرية الليبدو لفرويد في تزمت [1] Prudery العصر الفيكتوري عاصفة

(1) تزمت أو احتشام كاذب، وخصوصاً عندما يكون متكلفاً، أو حياء كاذب.

من الاستياء وحكم عليها من غالبية النقاد العلميين على أنها مبالغ بها وشديدة الافتراضية. أما بالنسبة لإيركسون بالمقابل فإنه ليس من شك، أن الكثير من أحاسيس البهجة الجسدية للطفل بدءاً من الاحتضان والتدليل عبر اللعب بالأعضاء الجنسية وصولاً إلى الاستمتاع بالحركات الجسدية الذاتية، هي جزء غير قابل للشك من النمو الطفولي. ففي المرحلة «الفمية» و «الشرجية» و «القضيبية» بين السنة الأولى والخامسة من الحياة تقوم على الجنسية وبشكل خاص على فتحات الجسد الحساسة بشكل خاص للاستثارة اللمسية، «المشغولة» بطاقات ليدوية. وبالتالي يسيطر النظام السلبي والإيجابي المندمج passive and active incorporated Modus (I وII)، والنظام الاحتفاظي والطارد retentive and eliminative Modus (III وIV)، والنظام المقتحم penetrating أو الاحتوائي (V). لقد عملت الطبيعة على أن الوظائف المهمة للحياة قد ربطت هذه الأنظمة مع الشعور بالمتعة كي لا يهمل الإنسان تشغيلها ويعرض وجوده للخطر. ومن هنا فإن الليبدو بداية مرتبط مع دافع الحفاظ على الذات، إلا أنه يستقل بنفسه باطراد. فحتى الرضيع يبدأ خارج أوقات الرضاعة مص إبهامه وكل الأشياء الممكنة في مداه بمتعة كبيرة، ويستمتع «بالدافع الفمي الجزئي oral partial drive» للجنسية[1].

وفي حين أن أشكال البهجة الفمية والشرجية تكون ذاتية الاستثارة بصورة غالبة، أو أنها تحقق الإشباع من خلال الاستثارة الذاتية للجسد، فإن دافع الجنس ينزع في السنة الرابعة والخامسة من الحياة بشكل أشد باتجاه موضوع خارجي. فالصبيان والبنات يشعرون بأنهم منجذبين بخيال هيمان إلى الوالد من الجنس المعاكس، إلا أنهم بالطبع لا يستطيعون بعد ممارسة الوظيفة الجنسية التناسلية. وبداية من خلال التغيرات الفيزيولوجية في المراهقة تصبح ممارسة الجنس ومن ثم القدرة على الإنجاب ممكنة. وما قصده فرويد تحت هدف نمو «التناسلية»، أي التغلب على الارتباط الوالدي الأوديبي

(1) الدوافع الجزئية عبارة عن مركبات جزئية للتنظيم الجنسي المتطور. وكل جزء من هذه العناصر يكون على علاقة بمنطقة شهوية معينة وبشكل محدد من الإشباع (كالطور الفمي). والدوافع الجزئية تعمل في البداية مستقلة عن بعضها وتسعى بعد ذلك للتوحد في المراهقة إلى تنظيم جنسي تناسلي في سن البلوغ.

والقدرة على الاستمتاع بالجنسية في علاقة حب مع شريك آخر، هي أيضاً بالنسبة لإيركسون مظهراً جوهرياً لإيجاد الهوية الجنسية. ومن هنا فإن كل الأشكال الطفلية للبهجة يفترض لها وأن تتبع دافع موحد مع مجرى موحد. ويتحدث إيركسون عن نظام الاستمرار (VF and VM). وعندئذ تشكل النزوعات الجنسية أو توكيدات النظام Modus affirmation، النظر للشريك وعناقه، تقبيل أو مداعبة المناطق الحساسة، «آليات ما قبل المتعة»، كما يسميها فرويد، تسهم في الاستثارة الجنسية، ولكنها تظل تابعة للجماع الجنسي الفعلي، ولا يفترض لها أن تصل إلى نمو منحرف.

غير أنه مع تحقيق «التناسلية Genitality» فإن تطور الليبدو بالنسبة لإيركسون لم ينته. فكل إنسان يمتلك ما يشبه النزوع الدافعي، لأن يستمر عبر الجيل التالي؛ ومن هنا فإن الوالدية ليس مجرد جزء من البرنامج الأساسي الاجتماعي النفسي فحسب وإنما أيضاً الجنسي النفسي. فالفعل الجنسي هو فعل تكاثر أيضاً، «وكل موقف جنسي، لا يشجع مع الزمن على تنفيذ التناسل والرعاية للمولود، يتضمن عنصراً من عدم الإشباع البيولوجي-النفسي» (1981 «أ»، صفحة 253). وبالنظر إلى تزمت Prudery العصر الفيكتوري فقد أكد فرويد على حق الراشد بالحياة الجنسية الممتعة والمريحة. إلا إنه قلما تقبل طوفان عبادة الجنس الراهنة، التي تنكر كل واجب توالدي. ويؤكد إيركسون بشكل جازم بأن الجنسية يمكن أن تسبب المرض تحت ظروف التعطيل الدائم للوظيفة التناسلية، بالدرجة نفسها التي كان يتسبب بها تحريم المتعة في عصر فرويد. وبالطبع لابد ويفترض أيضاً أن تستمر الجنسية الموفقة بعد إطفاء القدرة على التكاثر. ويتحدث إيركسون عن مرحلة «الشهوانية المعممة»، في سن الرشد المتوسط والمتقدم. فالدافع لا يعود هنا يمتلك بالضرورة طبيعة نزوعية. ويمكن أن يظل عند تبادل الحنية، والتي ليس بالضرورة لها أن تنتهي بالجماع بشكل آلي، ولكن مع ذلك تظل جزءاً مهماً من التشاركية. وكثيراً ما تعيق الأحكام المسبقة المتجذرة بعمق الحياة الجنسية المثرية في سن الشيخوخة وليس تراجع القدرة الجنسية بحد ذاتها.

ومن حيث المبدأ يتبنى إيركسون نظرية فرويد في الليبدو ويكملها. فالجنسية

الإنسانية تتطور منذ الولادة عبر سلسلة من المراحل ما قبل التناسلية وتضع نفسها عندئذ كقوة تناسلية بالأصل في خدمة الحياة. والمظاهر الهدامة الكامنة للجنسية الطفولية، من نحو الدوافع الجزئية للسادية والمازوخية، تظل مستبعدة في تحليلات إيركسون. وبما يشبه آنا فرويد أو أبراهام يصف إيركسون مراحل الليبدو بوصفها مراحل ليست متعاقبة وراء بعضها بصورة صارمة مضافة-تخطيطياً not strict additive-schematic sequently. فمنذ الولادة يستخدم الطفل أنظمة كل مراحل الدافع، تختلط أنماط السلوك الفموية والشرجية والجنسية. وفي حين يكون نظام أساسي هو السائد في مرحلة من مراحل النمو، تتوفر أنماط السلوك العائدة لمناطق حساسة أخرى كأنظمة مساعدة بصورة داعمة. فعند شرب الحليب من صدر الأم يسود الاندماج incorporation كنظام أساسي. إلا أن تناول الطعام لا يمكن أن يعمل إلا إذا ثبت الطفل حلمة الثدي في الفم من خلال ضم شفتيه (النظام الفموي-الاحتفاظي) (oral- retentive Help modus I 3) . وعند التشردق أو الطعم السيئ أو الشبع يبصق الرضيع الحليب. (النظام الفموي-الطارد) (oral-eliminative Modus I 4)، في حين أنه في نوبات الجشع الفموي يعض حلمة ثدي الأم، وكأنه يحاول الولوج إلى مصدر الغذاء (النظام الفموي الاقتحامي) (oral-Penetrating Modus I 5) .

والتطور التخلقي المتعاقب للأنظمة هو عملية سهلة الخلل. فإذا ما تم خنق النزوعات الدافعية بشدة من خلال التربية القاسية المسببة للخوف، أو استثيرت بصورة مفرطة من خلال اتجاهات تدليلية فاضحة، فإن هرمية النضج الكلي تختلط ببعضها، سواء بأن يزيح في مرحلة باكرة نظام باكر مساعد النظام الأساسي الفعلي، أم أن يحتل نظام مساعد باكر في مرحلة لاحقة مركز الصدارة بشكل غير مناسب. وفي هذه الحال يتحدث إيركسون عن تثبيت المناطق أو الأنظمة Zones- or Modus-Fixation. ففي تثبيت المناطق تتصدر نوعية دافع منطقة حساسة erogene معينة بصورة مفرطة من السلوك والخبرة مركز الصدارة، في حين لا تعود أشكال إشباع لمناطق أخرى مدركة بشكل صحيح. مثال ذلك يمكن للطفل أن يظل مثبتاً بصورة غالبة على أشكال البهجة

الفموية ولاحقاً أن يحصل كراشد على الإشباع الأساسي من خلال الطعام أو الشراب أو التدخين. وفي تثبيت النظام بالمقابل يتم الاحتفاظ بالأنظمة الباكرة من أجل الوصول لاحقاً إلى إشباع مراحل الدافع اللاحقة: مثال ذلك القيام بالعملية الجنسية دائماً عن طريق اللعق fellation بدلاً من الجماع على سبيل المثال.

وفي التثبيت يكون دافع جزئي محدد قد حظي بإشباع كبير، بحيث أن الرغبات السرية ترجع مراراً إلى هذه الهوامات الطفولية، حتى عندما يكون النمو الليبدوي قد استمر بالتقدم. مثال ذلك يمكن للمرء أن يعيش حياة زوجية غير ملفتة للنظر، إلا أنه مع ذلك يعيش استثارة كبيرة في التصرفات الاستعراضية بين الحين والآخر. ويتحدث إيركسون عن الأسر أو الاعتقال بالمقابل عندما لا يستطيع الإنسان تجاوز مرحلة نمو ما، كالمرحلة الفمية على سبيل المثال، على الإطلاق ولا يتجرأ أصلاً على الاتصال الجنسي. ولا يوجد أي نمو طفلي خال من الاضطرابات. ولكن إذا ما غلبت هذه الاضطرابات وسادت، فإنه يمكن أن ينبثق عن ذلك انحرافات أو أعراض عصابية. ووالبولويروسبازم Polyrospasm، أي إعادة إقياء الطعام عند الرضيع بعد تناوله مباشرة هو مثال عن إعاقة النمو الفموي. وفي هذه الحال يقف النظام المساعد الفموي الطارد إلى جانب النظام الفموي المستدمج absorptive، الذي يفترض له في الواقع أن يكون هو السائد. كلاهما يعاشان في الوقت نفسه. مما يستتبع في بعض الأحيان فرط نمو مبكر للنظام الاحتفاظي، إنغلاق فمي، وهو ما يمكن أن يقود لاحقاً إلى شك معمم ضد كل القادمين الجدد، الغرباء. وتتجلى اضطرابات المرحلة الشرجية anal Phase في توكيد مفرط مستمر للاحتفاظ أو التخلص Retention or Elimination. ويعبر هذا عن نفسه بداية في مناطق الجسد نفسها (أعراض نفسية جسدية من الإسهال أو الإمساك على سبيل المثال)، وتظهر بعدئذ في التشنج أو الارتخاء للعضلات ككل وقد تصل في بعض الأحيان إلى المخاوف القهرية، أو من التسمم بالمواد الخبيثة في الجسد أو من التحطيم من قوى خارجية ملاحِقة. ويتجلى النظام المساعد الشرجي anal- incorporated Help Modus (III 1.2) على سبيل المثال لدى الأطفال الصغار الذين يضعون الأشياء في الإحليل أو

الشرج، وهو ما يمكن أن يتحول لاحقاً إلى شذوذ، في الحصول على مشاعر المتعة الجنسية من خلال إدخال الأشياء. والاستدماج الشرجي (III 1.2 anal absorption ترمز للوضعية السلبية للجنسية المثلية، والسلوك الاقتحامي الشرجي (III 5) للوضعية الفاعلية للجنسية المثلية. وغالباً ما يخدم النظام الشرجي المقتحم كمنفس للعدوانيات: فمن خلال «التذمر» بكلمات سباب شرجية يريد المرء تخجيل الآخرين وجعلهم مستسلمين. فإذا ما سادت في المرحلة القضيبية أنظمة المساعدة فإن ممارسة الجنس بشكل خاص سوف تتضرر لاحقاً من جراء ذلك.

فالنظام التناسلي-المندمج (V 1.2 genital- incorporated-Modus شديد البروز يمكن أن يكبح الاستعداد للولوج التناسلي والتلقي. ويتجلى الاتجاه الاحتباسي الواضح بشكل خاص) (V 3) في الكبح التناسلي وانتهاء بصعوبات القذف والعجز الجنسي، سيطرة قوية جداً للنظام المساعد التناسلي-الطارد genital-eliminative Help Modus (V 4) في القذف المبكر Ejaculatio praecox. فإذا ما غلبت في النمو الأنثوي على سبيل المثال سيادة النظام المساعد التناسلي الاحتباسي (V3)، فإنه ينجم عن ذلك تشنج لعضلات المهبل بحيث يصبح إيلاج القضيب الذكوري صعباً أو يعاق كلية. ونجد الطرد التناسلي genital Eliminativity المبالغ به (V 4) لدى النساء اللواتي لديهن تشنجات نشوية متكررة[1]، حيث لا تحصل خبرة مناسبة فريدة.

ومثل هذه الاضطرابات في النمو الجنسي لا يمكن استبعادها أبداً، ويعتقد إيركسون «أن كل الانحرافات، حتى وإن ظلت تابعة للنظام السائد، فهي طبيعية ومتكررة» (1982 «أ»، صفحة 88). إذ أن وجود تناسلية سليمة كلية هي مجرد يوتوبيا. فكل إنسان يحمل تثبيتات من المراحل ما قبل التناسلية في طياته، تتجلى في الأحلام أو التخيلات السرية، وأحياناً تعاش علناً في الاتصال الجنسي. ولا يمكننا الحديث عن شذوذ إلا عندما يظل الفرد فيه مثبتاً على أشكال المتعة الطفولية والتوكيدات المطابقة للنظام.

(1) Orgasmic Spasm: (تشنج عضلي لاإرادي غير سوي)

وفي ملاحظاته للعب أو دراساته التاريخية أو تحليلاته الاجتماعية يقدم إيركسون ملاحظات حول الأشكال البناءة والهدامة للعدوان الإنساني، إلا أنه لم يخصص لهذا الموضوع مقالاً خاصاً. فهل يمكن تفسير الأعمال الوحشية في التاريخ بنظريات العدوان لباحثي المخابر؟ هل يوجد في الطبيعة الإنسانية «دافع الموت»، ميل للكره والتعذيب والتدمير، كما افترض فرويد في آخر ميثولوجيا للدافع؟ تشبه أفكار إيركسون في العدوان تصورات المحللين الجديد. الأنظمة بالنسبة له هي بالأصل «أساليب عمل الأعضاء، بسيطة naïve، أي أشكال سلوك ما قبل عدائية لإمساك الأشياء، أنظمة الاقتراب هي أساليب البحث عن العلاقات» (1982، صفحة 63). وفيها يتجلى النزوع الدافعي للعضوية لمواجهة المحيط، الذي من دونه لا يمكن لأي مخلوق أن يبقى. وتحقق «(العدوانية) البريئة إلى حد ما كل ما هو مفعم بالحياة full of life» (1978 وصفحة 45)، وتتجلى لدى الطفل في متعة تجريب قواه الجسدية وفي متعة المنافسة والمغامرات. وبالتأكيد يمكن لهذه النزعة التفريغية الحركية أن تنفجر بلا هوادة-ساذجة، إلا أن تدمير الأشياء أو إلحاق الأذى بالمنافسين لا يكون مقصوداً بالأصل.

وبداية عندما يتم تقييد النزوع الطفولي للتفتح من خلال ضيق «مجال اللعب»، من خلال الممنوعات الشديدة والعقوبات القاسية جداً، يتراكم الغضب والنزعة الكامنة للانتقام. عندئذ يبدأ الطفل في استخدام نظام جسمه لمقاصد عدائية، من نحو التمسك بغضب، والقرص والعض والقذف بالأشياء أو إخراج فضلاته في المكان غير المناسب، وهي المراحل الطفولية الأولية لأنماط السلوك الهدامة للراشدين. وبصورة مشابهة لهاينز كوهوت Heinz Kohut لا يتحدث إيركسون كثيراً عن الهدمية، وإنما عن الغضب، «الذي ينشأ دائماً عندما تتم إعاقة أو كبح النشاطات لدى الفرد، التي هي ضرورية بالنسبة لشعوره بالتحكم والسيطرة. ولكن ما الذي ينتج عن هذا الغضب إذا ما كان لابد من قمعه، وأين يكمن دوره في المساهمة وأين تكمن مساهمته في العداوة غير المنطقية ونزعة التدمير عند الإنسانية، فإن ذلك على ما يبدو واحداً من أشد الأسئلة المصيرية التي تواجه علم النفس» (1982 «أ» صفحة 62).

يتهيب إيركسون رفض فكرة دافع الموت بوضوح، مع أن هذا قد يناقض كل فرضياته حول طبيعة الإنسان. فبشكل أساسي يوجد بالنسبة له على ما يبدو نزوع غير عدائي للنشاط والمواجهة، وهو ما ينتمي ببساطة إلى وجود عضوية ما في الزمان والمكان؛ وبداية بشكل ثانوي، بنتيجة التقييد والخيبة المفرطي الضخامة، ينشأ الغضب، الذي يمكن أن ينتهي عند الإنسان بشكل فظ بأشكال غير ملائمة من العدوانية العدائية hostility aggression. ولا يقلل إيركسون بأي شكل من الأشكال ظواهر العنف. فالغضب النرجسي المتراكم، وبشكل خاص إذا ما ارتبط بنزوعات عقابية من أنا أعلى بدائي-انتقامي، كان وما زال هو الطاقة الدافعة للمآسي التاريخية الكبيرة. واليوم، حيث تتوفر للأنواع الزائفة المتعادية ترسانة ضخمة من الأسلحة والذخائر، فإن العدوانية أصبحت قضية مصير بالنسبة للإنسانية. وحتى إذا لم يكن بالإمكان إزالة مصادر الكره والفقر والظلم والاستغلال والدعايات ذات الغايات الشريرة، كلية، إلا أن تقليلها ينبغي أن يتحول إلى مطلب مشترك للسياسة العالمية.

5.4 الهوية الجنسية الأنثوية والذكورية

يعتقد إيركسون أن النظام الطفولي يظهر أيضاً في أنماط السلوك والخبرة الخاصة بالنوع (ذكورة وأنوثة[1]). ويقال بأن البرنامج الجنسي النفسي الأساسي معمول بحيث يبدي الصبيان سلوك أقرب «للمقتحم-القضيبي»، والبنات سلوك أقرب «للمحتوي-الأمومي»، وهو إسهام في النقاشات المتعارضة جداً في الهوية الجنسية للتحليل النفسي مازال حتى اليوم مختلفاً عليه[٧]. فقد اعتبر فرويد متأثراً بالأحكام البطريركية المسبقة لعصره، الفروق الجنسية التشريحية بأنها المؤثر المطلق بالنسبة لخبرة الرجولة والأنوثة. فالاكتشاف الصادم المزعوم للبنت الصغيرة بأنها لا تمتلك عضواً ذكرياً، تترك في النفس الأنثوية مشاعر نقص طوال الحياة (حسد القضيب). ومظلومة عقلياً وأخلاقياً مقابل

(1) المترجم.

الرجل، تميل المرأة إلى الخضوع المازوخي وترى في النهاية في طفلها تعويضاً عن القضيب الناقص. وحتى كثير من الممثلات الإناث للتحليل النفسي الباكر قد قلصن دور المرأة إلى مدى بعيد إلى الأمومة، حيث أنه ليس من النادر أن تم تحميلها «كشريرة» أو «صادة» أو «أم مولدة للفصام»، مسؤولية نشوء الاضطرابات النفسية المختلفة عند الطفل. وبالمقابل سرعان ما اعتبرت أشكال المبادرات الأنثوية في المهنة أو السياسة على أنها «ولوج قضيبي»، كرغبة لاشعورية للتشبه بالرجال أو للانتقام منه «خاصية». وقد أشعلت مثل هذه الطروحات مناقشات التحرر وقادت لدى كثير من المدافعات عن حقوق المرأة إلى رفض التحليل النفسي بأسره in toto.

غير أن إيركسون لا يريد أن يتخذ موقفاً خاصاً في هذا الموضوع. فقد جعلته رحلاته البحثية أن يأخذ بعين الاعتبار الأشكال المختلفة للأنوثة والرجولة في المحيطات الثقافية المختلفة. وقد أظهر كل علاج تحليلي إلى أي مدى كبير يتبلور من الخبرات والمخاوف الطفولية نمط شخصي للدور الجنسي. وفيما إذا سيكون صبياً ما أقرب للتماهي الأنثوي نتيجة الخوف من أمه الجبارة أو من أبيه المستبد؛ وفيما إذا ستكون بنتاً ما ستتبنى دوراً ذكورياً مسيطراً نتيجة التماهي مع الأم الباردة؛ فكل شخص ينمي من قوانين التنشئة الاجتماعية لإطاره الثقافي نمطاً شخصياً خاصاً جداً للأنوثة والرجولة.

ومع ذلك لا يمكن حسب إيركسون إنكار كل الفروق الجنسية البيولوجية. فالتطور جعل من المرأة ذلك النصف من الإنسانية التي تتلقى الطفل، وتحمله في جوفها تسعة أشهر، وتلده وتحافظ على حياته من خلال رعايتها. وحتى في الأشكال المحدبة للتشريح الأنثوي يظهر نزوعها الكبير للاحتواء والحماية، كما يرى إيركسون. ومن هنا فإن رعاية نسلها، وبشكل عام حمل هم اليائسين والضعفاء متجذرة في الخبرة الأنثوية بشكل أكبر. أما الرجل بالمقابل، والمجهز بقوة جسدية أكبر، فلديه استعداد لرعاية الأم والأطفال من خلال النشاطات في «الفضاء الخارجي» والدفاع عنهم ضد الأخطار في حال الجد. وهذا الاستعداد المولود المزعوم يسهم في تحديد نمو الهوية

الجنسية. ومنذ لحظة محددة من النمو تبدأ الأنظمة التوالدية الأنثوية (VF) والأنظمة التوالدية الذكورية (VM) بالتمايز عن بعضها البعض ومنذ ذلك الحين تصبح باضطراد متزايد حاملة لخبرة الذكورة والأنوثة. فحتى المرحلة الثالثة من النمو «المبادرة مقابل مشاعر الذنب» تحمل في طياتها بالنسبة لإيركسون حدس غامضة للتوالديه. وسواء التلقي الأنثوي أم الولوج الذكوري يبدأ هنا، «بالتوجه نحو إمكانية داخلية مخمنة بصورة مظلمة: نحو التقاء البويضة والنطاف في عمل تكاثري» (1982 «أ»، صفحة 86).

وبالطبع فإن كلا الجنسين في المرحلة الثالثة من النمو تتملكهم مبادرات فضولية-ولوجية. ومع ذلك فإن الصبيان يظهرون في المنازعة والمنافسة والمصارعة سلوكاً أقرب للمسيطر-النشط وأقرب للميل في تجارب اللعب التي أجراها إيركسون إلى بناء بناءات structures «قضيبية» متطاولة، وأبنية وأبراج عاليه. أما البنات فيعتقد إيركسون فإن المبادرة تتموضع بصورة أقوى في العلاقات المؤمنة للحماية تجاه الأتراب؛ فهن أقرب لأن يملن في اللعب إلى بناء غرف داخلية حامية، بما يشبه الوظيفة المحتوية للمهبل. وبالطبع يمكن في هذه المرحلة من النمو ملاحظة نوع من الحسد لدى البنت الصغيرة على القضيب البارز نحو الخارج عند الصبي، إلا أن ما يحسب بالتحديد في الخبرة الطفولية هو الملموس-الكمي. إلا أن إيركسون لا يريد البقاء واقفاً عند الرؤية التحليلية النفسية التقليدية، التي تقول أن المرء ينقصها تشريحياً شيء ما، وإنما مراعاة بشكل ملائم ما هو موجود في الجسد الأنثوي، ألا وهو الرحم المؤمن للحماية. وربما يزاح التركيز لدى البنت عن خبرة النقص باتجاه الوعي المنبثق، بأنها مجهزة بفضاء داخلي منتج وتمتلك إمكانية الولادة، نظام ومسؤولية، تحتل لاحقاً مركز الخبرة الأنثوية ومن الممكن أيضاً أن يثير حسد لاشعوري للذكر.

وبالطبع يتعلق الأمر باستعدادات قبلية فقط. فقد وصف فرويد الإنسان بأنه مخلوق ثنائي الجنس (خنثى bisexual)، ومن البديهي أنه يمكن لكل جنس أن يعيش النظام المعاكس المعني. فالنساء يسعدن بالإنجاز والمنافسة والمبادرة المهنية وبالطبع فإن

للرجال الرغبة أيضاً بالعاطفية والسكينة والاهتمام. وبالتحديد من التلاؤم المفرط مع القوالب النمطية التقليدية الجنسية فإن الأنظمة المعاكسة غالباً ما لا تعاش بشكل صحيح، وإنما يتم إنكارها بصورة مفرطة التعويض - لدى الرجل من خلال ظهور مفرط النشاط، منكر للعواطف، ولدى المرأة من خلال وضعيات تعلق طفولية، وأحادية الجانب unilatcral، التي يمكن أن تسبب المرض أو العصاب.

ويذهب إيركسون من أن الفضاء الداخلي مهم بالنسبة لهوية المرأة بمقدار أهمية القضيب بالنسبة للرجل. ومن المؤكد يمكن في التحليل النفسي للمريضات الإناث اكتشاف وجود حسد القضيب أو كره الدور الأنثوي الخاص أو هوامات الانتقام بين الحين والآخر تجاه الرجل. إلا أنه في هذه الحالات يتعلق الأمر في العادة بضحايا صدمات جنسية شديدة وحسب إيركسون فإنه من الخطر محاولة عمل نظرية أنثوية معيارية من مثل هذه النتائج. ومن المؤكد قد تبدو امرأة ظاهرياً «أكثر سلبية» من الرجل، لأن الطبيعة قد أعدتها لأن تكون «فاعلة» في صورة رعاية هادئة مانحة للأمان. وفي الواقع لابد للمرأة، حتى على أساس من دورتها pcriodic وعملية الولادة، أن تكون مستعدة لتحمل ألماً أكثر. إلا أنه يمكن للمرء عندئذ أن يسميها مازوخية على أقصى تقدير، إذا ما استغلت ألمها خارج الوظائف الأنثوية بصورة شاذة أو بشكل انتقامي. ومن المؤكد فإن النساء حساسات أكثر لمخاوف أكبر من الفقدان. إلا أنها لا تنبثق بالأصل عن حاجات تعلق غير ناضجة. وبالذات لأن النساء أقوى بشكل آلي إلى مدى كبير في عملية التكاثر، فإنهن يعشن خبرة الوحدة والفراغ بشكل جوهري أكثر من الرجال.

وحسب إيركسون فإن المجتمعات المختلفة تقوم على هذه الاستعدادات الجسدية، وتحدد نوعياً الأدوار الأبوية والأمومية. ولا يظهر عدم الرضا ومشاعر المنافسة والحدس بين الجنسين إلا عندما لا تعترف الثقافات بكلا هذين الشكلين من الوجود على أنها وظائف متساوية الأهمية في برنامج الحياة المشترك. وبالطبع فإن العلاقة بين الرجل والمرأة - بدءاً من علاقة الشريك الحميمية وصولاً إلى مستوى اتخاذ القرار السياسي- هي تنظيم متبادل معقد وعالي الدقة. ومن السهل أن تقود المخاوف

اللاشعورية والصراعات العصابية ولكن بشكل خاص ميول الكبت لأشكال السلطة البطريركية إلى أن الفروق الجنسية لا تكمل بعضها بصورة مفيدة. ويستنتج إيركسون حول هذا الأمر: «توجد صلة لا يمكن إنكارها بين الأنظمة Modi الاحتواء والامتصاص absorption. فلدى البنات يمكن لهذه الصلة أن تعزز الميل للهروب إلى التعلقية بنتيجة نقص القدرة القضيبية الكامنة للولوج (والتأخر في نمو الثدي) ضمن ظروف ثقافية معطاة. وهذا من ناحيته يمكن أن يقود إلى تواطؤ collusion مع ميول الاستغلال لثقافات محددة، وبشكل خاص بالارتباط مع العلاقات الناجمة عن المسؤولية الحصرية للمرأة عن التكاثر. ويمكن لهذا الميل، على الأقل في بعض الثقافات وبالارتباط مع تقسيم متطرف لوظيفة كسب الرزق بين كلا الجنسين، في مجرى تطور الإنسان، أن يكون مساهماً في المسؤولية عن نوع من قابلية المرأة للاستغلال كمخلوق، يتوقع أن يظل متعلقاً، لأن هذا متوقع منها، وحتى لو كانت -أو بالتحديد لأنها- تهتم في الأسرة بنجاح برعاية الأطفال (والراشدين). أما لدى الرجل من ناحية أخرى فيمكن لكل حاجة للتعلقية النكوصية أو بدقة أكبر للتماهي المتقارب مع الأم ضمن الشروط الثقافية نفسها أن يقود بسهولة إلى فرط تعويض قتالي militant باتجاه الطموحات الوالجة، كالصيد أو القيام بحرب أو روح المنافسة على سبيل المثال - أو باتجاه الاستغلال. ومن هنا فإن مصير الأنظمة المضادة تستحق الدراسة بعناية خاصة لدى كلا الجنسين في دراسات مقارنة لأن عصرنا الراهن يميل إلى إقحام كل الاستنتاجات النظرية على هذا المجال في النزاع الإيديولوجي مباشرة» (1988، صفحة 46-48).

ويتحدث إيركسون مبدئياً بنغمة مدهشة- تستحق التقدير عن الأنوثة؛ وليس من النادر أن يسمو بالمرأة في كتاباته بشكل رومانسي باعتبارها المنبع الأساسي للحب الأمومي والسحر الشهواني، أو كرفيقة مخلصة أو كروح ذكية. ويؤكد إيركسون بشدة على الدور المتساوي للمرأة في نظام عالمي ينبغي أن تعاد صياغته. لقد قادت الاتجاهات الذكورية النمطية لحل الصراعات العنيفة والتوسعات الإمبريالية والاستغلال الذي لا حدود له للموارد الاقتصادية شعوب الأرض إلى حافة الكارثة. ولابد للإنسانية اليوم

أن تمر بتحول عنيف في الوعي نحو القيم «الأنثوية» للرعاية والمسؤولية، ومواجهة الصعوبات بالحكمة والنوايا الأنثوية بدلاً من حلها بالعنف.

ويرى إيركسون أنه من دون المساعدة القوية وأيضاً قيادة المرأة لا يمكن على الإطلاق حل المشكلات المستقبلية على الإطلاق.

وأطروحة إيركسون القائلة: أن السلوك الذكوري والأنثوي يتحدد من خلال سيادة النظام الاقتحامي أو الحاوي، هي إحدى متغيرات النظريات البيولوجية حول الأدوار الجنسية. فالنتائج الإمبيريقية التي يعرضها إيركسون من دراسات السلوك وملاحظاته الخاصة للعب، هي ركيكة بحق ويضاف إلى ذلك يوجد حولها خلاف طرائقي[vi]. وبالتأكيد كانت الإشارة إلى مدى قوة رسوخ خبرة الأمومة في الهوية الأنثوية، مهمة بالنظر لنقاشات التحرر. إلا أن هل يكون المرء قد قدم خدمة لقضية المرأة إذا ما جعل المرء من سنوات تربية الطفولة الجوهر المطلق للهوية الأنثوية؟ ألا تقع المسؤولية التوالدية على عاتق الجنسين كليهما؟ أليس من المفيد وضع نموذج حول سن الرشد المتوسط يتقاسم فيه الرجل والمرأة الوالدية والمهنة مع بعضهما البعض؟ ألا يوجد بعض الحق في اصطدام شروحات إيركسون وبالذات في منظمات المجتمع الأمريكي بانتقادات حادة[vii]؟

وفي الحقيقة تبدو بعض طروحاته بما يشبه كاريكاتير القوالب النمطية الجنسية التقليدية. فالرجل يستطيع تحقيق ذاته في نشاطات خارجية، وقلصت المرأة إلى دورها «الطبيعي» المزعوم في الأمومة، إلا أنها تظل متعلقة بدرجة كبيرة بالرجل. أما مدى ما ارتبط بهذا الدور من إذلال واستغلال، وإلى أي مدى مازالت المرأة حتى اليوم مظلومة تعليمياً ومادياً وسياسياً، فهذا ما لا يشير إليه إيركسون كفاية. وإلا أن اقتراحاته حول احترام الأنوثة في كل مجالات العلاقات الإنسانية تستحق التقدير بالتأكيد. إلا أن إيركسون لا يتابع بشكل كاف مسألة كيف قد تبدو المساهمة الفعلية للمرأة في الحياة العامة والسياسة، مع أنها ضمن الظروف الاجتماعية الراهنة غالباً ما تعاني كفاية من إرهاقات مضاعفة مع الأولاد والمهنة.

5.5 التربية في قبيلتين هنديتين أمريكيتين شماليتين

في دراساته الأنثروبولوجية الثقافية على قبيلتين هنديتين من أمريكا الشمالية بين إيركسون بشكل أوضح حادث تشكل الأنظمة Modi الطفولية الدافعية في حالات Modality أسلوب حياة ثقافي محدد(viii). قادته رحلته الأولى في عام 1938 إلى معسكر هنود تلال الصنوبر في جنوب داكوتا Pine Ridge Indian Reservation in South Dakota. هنا عاش 8000 عضو من قبيلة أوغالا Ogala، جماعة فرعية من بقايا هنود السيوكس Sioux الشمم. وكان السبب الحقيقي لرحلته الاستكشافية اهتمام تربوي، المقاومة السلبية، التي جعلت أطفال الهنود غير متأثرين بكل برامج التربية الحكومية المكلفة جداً والمنتقاة بعناية فائقة. عاش إيركسون عدة أشهر مع أصدقاء من الأنثروبولوجيين لعدة أشهر في الميدان. وتمكن من إقامة اتصالات بالهنود الشجعان، ومعرفة أمور مهمة حول عاداتهم السابقة وأنماط تربيتهم.

فيما مضى كان السيوكس تجسيداً لما تصوره الأوربيون عن الهندي «الحقيقي» حاذق ولايلين ومتوحش وعنيف.

كان البرنامج الحياتي للسيوكس ملاحقة تحركات قطعان الجاموس في جماعات متحركة ويلتقون بين الحين والآخر في معسكرات متفق عليها. كانت حياة القبيلة – علاقات الاحترام بين بعضهم والطقوس والرقصات والأعياد- منظمة بصرامة. وقد احتل صيد الجواميس مركز الطموحات الاقتصادية والتقنية، إذ أن بقاء الشعب بأكمله تعلق بالجواميس كمصدر للغذاء وخامات الثياب وبناء الخيم والحلي والطب. وقد انهارت هذه الهوية الجماعية التي نمت عبر القرون بصورة مفاجئة وخيمة العواقب من الناحية التاريخية من خلال حملات غزو البيض في القرن التاسع عشر. ففي سكرة دموية لا معنى لها ذبح المهاجرون والمغامرون قطعان الجواميس. وتمت هزيمة شعب السيوكس المدافع بيأس بعد مذابح بشعة مع الجيش الأمريكي بصورة نهائية. لقد وجدت القبيلة المتنقلة، التي كان «وطنها» فضاء المروج غير المحدودة، نفسها مجبرة على

الاستقرار في معسكر محدود. ولم تعد قطعان الجواميس، مركز البرنامج والفعل المشترك، موجودة. وكان على شعب بدوي يتصف بفضائل العطاء وأقصى درجة من الاحترام المتبادل أن يتلاءم مع نظام السوق الحرة للأوروبي الأبيض.

ومنذ البداية لم تكن السياسة الأمريكية تجاه الهنود واضحة وسارت نصف، نصف. فقد تعاقب الإداريون بشكل عشوائي، وأراد كل منهم بشكل مختلف التجريب مع الهنود، وتنشئتهم إلى رعاة للبقر أو فلاحين أو مربي حيوانات. وكانت معاملة الأطفال مأساوية بصورة خاصة، الذين تم سوقهم إلى مساكن داخلية أمريكية بصورة قسرية في الغالب، حيث قُص لهم شعرهم وحشروا في ثياب أوروبية. فإذا ما عادوا ثانية بعد انتهاء الدراسة إلى شعبهم، فإنهم كانوا يعدون «قذرين» وغير متكيفين. قامت الحكومة الأمريكية لاحقاً بسحب الموظفين وبنت مع الأطباء وعمال الخدمة الاجتماعية والمربين منظمة راقية للرعاية. إلا أن كل التجارب المكلفة لإعادة التربية الحكومية قد تم إهمالها من الهنود بصمت. ففي هذه الأثناء رأت الغالبية العظمى منهم في الإمدادات البيروقراطية على أنها حقهم المدون وعاشوا من دون أية مبادرة على صدقات المجتمع الأمريكي. إلا أن أفراد القبيلة الكبار جداً ظلوا يحتفظون بشيء من تلك الوضعية الوقورة-التي لا تلين لهنود الهضاب الأمريكية. وفي مناسبات نادرة فقط، عندما كانوا يلتقون في المروج في احتفال مشترك، أمكن لدى السيوكس استعادة الحيوية والنشاط مرة أخرى، ذلك الشعور بالانتماء، تلك الشقاوة، ذلك الفخر.

إلا أنهم فيما عدا عن ذلك كانت هوية هنود السيوكس منهارة. وكل سنوات الوعود الحكومية التي لم يتم الالتزام بها مراراً تركت خلفها فقدان الثقة واليأس. وخلف الابتسامة الودودة-السوداوية وتتابع الحركات البطيئة، بما يشبه بطء النملة للهنود كان يكمن قلق المستقبل والاكتئاب. ولاحظ إيركسون لدى الغالبية منهم القليل من علامات الصراعات الفردية أو التوتر الداخلي أو ذلك ما يطلق عليه

الأوربيون تسمية العصاب: «ما وجدناه كان مرض الحضارة نفسها، أحياناً في شكل الاعتداء تحت تأثير الكحول أو السرقات البسيطة، ولكن الجزء الأكبر في شكل لامبالاة[1] Apathy عامة ومقاومة سلبية غير مفهومة ضد أي ولوج آخر ونهائي للمعايير البيضاء في الوعي الهندي» (1982 «أ»، صفحة 127). فقط لدى «هنود الرجل الأبيض» كان هناك نوع من القهر والتوترات العصابية. فقد تم في مدارس البيض بناء أشكال الحياة فيهم، لم تكن هي أشكالهم الخاصة، الغريبة عنهم أنفسهم وعن والديهم، وبشكل خاص من أطفالهم هم.

فقد كان العطاء أعلى مبدأ من مبادئ نظام حياة السيوكس منذ سنوات. فالبدو الرحل لا يستطيعون أخذ الكثير من الأدوات المنزلية معهم. وكان من الصعب جداً تخزين مخزون أكبر بسبب حركات التكيف الدائمة مع قطعان الجواميس، أو تبدل الفصول أو تحركات العدو. وكانت القبيلة كلها تعتمد على أقوى وأمهر المحاربين. وفقط عندما كان هؤلاء مستعدين للتقاسم بكرم، كان بقاء الجماعة ممكناً. ومن هنا مثل العطاء والإهداء والتقسيم القيم الحاسمة في خلق القبيلة المشترك، في حين كان كنز النقود والمؤن غريباً عن السيوكس. كانت قيمة الملكية الخاصة تكمن في حق الفرد بأن يعطي ما يملكه. وحتى عندما كان يعجب زائراً ما بشيء ما كان مالكه يتخلى له عنه. وكان أحط الرجال هو من يحتفظ بأملاكه لنفسه؛ فيكون قد خرج عن الهوية المشتركة للجماعة. وبهذا ساد فيما مضى داخل القبيلة درجة عالية من الاحترام المتبادل، والاستعداد للمساعدة والتضامن. وقد تم توجيه التوترات ومشاعر الغضب نحو الخارج، قننت على سبيل المثال باتجاه صيد الجواميس أو الحرب ضد القبائل الأخرى. وهذه الفضائل التي حافظت فيما مضى على البقاء في السهول الواسعة، مازالت تعيش حتى الآن في طرق التربية التقليدية وكانت عائقاً غير مفهوم في محاولات إعادة التربية. إذ لم يكن السعي للربح والمنافسة بين بعضهم، وهي الفضائل الأساسية للمستمرين الأمريكان،

---

(1) لامبالاة مرضية أو فتور الشعور.

غريباً عن السيوكس فحسب بل اعتبرت شاذة وغير أخلاقية. وبين هذه العوالم المختلفة كلية عن بعضها لم يتوفر لخلف القبيلة المهزومة أي نموذج لهوية ثقافية جديدة.

وفي حوارات طويلة استطاع إيركسون أن يعرف الكثير عن طرق التربية المحددة بالتقاليد، التي تم توريثها لقرون من جيل إلى آخر في هوية-الجماعة المشتركة.

فالولادة كانت فيما مضى تتم بسرعة كبيرة من دون آلام طلق كبيرة أو فترة نفاس طويلة. فإذا ما بدأ الطلق، صنعت الحامل لنفسها سريراً من الرمل وبعد ساعات قليلة لاحقة كانت تلحق بشعبها الرحل. غير أنه بعدئذ كان يتم الترحيب بود بالرضيع من جميع أفراد القبيلة. فتقوم النساء الكبيرات في السن بتحضير شراب من أفضل الأعشاب وحبوب السهول ويقدمنها للوليد في مثانة جاموس كتحية ترحيب. ويعتقد إيركسون أن برنامج التربية قد كان يهدف بشكل حدسي إلى توصيل درجة عالية من الثقة في العالم وبالطبع في الجماعة الخاصة للوليد الجديد. وكان حق الرضيع في أن يرضع دائماً وباستمرار بلا حدود من أمه،المبدأ الأعلى في التربية، حتى أنه كان يأتي قبل الامتيازات الجنسية للأب. ولم يكن هناك ما يشبه الفطام المنهجي. بل أن إيركسون لاحظ أطفالاً في عمر الأربعة وحتى الخمس سنوات مازالوا يرضعون في بعض الأحيان من الثدي.

إلا أن جنة الامتياز غير المحدود عملياً لصدر الأم كانت لها فاكهة محرمة. فمن أجل أن السماح للرضيع بالرضاعة فعليه أن يتعلم ألا يعض. وقد كان هناك تقليداً أنه إذا ما قام الطفل بالعض بأن يضرب بشدة على رأسه بألم مشحون بغضب عارم. علاوة على ذلك كان يتم تربيط الأطفال في قماط حتى الرقبة، بحيث أنهم لم يتمكنوا من التنفيس عن الحنق والخيبة من خلال النشاطات الحركية. وكلاهما، سواء الثقة الأصلية عالية الدرجة بعطاء الجماعة وبرميل بارود الغضب المقموع شكّلا سمات طبع واضحة للسيوكس، ويعتقد إيركسون أن لابد وأن يكون قد نشأ في الماضي ارتباط بين فموية أطفال السيوكس والمثل الأخلاقية للقبيلة وطرق التربية المحددة بالتقاليد. ففي الطفولة المبكرة يحظى الرضيع بالإشباع الفموي المفرط، من دون أن يكون عليه أن يسعى كثيراً

في سبيل ذلك، وحظي بالقبول من القبيلة كلها بلا تحفظ، من دون أن يمتلك أي شك حول مركزه الاجتماعي. مما أوقظ لدى الرضيع درجة عالية من الثقة الأصلية، بأنه يمكنه الثقة بكون معطاء وقاد إلى أن السيوكس الناشئ قد تصرف لاحقاً تجاه أفراد قبيلته بكرم كبير أيضاً. وحسب افتراضات إيركسون الجريئة بحق فإنه قد تم من خلال القمع المتطرف لرغبات العض القضاء على أكثر ما كان يهدد الحياة الجماعية المشتركة، أي الغضب الهدام والجشع الحاسد والمطالب الأنانية والأخذ الذي لا يراعي الآخرين، في مهدها. وكان الغضب الكامن المستثار في ذلك منبعاً للعنف والوحشية لمحاربي السيوكس، الذي تم إسقاطه بعيداً جداً عن القبيلة نحو الخارج. وقد كانت هذه السمة الثانية من الطبع، الشجاعة الكبريائية والعدوانية التي لا تلين ضرورية في صيد الجواميس أو في المعارك مع الأعداء أو عند سرقة الغنائم مهمة جداً فيما مضى لبقاء القبيلة بنفس مقدار العطاء. أما النساء بالمقابل فقد كن يحتجن أسنانهن فيما مضى لمضغ الجلد وتسوية الإبر من أجل أعمال الخياطة. وبهذا فقد تم تصعيد نزوعات العض في مرحلة التسنين بطريقة عملية جداً وتقنينها من خلال تشغيل اقتصادي.

فأشكال إشباع وعلاقات المرحلة الفموية لدى الطفل الهندي تمتد إلى ذلك العمر الذي يكتشف قيه استقلاليته ويتعلم الكلام والمشي. ولم يكن هناك تربية ثابتة على النظافة لدى السيوكس. فالأطفال الأكبر يصطحبون الأطفال الأصغر إلى أماكن الخروج، حيث يتعلمون مع الوقت من خلال التقليد التكيف مع تصورات الوقاية العامة. ولم تتم ممارسة الضغط. والتركيز، حسب انطباع إيركسون، كان يتمركز أكثر حول التخلي والعطاء الحر، وكبح النفس نتيجة عزة النفس، أو التخلص من غير ضابط Elimination نتيجة الخوف، وما هو موجود في الأعراض السيكوسوماتية للمرضى البيض، لم يكن معروفاً في نمو طفل السيوكس تقريباً.

وبداية في طور النمو القضيبي كان توجد أولى القوانين الصارمة. وهي لم تمس الجسم ووظائفه وإنما أشكال التعامل الاجتماعي بين الجنسين. فمنذ ذلك الحين لا يجوز للصبيان والبنات الالتقاء المباشر مع بعضهم؛ حتى الأخوة والأخوات كان ممنوعاً

عليهم النظر أو الكلام إلى بعضهم مباشرة. فمنذ الآن يتم تدريب العدوانية الحركية للنظام القضيبي-الاقتحامي لدى الصبيان في تمارين الصيد والقتال. وكان الهدف هو إيقاظ الانضباط الذاتي والشجاعة والمهارة، وهي الشروط المهمة لهوية الصياد والمحارب. كان اليافعون الصغار يتعلمون، الظهور بمظهر رجولي- مسيطر، وتوجيه كل مشاعر الإحباط والغضب نحو صيد الجواميس أو الأعداء أو النساء السائبات.

أما بنت السيوكس فكانت تتعلم الخياطة والطبخ وحفظ الأطعمة أو بناء الخيم، وكانت منذ تلك اللحظة تهيأ لدور خدمة الصياد وأن تصبح أماً. ولم يكن يسمح لها أن تتخطى حدوداً معينة حول المعسكر وإلا يمكن اغتصابها من دون أية عقوبة. وما يبدو من النظرة الأولى كاستغلال عالي الدرجة للمرأة أو آلية دفاع جماعية صارمة ضد التوتر السفاحي incestuous، كان جزءاً من جو اجتماعي منظم بصرامة من الاحترام المتبادل. فمنذ البداية تم منح المرأة في دورها الخادم درجة عالية من التقدير المطوقس. ففي الماضي كان من البديهي أن يقوم الأخوة بإهداء أفضل جزء من الصيد لأخواتهم أو ترك جثة أسوأ الأعداء لها لتقطيعه. وترعرع الصبيان والبنات منذ المرحلة الثالثة من النمو في قبول صامت ولكن في نظام مطوقس بدرجة عالية من «العلاقات الصحيحة» بين بعضهم: «التجنب الأول والأساسي بين الأخوة والأخوات تحول بهذا إلى نموذج لكل علاقات الاحترام للمساعدة والعطاء بين كل (الأخوة) و (الأخوات) الأقارب الآخرين، في حين أن الإخلاص بين الأخوة إلى نموذج لكل الرفقة» (1982 «أ»، صفحة 142). كان الهدف الأعلى لأخلاق القبيلة، هو بناء جو اجتماعي من الاحترام والاستعداد للمساعدة وتجنب الإزعاج المتبادل أو فرط المكاسب. ومن يخرق هذه المحرمات ويمتنع عن المشاركة في التوجيه الجماعي للعدوانية، يتحول إلى ضحية للسخرية العاضة من رفاق قبيلته. لقد كان الخوف من التخجيل والفضيحة، مشاعر الذنب غير المتمثلة بشكل كبير، الوسيلة الرئيسية للأخلاقية البدائية.

كان الحدث الديني الأهم في حياة السيوكس هو «رقصة الشمس»، محاطاً باحتفالات لعدة أيام للقبيلة ككل. وشكلت قمة الاحتفالات تعذيب الذات المدفوع

motivated Self torture. حيث يقوم محاربو السيوكس بتمرير أعواداً خشبية في عبر عضلات الصدر والظهر، التي كانت مثبتة بسيور طويلة على أعمدة الشمس. وبالنظر المباشر للشمس وبصورة راقصة للخلف ببطء، كانوا يستطيعون انتزاع أنفسهم، بأن يمزقوا لحم صدورهم. وقد رأى إيركسون في هذا التعذيب الذاتي نوع من الكفارة لمشاعر الذنب الطفولية المبكرة.

وقد عانى السيوكس من فقدان الجنة، سواء تطورياً ontogeny أم نشوئياً phylogeny، وهو ما تم الإحساس به لاشعورياً على أنه عقوبة على رغبات العض الطفولية. ويقول تأويل إيركسون الشجاع، بأن المؤمنين قد وجهوا الرغبات السادية المنبثقة عن ذلك، والمتمثلة بإلحاق الأذى بصدر الأم، ضد أنفسهم هم واتخذوا من صدورهم هم هدفاً خاصاً لتعذيب الذات. ومن خلال هذا العمل التكفيري الديني ضمنوا حظوة الشمس وروح الجواميس للسنة القادمة.

لم يكن من الممكن وجود تناقض أشد من تناقض الشعور الهندي بالحياة وعقلية الغزو الأمريكي. فقبيلة هنود السيوكس التي كانت في يوم من الأيام ذات عزيمة لا تلين، قد انهزمت وأهينت وفقدت أساس وجودها. واستسلمت داخلياً وغالبية القبيلة كانت تتوق للماضي، حيث كان المجال بلا حدود وقطعان الجواميس لا تحصى، والنشاطات لا قيود لها. غير أن الموظفين الحكوميين المكلفين بإعادة التربية قد سعوا نحو أهداف معاكسة كلية: الاستقرار، وروح التجارة والمنافسة في سبيل نجاحات مطردة الكبر في المستقبل. وطوال زوال الطفل الهندي صغيراً، لم يشهد أي تنظيم لسلوكه، وبشكل خاص أي ضبط قهري لوظائفه الجسدية. ولامبالاة الوالدان السيوكس تجاه الحالات الشرجية أو الاستمناء الطفلي كانت غير مفهومة بالنسبة للموظف الحكومي المتزمت puritan، وكذلك احتقار الملكية الفردية لدى تلامذتهم الذين غالباً ما يسرقون. وبداية منذ السنة الخامسة من الحياة يتم كبت الطفل الهندي من خلال محرمات صارمة، للخضوع إلى جو اجتماعي من الاحترام الأخوي، وهو ما كان يهدف إلى تجنب الفردانية الأنانية، الذي كان ضرورياً جداً للنجاح في الحياة الاقتصادية

الأمريكية. ففي تربية الأطفال البيض كان هناك بداية الكثير من القيود والتهديدات وأحياناً الضرب. وقد اعتقد كثير من الهنود مذعورين أن البيض يعلمون أولادهم البكاء. وبداية لاحقاً عندما كانت تتم تربية الأطفال الأمريكيين على معايير محددة من الأدب والدقة والنظافة، تم تشجيعهم على أن يصبحوا فردانيين محبين للمغامرة، ولكن باتجاه الأشكال المعيارية من الشهرة والنجاح.

وقد بدت القيم الهندية التي مازالت تورث من خلال التربية من نحو العطاء أو الامتناع عن المنافسة بأنها عائق شديد في محاولة التقريب المجتمع الأمريكي. ومنذ المراهقة على أقصى تقدير كان يتضح للشاب السيوكسي بأن كل ما تعلمه في محيطه الثقافي ليس له نصيب من النجاح في نظام السوق الحرة. لقد انزلق السيوكس في طاحونة الطبقة العاملة وعانوا وتقاسموا المصير مع الأقليات الملونة الأخرى في الولايات المتحدة الأمريكية. فلم يبق لغالبية أفراد القبيلة إلا الانسحاب الانفعالي والتوقف عن المشاركة عموماً. ومتأملين بالاهتمام الحكومي ظل غالبية السيوكس منسحبين في معسكرهم، المكان الوحيد الذي أحسوا فيه بالأمان. وفقدت العدوانية والاستعداد للقتال اللذان مازالا مستثاران هدفهما القديم؛ وتحول كذلك التخجيل المتبادل من دون سياق الجماعة القديم إلى عادة سادية خالصة. فبشكل لاشعوري أسقط الهنود غضبهم على المحيط ومن هنا عاشوه على أنه مازال عدائياً. وبما أن السيوكس لم يعودوا قادرين بالذات على الدفاع عن أنفسهم ضد التهديد الخارجي، فقد عكسوا كل عدوانيتهم على ذاتهم هم ونموا اتجاهاً من السوداوية المتاقلة.

وقادت رحلته الثانية إيركسون إلى هنود اليوروك Yurok، وهي قبيلة من صيادي الأسماك وجامعي ثمار البلوط في الساحل الباتسيفي. وعلى عكس هنود السهول الرحل عاش اليوروك منذ أجيال في زمان-مكان مركزي كامل. فعلى طول واد مكسو بالغابات الكثيفة حول نهر كلاماث Klamath رأوا عالمهم كله. ولم يكن هناك سوى إلى أعلى النهر وإلى أسفل النهر فقط، وتم تجنب العالم خارج هذه المنطقة بشك. كانت القبيلة مستقرة وعاشت في بيوت صغيرة من الخشب. ومن البحر الكبير كانت سنة

وراء سنة تهجم كميات كبيرة من سمك السلمون إلى مصب نهر الكلامات وتسبح إلى أعلى النهر. وكان اقتصاد اليوروك كله يدور حول صيد السلمون. فكل سنة كانوا يبنون سداً ضخماً، من أجل تأمين مخزون للشتاء. وكان الحصول على الملكية والحفاظ عليها، كما كان انطباع إيركسون، هو ما يتحدث عنه اليوروك، وما يفكر فيه ولما يعيش له. فمنذ أجيال عرف اليوروك النقود -كانت الأصداف الصغيرة هي العملة- وعرفوا المساومة بريبة، وحساب كل شيء بالقرش والمليم. وكان يتم قياس كل علاقة وكل تصرف حسب قيمته. وفي اتجاههم البخيل وإلى حد ما العدائي حافظ اليوروك على مسافة عن الرجل الأبيض. وكان التواصل مع اليوروك بالنسبة لإيركسون والعاملين معه أصعب بكثير مما هو الأمر عليه مع السيوكس.

كان المهم في هوية الجماعة هو الحياة النظيفة. فقد اعتبر تلويث النهر جريمة كبيرة يهدد صيد السلمون ومن ثم أساس الوجود كله. ومن هنا كانت تسيطر على صورة العالم السحرية للقبيلة فكرة الحفاظ على الأقنية المختلفة للجسم والطبيعة منفصلة عن بعضها بعضاً. ففي مخطوطة أخلاقية مشتركة كان عدد كبير من قوانين التنظيف وميول التجنب تجاه الاحتكاكات غير النظيفة والتوسيخ. فلا يجوز للمرء أن يأكل قرب النهر أو يتبول في النهر أو الدخول في النهر من دون أن يكون مغتسلاً. وكان على النساء الحائضات الابتعاد عن النهر. فقط الماء النظيف بصورة مطلقة هو الذي يجذب السلمون للعودة ثانية. بالإضافة إلى ذلك كان الأمر يتطلب احتياطات سحرية. فقد اعتقد اليوروك بأن الكلمات المشحونة بالدموع تؤثر على الآلهة. ففي صلواتهم تمكن هنود اليوروك بعاطفة إيمانية عميقة في جعل أنفسهم تغرق في نوع من حالة الغشوة المحدثة ذاتياً ويبكون هنا بصورة تقطع القلب من أجل أن يأتي السلمون. فإذا ما وصلت بعدئذ حملة السلمون، فقد كان لابد من القبض على الغنائم بدرجة عالية من التعاون المركز. فإذا ما أمنت القبيلة نفسها بعد إنجاز المهمة المشتركة الكبيرة في بناء السد مخزون الشتاء للسنة القادمة، ينسى اليوروك لعدة أيام حذرهم الشكاك ويحتفلون احتفالاً ماجنا بهرج وفسوق فمي وانحلال جنسي.

وهذا البرنامج الحياتي التمركزي، الذي يبدو بأنه «رأسمالي» يشبه أكثر بكثير العقلية البيضاء؛ ومن هنا لا يثير العجب بأن سلوك التربية لليوروك أيضاً كان مختلفاً في كثير من النقاط عن سلوك تربية السيوكس. فالوليد كان يحصل بداية على حساء البلوط وبعدئذ يتم إرضاعه بسخاء هندي. إلا أنه عند بلوغه الستة أشهر تفطم الأم الطفل فجأة -وهو حد أدنى من الإرضاع بالنسبة للهنود- وتعوده على الطعام الصلب. واعتبر السلمون أو اللحم البري «حلويات». ولاحقاً، وفي سن الفهم، يتم في عملية التلاؤم مع عادات الطعام عند القبيلة نوع من التدريب الفموي الثاني. وبدت أوقات الطعام عند اليوروك بالنسبة لإيركسون وكأنها نوع من طقوس ceremony السيطرة على الذات وتقييد الذات: فقد كان لا يسمح للطفل الأكل بسرعة، ألا يأخذ مرتين، عليه أن يطلب السماح باستمرار عند تناول الطعام، أن يدخل الملعقة في فمه بحذر وأن يمضغ ببطء، تطهير puritan فموي، وجد ضالته بين البدائيين الأنداد. وعلى ما يبدو فإن السلوك الطقوسي في أثناء الطعام قد كان يهدف إلى مواصلة تقييد الرغبة التواقة لتناول الطعام، الذي كان قد نشأ من خلال الفطام المبكر عن صدر الأم. كما أن الأمهات كن يعدن بسرعة بعد الولادة إلى متابعة عملهن الاقتصادي ويقمن بالاتصال الجنسي بأزواجهن.

كما كان من المألوف لدى اليوروك ربط الرضيع على لوح ولفه؛ إلا أن الأرجل تظل طليقة وكان يتم تمسيدها من الجدات بانتظام، وعلى ما يبدو من أجل استثارة محاولات الزحف المبكرة، وحفز بأسرع وقت ممكن القدرات الحركية للطفل الصغير ومن ثم نموه الاستقلالي. ويتعلق الأمر بدخول مختلف كلية إلى الحياة عن طفل السيوكس. وتقول فرضية إيركسون، أنه منذ وقت مبكر كانت أساليب التربية تهدف إلى الحيلولة دون الميول النكوصية للطفل ومنع أن يشعر الطفل مع أمه وقربها بأنه بخير. إذ وجب أن يصبح منه صياداً، يظل مجهزاً شباكه للغنيمة بيقظة وتركيز، يمسك نفسه، بتجهيز مخزون بعد الصيد وألا يمد يده لهذا المخزون بجشع. وكان الانتظار الصبور (إرجاء الدافع الفموي)، الصيد النشط وصيد السلمون، وأخيراً التكنيز

الاحتجازي retentive والريبة من أي عطاء حر نمطاً سلوكياً بارزاً جداً لهنود اليوروك.

ظلت تناسلية Gemitality القبيلة تابعة كلية للأفكار الاقتصادية. فلم يلاحظ إيركسون كبتاً قوياً للفضول الجنسي أو الاستمناء. وكانت منزلة المرأة واحترام الصهر مرتبطة بالمبلغ الذي يدفعه زوج المستقبل لأب العروس. وكان من المستنكر أن تحمل الفتاة في وقت مبكر قبل أن يتم التمكن من دفع المهر. واعتبرت ديون الوالدين سبباً لشذوذ خلق الأطفال اللاحقة. وكانت الحياة الجنسية منظمة من خلال سلسلة من قوانين التنظيف، فيما عدا عن ذلك كان يتم التنفيذ نسبياً بحرية اختيارية، طالما لا يتناقض مع الأهداف الاقتصادية. وحتى ميثولوجيا اليوروك تستحضر خطر نقص كبح جماح النفس، إذ أن خالقها في الماضي قد تم أسره واختطافه في الماضي من سمكة روخن Rochen 1 في أثناء ممارسة الجنس.

كما أن برنامج حياة اليوروك مثل حسب إيركسون بالأصل برنامجاً مثالياً، محاولة تلاؤم شبه غريزية مع جزء محدود من الطبيعة. ويمكن للمرء أن يربط ذهنياً زمان-مكان القبيلة مع صورة فموية للعالم. فنهر كاماث Kamath يشبه قناة الهضم، والمصب يشبه فم مفتوح دائماً على الأفق، الذي يأتي منه السلمون، وإليه تتجه صلوات اليوروك. ومرة في السنة يعود إيركسون ويتم اصطياده في السد كما من فكين ضخمين جداً. ويتم تأمين البقاء للشتاء القادم بحيث أنه يمكن أن يأتي عيد ماجن بعد تعاون جماعي ملتزم. وتتم تربية اليوروك لأن يصبح داهية وصياداً مكاراً وتاجراً، لا يدخل في عراكات أو تجارة خاسرة ويتجنب التوسيخ.

وبالنسبة للملاحظ المؤهل تحليلياً تكاد تتجلى تطابقات مع أنماط السلوك الشاذ: فاليوروك يبكي على ما يبدو كالطفل الصغير على آلهته، ويظهر خوفاً رهابياً من

(1) نوع من أنواع السمك المفلطح اسمه العلمي Batoidae من فئة الأسماك الغضروفية Chondrichthyes وهي أسماك بحرية إلا أن هناك منها ما يعيش في الأنهار ولها أكثر من 500 نوع مصنف في 13 عائلة .

التوسيخ، ويكتنز بريبة وبخل كالعصابي القهري. إلا أن إيركسون يعتبر أنه من الغطرسة والخطأ النظر للبدائية primitivity، كما هي الاتجاهات الاستعمارية للمحتلين الأوروبيين، كحالة من المرضية والفوضى anarchy. كل التقاليد والعادات غير المفهومة للبيض هي أنماط سلوكية متوارثة برسوخ، من أجل تنظيم التلاؤم مع المحيط الجغرافي والحياة المشتركة الاجتماعية بصورة مثالية قدر الإمكان. فالبدائية بالنسبة لإيركسون هي «حالة من التنظيم الإنساني، المدموج فيها التفكير ما قبل المنطقي Pre-rationality مع كثير من المنطقية في كل مرة، بمقدار ما تسمح به التقنية القائمة» (1982، «أ»). وفي حين أن العصابيين هم أناس وحيدون ومضطربين، لا يتلائم سلوكهم اللامنطقي مع واقع اجتماعي متجانس مطابق، فإن اليوروك الناجح والمحترم هو ذلك الذي يستطيع أن يبكي بصورة تمزق القلب، وأنجح مساوم وأكبر داهية في التعامل. وطالما ظل يعمل هذا البرنامج الحياتي البدائي بنجاح مع كل مؤسساته التقنية والسحرية ويحمي الفرد من الصراع والقلق، فلا يجوز اعتباره حسب إيركسون بأي شكل من الأشكال فوضوي وعشوائي: «فحتى المجتمعات 'البداية' عليها تجنب تلك الأشياء بالتحديد، التي يرغب تفكيرنا القياسي عزوها لهم. إنهم ليس في وسعهم تأسيس جماعة من الشاذين eccentric أو العصابيين أو الطبائع الطفولية» (1982، صفحة 181).

ومن خلال رحلته الميدانية التي استمرت لعدة أشهر اندمج إيركسون مع حياة المجتمعات غير الأوروبية ووسع الفهم التحليلي النفسي لعملية التنشئة الاجتماعية. إلا أن تسميته كأنثروبولجي ثقافي لهذا السبب، هي نوع من المبالغة. فهل ما يفترضه إيركسون عن هنود السيوكس، أي التوق إلى الماضي الآمن، ربما يمثل أيضاً أساس تفكيره الخاص هو؟ هل يبحث في الجانب الآخر من ثنايا الحضارة الحديثة الحالة الأصلية المنسجمة من الانسجام بين الإنسان والطبيعة والجماعة؟ من المؤكد أنه يمكن من خلال مثال عن الثقافات البدائية، حيث أن كل فرد مندمج كعضو محترم بشدة في نظام قبلي تضامني وتربية الطفل تسير منذ البداية في مسار مضمون، هي أقرب ما

توضح جوهر التنظيم المتبادل. ومن ناحية أخرى من السهل أن يتعرض الإنسان لخطر نسج أسطوري رومانسية. فبرنامج حياة الشعوب البدائية يتبع تقليداً صارماً وغالباً لا يرحم. وتتم تنشئة الفرد هناك اجتماعياً، سواء أراد أم لم يرد. وقلما يمكننا الحديث عن تنظيم متبادل بين أنا متأزم ومبدأ بنية الجماعة المرنة. ومن المؤكد فإن التنشئة الاجتماعية تسير بشكل أكثر أمناً من خلال العادات المانحة للدعم لدى الشعوب البدائية. ومع ذلك فإن الطفل الهندي يشهد موضوعياً الألم واليأس والخجل، عندما يضرب على رأسه أو يتم تربيطه أو يسخر منه، مهما تم التخفيف دائماً من هذه الإحباطات من خلال التعاضد الجماعي.

وقد استقصى إيركسون السيوكس واليوروك في وقت كانت قد انهارت فيه الكثير من هوية الجماعة. وكان عليه في جزء كبير إعادة بناء طرق تربيتهم الأصلية، وهو ما يرفع من خطر التأملات والنظرة المحملة بالنظرية. على المرء أن يسأل نفسه فيما إذا كانت هذه العادات بالفعل قد وجدت بهذا الشكل «الصافي»، وفيما إذا كان إيركسون قد استخلص كثير من الاستنتاجات المبسطة من أجل جعل نموذجه جديراً بالتصديق. والأمثلة التشبيهية بين كبت نزوعات العض الطفولية المبكرة ومعطائية قبيلة السيوكس أو التربية الرخوة على النظافة وقلة تقدير الملكية الخاصة تبدو إلى حد ما بأنها مصطنعة بصورة سيئة. فهل تنبثق مثل هذه العادات الشعبية بصورة شبه «سببية» من التثبيتات في مرحلة محددة بدقة من النمو الجنسي النفسي؟ أم أن الأمر يتعلق بعملية تلاؤم وتعلم تدريجية، تمتد عبر الطفولة كلها، مع التقاليد السائدة في القبيلة؟

لقد رفض إيركسون في بحثه الأنثروبولوجي الثقافي استنتاجات قياسية analogy علم نفس أعماقية حول الطبائع الطفولية والمركبات العصابية، وأبدى الاحترام للأشكال الأخرى المختلفة من حياة وتقاليد الهنود. ومع ذلك يتحدث عن «النوعية»، «التثبيت الفموي»، «المبادرة القضيبية»، إلا أنه يعمم في النهاية شفافية foil[1] تحليلية

(1) قالب، أو كليشه.

نفسية على موضوع دراسته. والسؤال المطروح هل يستطيع المرء أن يفهم بشكل مناسب العقلية المختلفة كلية للثقافات غير الأوروبية من خلال المصطلحات terminology الإكلينيكية؟ فبعض من تفسيرات إيركسون من نحو اعتبار الطقس الديني كرقص الشمس عند السيوكس على سبيل المثال ككفارة لاشعورية لرغبات العض الطفولية المكبوتة، تبدو شديدة التأمل وربما قلما يمكنها أن تصمد أمام تحليل أنثروبولوجي أكثر عمقاً.

وفيما إذا مازالت رحلة إيركسون الاستكشافية من ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين ما زالت ممثلة representative بالنسبة للوضع الحياتي الراهن للأقلية الهندية اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية، فهذا سؤال مطروح. وبعض النقاد اتهموا إيركسون بأنه لم يكن مهتماً على الإطلاق بأزمة الهنود واستغلهم كموضوع بحث علمي فقط. حتى أن إيرولد (Erold, 1978) قد وصف إيركسون بأنه «ذئب في جلد حمل»، أراد كممثل لجهاز السلطة والقمع الأبيض التملق لتاريخ معاناة الهنود الأمريكيين. من المؤكد أنه قد تبدو كثير من صياغات إيركسون غير ماهرة - من نحو مقارنة السيوكس الشجعان مع عصابيي التقاعد. ومع ذلك فقد جعل جمهور واسع يعي أزمة الأقلية الهندية المقموعة وحاول تصحيح الأحكام المسبقة العنصرية. فقد عبر إيركسون بوضوح في مناقشته لتاريخ معاناة شعب السيوكس عن تحفظاته تجاه وطنه الذي اختاره، الذي لم يكن موقفه من خالياً من النقد كما يتهمه البعض. وبالتحديد فإن استئصال وقمع السكان الهنود الأصليين طرحت الكثير من الظلال القائمة على تاريخ شعب، قدم نفسه للعالم ممثلاً لرؤية الحرية والديمقراطية.

هوامش الفصل الخامس:

(i) الأفكار الرئيسية حول إعادة صياغة الدافع نجدها بشكل خاص في الفصل الثاني من «الطفولة والمجتمع»: «نظرية الجنسية الطفولية»، 1982 «أ»، صفحة 42-103؛ في «الدافع والمحيط في الطفولة» 1957 «أ»، صفحة 43-50؛ وفي الفصل الثاني من «دورة الحياة الكاملة»: «الجنسية النفسية ودورة الأجيال»، 1988، صفحة 27-69.

(ii) قارن Wolf, 1974.

(iii) قارن حول هذا أيضاً رابابورت Rapaport في (Gill, 1967) و (Wolf, 1974).

(iv) قارن أيضاً فون بوكسبيرغ von Boxberg,1976 وWulff, E. 1979.

(v) يعتمد هذا الفصل بشكل خاص على المقالات:

"Die Weiblichkeit und der innere Raum", in: "Jugend und Krise" 1981a, S. 274-308; und "Noch einmal: der innere Raum", in: "Lebensgeschichte und historischer Augenblick", 1982b, S. 233-257; ferner auf den Abschnitt "Genitale Modi und räumliche Modalitäten", in: "Kindheit und Gesellschaft", 1982a, S. 91-103. Vgl. zum Thema Psychoanalyse der Weiblichkeit auch Chasseguet-Smirgel 1981, Hacker 1983, Kestenberg 1988, Person & Ovesey 1993 und Rohde-Dachser 1990.

(vi) قارن Caplan,1976.

(vii) قارن Janeway,1971.

(viii) أنظر مقال:

"Childhood and Tradition in Two American Indian Tribes, in: The Psychoanalytic Study of the Child, Bd. I, 1945, S. 319-350; ferner die Kapitel "Jäger über der Prärie" bzw. "Fischer am Lachsfluß" von "Kindheit und Gesellschaft, 1982a, S. 110-182. Vgl. zum Thema psychoanalytische Feldforschungen auch von Boxberg 1977, Boyer 1980, Elrod, Heinz und Dahmer 1978, Erdheim und Nadig 1983 und Wulff 1979.

الفصل السادس

إيركسون وعلم اللاشعور

6.1 الهوية السلبية للفرد والجماعة

من المؤكد أن إيركسون قد وسع التحليل النفسي ليصل إلى «السطح الروحي»، إلى عالم الشعور والعلاقات البين إنسانية. إلا أن صورته عن الإنسان ظلت متأثرة بالفرضيات الأساسية لعلم نفس الأعماق: فالنفسي لا يتطابق مع الشعوري. وتوجد مملكة غامضة، تسهم بالتأثير على تفكيرنا وإحساسنا وتصرفاتنا وصولاً إلى قرارات حياتية مهمة، ويعلن عن نفسه في الأزمات النفسية الشديدة كما في الإنجازات الخلاقة الكبيرة. وعلى الرغم من أن فرويد لم يكتشف هذا «الجانب الآخر» من النفس، إلا أنه على الأقل كان أول من أخذها علمياً على محمل الجد. فخلف الواجهة التي تبدو متكيفة لمرضاه الارستقراطيين ظهر عالم مكبوت من الرغبات الجنسية السرية ونزوعات الكره المطمورة، وبدا اللاشعور بداية وكأنه مرجل من الهيجانات المتوحشة والشهوات التي لا يمكن السيطرة عليها. وكانت تنحية رؤى فرويد حول المجالات اللامنطقية والعميقة من النفس، تعني بالنسبة لإيركسون السقوط في أوهام خطيرة. إلا أنه كفنان بدا مسحوراً بالقوة الخلاقة الهائلة للاشعور. فالحياة النفسية الإنسانية هي آية من التداعيات association. وتقوم عملية مستمرة من التنظيم والتوليف والدمج بربط الانطباعات والذكريات والأمزجة والتصرفات المختلفة مع بعضها، حتى لو كانت بعيدة عن بعضها البعض زمانياً ومكانياً. إذ يوجد إدراك واستنتاج وتفكير لاشعوري. وغالباً ما تباغتنا أفكار ومقاصد وكأنها أشكال جاهزة، ولدى الشخصيات المبدعة تتصاعد الإنجازات التوليفية للأنا إلى أشكال جبارة صافية من الإبداعية.

لقد أغنى إيركسون مذهب اللاشعور كمثير من النقاط، إلا أنه لم يكن في هذا الموضوع منهجياً أيضاً.

وسوف نقوم فيما يلي بعرض ملاحظاته حول الهوية السلبية في الفرد والجماعة ووجهات نظره حول الحلم والجذور اللاشعورية للعب الطفولي.

كان التحليل النفسي منذ البداية المحكمة الكبيرة للخداعات الذاتية للإنسان وأظهر مدى هشاشة وقصور الصورة التي نرسمها عن أنفسنا. وقد اختار إيركسون مفهوم «الهوية السلبية Negative Identity» لكل تلك الجوانب فينا التي نكبتها ولا نريد إدراكها، المتناقضة مع الصورة المثالية لشخصنا، بدءاً من النزوعات الدافعية اللاشعورية كلية حول العيوب والنقاط المظلمة التي نحس بشيء منها في سرنا، وصولاً إلى الاتهامات الذاتية اللاشعورية، أو مشاعر النقص أو ذكريات الإساءة والفشل. وحتى هذه المجالات الكامنة من الروح تتأثر بالنسبة لإيركسون اجتماعياً وتاريخياً. فمنذ الولادة يترعرع الطفل في تصورات جماعية عن الشر، من نحو مجالات تحريم أسرة ما أو تعاليم الخطيئة في الجماعة الدينية أو قائمة القوانين لدولة ما. وعليه أن يتعلم تجنب اللامرغوب والمستنكر، من أجل أن يتم تقبله في جماعته وجزء كبير من الهوية السلبية لفرد ما يناقض إلى حد ما الجزء المقابل لقيم ومثل إطاره الثقافي. ففي المجتمعات البدوية يتم احتقار الذي يحتفظ بأملاكه له وحده، وفي الدول الاستبدادية فإن الاعتراض أو الاحتجاج يتحول إلى تدنيس للمحرم، وفي الثقافات ذات التأثير الديني القوي يعد نقص السيطرة على الدافع على أنه سلوك زنا.

وكل جماعة تميل إلى فصل الشر وعدم الكمال عن ذاتها. ويتحول المرضى نفسيا والجانحين وغير المتدينين والشعوب العدوة أو الأنظمة الإيديولوجية إلى مساحة إسقاط لهوية الجماعة السلبية وتصهر الجماعة في استنكار محمل بالأحكام المسبقة. ويتم تجنب المجموعات الهامشية والأعداء وتبخيسهم، من مخبرين مؤهلين بشكل خاص - شرطة أو متحري الإرهاب أو أطباء نفسيون أو عسكر - وإبقائهم تحت السيطرة. ومع ذلك فإن وجود مثل هذه الأنماط الأولية السلبية يكاد يكون ضرورياً للتماسك

الاجتماعي. فبهذا المعنى احتاج التطهيريون، كما لاحظ ابن إيركسون (Kai، 1978) ، السحرة أو السادة البيض عبيدهم السود.

وكل تربية تميل إلى تحديد أنماط السلوك التي على الطفل ألا يظهرها، من خلال صور الناس والجماعات الآخرين المبخسين. وغالباً ما يلعب النقل الأسري اللاشعوري دوراً في هذا: «لا تكن مستهتراً كعمتك، أو سريع الغضب كوالدك!» يضاف إلى ذلك يتم في المجتمعات ذات التناقضات الطبقية أو العنصرية الشديدة تصفية الهوية السلبية للطفل بتحيزات قومية أو عنصرية أو وجودية وتتكون في النهاية حسب إيركسون من صور «جسم مساء معاملته (مخصي)، وجماعة عرقية أجنبية وأقلية مستغلة» (1981، صفحة 28). والتحذيرات من «الزنوج القذرين» أو من «اليهود الجشعين» أو من «الشيوعيين المخربين» تولد منذ الطفولة أحكاماً مسبقة وميول تجنب، غالباً من دون أن يكون الإنسان في يوم من الأيام قد أقام أي اتصال واقعي مع الآخر المرفوض. وخلف السمات التي يخشى منها هناك حسب إيركسون «تكمن غالباً صور ما لا يحاول الوالدان أن يكونا هما نفسيهما ومما يخشونه أكثر بأن طفلهما قد يصبح كذلك؛ وهذه السمات الكامنة لابد للطفل أن يتعلم تصورها، كي يتمكن من تجنبها » (1968، صفحة 489).

ويشير إيركسون مراراً إلى مدى قوة سيطرة الأحكام المسبقة وتشويهات الإدراك على الحياة النفسية الطبيعية. أيضا وتحمي بصورة مصطنعة مشاعر الهوية الجماعية والفردية. فدائماً علينا إسقاط السالب وغير المرغوب والمخيف الذي يهددنا من الداخل على الخارج، والتقليل من قيمة الآخرين من أجل أن نعيش أنفسنا بصورة أفضل أخلاقياً وأكثر مثالية، بدءاً من النميمة اليومية ومروراً «بالتواطؤات» المتنوعة في الحياة الزوجية والأسرة وانتهاء بالأحكام المسبقة المزمنة عن الشعوب الأجنبية والعروق والجماعات الدينية. وبشكل خاص في العلاقة بالضعفاء والمتجاوزين للمعايير يمكن للإسقاط أن يتصاعد إلى الأشكال الوخيمة من الملاحقة ونزعة الانتقام. وعلاج أولئك الذين ينحرفون عن خط السواء، يتعلق بالنسبة لإيركسون بالطريقة «التي يعامل فيها الأفراد منفردين الانحرافات المهددة في أنفسهم» (1975 «ب»، صفحة 79). والتاريخ

مليء بالساديين القساة: حيث تم تعذيب الجناة وإعدامهم، وحرق الساحرات والهراطقة، وتقييد المرضى نفسياً وعلاجهم بالصدمة الكهربائية، وطرد المجذومين من الجماعة. والنظر لهذا الإفراط في اللاإنسانية على أنه بقايا العصور الغابرة يعد وهماً. فمآسي قرننا لوحدها تمثل دليلاً على مدى سرعة اغتصاب الديماغوجيين لاشعور أتباعهم ويشنون حملات صليبية مجنونة ضد الشر المسقط على الأعداء والأقليات.

وبصورة مشابهة لفرويد ينادي إيركسون بصورة ديناميكية للإنسان. فغالباً وبصورة غير ملحوظة يوجد في حياتنا النفسية صراع مستمر بين الهوية السلبية والإيجابية. ويبني الأنا ضد دوافع اللاشعور المهددة بصورة خاصة آليات الدفاع، تلك التقنيات العاملة بصمت، التي تمنع انفجار النزوعات الجنسية الشاذة والكره والغيرة غير المضبوط أو المخاوف الصادمة وتحافظ على توازننا النفسي وبالذات في مواقف الإرهاق. وقد درس فرويد وابنته آنا كل التقنيات المعقدة للكبت والتكوين العكسي والإسقاط والعقلنة والعزل...الخ، التي تحمينا من القلق والخجل والصراعات العنيفة وتصبح بهذا الضامن الرئيسي للحياة النفسية. وحتى هذه الآليات الدفاعية تتأثر اجتماعياً حسب إيركسون. فهي تنصهر مع نمط حياة محيط ثقافي ما ويمكنها، بغض النظر عن وظيفتها الدفاعية الأصلية، أن تتطور إلى تقنيات مستقلة لمواجهة الحياة. ولنتأمل في التبرير rationalizc والعقلنة intellectualization، التي تحولت إلى سمات نموذجية لطبائع الهوية اليهودية وإلى أسهمت في حدة التفكير التي ميزت كثير من العقليات اليهودية البارزة.

الشعور واللاشعور هما حسب الرؤية التحليلية النفسية ليسا منطقتان نفسيتان منفصلتان عن بعضيهما. فالنزوعات المكبوتة تبحث حسب إيركسون «بغض النظر عن طل منطقنا الوسائل والطرق، للتعبير عن نفسها» (1975، صفحة، 156)، تقتحم مرة تلو الأخرى هواماتنا وأحلامنا النهاية ومحادثاتنا الذاتية، وتصبح مصدراً للهفوات اليومية والاتجاهات العصابية. وفي كثير من الأحيان تغلب الرغبات السرية للهو. فنشعر بالمزاج المنشرح ومملوءين بنزعة الحياة والفعل، نجد أنفسنا غارقين في الهوامات الجنسية أو الأحلام حول النجاحات الكبيرة أو ننتقم لأنفسنا بشماتة من المنافسين

الحاسدين. وبشكل غير ملحوظ يمكن لمؤشر المزاج أن ينقلب: فتنهكنا الهموم أو مشاعر ذنب أو ذكريات مرهقة أو اتهامات، وهي علامات على أن ضغط الأنا الأعلى يجثم الآن على الأنا. وغالبية هذه التأرجحات في المشاعر ترافق انشغالات الفكر والهوامات اليومية، من دون أن نولي لذلك اهتماماً كبيراً. ويتحدث إيركسون عن دورة المزاج الموجهة باللاشعوري للنفس الإنسانية: «كلا الاتجاهين الأساسيين اللذان يتبادلان التأثير، هما اتجاهي الكرنفال والكفارة: ويسمح الأول بالاستمتاع الحسي، التمتع بأي ثمن. والآخر يستسلم لتأنيب الضمير، الذي يكرب الإنسان بشدة على كل ما هو غير محلول في حياته وغير مكفر عن، ويطرحه أرضاً» (1975 «أ»، صفحة 80).

وليل نهار يحاول الأنا كبح النزوعات اللاشعورية أو استغلالها في إنجاز إبداعي بشكل بناء، من دون أن يفقد في هذا السيطرة في تصارع القوى الهيئات النفسية. فإذا ما أصبح التأثير من الهو والأنا الأعلى كبيراً جداً، يظهر خطر التطورات المرضية النفسية والخلل الوظيفي الاجتماعي. وكل التنظيمات العامة والمؤسسات هي نوع من آليات الدفاع الإضافية وتدعم الأنا في الصراع ضد طوفان اللاشعور. وعلى ما يبدو فإن المجتمعات حسب إيركسون تسعى إلى تلطيف تأرجحات مزاج النفس الإنسانية بطريقة معينة، من أجل جعلها قابلة للسيطرة. وفي كل الثقافات يمكن ملاحظة وجود أوقات من الأعياد، من التقاليد المتساهلة، نوع من التنفيس لضغط الدافع المتراكم، يعقبها أوقات من الزهد ascecticism المرتفع وأداء الواجبات.

لقد درس التحليل النفسي حالات الطوارئ المرضية، حيث تتم السيطرة على الأنا من خلال دوافع الهو أو إملاءات لوم الضمير؛ إذ أنه حلل الانهيار الاجتماعي، حيث تتدمر ثقافات كاملة من الشهوانية الفاجرة، أو تسقط تحت الدكتاتورية المستبدة للأنا الأعلى. إلا أن التحليل النفسي قد أهمل حسب إيركسون تحديد حالة التوازن النفسي والاجتماعي بصورة باعثة على الرضا، حيث نركز على واجباتنا اليومية بنجاح، ونكون قادرين على العمل والحب ومحيطنا الاجتماعي مستقراً حولنا. ويتساءل إيركسون: «فهل هذه الحالة المتوسطة غير مهمة ديناميكياً، بحيث أن المرء يستطيع تعريفها فقط

بوساطة ذلك الذي ليست هي ليست عليه؛ بحيث لا تتيح التعرف، لا على سمات هوسية ولا اكتئابية؛ بحيث تظهر على ساحة معركة الأنا استراحة قتال لحظية، والأنا الأعلى لا يكون لفترة وجيزة في مزاج حربي، وأن الأنا قد أعلن وقفاً لإطلاق النار؟» (1981 «ب»، صفحة 20).

ويؤكد إيركسون على أنه في الحياة اليومية الطبيعية تمتلك أفكارنا وقراراتنا الشعورية تأثيراً كبيراً، وأننا نكون قادرين على توجيه أنفسنا على الرغم من كل المركبات والمخاوف، التي ربما يكتشفها المحللون النفسيون فينا. والتدريب التحليلي النفسي يمكنه أن يقود بسهولة إلى «الانشغال الذي يكاد يكون مستحوذاً (باللاشعور). عندئذ ينبثق عن ذلك مبالغة في تقدير معاني الكلمات وفرط التوكيد القطعي dogmatic على العمليات الداخلية وكأنها وحدها الجوهرية في الوجود الإنساني» (1975، صفحة 166-167).

إلا أنه يمكن للهوية السلبية أن تسيطر علينا بين الحين والآخر. وبشكل أساسي يختلط في أطوار الانكسار الأذى الخارجي أو الإخفاقات مع الاتهامات الداخلية للذات. وبالتحديد لدى الأفراد الهامشيين غالباً ما يصبح هذا مشكلة مزمنة. فهؤلاء لا يمكنهم خلع السمات المرفوضة في عيون الأكثرية. ومن خلال الرفض الذي يشعره هؤلاء بصورة مبطنة أو صريحة من محيطهم، تتلقى وصمتهم - لون الجلد الخطأ، عضو الجسد المشوه، الحكم القضائي السابق، التشخيص الطبي النفسي - توتراً خاصاً للأنا وتتحول إلى مركز الملاحظة الذاتية الحساسة. فأحد مرضى إيركسون اعتقد بالفعل بأنه لا يمكن مساعدة اليهود إلا من خلال عملية تجميل؛ فلاشعوريا بدا متماهياً مع الصور الكاريكاتورية البشعة في صحيفة يوليوس شترايشر Julius Streicher «العاصف Stuermer»[1]. وهذا يعني: أن التبخيس المزمن يجعل العناصر الهامشية للهوية السلبية تزحف أكثر فأكثر إلى مركز خبرة الذات، وتطمر الثقة بالنفس والمبادرة. ويصبح خطر

(1) يوليوس شترايشر أو جوليوس سترايكر، نازي كان ناشراً لصحيفة خاصة أسبوعية معادية للسامية بعنوان «العاصف der Struemer» قام فيها بتحريض الشعب الألماني على الاضطهاد الفعلي لليهود، وسمم عقول الناس بالكراهية العرقية والاضطهاد.

تنمية مفهوم سلبي عن الذات أكبر والتأقلم مع دور المعتزل. والعاطلين عن العمل لفترة طويلة يفقدون رؤية الإمكانات الباقية لهم في الواقع، واللاجئون يستسلمون في يأس لامبالي apathic، والشبان المشكلون يشعرون أنهم مستبعدون وبلا فرصة. فتبدأ دوامة خطيرة بالدوران. وعندئذ ليس من النادر أن تحصل عاجلاً أم آجلاً تماه انتقامي مع الهوية السلبية. فإذا ما بدت كل الفرص للاندماج الإيجابي في المجتمع مسدودة، فسوف يفضل المرء القيام بشيء مرفوض، وشرير من ألا يقوم بشيء على الإطلاق. ويسهل عندئذ تجاوز الحد الكابح للسلوك الشاذ والتجاوز للمعايير، حيث يتحول المعني بشكل لانهائي إلى دريئة الإسقاط والوصمة الاجتماعية. إذ أن كل مجتمع يميل بسهولة كما يرى فري (Frey,1987) إلى ترشيح ما يعتبره خطير أو مزعج أو مخجل أو غير سوي، من سلوك المتجاوزين للمعيار وجعله بعدئذ أهم سمة تميز الشخص الموصوم. ومن جهته الغضب العام «لسليمي النية» يؤثر بشكل استفزازي على المنحرف. ويمكن ملاحظة مثل هذه الدوامات من الإسقاطات المتبادلة بشكل واضح بصورة خاصة في الحدود الحرجة الواقعة بين خارقي القانون لمرة واحدة والمجرمين وبين المصلحين الاجتماعيين المثاليين ومرتكبي العنف الإرهابي، ومن التمرد إلى عدو لدود، إلا أن ما يميز أيضاً هو الطريق من «الخروف الأسود» لأسرة ما إلى فاشل مزمن أو من المزعزع نفسياً إلى مريض عقلياً أو من منتقد للكنيسة إلى مهرطق[1] heretical [1].

وبصورة ملتزمة نادى إيركسون بعدم وصم الشباب بالتحديد في المرحلة غير المستقرة من إيجاد الهوية بالكثير جداً من الأحكام السلبية. فغالباً ما يخبر الشبان أنفسهم عندئذ بصورة مكثفة عندما يعارضون قيم تصورات الراشدين. المهم هو أن الوالدين أو المعلمين أو القضاة أو الأطباء النفسيين أن يدركوا أن أنماط السلوك المتطرفة بين الحين والآخر للمراهقين هي تعبير عن أزمة حياتية متصاعدة الحدة وعدم التسرع بالنظر إليها على أنها علامة لتطور مرضي أو طبيعة تخريبية. وتشتت الهوية ليس هو الذي يحرك في الغالب التطور الوخيم العواقب وما يحركها هو إنما التشخيص السلبي

(١) مهرطق، منشق، خارجي.

للسلطات الاجتماعية. فالترحيل المفاجئ إلى وضع منحرف، كنزيل لسجن للأحداث على سبيل المثال أو مؤسسة طبية نفسية، تتحول كما يستنتج فري (Frey,1987) ، في الرأي العام إلى فئة موجهة في الحكم على المعني. وهي تخترق وخصوصاً عندما ترتبط بإدخال إجباري طويل الأمد، كامل هوية المعني، وتصبح مطردة التحديد للمشاعر الذاتية، حتى لو ظل المعني يدافع داخلياً ضد الوصمة. ويصل إيركسون إلى نتيجة مفادها: أنه «عندما يقوم المجتمع، على سبيل البساطة، أو من أجل التلاؤم مع الأعراف المحترمة للقضاء أو الطب النفسي، إلى معاملة شاب ما ببساطة كمجرم أو كمخلوق مشوه أو فاشل أو حتى كمريض شديد الاضطراب، عندئذ فإنه من الممكن أن يحدث بأن الشاب المعني الذي ربما يكون بسبب وضعه الاجتماعي الحدودي على أية حال على حدود اختيار هوية سلبية، أن يسخر الآن كل طاقته لأن يصبح بالذات ما يتوقعه منه المجتمع الحاقد والمرعب. ولا يظل إلا الأمل بأن تتمكن نظرية الهوية من الإسهام بهذه المشكلة في مجرى الوقت أكثر مجرد التحذير» (1981 «ب» صفحة 210-211).

وليس هناك من سند للتهمة الموجهة لإيركسون بأنه ينظر مثل كثير من المحللين النفسيين الجدد للاشعور على أنه مجرد ظاهرة هامشية. فقد وضح من خلال أمثلة مختلفة مدى قوة تأثير القوى اللاشعورية على عمل الحلم أو اللعب أو القرارات الحياتية للقادة التاريخيين أو على الأزمات العصابية لحياة الراشدين. وهنا لا يرى إيركسون اللاشعوري على أنه مجرد مقر الهيجانات القديمة archaic فقط. ففي الوظائف التوليفية للأنا يكمن شيء ما «منطقي» للغاية، يدعم الإنجازات الشعورية لتلاؤم الإنسان ويحاول تعويض أحادية الاتجاهات الحياتية الشعورية. إلا أن إيركسون يبدو، على الأقل فيما يتعلق بالسلوك غير الباثولوجي، أنه يمنح القدرة الاستجابية الشعورية وعلى اتخاذ القرار تأثيراً على الحياة النفسية أكبر من فرويد وهنا تتجلى فردانيته وربما أيضاً جزء من تماهيه مع خبرة العالم عند الأمريكي الذي يعد لديه الإيمان بالحرية والقدرة على خبرة الأنا الشعورية أمراً مركزياً.

وللأسف لم يربط إيركسون مساهماته العلم نفس أعماقية بعلم النفس التأملي بصورة

أقرب. مما نجم عن ذلك بعض الغموض. فمفهوم «الهوية السلبية» يمتد في كتاباته من النزوعات الدافعية المكبوتة حتى مشاعر النقص الشعورية ويشبه أحياناً مفهوم «الظل» لدى كارل غوستاف يونغ. ومن المنظور الموضوعي topical أو البنيوي structural لا يستطيع المرء مساواتها «بنظام اللاشعوري» أو «الهو»، لأن الهوية السلبية على ما يبدو تتضمن خبرات شعورية وما قبل شعورية ومن ثم تبدو وكأنها تنتمي إلى الأنا جزئياً.

ولا يظهر إيركسون فقط، كيف ما تزال حتى المجالات المطمورة للنفس متأثرة بالمجتمع والتاريخ، وإنها أيضاً مدى قوة انصهار آليات الدفاع الفردية والجمعية مع بعضها. فمجوعات كبيرة من الهامشيين تعاني بشكل وخيم جداً بصورة خاصة من كم كبير من الإسقاطات في علاقاتنا الاجتماعية. ومثل غوفمان Goffmann وكربمان Krappmann أو ممثلي نظرية التلقيب labeling Theory يفسر إيركسون السلوك المنحرف على أنه التماهي مع حالة شاذة Identification with Deviance-Status، التي يتم وصمها من الأشخاص والمؤسسات الأقوى. وبصورة مشابهة لأيشهورن Aichhorn أو بيتلهايم Bettelheim أو تسوليغر Zulliger أو غلوفر Glover يحذر وبالذات مع الجانحين الجدد من الشبان من ممارسة العقاب بدلاً من الفهم العلم نفس أعماقي[ii]. ويشعر المرء الالتزام الأخلاقي العالي لإيركسون بضحايا عمليات العزل الاجتماعي، على الرغم من أنه هو نفسه يستخدم مصطلحات تبخيسية (الهوية «السلبية» و «الإيجابية»)، يقود بسهولة لسوء الفهم.

6.2 مذهب الأحلام عند إيركسون

يرى إيركسون أن اللاشعور لا يتجلى في مكان بصورة أوضح من الصورة التي يتجلى فيها عندما نتخلى عن رقابة وعينا ونرى أنفسنا نواجه ونحن نائمين تسلسلاً من الصور الغامضة: «الأحلام والحالات الشبيهة بالحلم تكشف عند تحليلها دائماً خبرات الماضي التي لا تحصى، المنتظرة وراء بابا الشعور، للاختلاط بالانطباعات الراهنة» (1975 «أ» صفحة 129). لقد كان إنجاز فرويد الفريد أنه بالنظر للتبخيسات غير

النفسية كلية للحلم في عصره أن أخذه علمياً على محمل الجد واكتشف في تفسيره «الطريق الملكي إلى اللاشعور via regia to un consciousness». والأحلام بالنسبة لفرويد هي ما يشبه صمام الأمان لرغبات الدافع المحرمة وهيجانات اللاشعور، «لأفكار الحلم الكامنة»، التي تتلبس في «عمل حلم» الأنا في سلسلة من الصور شديدة الرمزية، «لأفكار الحلم الظاهرة». وبما أنه يتم في الحلم تصريف التوترات المكبوتة، من دون أن يستيقظ النائم، فإن الحلم يصبح وكأنه «حارس النوم»[1].

تبنى إيركسون مذهب الأحلام التحليلي النفسي التقليدي، غير أنه طور فهماً مفصلاً للحلم وتقنية تفسير موسعة[iii]. فكل حلم بالنسبة له هو ارتباط معقد من مواقف الحياة الراهنة للحالم مع مراحل من النمو غالباً ما تكون غائرة في القدم. ودائماً تمس مشكلات وخيبات الحياة اليومية ما هو غير متمثل من ماضينا النفسي. فحزن الأم التي عليها أن تترك ابنها الباكي في الحضانة، يتقوى من خلال خبراتها الطفولية المتعلقة بالترك. وفي التكدر من ملاحظة نقدية للمدير يختلط الغضب الطفولي على الأب المتسلط في الزمن الماضي. والمرأة المتوترة باستمرار بعد دعوة ما، لأن دائرة معارف زوجها تذكرها باستمرار بأنها لم تدرس. ونشرة الأخبار في التلفزيون تستثير لدى رجل كبير في السن خبرات الحرب المهولة. كل ما يقلقنا عبر اليوم ويهزنا، يتم نسجه في أثناء اليوم إلى شبكة غامضة، ومع ذلك غنية بالمعاني من صور الأحلام. والحلم يعني بالنسبة لإيركسون، «العودة إلى مقاطع مختارة من ماضينا الشخصي و(كما يقول كثير من الناس) المهجور، من أجل رؤية صور معينة مرة أخرى....، التي ترمز في اليوم السابق للشك الموقَظ وتستثير الماضي» (1975 «ب»، صفحة 39). وفي عمل الحلم يتم إكساب المشكلات المتراكمة حلاً رمزياً. ويستيقظ الحالم بعد أن يكون قد «نام على» الأمور، في مزاج مختلف. فتخف حدة مشاعر القلق أو الغضب أو الذنب، ويخمد الارتباك ليلاً، ويستطيع الحالم أن يقوم بمتطلبات اليوم التالي بصورة مقواة. الأحلام هي جزء من

---

(1) لمزيد من الاطلاع راجع: الأحلام بين الحقيقة والخيال. ترجمة سامر جميل رضوان.

المساعي التوليفية للأنا للحفاظ على مشاعر منسجمة للهوية أو إعادة بنائها في خضم أزمات وإرهاقات الحياة اليومية. ومن هنا فإن الحلم بالنسبة لإيركسون ليس مجرد تحقيق للرغبات فحسب، وإنما هو عموماً الأداة اللاشعورية الكبيرة لتمثل الصراع والخبرة. ومن المؤكد أن الأنا ينسحب في أثناء النوم، ويتخلى عن القدرة على الاستجابة العضلية والإدراك الحسي وحرية اتخاذ القرار للوعي الصاحي. ولكن ألا نمتلك الحق، كما يرى إيركسون، في وصف الأنا بالضعيف في أثناء النوم؟ ألا يصلح الأنا ويرمم نفسه تقريباً، بأن يحاول ليلاً إعادة بناء الكلانية النفسية والمبادرة؟

في سلسلة من الأمثلة حول حالات فردية قام إيركسون بمحاولة توسيع تفسير الحلم. فتوثيقات الحلم في المراجع التحليلية النفسية تتغاضى عن أن الأحلام هي بالأصل صور مترافقة بحالات مشاعرية والمُحَللون (الذي يتم تحليله) بإعادة رواية الحلم بطرية مختلفة جداً على الأغلب بناء جداً على ذخيرتهم اللغوية وذكائهم. كما أن وصف المريض يستثير في المحلل صوراً مشحونة بالمشاعر أيضاً، تكون قليلة القابلية للتوصيل المباشر كالحلم نفسه. وفي الواقع فإنه لا يجوز فهم الأحلام على شكل نصوص كتابية. ويتعلق الأمر في تفسير الحلم بالرؤية المشتركة لعوالم الصور الداخلية. ويؤكد إيركسون على مدى أهمية الإحساس بالحلم حتى أدق تفاصيله البصرية، من أجل تعلم الفن العالي لتفسير الأحلام. فإذا ما تم تدريب المتدربين بشدة مباشرة على استقصاء الرموز المعيارية والتسرع بإعطاء تفسيرات، فإنه يمكن أن يقود الأمر بسهولة إلى سوء فهم للمريض. وعلى المحلل النفسي حسب إيركسون أن يتغلب على درجة من التهيب، في أن يتلقى بداية كم من صور الأحلام الظاهرة وعدم التسرع بالرغبة في إقحام الطبقات اللاشعورية: «كالتنقيب الجيد عن الألغام علينا أن نكون ضالعين بصورة جدية بمساحة سطح الأرض الجيولوجية مثل معرفتنا بالطبقات التي تقودنا في داخلنا» (1954، صفحة، 570). وهناك فروق بين فردية عالية، في الكيفية التي يرتب فيها الأنا الحلم في النوم. ما هي درجة وضوح الحلم، ما هي الرموز التي يستخدمها الأنا لحجب أفكار الحلم الكامنة، ما هي الأماكن أو الأشخاص أو الذكريات التي تتجلى في صور

الحلم؟ هل يتم الحلم بمراحل طويلة مرتبطة ببعضها أم تتكاثف مشاهد مختلفة في تسلسل مشتت؟

ولا يمثل الحلم الظاهر[1] بالنسبة لإيركسون مجرد واجهة أو خديعة بأي شكل من الأشكال، قشرة غير مفيدة على المرء كسرها، للوصول إلى لبها الكامن بأسرع وقت ممكن. فحتى أسلوب العرض يكشف الكثير من مستوى الأنا عند الحالم، وآليات دفاعه وشعوره بالمكان-والزمان، ومخاوفه وقوة الهو والأنا الأعلى. بالإضافة إلى ذلك، يفترض إيركسون أنه حتى في الحلم الظاهر توجد دلائل على مشكلات الحياة الراهنة والصراعات الطفولية والنزوعات الدافعية المشتبكة معها عند المريض، وأحياناً متخفية بصورة مباشرة كلية، غالباً خلف التلميحات. وعند النظر الدقيق تذوب إذاً المسافة بين الحلم الظاهر والحلم الكامن، في متصل معقد من الصفات الكامنة والظاهرة، وفي كثير من الحالات يمكن استخلاص من تقرير الحلم الظاهر استنتاجات عن الإشكالات الجوهرية للمريض. يضاف إلى ذلك يكشف أسلوك الحلم عن الكثير من بنية الشخصية للمريض. هل يمتلك أنا عاملة بصورة جيدة إلى حد ما ويعاني من صراعات عصابية؟ أم أنه تظهر في وصوفات الحلم إشارات على قصور الأنا، من نحو آليات الانقسام

(1) رأى فرويد أن لكل حلم معنى. إلا أن هذا المعنى لا يفصح عن نفسه بصورة مباشرة، بحيث تبدو أحلامنا غريبة وغامضة وغير مفهومة. وهذه الغرابة التي تلازم أحلامنا هي نتيجة التشويهات التي حصلت لمعناه الأصلي. وقد استطاع فرويد تطوير تقنية يمكن من خلالها التوصل من خلال الحلم الذي نتذكره بعد الصحو، والذي أطلق فرويد عليه تسمية «محتوى الحلم الظاهر» التوصل إلى معناه المتخفي أي «أفكار الحلم الكامنة».

وأفكار الحلم الكامنة عبارة عن رغبات لاشعورية لاتسمح لها «رقابة الحلم» بالوصول إلى الشعور لأنها كذلك.

ومن أجل التمكن من المرور عبر الرقابة لابد من تحريف أفكار الحلم الكامنة. وهو ما يقوم بتأمينه «عمل الحلم». فعمل الحلم وظيفته تكثيف التصورات المتعددة إلى تصور واحد، أو إزاحة أو تحريف أو أبراز ناحية ما في ناحية أخرى، كما أنه يستعين بالرموز. وفرويد لم يهتم بالحلم كما نحلمه أي «بالحلم الحقيقي» وإنما اهتم بالحلم كما نتذكره بعد الاستيقاظ. ومحتوى الحلم الظاهر أو الحلم الحقيقي هما ظاهرتان شعوريتان، أما عمل الحلم فهو ظاهرة لاشعورية. وقد أطلق فرويد على الآلية التي تقودنا من محتوى الحلم الظاهر إلى المعنى المتخفي للحلم إلى أفكار الحلم الكامنة «تفسير الأحلام». وتفسير الأحلام هو العملية المعاكسة لعمل الحلم تماماً. فإذا عرف الإنسان آلية عمل الحلم يكون كل حلم قابلاً للتفسير.

البدائية أو المخاوف الشديدة أم النزوعات الدافعية غير الموجهة، بالشكل الذي يمكنها فيه أن تعطي دلالات على اضطرابات حدودية أو ذهانات؟.

ويقترح إيركسون تصويرة متعددة العناصر في عمل التفسير من أجل تحليل شامل قدر الإمكان للحلم. ففي الخطوة الأولى على المحلل النفسي محاولة الإحساس بعمق كبير قدر الإمكان بوصف حلم مريضه. وكوسيلة مساعدة ينصح إيركسون تصنيف مشاهد الحلم وفق مظاهر محددة، وفق ما يسمى «بالتشكيلات الظاهرة **manifest Configurations**»، أين، في أي محيط يدور الحلم، أي تبديل للمشاهد يظهر «التشكيلات المكانية»؟ ما هي أعضاء الحس المعنية. فبعض الأحلام ترى فقط، وأخرى تغلب عليها المثيرات السمعية وأحياناً حتى أحاسيس الشم والذوق «التشكيلات الحسية». عبر أي مدى زمني يمتد الحلم؟ هل يتعلق الأمر بمواقف من حاضر الحالم أم تم إيقاظ ذكريات من مراحل حياة مضت منذ زمن بعيد «التشكيلات الزمنية»؟ أيتحدث أشخاص الحلم بوضوح أم يتحدثون بلغة أجنبية؟ ما غموض، أو نكات أو تلاعب بالألفاظ يمكن أن يكمن خلف عبارات معينة «التشكيلات اللفظية»، أيشعر المرء في الحلم بجسده هو، من نحو الألم أو الأمراض أو التشوهات «التشكيلات التشريحية»؟ ما هي الوقائع الاجتماعية التي يرويها الحلم؟ من هو الحالم، ما هي شخصيات الحلم التي تظهر «التشكيلات البين إنسانية»؟ هل يستند الأشخاص في الحلم إلى الخبرات الاجتماعية الواقعية أم أن الأمر يتعلق بإسقاطات الحالم؟ أترمز على سبيل المثال شخصية معلم تظهر في الحلم مهددة إلى أب الطفولة الصارم، أم يتم هنا تجسيد الأجزاء العدوانية والسادية للحالم؟

وكل هذه التشكيلات الظاهرة، التي عالجها إيركسون بدقة مثيرة للإعجاب في إعادة تفسيره لحلم إيرما **Irma-Dream**، تظهر في كل حلم وبشدة مختلفة، إلا أنه يمكنها أيضاً أن لا تظهر كلية. ومن المؤكد أنه من غير الممكن فهمها بشكل كامل ووافٍ. ومع ذلك تساعد هذه المتغيرات المعالج النفسي، على تدريب انتباهه للتنوع الكبير لحياة الحلم الظاهر.

وفي خطوة أخرى من التفسير يطرح المحلل النفسي الارتباط التدريجي بمادة الحلم

الكامنة. ففي «انتباه يتموج بحرية» يحاول الانتباه على المواضيع المتكررة باستمرار، أو الانفعالات الخاصة أو أنماط السلوك الملفتة للنظر عند المريض وإيجاد القاسم المشترك فيما بينها. وأفضل موجه هنا هي التداعيات الحرة للمتعالج حول رموز الحلم المنفردة، التي تتشكل بالتدريج في مجموعة من بعض المواضيع القليلة.

فإذا ما بنى المحلل النفسي فرضية حول المعنى اللاشعوري «المادة» مريضه، فإنه يحاول، أن يصوغ تفسيره بكلمات، ينبغي لها حسب إيركسون أن تشمل موضوعاً موحداً، «يمس في الوقت نفسه سمة سائدة في علاقة المريض بالمعالج وجزءاً مهماً من بناء رمزه وصراع طفولة مهم وحقائق مطابقة لعمله وحياة حبه» (1966، «ب»، صفحة 65). والتفسير يعني منح اللاشعوري مدخلاً إلى الشعور، ليستخلص المريض معنى خلف رموزه وخواطره وهواماته الغامضة. ويستند التفسير على النقاط الغامضة حتى ذلك الوقت في الحياة النفسية للمريض، من نحو عدم اليقين ثنائي الجنسية bisexual لشاب الكامن خلف اضطرابات العمل لديه على سبيل المثال، أو الخوف من اجتياف introjection مهدد للأم كمثير لاشعوري لنوبات الربو عند مريض انتحاري، أو هوامات الحمل الكامنة خلف السمنة عند فتاة شابة، أو مخاوف الإخصاء والهزيمة لشاب تجعله يخاف من الاتصال الحميم بالمرأة. ولا يتعلق الأمر بأي شكل من الأشكال في عمل التفسير بفك رموز المشكلات الجنسية المكبوتة. ففي كل عرض عيادي ترتبط الصراعات الدافعية اللاشعورية مع المخاوف الاجتماعية النفسية ومشكلات الهوية وحسب إيركسون فإنه من «غير المجدي استخدام الرمزية الجنسية بصورة قطعية dogmatic، إذا ما ظهرت في المادة المطابقة بشكل مُقنِع حاجات بين إنسانية حادة بوصفها سائدة» (1966 «أ» صفحة 63).

وبعد التفسير تأتي أخيراً إعادة البناء، القياس من صراعات الطفولة غير المحلولة على صعوبات الحياة الراهنة. فيعرف المريض مدى قوة إسقاطه المواضيع غير المحلولة في طفولته في الصعوبات الراهنة ومن ثم يقدر المواقف بصورة غير مناسبة. وربما لا تتخرج طالبة ما من كليتها لأنها لاشعورياً تخاف من أن تتفوق على أمها ومن ثم تصبح

امرأة جذابة بالنسبة للأب. وتتضح لرجل يعاني من مشكلة العلاقة المزمنة، مدى قوة الخنق اللاشعوري على النساء الذي يقف في طريق الاتصالات الباعثة على الرضا.

أعاد فرويد تفسير مجموعة من أحلام فرويد ولم يهتم في هذا بهزل بعض المحللين الآخرين، في الولوج إلى أجزاء مازالت طفولية ولاشعورية من شخصية فرويد، من أجل اكتشاف شيء ما ربما، يكون فرويد قد أغفله. وإنما يريد إيركسون ربط أحلام فرويد بصعوبات الحياة في وقت حلم الحالم، على سبيل المثال قلق فرويد على مكانته العلمية، وانشغاله على أسرته التي تكبر، والأذى فينا يتعلق بأصله اليهودي أو الخلافات بالرأي في داخل حركة التحليل النفسي. وسوف نقدم هنا مثالاً من تفسير إيركسون لحلم فرويد المسمى «حلم آلهة القدر[1] Parzen-Dream» بصورة مختصرة: يقول نص الحلم: أذهب إلى المطبخ، لأحضر وجبة طعام. هناك تقف ثلاث نساء، أحداهن صاحبة المطعم، وتدوّر شيئاً ما في يدها، وكأنها تصنع الكفتة. فتجيب بأنه علي الانتظار، إلى أن تنتهي. أصبح غير صبور، وأذهب. وعلى ما يبدو فإن كان القسم الثاني من حلم فرويد لم يظل في الذاكرة بشكل مفصل، وتداعياته حول هذا كانت أقل. فهنا يظهر رجل وحيد. وبعد تبادل قصير للحديث يصبح الغريب والحالم «ودودان كلية مع بعضيهما» - وهو ما أنهى الحلم.

يشير الحلم في تجليه الظاهر إلى المرحلة الفمية وما يرتبط بذلك من رغبات وخيبات: إذ أن الحالم يشكو من الجوع على ما يبدو، ومكان الحدث هو المطبخ، الذي يتم فيه تحضير الطعام. أما جمهور الحلم فيتألف من النساء فقط، إحداهن - صاحبة

(1) Parzen: (parcae)، حسب الميثولوجيا الرومانية آلهات القدر (أو المصير الإنساني) الثلاثة. ويمكنها أن تعمل معاً أو تتصرف كل واحدة لوحدها. وتتحكم هذه الآلهة بمصير الإنسان منذ الولادة وحتى نهاية الحياة. وإحدى هذه الآلهات تحيك خيوط قدر الإنسان والثانية تقيسها الخيوط والثالثة تقطعها نهائياً. ويقابلها في الأساطير اليونانية مويري Moirae. وهن نونا Nona التي تغزل خيوط الحياة ويقابلها في اليونانية كلوثو Clotho وديثسوما أو ديثسيا Decima or Decuma التي تقيس الخيوط ويقابلها في اليونانية Lachesis، ومورتا Morta التي تقطع الخيط نهائياً. وهي عندما تقص خيطاً ما يموت شخص على الأرض. ويقابلها في اليونانية أتروبوس Atropos.

المطعم- تحضر الطعام ومن ثم فهي ترمز على ما يبدو «اللأم الطيبة» في زمن الرضاعة. ويتجه الحالم نحو هذه المرأة بالنظام الفموي المطالب، إلا أنه يطلب منه الانتظار. وهذا التسويف للدافع يعبر عن التوتر الباكر للمرحلة الفمية والصراع بين الأمل والإشباع والشك، بأنه قد تبرهن الأم عن أنها غير موثوقة وتتركه للألم الواخز لمعدته الفارغة. وعلى ما يبدو فإن الحالم يفضل الشك المدروس تجاه الثقة غير المؤكدة. إنه لا يريد الانتظار أطول ويغادر المشهد.

إلا أنه في النهاية لا يقع الحالم في وضعية اليأس مع كل العواقب الممكنة للإمراضية الفمية (الاكتئاب، الهذيان، الإدمان)، وإنما يبدو أنه يواجه الإساءة بمصادر مساعدة لأنا شغال بصورة جدية. فبعد أن خيبته النساء، قابل رجلاً وعقد معه علاقة طيبة. وقد ظهرت في تداعيات فرويد حول شخص الحلم هذا ذكريات مختلفة بشخصية الأب وطقوس الدخول الاحتفالية في حياته. وكل خواطر فرويد فيما يتعلق بهؤلاء الرجال تتمركز في النهاية عند معلميه في معهد فينا الفيزيولوجي. وحسب إيركسون يتجلى هنا تصعيد الشره الفموي. فقد كان فطاحل أيام دراسته، هم أولئك الذين أطفئوا «ظمأ المعرفة» لدى فرويد. والمعرفة التي توحي بها تلك السلطات الذكورية، تسهم في صيرورة عدم التعلق والاستقلالية.

فالخيبة لم تقد إذاً إلى نكوص فموي، وإنما إلى مواجهة، تقدم نهائي، تقوية الأنا. ويبدو بأن فرويد نفسه مقتنع، بأنه من غير الملائم في مواقف الصراع الانتظار بحسرة، والنكوص إلى تعلق والاعتماد على دعم نساء غير موثوقات. لم يكن اليأس قادراً على الإطلاق إيقاف فرويد طويلاً، حتى عندما وقف لوحده في أزماته وانكساراته الشديدة لمسيرته العلمية. كانت هناك شوكة داخلية تحفزه لمواصلة معارفه العلمية. وكان السعي للحصول على اعتراف السلطات العلمية الكبيرة في حياة فرويد أكثر أهمية من حب النساء.

كان تفسير الحلم منذ البداية جزءاً من المساعي التأويلية hermeneutic للتحليل النفسي، للولوج في المجالات العميقة من النفس، التي لم تعد ممكنة بالطرق العلمية

الطبيعية. وقد رفض علماء النفس التجريبيين تفسير الحلم كأسلوب عشوائي-ذاتي وحتى اليوم فإن أطروحة فرويد بأنه للحلم هيكل وبناء ومعنى غير قابلة للبرهان. وكإنسان بصري ومحب للجمال بدا إيركسون مسحوراً بصورة خاصة بعالم صور الحلم. ومن خلال موهبته الفنية استطاع الإحساس بأدق تفاصيل الحلم، وعرف بحذاقة بسحب كم من الخيوط المفاجئة بين رمزية الحلم وصراعات الحياة وأعراض المريض وعلاقة نقله بالمحلل. ومن خلال محاولة إيركسون فهم الكم الكامل للحلم الظاهر، بدت تفسيراته للأحلام أكثر ألوانا وأكثر غنى، إلا أنه في بعض الأماكن كانت أكثر تأملاً وجرأة مما هو الحال في المراجع التحليلية النفسية الأخرى. وبالنسبة للقارئ المهتم بالتحليل النفسي فإن روايات الأحلام عند إيركسون هي متعة ذهنية وفنية. أما من ينظر للأحلام على أنها تسلسل من الانطباعات التي لا معنى لها مستثارة من خلال النشاطات العشوائية للدماغ، فحتى تفسيرات الأحلام عند إيركسون تكاد لن تقنعه بشيء آخر.

من المؤكد أن الإنسان سرعان ما سيصبح مريضاً وذهانياً من دون التهديم اللاشعوري للتوتر في النوم. ولكن فيما إذا كان كل حلم قادراً بهذه السرعة على إعادة بناء العافية والمبادرة، بالشكل الذي يبدو في بعض الأحيان في صياغات إيركسون المتفائلة، فهو أمر مشكوك فيه. فكيف هو الأمر في حال وجود أزمات طويلة الأمد أو حالات الاكتئاب المتصاعدة بالتدريج؟ وكيف يصنف إيركسون أحلام القلق والكوابيس؟

يرجع الفضل لإيركسون بأنه قد منح سطح الحلم «عمقاً جديداً». وبصورة مشابهة كثير من ممثلي علم نفس الأنا فقد دافع عن أنه لابد بداية من إدراك حدث الحلم الظاهر، الذي يكشف الكثير عن حالة أنا الحالم وصراعاته الكامنة. ومن ناحية أخرى قلما يعرف المرء في وصوفاته للحلم أين ينتهي الحلم الظاهر وتبدأ الفكرة الكامنة. من المؤكد أن أسلوب إيركسون في التفسير ساحر، إلا أنه ليس ممكناً إلى حد ما في هذه الدقة التفصيلية إلا في سيمينارات الحلم التحليلية النفسية. فكثير من الأحلام هي

تسلسل مشتت من الصور، قلما تكون قابلة للتذكر بصورة كاملة، ناهيك عن كونها قابلة للتشريح الأدق في تشكيلاتها. وفيما إذا كان تحليل الحلم التفصيلي بالشكل الذي يتخيله إيركسون، ممكناً في الممارسة اليومية - والتي تتطلب في كل الأحوال درجة عالية من الانتباه والتعاطف-، فهذا مشكوك فيه.

6.3 اللعب كرسالة للاشعور الطفلي

يعد اللعب بالنسبة لإيركسون هو الآلية الرئيسية لإعادة بناء التوازن النفسي في حياة الطفل. لقد تم تأهيل إيركسون في فينا في سيمنار المحللة النفسية للأطفال المشهورة آنا فرويد. ولاحقاً أيضاً ظل الاهتمام باللعب دائماً جزءاً أساسياً من عمله العلمي والعلاجي(IV). ويتذكر إيركسون: «بالنسبة لفرويد كان الحلم هو الطريق الملكي إلى أعماق الحياة النفسية. أما بالنسبة لي فقد كان لعب الأطفال هو الطريق الملكي لفهم الصراعات وانتصارات الإنسان المترعرع ومواجهاته التي يتكرر تجددها مع الماضي وقيادته الخلاقة لنفسه في لحظات لعبية صادقة» (1982 «ب»، صفحة 39-40).

ويتجاوز اللعب تقييدات الواقع اليومي، ويعبر عن الحاجة الأساسية للإنسان لتجريب قواه ومهاراته وللمتعة والمعاشرة. ويرى إيركسون أنه في اللحظات السعيدة من نسيان الذات اللعبي يمكن للمرء أن يجد المعبر لجوانبه غير المعاشة المكبوتة، يكون الأنا قادراً على «أن يشعر أنه متفوق على قيود المكان والزمان ونهائية الواقع الاجتماعية.... - متحرراً من قهر الضمير ومتحرراً من الدوافع اللامنطقية» (1982 «أ»، صفحة 209). في التعبير اللعبي العفوي عن الذات تتضح درجة تأييد الذات والانسجام الداخلي، ومن النادر أن تتجلى خصوصية الشخصية بصورة أكثر أصالة مما هو الأمر فيه هناك، حيث يراقبها المرء أثناء اللعب. والناس غير القادرين على اللعب يشعون حسب إيركسون عدم حيوية فريدة، حتى لدى الطفل الصغير يمكن لتخريب اللعب أن يكون علامة على الانحراف العصابي.

وعلى ما يبدو يوجد لدى الأطفال ميل طبيعي للعب المشترك، يؤسس في وقت

مبكر لروح الجماعة، ويساعد في تهديم الشك والأحكام المسبقة. وربما يكمن في اللعب أو المباريات الرياضية، كما ترى رؤية إيركسون المثالية، مستقبلاً الحل الإنساني للصراعات الاجتماعية المتحرر من التبخيس المتبادل والاستعدادات الكامنة للعنف للمواجهات السياسية المعتادة.

إلا أنه أيضاً يتم استغلال متعة اللعب والتجريب من نحو تمثيل ولعب أدوار السياسية الحديثة على سبيل المثال، بطريقة خداعة لأغراض تهديمية جداً: «يمكن للعب أن يتحول إلى مغامرة خطيرة بدرجة ضخمة، ولعب لعبته الخاصة، يمكن أن يعني، أذى الآخرين» (1988، صفحة 66).

لا يمكن أن يتم وصف اللعب بشكل جيد وضغطه في نظريات علمية. وعلى الرغم من أنه يخضع بشدة لقواعد، إلا أنه يظل غير قابل للتنبؤ، متلوناً ومفاجئاً. ولا توجد لحظة لعبية تشبه الأخرى، وبطريقته الأفعوانية يمتنع اللعب عن أي تعريف. ويعتقد إيركسون أنه يوجد في العتاد الوراثي الإنساني دافع طبيعي للعب، يتفتح في انسجام مع أشكال النمو الأخرى للشخصية، إلا أنه لا يمكن إرجاعه كلية إليها. ويفرق هنا بين ثلاثة أطوار نمو مميزة: في «المجال الآلي autosphere» للعب في أثناء السنتين الأوليتين من الحياة يستقصي الطفل من خلال الحركات اللعبية أعضاء جسمه ويتمرن على مجريات الحركات النمطية. والمقصود هنا حركات المسك والدفع ليديه ورجليه، وتخبيط الرجلين وتلمس المناطق الجسدية المختلفة. يعقب ذلك «المجال الدقيق microsphere» للعب منذ بداية السنة الثالثة من العمر، حيث يبني الأطفال عالمهم الخاص بقطع الخشب والأشياء. وغارقين كلية في اللعب يبنون بيوتاً أو أبراجاً أو قلاعاً أو مزارع، يجمعون هنا مشاهد من الناس والحيوانات، يجعلون الأشكال تتعاون أو تتصارع مع بعضها، مرحلة مهمة لروح الاختراع والخيال. بعد ذلك تأتي في سن الروضة مرحلة «المجال الكبير macrosphere». وما يميز هذه السن هو المتعة الكبيرة في التنكر وتقليد أدوار من حياة الراشدين. وهنا يلعب الصبيان والبنات للمرة الأولى مع بعضهم بصورة مشتركة، حيث يتم التمرن من خلال ذلك على السلوك

الاجتماعي في حل المشكلات والتضامن الجماعي. وعن ذلك يتطور في سن المدرسة قواعد مطردة الرسمية formalize ، وبشكل خاص المباريات الرياضية، حيث يتم التوليف بين أهداف عدوانية مع قوانين الروح الرياضية. وأخيراً يرى إيركسون أن النمو اللعبي التخلقي المتعاقب epigencsist يستقر في عمل الطفل، أي التعلم.

وغالبية الراشدين الحديثين ضيعوا القدرة ، كما يرى إيركسون، على التمكن من اللعب صافي القلب. فغالباً ما لم يعد المرء يشعر بأي نزعة عفوية للعب، وعليه أن يجبر نفسه، على الخروج من عالم مليء بالحمى hectic والتخلي عن الواجبات. وغالباً ما يرتبط لعب الراشدين بقضايا المنافسة الهيبة prestige اللاشعورية، على الرغم من أنه على المرء أن يسأل، فيما إذا ما كنا لا نلاحظ ذلك في بعض المواضع لدى الأطفال واليافعين. فمن أجل التمكن على احتمال tolerance متعة عفوية اللعب الطفولي وربما قمع حاجاتنا اللاشعورية الخاصة بعد اللعب، فإن الراشدين يميلون حسب إيركسون إلى عزل لعب الطفل عن عالم العمل، وصفه بأنه «لا عمل» أو «شكل طفولي من العمل» أو ببساطة «طيش». ولنظريات اللعب في علم النفس الحديث وظيفة مشابهة أيضاً، التي تمس مظاهر جزئية ولكنها لا يمكنها أن تفهم كل اللعب. واللعب بالنسبة لإيركسون هو أكثر من مجرد تمرين للمهارات الوظيفية، تنفيس لقوى فائضة أو غطاء رمزي للصراعات اللاشعورية. وكل ما يشغل الطفل في اللحظة الراهنة، من قوى نهائية جديدة ومطالب نهائية وأحلام بالعظمة والقوى وخيبات مع الوالدين أو الأتراب وكذلك صراعات غير محلولة من مراحل النمو السابقة، يمكن أن تظهر في اللعب. وبصورة مشابهة للراشد الذي يحاول مواجهة المشكلات من خلال التدبر والتجريب، يصنع الطفل في الغالب لنفسه «مواقف نموذج Model Situation» من أجل تعلم تجنب الصعوبات وتهديم المخاوف والسيطرة على الواقع.

ومن المؤكد أنه لا يوجد خلاف حول أن اللعب كما يفترض علماء نفس النمو، يكون بداية في خدمة النمو الطفلي. فكل القدرات المعرفية والحركية، المشي أو الكلام أو الرسم أو الغناء، يتم التمرن عليها واستكمالها في السنوات الأولى من الحياة بطريقة لعبية.

ومثلما يكون التسلق عند الكبار أو قيادة الدحروجة أو لعب الكرة صعب ومنهك. وغالباً ما يشعر المرء بأنه صغير وغير ماهر، ويؤذي نفسه أو يسخر منه الكبار. إلا أنه في المجال الصغير للعب يمكن للأطفال التغلب على الخيبات وتهديم الهوة مع الراشدين الجبارين. فالمرء يجعل البرج يهوي، إلا أنه ينسى أنه مازال واقفاً على رجلين غير مستقرتين. ويمكن للمرء معاقبة لعبة بالنيابة عن الأب الشرير أو أن يضع الدمية في الزاوية بلا اهتمام، بالشكل الذي ترك فيه مرة لوحده. ولاحقاً في المجال الكبير للعب يبدأ الأطفال تخيل أنفسهم في مثل عليا يحبونها وأدوار اجتماعية من عالم الراشدين. ويتعرفون هنا من خلال الصدى الاجتماعي للراشدين على مواهبهم ورغباتهم ونقاط ضعفهم ويصوغون بطريقة لعبية تصوراتهم عن ذاتهم. ويقول إيركسون أن «اللعب هو وظيفة الأنا، محاولة للتوفيق بين العمليات الجسدية والاجتماعية والذات» (1982 «أ»، صفحة 206). ويتمحور التركيز هنا على حاجة الأنا، «للسيطرة على مجالات الحياة المختلفة – وبشكل خاص على تلك المجالات ما يزال فيها الفرد نفسه، جسده، دوره الاجتماعي، غير مكتملة، لا يعيشها بعد على مستوى ارتفاع تصوراته الخاصة» (1982 «أ»، صفحة 206).

ومع ذلك لا يتعلق الأمر في اللعب دائماً بمتعة الوظيفة الخالصة function enjoyment أو تنفيس التوتر الزائد. فبشكل لاشعوري يخلق الأطفال في كثير من مشاهد اللعب مواقف، تكون كل شيء عدا عن كونها ممتعة، تظهر المخاوف والحيرة الذاتية الكامنة والصراعات غير المحلولة. وقد أثبتت الملاحظة المنهجية للعب بالنسبة لإيركسون بأنها «الطريق الملكي» للاشعور الطفلي.

ويمكن للمعالج إقامة اتصال لعبي بالطفل وتجاوز مقاوماته بصورة أكثر مباشرية مما هو الأمر من خلال التواصل الكلامي. كان إيركسون يقدم للصبيان والبنات انتقاء خاصاً من الأشكال الرمزية (كالوالدين، الأطفال، الشرطة، الحيوانات على سبيل المثال) وعدد من أحجار البناء الخشبية مع تعليمات لترتيبها على طاولة لعب ورواية قصة عفوية في أثناء ذلك. وعلى تركيبات الألعاب هذه يتم نقل الهوامات اللاشعورية؛ فالأطفال حسب إيركسون قادرون، «على التعبير في تشكيلات مكانية عما لا يستطيعون

قوله أو لا يتجرؤون على قوله» (1982 «أ»، صفحة 23). وبالفعل من النادر أن تم إعادة بناء أية قصص من التلفزيون أو الكتب المصورة. فكل ترتيبات اللعب Play arrangement أظهرت عند التحليل الدقيق علاقات سيكوديناميكية مطمورة حول تاريخ حياة المعني، وتنافس بين الأخوة وغضب على الأم المهملة والمنافسة مع الأب المحسود والذكريات المشحونة بالخوف لنزاع بين الوالدين.

ومن الممكن لتعاقبات الألعاب Play Sequences الموجهة من الدوافع اللاشعورية أن تمثل بديلاً عن طريقة التداعي الحر في تحليل الراشدين. فحتى عدد قليل من ساعات ملاحظة اللعب تكفي بالنسبة للمعالج الخبير، من أجل فهم المشكلة المركزية للطفل المضطرب سلوكياً أو الخواف. فقد بنى طفل ملون على سبيل المثال مشهداً ضاحكاً تحت طاولة الفحص. لقد عرف «أين هو مكانه». وأمسكت فتاة صغيرة متوترة عدة أقلام رصاص في يدها، لتجعلها بعدئذ تسقط بحضور المعالج بصورة ملفتة للنظر بشدة. إنها تستعرض أعراض توسيخها، واحتفاظها المعاند والتخلي غير المسيطر عليه عن البراز faeces. وطفل في عمر الخامسة بنى متغيرات لا تحصى من الأحواض الطولية، وضع فيها شخصيات، كما ظهر لاحقاً، رموز للتوابيت. وبشكل مباشر أكثر من المحادثة ظهرت هنا مخاوفه غير المتمثلة حول موت الجدة.

وفي الواقع الكبير Macro Reality لأفراد الأسرة والأتراب غالباً ما ينزلق الطفل في صراعات، ويشعر أنه معاقب بدون حق، أو مظلوم أو متروكاً لوحده، حزيناً أو غاضباً. وفي الواقع المصغر Micro Reality لعالم اللعب يمكن إعادة تنظيم الخبرات المخبية والمخاوف. فهنا تسيطر قوانين مختلفة، هنا الطفل هو المُخرج الوحيد من دون أن يتم إرهابه أو أن ينزلق في تناقض مع الراشدين. فالصراعات المعاشة بصورة سلبية Passive يمكن أن يتم لعبها هنا من جديد بشكل فاعل. وشخصيات اللعب تلاءم بشكل رائع من أجل كل التماهيات أو الإسقاطات أو أشكال النقل الممكنة. فالإنسان نفسه ليس خائفاً وإنما الدمية، إنها شريرة أو متهورة. وعلى الأوغاد في اللعب بالدمى يتم إسقاط صور الوالدين «الشريرة». وعندما يتم ضرب التمساح أو السارق بلا رحمة، يمكن

للأطفال تنفيس العدوانية السرية بلا خطر وأن يتماهوا أنفسهم في حماس هوسي مع شخصيات المهرج. ويمكن تجهيز الدمية بصورة جميلة بالشكل الذي يجب المرء فيه أن يبدو؛ ويمكن للمرء أن يحبها بحرارة وعمق، بالشكل الذي يرغبه المرء من الوالدين. وغالباً ما تتجلى حسب إيركسون بصورة ملفتة، «بأن تشكل لعبة معينة الأسلوب الذي يفكر فيه الطفل حول الخبرات المؤلمة ويعيد بناء السيطرة على الوضع، بصورة مشابهة غالباً لما نعيد فيه نحن الكبار في أفكارنا ومحادثاتنا التي لا تنتهي وفي الأحلام النهارية والأحلام الليلية، الخبرات التي تتجاوز قوتنا» (1981 «أ»، صفحة 101-102).

«التفريغ باللعب» هو الشكل الطفولي «للتفريغ الكلامي» عند الراشدين إذا جاز التعبير. وعلى معالجي الأطفال استثارة هذه الميول الشافية للذات وأن يأخذوا دائماً بعين الاعتبار حدود التحمل عند مرضاهم الصغار. وقمة الفن في العلاج باللعب تكمن في تفسير الأفكار السرية للطفل في الوقت المناسب وبالشكل الصحيح، من دون استثارة مقاومة كبيرة. إذ أنه أحياناً يصطدم الأطفال أيضاً في المجال الدقيق بشيء ما خطير، الأمر الذي يمكنه أن يقود إلى قطع مفاجئ للعب ونكوص لحظي إلى المجال الآلي. وظواهر مثل مص الأصابع أو الأحلام النهارية أو الاستمناء onanism أو العدوانية الجامحة، والتي كثيراً ما تلاحظ في علاج الأطفال، تشير إلى أن موضوع انفجاري قد مس اللاشعور، مازال الأنا غير قادر على مواجهته. ويقول إيركسون: «ولكن إذا ما تم توجيه التطبيق الأول الموضوع بنجاح وبشكل صحيح، تترابط مع متعة السيطرة على قطع اللعب السيطرة أيضاً على الصراعات، التي يتم إسقاطها عليها، وأخيراً مشاعر الذات التي يتم اكتسابها هنا» (1981، صفحة 101).

وبمجرد أن يلاحظ الطفل بأن المعالج باللعب يستجيب بتفهم وتشجيع أكبر من أشخاصه المرجعيين، فإنه يستطيع بالتدريج السماح بخبرات وأنماط سلوك مستحوذة بالقلق بالظهور. ومن خلال تغيير التشكيلات الكونية الصغيرة micro cosmic Configurations لأدوات اللعب وما يرتبط بذلك من تنفيس للانفعالات العدوانية يكتسب الطفل غالباً القوة لتجريب طرق تكيف جديدة في الواقع الكبير. فاليافع الذي

ينازل المعالج في جولة ملاكمة ويفسح المجال لغضبه، لا يعود بحاجة لكبح مشاعره في مجالات أخرى من الحياة بصورة قهرية. وفي بعض الأحيان يختفي من خلال هذا على المدى البعيد أعراض الإمساك Constipation لدي. والفتاة مفرطة الخوف الناجحة في غرفة العلاج في اللعب أو تتنكر بشكل رائع، تظهر أيضاً في الروضة المزيد من الشجاعة والمبادرة. ومن هنا فإن اللعب بالنسبة لإيركسون ليس مجرد انسحاب إلى واقع-وهمي وإنما ربما يكون وسيلة نفسية جوهرية في حياة الطفل لتقوية الأنا وإعادة بناء مشاعر هوية سليمة.

قدم إيركسون في كتبه تفسيرات تفصيلية كثيرة للعب. وسوف نقوم هنا بتقديم مثال «رامي القنابل» من «الطفولة والمجتمع». ويتعلق الأمر بطفل يبلغ من العمر خمس سنوات من جيران إيركسون، أظهر في نهاية الحرب العالمية الثانية مجموعة من الشذوذات السلوكية غير المفهومة. ومن طفل مطيع لأمه انبثق ولد عنيد وعدواني مع ميول هوس الإحراق pyromania. كان الوالدان قد انفصلا قبل بداية الحرب بوقت قصير. وعبرت الأم عن خيبتها واستنكارها للأب أمام الطفل. وهذا يعني: حالة أنه كان ابناً لأم وحيدة، وأصبحت بالنسبة له عنصر هوية محدد، في حين قلما توفرت له إمكانات هوية ذكورية. وعلى العكس بل على العكس: ربطت الأم طفلها بشدة فيها ونمَّت لديه سلوكاً طفولياً أقرب للنكوصي. كان الأب طياراً حربياً واحتفل به بطلاً. وعندما حضر للبيت في إجازة قصيرة تصالحت الأم معه ثانية وتخلت عن مشاريع طلاقها. ومن سوء الأقدار أن أسقط الأب بعد وقت قصير لاحق فوق أراضي الأعداء.

وبصورة مسببة للهلع في محيطه بدأ الطفل لاحقاً بإشعال الحرائق في أماكن مختلفة. وقد رأى إيركسون هنا نوعاً من خاصية[1] اللعب idiosyncrasy: فقد أصبح الطفل في الخيال رامياً للقنابل يحرق المواقع المعادية كما هو الأب، الذي حكى له بصورة مثيرة عن طلعاته. ويتعلق الأمر على ما يبدو بتماه مفرط للابن مع أبيه لصد صراع أوديبي تأزم

(١) صفة أو خصوصية في البنية أو المزاج.

بصورة مفاجئة. ففي البداية عوض الطفل عن الأب المبخس في قيمته من الأم، بأن أصبح مختلفاً عنه: رخواً، متدللاً، طفلياً. إلا أنه فجأة ظهر الأب ثانية. ولم يكن سافلاً على الإطلاق، كما صورته الأم، وإنما بطلاً يتحمس له الجيران. وازداد تشتت الطفل عندما عادت الأم للأب. وبصورة متطرفة أزيل درع الطفل وتم تبخيس تماهيه الأنثوي. وفجأة تفجرت في الصبي عاصفة أوديبية من الخيبة والحسد والمنافسة. ومن ناحية أخرى شعر بالذنب بسبب عدوانيته تجاه أبيه، والتي تضاعفت بلا شك عندما مات الأب.

ومن أجل إنقاذ نفسه من أزمة كبيرة أعاد الطفل تصنيف تماهياته بصورة متطرفة. فتماهى مع الأب في الخيال ، ليقف إلى جانبه كنوع من «الرفقة» إذا جاز التعبير ومن ثم لصد منافسته السرية تجاهه من خلال ذلك. وفي الوقت نفسه توقع بشكل لاشعوري، أن يتم الإعجاب به من الأم في هوية البطل هذه، وبهذا لاسترداد المنطقة الضائعة لديها. ويفسر إيركسون: «ربما قدم دور قاذف القنابل لجاري الصغير توليفاً ممكناً للعناصر المختلفة التي تتألف منها هوية متبرعمة: فطبعه (عنيف)، وطور نضجه (حركية- قضيبية- إحليلية phallic-urethral-locomotoric) ومرحلته الجنسية النفسية (أوديبية Oedipus) ووضعه الاجتماعي وقدراته الذاتية (حركية- ميكانيكية)، وطبع والده (الذي كان أقرب إلى قاذف قنابل من ممثل agent) والمثل الأعلى التاريخي اللحظي (البطل المقاتل، العدواني)» (1982 «أ»، صفحة 234).

وبعد أن تم تجاوز مرحلة الاهتياج agitation الحرائقي لدى هذا الصبي سرعان ما شوهد يشق بدراجته بسرعة طرقات نازلة. كان يستمتع بمفاجئة أطفال آخرين ويبتعد عنهم بمهارة في آخر لحظة. وحسب الأصوات التي كان يطلقها فقد كان يعد نفسه طائرة حربية في أثناء الغارة. بالإضافة إلى ذلك كان يحدس anticipation في سلوكه هذا بافتخار كبير دوراً مستقبلياً في حياة الرشد. وفي الوقت نفسه، وبأن «حيد» نزوعاته العدوانية بطريقة لعبية، حسن من مهاراته الحركية: فقد تمرن على تجنب العدوان وأصبح بطلاً على الدراجة أعجب الجميع فيه.

وبالتحديد لأن إيركسون لم يفقد في نفسه أبداً الصلة بمتعة الإبداعية اللعبية، فإنه يعرف بشكل جيد، كيفية جعل جوهر اللعب كسلوك ممتع وغير هادف واضحاً، سيفقد مباشرة طبيعته اللعبية إذا ما قام المرء بتحليليه بشدة أو استغله لأغراضه الخاصة. ويقدم إيركسون عدداً كبيراً من التفسيرات والنصائح التقنية، ولابد من اعتباره إلى جانب آنا فرويد وميلاني كلاين واحداً من رواد العلاج التحليلي النفسي باللعب. فإيركسون هو معالج من صميم قلبه، قادر مباشرة على الإحساس بعالم الطفل والاتصال بطريقة لعبية بالطفل. ومن المؤكد لابد وأن يكون للملاحظ اللعب واضحاً بأن الاستنتاجات من السلوك الظاهر لطفل ما عن الصراعات اللاشعورية أو المخاوف أو العدوانيات هي مجرد تخمينات speculation، وغير متحررة أبداً من التعسف الذاتي. إلا أن إيركسون صاغ فرضياته حول اللعب بشكل خاص لأغراض علاجية ولم يعتبر نفسه باحثاً في علم النفس النمائي بالدرجة الأولى. وعلى الرغم من أنه يريد حماية اللعب من تحليل علمي شارح، إلا أنه طور في الواقع « علاجاً باللعب» نجد فيه عناصر من اتجاهات علم نفسية للعب. وبصورة مشابهة للحلم فإن اللعب بالنسبة لإيركسون هو أداة وقاية نفسية، تتغلب على الأشكال الطفولية بقوى نمائية جديدة وتأثيرات اجتماعية وصراعات ومهام نمائية. ومن خلال تأكيد إيركسون على حق التمكن من اللعب الخالي البال فإنه يريد أن يضع قوة مضادة لكل رؤى الحياة الخالية من الفرحة-المتزمتة. ومن ناحية أخرى يعبر لديه أيضاً دافع اللعب باطراد متزايد إلى مبادرة موجهة ويستقر في «عمل» الطفل، أي التعلم.

هوامش الفصل السادس:

(i) قارن حول هذا أيضاً Goffman,1967 أو Frey, 1987.

(ii) قارن Boellinger, 1979, Eschweiler,1979, Frey, 1987

(iii) طور إيركسون نظرية الحلم الخاصة به بشكل خاص في مقال:

Aufsatz "Das Traummuster der Psychoanalyse", in: Psyche 1954-55; in dem Unterkapitel "Biographisch II: Die Verwirrung kehrt zurück - Die allnächtliche Psychopathologie", in: "Jugend und Krise", 1981a, S. 204-215; im Abschnitt "Infantile und erwachsene Aktualität in Träumen", in: "Einsicht und Verantwortung", 1966a, S. 162-197; im Abschnitt "Der Traumschirm", in: "Kinderspiel und politische Phantasie", 1978b, S. 104-112. Siehe ferner Erikson und v. Scheidt, "Der unbekannte Freud: neue Interpretationen seiner Träume", 1987. Vgl. zum Thema Psychoanalyse des Traumes auch Grunert 1982, Klauber 1969 und Stuber 1983.

(iv) أنظر بشكل خاص فصل «الألعاب والأسباب» من «الطفولة والمجتمع» 1982 «أ»، صفحة 204-240؛ و «لعب الأطفال والخيال السياسي، مراحل نحو تطقيس الواقع»، 1978 «ب».

الفصل السابع

إسهامات إيركسون الأخلاقية والدينية

7.1 نموذج المراحل الثلاث لنمو الضمير

أصبح ربط التحليل النفسي بمواضيع أخلاقية وسياسية ودينية مميزاً باطراد لأعمال إيركسون. لقد حاول فرويد في البداية إبقاء المسائل العقائدية بعيدة عن التحليل النفسي، إلا أنه وبالنظر لمشاعر الذنب المدمرة لكثير من مرضاه بدأ بالاهتمام بظاهرة النمو الأخلاقي. ومن خلال مذهب الأنا الأعلى نادى برؤية جديدة حول نشوء الضمير، شككت بكثير من النظريات الغربية التقليدية. وطبقاً لذلك فإن الضمير ليس قائداً خيِّراً، مكان المثل الميتافيزيقية وإنما هو عبارة عن هيئة لاشعورية إلى مدى كبير ناشئ عن طريق التربية في الطفولة الباكرة. وبصرامة مطلقة يضع الأنا الأعلى بالنسبة لفرويد «المعيار الأخلاقي الصارم للأنا الخاضع له بلا حول ولا قوة» (الأعمال الكاملة، XV ، صفحة 67). وهو يعمل وفق قانون تاليون[1] Talion Principle البدائي

(1) مبدأ القصاص Loi du talion أو ما يسمى بشريعة المثل ، ليكون العقاب مماثلاً للجريمة كماً وكيفاً. فظهر ما نطلق عليه في لغتنا العامية «العين بالعين والسن بالسن» فالقاتل يقتل، والضارب يعاقب بالضرب، وشاهد الزور يقطع لسانه، والسارق تقطع يده وهكذا. وقد ظهر هذا المبدأ لدى غالبية الشعوب الشرقية القديمة وفي تشريعاتها، كشريعة بابل - وأشهرها قانون حورابي في القرن السابع عشر قبل الميلاد - والقانون الموسوي وقانون مانو الهندي في عام 1200 قبل الميلاد وكذلك في القانون الفرعوني القديم.

يقصد بمبدأ تاليون أو ius talionis القانون الذي يسعى من خلاله إلى التوازن بين الضرر الذي ألحقه الجاني بالمجني عليه والضرر الذي ينبغي أن يتم إلحاقه بالجاني. ويتألف مفهوم ius talionis من الكلمة اللاتينية ius «الحق» وtalio، القصاص، أو الإغريقي talios «التساوي» أو «التشابه». ويعد القانون التوراتي وقوانين أخرى مشابهة: العين بالعين والسن بالسن حالة خاصة من هذا القانون، حيث يتم إلحاق الأذى نفسه بالجاني الذي ألحقه بالضحية. وينبغي هنا التفريق بين قانون القصاص وبين العقوبة المقلوبة التي تقوم بالإضافة إلى موازنة

للاقتصاص ويمكن أن يستعبد الإنسان بقسوة عبر مشاعر الذنب وميول عقاب الذات. وكثير من الظواهر العيادية التي لم تكن حتى ذلك الوقت مفسرة، بدءاً من الكآبة المرضية ومروراً بأمراض القهر وانتهاء بهذيان المراقبة الفصامي يمكن تفسيرها من وجهة النظر التحليلية النفسية كنتيجة للنمو المفرط الصرامة للضمير.

وبالنسبة لإيركسون لا يوجد أي اهتمام بالأخلاق الإنسانية لا يمر عبر معارف فرويد. ففي الواقع يمكن للضمير أن يتحول إلى مرض خطير، أن يحطم الناس بشكل سوداوي، أن يجعلهم مستقبلين خانعين للأوامر أو متعصبين عميان. فباسم المثل العليا ترتكب بشكل متكرر أعمالاً وحشية لا يمكن تصورها. ومع ذلك يعتقد إيركسون أنه لا يمكن اشتقاق الضمير من الظواهر المرضية لوحدها. كما أن التصور بأن الفرد يتصرف اجتماعياً من خلال ضغط جهة عقاب لاشعورية فقط، هي رؤية أحادية الجانب. إذ يوجد أيضاً تصرف نابع من الحب والمشاركة الإنسانية، من مبادئ أخلاقية مستحسنة شعورياً. وما أطلق عليه فرويد الأنا الأعلى يعبر بالنسبة لإيركسون عن بدايات فطرية primitive لنمو الضمير لدى الطفل مثل المصادر البدائية للأخلاقية archaic[1] Moralityفي النمو الاجتماعي للإنسانية. فبالأصل خدم الخلق، يخمن إيركسون استناداً إلى داروين، لخدمة القبيلة فقط. فخرق الأعراف هدد التنظيم المشترك المبني بمشقة واستثار مخاوف قديمة archaic من التفكك. وطبقاً لذلك كانت التعاليم الأخلاقية حتى قرننا الراهن ومعاقبة متخطي المعايير مطلقة. ومن ناحية أخرى نلاحظ

الضرر الذي ألحقه الجاني بربط العقوبة بالعضو الذي تمت من خلاله تنفيذ الجريمة، من نحو قطع يد السارق.

وقد ظهر هذا المبدأ لدى غالبية الشعوب الشرقية القديمة وفي تشريعاتها ، كشريعة بابل - وأشهرها قانون حورابي في القرن السابع عشر قبل الميلاد - والقانون الموسوي وقانون مانو الهندي في عام 1200 قبل الميلاد وكذلك في القانون الفرعوني القديم

وقانون تاليون هو حالة فرعية من القصاص أو الانتقام، يتضمن أيضاً تلك الأضرار للجاني تتجاوز الضرر، وفي الوقت الراهن من الصعب التفريق بين العقوبة الشخصية، أي أن يكون من حق المجني عليه معاقبة الجاني، عن التعويض عن الضرر.

(1) مهجورة، أو قديمة.

في تاريخ الإنسانية السعي إلى استبدال إفراط الأخلاقية moralism القاسية - ولنتذكر هنا فظاظة طرق التعذيب والإعدام - من خلال المبادئ المنطقية والإنسانية، من نحو التشكيك بقانون تاليون في الأخلاق المسيحية Christian Ethic أو المطالبة بإلغاء التعذيب في فكر التنوير أو التجارب الحديثة إعادة التنشئة الاجتماعية Resocialization السجناء.

ومن هنا غالباً ما يريد إيركسون التمييز بين مفهومي[1] Moral وEthic اللذان يستخدمان في الغالب على أنهما مترادفان. فهو يرى أن التعاليم الأخلاقية morale Doctrine تنجم عن التهديدات في الطفولة المبكرة ويتم إتباعها نتيجة الخوف. والأخلاق Moral هي شيء مطلق categorical، محددة من الخارج. فالمرء يخضع نفسه لمبادئ صارمة وسلطات مقدسة، غير مشكوك بها. أما الأخلاق Ethic بالمقابل فهي تتطور حسب إيركسون من نضج شخصية الراشد، هي نتيجة الاستبصار الشعوري ويتم التعبير عنها في اتجاه متسامح، إنساني تجاه بعضهم: «فحتى الأشخاص على درجة عالية من الأخلاق morale يمكنهم أن يرتكبوا أعمالاً لا أخلاقية unethical، في حين يقود تورط إنسان أخلاقي ethical في تصرف غير أخلاقي unmorally من خلال ضرورة داخلية إلى مآسي» (1966 «أ»، صفحة 201). فكل فرد يحمل في داخله جوهراً أخلاقياً ethical Kernel، يمكن أن ينمو في حال توفر الظروف التربوية المناسبة إلى ضمير شخصي ناضج. ويميز إيركسون هنا ثلاث مراحل: أخلاق الطفل Moral of Infants وإيديولوجية الشاب Ideology of youth، وأخلاق الراشد Ethic of adult. وكل المراحل الثلاثة تنبني فوق بعضها البعض بصورة تخلقية متعاقبة epigenetic: إذ لا يمكن قلب أو تجاوز لمراحل المبكرة من تشكل الضمير، كما تظل أيضاً في ضمير الراشد أشكال طفولية من الأخلاق Moral[1].

---

(1) في العربية أيضاً يستخدمان بصورة مترادفة وأحياناً يستخدمان بمعنى الأخلاق وفي أحيان أخرى بمعنى التعاليم الأخلاقية أو مجموعة النظم الأخلاقية.

وحسب رؤية التحليل النفسي يبدأ التعلم الأخلاقي morale في عهد الرضاعة. فكثير من ممنوعات وعقوبات الوالدين يعيشها الطفل الصغير في تعلقيته على شكل صد وفقدان الحب ويربطها بمخاوف شديدة. ومن هنا فإن أول دمج للضمير في نهاية المرحلة الأوديبية بالنسبة لإيركسون مازال يمتلك شيئاً بدائياً: «يتم تمثل الأنا الأعلى كلية كشيء بدائي archaic وممثلاً لاشعورياً للميول الإنسانية المولودة لتطوير ضمير بدائي مطلق categorical. وبالارتباط مع الاجتياف introjection المبكر يظل الأنا الأعلى تنظيماً - داخلياً جامداً وانتقامياً، ومعاقباً- من الأخلاق (العمياء)» (1981 «ب»، صفحة 218). وطوال الحياة يظل الأنا الأعلى الطفولي مسؤولاً عن الجانب الأخلاقي فينا، يبخسنا في أطوار اتهام الذات بعنف أو يتهم الآخرين ويعاقب بالنيابة عن الأشياء التي لا نحبها في أنفسنا.

وفي النمو الموفق إلى حد ما يتم إثراء الأخلاق Moral الطفولية من خلال مثل عليا جديدة وخبرات ويتم جعلها نسبية باطراد من خلال التفكير الشعوري. وبناء على القدرات المتوفرة مؤخراً للتفكير الإجرائي يرى الشاب العالم في بدائله. ومتأثراً بالمعاناة والظلم وبحساسية شديد تجاه نفاق الراشدين، يمكن للمراهق في تحمسه الانفعالي للأفكار وللمثل العليا الإيديولوجية أن يظهر التزاماً مثيراً للدهشة. إلا أنه يميل من ناحية أخرى إلى المناداة بالأفكار السياسية والدينية بعدم تسامح وباستبداد غريب عن الحياة. ويصف إيركسون هذه المرحلة الثانية لتشكل الضمير بأنها مرحلة «إيديولوجية» ويقصد بهذا «نظاماً من الأفكار المسيطرة، التي تتحد بدرجات مختلفة من المنطق الاستبدادي وقناعات طوباوية، أكثر من الإدراك المعرفي أو الخبرة الذرائعية» (1982 «ب»، صفحة 213).

وبداية في سياق تشكل هوية الراشد تنبثق بالتدريج مرحلة[1] Moment من التبصر والإطار الواقعي في الأحكام والتصرفات الخاصة. والسمة الأساسية المميزة

(١) برهة تاريخية أو مرحلة في تطور الأحداث

للأخلاق Ethic الراشدة بالنسبة لإيركسون هي وضعية التبصر: فالإنسان لا يجعل نفسه عبداً للمبادئ ويمكنه التدبر بين الحين والآخرين بدوافعه الذاتية ودوافع الآخرين، ويستجيب بصورة بتسامح ومغفرة. والتصرف الأخلاقي بالنسبة لإيركسون هو التحقيق الملموس للأخوة الإنسانية في جميع مجالات الوجود، وتتجلى في رعاية الأولاد والضعفاء، وفي احترام الغرباء ومخالفي الرأي، وفي الالتزام بأهداف اجتماعية والسلام وحماية البيئة والتفاهم بين الشعوب. وتحتل «القاعدة الذهبية»، الواجب المتمثل في أن يتصرف الإنسان بحيث تتم تنمية حياة الإنسان نفسه وحياة الآخر، وعدم فعل شيء للآخرين ما لا يرغب هو نفسه أن يفعله الآخرون به، لب أخلاق Ethic إيركسون. وهذا المبدأ البسيط يمثل على ما يبدو الجوهر الأخير في كل الأخلاق المختلفة للأطر الثقافية المختلفة ويعني بكلمات إيركسون الخاصة، «أنه من الأفضل أن تفعل للآخر ما يقويك وما يقويه أيضاً - وهذا يعني، ما يمكن له أن ينمي أفضل إمكاناته وإمكاناتك كذلك» (1966، صفحة 212).

والشخصيات العظيمة من التاريخ والأنبياء والرسل والأولياء جسدوا موقفاً أخلاقياً بطريقة شبه جبارة. فامتد تأثير مثالهم عبر آلاف السنين وتحولت أقوالهم إلى جوهر الأنظمة الأخلاقية ethical systems للإنسانية، والتي كثيراً ما تم طمرها بالخرافات والأخلاقية البدائية Primitive Moralism واستخدمها حجة «للحروب المقدسة» أو الثورات الدموية أو الإرهاب الإيديولوجي. ويكاد المرء يتحدث عن دورة من الصياغة والدفاع والإفساد الأخلاقي وإعادة إحياء الأفكار الأخلاقية، الأمر الذي يعكس بحث يمتد لآلاف السنين عن تعايش مشترك وعادل أكثر إنسانية للإنسانية.

وفيما إذا كان الاستعداد المعطى من التطور بصورة مبهمة، للاتصال المثمر المتبادل بين أفراد الجنس الواحد، يندمج لدى البشر في اتجاه أخلاقي أم لا فذلك يتعلق حسب إيركسون بالتنشئة الاجتماعية. فكل أشكال التربية التي تعمل بالعنف والتخجيل والتبخيس، تؤثر بصورة وخيمة العواقب على نمو الضمير الحساس جداً للاضطراب. فالطفل يربط سلوكه الخطأ بصور الوالدين المهددة ومخاوف كارثية. فتتحول السيطرة

القاسية والإشكالية للراشدين على الطفل إلى سيطرة الأنا الأعلى عبر الأنا. وفي حالات الإمراضية الشديدة للأنا الأعلى Super-Ego-Pathology يتحول الفرد إلى منظومة مغلقة على نفسها. والتعاليم التي استدمجت مرة ما - من نحو لا يجوز التشكيك على الإطلاق بسلطة ما في يوم من الأيام- تتحول إلى الموجه الوحيد للسلوك ويتحول السعي اليائس للأنا لإرضاء أناه الأعلى إلى ما يشبه المنبع الوحيد لمشاعر القيمة الذاتية. ويكون هؤلاء الأشخاص واقعين دائماً تحت ضغط مشاعر الذنب وعليهم من خلال تعكر مزاجهم الاكتئابي أو كل أنماط السلوك المؤذية للنفس أن يدفعوا كفارة لضميرهم الصارم جداً. ويرى إيركسون أن أخطر شيء هو الميل، في النزعة الأخلاقية Moralism، «تلك الأشكال الشريرة من العفة والتحيز» (1966 «أ»، صفحة 202)، بإسقاط اللؤم الذاتي نحو الخارج والتماهي هو نفسه مع الأنا الأعلى المعاقِب. إنهم مفرطي الحماس وشديدو الاقتناع والتدين الذين كثيراً ما يستغلون الدين أو الأفكار السياسية للإعلاء من قيمة الذات وملاحقة الآخرين بادعاء العصمة. والميل للخضوع لسلطة خارجية بلا شروط وعدم إرادة الإحساس بمخالفي الرأي في أبسط الحدود، يجعل من الناس ذوي النزعة الأخلاقية في أوقات الأزمات خطراً كامناً كبيراً. فمن هذه المجموعة بشكل خاص يتطوع المأمورين والمحققين inquisitor وعبيد التعذيب، الذين يتشابهون فيما بينهم بصورة مرعبة في حالتهم النفسية – حتى وإن كانوا يخدمون أنظمة استبدادية مختلفة.

وكثيراً ما ينبه إيركسون في أعماله إلى التأثيرات الوخيمة للضمير السلبي الرهيب، والاتهام غير محق بأنه أراد تمييع رؤى فرويد حول المظاهر الهدامة للأخلاق Moral بالأخلاق المثالية idealistically Ethic . وحتى عندما نرضى بموقف أخلاقي Ethical رزين إلى حد ما، فإننا نستجيب في الحياة اليومية مرة تلو الأخرى على مستوى أبكر من الشغل الأخلاقي moralc functioning. ففي الارتياع من فضائع الحرب نتمنى القصف الواسع بالقنابل «للمذنبين»؛ وفي الخلاف مع الشريك نهوي إلى نغمة صوت أخلاقية غليظة؛ وحكمنا المتزن ينهار في مظاهرة جماهيرية في حماس إيديولوجي. وكل تحليل نفسي يكشف المدى الذي يمكن أن تكون فيه المواقف الأخلاقية هشة، والكم

الكبير من الفضائل الأخلاقية التي تتخلل كثير من قناعاتنا الدينية والسياسية. وأولئك الذين يتحدثون عن الأخلاق بأعلى صوت، فإنهم غالباً ما يكونوا قد عقدوا أشد الاتفاقات مكراً مع ضميرهم. ففي أوقات الأزمات تتداعى جماعات كاملة تحت الإيديولوجيات المشحونة بالكره لشخصيات القادة الديماغوجيين، وفي الحالات الاستبدادية المتطرفة يمكن لدى كثير من الأفراد أن تصبح نزوعات الأنا الأعلى هي المحددة للسلوك. وفي الأشكال المختلفة الموجودة إلى جانب بعضها البعض بشكل عجيب للشغل الأخلاقي morale functioning - من نحو أعلى درجات الالتزام بالجماعة الخاصة «الخيرة»، والاستعداد للإهانة والتدمير الساديين للجماعة الأخرى «الشريرة» على سبيل المثال- تتجلى حساسية الضمير الشديدة، لذلك «الارتباط القاتل للأفضل والأسوأ في الإنسان» (1975، صفحة 74)، كما يقول إيركسون.

وفي حين أن التحليل النفسي بعد فرويد قد درس أكثر المراحل الماقبل أوديبية لتشكل الأنا الأعلى، فإن إيركسون قد استمر أيضاً بمتابعة التطور الأخلاقي للإنسان في سن الشباب والمراهقة. ونموذج المراحل الثلاثة لنشوء الضمير لديه يربط التحليل النفسي مع الرؤى المسيحية والمثالية ويبدي تشابهات أيضاً مع المبادئ في علم النفس الأكاديمي، من نحو نموذج بياجيه في النمو من الخلق التابع إلى الخلق المستقل from heteronomic to autonomic Moral. وأخلاقية Ethic إيركسون، التي هي عبارة تصرف محدد بالقاعدة الذهبية من الحكمة والحب، تحتل لب الرؤى الدينية والسياسية. ويبدو أن التغلب على عقلية-المخلوقات الزائفة وبناء أخلاقية عالمية هو هدف التكوين الاجتماعي للإنسانية socio genesis. ومن المؤكد أن إيركسون مدرك مدى بعدنا في الوقت الراهن عن هذا الهدف. فجزء كبير من سكان الأرض ما زال يعيش على الأغلب منقاداً من الخارج في أنظمة صارمة أبوية[1] paternalistic، في حين أنه في العالم الصناعي الغربي يهدد الانهيار السريع للقيم بالتشكيك في كل الأسس التقليدية

(1) الطريقة الأبوية (تنتهجها الحكومة في إدارة البلاد أو تنتهجها هيئة أو شخص ذو سلطان - في معاملة الجماعات والأفراد)

للأخلاق. وما يميز هو أن المحلل النفسي في هذه الأيام غالباً ما لم يعد يشاهد مرضى ذوي أنا أعلى كامل التكون. ويبدو لدى كثير من الناس أن مخاوف العقاب البدائية أو الخوف، من استنكار اجتياف الأم الشريرة evil Mother Inroject، أو مشاعر الخجل المنتشرة، هي أقرب إلى تنظيم السلوك منها إلى تصورات القيم المتمثلة والمبادئ الأخلاقية. فهل ستؤكد النزوعات الأخلاقية نحو التسامح والديمقراطية والمساواة واللاعنف نفسها في التاريخ اللاحق للبشرية؟ أم على المرء أن يخشى في أجزاء واسعة من العالم من غلبة الحركات الديكتاتورية والأصولية التي تحاول أن تحافظ على إذعان الجماهير من خلال التعاليم الصارمة والتهديدات بالعقاب؟

7.2 الهوية والإيديولوجيا

لمصطلح «إيديولوجية Ideology» طعم سلبي، وسرعان ما يجعلنا نفكر بخداع الذات أو الدعاية الماكرة أو التعصب المعمي. ويقصد إيركسون «بالإيديولوجيات» كل تلك المنظومات الفكرية التي تستفز حماس وارتباط الإنسان، وتمنحه السهاد للحاجات الوجودية للعقيدة والمعنى. ويفهم جوهر الإيديولوجية بأنه «المركب الموجود بين نظرية وديانة ما» (1981 «ب»، صفحة 181)، ويقصد بهذا في مكان آخر: «في أطوار معينة من تاريخه وفي مراحل معينة من الحياة يحتاج الإنسان...اتجاهاً إيديولوجياً جديداً – يكون ضرورياً بمقدار حاجته للهواء والغذاء» (1975 «أ»، صفحة 23). ويريد إيركسون بشكل خاص إبراز قرب الخبرة المراهقة من التفكير الإيديولوجي[ii].

إذ ليس هناك مرحلة من مراحل الحياة يمكن للإنسان أن يشعر فيها بنفسه وبالعالم بأنه مشكلة أكثر من مرحلة الشباب. فداخلياً تتلاطم فيهم الدوافع الملحاحة والصراعات الطفولية المستيقظة ثانية، وحساسين نرجسياً نحو الخارج في الغالب استناداً إلى وضعهم الاجتماعي غير الواضح، يستجيب الشبان بحساسية خاصة للظلم والضنك. وكلما كانت العلاقة بالوالدين أشد إشكالية وأصبح كثير من الرياء في الأخلاق والسياسة أكثر وضوحاً، تاق الإنسان أكثر نحو ما هو «حقيقي» وما هو «صادق». وفي هذه المرحلة

من إمعان التفكير المرتفع والاستعداد المتزايد للنقد تمارس المثل Idols أو القادة السياسيين أو أشكال الحياة البديلة في الغالب جاذبية قوية. وبشكل خاص يصبح الناس الحساسون والمثاليون مستقبلين لمنظومات الأفكار الواضحة، وإن كانت أيضاً مُبَسَّطة، التي تمنح صورة العالم الخاصة بنية وتجارب الظلم وعدم الكمال ببدائل تبدو معقولة plausible. ويمكن للقادة الدينيين أو السياسيين أن يتحولوا إلى رموز للوالدين (بحب ما قبل صراعي Pre ambivalence)، وأن تتحول الجماعات العقائدية والبديلة إلى بديل عن الأسرة وبشكل عام إلى سند في هذه الفترة المزعزعة من أزمة الهوية. فعلى سبيل المثال تقوي الاتجاهات الإيمانية التقشفية ascetical الأنا الأعلى ضد الهو المنزلق في العصيان، في حين أنه في تجريب أشكال الحياة الحسية hedonic غالباً ما يتم تجريب الثورة ضد الضمير الصارم جداً. والتقسيم - الأسود - الأبيض لكثير من الأنظمة الإيديولوجية للناس إلى «أخيار» و «أشرار» يجيز توجيه الغضب بتضامن ثائر نحو الخارج. وبشكل خاص تمنح الإيديولوجيات وأشكال الحياة الانشقاقية خبرات جمعية مكثفة. ففي الاحتفالات أو حفلات موسيقى الروك أو المسيرات الاستعراضية، النضال التضامني من أجل العدالة الاجتماعية تتم استثارة خليط من الرفض الثائر والانجذاب السري. ومن المؤكد أن كثير منهم يعاني من مشكلات هوية متأزمة، تنبثق في جزء منها من الصراعات الأدويبية وما قبل الأوديبية اللاشعورية. ومع ذلك فإن إيركسون يرى أن التأويل النفسي المرضي لانشقاقيتهم nonconformism هو نوع من الاختزالية. وبالتحديد فإن الشبان غير المتكيفين هم مرسام[1] seismograph لسوء الأحوال الاجتماعية. إنهم يطرحون أسئلة يمثلون رغبات مقموعة تنكرها الأكثرية. إنهم يضعون أصابعهم على جراء سوء الإدارة والنفاق ويشيرون إلى الفقراء والمحرومين، الذين كثيراً ما يتم طرد مصيرهم من وعي الجمهور.

من المؤكد أن الأمر يتعلق هنا بجماعة ذات نسبة مئوية ضئيلة، وغالباً من أشخاص مما بعد المراهقة Post adolescents في مرحلة تعليق حياة الدراسة. إلا أنه في

(١) مرسام الزلازل، أو الآلة التي تسجل الزلازل.

أوقات الأزمات السياسية تصبح هذه الجماعة رأس حربة التحول الاجتماعي. ودائماً عندما يسير التقدم التاريخي بسرعة كبيرة إلى درجة أن مُثل الجيل القديم لا تعود تعد بأية هوية مثمرة أو عندما تكون المؤسسات المسيطرة فاسدة إلى درجة أن الأمر يتطلب بصورة ملحة تجديد أخلاقي، تحصل حسب إيركسون ظاهرة «المراهق المُكَثَّف»، ظاهرة «المرحلة الحرجة»، «التي تتصف بالتأزم المتبادل للصراعات الداخلية لدى الفرد وللفوضى الاجتماعية حوله» (1982 «ب»، صفحة 201). والمزعج في سوء الأوضاع السياسية وازدواجية أخلاق السلطات المسيطرة توقظ دفعة واحدة الاستنكار لدى كثير من الشبان. فإذا ما ظهرت عندئذ شخصيات قيادية كارزمية برسالة إيديولوجية مقنِعة، فإنه يمكن – في السراء والضراء – أن تتحرر قوى ثورية جبارة، يمكن أن تصاب بعدواها أجزاء من جيل الراشدين أيضاً. يقول إيركسون: «فعندما لا يشعر كثير من الشبان بأنهم مشمئزين من نمط الحياة التقليدي لمجتمعهم ولا يشعرون بأنهم – أحياناً ضد إرادتهم الخاصة تقريباً– مجبرين على مواجهة مشكلات الوجود بطريقة أصيلة، لكان المجتمع الإنساني سيخسر طريقاً جوهرياً للتجديد ولذلك التوسيع الثوري للوعي الإنساني، القادر لوحده على مجاراة التغير التقني والاجتماعي» (1975 «أ»، صفحة 164).

ومن هنا لا تعكس المواجهات الحامية بين الجيل الشاب والجيل القديم الصراعات الأوديبية لوحدها. إذ يعتقد إيركسون أن الأمر يتعلق بشكل خاص بمسائل الاستقامة والإخلاص والأصالة authenticity والثقة. فهل المجتمع الذي يترعرع فيه الإنسان موثوقاً وتاماً integer، بحيث يستطيع الإنسان وضع ولاءه تحت تصرفه؟ أم يبدو المجتمع مزيفاً ومريضاً، ولا يستطيع المرء أن يجد فيه أية هوية؟ لا يطرح إيركسون المراهقة بأي شكل من الأشكال على أنها مجرد مرحلة من ضعف الأنا. فمن خلال الخصائص البناء والهدامة للقوة الشبابية تصان المجتمعات أو تنشأ مجتمعات جديدة. وقد حاولت المؤسسات المحافظة والحركات الثورية الطامحة دائماً توجيه التزام الناشئين نحو سكتها الخاصة. لقد بحثت الرموز الكارزمية في تاريخ العالم عن أتباعها في مابعد

المراهقين Post adolescences؛ وكذلك عرف الدياجوغيين عديمي الضمير، الاستحواذ على ضمير الشبان، وتحريضهم على الكره والإرهاب أو إرسالهم كوقود أيديولوجي في حروب لا معنى لها. وما يطلق عليه إيركسون تسمية الميل الإيديولوجي لسن الشباب، يمكن أن يعبر عن نفسه في الأشكال المتناقضة: زهد ديني مخلص مقابل تهذيب أشكال الحياة المشبعة للحياة؛ الاستعداد للدفاع الحازم عن الأقلية العرقية الخاصة أو التحقيق العسكري للأهداف الإمبريالية مقابل المناداة باللاعنف والأخوة العالمية؛ العودة إلى أنماط السلوك البيئية البسيطة مقابل التعاون المركز في الخبرة التقنية technical Know-How لمجتمع الكمبيوتر؛ الخضوع المتحمس للأنظمة الاستبدادية مقابل الاعتراض الحاسم المضاد للسلطة.

وبما أن التفكير الإيديولوجي يمثل مرحلة انتقالية بين النزعة الأخلاقية Moralism للطفل وأخلاق Ethic الراشد، فإنه يحمل بالنسبة لإيركسون طبيعة مزدوجة. فمن خلال كلمات سحرية مثل «الخلاص» و «البركة» و «السلام» و «الأخوة» غالباً ما تدور الإيديولوجيات حول أهداف أخلاقية ethical وتحاول من جهة أخرى تحقيق هذه الأهداف تزمتياً moralistic بعدم التسامح وبقطعية absolutely غريبة عن الحياة. وبما أن التفكير الإيديولوجي بالتحديد يبسط الواقع وتموه التناقضات، فإنه لا يمكن تحمل انتقاداً أشد من الداخل أو الخارج. والجماعات العقائدية المتطرفة تشوه الواقع بدعاية خبيثة وخداع ذاتي إيحائي، ويطلبون من أتباعهم الولاء المطلق تجاه القيم المطلقة والسلطات المقدسة. ومن خلال ذلك يرتفع التضامن الداخلي بشكل اصطناعي، ويمكن تقنين التوتر كالصاعقة نحو الخارج. وفي الشكل الأخف يتجلى هذا في التعجرف تجاه أولئك الذين مازالوا لا يمتلكون الحقيقة المنقذة الوحيدة. وفي أسوأ الحالات تستخدم الإيديولوجيات كتبرير للمقاتلة المتعصبة لمخالفي الرأي. وأحياناً يكون من الصعب التمييز أين توجد الحدود بين الاستنكار الصادق والهياج الهدام. وتستطيع الإيديولوجية أن تمنح التوجه على طريق إيجاد الهوية لفترة من الزمن؛ إلا أنه بعدئذ لابد للأنا الناقد أن يتولى القيادة. وبالتحديد الشباب المزعزع نفسياً يصبحون بسهولة

ضحايا الطوائف الدينية أو السياسية، التي لا تزيد إلا من تشتت الهوية بالطرق الاستبدادية، من أجل تحويل أعضائها إلى منصاعين conformists مجوفين واستغلالهم بصورة هدامة.

ولهذا السبب يمكن أيضاً للالتزام الناقد للمجتمع عند المراهق أن يأخذ بسرعة أشكالاً غير ناضجة. ويتحدث إيركسون عن ميل استبدادي في تفكير الشباب، نحو التمييز بحدة بين الخير والشر، والصديق والعدو، الطاهر والقذر مع مسحة من الحدة والتحدي. وينقلب الحماس الديني enthusiasm بسرعة إلى رفض تعصبي، والشعور بالتضامن إلى نرجسية- جماعية نخبوية، والغضب المتراكم إلى أعمال عنف: «الحاجة المباشرة في منظومة فكرية وحيدة إلى توحيد كره الذات غير المنطقي للهوية السلبية الذاتية والصد اللامنطقي للمخالفين المعادين، يجعل الشبان أحياناً استبداديين بشكل مميت ومحافظين في الصميم، وبالذات أينما ومتى ظهروا في أشد بدائيتهم وتطرفيتهم» (1981 «أ»، صفحة 196).

وفي مراحل الانتقال السياسية يبدو كما يستنتج ألكسندر مِتشرلش (Alexander Mitschaerlich, 1970)، بأن جماهير كاملة تتعلق بنضج أو عدم نضج احتجاج الشباب. فإذا ما أصبح للإسقاط والغضب اليد الطولى، يفقد الفكر الإيديولوجي في تحديات ومراوغات مطردة الاتساع قوته الأخلاقية ووظيفته المنتقدة للواقع. وعلى الشبان المحتجين بشدة أن يظلوا مثبتين بصورة إجبارية تقريباً على صورة عدو خارجي شرير، لا يوجد معه أي جسر تواصل وتفاهم. فيصبح العدو غولاً؛ فيلاحق الإنسان فيه لاشعورياً أباً مستبداً أو أمجية[1] أم مهددة، في حين أن الإنسان يعتقد أنه هو نفسه، مخموراً بالتماهي مع ذات طفولية متضخمة، ممثلاً للخير والحقيقي. وبالدرجة نفسها لا ترى السلطات المتحداة في المراهقين المحتجين سوى استفزازيين provocateurs خطيرين

(1) الصورة التي يحملها الإنسان عن أمه في داخله، الصورة التي عاش فيها الشخص أمه فيها في طفولته، وهي صورة لاتتطابق بالضرورة مع الأم الحقيقية الموضوعية، بل هي صورة ذاتية تكمن في أعماق الشخص.

وأعداء لكل تنظيم اجتماعي. ومن خلال تاريخ الجماعات المتطرفة يمكن ملاحظة كيف انتهت الشيطنة الإسقاطية المتبادلة في النهاية في استعداد مسعور للعنف.

كانت حركات الاحتجاج الليبرالية[1] مثال عن الالتزام الإيديولوجي الحديث في ستينيات القرن العشرين، التي عمت كل أمريكا انطلاقاً من كاليفورنيا ووصلت كتمرد مضاد للسلطة إلى المدن الأوروبية الكبيرة. وما بدا بالنسبة لكثير من المفكرين المحافظين على أنه احتجاج مراهقي لأطفال مدللين، عكس وفق إيركسون أزمة عميقة في الهوية للأمريكان. وما بدأ كاحتجاج ضد حرب فيتنام والشح في الجامعات، اتسع ليتحول إلى انزعاج عام من طريقة الحياة الأمريكية American Way of Life. وتجلى التطلع نحو أشكال أخرى مختلفة من الحياة والقيم في تقديس أنماط موسيقية محددة، والتجارب الجديدة المتطرفة للحياة المشتركة خارج المؤسسات الرسمية establishment الارستقراطية. ونمى التضامن مع الأقلية الملونة الذاتية في سياق الرفض الانفعالي للحرب في جنوب آسيا. فلم يعد المرء يسير ببساطة مع الحشد، أن يتلاءم مع حياة النجاح المسبق البرمجة، وهذا على حساب البلدان المحرومة وطبيعة مستغلة. فبحث المرء عن أنماط حياة جديدة من الشهوانية وعمق المشاعر والتضامن ضد ضغط المنافسة العام ونزعة التوسع الاقتصادي التي لا ترحم.

---

(1) التحررية: في السياسة المناداة بحرية الفرد وحقوقه. والليبرالية (liberalism) مشتقة من كلمة من ليبر liber وهي كلمة لاتينية تعني الحر. وتمثل في الوقت الراهن حاليا مذهب أو حركة وعي اجتماعي سياسي داخل المجتمع، تهدف لتحرير الإنسان كفرد وكجماعة من القيود السلطوية الثلاثة (السياسية والاقتصادية والثقافية)، وقد تتحرك وفق أخلاق وقيم المجتمع الذي يتبناها تتكيف الليبرالية حسب ظروف كل مجتمع، وتختلف من مجتمع غربي متحرر إلى مجتمع شرقي محافظ.

الليبرالية أيضا مذهب سياسي واقتصادي معاً ففي السياسة تعني تلك الفلسفة التي تقوم على استقلال الفرد والتزام الحريات الشخصية وحماية الحريات السياسية والمدنية وتأييد النظم الديمقراطية البرلمانية والإصلاحات الاجتماعية. وأما في الاقتصاد فتعني تلك النظرية التي تؤكد على الحرية الفردية الكاملة وتقوم على المنافسة الحرة واعتماد قاعدة الذهب في إصدار النقود. أهم شعار في الليبرالية هو: دعه يعمل دعه يمر . ويسمى الليبراليون بالحريون فقد ارتبطت الليبرالية بالحرية الاقتصادية.

ومن المؤكد أنه كان الكثير من حركات الاحتجاج هذه متناقضاً، وكانت موجهة ضد المؤسسات الرسمية[1] establishment، ومع ذلك فقد أسهمت فيها هذه المؤسسات بالذات. فالبحث عن القرب الانفعالي والثقة، بالصورة التي مثلتها فيها في أكثر أشكالها سذاجة الثقافة الفرعية لأطفال الزهور[2]، لم يكن من النادر لها أن رست في ممارسة الاستغلال الجنسي المتبادل. فكثير من التجارب الذاتية التي كانت في البداية

---

(1) المؤسسات الرسمية، أو مجموعة القوانين المؤسسة التي توطن أو ترسخ شيئاً ما بصورة رسمية.

(2) أطفال الزهور تسمية أطلقت على حركة الهيبز. والهيبز أعضاء حركة شبابية في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين الميلادي، بدأت في الولايات المتحدة وبلغت شهرتها في كندا، وبريطانيا، والعديد من الدول الأخرى. يرفض الهيبيز العادات والتقاليد وأنماط الحياة في المجتمع، ويحاولون إيجاد نمط للحياة مغاير لما هو معروف. وقد كان معظم الهيبيز، من عائلات الطبقة المتوسطة البيضاء. تراوحت أعمارهم من 15 إلى 25 عامًا . وهم يعتقدون أن كثيرًا من البالغين يهتمون جدًا بجمع المال ولا يهتمون بغير ذلك إلا قليلاً. وتعبير هيبيز، ربما يكون قد جاء عن لفظة hip إتش. آي. بي الإنجليزية ومعناها: الوالف أو المدرك.

سعى الهيبيز إلى عالم قائم على حب الإنسانية، والسلام. واعتقد الكثيرون منهم، أن ثمة تغيرات رائعة، وسحرية على وشك الحدوث. وأن هذه التغيرات، سوف تحدث بمجرد أن يتعلم الناس التعبير عن مشاعرهم بصدق، والتصرف بشكل طبيعي في جميع الأوقات.

وعاش الكثيرون من الهيبيز بعضهم مع بعض في مجموعات صغيرة. تعمل إحداها مع الأخرى، وتتقاسم الممتلكات. ورفض البعض منهم أن يرتبطوا بعمل أو بيت ثابت. وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر بحثًا عن عمل جزئي ومأوى مؤقت. والتمس البعض منهم، المزيد من التغيير. وعاشوا في الشوارع أو في مُخيمات في المتنزهات العامة أو الميادين العامة الأخرى.

وفي بعض الأحيان، كان يطلق على الهيبيز أطفال الزهور، لأنهم كانوا يقدمون الزهور إلى الناس إظهارًا للرقة والحب. وتركوا شعورهم طويلة، ومشوا حفاة أو بالصنادل. وقد جذب الهيبيز، اهتمام عامة الناس ، بارتدائهم الملابس الشاذة. وقد استخدم عدد كبير من الهيبيز الماريجوانا، وعقار ، إل أس دي LSD. وغيرها من العقاقير. وشكلت تجاربهم مع العقاقير الكثير من شعاراتهم وأفكارهم.

وقد ساعدت الخنافس، وهي فرقة إنجليزية شعبية غنائية راقصة، على انتشار حركة الهيبيز. ومن الفرق الغنائية الراقصة الأخرى الكبيرة المحببة عند الهيبيز، فرقة جريتفل ديد، وفرقة جفرسون، والمغنيين جوان بايز، وبوب ديلان، والشاعر آلن جينسبرج، والروائي كين كيسي. وأعجب الكثيرون من الهيبيز بالعالم النفسي تيموثي ليري، الذي كان يبشر بالخلاص عن طريق استخدام العقاقير.

وفي الوقت الحالي، اتضح لمعظم الهيبيز، أنه ليس من السهل أن يعيدوا تشكيل المجتمع عن طريق الانسلاخ منه. وانضم بعضهم إلى حركات سياسية أكثر تنظيمًا، للعمل من أجل قضايا اجتماعية محددة. وتحول الآخرون إلى القيم الروحية والتدين. وترك غالبيتهم مرحلة الهيبيز في حياتهم وراء ظهورهم، محاولين التمسك على الأقل، ببعض المثاليات التي أثرت فيهم في وقت ما.

جدية تحولت لاحقاً إلى مرآة نرجسية للشخص نفسه أقرب من التضامن المحرر؛ والعقار، الذي يفترض له أن يوسع الوعي الارستقراطي ضيق الأفق، سرعان ما أسهم في تقشير هذا الوعي بالذات.

واحتجاج الطلاب أيضاً الذي كسر البنى الجامدة في الجامعات الأمريكية، أنبت باطراد تماه مع المعتدي. وكثير ممن يطلقون على أنفسهم صفة الثوريين بدو في استحواذية آرائهم مثل كاريكاتير السلطات التي ادعوا أنهم يقاومنها. والامتلاك الاستعراضي للبيوت كمراكز للسلطة الراسخة أو في إنكار الرموز الأبوية أصبح لانفجار الصراعات الأوديبية في بعض الأحيان اليد الطولى في بعض الأحيان. وعلى الرغم من ذلك فقد هيجت الاستعراضات والمظاهرات اللعبية - المنظمة عسكرياً بشكل صارم، ولكن مع ذلك بشكل خال من العنف كلية- ضمير الأمة وأيقظت الخيالات السياسية لكثير من الأمريكيين، الذين رأوا أنفسهم معَزَّزين في تحرريتهم Liberalism الماضية واستقلاليتهم nonconformism. وكان لابد من إنهاء الحرب في جنوب آسيا «بانسحاب مشرف»، وساعد الجو السياسي المتغير من الاستعداد للحوار بين الأجيال والأعراق على الاختراق النهائي.

ويشعر المرء بتعاطف إيركسون مع أشكال الحياة المستقلة nonconformism لسنوات الستينيات من القرن العشرين، التي من المؤكد أنها ذكرته بشبابه غير التقليدي. وأحياناً عليه تقريباً أن يجبر نفسه على الإشارة بأن الأمر هنا يتعلق بنسبة ضئيلة من الجماعات الصغيرة. وبشكل أقرب للهامشي وبنغمة تبخيسية يتحدث إيركسون عن تلك «الغالبية الكبرى» من الشبان التي تتكيف بصمت مع أنماط الإنتاج السائدة ومعايير النجاح، التي تثق بأن السياسيين والخبراء سيعدلون مثل «الوالدين الطيبين»، وعلى الأكثر مرة في أحلامهم يكونوا مهمومين أخلاقياً. وتتطابق طموحاتهم وأزيائهم بالنسبة لإيركسون مع التمديد للمرحلة الرابعة من الحياة، لسن المدرسة، إلى وقت تعليم ممتد. إنهم يخضعون «مسائل الأخلاق والإيديولوجية والأخلاق لصورة عن العالم مسيطر عليها بالطرق والتقنيات، تؤكد صحتها بنفسها، حيث يتم إحالة مشكلات

كالخطيئة أو الخلاص إلى التدين المتصنع يوم الأحد Sunday religiosity، الذي لا ينزلق أبداً في صراع مع عادة أو منطق ويعد بالثواب أولئك الذين يتفهلوون» (1982 «أ»، صفحة 224).

والموهوبون من بين هذه الجماهير الواسعة من المسايرين يتطورون عندئذ، كما يصفه إيركسون، إلى «متخصصين specialists»، أولئك التكنوقراط ومديري الأعمال وعباقرة المال، الذين يحافظون على حركة شديدة التعقيد للمجتمعات الصناعية الكبرى. وروحهم[1] ethos هي الإنتاجية والإنجاز والكفاية efficiency، إنهم لا يضيعون الكثير من التفكير في ثمن تصرفهم - في التعايش الإنساني أو الطبيعة أو في نفسهم هم. ولكنهم ربما استطاع المتخصصون في عالم المستقبل - وأيضاً هنا يطور إيركسون ثانية أفكاراً تصالحية- محاولة تطبيق ما يحلم ويأمل به المستقلون nonconformist مما هو غير تقليدي- في مصلحة المجتمع ككل. أما كون كثير من المستقلين من جيل ستينيات القرن العشرين سيتحول بعد سنوات قليلة فقط إلى متخصصين ناجحين جداً، فهذا ما لم يتمكن إيركسون من توقعه عند كتابته لكتابه «الشباب والأزمة».

ففي حين أن التحليل النفسي قد بحث تشكل المثال الطفولي الباكر -وبشكل خاص في سياق نشوء اضطرابات الشخصية النرجسية-، فقد بين إيركسون كيف تتحول الحاجة الإنسانية الأصلية للتقديس idealization في أثناء المراهقة إلى تصرف سياسي ملموس. غير أن ما يقصده بالميل الإيديولوجي لسن الشباب، يشمل طيفاً متناقضاً كلية، ويمتد من التعليم الديني التقشفي ومروراً بحركات الاحتجاج السياسية وانتهاء بأشكال الحياة البديلة لثقافات الهيبيز والموسلي Hippie-and Muesli-Culture.

ويطرح السؤال نفسه فيما إذا كان إيركسون لا يقلل من تأثير الإيديولوجية على حياة الشباب المتوسطين ويخلق أسطورة. فهو متحمس مثل كثير من الرومانسيين والتربويين الإصلاحيين بالصلابة الأخلاقية والعقلية للشبان وعلى ما يبدو فإنه يرى في

(1) روح الشعب أو المؤسسة أو النظام.

مثالية الجيل الشاب منبع قوة المجتمع فحسب. فهو عندما يتحدث عن الشباب فإنه يضع نصب عينيه نماذج محددة في الغالب، غير تقليديين أو مؤمنين بجد أو محتجين بشجاعة أو أتباع مخلصين لرموز كارزمية. وعندما يتماهى إيركسون مع مثل هؤلاء الشبان ويشير إليهم بوصوفات مثالية «متمردين مخلصين» (1973)، «زهاد جديين» (1978 «أ») «الإنسانيون الجدد» (1981 «أ»)-، فإنه يبدو بأنه يعيد إحياء أجزاء من تاريخ حياته ويبررها فيما بعد. إلا أنه على المرء أن يأخذ بعين الاعتبار بأن الأمر بالأصل يتعلق بمجموعة صغيرة من ما بعد المراهقين Post-adolescences، الذين يمتلكون في تعليق حياة الطلبة الوقت لتجارب بديلة ويستطيعون الاعتماد على دعم الوالدين الغنيين.

وهنا يتعرض إيركسون لخطر فقدان المجال الواسع لأشكال الحياة الشبابية وبناء الجماعات. فما الذي يحدث للجماهير الواسعة من الشباب العامل؟ وهل لا يمكن للمرء أن يرى في «الشبان المتكيفين» إلا أتباع من دون وعي أخلاقي؟ ألا يوجد أيضاً لدى هؤلاء - وإن كان الأمر ليس بطريقة ملفتة للنظر هكذا- التزام اجتماعي في الجمعيات الخيرية أو الجماعات الكنسية أو في الوقاية من الكوارث؟

ومن ناحية أخرى لابد من التساؤل، أين مازال ينمو اليوم شيء مثل خبرة المعنى والوعي السياسي بالنظر لفقدان أهمية منظمات الشباب الكنسية أو السياسية وتداعي القيم بدرجة سريعة. ألا يتم إحباط حاجات التقديس لدى غالبية الشبان في وقت مبكر من خلال نقص الاهتمام الوالدي والخبرة الراهنة للمثل العليا غير الجديرة بالتصديق في الحياة العامة والسياسة؟ فعدد كبير من شبان اليوم كما يرى باك (Baacke, 1987)، في بحثه عن الإشباعات قصيرة الأمد وإمكانات التعبير عن الذات يبدو له الالتزام الاجتماعي والتمسك بالقناعات الإيمانية والقيم أقرب إلى السخرية. ومن المؤكد أنه مازال يوجد لدى البعض خبرات مكثفة من التضامن والروحانيات في المسيرات الكبيرة أو المؤتمرات الكنسية أو الحفلات الموسيقية. ومن المؤكد تستمر في حركات السلم والبيئة

أو في المساكن الطلابية الجماعية أو البلديات جماعات القاعدة[1] basic groups الدينية أنماط حياتية بديلة. إلا أنه هل هذه الحركات قوية وجديرة بالتصديق كفاية، ألا تكمن هنا بذرة إنسانية جديدة؟ أو أليس علينا الحديث عن «اتجاه مضاد للإيديولوجية» لدى غالبية ممثلين الجيل الناشئ؟ وهذا لا يحتاج إلى التشكيك بالصحة المبدئية لأطروحات إيركسون. إذ أنه من المحتمل أن يصبح لميل الإيديولوجي لسن الشباب مرساماً إيديولوجياً ومنبعاً للاعتراض الثائر في الأزمات السياسية المرتسمة وأن تصبح ثانية مواجهات المعتقدات في المستقبل القوة الدافعة الحاسمة.

7.3 إيركسون حول العلاقة بين التحليل النفسي والدين

ليس صدفة أن اختار إيركسون تاريخ حياة مجددين كارزميين اثنين موضوعاً للدراسة الكبيرة لتاريخ حياتهما. ويشعر المرء بإعجابه وورعه الصادق ونفوره من كل شكل من الجزمية الدينية والتعصب. لقد وصف فرويد الأديان على أنها شكل لرغبة طفولية وتكشف كم من المخاوف الفظيعة يمكنها أن تثيرها التعاليم الدينية المعادية للدافع والجسد في روح الطفل. ومن ناحية أخرى شنع كثير من اللاهوتيين التحليل النفسي بوصفه علم كافر، يدافع عن شهوانية وقحة ويشكك بأسس الأخلاق والأسرة.

لامس إيركسون بنزاهة مسائل واقعة في حقل التوتر بين الإيمان والعلم وينكر بوضوح أي مقصد، «لتسمية الدين بوصفه كذلك طفولياً أو السلوك المتكلف كسلوك نكوصي» (1981 «أ» صفحة 107). ومن دون طرح علم نفس ديني منهجي، فقد نصبت مساهماته جسوراً، ويعد اليوم من أكثر المحللين النفسيين اقتباسا في اللاهوت وعلم النفس الرّعاوي[2] pastoral psychology. وفي هذا الموضوع أيضاً فإن

(1) جماعات القاعدة: جماعات سياسية صغيرة ناشطة في الموقع، في الجامعات والمدارس والمعامل وأجزاء من المدن أو القرى والجماعات الكنسية؛ تتشكل عفوياً أو بشكل هادف لمناقشة مسائل منفردة أو مواضيع سياسية عامة أو للبحث عن أشكال جديدة من التعايش والتفاعل المشتركين.

(2) المتعلق بالعمل الكنسي في رعاية أتباع كنيسة معينة.

إيركسون «عابر للحدود». فهو يريد استخلاص المشترك، الوظيفة الأساسية المواسية بالأصل، المقوية للأنا لكل الأديان واهتم هنا بوجهات النظر المختلفة بدءاً من الأديان الطبيعية الهندية ومروراً بالكاثوليكية في العصور الوسطى والإنجيلية اللوثرية وانتهاء بالهندوسية، مع العلم أنه قلما يتطرق للديانة اليهودية لأسلافه[iii].

فعبر آلاف السنين حدد الدين فهم العالم وشكل حياة الثقافات وكان حاضراً بالنسبة للفرد بشكل بديهي مثل هويته الاجتماعية. وفي أيامنا هذه، في زمن، التراجع السريع للاهتمام بالدين secularity فإن الدين قلما يكون بالنسبة لكثير من المعاصرين موضوعاً للحديث. ومع ذلك نصاب بالدهشة من إبداع الخالق أولا نستطيع تجنب مواجهة المسائل الميتافيزيقية عند التفكير بمعنى حياتنا. وأحياناً يتسلل إلينا نوع مبهم من الضيق، من التفكير المقبض، بأنه يمكن أن يحدث لنا شيئاً ما، وبأننا في الواقع لم يكن من مبرر لوجودنا، وأن وجودنا منته.

وبالنسبة لإيركسون «تمثل حقيقة الموت، الرعب الهائج «المتكرر» من الظلمة الكلية والموت العقلي، من فقدان البصر والإحساس، آخر منابع مخاوفنا الإنسانية الوجودية» (1978، صفحة 102). وهنا، وعند حدود المنطق واستطاعة المعرفة، تواصل الأديان السير وتعطي إجابات عن آخر وأشد الأسئلة إلحاحاً عن من أين أتت الحياة وإلى أين، وعن معنى الشقاء والموت. وبالنسبة لإيركسون فإن الوظيفة الأساسية لأي دين تكمن في تعزيز قوى الثقة الأساسية والأمل وبالذات في صعوبات وأزمات الوجود، ومنح الحياة معنى خارج نطاق الوجود الأرضي. وما يهفو إليه البشر طوال حياتهم، ذلك الانسجام الأساسي السعيد مع «أم طيبة» في عهد الرضاعة، هو الاستبشار بالجانب الآخر: حالة الأمان عند الله. وفي الوقت نفسه تحاول الأديان تحطيم المخاوف الأشد بدائية لدى الإنسان – بتعبير تحليلي نفسي: الشك الأساسي للطفل من الأم الصادة الشريرة–، ومنح الشر، وإن كان المرء لا يستطيع صده كلية، شكلاً ملموساً في الشياطين والجن والسحرة. وأخيراً تفتح الجماعات الدينية من خلال منظومة من القوانين والتعاليم الطريق للخلاص الأبدي، وتعد في الوقت نفسه الذين لا يتبعونها

بالعقاب الشديد. وتقوم كثير من الأديان بنقل جذور الشر في ذات الإنسان - بلغة تحليلية نفسية: مشاعر غضب الرضيع على الأم الفاشلة- إلى أفكار الخطيئة الأولى أو الذنب الموروث للإنسان، الذي لابد من التغلب عليه من خلال التوبة.

كل الأديان المنظمة organized Religion تحيي حسب إيركسون ثروة قيمة من خبرة زمن الرضاعة، الإحساس بالحماية من خلال قوى مواسية وحاضنة. والأدعية والطقوس والعبادات وبشكل خاص في مواسم الدورة السنوية أو في نقاط التحول في الحياة تهون من المخاوف والخيبات وتربط الناس ببعضهم في تدين مشترك.

ويرى إيركسون أن الجذور التطورية ontogeny للتدين الإنساني تكمن في خبرات المرحلة الفمية، وفي والواقع فإن الأنماط الطفولية المبكرة في المارسة الدينية للأطر الثقافية المختلفة لا تخطئها العين. فبما يشبه نظرة الطفل للأم، يتطلع المؤمن إلى الله وكله أمل، يدعو بالحماية والتوجيه والسعادة، يقر مذلولاً بخطاياه ومنكراته، ويرجو مستغفراً بالعفو. وكثير من الأديان المنظمة في المارسة ترجع الإنسان إلى عالم خبرة الطفل. ولنفكر بالأشكال الرائعة من الطقوس الدينية الكاثوليكية أو الأرثوذوكسية، والإيماءات الساحرة، والنبرات المهدئة والروائح المرخية، التي تجعل الإنسان ينكص وتجعله متلقفاً للخبرات الغامضة. وفي عبارات رائعة تصف النصوص الدينية الرعاية المطلقة بين يدي الله، أمان يتجاوز ثقة العلاقة بين الطفل والوالدين. ولنتأمل في المزمور الثالث والعشرين «الله راعيني» أو أقوال الأنبياء: «إن نسيت الأم طفلها فإني لن أنساك»[1] (يسوع 15،49)؛ «أريد أن أواسيكم كما تواسي أم رضيعها» (يسوع، 66، 13). وبالمقدار نفسه من الإلحاح يستحضر الفن الديني بالنسبة لإيركسون الخبرات والرغبات الطفولية

---

(1) تقول إحدى الترانيم بعنوان: إن أنسى من أمي الحنون

إن أنسى من أمي الحنون أعز	أحضان ربي لي تصون
عنده البنون	فكيف ينساني
فكيف ينساني	فكيف ينساني
إن نسيت الأم الرضيع	ربي لا ينساني
إن ينسى من أم ولد	يبقى له الرب سند
محصى لي شعري بالعدد	فكيف ينساني

المبكرة. فكثيراً ما نجد في المنحوتات والنقوش موضوع الاتصال البصري والتوق الأساسي للطفل، بأن يتم التعرف عليه والاعتراف به: مادونا[1] مع يسوع المسيح، الذي ينظر بشغف عميق إلى أبية على الصليب أو قديسين، يرنون بشغف نحو نور الرحمة الإلهية أو أشكال بوذا المبتسمة بسلام في أطر الثقافة الآسيوية.

وتستند الأحاسيس الدينية على اليقين والقوى التي يمكن أن تعاش بأنها مسيطرة، ولكنها صعبة النقل أو التوصيل communicable. فالمؤمن من خلال علاقته بالله وجد مركزاً آخراً لوجوده، فهو يستطيع أن يدرك حياته كجزء من شيء أعلى، ويشعر بأنه مقبول، من دون أن يضطر للخوف على أناه المحدود. وفي وحي القديسين أو رؤى المتصوفين يبدو السمو transcendence وكأنه قد اقتحم أساس الروح، يصبح واقع الله لبرهة يقيناً مطلقاً. ومثل هذه الهوية هي بالنسبة لإيركسون، «مهما كانت تبدو معطوبة، فإنها غير قابلة للتحطيم في قناعة مباشرة». (1975 «أ» صفحة 197).

تركز العلوم الطبيعية على الملموس والقابل للقياس، على ذلك الذي يمكن التعرف عليه بالطرق الموضوعية على أنه حقيقي. أما الدين بالمقابل فيستند بالنسبة لإيركسون على ذلك الذي يعتقد الناس أنه حقيقي، على الرغم من أن افتراضاتهم غير قابلة للبرهان، وغالباً ما تبدو بعيدة الاحتمال، إلى درجة أن فرويد قد قارنها في نقطة ما بالأفكار الهذيانية (الأعمال الكاملة، XIV صفحة 345). ويعتقد إيركسون أن علم التحليل النفسي، يحتل موقعاً خاصاً، وغالباً ما يقف على خط الحدود بين ذلك «ما تثبت حقيقته وبين ما يظن على أنه حقيقة مبرهنة» (1975 «أ»، صفحة 22).

وبشكل خاص في دراسته حول لوثر يتطرق إيركسون إلى مسائل الإيمان الديني. فهل الله بالفعل هو واقع فوق الوجود المادي، مثلما تكلم يهوه في العهد القديم عن نفسه قائلاً «أنا هو الذي هو» (الخروج، 3،14)، تعبير عن الهوية، بشكل من الصعب أن يصفه المرء بصورة أقوى؟

(1) بينوس مادونا Benois Madonna (السيدة مريم العذراء) رسمها ليوناردو دافنشي في عام 1478.

وهل هذا الله بوصفه أصل ومنتهى لإيجاد الهوية الإنسانية لاعب واقعي خصم لأنانا، أيعكس الدين المنظم سعي الأنا، للمشاركة مع الآخرين في هذه الأنا الإلهية؟ وهل يقف كبير السن أمام أزمة الهوية الأخيرة، شبه الوجودية على حافة السمو transcendence ؟. ويقول إيركسون «يبدو أنه يؤكد نفسه، أنه يمكن وصف كمال integrity كل مخلوق إنساني على أنه ديني (بشكل واضح أم ضمني)، أي في بحث داخلي ورغبة للتواصل مع الآخر المشحون بالأسرار، الآخر الأخير، إذ أنه لا يمكن أن يوجد (أنا) من دون (آخر)، لا يوجد (نحن) من دون (آخر)، يشارك فيه الجميع. وهذا هو بالفعل أول وحي لدورة الحياة، عندما تتعرف عيون الشخص المرجعي الأمومي علينا براقة، بالضبط مثلما نبدأ بالتعرف عليها. وهذا هو، بنبوءة بولس[1] Hl. Paulus، أمل الكبر» (1987 صفحة 517).

(1) القديس بولس أو بولس الرسول (4 م - 64 م) أكبر المبشرين بالمسيحية وقد كان أثره في التبشير بها هائلاً .وهو يعد الرسول الأول للأمم حيث بدأت رسالته في الأرض المقدسة من دمشق مرورا بآسيا الصغرى إلى بلاد أوروبا. وحسب قاموس الكتاب المقدس كان اسمه العبري شاول أي «مطلوب» وظل يدعى بهذا الاسم طوال سفر أعمال الرسل إلى (أع 13: 9) حيث قيل «أما شاول الذي هو بولس أيضاً» ومن ذلك الوقت إلى آخر سفر الأعمال دعي باسم بولس ومعناه «الصغير». ولد في مدينة طرسوس بتركيا القديمة في عام 4م. وعلى الرغم من أنه روماني الجنسية فإنه كان يهودي الديانة وعبراني الجنس من سبط بنيامين. وقد درس اللغة العبرية في شبابه. وتلقى علومه في القدس متلمذاً على يد الحاخام الشهير جاليل. وعلى الرغم من أن القديس بولس زار القدس في زمن المسيح فإنه لم يلتق به .

وبعد صلب المسيح وقيامته حسب الديانة المسيحية كان أتباعه يلقون التعذيب الشديد بتهمة الكفر، وقد ساهم القديس بولس في السطو على الكنائس وفي اتهام أتباع المسيح بالزندقة وتعذيبهم وسجنهم. أعمال الرسل 8/ 3 . ولكن (حسب ما يحكي هو في العهد الجديد) في رحلة له إلى دمشق ظهر له ضوء في الطريق (مكان الرؤيا قرية كوكب قرب دمشق) وأخبره صوت ما أنه يسوع وأن عليه أن يذهب إلى دمشق ليعرف ما المطلوب منه وفي رواية أخرى أخبره الصوت بالمطلوب مباشرة وأنه مدعو ليكون أحد رسل المسيحية وهذا ما جاء في 3 روايات - مع اختلافات طفيفة بينها - في سفر أعمال الرسل 9/ 3-9 و 22/ 6-11 و 26/ 13-18. وبعدها تحول إلى المسيحية وكانت نقطة تحول في حياته وفي تاريخ المسيحية نفسها. فالرجل الذي كان عدواً للمسيحية أصبح الواضع لأهم أسس المسيحية ومن أئمة دعاتها وأعظم أعمدتها.

ومن ذلك الحين أمضى القديس بولس حياته كلها يكتب عن المسيحية ويدعو لها، فدخلها الكثيرون. وقد سافر كثيراً يدعو ويبشر ويقنع الناس بالإيمان . فكان إحدى الرسل المبشر بالمسيحية في مدينة دمشق وسافر إلى بلاد سورية القديمة وتركيا القديمة وبلاد الاغريق وكان الرومان يلاحقون القديس بولس في حارات دمشق ليمنعوه من التبشير بالديانة المسيحية وتم تهريبه من مدينة دمشق عن طريق إنزاله في سلة من على سور المدينة

وبصورة تنويرية رأى التحليل النفسي في الرب إسقاطاً للصور الباكرة للوالدين، وهو ما تعكسه بصورة لا لبس فيها التصورات الثقافية المختلفة عن الرب. ولكن كيف ينبغي على الإنسان أن يصوغ طروحات حول المجهول والغامض كلية غير عن طريق الرجوع إلى خبرات الحياة الأبكر؟ هل علينا، يتساءل إيركسون، «تسمية ذلك نكوصاً، عندما يلجأ الإنسان في طموحه نحو مستقبل خالد، مرجو ثانية إلى المواجهات المسؤولة لماضيه الأبكر؟ أم ألا تسهم الأديان في قدرة الإنسان على أن تعود إليه الحياة بشكل خلاق وبالذات من خلال العودة إلى المراحل المبكرة» (1975 «أ»، صفحة 292)؟. كما أن الأحلام عبارة عن نكوصات وتشبه تشكل العرض العصابي؛ ومع ذلك فلها وظيفة لا يمكن أن يستغنى عنها بالنسبة للتوازن النفسي؛ ولا يختلف أي نفساني بأن قوة الدين تمثل بالنسبة للملايين من الناس وبالتحديد في أوقات الكروب الشديدة منبعاً للمواساة والأمل. لقد رأى فرويد هنا فيه عودة إلى الأوهام illusion الطفلية. وقد أظهر النقد التحليلي النفسي للدين كيف استغلت الكنائس الميول النكوصية لأعضائها بشكل منهجي. فمن خلال قيام المرء بتربية الخوف ومشاعر الذنب لدى الناس وطرح نفسه في النهاية بوصفه المؤسسة الوحيدة المنقذة، فإنه قد نمى بهذا طاعة الإيمان الطفولي وقوى بشكل مصطنع تعاضد مؤسسته الخاصة.

بالقرب من أحد أبواب مدينة دمشق القديمة والمعروف حاليا باب كيسان (يقع حاليا في نهاية شارع ابن عساكر من الشرق وكانت أبواب دمشق أيام الرومان تسمى بأسماء الكواكب فكان اسم باب كيسان باب زحل وكانت عليه صورة لكوكب زحل ويتميز الباب بجمالة ونقوشه الرائعة) وذهب مبشرا بدينه حتى وصل إلى أوروبا. ولم يكن القديس بولس واعظاً موفقاً عندما كان يتحدث إلى اليهود . فكثيراً ما تعرضت حياته للخطر ، ولكنه نجح في تبشيره بالمسيحية بين غير اليهود. حتى وصفوه بأنه داعية الأميين أي غير اليهود. ولم يستطع أحد أن يقوم بمثل هذا الدور من قبله أو من بعده.

وترجع شهرة القديس بولس إلى تبشيره بالديانة المسيحية . وإلى ما كتبه عنها وبأنه الرسول الذي نشر المسيحية في أوروبا . وإلى تطويره لأصول الشريعة المسيحية. فمن بين السبعة والعشرين سفراً من كتاب «العهد الجديد» نجد أن القديس بولس قد ألف أربعة عشر سفراً.

لقد أثار القديس بولس الكثير من الجدل حيث يتهمه البعض بأنه خالف ناموس موسى نفسه أثناء وجوده بين اليهود ولكن المؤمنين به يعتبرونه رسولاً يجب أتباعه وقد بشر بالدين المسيحي واتبعته بلاد كثيرة ويعود له الفضل في إيصال ونشر الديانة المسيحية بداية من سوريا وصولا إلى أوروبا .

أما الكره المنبثق عن هذا فكان لابد من توجيهه على الغرباء والكفار، وتحول مراراً في أوقات الأزمات إلى مصدر للتعصب الهدام.

ومع ذلك لا يمكن للمرء بالنسبة لإيركسون الحكم على ديانة ما بناء على انحرافها. وبالتحديد فإن أصحاب الأديان قد نادوا بتجاوز الكره وحققوا من خلال مُثُل التصالح والإيثار أكبر بواعث لتطوير هوية إنسانية عالمية. ومن المؤكد أنه ربما يكون من التجاسر محاولة استخلاص الإنجازات الإنسانية والثقافية التي لا تصدق للأديان بجد من مجرد الأوهام ومشاعر الذنب فقط.

ومن المؤكد أن إيركسون يرى بوضوح مدى السهولة التي يمكن للتدين أن يرتبط فيها بدوافع مرضية، ومدى السرعة التي تميل فيها المنظمات الدينية إلى جمود جزمي dogmatic. وغالباً ما يكون من الصعب وضع الحدود أين ينتقل فيه التدين الجدي إلى إسقاط ريائي pharisaical، والحماس الصادق إلى عمى تعصبي، والزهد المستقيم إلى مازوخية معذبة لنفسها. ويوضح إيركسون بشكل خاص في عمله حول لوثر عملية ارتقاء وتدهور وتجديد المؤسسات الدينية. فالأديان تقوم بالأصل على خبرات المقدس numinous.

ومقابلة أصحاب الأديان تتحول إلى افتنان، تنزع الناس من هويتهم المتوارثة ويمكن أن تجعل من كل ما هو أرضي بضربة واحدة بلا معنى. ويعتقد إيركسون أن «حياة يسوع المسيح قد منحت ذلك الحضور الكلي والترفع عن الأشياء، التي هي بين الناس السلطة الأقوى، ولكنها الأندر» (1975 «أ»، صفحة 196). فقد عاش المسيحيون الأوائل في جو من الوضوح والأخوة: ملك، «لم يكن من هذا العالم»، استحوذ عليهم جعلتهم للحظة سعيدة من التاريخ ينسون كل الفروق بين الفقير والغني، بين الكبير في السن والشاب.

إلا أن عودة المسيح Messias قد تأخرت، وكانت المسيحية، مثل الأديان الأخرى

أيضاً، مجبرة على تنظيم نفسها، منع كل العواقب، التي تنجم عن مأسسة[1] institutionalization الأفكار الكبرى. وساعد تدوين أقوال أصحاب الأديان في كتب راسخة وتعاليم على توريث خبرات الإيمان إلى الأجيال اللاحقة. إلا أن هذه سرعان ما انتهت في الجزمية[2] Dogmatization ، جعلت من الإيمان الذي كان حياً في يوم من الأيام، موضوعاً للنقاش مبالغ فيه وتعاليم جامدة. وتولى الأشخاص شديدو الحساسية دينياً مهمة الإكليروس[3] التي هي بالأصل ابتغاء وجه الله. ومن أجل نشر حميمية وثيقة بصورة خاصة مع الإلهي، فقد مدحوا الفقر والعفة والطاعة، وغالباً ما جعلوا من أنفسهم أمثلة باهرة لمعاصريهم. إلا أن الاحترام الذي قوبلوا به، استطاع

---

(1) تحويل فكرة أو شيء ما إلى مؤسسة ذات تنظيم محدد وتمثيل محدد، إنه نوع من إنشاء قواعد إجرائية تنظيمية وإرسائها في جماعة أو مؤسسة معينة، بحيث يكون مفهوم المؤسسة وشكلها وحضورها ومصلحتها أقوى وأوضح مما هو للفرد.

(2) الدوجماطيقية.. وهم امتلاك الحقيقة المطلقة. الدوجماطيقية تعريب لكلمة Dogmatism، ولها ترجمات عديدة، مثل: وثوقية، قطعية، توكيدية، إيقانية، جزمية، معتقدية. وهي تعني الاعتقاد الجازم واليقين المطلق دون الاستناد إلى براهين يقينية، وإنكار الآخر ورفضه باعتباره على باطل مطلق! ومن ثم فهي مبدأ التعصب، وسمة لكل متزمت، ومنشأ الحروب العقائدية.

والدوجماطيقية ليست مذهبا فلسفيا أو دينيا، وإنما هي - في أكثر معانيها انتشارا - سمة وطريقة تفكير تتسم بها أي فرقة أو مذهب أو فلسفة تزعم امتلاك الحقيقة المطلقة بشكل شامل، ولا تقر بأنها قد تحتمل شيئا من الخطأ أو النقص، وتقطع بأن ما تحوزه من معارف ومعتقدات لا يقبل النقاش ولا التغيير، حتى وإن تغيرت الظروف التاريخية، أو السياقات المكانية والاجتماعية؛ فهي إذن مقدسة ومنزهة عن أي نقد، وعدم إخضاع هذه المعتقدات لفحص نقدي أو تحليلي براجع الأسس التي تقوم عليها، ودون بحث في حدود وقدرات العقل المعرفية، فضلا عن عدم تمحيص الطرق التي توصل إلى المعرفة الصحيحة في كل لحظة تاريخية.

وتشترك التيارات الدوجماطيقية سواء كانت دينية أم سياسية في مجموعة من السمات التي تجعل الصراع بينهما صراعا عقيما، هي: توهم الاستئثار بالحقيقة، ونفي الآخر، وقصور البصر والبصيرة، وثقافة التسلط، والانغلاق على نظام قيم معين بصورة نصية، وعدم الرغبة في فتح قنوات للحوار، وازدراء الرؤى المخالفة وتخوينها، وعدم السعي للبحث عن أرضية مشتركة. وهذه كلها ببساطة هي سمات الدوجماطيقية.

و يكمن المنشأ الفلسفي للتطرف في طبيعة منهج التفكير؛ فالعقل المتطرف عقل مغلق على نفسه، عقل ذو بعد واحد، ومن ثم يستحيل عليه أن يرى غير أفكاره هو، ويعتبرها ثابتة لا تقبل المناقشة، ومؤكدة بشكل نهائي. (مقتبس عن: محمد عثمان الخشت).

(3) القساوسة الكاثوليك، أو رجال الدين المسيحيين.

أيضاً أن ينقلب إلى إعجاب ومبالغة بتقدير الذات، وجعل بالذات التعصب الأعمى bigotry والانتقام ينموان من جديد، والأمران اللذان حاربهما أصحاب الأديان في الماضي بكل ما أوتوا من قوة. ومن خلال التكيف مع الممالك الدنيوية تشرب الإيمان في النظام السياسي. إلا أن هذا دفع الجماعات الدينية إلى نفسها إلى الطموح نحو السلطة الدنيوية وإبرام صفقات، قلبت في بعض الأحيان مطالبها الأخلاقية على رأسها. وعبر قرون استطاعت الأديان أن تكون قوى مشعة وحاملة للثقافة. ومن ناحية أخرى كانت كثير من المراحل في تاريخ الأديان المنظمة بالنسبة لإيركسون «مستحوذة بالاستبداد المطلق والظالم والبارد» (1981 «أ»، صفحة 83). ففي عصور الانحدار حاولت المؤسسات الدينية الحفاظ على استمرارية سلطتها عبر مخاوف الأطفال من النار واللعنة، وأرهبت مخالفي الرأي بالتعذيب وشرطة الأفكار، وأججت الكره ضد الكفار والأديان الأخرى. ولكن وبالتحديد في أطوار الأزمات حذر الأنبياء والقديسين ومؤسسو الطرق الدينية من الردة وحركوا من خلال صحوتهم على القيم القديمة للإيمان حركات إصلاح كبيرة، جعلت من الأديان تستمر لآلاف السنين، بشكل أطول من كل المؤسسات الأرضية.

ولا يريد إيركسون بأي شكل من الأشكال النظر إلى الدين على أنه أي خلق وهمي للرغبة. فكل اهتمام بالآخرة يصطدم بصورة حتمية أيضاً بأبعاد من العمق والذنب. ويبدو أن مثل هذه الخبرات تمس الناس المتدينين بعمق بشكل أشد، وغالباً ما يعتبرون هذا على أنه هدية أو رحمة من الله. وفي دورة حياة الإنسان المتدين Homo religious يبدو كل شيء يتحرك منذ البداية نحو الاستكمال الديني. ويعتقد إيركسون أنه لدى مثل هذا الإنسان تصبح أزمة الهوية مزمنة وترافقه طوال حياته كلها. ويعذب نفسه بمشكلة، «تجنب الإغواء والفساد ومنح وجوده معنى...بالنسبة له تتطابق مشكلة الهوية الفردية مع الهوية الوجودية» (1975 «أ» صفحة 288). ومنذ وقت مبكر تنشغل مثل هذه الشخصيات بصورة وسواسية بأمور الآخرة ويبدون أكثر جدية من معاصريهم. وغالباً ما يحاولون كمراهقين متأخرين، الهروب من ضغط ضميرهم،

ويمرون بتأجيلات moratorium الإغواء أو يرون أنفسهم في مواجهة مرعبة مع الشر المطلق. إلا أنه بعدئذ تمس خبرة صادمة اللب الوجودي لشخصيتهم وتجلب مركز ثقل آخر في وجودهم. فالقديس يهتدي إلى كمال integrity، يخرق كل نطاق الأرضي - المتعة أو التباهي أو السلطة-، تجعله هو نفسه أمام مخاطر كبرى. فتصبح مقابلة مثل هذه الرموز الكارزمية خبرة باعثة من السبات. إنها تمثل الجسور الحية لوجود أعلى، ويعرفون كيف يوحدون، جماعات كاملة من الناس في شعور من الحاضر المقدس.

ويشعر المرء بعمق انجذاب إيركسون «بالواقعيين الدينيين religious actualists» كما يسميهم إيركسون، من مثل فرنسيس الأسيسي[1] Franz von Assisi أو المهاتما غاندي على سبيل المثال الذين حرروا قوىً جبارة من الحب والإنسانية لدى أتباعهم. ومن دون أن يقول هذا بصراحة، يبدو مثل هؤلاء الرجال بالنسبة له، الذين، «يمثلون العظمة المجردة للأنا» (1975 «ب»، صفحة 46)، بأنهم يجسدون أعلى درجة من الاستكمال للهوية والكمال الإنساني.

(1) فرنسيس الأسيزي أو (فرانسيسكو دي أسيس - فرانسيسكو بيرناردوني) ينحدر من مدينة أسيس 26 سبتمبر 1181 - 3 أكتوبر 1226 لقب كقديس في الكنيسة الكاثوليكية، جاء من عائلة تعمل في التجارة ويعتقد بان أمة فرنسية الأصل ووالدة كان يسمى بيدرو بيرنادوني في اسيس عرف بفرانسيسكو (تصغير لكلمة فرنسي أو الفرنسي الصغير). اسم الولادة والتعميد كان جوفاني بيرناردوني ومن ثم غيره ولده إلى بيدرو بيرنادوني ويعتقد بان والدة غير اسمه تقربا إلى فرنسا لعلاقته التجارية فيهم . فرانشيسكو عاش حياة البذخ في مراهقته وبداية شبابه إلى 1206 عندما ترك عائلته،أصدقائه وبيته وبدأ بالدعوة إلى مساعدة الفقراء واستعمل لغة بسيطة ومؤثرة لمدة سنتين، وفي 1209 كون مجموعة من 12 تابعين له وهب سكان مدينة أسيس قطعة أرض وبني عليها مساكنهم واتخذوا لنفسهم ملابس بسيطة . وكان يدعو فرانشيسكو إلى البساطة، حب الله والناس والمحبة الحقيقية في المسيحية . سافر فرانسيسكو إلى إسبانيا، أفريقيا، وكانت فترتها تمر بلاد الشام الحملات الصليبية وأسس بما يسمى (أحكام القديس فرانسيسكو في 16 أبريل 1209 وفي 1212 انضمت إليه كلارا دەوفريدوشي وأخريات بنفس الهدف الذي كان يدعو إليه فرانسيسكو وتأسس نظام كلاريساس (أي جمع الاسم كلارا).

علم المحبة للناس أجمع وإحترامهم وكان يحترم الحيوانات والنباتات وكان يحث على الرفق فيهم وكان يناديهم بالإخوة وكان يدعو الاقساط وعدم التبذير ويحترم جميع الديانات واحترم فيها أيضاً لان دعوته كانت للسلام والمحبة.

وعلى الرغم من أن إيركسون قد بدا مُبَسِّطاً في كثير من طروحاته بالنسبة للاهوتيين بأنه، فإنه استطاع التعبير عن جوهر الإحساس الديني بإحساس كبير وجزئياً بعبارات بديعة. وفرويد الذي عد نفسه شكاكاً بعمق، وضع أمله في «لوجوس الله[1] God Logos».

(1) اللوجوس «لوجوس» كلمة يونانية تعني «قول» أو «كلام» أو «فكر» أو «عقل» أو «معنى» أو «دراسة» أو «علم» (وهذا المعنى الأخير هو المقطع «أولوجي «ology» الذي يظهر في كلمات مثل «جيولوجي» أو «سيكولوجي»... الخ بمعنى «علم الأرض» أو «علم النفس..»الخ. وقد تطوَّر معنى الكلمة ليصبح «الأساس» و«المطلق» و«الحضور» (في مصطلح ما بعد الحداثة). وسنلاحظ أن ثمة نمطاً أساسياً هو التأرجح بين اللوجوس كفكرة مجرد متجاوزة واللوجوس كتجسد وحلول وكمون. 1- في العبادة اليونانية: يبدو أن الكلمة تعود إلى العبادة اليونانية القديمة، فكلمة «لوجوس» فيها تشير إلى كلمة الإله أو الآلهة إذ هي تبليغ يأتي للنبي بالوحي الإلهي والحكمة والإرشاد، والنبي هو إنسان يوحى إليه بالكلمة المقدَّسة (لوجوس) ويوصلها للناس. لكن فكرة التبليغ بدأت في التراجع وبدأ التجسد في التزايد فأصبح كلام النبي نفسه لوجوس (وهذا الصراع، بين التبليغ والتجسد، هو صراع بين التوحيد والتجاوز من جهة، والحلولية الواحدية ووحدة الوجود من جهة أخرى). 2- في الفلسفة اليونانية القديمة: استخدم بعض الفلاسفة اليونانيين (هرقليطس مثلاً) هذه الكلمة، فأصبح اللوجوس المبدأ الذي يسير الكون من خلاله، وهو الذي يفسر الثبات وراء التغير والنظام وراء الفوضى. فالأشياء رغم تنوعها تحدث حسب اللوجوس. ويبدو أن هرقليطس كان يرى أن اللوجوس له وجود أو تجلٍّ مادي مثل النار، فكأن اللوجوس لم يعد كلمة أو مبدأ وإنما تجسُّد في الكون على هيئة عنصر .ويعتبر اللوجوس فكرة أساسية عند الرواقيين بنزعتهم الحلولية التي تقرن بين الإله والطبيعة. وهم، مثل هرقليطس، يرون أن اللوجوس قوة مادية في العالم (النار الأزلية (تسري في كل الكائنات باعتبارها مصدر الحياة أو العلة السببية والمشتركة، الخالقة والحافظة والمقومة لجميع الأشياء، والتي تُنظم الكون وتحقق التوازن بين العناصر كافة، فهي العناية الإلهية أو القصد الإلهي وهي أيضاً روح الإنسان. واللوجوس أزلية كما أنها روح الكون. 3- اللوجوس أورثوس واللوجوس سبرماتيكوس: من الاستخدامات الأخرى لكلمة «لوجوس»، اصطلاح «لوجوس أورثوس» أي «العقل السليم»، أو «الحجة السليمة» (وكلمة «أورثو» هي تلك الموجودة في كلمة «أورثوذكس» أي «العقيدة السليمة»). وقد استخدم السفسطائيون اصطلاح «لوجوس أورثوس» للإشارة إلى المبادئ والقواعد المنطقية التي ينبغي إتباعها للوصول إلى الاستنتاجات السليمة التي يمكنداخل التاريخ والزمان ليتواصل معه وأن هذه هي الإشكالية الأساسية التي تواجهها كل الأديان ويحلها كل دين بطريقة مختلفة، نابعة من رؤيته. وقد أخذ اللقاء بين الإنسان (النسبي) والإله (اللوجوس والمطلق) في حالة اليهودية شكل حلول الإله في الماشيح وفي التوراة ثم في التلمود وأخيراً في الشعب اليهودي الذي يصبح بذلك مركز خلاص البشرية جمعاء. ثم تعمَّق المفهوم مع انتقال اليهودية إلى تربة مسيحية (فقد عاش معظم أعضاء الجماعات اليهودية ابتداءً من القرن الرابع عشر في أوربا). فازداد مفهوم اللوجوس مركزية وشيوعاً، ونجد أن التراث الحاخامي يجعل المشناه هي اللوجوس. أما التراث القبَّالي فيخلع هذه الصفة على الشعب

اليهودي الذي لم يعد مجرد تجسد للإله بل أصبح جزءاً لا يتجزأ منه (والشخيناه هي الشعب اليهودي وهي أيضاً اللوجوس). ويرى القبّاليون أن اسم الإله الأعظم (اللوجوس (هو أكبر تركُز للحضور الإلهي («في البدء كانت الكلمة»، أي أن الكلمة هي الأصل .(ومن يفك شفرة هذا الاسم، ستدفق فيه القداسة والحضور الإلهي ويمكنه الإتيان بالمعجزات والسيطرة على العالم، مثل التساديك الذي يُسمّى «بعل شيم طوف»، وهي عبارة عبرية يمكن ترجمتها بعبارة «صاحب اللوجوس». ويرتبط السحر بين أعضاء الجماعات اليهودية بهذا المفهوم. وفي اللاهوت المسيحي، أصبحت كلمة «لوجوس» تعني» المسيح وابن الإله قبل أن ينزل إلى الأرض»، وهو الأقنوم الثاني، وهو ليس منفصلاً عن الأب وإن كان متميِّزاً عنه. واللوجوس مخلوق من المادة الإلهية نفسها قبل بدء الخليقة. وهو موجود في عقل الإله ثم خرج إلى الكون. فالمسيح هو تجسد الإله (المطلق (في الزمان (النسبي) ينزل ويُصلَب ويقوم. وبعد قيامه، يعود المسيح إلى الأب، وتصبح الكنيسة (جسد المسيح) اللوجوس المتجسد، فهي معصومة والبابا (رئيسها) معصوم. ويرى البعض أن اللوجوس في الإسلام هو القرآن (نقطة لقاء المطلق بالنسبي) على اعتبار أن القرآن هو كلمة الإله المطلقة وعلى اعتبار أنه كان قائماً بذات الإله باعتباره صفة من صفاته تعالى، ثم تشخَّص تلاوة وسماعاً وكتابة في الوجود الكوني. ويؤكد المسلمون أن هذه ليست حالة تجسد وإنما مجرد تبليغ وتذكير (لفظي)، فالعلاقة القائمة في حالة التجسد هي علاقة توالد (وهو ما عبَّر عنه القرآن الكريم): وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) (التوبة:30). أما العلاقة بين كلام الله القائم بذاته والقرآن المتلو أو المكتوب في المصاحف فهي علاقة الدال والمدلول اللذين لا يلتحمان أبداً إذ تظل هناك مسافة بينهما، هي صدى للمسافة بين الخالق وكل مخلوقاته (الإنسان والطبيعة). والرسول ﷺ ليس تجسداً، فهو ليس إلا حاملاً للرسالة المكتوبة ولا يكتسب أية عصمة وإن كان يكتسب مكانة خاصة لا تماثلها مكانة. وتستند كل المنظومات المعرفية العلمانية إلى ركيزة نهائية) لوجوس) كامنة في المادة تكون بمنزلة العنصر الأساسي الذي يمكن من خلاله تفسير الكون. وهي ما يمكن تسميته «المطلق العلماني» وكلها تنويعات على المطلق العلماني النهائي: الطبيعة/ المادة. والدولة في النسق الصهيوني هي اللوجوس الجديد (والعجل الذهبي) الذي يحل محل الإله في النسق الحلولي التقليدي. وتتهم فلسفة ما بعد الحداثة كل الفلسفات الغربية بأنها «متمركزة حول اللوجوس»، أي ملوثة بالميتافيزيقا، ويحاول أنصار ما بعد الحداثة تأسيس نسق فلسفي بدون لوجوس ومن ثم بدون مركز وبدون ميتافيزيقا بل بدون حقيقة. القداسة بين وحدة الوجود الروحية ووحدة الوجود المادية» القداسة» لغةً هي الطهر والبركة. ويتغيَّر المعنى بتغيُّر مجال تطبيقه: 1- حينما تشير الكلمة إلى الإله، فإنها تعني الكمال الإلهي والتنزه عن الموجودات، ولذا يُقال: «تَقدَّس الإله» بمعنى «تنزَّه»، و«قدَّس فلان الإله» بمعنى «عظَّمه وكبَّره ونزَّهه عما لا يليق بالألوهية». وجاء في التنزيل «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك». ولذا، فالقداسة تعني الانفصال عن عالم الطبيعة والمادة، وهو معنى أساسي للكلمة داخل المنظومة التوحيدية. - 2 حينما تطبق الكلمة على البشر، يكون معناها الطهارة وحلول النعمة أو البركة. كما يمكن أن يكون معناها الطهر الذي يصل إليه الإنسان بإتباع تعاليم الإله ويفعل الخير وتحاشي الشر. والمعنى الكامن هنا أن الإنسان يتطهر من أدران المادة مثلما يتنزه عن الطبيعة. وعلى هذا يُقال: «قدس الإله فلاناً» بمعنى «طهَّره وبارك عليه»، و«قدَّس الإله تقديساً» بمعنى «طهَّر نفسه له». من الواضح، إذن، أن تعريفات القداسة التي وردت في معاجم

ومن خلال المنطق والعلم وحده يستطيع الإنسان بناء ظروف الحياة على الأرض بصورة محمولة، ولكن بداية «في المستقبل غير المنظور ولأبناء آدم جدد» (الأعمال الكاملة، XIV، صفحة 378). ولم يكن باستطاعة فرويد إلا وأن ينصح معاصريه، تحمل الحياة من دون أوهام Illusions، إلا أنه اعترف قبل وفاته بوقت قصير، بأن الناس لن يتمكنوا من أن «يجدوا أي عزاء» في التحليل النفسي.

وعلى العكس من ذلك فقد أشار إيركسون إلى وظيفة الدين المعززة للأنا مبدئياً، وأظهر الخطوط الرابطة للقارئ المهتم بين اللاهوت والتحليل النفسي. ومع ذلك توجد حدود للتفاهم، ليس فقط بين رؤى الأديان المختلفة فحسب وإنما أيضاً بين التحليل النفسي واللاهوت، والتي غالباً ما لم يظهرها إيركسون بوضوح في حاجته نحو الانسجام. فهل يستطيع الإنسان الباحث عن هويته، أن يقارن ببساطة مع إنسان يعيش منذ بداية حياته في التاريخ مع الله؟، هو السؤال الرئيسي على سبيل المثال في المناقشة النقدية لعلم نفس الدين لإيركسون من قبل شنايدر-فلوم Schneider-Flume. واليوم لن ينكر أي رجل دين أن الدين يقوي الثقة والأمل وبهذا يدعم دائماً الشعور بالهوية

اللغة العربية تدور أساساً في إطار المنظومة التوحيدية. وقد وردت السمات التالية في معاجم علم الاجتماع باعتبارها السمات الأساسية للمقدّس: 1- غير خاضع للتقييم النقدي الذي يقتصر على ما هو زمني. 2- المقدّس يكون دائماً موضع احترام ممزوج بالخشية. 3- لا يمكن انتهاكه أو الخروج عليه. 4- عادةً ما تستلزم الموجودات المقدَّسة أن يقوم الإنسان حيالها بطقوس (دينية) وخصوصاً عند التجائه إليها أو معاملته لها أو اقترابه منها أو اتصاله معها مادياً أو معنوياً بأية صورة من الصور. 5- يُستخدَم مصطلح «المقدّس» مقابل «المدنَّس» (الحرام مقابل المباح)، وهي ثنائية تعرفها جميع المجتمعات الإنسانية تقريباً. 6- والشيء المقدّس ليس مقدّساً في ذاته وإنما نظراً لارتباطه بمصدر القداسة وإشارتها له، ولذا فإن ما قد يكون مقدّساً في مجتمع قد يكون مدنَّساً في مجتمع آخر. 7- والأشياء المقدَّسة يمكن أن تكون الآلهة والأرواح والملائكة، كما يمكن أن تكون الكائنات الخارقة للطبيعة أو حتى ينبوع ماء أو شجرة أو حجر أو قطعة نسيج أو فصيلة حيوانية، بل قد تكون الألفاظ والعبارات والصيغ الكلامية والأنغام الترتيلية أشياء مقدّسة. ويمكن أيضاً أن تكون مفاهيم مجردة مثل: الأمة ـ القبيلة ـ أرض الوطن. 8- جميع المجتمعات الإنسانية تستند إلى عقائد تعرف ما هو مقدّس (مطلق) وغير خاضع للتقييم (من وجهة نظرها) وما هو مدنَّس ومباح (ونسبي). والشيء المقدَّس تتحدد قداسته بسبب صلته بمصدر القداسة وتتحدد درجة قداسته بمدى قُربه أو بُعده عن هذا المصدر.

«موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- عبد الوهاب المسيري».

للإنسان المؤمن في أزمات ومخاوف الحياة. إلا أن المشكوك به وما ينبغي رفضه من الزاوية الدينية بالنسبة لشنايدر-فلوم هو «اختزال العقيدة المسيحية إلى وظيفة الحفاظ على الثقة الأساسية، وعموماً تحديد الثقة والأمل من المنظور النفسي لوحده» (1985، صفحة 89). فلو كان الدين سيقتصر فقط وحصراً على المساهمة في الصحة وتقوية الأنا، فلسوف يكون واحداً من مصادر كثيرة لتشكل الهوية ولأمكن من حيث المبدأ استبدال إمكانات أخرى من مانحات المعنى به. وعندئذ لكان لن يعود الأمر مرتبطاً بماهية الإيمان بحد ذاته، وإنما بأن يعمل بشكل صحيح. أما في الأنثروبولوجيا المسيحية بالمقابل فإن علاقة الله بالإنسان ليست شيئاً، يمكنه أن يحضر أو يغيب، وإنما هو شرط وجودي أساسي. فمنذ البداية يمتلك الإنسان الهوية عبر الرضا الإلهي المحب. ليس عليه أن «يبني» بنفسه سعادة حياته، ليس بحاجة، ومهما حصل له، للخوف على أناه. أما في نموذج إيركسون عن دورة الحياة بالمقابل فلا بد للهوية من أن تتطور، لابد من خلقها وتجديدها وهي مهدد هنا دائماً بالأزمات. وعلى الرغم من أنه من المؤكد أن إيركسون لم يقصد هذا، فإن مفاهيم من نحو «إيجاد الهوية» أو «تحقيق الذات» اليوم ترسم صورة إنسان، عليه دائماً في صراع منعزل أن يصمم ذاته هو، وأن يبرر نفسه وفي هذا لا يستطيع مرة تلو الأخرى إلا الاعتماد على أناه المحدود. وهنا لابد من الاعتراض من الناحية الدينية بأن المحاولة بالتحديد لبناء توفيقه من ذاته هو أنه في هذا لا يستطيع الاعتماد على الآخرين وعلى حقيقة الله، تقود إلى العزلة وفقدان الحياة وتشكل حسب الاعتقاد المسيحي جوهر الخطيئة.

وتبدو طروحات إيركسون حول الدين بأنها تتحرك باستمرار بين كلتا هاتين الصورتين عن الإنسان، من دون أن يجعلنا نلحظ شيئاً من قناعته الدينية الخاصة. وغالباً ما يتجنب إيركسون المسائل الأساسية، ما هو جوهر الدين، وذلك بأن يؤكد على الوظيفة النفسية الواقية للدين. ويبدو أحياناً بأنه يختزل نفسياً الخبرة الدينية إلى خبرات الطفولة. وفي طروحات أخرى يؤكد على القيمة الخاصة للدين، عندما يقول على سبيل المثال، بأنه «يمكن تفسير فشل الجهود الدينية، ولكن ليس بأس شكل من

الأشكال التدين نفسه أو الحاجة لإجلال والعبادة» (1966 «أ»، صفحة 60). وبهذا تظل الأسئلة الأساسية في حقل الشد والجذب بين التحليل النفسي واللاهوت لدى إيركسون في النهاية بلا إجابة: أيقوم الدين، مهما بدا مواسياً، بالأصل على إسقاطات ونكوصات طفلية فقط؟ أم أن الله هو واقع فوق الوجود المادي transcendent Reality؟[1]، هل الأحاسيس الدينية هي استحواذ من واقع، تتجاوز الرغبات «الفمية» والمخاوف إلى مدة بعيد وتحيلنا إلى وفرة حياة على الجانب الآخر من وجودنا الأرضي؟

(1) واقع وراء نطاق الخبرة أو المعرفة.

هوامش الفصل السابع:

(i) يوضح إيركسون نموذج أطواره الثلاث حول نمو الضمير بشكل خاص في مقاله:

"Die menschliche Stärke und der Zyklus der Generationen", in Psyche 1966, auch abgedruckt in: "Einsicht und Verantwortung", 1966a, S. 99-145; in dem Aufsatz "Die Goldene Regel im Licht neuer Einsicht", in: "Einsicht und Verantwortung" 1966a, S. 198-222; ferner in dem Abschnitt "Über-Ich und Identität" und dem Kapitel "Reflexionen über die Revolte der humanistischen Jugend", in: "Lebensgeschichte und historischer Augenblick", 1982b, S. 103-105 bzw. S. 199-232; darüber hinaus in dem Abschnitt "Ethos und Ethik", in: "Der vollständige Lebenszyklus", 1988, S. 124-127.

(ii) يوضح إيركسون رؤيته للإيدولوجية بشكل خاص في مقالات:

"Reflexionen über die Revolte der humanistischen Jugend" und "Psychoanalyse: Anpassung oder Freiheit?", in: "Lebensgeschichte und historischer Augenblick", 1982b, S. 199-232 bzw. S. 258-275; ferner im 1. Kapitel von "Jugend und Krise": "Identität", 1981a, S. 11-40; und in dem Abschnitt "Sozialpsychologischer Ansatz", in: "Identität und Lebenszyklus, 1981b, S. 188-211; ferner in "Der junge Mann Luther, 1975a, S. 43-51 und S. 138-160. Vgl. hierzu auch Mitscherlich, A. (1970) und Mitscherlich-Nielsen, M. (1973).

(iii) توجد طروحات إيركسون حول العلاقة بين التحليل النفسي والدين بشكل خاص في:

in "Der junge Mann Luther", 1975a, S. 22-23., S. 125-143, S. 153-157, S. 187-245, S. 277-280, S. 287-295; in "Gandhis Wahrheit", 1978a, S. 473-489; ferner in "Dimensionen einer neuen Identität", 1975b, S. 42-55. Vgl. zum Thema Psychoanalyse und Religion auch Fraas 1983, Klessmann 1989, Linn 1991, Lochmann 1986, Moltmann 1982-83, Neidhart 1972, Scharfenberg 1973, Schneider-Flume 1985.

الفصل الثامن

إيركسون الإكلينيكي

8.1 الفهم الكلاني للمرض عند إيركسون

ظل إيركسون طوال مسيرته العلمية عيادياً بالدرجة الأولى واستنتج جزءاً كبيراً من معارفه من العلاج النفسي. ففي عروضه لحالات من تحليلات نفسية للراشدين والعلاج باللعب أظهر نفسه على أنه ملاحظ لامع وراوي محترف، يعرف كيف يظهر بعبارات قليلة الصراعات المركزية لمريض ما الكامنة خلف الأعراض النفسية المعقدة. وقد قام إيركسون بعمل طليعي في مجال العلاج النفسي للأطفال واليافعين وأدخل مفاهيم مهمة مثل «تشتت الهوية» في علم الأمراض التحليلي النفسي. واهتمامه هنا لا ينصب بالدرجة الأولى على التفسير النظري وإنما يظل إنساناً غيرياً، يحاول أن يساعد ويشفي بكل طاقته.

ومن المؤكد فإن مساهمات إيركسون الإكلينيكية لدراسة العصابات والاضطرابات المبكرة وإرشاداته التقنية ليست شاملة ومتمايزة مثلما هو الأمر لدى شبتز Spitz وكيرنبيرغ Kernberg وكوهوت Kohut وياكوبسون Jacobson. غير أنه في عروضه للحالات استطاع بشكل خاص أن يظهر الطبيعة الكلانية للمرض والعصاب بصورة قريبة من الحياة[1]. ففي كل عصاب تتوقع بطريقة شديدة التعقيد عوامل نفسية ونفسية-عقلية واجتماعية. فالعصاب كما يقول إيركسون «نفسية وجسمية، نفسية واجتماعية وبين إنسانية» (1982 «أ» صفحة 17).

وبالتحديد في المقابلة العيادية، حيث لا يفعل الإنسان بالإنسان أي شيء، وإنما

يفعل معه شيئاً، تتضح التعقيدية الجبارة للشخصية وتشابكية تاريخ الحياة وحاضر الصراع. كما تسهم التعكرات النفسية والأزمات الأسرية والمهنية في ظهور الأمراض الجسمية، ومن ناحيتها تعود للتأثير ثانية على الحالة النفسية والوضع الاجتماعي للمريض. ولا يوجد أي حادث مرضي يظل مقتصراً لدى الفرد على مجال واحد من الحياة. فحوادث التنظيم النفسية والاجتماعية للشخصية تتداخل ببعضها جميعاً وتنتج خللاً متبادلاً في التوازن وخللاً وظيفياً. فالصراعات العصابية على سبيل المثال يمكنها أن تعبر عن نفسها في المجال العضوي أو النفسي أو الاجتماعي، وأن تشخص في المجالات الثلاثة كلها وأن تعالج من المجالات الثلاثة كلها. وعند تسجيل السيرة المرضية لابد من البدء حسب إيركسون بالأعراض، التي تسبب ضغط معاناة خاص في الخبرة الذاتية للمريض، من نحو على سبيل المثال نوبات الصداع النصفي المزمنة (الشقيقة) أو التعكرات الاكتئابية أو نوبات القلق غير المفسرة أو المشكلات الزوجية المرهقة. فإذا بدأ الإنسان مع العضوية، فلا بد له من تفسير، ما هي تأثيرات الشكاوى الجسمية على المريض ومحيطه الاجتماعي. بعدئذ بفحص المرء الوضع النفسي للمعني وتاريخ حياته وبنية شخصيته. ما هو مستوى الأنا عند المريض؟ ما هي المخاوف السائدة لديه، ما هي آليات الدفاع النمطية التي يحاول من خلالها إلهاء صراعه الأساسي؟ وأخيراً وفي خطوة ثالثة يفحص المعالج النفسي الوضع الاجتماعي العام وتاريخ الأسرة. أيعاني المريض من الشقاق الزوجي أم من اضطرابات جنسية أم من صعوبات في التربية، هل هو في أزمة مهنية أم مادية؟ هل كان في تاريخ الأسرة أمراضاً نفسية، تغيير متكرر لمكان السكن أو البلد، أم نائبات دهر غير عادية؟ هل ترهق الصراعات الخارقة منذ زمن لأسرة المريض المريض، غبن معلق، إرث والدي، تعلقات مفرطة الشدة؟ ولابد من ربط كل تفصيل بكل التفاصيل الأخرى. وفي السيرة المرضية[1] anamnesis لا يتوصل المرء إلى البداية المحدد بدقة للاضطراب ولا إلى تنبؤ أكيد بمآل. وفي الواقع فإن كل مرض يتكون من تجميع

(1) استرجاع الأحداث الماضية.

من الشذوذات – تحدث فرويد عن «المحددات المتعددة للعرض multiple determination of Symptom»، يعكس كل عصاب حسب إيركسون «الهلع المعاش بشكل مشترك، القلق المنعزل والتوتر الجسمي»، كله في الوقت نفسه» (1981 «أ»، صفحة 53).

فالتعب المزمن لطالب يرجع إلى استعداد جسدي في ضغط دمه المنخفض باستمرار. إلا أن ذلك لا يمكنه أن يفسر بشكل كاف اضطرابات عمله. فمع تقدم الجلسة التحليلية النفسية يتضح أن الشاب لا يشعر بالراحة مع زملاءه وفي الواقع فإن كل دراسته لا يرغب فيها كثيراً. ومن حيث المبدأ فإنه غارق في مرحلة التعليق، يرغب أن يجرب لفترة زمنية وأن يستمتع بحياته أكثر من التفكير في إنهاء دراسته. ومن ناحية أخرى فهو واقع تحت ضغط أن يكون عبئاً على والديه المتواضعان الدخل وأنه الوحيد بين أخوته الذي سمح له بالدراسة، وكان عموماً حاملاً باستمرار لآمال والديه. وباطراد اتضح للشاب عدم رغبته بالدراسة وقلقه من الامتحان النهائي، الذي كان يؤجله باستمرار بسبب اضطرابات عمله. وقد كشف التحليل النفسي بأن رهاب الامتحان عنده على علاقة بمشاعر الذنب اللاشعورية حول المنافسة مع أبيه، الموظف البسيط من دون الثانوية العامة، الذي قد يتفوق عليه من خلال نجاحه الدراسي. إلا أنه يكمن خلف عدم الرغبة في العمل وبصيغة مقنعة معارضة لاشعورية أيضاً ضد المطالب مفرطة الطموح لأمه، التي رأت فيه دائماً المثال والزوج الأفضل، من دون أن تأخذه في حاجاته الواقعية بشكل جدي. وشعر الشاب بالإرهاق في كل مجالات الحياة واستجاب بتعب مزمن. فالعرض الجسمي المحدد قد تفرع إذاً عند التحليل الدقيق إلى عدد كبير من المعاني.

والأساليب العلمية الطبيعية من نحو التحليل المخبري أو الاختبارات النفسية أو الإحصاءات الاجتماعية يمكنها أن تسهل العمل. إلا أنه من خلال التعاطف العميق ووثبات الحدس بين الحين والآخر يمكن للعيادي أن يكشف في التنوع المشتت للتعابير اللفظية وغير اللفظية للمريض موضوعاً رابطاً، لإقامة ارتباط بين هذه الأعراض، ومشكلات الحياة الراهنة والماضية والحدث اللحظي في علاقة النقل. وبالفعل فإن

عمل التفسير في بعض الأحيان هو أقرب الأسلوب الفني منه إلى التقني، وبوصفه كذلك فهو غير متحرر على الإطلاق من العشوائية الذاتية. ومع ذلك فإنه ستكون هناك عواقب وخيمة فيما لو تم إتباع الوضعية الحديثة[1] modern Positivism حسب

(1) الوضعية أو الإيجابية Positivism هي الفلسفة التي تقول أن المعرفة الحقيقية هي فقط المعرفة العلمية وأن هذه المعرفة يجب أن تأتي من التأكيد الإيجابي للنظريات من خلال المنهج العلمي الصارم .

تعد الوضعية المنطقية Logical Positivism من المدارس الفلسفية المهمة التي ظهرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر وذلك في كتابات الفيلسوف الفرنسي (اوكست كونت Auguste Comte 1798-1857) عندما نبه العلماء إلى التطور المهم الذي يحدث في مسار العلم عندما ينتقل التفكير من المرحلة اللاهوتية إلى المرحلة الميتافيزيقية ثم أخيرا إلى المرحلة الوضعية وقد أراد كونت من فكرة الوضعية هذه التعبير عن اتجاه فلسفي يهدف إلى تحرير العقل من قيود الفلسفة فهو يرى أن تطور المعرفة الإنسانية يمر في مراحل ثلاث هي المرحلة اللاهوتية والمرحلة الميتافيزيقية والمرحلة العلمية أو (الوضعية) والوصف عند كونت ينصب على معطيات الخبرة أو (التجربة) Experience التي تعني وصف الظاهرة على ماهي عليه واكتشاف علاقاتها بغيرها من الظواهر ونقل هذا الوصف من صورة قانون يحدد ماهو واقعي إلى الاستفادة من هذا القانون بما ستكون عليه الظاهرة في المستقبل وقد شارك كونت هذه الأفكار الفيلسوف الانكليزي جون ستيوارت مل J. S. Mill 1803- 1873وكذلك هربرت سبنسر (1820-1903) .

أما المرحلة الثانية فقد تبلورت على يد الفيلسوف النمساوي ارنست ماخ (1838-1916) وغيره والتي اتخذت شكل النقدية التجريبية فقد ذهبت إلى أن واجب الفلسفة ينحصر في تحليل الإحساسات فعدت أن المعرفة ماهي إلا ترابط بين الإحساسات والتصورات وان الإحساسات هي عناصر العالم وقد عدت النقدية التجريبية المفاهيم الفلسفية مثل السببية والضرورة مجرد صورة ذهنية نشأت عن التعود على مثل هذا النوع من التفكير .

أما المرحلة الثالثة فهي (الوضعية المنطقية)التي ظهرت عام 1923على يد جماعة من العلماء والفلاسفة الذين تلقوا تعليمهم في فيينا حول موريس شليك M. Schlick الذي كان يشغل أستاذ الفلسفة وتاريخ العلوم في جامعة فيينا وهو المنصب نفسه الذي كان يشغله من قبله ماخ وفي تلك المدة وبالتحديد بين (1905 -1930) حيث كانت تنعقد المؤتمرات الفيزيائية التي كانت تكشف عن تقدم كبير للعلم وتعثر شديد للفلسفة وكان هدف الوضعية من ذلك هو تقريب الفلسفة من العلم عن طريق استبعاد أشباه المشاكل من الفلسفة والتي تشكل الميتافيزيقا واحدة منها .

فمعرفة الواقع عندهم لاتتم إلا عن طريق العلم . والفلسفة عندهم أولا وقبل كل شيء هي فلسفة العلم وليس موضوعها الوجود والقيم وعليها إلا تشغل نفسها بمسائل ميتافيزيقية . فهي تقصر الفلسفة على التحليل وترفض التركيب والإنشاءات الفلسفية والأنظمة الفلسفية الشاملة ولعل مثل هذه الأفكار تختزل الفلسفة وتضيق مكانها ومشكلاتها المعروفة عبر تاريخها ويتخذ هذا التحليل الذي اتخذته الوضعية المنطقية منهجا له شكلين مختلفين هما :

أولا : التحليل اللغوي الذي يتخذ لغة الحياة اليومية مادة للبحث فيعتمدون على تحليلها ومعرفة معاني عباراتها بغية إيجاد حلول للمشكلات التي تعترضهم في هذا السبيل .

إيركسون واختزال الإنسان المعاني إلى ما هو قابل للملاحظة والقياس: «أريد الزعم بأن العمل الإكلينيكي يتضمن جوهراً من الذاتية المنضبطة discipline Subjectivity، وذلك سواء من جانب المعالج أم المريض - وأنه ليس من المرغوب ولا ممكن، استبدال هذه الذاتية من خلال الطرق التي تبدو موضوعية» (1966 «أ»، صفحة 46).

يصف إيركسون في «الطفولة والمجتمع» القصة المرضية لطفل سام Sam البالغ من العمر خمس سنوات، الذي حضر للتحليل النفسي بسبب الظهور المفاجئ لنوبات تشنج مع تكدر في الوعي. وبالفعل فقد تم إثبات وجود اضطراب دماغي طفيف لدى سام، الأمر الذي سهل حصول النوبات convulsion الصرعية. إلا أنه كان لابد من وجود توتر شديد في الحالة الداخلية للطفل، قامت بشكل دوري بالتفريغ في نوبات تشنج. وعلى ما يبدو فقد كان مصدر هذا التوتر الصراع بين العدوانية والقلق في كثير من مجالات حياة الصبي. وقد ألفى سام نفسه في وسط مرحلة نمو، ترافقت مع الفضول المتزايد والهوامات الجسورة والمبادرة الحركية المنطلقة بشدة. وكان عليه التعلم السيطرة على عدوانيته من أجل ألا ينزلق بشدة في صراعات مع والديه -ومع ضميره البادئ بالتفتح-. وفي سره كان سام عاشقاً لأمه وأضمر مشاعر غيرة من أبيه، سببت له من الجانب الآخر مخاوف ومشاعر ذنب. وأيضاً هنا كان لابد من كبت القلق والغضب والتوتر من أجل عدم الانزلاق في صراع مع المنافس الجبار.

وثانيا: يتخذ التحليل اللغوي منهجا له في معالجة اللغة العلمية مستهدفة بناء لغة صناعية **Artificial Language** تكون بمثابة أنموذج عام للغة العلم.

وقد رد الوضعيون جميع مصادر المعرفة إلى الخبر الحسي مستبعدين بذلك ما لايمكن التثبت من صحته عن طريق التجربة متأثرين بذلك بالوضعية المنطقية التي ظهرت في القرن التاسع عشر على يد اوكست كونت في فرنسا وارنست ماخ في النمسا وهكذا كان هدف الوضعية استبعاد الميتافيزيقا من خلال البرهنة على أن قضاياها لاتحتمل المعنى الذي يمكن أن يوصف بالصواب أو الخطأ مستخدمين بذلك منهج التحليل المنطقي الذي يهدف إلى تحقيق الوضوح في التفكير وإزالة كل غامض ومن أهم الانتقادات التي وجهت للوضعية المنطقية هي أنها لم تكن إلا مدرسة هدامة في تاريخ الفلسفة لأنها وضعت أمامها مهمة محاربة الميتافيزيقا من خلال معيارها في التحقق لان الميتافيزيقا عند هؤلاء هي الفلسفة والقضاء على الميتافيزيقا يعني القضاء على الفلسفة برمتها فهم يعدون الميتافيزيقا خرافة لابد من تخليص الفكر الإنساني منها.

ومن ناحية أخرى تم أيضاً في الجو الأسري للصبي قمع التوتر بصورة مزمنة. ومنذ فترة وجيزة كانت أسرة سام قد انتقلت من حي يهودي إلى ضاحية محيطها من الوجهاء. وحسب إيركسون فقد تحدوا ما يشبه مصير أسلافهم، ذلك الشعب اليهودي الأعزل، الذي غالباً ما كان يعتبر نفسه عبر تاريخه واقعاً تحت رحمة جيرة المسيحيين العنيفين بشكل كامن. في المحيط الطفولي الأصلي لسام استمر التعامل قاسياً بحق؛ وقد كان يثبت نفسه ذلك الذي يضرب الضربة الأولى. إلا أن الوالدين جعلا الطفل يقمع كل غضب وحنق بأي ثمن، وأن يتصرف بأدب وبأصول تجاه الجيران الجدد. فإذا كان سام قد استطاع قبلاً «تحييد» عدوانيته، بأن استثار الكبار بوصفه مهرجاً ومداعباً، فقد تم الآن منع آليات دفاعه المضادة للرهاب. وكانت النتيجة أنه شعر بأنه هو نفسه مهدد من عدوانيته اللاشعورية، ونمى توتره الداخلي. بالإضافة إلى ذلك سادت خلافات شديدة بالرأي بين سام ووالديه، التي لم بتم التعبير عنها بصراحة وقادت لدى الأم بين الحين والآخر إلى نوبات غضب انفجاري تجاه سام. وخلف عدم الاستقرار الانفعالي للأم من ناحية أخرى كمنت صراعات ليست محسومة مع أمها هي. فإذا ما زارت الجدة الأسرة ارتفع مؤشر التوتر من دون أن يتم السماح للمشاعر العدائية التعبير عن نفسها بصورة صريحة. وعندما مزح سام مع جدته في إحدى زيارتها بتخويفها، فاجئتها في الليلة التالية نوبة قلبية، لم تتعافى منها وماتت بعد أسبوعين من هذا.

شعر سام، هكذا أوَّل إيركسون، بالذنب اللاشعوري لموت جدته ونمى لديه قلق مرعب، من أن يموت كجزاء لفعلته. مما قاد إلى أن يفيض وعاء التوتر المتضخم. وسواء في مراحل نمو سام وبنية شخصيته، أم في جو الأسرة والمحيط الاجتماعي للأسرة كان الموضوع السائد هو وجوب الحفاظ على العدوان تحت السيطرة بصورة إجبارية. إلا أن هذا بالذات استثار توترات عالية استثارت في النهاية لدى سام بوصفه «حامل العرض الأسري» الاستعداد العضوي الموجود مسبقاً لنوبات الصرع.

8.2 العصابات واضطرابات أسلوب العضو

مثل فرويد يرى إيركسون جذور العصاب في أزمة النمو في السنوات الأولى من الحياة، حيث أنا الطفل الهش لا يعرف كيفية تقدير التغيرات الجسمية والاجتماعية السريعة والكثير من مواقف القلق والألم، في مقدارها بصورة صحيحة ولا يستطيع الاستجابة عليها بتدبر الراشد[ii]. وبما أن الأطفال الصغار بالتحديد لا يستطيعون بداية توجيه دوافعهم، فإن الرغبات وتجليات الغضب الشديدة غالباً ما تصطدم مع إرادة المربين. والغضب أو العقاب أو عدم الاهتمام من الوالدين يربط الطفل في يأسه بمخاوف وجودية من التخلي عنه وفقدان الحب. وحسب الرؤية التحليلية النفسية فإن الطفولة كلها هي سلسلة من مواقف الخوف، التي بداية تكون حسب إيركسون «مرتبطة بخبرة العضوية المترعرعة» (1982 «أ»، صفحة 398) وتصبح أكثر تعقيداً من الناحية التخلقية التعاقبية epigenesist وتكمن خلف المخاوف المتنوعة للراشد. ولنفكر هنا «بالخوف» المنتشر للرضيع، من أن يترك «خاوياً»، جائعاً، غير مؤمن فمياً، التي تتجسد لاحقاً إلى مشاعر وحدة للراشد ومخاوف وجودية، من أن يكون معزولاً، أو يترك، أن يظل فارغاً داخلياً أو المخاوف «الشرجية» من أن يمتلئ الإنسان بشيء ما شرير، من عدم التمكن من التحكم بالعضلات العاصرة، القيام بأمر مقرف في عيون الأم، التي تتصاعد لاحقاً إلى تصورات تتمثل في الضغط على المرء من قوى تلاحقه، لفقدان السيطرة على نفسه، من عدم التمكن من صد الأفكار الشريرة، ألا يسبب إلا «القرف». وأخيراً مخاوف الخصاء يمكن أن تعبر عن نفسها لدى الراشد في كل المخاوف الممكنة من الحوادث والأمراض والعاهات أو من العقاب الشديد.

في التطور العصابي تكون المخاوف الطفولية قد أصبحت قوية إلى درجة أنه لا يعود بالإمكان لكل مجالات السلوك أو المشاعر أو إمكانات الاتصال أن تعاش. ونتيجة للخوف من الانحراف أو العقاب لا يعود العصابي يتجرأ على الانفتاح على الآخرين، واستغلال الفرص وإبداء الغضب أو أن يسمح بالقرب والمشاعر. إلا أن الدوافع المطابقة ليست مطفأة كلية، وإنما مكبوتة، تقود الحياة الخاصة إلى مملكة اللاشعور وتتسلل في

الأحلام والهوامات والسقطات. ودائماً لابد لآليات دفاع الأنا من أن تحاصر الدوافع والهيجانات اللاشعورية وأجزاء واسعة من الذات - وبالنتيجة مجالات متزايدة من الواقع، الذي يذكر بالمكبوت- تظل مستبعدة من الإدراك في صورة تشبه الغمامة، وهو استنزاف دائم للطاقة، يمكنه أن يجعل الإنسان خائراً ويحمل في طياته نقص في عمق المشاعر ومتعة الحياة والاتصالات الإنسانية.

وغالباً ما يمكن لإشكالية ما أن تغفوا لعقود وبداية عندما يتم مس أجزاء الشخصية المكبوتة في مواقف إغواء أو فشل بصورة شديدة، فإنها تهدد بإغراق الأنا وتسبب مخاوف ومشاعر ذنب شديدة. ومن أجل الدفاع مرة أخرى يبني الأنا عرضاً، وهو ما يشكل وفق رؤية التحليل النفسي حلاً وسطاً بين القوى الكابتة والمكبوتة. فمن جهة يتعلق الأمر بمحاولة إشباع بديلة للرغبة المكبوتة (التي يتم التعبير عنها بطريقة محجبة بصورة غريبة في العرض)، ومن ناحية أخرى بمحاولة إزالتها النهائية. فالموظف الدقيق الذي بلع طوال عمره كل خيبة، وتم تجاهله في الترقية، فظهرت لديه فجأة اضطرابات عصبية في الكلام، فإن هذه الاضطرابات هي حل وسط بين الرغبة اللاشعورية لإطلاق غضبه، وصد هذا النزوع من خلال الأنا الأعلى. والسيدة التي تلقت تربية دينية صارمة والتي قاومت حتى الآن محاولات التقرب من الرجال، عشقت للمرة الأولى وتجد نفسها في مواجهة بجنسيتها «القذرة» المصدودة، فإن الطفح الجلدي الحاك المزعج يعبر من ناحية عن حاجاتها للتربيت والحنان ويمنع من ناحية ثانية القرب الجسدي الحميم.

بنى إيركسون على علم العصابات التحليلي النفسي، إلا أنه لم يعتبر العصابات على أنها صراع نفسي داخلي لوحده. فبمعنى نظرية التوازي[1] parallelism الجسمي النفسي فإن الحوادث النفسية مرتبطة باستمرار بالعمليات الفيزيولوجية وحركات العضو

(1) نظرية تقول أن العمليات الجسمية والعقلية متلازمة وأن أحدهما يتغير بتغير الآخر ولكن من دون أن يكون بين سلسلتي التغير أية علاقة.

الخارجية. فإذا ما تم كبت الرغبات والمشاعر، فإن هذا يؤثر بصورة مطابقة على الوظائف العضوية التابعة لذلك. وبصورة مشابهة لشولتز-هينكه Schultz-Henke يؤكد إيركسون على أن الصراعات العصابية تعبر عن نفسها أيضاً في الكف أو المبالغة أو تشنجات الحركات الجسدية أو التعبير عن المشاعر أو التفكير. وفي هذا يتجلى نضج غير مناسب لأنظمة العضو الطفولية infantile Organmodi. والوظائف الجسدية التي استثارت في الطفولة المبكرة الرفض والعقاب، تكون لدى العصابي مكفوفة بشكل مفرط، في حين أن أنماط السلوك الأخرى التي اصطدمت برضا الوالدين، تتطور إلى تقنيات حياتية قائدة. ويعبر الصراع العصابي لدى الطفل بداية بصورة مباشرة في مناطق الجسد، إلا أنه بعدئذ يتوسع إلى السلوك ككل وللعلاقات البين إنسانية والمواقف الفكرية للإنسان. والعناد والغضب الذي لا يجوز أن يتم التعبير عنه بصورة صريحة، يمكن أن يكمن على سبيل المثال منذ وقت مبكر خلف فرط نمو النظام الاحتجازي retentive Modus: يحتفظ الطفل بفضلاته، يتشنج في كامل وضعيته الجسدية، يغلق نفسه باطراد في التواصل الانفعالي، ويميل للابتعاد في الاتصال حتى عن أخوته وأترابه، ويبدو بلا تعابير ومتصلباً، وكأنه عضلة عاصرة غير قادرة على الانفتاح إلا فيما ندر وبصورة متشنجة.

الأنظمة Modi هي نوع من لغة العضو. وليس من النادر في الأعراض النفسية الجسدية بالتحديد أن يكشف اضطراب مجرى الوظيفة الجسدي الصراع الكامن خلف ذلك بصورة رمزية. ولنأخذ هنا على سبيل المثال تشنج الكتابة، للسيطرة على «الكف الفمي- الآسر oral-captivate» بناء على مخاوف الاستمناء الأسرة. وفي الإقياء المزمن يسيطر بدلاً من الابتلاع فرط توكيد تشنجي لنظام المساعدة الفمي-الطارد oral-eliminate Help-Modus. وربما يرجع سبب ذلك إلى مشاعر القرف اللاشعورية: لا يستطيع المرء «ابتلاع» إهانة ما، إنه لشيء «مقرف»[1]، يريد المرء «طرد» خبرات سيئة أو

(1) هناك تعابير شعبية كثيرة تعبر عن هذا

تمثيلات شريرة للوالدين من نفسه. وفي نوبة الربو يعيق الاحتباس retention الفمي المفرط للزفير، ربما لأسباب من بينها، لأن المرء قد كبح كرضيع، التعبير بالصراخ عن مشاعر الغضب والحاجة للمساعدة. والسلوك الطارد بشكل مفرط، من نحو الاستجابة بالإسهال على الصراعات أو المطالب، هو الشكل الطفولي إذ جاز التعبير، لإشغال الأم «الشريرة» من خلال العطاء. وكذلك يمكن أن يكمن خلف الإمساك المزمن احتجاج طفولي: فمن خلال الاحتباس التشنجي يريد المرء أن يدافع عن بقية من تجاه محيط معاش على أنه جبار. والعجز الجنسي، كف الولوج العدواني القضيبي، يقوم في بعض الأحيان على مخاوف لاشعورية، بفقدان القضيب في المهبل أو جرح الشريكة عند الجماع.

وفي بعض الأماكن من عمله يصف إيركسون الصفات النمطية المميزة القائمة على تثبيت النظام Modus-Fixation أو الأعراض الإكلينيكية لمرضى التحليل النفسي، أو الشخصيات التاريخية التي تشبه بنى العصاب التي استخلصها شولتز هينيكه وأبراهام وريهان. فالعرض الأساسي على سبيل المثال في الكحول أو التعلق بالعقاقير هو النزعة التي لا ترتوي لاجتياف المواد، التي تخفف مشاعر القلق أو ضغط الأنا الأعلى، وتجعل الإنسان ينكص للحظات إلى حالة من الانسجام السعيد بين الأم والرضيع. وبالذات لأنه في كثير من الحالات كان الاتصال بهذه الأم غير آمن، يتجنب المدمن خطر العلاقة الفمية بالموضوع. ومن خلال مادة الإدمان بناء حالات من الارتياح والأمان بطريقته هو – ويدمر نفسه في هذا بالتقسيط. أما الفصامانيون فهم مكبوحين في كينونتهم الفمية- المنفعلة Oral-Passive. وبما أنه لم يُستَجَب بشكل كاف لخلجات مشاعرهم الأبكر تجاه العالم الأمومي، فإنهم بنو تحجر حماية تجاه الآخرين. ويلقي الفصامانيون قيمة على استقلاليتهم وسيادتهم المطلقة autarchy ولا يستطيعون تنمية مشاعر قوية ويتجنبون الارتباط الوثيق من أجل ألا ينزلقوا ثانية في تعلقية وأن يخيبوا. ومثل هؤلاء الناس لا يستطيعون إلا بصعوبة تحمل أن يعتني بهم الآخرون وأن يظهروا تجاههم مشاعر أو حتى يواسونهم. وبما يشبه نظام الرادار عليهم أن يحافظوا على محيطهم تحت السيطرة. وفي سلوكهم غالباً ما يسود الأخذ والاغتنام والتشبث الفاعل.

العرض الأساسي للاكتئابيين هو الكف للنظام الاندماجي الفاعل active-incorporate بنتيجة المخاوف المفرطة من فقدان حب الأم في المرحلة الفمية الثانية. ومثل هؤلاء الناس لا يستطيعون أن يطلبوا شيئاً بشكل جيد وأن يتوثبوا وأن يقتنصوا الفرص، وإنما يبدون متحفظين ومتواضعين ومترددين ويضيعون الفرص المعروضة عليهم من خلال التردد أو التخلي. وبشكل لاشعوري يظل المكتئبون مثبتين على الرعاية الفمية- المنفعلة oral-passive الأبكر من خلال الأم، يتوقعون أن يعطوا من الآخرين، من دون أن يكون عليهم بالضرورة أن يأخذوا بشكل فاعل. وغالباً ما يواصل الكف الفمي في مرحلة النمو الشرجي. ولا يستطيع الاكتئابي التصرف احتباسياً retentive إلا بصعوبة، لا يستطيع أن يقول لا، أن يتمسك بوجهة نظره؛ وبدلاً من ذلك يستجيب غالباً بالتضحية بأفكاره ومشاعره، ولائم نفسه ضمن بعض الظروف منذ البداية مع رغبات الآخرين وآرائهم من أجل ألا ينزلقوا في صراع مخيف. بعدئذ يصعب في المرحلة الأوديبية التودد من أجل الحصول على اهتمام الأب أو الأم. بل أن المميز هو تجنب المنافسة المسببة للخوف من خلال التماهي المفرط مع أحد الوالدين من الجنس نفسه. وهذا يعيق نمو الهوية إلى مخلوق واعياً بذاته، ساعياً للاستقلال، قادر على التفتح وتحديد نفسه في العلاقات الراشدة. وغالباً ما يتم في سن الرشد فرط تعويض للمطالب الفمية الجبارة. ويتحول الاكتئابي إلى أم معطية فقط. وهكذا تنشأ «التواطؤات الفمية oral collusions» النمطية: ولننظر للمرأة الموجودة دائماً للآخرين فقط، ولا مرة اعترضت، تعاني من مشاعر الذنب عندما تطالب بشيء لنفسها، وشريك التفاعل مثل الزوج المدلل أو الابن المدلع، اللذان يحشران دائماً بدور الآخذ.

والقهريون يحاولون تجنب كل ما هو عفوي وغير قابل للتنبؤ، ويبدون حذرين ومترددين ودقيقين وصولاً إلى التحصن. ويسود النظام الاحتباسي retentive Modus، فيكون على القهري الحفاظ على أفكاره ومشاعره تحت السيطرة أن «ينغلق»، لا يستطيع «التخلي» عن شيء من وقته، أو أملاكه، أو أحاسيسه. وكثيراً ما يصبح الجمع والكنز، التدقيق المرغوب للرصيد في البنك للكتب والملفات هي السمات الشخصية البارزة، مع

العلم أنه توجد لحظات عند مراجعة الخزائن أو الملفات، يقوم فيها القهريون «بالتخلص eliminate» من الأوراق بارتياح ومتعة. والميل المفرط للتردد والتمسك يرتبط بالقلق اللاشعوري من الانفجار غير المسيطر عليه للنزوعات العدوانية والجنسية، التي قد تدفع المعني للسقوط في خجل محرج. وفي الوقت نفسه يتم في عدم القدرة العنيدة على التخلي استعراض استقلالية زائفة Pseudo-Autonomy، وهي ما تمثل في الغالب لاشعورياً استجابة معاكسة سادية ضد الأم المُراقِبة أو الأب المتسلط في الطفولة. وبالطبع تتعلق إمراضية أنماط السلوك بالنسبة لإيركسون أيضاً بالمدى الذي تتلاءم فيه مع الأشكال الثقافية الأساسية الثقافية العامة أم لا. والميل القهري يمكن أن يبدو لدى الناس الذين «يتحكمون» بأنفسهم، سلساً كلية وأن يكون متشابكاً بشكل تام مع محركات مجتمع تقني. في حين يصعب على آخرين الكبت. فالتوتر النمطي لكثير من الوسواسيين، بأنه عليه في اللحظة الأخيرة أن يكبح نوبة غضب أو فكرة تكفيرية blasphemy، يقنع بجيشان عالم المشاعر المكبوتة. وفي المواقف الاستثنائية يمكن للقهري أن ينفجر أو «يطلق» كل الغضب المتراكم بضربة واحدة من خلال النقد اللاذع أو نوبة غضب عارمة.

والتعابير المبالغ بها والإيماءات المسرحية التي على الهستيري أن يبرزها في مشاهد، تبدو «مقتحمة» بشكل ما، و «فضولية»، على الرغم من أن الرجل الهستيري يبحث دائماً عن الجاذبية والفحولة potency وتميل المرأة الهستيرية للإثارة الشهوية eroticization لعلاقاتها، فإن الجنسي لدى هؤلاء الناس مكتوم ومشحون بالمخاوف ومشاعر الذنب. وكل الاضطرابات الجنسية الممكنة يمكن أن تعيق الوظيفة السليمة لنظام للقضيب phallus والمهبل Vagina، وحتى عندما تنجح الجنسية بالمعنى الميكانيكي، فإنه غالباً ما يظهر الهستيريين بأنهم قاصرين عن ربط الجنسية والقدرة على الحب في علاقة عاطفية ثابتة. وتبدو المرأة الهستيرية حسب إيركسون بأنها مستحوذة بالوظيفة الجنسية-الشهوانية ومشغولة دائماً بالأحداث، التي تجعل من الدور المستسلم للمرأة مأساوياً dramatization. ومع ذلك تظل جنسياً في الغالب غير قادرة على الإحساس، لأن

الجنسية الخاصة بالنسبة لها قد أصبحت يوماً ما في الطفولة المبكرة غير مقبولة. ويستنتج إيركسون أن «كل هؤلاء الناس المُعَذّبين سواء كانوا مدمنين أم اكتئابيين أم مكفوفين، قد أخفقوا بشكل ما في الاندماج integration في هذه أو تلك المرحلة من المراحل الطفولية، ولهذا فإنهم يحاربون أنفسهم ضد هذه الأنماط السلوكية الطفولية –بعناد، وإنهاك، وبلا نجاح» (1982، صفحة 55).

بالإضافة إلى ذلك يريد إيركسون، مثل فروم Fromm أو هورني Horny أو سوليفان Sulivan، بشكل خاص إبراز مدى القوة التي تشكّل فيها الثقافة والتاريخ الاضطرابات النفسية في أشكال تجليها الخارجية. فالمستحوذين من البروتستانت evangelical أو متحمسو العصور الوسطى أو هستيريو فرويد أو الطباع النرجسية للمجتمعات التقنية في الوقت الراهن قلما يمكن مقارنتهم جميعهم مع بعضهم. ومن المؤكد أن العصابات تقوم على الصراعات النفسية الداخلية. إلا أن المخاوف الكامنة خلف ذلك واختيار العضو وآليات الدفاع النمطية والمقاومات والأيدلوجيات العصابية للمرضى تعكس جواً اجتماعياً لا يقارن. وقد تولد لدى إيركسون في رحلاته البحثية حس للنسبانية الثقافية الاجتماعية لكل العلاج النفسي. فمن المؤكد أن المرأة الشامانية[1] كبيرة السن التي «شفطت» بحرارة الإيمان الطقوسي القلق من جسم طفل

---

(1) الشامانية هي ظاهرة دينية تتضمن مجالات وممارسات الشامان. بالرغم من أن الشامانية موجودة بعدة أشكال حول العالم، قد يكون موطن الشامانية بشكلها النقي سايبيريا وآسيا الوسطى، بالإضافة إلى السكان الأصليين للأمريكيتين والذين يبدون من أصول وسط آسيوية. للشامانية أيضاً وجود في ديانة الشنتو في اليابان، وممارساتهم متعلقة بشكل رئيسي بالطقوس القروية. وفي الهند الصينية، تهتم ممارسات الشامان بشكل رئيسي بمعالجة المرضى. أما بالنسبة للشامانية في كوريا فهي متعلقة أساساً بعالم الأرواح.

الشامان هم سحرة دينيون يعتقدون بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف. وان هذا العالم لا يستجيب إلا للشامان ويقولون بأن لديهم قوة تتغلب على النيران، ويستطيعون إنجاز الأمور عن طريق الجلسات تحضير الأرواح التي فيها تغادر أرواحهم أجسامهم إلى عوالم الروح أو تحت الأرض حتى تستمر بمعالجة المهمات. الغرض الرئيسي للشامان في أي مكان هو المعالجة. يسيطر الشامان الناجح على الأرواح التي يعمل معها، ويستطيع (كما يدعي) التواصل مع الموتى. يدرب الشامان أحياناً بواسطة «سيد الشامانات» والذي يكون أكثر خبرة منه في الشامانية. يجب على الشامان معرفة كيفية السيطرة واستخدام بعض الأمور الشخصية

مريض، قد كانت في ثقافتها الهندية ناجحة مثله هو نفسه كمعالج للأطفال عامل بطريقة علم نفس الأعماق في المؤسسة الأمريكية.

وبشكل خاص لدى المهاجرين الأمريكيين الذين يحضرون معهم البيئات الأسرية والتقاليد المختلفة لبلدانهم الأم «كحقيبة نفسية» إلى العالم الجديد ويرون أنفسهم مواجهين بالاتجاهات المتنوعة لطبيعة الشعب الأمريكي، تتجلى الاتجاهات العصابية بتنوع متعدد. وغالباً ما يتعلق الأمر ببشر لا يستطيعون كفاية تحمل التحول المحموم للحياة الأمريكية والضغط بوجوب التجريب والتقاط الفرص الجديدة. ويشير إيركسون إلى الأهمية القوية التي يمتلكها الجد كرمز للاستقرار والاندماج بالنسبة لكثير من مرضى التحليل الأمريكيين، وغالباً كبطريرك من العالم القديم، مازال يمتلك المبادئ والقيم. وفي نقل مثل هؤلاء المرضى غالباً ما يتحول المحلل النفسي إلى الجد الحكيم، يثبت فيها المرء من الرغبات والصراعات الأوديبية أكثر من الأب الأضعف.

فالشبان من الأسر المهاجرة على سبيل المثال يتماهون كاحتجاج على والديهم، اللذان تكيفا مع الحياة الأمريكية، مع أسلافهم من العالم القديم. وفي تقرير لد يذكر إيركسون ابناً صغيراً لنازح ألماني، الذي تصرف فجأة تجاه والديه كسيرا النفس وكأنه من شبيبة هتلر المتعصبين. ففي تنافسه الأوديبي تماهي مع المعتدين على أبيه وأحيى صورة استثارت في محيطه الثقافي أقصى درجة من الاستنكار. فالصراعات والمخاوف القديمة يتم أخذها إلى الوطن الجديد. فاحتفظ الفارون من الاشتراكية القومية بمشاعر الملاحقة الزورية paranoid. وقد اعتاد كثير منهم شكوا في أن النازيون قد وضعوا أقدامهم في تكساس ومن ثم فقد بدئوا بتأسيس كتائب من الأس أس[1]. فأحد التجار اليهود الناجحين عانى من عرض عدم التمكن من الوصول إلى مكتبه إلا بطريق ملتو

الطقوسية، مثل قرع الطبال أو العربة التي يقودها للسفر، كما يجب عليه حفظ تلك الأشكال والأغاني الطقوسية المهمة بالنسبة إليه.

(1) SS: اختصار Staatssicherheit: وتعني أمن الدولة.

مستنزف للوقت. إذ أنه قد أعاد بشكل لاشعوري بناء شبكة من عسف محيطه الطفولي، كل العصابات العنيفة، التي كان عليه أن يتجنبها والذين جعلوا في يوم من الأيام طريق مدرسته عذاباً. وفي تواطؤ Collusion الصراعات الزوجية والأسرية يمكن أن تتضارب الاتجاهات المختلفة لطبيعة الشعب الأمريكي: فالزوجان اللذان قلما يناسبان بعضيهما، لأنهما متطبعان بنمط حياة الشمال الديمقراطي أو الجنوب الإقطاعي؛ والشبان الذين يتجولون لسنوات طويلة «كهاربين runaways» ويبدون أنهم يمثلون الجزء المسهل للتجوال بشكل متطرف للعقلية الأمريكية، في حين أن والداهم الباقيين في البيت المشحونان بالقلق يمثلان الجزء المستقر بشكل متطرف.

وفي عرض لحالات جيدة القراءة عبر إيركسون عن مبحث أعراض symptomatology وأسباب etiology الاضطرابات العصابية. ويستند هنا على الفرضية الأساسية - الصعبة البرهان في النهاية- للتحليل النفسي، بأن الجذور اللاشعورية للعصاب تكمن في صراعات الطفولة غير المتمثلة. ويتمثل فضل إيركسون في أنه فهم العصاب بصورة مختلفة من ضمنها كاضطراب في أنظمة العضو Organ modi ونبه إلى التنوع الثقافي الاجتماعي للأعراض العصابية. ولكن هل مازالت هذه البنى العصابية التقليدية ما زالت عموماً معروفة بهذه الأشكال المحددة بوضوح، في أيامنا هذه حيث يتزايد عدد المرضى الذين يأتون لعيادة العلاج النفسي بأعراض مبهمة؟ فصور الاضطرابات العصابية والنرجسية واللااجتماعية تنصهر باطراد متزايد مع بعضها البعض وقلما زالت تسمح في الغالب إجراء تشخيص واضح. وتعاني السمنارات التحليلية النفسية اليوم صعوبات مطردة التزايد في تقديم هستيري «حقيقي» أو عصابي قهري لمتدربيها. ومن المؤكد فإن الاضطرابات النفسية تترافق بخصوصيات في الحركات الجسدية وتعابير السلوك. ولكن فيما إذا كان المرء قادراً على وضع تصنيف واضح بين كبح أنظمة محددة وصور التجلي المرضية النفسية أم لا، فهذا ما يبدو مشكوكاً به باطراد.

8.3 الذهانات وحالات تشتت الهوية

يترافق كل عصاب سواء كان في شكل أشد أو أضعف مع مشكلات الهوية. فقد يشعر المرء بالخجل المزمن أو بالنقص أو بالتهديد، أو أن يبالغ في تقدير نفسه بطريقة وهمية؛ فقد لا يستطيع المرء تقبل دوره الجنسي أو أن يشعر أنه في مهنته في المكان الخطأ. إلا أن الشعور بالاستواء الذاتي والاستمرارية يظل لدى العصابي شغال دائماً بشكل سليم. أما في اللامعاوضة الذهانية Psychotically decompensation بالمقابل فإن عملية الهوية identity process اللاشعورية نفسها تدخل في حادث المرض. فالفصامي يعيش حوادث داخلية كأهلاس hallucination خارجية، يبني من إدراكات بالصدفة منظومة هذيان عجيبة، يلبس نفسه هوية شخصيات أخرى، يمط هويته بطريقة عظامية[1] megalomania أو يشعر بأنه واقع بيأس تحت رحمة قوى تلاحقه. وبوصفه معالجاً نفسياً للأطفال فقد حاول إيركسون على ما يبدو إجراء معالجات مستنزفة للوقت ومرهقة للفصامات الطفولية، إلا أنه لم يهتم نظرياً بدراسات الذهانات التحليلية النفسية بشكل كبير مثل هارتمان أو فينيكوت أو فيدرن Fedem أو مالر أو كيرنبيرغ على سبيل المثال[iii].

وحسب إيركسون فإن الفصام يبين لنا بأكثر صورة مميزة فشل الأنا وما ينجم عن ذلك من تهشم الشعور بالهوية. فمعايشة الشك المتطرف، الانسحاب إلى عالم منغلق-وحيد مثير للانطباع بصورة خاصة لدى الطفل. ويتحدث إيركسون عن انطباع فريد من «الاقتراب النابذ centrifugal approach». فتعابير الوجه اللطيفة في الغالب لمثل هؤلاء الأطفال تبدو تتناقض بشكل جسيم مع سلوكهم الشاذ، الصاد. فأية محاولة للاتصال يعقبها مباشرة محاولة هروب منتشرة. ويبدو أن الأطفال الفصاميون يعيشون أعضاء اتصالهم وكأنها مقتحمة عدائية، يسدون أعينهم وآذانهم في الحديث مع الآخر أو يهربون أو يصمتون، أو ينحدرون إلى لغة خاصة ببغاوية. وحتى عندما يتمكن المرء

(1) هذيان أو جنون العظمة.

من بناء نوع من التواصل، فإن الأطفال الصغار يعانون من أشد الصعوبات في التفريق بين الأنا والأنت، قواعد الثنائية. وغالباً ما يبدي الأطفال الفصاميين في مجالات جزئية، من نحو الغناء أو الهوايات أو العزف على سبيل المثال قدرات مثيرة للدهشة. وقدرتهم الحادة على المراقبة تجعلهم حساسين بشكل خاص للاشعور الآخر. فهذه المخلوقات الحساسة بشكل كبير جداً، تعرف بالضبط أين تكمن حساسية المحيطين بهم. وعادة ما يتذكرون بصورة دقيقة جداً، إلا أن ذاكرتهم تبدو عاجزة، على دمج كل الانطباعات المختلفة في عالم خبرة موحد. فشذرات الخبرة المنفردة تسير بشكل منعزل إلى جانب بعضها البعض، ولا تسود أية استمرارية بين الذوات، التي تفعل أموراً مختلفة في أوقات مختلفة. ومثل هؤلاء المرضى ليسوا قادرين على القول: «أنا فعلت ذلك» أو «أنا شهدت ذلك». ولابد دائماً من تكرار اختبار الواقع وتكامل الخبرات، لأن الشعور بجدارة الأحداث بالثقة غير موجود في لحظة الحدث الحقيقي.

ويخمن إيركسون بشكل مشابه لممثلي علم نفس الأنا وجود اضطراب مبكر جداً ووخيم في التفاعل بين الأم والرضيع كجذور للذهان. إذ لا يبدو أنه في السنة الأولى من الحياة قد تم بناء اتصال موثوق بالعالم، فيقوقع الطفل نفسه في عالم خاص موحش. فلا تعود المثيرات الاجتماعية الضرورية جداً لنمو الأنا قادرة على اختراق الجدار المغلق، فلا تحدث عمليات نمو التماهي الضرورية للحياة. وكل أعراض الفصام تقريباً تعكس ضعفاً أولياً للأنا. وبشكل خاص فإن القدرة على إطفاء المئات من المثيرات من الخبرة من أجل التركيز على أمر واحد، غير متطورة كفاية. وغالباً ما يشعر الفصاميون بأنهم غارقين بالانطباعات، ويشككون برسائل حواسهم، وهم عاجزون عن على استخلاص خبرة مترابطة أو سلوك منهجي من كل المثيرات المربكة العارمة. ومن الداخل يهدد اللاشعوري بإغراق آليات الدفاع الهشة، وهو ما يثير نمطياً المخاوف الذهانية من التفكك disintegration والتدمير.

وحتى في المراحل التي تبدو مستقرة يمكن للطفل بشكل مباشر أن يصاب بهجمة

من الغضب القاتل أو نزوعات تشويه الذات الرهيبة، من نحو أن يسمط[1] نفسه أو يقطع قضيبه على سبيل المثال.

وحتى اليوم قلما استطاعت محاولات التفسير الوراثية البيولوجية أو العلم نفس أعماقية أو النظرية التواصلية إلقاء الضوء بشكل كاف على حالة الاغتراب المظلمة للفصام. ويبتعد إيركسون عن كل محاولات التفسير التبسيطية، من نحو صيغة[2] cliché «الأم المسببة للفصام» على سبيل المثال. وبالنسبة لفشل كل علاقات الموضوع الأولى يمكن أن تكون هناك الكثير من الأسباب: كبح التجاوب القصدي intentional من جانب الرضيع، اتجه رفض صريح أو لاشعوري من جانب الوالدين، «صدمات فموية» إضافية من نحو تلوث الصدر بالعدوى، فطريات فمية، انفصالات مبكرة عن الأم، أو أيضاً صدمات شديدة في المحيط الاجتماعي للرضيع، مواجهات عنيفة بين الوالدين أو كحولية الأب. فعدد كبير من العوامل المتفاعلة تجميعياً العضوية والنفسية والاجتماعية يبدو أنه يسهل ظهور الفصام، ولا يريد إيركسون أن يتمسك «بأول سبب» ما: «ربما على المرء تصور أن هؤلاء الأطفال كانوا منذ وقت مبكر جداً عاجزين بدرجة عالية الرقة على رد نظرة وابتسامة وملامسة أمهاتهم؛ تحفظ ابتدائي يدفع الأم من جهتها إلى الانسحاب بصورة لاشعورية. والحقيقة الواضحة كالشمس بأن المشكلة الأساسية تكمن في علاقة الطفل- الأم، لا تسري إلا إذا اعتبر المرء أن هذه العلاقة كمهدئ انفعالي، يمكنه أن يستنسخ هناء كلا الشريكين، ولكنه يمكنه أن يعرضهما كلاهما للخطر، إذا ما فشل أو غاب التواصل. وفي حالات من الفصام الطفولي، التي تعرفت عليها بنفسي، كان هناك قصور واضح في «قوة إرسال» الطفل. إلا أنه بناء على الفشل الباكر بشكل استثنائي للتواصل يمكن أن يكون أيضاً أن الطفل يكشف فقط عن ضعف في الاتصال الوجداني بشكل أشد خطراً، موجود أصلاً لدى الوالدين (أو

(1) الحرق بالماء الحار أو بالبخار.

(2) رَوْسَم: فكرة أو صيغة مبتذلة.

أحدهما)، ولكنه يمكن أن يكون قد تم التعويض عنه لديهم من خلال تشكل خاص للطبع أو من خلال موهبة ذهنية متفوقة» (1982، صفحة 202-203).

بالإضافة إلى ذلك أدخل إيركسون صورة الاضطراب «انتشار الهوية Identity diffusion» أو «تشتت الهوية» في النقاش الإكلينيكي، وهي حالات من الشلل والضياع النفسي، يمكنه أن يترافق مع الأعراض ما قبل الفصامية أو من النوع الحدودي أو التي تبدو سايكوباثية. وحاول إيركسون توضيح مفهوم تشتت الهوية من خلال أمثلة مختلفة. فقد وصف حالة تشتت ليلية لدى وليم جيمس أو الأزمة الدينية المعذبة للشاب مارتن لوثر أو الانهيارات الصادمة للعساكر الأمريكان أو أعراض توقف النمو لمرضاه الشباب. وعلى الرغم من أن التشابهات مع صور الاضطرابات الطبية النفسية لا يمكن تجاهلها في الغالب، إلا أن إيركسون لا يريد النظر لتشتت الهوية على أنه نتيجة لمرض داخلي المنشأ، وإنما كتعبير عن أزمة حياة شديدة بصور خاصة. ويمكن لتراكم من الإرهاقات أو الخبرات الصادمة المفاجئة وبشكل خاص في نقاط التحول الحياتية أن تنهك الأنا، بحيث تنهار الوظيفة التوليفية في اللحظة الراهنة أو عبر فترة زمنية طويلة. فيضمر الأنا ويتعرض لخطر الانهيار في نواه ووظائفه المختلفة؛ وبالدرجة نفسها يعيش المريض نفسه على أنه ممزق، ومشتت وبلا مبادرة. وبالنسبة لإيركسون فإن هذا لا يطال محيط الأنا فقط، وإنما أيضاً مركز الأنا: «يظهر تفتت لصورة الذات، فقدان للوسط، شعور بالتشتت وفي الحالات الشديدة الخوف من الانحلال الكامل» (1981 «ب»، صفحة 154).

وفي بعض الأحيان يهجم تشتت الهوية على الفرد وكأنه دفعة فصامية. فلا يعود المريض قادراً على التركيز بشكل كاف، أو تخطيط سلوكه أو استقبال إشارات العالم الخارجي بشكل صحيح. فيشعر بأن الأحداث «تحصل» من حوله، يشعر أنه «حي». وتصبح حدود الأنا هشة، وتنفجر في الخبرة الراهنة انصدامات الطفولة المنسية منذ زمن طويل أو الأفكار القهرية أو الخيالات الجنسية أو النزوعات العدوانية. ويشعر المريض بأنه ممزق بين انفعالات غريبة عن الأنا، من الغضب العاري مروراً بمشاعر

الذنب المدمرة إلى المخاوف الوجودية الحادة. ويمكن للخبرة أن تفقد لون أناها وخصوصيتها المألوفة؛ فالمعني لم يعد يمتلك الإحساس بأنه يشعر بالراحة بشكل صحيح في ذاته أو يعيش أجزاء معينة من جسده وكأنها لا تنتمي إليه. والحدود بين الذات والعالم الخارجي والهوام والواقع والحلم وحالة اليقظة تهدد بالذوبان في بعضها. وفي الحالات الشديدة توجد تصورات لا يمكن توحيدها مع بعضها عن الذات الخاصة إلى جانب بعضها البعض وتسبب شعوراً باللاترابط. ويشعر المريض بأنه يفقد مركزه ووعيه وإرادته ومبادئه، وقد ينسى في حالات الضياع اسمه أو أصله أو سنه.

وقد درس إيركسون مثل هذه الحالات الحادة في عدد كبير من المحاربين الأمريكيين بعد نهاية الحرب العالمية الثانية الذين انهاروا في أثناء المعارك بشكل مفاجئ كلية بأعراض شبيهة بالذهان وتم تسريح جزء منهم في وقت مبكر من الخدمة العسكرية. وبالنظر إلى كمية الجنود القاصرين decompensate وقف أطباء النفس العسكريين في ذلك الوقت أمام لغز. ولم تكن التفسيرات التقليدية بالنسبة لإيركسون المتمثلة في أن الأمر يتعلق بضعف عصبي أو إدعاءات أو تأثير خبرة الصدمة غير باعثة على الرضا. بل أنه في المواقف المتطرفة للحرب يمكن بشكل مثالي توضيح فرط الإرهاق والانهيار النهائي للوظيفة التوليفية للأنا. فهنا تبدو مجموعة كاملة من عوامل الإرهاق مسؤولة. والجهود الجسمية الخارجة عن المألوف وحالات الإنهاك والمقاومة الضعيفة للمرض والحرارة والالتهابات تسبب فرط إرهاق مزمن للعضوية. وبعد فقدان الوطن والحاجة المتطرفة للآخرين والاستياء والصراعات، والتي تتخللها بين الحين والآخر مواقف خطر كابوسية سببت في كثير من الوحدات نشوء جواً يجيش بشكل متخفي من الهلع. والخوف المستمر وفرط التوتر والغضب الكامن أسهم في ضعف آليات الدفاع لدى الجنود: فتحولت الحاجات الطفولية للهدوء والاستسلام والانسحاب هي المحددة للخبرة باطراد، في حين تعززت بصورة جوهرية أكثر المخاوف المتجسدة واقعياً من خلال مخاوف الطفولة التي اعتقد أنه تم تجاوزها منذ زمن بعيد. ومجموع الإرهاقات المتطرفة في الجسد والنفس والجماعة تجعل الأنا ينهار في وقت من الأوقات. وأحياناً

كانت الخبرة الصادمة الفردية (معركة إطلاق نار حامية، موت أحد الرفاق)، إلا أنه أحياناً أيضاً سلسلة من الاستنزافات هي التي قادت إلى القصور decompensation.

ويصف إيركسون بصورة مثيرة للانطباع تشتت الهوية لهؤلاء الرجال كنوع من الهلع الداخلي المزمن: «لقد شعروا بالتهديد أو بالاستحواذ من أصوات عالية مفاجئة وبأعراض اعترت أجسامهم كالبرق: ارتجاف مفاجئ، هبات من الحرارة من الصداع. إلا أنهم كانوا كذلك حائرين تجاه مشاعرهم أيضاً: فكل شيء، مما كان يباغتهم فجأة أو بشكل مكثف، كان يوترهم، كان يستثير لديهم بشكل ملفت للنظر ضيق الطفولة أو الخوف الذي لا قرار له: سواء كان إدراكاً أم شعوراً، فكرة أم ذكرى».

وما كان مريضاً لدى هؤلاء الرجال، «هو نظام الحجب لديهم والقدرة على عدم الاهتمام بآلاف المثيرات، تلك المثيرات التي نلاحظها في كل لحظة، ولكننا نستطيع عدم الاهتمام بها من أجل التركيز على الأمور التي نهتم بها في اللحظة الراهنة. والأسوأ من ذلك أن هؤلاء الرجال لم يكونوا قادرين على النوم العميق ولا على الحلم بطريقة جيدة. فعبر ليال طويلة تأرجحوا بين نار الأصوات التي لا تحتمل وجحيم الكوابيس التي نزعتهم من النوم، إذا ما تمكنوا منه لبرهة وجيزة. وخلال النهار كانوا غير قادرين على تذكر أمور معينة؛ وكانوا يضلون سبيلهم نحو جيرانهم أو يكتشفون فجأة، ضمن حديث ما، أنهم قد شرحوا أشياء بطريقة خطأ من دون إرادتهم. فهم لم يتمكنوا إذاً من الاعتماد على العمليات النمطية للأنا الشغال بصورة صحيحة، التي يمكن للأصحاء من خلالها تنظيم وفحص الزمان والمكان والواقع والتعرف عليها» (1982 «أ»، صفحة 35).

وقد حاول الكثير من المحاربين في العلاج النفسي عزو فشل أناهم إلى الطفولة المبكرة وكثيراً ما وصفوا هذا بضوء أكثر حزناً مما هو في الواقع. وقد ظهر هنا بالتحديد أن معالجة تحليلية لوحدها للماضي الطفولي لا يمكنه أن يزيل أزمات النمو الراهنة بشكل كامل. فتركزت معالجة إيركسون على برنامج الحياة المحطم لهؤلاء الرجال. فبعضهم قد تماهي مع مثال مرتفع جداً للأنا في دور البطل العسكري الذي لم يتمكن من الصمود في حياتهم المدنية المتواضعة. وكثير منهم فاتتهم الفرص المهنية أو فقدوا

صديقاتهم، وشعروا بالغضب على الحكومة، وتكررت لديهم ذكريات مرعبة عن المعارك. وتمحور العلاج على السماح لمشاعر الغضب والخيبة كلها، وتصفية العلاقات الخاصة والتطرق للإمكانات البديلة من أجل وضع القدم في حياة العمل، وبشكل عام كلية إيجاد طرق للخروج من التلبد الانفعالي الشال وما يشبه إعادة تنظيم عناصر الهوية الممزقة لهؤلاء الرجال.

وبمقدار ما يصف إيركسون ظاهرة تشتت الهوية في دراسات عيادية وبيوغرافية بشكل مثير للانطباع، فإنه لا يقدم الكثير من المرتكزات للمعالج النفسي من أجل التشخيص التفريقي. فكل الأعراض التي يصفها يمكن أن تظهر أيضاً في الأمراض التي يسهم فيها الدماغ أو في الإصابات الدماغية أو العمليات الضمورية للدماغ أو في سوء استخدام الكحول والعقاقير، أو في الذهانات داخلية المنشأ أو في استجابات الخبرة الشديدة. فإيركسون يخشى من حتمية fatalism التشخيصات الطبية النفسية التقليدية. فتشتت الهوية بالنسبة له ليس تعبيراً لعملية مرضية داخلي المنشأ، وإنما كنتيجة لأزمة الحياة، وهي «قابلة للفهم» من حيث المبدأ وعكوسة. فتشتت الهوية سيكون عندئذ نتيجة لاستجابات خبرة شديدة بشكل خاص على الحرب أو التهجير أو الاغتصاب أو الأسر على سبيل المثال. ولكن لماذا يستجيب بعض الناس فقط بأعراض تشتت مطابقة في حين يظل الآخرون قادرين على التنظيم والتصرف؟ ألا تسهم أيضاً في استقبال وتمثل مثل هذه الخبرات تطورات داخلية المنشأ بصورة مصعَّبة؟ وفي النهاية لابد من توجيه الانتقاد أن إيركسون لم يدرس بوضوح كاف أسباب ومجرى والأعراض النمطية لتشتت الهوية منفصلة عن صور الاضطرابات الطبية النفسية. ومن المؤكد أنه قد تم تسبيب الكثير من العواقب الوخيمة، من خلال أنه سرعان ما تم إطلاق أزمات الحياة على تشخيصات مرضية واصمة. وكذلك فإن معالجة صورة مرضية غير واضحة من دون تفسير طبي دقيق جداً، بالعلاج النفسي، حيث قد يتم التعامي عن وجود سرطان أو اكتئاب داخلي المنشأ، سيكون ذو عواقب وخيمة أيضاً.

8.4 تشتت هوية الشاب

تشتت الهوية لدى إيركسون هي بالمعنى الضيق متلازمة اضطراب المراهقة. ولا يتمحور الأمر هنا كثيراً حول صراعات الدافع وصراعات صراعات السلطة وإنما حول نوع من توقف النمو على أعتاب سن الرشد، يمكنه أن يترافق مع أعراض مختلفة وظواهر نكوصية[١٧]. وبدلاً من التخطيط لحياته اللاحقة بشكل واقعي ينسحب الإنسان الشاب إلى نفسه باطراد، ويبدو مشلول الدافع أو شكاك أو مستسلم أو يستمر في نشاط هوسي بتمديد مرحلة تعليقه moratorium التجريبية. وغير راض عن نفسه وعن العالم يتوق الشاب إلى طفولته حيث يبدو أن كل شيء كان خالياً من الهم والتذمر، غالباً ما يتمنى لو تمكن من البدء مرة أخرى من جديد كلية. وتعد مثل هذه النكوصات بالنسبة لهذه المرحلة من الحياة نموذجية، إلا أنها تهجم في تشتت الهوية بشكل مؤذ. وكلما ازداد شعور المراهق بعدم الراحة كلما تصاعدت مخاوف الطفولة المكبوتة أو الشك أو الخجل أو الغضب أو ثلة الحيلة، وتدفن القدرة على الاتصال والثقة بالنفس بشكل إضافي، وهي دائرة مغلقة لا يعود المراهق في يوم من الأيام قادراً على الخروج منها بجهده الذاتي. وهذا يمكنه حسب إيركسون «أن يقود إلى حالة من الشلل تبدو آليتها مصممة بحيث يظل حداً أدنى من الواجبات الفعلية والقرارات مرتبطاً مع حد أقصى من القناعة الداخلية بأنه مازال يمتلك الوقت والقدرة على اتخاذ القرار» (1981 «ب»، صفحة 156).

وأحياناً يظهر تشتت الهوية في سلوك انسحابي يبدو اكتئابياً بشكل طفيف، وغالباً ما تكون الأعراض صاخبة، متحدية، شاذة. وتوجد الأشكال المختلفة جداً من التجلي: عدم الرغبة في العمل أو سوء استهلاك العقاقير أو اضطرابات الطعام أو الأعراض التي تبدو عصابية أو ذهانية، كل الأعراض اللااجتماعية الممكنة من وقاحة اللسان ونزعة التدمير غير المضبوطة مروراً بالالتحاق بحركات إيديولوجية متعصبة وانتهاء بالسطو الجماعي المنظم. وليس من النادر أن يختار المرضى الشباب حسب إيركسون الأعراض «الرائجة» في الموقف الاجتماعي الراهن. ويمكن للمثيرات التي تستثير لحالة

حادة من تشتت الهوية أن تكون مختلفة كلية: خيبة كبيرة بالصديق أو الصديقة، خلاف مزمن مع الوالدين، يتصاعد فجأة، ملاحظة خطأ من المعلم، الشعور بالاستبعاد في شلة الأتراب. فيغرق الشاب في ألم عميق، يشعر بأن العالم ينهار من حوله، أنه «لا يعود قادراً على تحقيق شيء». ويعتقد إيركسون أن من المرضى يجعلون أنفسهم تسقط بشكل شبه مقصود، يطورون حالات من الضياع أو يتصرفون في مثل هذه الحالات بطريقة هدامة، بحيث يكادون يتسببون بالتحويل إلى مستشفى طبي نفسي أو مركز تربية أو سجن للشباب. ويبدون أنهم يبحثون عن وضع تعليق status-moratorium بصورة مستترة، كي يتركوا اتخاذ القرار حول حياتهم اللاحقة للسلطات الاجتماعية أو القضاة أو الأطباء النفسيين أو التربويين.

ولا في أي مكان آخر ينبئ صخب الأعراض بالقليل حول نوع الاضطراب ودرجة شدة اضطراب نفسي مثلما هو الحال في المراهقة، وعلى المرء ألا يتسرع في كل سلوك ملفت للنظر بالحديث عن تشتت الهوية. إذ ينبغي حسب إيركسون أن تجتمع أربعة مجموعات من الأعراض: «تشتت الحميمية diffusion of Intimity»، و «تشتت خبرة الزمن diffusion of Time experience» و «تشتت الاجتهاد diffusion of Industry» و «التماهي مع الهوية السلبية identification with the negative Identity».

والأعراض المميزة لتشتت الهوية هي بانتظام عدم قدرة الناشئ على إقامة علاقة حب عميقة ودائمة. ويتحدث إيركسون عن «تشتت الحميمية Diffusion of Intimity»: «ينبثق تفسير أن كثير من مرضانا يعانون من انهيارهم في مرحلة من الحياة تنتمي في الواقع إلى سن الرشد المبكر أكثر من انتمائها لسن المراهقة المتأخرة، من حقيقة أن محاولة الدخول في صداقة حميمة أو منافسة أو في حميمية جنسية وعلاقة حب غالباً ما تعري الضعف الكامن للهوية» (1981، صفحة 156). ومن وجهة النظر التحليلية النفسية فإن هؤلاء الأشخاص لا يمتلكون إلا حدوداً ضعيفة للأنا. وغالباً ما لا يشعرون بالراحة في جسدهم وأفكارهم ومشاعرهم بشكل صحيح، ويعيشون في خوف مستمر بأن الآخرين في حال الاتصال الوثيق جداً يمكن أن يقتحموهم ويهددون أناهم. ومن

هنا سرعان ما يوقظ القرب العاطفي أو الشهواني المخاوف الباكرة من الاجتياف، وإزالة الحدود والتذويب. والمميز هنا هو الإحساس الغريب بالتوتر أو بخبرة الفراغ الكلي والبعد في وجود الجنس الآخر. ومن ناحية لأخرى تصبح الرغبة بالاتصال المحب مطردة الإلحاح. وغالباً ما يكون المريض مثبتاً في الخيال على موضوع مثالي، وتتشنج كل الأحاسيس والأفكار على «فارس أحلام» واحد ووحيد، والذي لا يستطيع المرء التجرؤ على الاقتراب منه بشكل جدي. ويمكن لدى يافعين آخرين أن تأخذ الحياة الجنسية طبيعة تعددية[1] promiscuous في علاقات عمياء؛ فيستغل الآخر من دون مشاعر كموضوع جنسي وينكر هنا أية رغبة بالعلاقة العميقة.

وليس من النادر أن يضاف إلى ذلك تشتت في الهوية الجنسية. ويعاني المرء من صعوبات واضحة في قبول نفسه كرجل أو امرأة، وتتسلل هوامات ما قبل جنسية أو جنسية مثلية إلى الخبرة وتجعل المرء يشعر لبعض الوقت تجاه الجنس نفسه أكثر مما يشعره تجاه الجنس نفسه. إلا أن تشتت الحميمية ليس مجرد اضطراب جنسي، وإنما يشير عموماً من إلى إعاقة عميقة في النمو الانفعالي. ويائساً يبحث المريض الشاب عن «الموضوع الخيّر» كلية، الذي ظل محروماً منه في الطفولة المبكرة ويطرح عليه مطالب ضخمة جداً. وفي الوقت نفسه يدمر الشك والغضب الكامن - وليس من النادر بالارتباط مع نزوعات انتقام عدوانية سادية على اجتياف- الأم الشريرة «bad Mother-Inroject» - طلائع الميول الدائمة. وهذا يجعلنا نشعر بأن هذا يذكرنا بالانقسامات المتطرفة للمرضى الحدوديين، بعدم القدرة على دمج الحب والكره، تمثيلات الأم «الطيبة» و «الشريرة» في علاقة أوثق. فقد قادت الخبرات الباكرة في عدم موثوقية الوالدين أو الرفض في سن الرضاعة لدى كثير من المرضى إلى شك أساسي كلبي[2] Cynic بكل إمكانية لعلاقة موثوقة. ومن هنا يصبح في تشتت الهوية الجزء المقابل للحميمية، أي حالة التباعد،

---

(1) علاقة تعددية غير شرعية

(2) شكاك في طيبة الدوافع الإنسانية أو الاعتقاد بأن السلوك البشري تهيمن عليه المصالح الذاتية وحدها.

مطردة الكبر، يمكن أن تتجلى من خلال التحفظ الهياب، الفاصاماني، ولكن أكثر في الصد الهيجاني agitate للآخرين، في تبخيس لاذع للصداقة والعطف.

والعرض الآخر النمطي لتشتت الهوية هو الاضطراب الغريب في خبرة الوقت. ويتحدث إيركسون عن «تشتت منظور الوقت Diffusion of Time perspective»، عن الشعور «بوجود الشخص تحت ضغط كبير للوقت، ولكن في الوقت نفسه كذلك الشعور بفقدان مفهوم الوقت كبعد من أبعاد الحياة. فالشاب يشعر في الوقت نفسه بأنه صغير جداً، طفل تقريباً، وكبير جداً. وكل مرضانا تقريباً يشكون من أنهم قد قصروا في أفعال كبيرة وبددوا في وقت مبكر مواهب كبيرة؛ وكذلك الشبان من تلك الثقافات التي تعتبر مثل هذه الشكاوى رومانسية. ويكمن خبث هذه الحالة في القناعة الاستسلامية بأن الزمن لن يغير في هذا شيئاً وكذلك في الخوف العنيف بأنه قد كان بإمكانهم عمل ذلك» (1981، صفحة 159). ويبدو وكأن الوقع البيولوجي للحياة قد سكن إلى حد ما. فيتحرك المريض ببطء وببلادة apathic وكأنه في فيلم حركة بطيئة، يبدو متعباً بشكل مزمن ومستسلم وغير موجود. ويصعب عليه النوم أو الاستيقاظ أو الوصول في الوقت المناسب أو الخروج في وقت مبكر. ويكاد يتولد لدى المرء الانطباع وكأن الشاب يريد أن يوقف الزمن. فيتم إنكار الماضي الطفولي كمصدرً للإحباط والفراغ. ولا تبدو حياة بعد المراهقة جذابة وقابلة للتصور بشكل من الأشكال. وقلما يبدو أي شيء مثير ومشحون ليبدوياً، ولا يستحق أي أمر الاهتمام. وخلف البحث عن المتعة قصيرة الأمد والتجنب بعيد المدى لكل بذل يكمن يأس عميق. وبما أن المرء لا يرى لنفسه أية فرصة في المستقبل فإنه يحاول تعليق الوقت وأن يقدس الآن وهنا، من خلال التحليق في «الزمن المطلق» عند سماع الموسيقى أو من خلال الخبرات الصوفية في الرقص أو البحران ecstasy أو في التعليق الذهاني لتدفق الخبرة في تعاطي العقاقير على سبيل المثال.

كما أنه في هذه الظواهر يبدو المريض ناكص إلى أنماط الخبرة الطفولية الأبكر المأزومة أو إلى المرحلة الفمية. فعنصر الزمن في الثقة الأصلية المتكونة في الذات يقول

أن الرضيع يستطيع الاعتماد على «الأم الطيبة» عند الإحساس بأول مشاعر الضيق المشتتة ويتعلم الاتكال على إشباع كاف بيقين كاف. والتأخر المزعج للإشباع أو الإشباع غير الكاف للرغبات الفمية يترك في الطبقات الأعمق من الروح موقفاً من اليأس الشكاك. والثقة الأصلية «بالأم الطيبة» تكون في تشتت الهوية المراهقية ضعيفة أو يتم بين الفينة والأخرى حجب «تمثيلات الأم الطيبة» من خلال مشاعر الغضب والخيبة. وحسب إيركسون فإن المرضى الشباب الناكصين بصورة حرجة يظهرون «ما يشبه الشك في الزمن بحد ذاته؛ فيبدو كل تسويف يبدو كخداع، وكل وجوب للانتظار كخبرة يأس، وكل أمل كخطر وكل برنامج ككارثة وكل كفيل محتمل كخائن. لهذا لابد من إيقاف الزمن، وفي حالة الضرورة بوسائط سحرية من اللاحركية الجمودية -- أو من خلال الموت» (1981 «ب»، صفحة ، 1980).

وترتبط اضطرابات العمل وعدم الرغبة في التعلم والتهرب من أي التزام بالمدرسة أو التعليم بشكل وثيق مع تشتت خبرة الزمن. فيصل المرء متأخراً، لا يشارك يشعر أنه محمل فوق طاقته، يتغيب من دون عذر يهيم على وجهه. ونتيجة لضغط الوالدين والمربين ينتقل المرء من المدرسة أو المهنة التي يتعلمها، ويتحمس في بعض الأحيان لوقت قصير لمشاريع خيالية ما، إلا أنه عند أقل خيبة يعود ثانية للاستسلام الخائر، بما يشبه التسبيب في الخروج من دون تعليم أو مهنة. وعلى الرغم من أن مثل هؤلاء الشبان حسب إيركسون يبدون للخارج لا مبالين فإنهم في الغالب يعانون داخلياً بمعمق من ألا يتمكنوا من الصمود مع الآخرين. ويبدو لهم أن الحظ يبتسم للأتراب ويبدون أسعد وأقدر وأقل هموماً، في حين أنهم هم أنفسهم يظلون في دور المظلومين والفاشلين. ويتحدث إيركسون عن «تشتت الاجتهاد»، أي الشعور المتجذر بعمق من التثبيط والعجز. وغالباً ما لا يكون هؤلاء المراهقون منذ الطفولة المبكرة قد عملوا أية خبرة صحيحة في أنهم قادرين على أن يعملوا شيئاً ما له قيمة وأنهم مأخوذين على محمل الجد من الراشدين. ومجرى حياتهم غالباً ما يكون عبارة عن سلسلة من الخيبات. ومن الناحية النفسية الديناميكية غالباً ما يكمن خلف تهيبهم من أي إنجاز تنافسي صراعات

أوديبية شديدة. فلاشعورياً يحس مثل هؤلاء الشبان بأنهم واقعون تحت رحمة تمثيلات والدية جبارة. فيعني الكثير منن النجاح بالنسبة لهم الدخول في منافسة مع المزاحم المخيف، الأمر الذي قد يستثير مخاوف ومشاعر ذنب بدائية.

ومن ناحية أخرى فإن كثير من مرضى إيركسون قد قدموا من أسر وافرة مادياً ولم يحصلوا في سيرتهم المدرسية إلا على الدعم المعقول فقط. فقد كان لديهم على الأغلب عبء مطالب الكمال المفرطة بالمعرفة والقدرة الذاتية هو المسؤول عن الأزمة. وغالباً ما كانوا وقعوا منذ الطفولة تحت ضغط مطالب الإنجاز العالية، وكان عليهم أن يخففوا من الشك النرجسي بالذات لوالديهم من خلال النجاح المتكلف[1] أو قيسوا بمثل عليا لا يمكن الوصول إليها من الأسرة. فعطل ثقل مثل غير واقعي للأنا I-Ideal منذ البداية أي صفاء في العمل والخلق وأي متعة بالإنجاز الذاتي.

والسمة الرابعة الأساسية في تشتت الهوية في المراهقة بالنسبة لإيركسون هي التماهي مع الهوية السلبية. فيقارن الشاب نفسه في السلوك ونظرته لنفسه مع أولئك الأشخاص أو تلك الاتجاهات بالتحديد التي اعتبرت من قبل محيطه منذ الطفولة على أنها غير أخلاقية أو شريرة أو خطيرة، يتبرأ من كل ما يعتبر من الوالدين أو المعلمين على أنه جدير بالطموح وصحيح. والأطفال من الأسر المتدينة بشكل صارم يجربون مذاهب حسية hedonic[2]، والشبان من بيوت غنية يرتدون ثياب المتشردين، وابن المحامي يصاحب أشخاص من المتعاطين. وهذا يمتد إلى أبعد من مجرد الاستفزازات المعتادة للشبان. وعلينا الحديث عنا عن ما يشبه التحول الإرادي إلى دور الهامشي والخروف الأسود. ويمكن أن يتعلق الأمر بمعاناة صامتة: فالمدلل المزمن الذي ينمو بشكل «مختلف كلية» عن أخونه الناجحين الواثقين من أنفسهم، يفشل في المدرسة ويصاحب أصدقاء السوء ويتعاطى العقاقير يصبح في النهاية حالة بالنسبة للطب

---

(1) مبالغة حمقاء.

(2) المذهب الحسي أو المتعي الذي يقول أن المتع الحسية هي الخير الأوحد في الحياة.

النفسي. إلا أنه غالباً ما يقطع المراهق كل الجسور مع منبته الأصلي ويرميها خلفه. فتتحول ثقافات ثانوية محددة إلى أسرة بديلة، تؤمن الانتماء والهوية. وفي أميركا في خمسينيات القرن العشرين كانت بصورة خاصة شلل الشبان والعصابات، واليوم جماعات Punk[1] أو حليقي الرؤوس أو قطاع الطرق الصغار hooligan ومجموعات المتعاطين أو الحركات السياسية والدينية المتطرفة.

والشبان من مثل هذه المجموعات الهامشية يستعرضون نحو الخارج وضعية خاصة لا تلين. ويبدو أن الأمر يتعلق تقريباً، بتجميع كل، ما يرعب الراشدين بشكل من الأشكال، ومن ثم خلق صورة للذات وبروفيل جماعي جديدين. فيرتدون الثياب البالية ويربون الفئران كحيوانات منزلية، يمنح نفسه من خلال حلق الرأس على الموس الأبهة شبه العسكرية، يتبنى علانية شعارات فاشية ومولدة للعنف. ويتم الدفاع عن مناطق محددة، عن طريقة خاصة في الحياة باعتبارها الشكل الأخير من التعبير تجاه عالم يبدو جباراً. وما يميز الاتجاه وصورة العالم هو الانقسام شبه الحدودي بين الجماعة الخاصة «الخيرة» والعالم الخارجي «الشرير». فتجاه الجيل الأكبر أو الأتراب «المتلائمين» يتصرف مثل هؤلاء الشبان بشك متهكم أو بنوع من الاعتزاز النَّفَّاجي[2] snobbish. وكل المحاولات للتواصل من جانب الوالدين أو العاملين في الخدمة الاجتماعية أو المعالجين النفسيين تواجه بسخرية عالية. وبالتحديد بما أن الشعور المشترك بالهوية هش بهذه الدرجة فلا بد من توجيه الشك والعدوانية إلى الخارج ومن هنا يمارس مثل هؤلاء الشبان وبشكل قهري إلى حد ما أية خروقات للمعايير، من أجل التنفيس عن غضبهم وللدلالة على شرهم: شغب، تخريب الممتلكات، مواجهات عنيفة مع أذى جسدي، تصرفات جنسية شاذة وإذلال وصولاً إلى الجرائم المشتركة المخططة. ومن ناحية أخرى

(1) الرديء أو السيء السمعة

(2) السلوك النَّفَّاجي: سلوك غير لائق متكبر على من يعتبرهم الإنسان أدنى منه، أو المقتنع من غير مبرر بأنه أفضل من الآخرين في مجال من المجالات. والنَّفَّاج كذلك هو المقلد لمن يعتقد أنهم أرقى منه والذي يسعى إلى صحبتهم ويتملق لهم.

يمكن للمنتمين إلى مثل هذه الجماعات الفرعية بالتحديد حسب إيركسون أن ينمّو مشاعر ولاء شديدة في الانصياع للمجموعة أو في الإخلاص إلى قائدهم، لهذا على المرء ألا ينظر إليهم منذ البداية على أنهم غير أوفياء أو منحلين(٧).

ويعكس اختيار هوية سلبية في الغالب المساعي اليائسة للحصول على الاعتراف بشكل من الأشكال والأخذ على محمل الجد. فمثل هؤلاء الشبان يفضلون أن يستعرضوا شيئاً سيئاً، مرفوضاً من ألا يقدموا أي شيء على الإطلاق أو من أن يصبحوا باقة لا هوية لها من توقعات عالم الراشدين. وغالباً ما يتعلق الأمر بأطفال غير مرغوبين وغير محبوبين من أسر متعددة المشكلات في بؤر توتر اجتماعي أو من المنتمين للأقليات، التي لا تمتلك في أدغال المدن الكبرى أي أمل بالعمل والصعود. ومن ناحية أخرى اختار أيضاً كثير من مرضى إيركسون من أسر ميسورة دوراً سلبياً بدا متناقض كلية مع تربيتهم. وبداية عند التحليل النفسي الأعماقي الأقرب ظهرت «آليات تفويض Delegation Mechanism» لاشعورية للأقارب، الذين زادوا من تصعيد حدة تشتت الهوية. فكثير من هؤلاء الشبان كانوا مفوضين بشكل لاشعوري بممارسة جزء من النزوعات اللااجتماعية أو الذهانية الكامنة لوالديهم ولإحداث ما يشبه شكل من الصورة السلبية المناقضة. ولنتذكر أطفال الآباء الجبارون الذين يفشلون في حياتهم أو بنات الأسر شديدة الأخلاقية اللواتي يتحولن إلى مومسات أو بابن الموظف الحكومي الذي يقوم بأعمال إرهابية.

ويسير التحليل النفسي لمثل هذه الحالات وبالتحديد في بداياته بشكل مأساوي ومؤذيا ظاهرياً على الأغلب. ويتحدث إيركسون عن «الاتجاه المنخفض جداً Rock Bottom Attitude»، حالة من ترك المريض نفسه تسقط، «سحب إلى النكوص وبحث عن الوضع الأشد انحطاطاً الذي يشكل في الوقت نفسه الحد الأقصى للنكوص والأساس الوحيد الراسخ من أجل صعود جدي» (1981 «ب»، صفحة 196). وغالباً ما يبدو الشاب صاداً كلية، سلبياً، متمرد ضداً الأطباء ونظام القسم. أو أنه يهوي في مزاج اكتئابي يائس، يعبر عن أفكار انتحار أو ينزلق في نكوص يوحي بالفصام. ويرى

إيركسون أنه من غير المفيد القيام بدعم المريض من خلال المديح المصطنع. ففي التحليل النفسي لابد دائماً من الوصول بداية إلى أعمق حجر من أحجار الأساس، قبل أن يتم التمكن من إعادة زحلقة النمو نحو الأمام ثانية.

ومن ناحية أخرى سوف يحس كل محلل نفسي في نقله المعاكس بالقلق فيما إذا كان قادراً على إخراج الشاب ثانية من النكوص. ففي العملية التحليلية النفسية يتعلق الأمر على تمكين الشاب من «البدء من جديد» (Balint, 1966)، عليه أن يتعلم أن يحب ويثق، طيب السريرة كالطفل. في كل تصرفاته ينكص المريض إلى علاقات الموضوع الأبكر ويرى في المعالج الأم التي تتغلب معه من جديد أزمات النمو الاجتماعي النفسي. ويرى إيركسون أنه «إذاً فظاهرياً فقط يجلس المعالج مقابل شاب هازئ وعنيد ونافر؛ ففي الحقيقة يتوقع منه أن يتولى وظيفة الأم، أن يقنع طفلاً صغيراً بجدارة الثقة بالحياة. وتحتل مركز المعالجة حاجة المريض لتحديد نفسه بنفسه بصورة واضحة وإعادة بناء هويته من جديد» (1981 «ب»، صفحة 170).

وعلاج تشتت الهوية هو علاج طويل ومتأزم. فالشاب واقع دائماً تحت خطر التصرف الهدام؛ ومن هنا فإنه لامناص في الغالب من وضعه في محيط عيادي محمي. ففي الاتصال مع هذا المريض الصاد ظاهرياً، ولكن الحساس داخلياً بدرجة ضخمة يظهر ماذا يعني مواجهة شخص آخر بصورة كاملة. فدائماً تكون استقامة المعالج على المحك، وصبره مستنزفاً إلى أقصى درجاته من خلال كل المماحكات الممكنة. وفقط عندما يتمكن المعالج من الحفاظ على علاقة ثابتة بصورة مطلقة ويؤمن داخلياً باستمرار بتقدمه، يكون التحسن ممكنا وفي كل وقت يمكن أن تظهر انتقالات مفاجئة بين المراحل المشحونة بالأمل والانتكاسات السيئة. إذ غالباً ما لا يستطيع الأنا الضعيف للمريض الحفاظ على حدوده نحو الداخل والخارج، بحيث تنجم انزياحات مشتتة للخبرة. فتنقلب لحظات التلقائية والإبداعية إلى أطوار التباطؤ والتبلد apathy؛ ويتحول الاهتمام المركز إلى تعب لا يمكن التغلب عليه، ويمكن لخبرة الواقع والهوية أن تقطعها فجأة مشاعر الاغتراب وعدم الوجود الجسدي، تهوي لحظات الثقة بالنفس إلى مشاعر

النقص المدمرة. فعندما تغمر قوى الهو الدافعية الأنا يحصل على سبيل المثال إفراط في الاستمناء، أو اختلاطات جنسية غير شرعية أو نشوة شراب؛ وفي النهاية يطالب الأنا الأعلى السادي بالجزية الخاصة به في مزاج الانقباض والشك.

ومن بين تفسيرات إيركسون لمثل هذه التأرجحات المشحونة بالأزمة في مجرى العلاج هو أنها علامة «المقاومة الهوية». والمقصود هنا خوف المريض من أنه يمكن للمحلل أن يدفن شخصيته في مجرى المعالجة، ويعتبره مجنوناً وعوضاً عن ذلك يقوم بغرس هويته هو فيه، كأن يقلل من قيمة علاقاته البين إنسانية ويفرقها أو يغير أسس أخلاقه وعقيدته على سبيل المثال . وبالتحديد لدى الشبان ذوي الشكل المرتفع بعالم الراشدين وكل ما هو مؤسساتي فإن هذا الشكل من المقاومة كبير جداً. فالرغبة اللاشعورية المنبثقة من منابع طفولية مبكرة، بتدمير المعالج، من أجل ابتلاع جوهره وهويته بهذه الطريقة، تظهر في الوقت نفسه مع الخوف والرغبة من أن يتم ابتلاعه، وهذا يعني الحفاظ على هوية من خلال الذوبان في شخص المعالج. وهذا التأرجح بين الابتعاد الشكاك والميل للتضحية الكاملة بالنفس تتحول لدى المراهقين المضطربين بشدة المشكلة الأساسية بالعلاج. فالمريض يتوق حسب رؤية إيركسون إلى «أن يعترف المعالج بهويته السلبية كواقع وضرورة (مع العلم أنه على حق)؛ إلا أنه على المعالج ألا يستنتج من ذلك أن هذه الهوية السلبية هي كل «ما يكمن فيه». وعندما يتمكن المعالج من تحقيق كلا هذين المطلبين، فإنه ما يزال عليه تأكيد نفسه بصبر أيضاً من خلال الكثير من الأزمات الشديدة، بأنه ليس قادراً على ضمان الاحترام للمريض فحسب وإنما أيضاً التفهم والدفء، من دون إرادة الابتلاع أو أن يقدم نفسه هو كوليمة طوطمية. وعندئذ أولاً يمكن أن تطفو بتباطؤ الأشكال المعروفة من النقل» (1981، «ب»، 172).

ويرجع الفضل لإيركسون بأنه قد وضح بأن تشتت الهوية، وليس الأمراض النفسية أو الميول الجنائية أو بنية شخصية المنحلة يكمن خلف كثير من أنماط السلوك المنحرفة للشبان. وكثير من الظواهر التي يصفها إيركسون تبدو معروفة بالنسبة لكل شخص يعمل علاجياً أم تربوياً مع الشباب المضطربين. إلا أنه لا يمكننا الحديث عن تشتت

الهوية إلا عندما تتوفر جميع مجموعات الأعراض في الوقت نفسه. وكثير من الأطباء النفسيين يتسرعون في ربط مشكلات الهوية الشديدة للمراهقين مع تشخيصات إكلينيكية من نحو «عصاب-الجوهر» أو «عصاب شبه ذهاني» أو «سيكوباثيا» أو «الفصام البسيط». ومن وجهة النظر التحليلية النفسية تكاد كثير من أعراض تشتت الهوية تشبه إلى حد كبير المتلازمة الحدودية التي وصفها كيرنبيرغ في عام 1983. ويخشى إيركسون جسامة مثل هذه التشخيصات، التي تختم الشبان في هذا العمر المزعزع بشكل خاص من إيجاد الهوية بوصمة مرضية. فتشتت الهوية هو عبارة عن أزمة نمو عميقة على أعتاب سن الرشد وليست تعبيراً عن حدث مرضي داخلي المنشأ أو عرض «البنية شخصية متقلبة بشكل ثابت». ومن ناحية أخرى يتحدث إيركسون نفسه عن «مرضى» وينصح في أكثر من موقع بالعلاج المركزي. وعلى ما يبدو فإنه قد حصل في معالجاته المكلفة على الحالات الأقرب لأن تكون الآمال فيها كبيرة، ومن المؤكد فإنه قد كان هناك مرضى كان التشتت متأثراً بشكل أشد بعوامل داخلية المنشأ ولم يكن المآل فيها ملائماً كثيراً. وهنا كذلك فإنه من الضروري إجراء تشخيص تفريقي أدق. إذ لابد من علاج الاكتئاب داخلي المنشأ أو اضطراب الطعام المتطور بصورة خبيثة بطرق غير طرق علاج أزمات الهوية الشديدة.

لقد كان من المهم أن إيركسون قد أدخل مقاومة الهوية إلى النقاش الإكلينيكي، والذي لابد له وأن يحظى كما يرى تومي وكيشله (Thomae & Kaechele, 1988)، بأهمية أكبر بكثير تتجاوز مجال العلاج النفسي للشبان. ولنتأمل المرضى من دون أن استبصار بالمرض (فقدان الشهية العصبي، الزور)، الذين يعيشون العلاج النفسي على أنه تضحية كاملة بشخصيتهم. ولا بد لهذه المقاومة من أن تشغل بال الكثير من المُحَلِّلين المتعلمين أيضاً، الذين يبدؤون التحليل النفسي من دون ضغط كبير بالمعاناة ويتساءلون فيما إذا كان بالإمكان التشكيك من خلال ذلك بكامل حياتهم حتى الآن.

هوامش الفصل الثامن:

(i) يوضح إيركسون فهمه الكلاني للمرض بشكل خاص في المقالات:

"Kindheit und Gesellschaft", 1982b, S. 17-41; und "Das Wesen der klinischen Beweisführung", in: "Einsicht und Verantwortung, 1966a, S. 42-73.

I Eriksons Falldarstellungen neurotischer Problematiken finden sich vor allem im 2. Kapitel von "Kindheit und Gesellschaft": "Die Theorie der infantilen Sexualität", 1982a, S. 42-103; im Kapitel "Das Notizbuch eines Klinikers", in: "Jugend und Krise", 1981a, S. 41-73; und im Kapitel "Ich-Pathologie und geschichtlicher Wandel", in: "Identität und Lebenszyklus", 1981b, S. 22-39. Vgl. zur psychoanalytischen Neurosenlehre auch Fenichel 1974-77, Elhardt 1976, Loch 1967, Riemann 1961.

(ii) أنظر الفصل الخامس من:

"Kindheit und Gesellschaft": "Frühes Versagen des Ich: Jane", 1982a, S. 191-203.

(iii) أنظر فقرة: "Eine Kampfkrise bei einem Marinesoldaten", in: "Kindheit und Gesellschaft", 1982a, S. 32-41.

(iv) يوضح إيركسون تشتت هوية المراهق بشكل خاص في الفصل الرابع من

"Jugend und Krise": "Identitätsverwirrung in der Lebensgeschichte und in der Krankengeschichte", 1981a, S. 145-215; im Abschnitt "Pathographischer Ansatz: Das klinische Bild der Identitäts-Diffusion", in: "Identität und Lebenszyklus", 1982b, S. 153-188; ferner in den Kapiteln "Alles oder Nichts bzw. "Erste Messe und Sackgasse", in: "Der junge Mann Luther", 1975a, S. 106-186. Vgl. zu diesem Thema auch Benedetti 1986c, Federn 1956, Kernberg 1983, Rohde-Dachser 1979.

(v) تشكل الجماعات اليمينية المتطرفة والمعادية للأجانب والنازيين الجدد اليوم متغيرة مثيرة للقلق من التماهي الاجتماعي مع الهوية السلبية. قارن حول هذا:

streeck-Fischer, 1992.

الفصل التاسع

الشاب لوثر

9.1 إيركسون كمحلل نفسي

في الجزء الأخير من الكتاب سنقوم ومن خلال الدراستين البيوغرافيتين الكبيرتين لإيركسون بعرض مساهمته في تخصص التاريخ النفسي، أي «دراسة الحياة الفردية والجمعية بمساعدة طرق التحليل النفسي وعلومه التاريخية» (1975، صفحة 13). وعلى كلا التخصصين أن يأخذا بعين الاعتبار ألا يتم اختزال أحدهما على الآخر. فالتاريخ ليس مستشفى للطب النفسي. كما لا يستطيع المرء تطبيق التحليل النفسي بالجملة على الأشخاص التاريخيين أو الحركات الجماهيرية. ومن ناحية أخرى فإنه لا يمكن فهم كامل مأساة الانحرافات التاريخية إذا ما لم يتم أخذ معارف فرويد بعين الاعتبار. فكل الناس كانوا في يوم من الأيام أطفالاً. والمخاوف أو مشاعر الغضب أو مشاعر النقص الطفولية تتربص في لاشعور كل إنسان؛ وفي المواقف الأزماتية المستعرة يمكنها أن تستحوذ بطريقة غير منطقية كلية على سلوك القادة والأتباع.

ومن المؤكد أن إيركسون لا يريد طرح نظرية في التاريخ من وجهة نظر التحليل النفسي. فهو معجب بتلك الشخصيات الاستثنائية الكبيرة التي تسحر الجماهير وتحرر في العصور الانتقالية قوى جبارة من التغيير. ومن المؤكد فإن التحولات السياسية ليست من إنجاز مثل هؤلاء الرجال. إلا أن القادة التاريخيين ليسوا أيضاً مجرد دمى متحركة في لعبة القوى الاقتصادية والاجتماعية. فمن أجل حصول التحول التاريخي لابد حسب إيركسون من توفر عوامل ثلاثة:

1- لابد من توفر التقدم الاقتصادي أو السياسي أو العلمي أو الديني وأن يكون الانهيار الأخلاقي للمؤسسات القائمة قد اتسع إلى درجة يصبح فيها التجديد الاجتماعي الجذري ضرورياً موضوعياً؛

2- لابد أن يصبح ضغط المعاناة عند الجماهير الواسعة من الظروف القائمة أكبر من الخوف من التغيير لهذه الظروف؛

3- لابد من ظهور قائد موهوب وكاريزمي يحس بمخاوف وتطلعات معاصريه ويدل على طريق مقنع لحل أزمة هوية عصره.

وفقط في أطوار عبور حساسة كلية - يتحدث إيركسون عن «فراغ - الهوية Identity-Vacua» - التاريخي يستطيع القائد الممكن، سواء كان تأثيره هداماً أم بناء، أن يسهم في النهوض التلقائي للجماهير وأن يطلق التحول الثوري. ويعتقد أنه كان سيتم إحراق لوثر بتهمة الزندقة قبل بضع عقود من الزمن؛ وضمن ظروف سياسية مستقرة كان ديماغوجياً مثل أدولف هتلر سيكون في أفضل حالاته قائداً لجماعة لا قيمة لها من المتحمسين المتشددين.

وفي دراساته التاريخ حياتية استخلص إيركسون قانونيات محددة في دورة حياة القادة التاريخيين والشخصيات العبقرية عموماً. فغالباً ما يمر هؤلاء الأشخاص بطفولة مشحونة بالصراع ويعانون كمراهقين متأخرين بشكل متزايد من الظلم الاجتماعي والتوترات السياسية لعصرهم. وهم لا يستطيعون التأقلم ببساطة مع الظروف القائمة ويسعون أكثر من أترابهم من أجل حل المشكلات التي تضغط عليهم من الداخل أو الخارج. ويعتقد إيركسون أنه في يوم من الأيام تصطدم شخصية القائد بمهامها الحياتية، برسالتها التاريخية، تجعل من كل شيء آخر لا قيمة له بالنسبة لهم: «شعار مثل هؤلاء الناس هو: كل شيء أو لاشيء» (1975 «أ»، صفحة 118)، ومنذ تلك اللحظة يبدون عندئذ بأنهم غير قادرين على التوصل لإيجاد هوية داخلية، إلا إذا تمكنوا مع حل أزمتهم الشخصية من حل أزمة عصرهم أيضاً.

وتكمن عبقرية مثل هؤلاء الأشخاص في أنهم يمتلكون معبراً حدسياً إلى نفسية أتباعهم. إنهم يعرفون كيف يمسون المخاوف المتسللة والآمال الكامنة، وإظهار طرقات جديرة بالتصديق من الأزمة وبهذا شد الجماهير العريضة إليهم. فينشأ ما يسميه إيركسون «الواقع التاريخي historical actuality»، «المحاولة لعمل ترتيب مستقبلي من فوضى الماضي» (1966 «أ»، صفحة 187). فيتحول الاستياء الكامن إلى غضب، وينبثق من اليأس الحماس الإيديولوجي، وينقلب التبلد المستسلم إلى فعل ثوري. فلا تعود الحركة التي دفعها القائد للانطلاق ممكنة التوقيف.

كما أنه يشد هو أيضاً من أزر أتباعه، الذين يشدون من أزره في حيرته الذاتية ويدفعونه من أجل صياغة وجهة نظره بشكل أكثر وضوحاً والدفاع عنها نحو الخارج بحزم.

وعلى الرغم، حسب إيركسون، من أن «صدمة الفشل المهدد ترافق رجلاً عظيماً طوال حياته» (1975 «أ» صفحة 164)، وأزمات هويته غالباً ما تترافق مع أعراض عصابية، إلا أنه يحذر من التشخيصات المرضية النفسية psychopathological الشديدة التبسيطية. فمن المؤكد أنه يمكن برهان وجود صدمات باكرة في وصراعات أوديبية طفولة القادة التاريخيين. فالأذيات الطفولية، من نحو الخليط المكون من الخيبات والغضب من أب منافق أخلاقياً، مستبد، لا يتم تنفيسها بشكل جامد وبلا معنى، وإنما تعاد استثاراتها بطريقة جديدة في كل مرحلة من مراحل النمو بالاتصال مع شخصيات سلطوية ذات طبع مختلف وترتبط بمقدار مطرد الشدة بحاجات وأزمات الأتباع. وعلى العكس من قهر التكرار العصابي يجد القائد التاريخي لنفسه ولمعاصريه إمكانات حياتية جديدة ومُثلاً وقيماً جديدة، والتي هي وعلى النقيض كلية من النكوص العصابي، مرشدة نحو المستقبل.

ومن المؤكد فإنه لا يمكن مقارنة سيرة حياة الشخصيات التاريخية العظيمة مع الإنسان العادي. فغالباً ما يمرون قبل انبثاقهم بفترة طويلة بتعليق moratorium متأزم، تبدو أنها تقودهم إلى الاتجاه الخطأ. فبولوس Paulus قد لاحق بداية الطوائف الكنسية،

وأوغسطينوس Augustinus قد وقع لفترة طويلة تحت تأثير الثَنوية[1] (المانوية anichaean) ولوثر انعزل في دير الكنيسة، التي قاومها لاحقاً بضراوة. فإذا ما تنبهت هذه الشخصيات بداية إلى واجبها الحياتي، فإن رسالتها التاريخية تحظر عليها في الغالب الحميمية الدائمة مع إنسان وحيد. وليس من النادر لها أن تظل من دون شريك وأطفال، توسع الإحساس بالحميمية إلى جميع أتباعها وتعيش نزوعها التوالدي في تحقيق مهمتها السياسية. وهذا من ناحيته يمكنه أن يؤزم من الأزمة الخلاقة في سن الرشد المتوسط، عندما يكون على القائد أن يشهد كيف تتهدد حركته بالخروج من بين يديه، وتكسب تطورات نفسية جماهيرية هدامة اليد الطولى. والشعور الشديد بالمسؤولية تجاه ما قاموا بتحريكه وكثرة الخيبات، بأنه قد تمت إساءة فهمه واستغلاله، تسبب لدى كثير من القادة التاريخيين شعوراً جوهرياً من الركود Stagnation، إذا كان غير راض به، بأنه يموت مبكراً، يهجم عليه في فترات دورية بصورة معذبة. وغالباً ما يعجز المجددين العظماء عن إنهاء حياتهم في حالة باعثة على الرضا من التكامل النفسي. فكثير منهم يموتون في عزلة وحيرة ذاتية كاملة في حين لا تظهر ثمار فعلهم إلا بعد أجيال كثيرة لاحقة.

طور إيركسون نموذج التحول التاريخي هذا بشكل أساسي لدى اهتمامه بحركة الإصلاح الديني أو بنهاية الاستعمار البريطاني في الهند. ويفترض له أن تكمن فائدته على ما يبدو من أجل فهم مراحل التحول الكبرى فقط، وليس من أجل فهم التقدم الذي يسير بالتدريج في المواجهات الشديدة والتسويات التي لاتحصى في السياسة والاقتصاد والعلم والأخلاق. ويتضح حماس إيركسون بوضوح لرجال التاريخ الكارزميين العظماء – في دراساته التاريخية النفسية لم يتطرق بصورة كاملة تقريباً إلى نساء عظيمات–،

(1) المذهب الثُنوية: الإيمان بعقيدة دينية أو فلسفية ثنائية dualistic ترى أن الكون خاضع لمبأين متعارضين أحدهما خير والآخر شر. والمانوية: ترجع إلى الفارسي ماني ويعتقد أنه عاش بين (216-277 بعد الميلاد) دعا إلى الإيمان بعقيدة ثنوية قوامها الصراع بين النور والظلام. وهي محاولة منه للتأليف بين المزدكية والمسيحية والبوذية. وقد اعتبرها المزدكيون هرطقة فحاربوها، إلا أنها انتشرت حتى أفريقيا وفرنسا والصين. وتشير المصادر التاريخية إلى أن الراهب بحيرة كان يعتنق المانوية.

الذين طبق على مصيرهم، وأحياناً بتفسيرات construction جريئة، نموذجه في دورة الحياة. ومن المؤكد أنه يمكن البرهان على وجود صراعات طفولية وتعليقات[1] moratorium متأزمة أو مشكلات حميمية في حياة كثير من الشخصيات التاريخية والعبقرية. ومن ناحية أخرى كان هناك قادة سياسيين سارت حياتهم في مسار غير ملفت للنظر، عاشوا حياة زوجية وأسرية طبيعية والذين قلما توجد في مذكراتهم مشاعر ذنب كبيرة حول «الفشل البناء generative».

9.2 المواجهة مع لوثر

ما هو السبب الذي دفع إيركسون لاختيار شخصية مارتين لوثر موضوعاً لدراسته التاريخية النفسية الأولى؟ هل هو الإعجاب بواحد من كبار الجامحين في التاريخ؟ أم أنه جزء من التماهي الخفي مع أبيه البيولوجي، البروتستانتي الدنماركي؟ أم أن إيركسون يريد معالجة التناقضات في عقيدته نفسه - إعجابه بالدين وتأثره بأفكار الملحد فرويد-؟

في الواقع كان إيركسون يريد أن يخصص للوثر فصلاً واحداً فقط في كتاب حول المراهقة. إلا أن الاهتمام بالمصلح لوثر جذبه بشكل ملحوظ: «تعد رجولته الشابة من أكثر الرجالات التي نعرفها تطرفاً» (1975 «أ»، صفحة 7). وفي عزلة عن بقية الأعمال الأكاديمية والعيادية استمرت لسنة كاملة، تعمق إيركسون في تاريخ لوثر والإصلاح، حيث ترجم جزئياً النصوص الأصلية من اللاتينية. وفي النهاية ظهر كتاباً مثيراً للإعجاب ومؤثراً حول شباب الإصلاحي الكبير. فحتى اليوم يعد «الشاب لوثر» من أشهر سير الشخصيات وإن كانت السير الحياتية التحليلية النفسية حول شخصية تاريخية ما مختلفاً عليها أيضاً عند المؤرخين واللاهوتيين.

---

(1) تعليق أو توقيف للنشاطات. فترة الوقت المعلق، التي لايقوم فيها الشخص بأي شيء أو يؤجل قراراته ومشاريعه إلى أمد قد يطول أو يقصر

ويؤكد إيركسون منذ البداية بأنه لا يبين حجم لوثر بأي شكل من الأشكال، وإنما أقصى ما يريده هو تحقيق نوع من الفهم. ونظراً للعدد الكبير من التأويلات والأساطير فإنه لا يدعي تقديم صورة جديدة للوثر. ولا يريد أيضاً كتابة سيرة حياة تحليلية نفسية وتأويل الصدمات أو العقد أو الانحرافات النفسية في لوثر. ففي هذه «الدراسة التاريخية والتحليلية النفسية» يريد إيركسون «إعادة تقويم مرحلة تاريخية (في هذه الحالة شباب إصلاحي كبير)» واستخدام التحليل النفسي هنا «كأداة تاريخية» (1975 «أ»، صفحة 16).

ويصف إيركسون الصراع الحائر لشاب مبارك وفي الوقت نفسه معرض للخطر حول هويته، ويريد أن يربط أزمة المراهقة الصعبة والمستمرة طويلاً بأزمة المعنى والإيمان لعالم القرون الوسطى المنهار. فاللاهوت الجديد الذي ابتدعه لوثر من العذاب والشك الإيماني، لم يسهم حسب إيركسون في شفاء شخصيته فحسب، بل شكل بالنسبة لعصره الممزق أساس تاريخي جديد. ومن هنا فإن كتاب «الشاب لوثر» هو أيضاً كتاب حول الدين «كمصدر للإيديولوجيات بالنسبة للناس، الذين يبحثون عن أنفسهم» (1975 «أ» صفحة 23).

وبعد وقت قصير من نشر الكتاب صدرت بعض المجلات الأمريكية بعنوان «لوثر على الأريكة». إلا أنه لم يكن في نية إيركسون تطبيق قوالب تفكير تحليلية نفسية فقط على حياة لوثر. فبدقة ومعرفة موضوعية كبيرة حاول استخلاص كل التأثيرات الممكنة على تطور شخصية لوثر: الجو العام وشكل حياة العصور الوسطى، وتاريخ الكنيسة الكاثوليكية والرهبنة، تأثير الفلاسفة والآباء الكنسيين على تفكير لوثر اللاهوتي. ومن الصعب تلخيص الإسهاب والتفاصيل الكبيرة التي رسم بها إيركسون صورة عن لوثر وعصره في صفحات قليلة.

كان لوثر إنساناً كاد أن يتلاصق لديه إلى حد كبير الصراع الديني العميق واللامستقر الشخصي. ففي حياته كانت هناك بين الفينة والأخرى مواقف استثنائية باثولوجية أو نوبات هلع أو نوبات حنق أو مراحل من الشك الحار. وفي مراجع لوثر فإن الحديث

دائماً عن معاناة نفسية أو أمراض عقلية، مع العلم أنه ليس من الواضح فيما إذا كان الأمر يتعلق بمعاناة طبية نفسية لمريض أم من معاناة روحية لمتدين بشري. وليس على سبيل المصادفة أن يبدأ إيركسون دراسته بوصف مسهب «النوبة في الجوقة» للوثر، تلك المرحلة المشهورة، حيث هوى مارتين لوثر بسرعة كراهب شاب في أثناء حفلة القربان المقدس من الخوف والحنق على الأرض وأصيب لدقائق عدة بنوبة تشنج. ولوثر نفسه تكلم بصراحة عن حياته النفسية في جلسات الحوار أو خطبه أو رسائله، التي تجعله قابلاً للمقارنة مع كتاب السيرة الذاتية الكبار من نحو أوغسطينوس[1] أو روسو[2] أو كريكيغارد[3]. لقد وصف أحاسيسه الدينية وحالات شكه بأشكال متناقضة، وإلى حد ما فيها مباهاة ومبالغة، وأحياناً بإيمان كامل الجدية وليس من النادر أيضاً بصورة فجة. إلا أن إيركسون لا يستطيع صد الانطباع «بأنه قد جاهر بصراحة بتلك الأمور بالذات التي قام فرويد......بعد أكثر من ثلاثة قرون من الزمن تبناها فرويد صراحة وصاغها في مفاهيم» (1975 «أ» صفحة 53).

---

(1) Saint أوغُسْطِين، القديس (354ـ430م): لاهوتي وفيلسوف كاثوليكي. حاول التوفيق بين الفكر الأفلاطوني والعقيدة النصرانية.

(2) روسّو، جان جاك (1712ـ1778): كاتب فرنسي. كان لآرائه السياسية أثرٌ كبير في تطور الديمقراطية الحديثة.

(3) سورين كيركجارد (1813-1855) Soren Aabye Kierkegaard: فيلسوف دانماركي تنسب إليه مدرسة الفلسفة الوجودية المؤمنة. ولد في كوبنهاجن عاصمة الدانمرك لأسرة بورجوازية ميسورة الحال مكونة من سبعة أطفال. كان محاوراً بارعاً مرحاً له قريحة متوقدة وفي أعماق نفسه، وكان يعاني اكتئاب عميق ويحس بحزن خانق. بدأ في الكتابة الفلسفية تحت أسماء مستعارة ذات طابع رمزي، وكانت معظم كتاباته تمردا على النزعة الهيجلية السائدة في زمانه. وفي هذه الكتابات العديدة طور الكثير من الأفكار التي ارتبطت فيما بعد بالفلسفة الوجودية من منظور مؤمن وهذا لتفريقها عن الوجودية الملحدة عند سارتر على سبيل المثال. تظهر أعماله العديدة اهتماما شديدا بالدين وتعتبر من أسس مدارس العلاج النفسي الحديثة وخاصة مدرسة رولو ماي في أمريكا عالم النفس والمعالج النفسي الكبير والذي تأثر بكيركجارد كثيرا. كان موت والده عام 1838 علامة فارقة في حياته إذ اعتبر كيركجارد أنها إشارة إلهية له كي يتخلص من إحساسه القهري بالارتباط المرضي بوالده ومن ثم انخرط في الحياة بقوة. وسرعان ما انتهى من دراسته في جامعة كوبنهاجن وقدم أطروحة تحولت فيما بعد إلى كتابه الشهير «مفهوم المفارقة» (1841) Om Begrebet Ironi (The Concept of Irony).

وتزوج من ريجينا اولسن. إلا أن مسؤولية الزواج وتبعاته كانت على مايبدو اكبر من طاقة تحمله فانفصل عنها بالرغم من حبه الشديد لها وظل وفيا لها إلى أن ماتت عام 1855 وذكرها في وصيته.

ولأن لوثر بالتحديد قد بدا متناقضاً في تصريحاته وسلوكه، فإنه قلما توجد حتى اليوم شخصية تاريخية قد تم تأويلها بشكل مختلف جداً. فقد تم تمجيد لوثر كوطني ألماني أو كأب مسيحي أو كلاهوتي توراتي ورع. وتم التبخيس فيه بكل المقاييس كمتمرد هدام أو كأداة للشيطان أو كشخصية قهرية تسلطية. إلا أن الدور التاريخي للوثر وشخصيته قد ظلا حتى يومنا الراهن غامضين. وبشكل خاص ليس هناك الكثير حول طفولته وشبابه. وقد اختار إيركسون ثلاثة ممثلين نموذجيين لأدبيات لوثر كممثلة في عصره للطيف الواسع لمحاولات التفسير، قام بتجميعها في نوع من النقاش التخيلي.

أولها كان اللاهوتي البروتستانتي أوتو شيل Otto Scheel، الذي اعتبر حياة وأعمال لوثر مقدرة من مخطط إلهي. فقد اختير من الله كي يبدأ النهضة renaissance الضرورية بشكل ملح في التفكير المسيحي. ووضعه الاستثنائي بين الحين والآخر يدل على العبء الجبار لهذه الرسالة.

وكممثل لاتجاه إكليريكي[1]-اسكولاستي[2] في سيرة لوثر اختار إيركسون الأب الدومينيكاني هاينرش دينفل Heinrich Denifle. ويعتقد أن دينفل قد كان الأكثر شبهاً بشخصية لوثر في نقده الذي لايلين. فقد دافع دينفل بالدرجة الأولى عن فرضية أن الشر، الانحطاط هو الذي يخرج من لوثر. فلاهوتيته ليس لها أية علاقة بالوحي الإلهي؛ فلوثر معارض سيء السمعة، سبب مرحلة خطيرة من الروح الثورية في الكنيسة الكاثوليكية. ولا تعكس حالات لوثر الاستثنائية أية صراعات إيمان جدية، وإنما هي طبع سيكوباثي هوسي الذات ego-manic.

ويعد الطبيب النفسي الدنمركي والذي يعد باحثاً متعمقاً في لوثر، الدكتور باول رايتر Paul Reiter، ممثلاً لاتجاه بيولوجي- طبي نفسي في دراسات لوثر. وبالنسبة له يعاني لوثر من مرض متقدم بشكل خفي. فالنوبات وحالات الشك لدى الراهب

---

(1) كهني، ديني.

(2) الشديد التمسك بالتعاليم والأساليب التقليدية الخاصة بمذهب أو فرقة.

الشاب تعد حسب وجهة نظره علامات لعملية داخلية المنشأ، غير ذات معنى وغير قابلة للفهم من الناحية النفسية. وتأثيره كمصلح ظهر في طور قصير من الإنتاجية الهوسية، في حين ظهر بعد سن الأربعين الذهان بوضوح وأصبح مزاج لوثر قاحلاً بشكل ملحوظ.

بدا المفسرون الثلاثة – والذين ليس بالضرورة لهم أن يكونوا ممثلين بالنسبة لأبحاث لوثر الحديثة- بالنسبة لإيركسون محملين مسبقاً بشكل إيديولوجي وبنو من أحجار الموزاييك لصور مختلفة أسطورة غير منصفة للوثر الحقيقي. فلا أي واحد من هؤلاء كان مهتماً بصورة خاصة بطفولة لوثر والفرضيات الأساسية للتحليل النفسي. ومن المؤكد أنه ربما كان لوثر مستحوذاً بحنق قاذف للقذارة؛ ففي بشاعتها فإن بعض أقواله كانت لتزين أبواب معسكرات الاعتقال الراهنة. إلا أن من يعده لهذا السبب مجرد سيكوباتي هدام، فإنه يتجاهل عمق صراعه الروحي. ومن المؤكد أن حالة لوثر النفسية قد اقتربت أحياناً من الحالات الطبية النفسية في الكتب التعليمية. إلا أنه لا يمكن حسب إيركسون تطبيق معايير تقليدية للصحة النفسية على إنسان متحفز وجدانياً ومستحوذ برسالته. فالشجاعة والإبداعية العقلية التي لا تصدق التي قدمها لوثر في المراحل الحساسة لحياته كانت ستكون مستبعدة في حال وجود ذهان اكتئابي.

وعلى العكس من سير الحياة الأخرى فقد اهتم إيركسون بشكل خاص بسنوات شباب المصلح وغالباً ما تحدث عن مارتين Martine وليس عن لوثر Luther. ورسم عنه صورة شاب خجول، حزين، «مريض»، يعاني بشكل مرتفع من محيطه، ولكنه هو نفسه قد حمل نفسه المعاناة، لأنه لم يسهل على نفسه إمكانية أن يدير ظهره ببساطة للظلم وعدم الجدارة بالتصديق. وباطراد شهد مارتين في طريق حياته أنه لم يعد قادراً على التوافق مع محيطه ومع مخططات والده وسيرته الحقوقية ومع عالم الكنيسة الكاثوليكية وترقيته إلى كاهن. ودفعه الشك الديني إلى أزمات عميقة. إلا أن هذه المعاناة تحولت إلى شوكة للمواجه والاحتجاج. فبإلهام معنوي جبار لإنسان متدين وضع لوثر لاهوتاً جديداً، أعاد إحياء أسس المسيحية القديمة ومنحه شخصياً شعوراً جديداً بالثقة وبالهوية منبثقة

من أعمق قناعة دينية. وفي صراع لا يهاب ضد فساد كنيسته صنع لوثر وعياً دينياً كان متناسباً مع الواقع الاقتصادي والسياسي المتغير لعصره. ويقارن إيركسون صراع لوثر ضد التعاليم الدينية بصراع فرويد المتأخر ضد عقدة الأب ويعتقد أن لوثر مثل فرويد يبديان نوعاً من الانتظام في نمو نوع محدد من العبقرية. فقد تقاسما «التصميم الحازم على القيام بالعمل القذر كل في عصره؛ إذ أنه قد احتل الضمير الإنساني بالنسبة لكليهما في عصر التوسع المادي والعلمي مركز الصدارة» (1975 «أ» صفحة 9).

ويكمن المصدر الرئيسي لمعاناة مارتين بالنسبة لإيركسون في طفولته غير الموفقة. وبالتحديد كونه لاتوجد إلا القليل من البيانات الموثوقة حول ذلك، يرى إيركسون أن ذلك في صالحه مقابل التأريخي، إذ أنه من جوهر الطريقة التحليلية النفسية القدرة على استخلاص استنتاجات رجعية من أنماط السلوك والأقوال الراشدة، «والتعرف على الخطوط الرئيسية حتى عندما لا تتوفر كل الوقائع». فعلى المحلل النفسي «أن يعرف كيف يقوم حتى المصادر المشكوك بها بحيث يتوصل إلى فرضية مترابطة» (1975 «أ»، صفحة 5-54).

إن محاولة تطبيق التحليل النفسي المطور في القرن العشرين على خبرة الحياة المختلفة كلية لإنسان العصور الوسطى هي محاولة جريئة ولابد لها أن تستثير إلى جانب الفضول المثير الشعور الشكاك أيضاً. ففي العلاج النفسي يكون المريض مقابلاً حقيقياً، يواجهه المحلل النفسي باستمرار، يستطيع تطوير تأويلاته بالتدريج وتجريبها ودحضها أيضاً. أما الشخصية التاريخية مثل لوثر فإنها تشكل بالنسبة للإنسان المعاصر مجرد هيئة خيالية مستخلصة من الموروث. وهنا فإن إمكانية التعاطف أقل، هنا يكون التأويل أكثر تأملية والنقل المعاكس غير مسيطر عليه. وفي البحث التاريخي يكون خطر أن يسقط المرء أنماط تأويل مسبقة على موضوع البحث وأن يبالغ هنا بتقويم بمعلومات محددة، وأن يهمل أخرى كبيراً جداً. وعلى الرغم من أن إيركسون يستخلص بشكل نموذجي كم من التشويهات الإدراكية اللاشعورية يمكن أن تؤثر على المؤلف عند تلقيه وتمثله الشخصي لمادة المصدر، فإنه هو نفسه لم يستطع تجنب اتهام النقاد المتعاطفين بأنه هو

أيضاً قد وضع نصب أعينه نموذجاً محدداً مسبقاً عن طريق حياة لوثر ودعم هذا النموذج بكثير من التأملات. لقد تم عزو تعقيد شخصية لوثر وأعماله إلى تشكيلات محددة لطفولته وبالتالي أيضاً تم تضييقها على ذلك. فكل نمط التفسير الرائع في سيرة الحياة لدى إيركسون يتمحور حل الصراع بين مارتين ووالده هانس.

9.3 طفولة لوثر وشبابه

ولد مارتن لوثر في آيسليبن Eisleben بتورنغن Tueringen. وفي منزل والديه ساد جو من العوز والتنازل؛ فكانت تربية الأولاد صارمة، ولا يوجد شك من المصادر التاريخية حول هذا. كان أسلاف لوثر فلاحين فقراء. ووالده هانس ترك دار والديه مبكراً. ومن خلال الطموح والكد وصل إلى وظيفة إدارية لمنجم فحم في آيسليبن، وأصبح بهذا ما يشبه الصناعي الصغير. فإذا كانت كتب التاريخ تصف لوثر «بفلاح ابن فلاح»، فإن هذا يبدو إشكالياً بالنسبة لإيركسون. فقد وجدت هوية هانس الاجتماعية والمهنية نفسها في حالة أقرب للمزعزعة. فلم يعد كأسلافه متجذراً في وضع فلاحي. بل كان عليه أن يكافح من أجل الانتماء إلى الطبقة العليا لعمال ومستثمري المنجم. ومن هنا من الممكن أن تمثل الفلاحة بالنسبة لهانس لوثر ماضياً، أراد أن يتغلب عليه تحت كل الظروف. وعلى ما يبدو فقد كان مستحوذاً بشكل خفي بالقلق من أن يفشل -وكما هو الحال بالنسبة لكثير من الفلاحين الذين لا يمتلكون الأرض في عصره- وأن ينحدر إلى مستوى البروليتاريا proletarianize. ويخمن إيركسون «أنه في هذا الإطار الأسري من الماضي الأسري الذي أراد المرء نسيانه ومستقبل هنا والآن hic et nunc ويفترض للمرء أن يبدأه بأي ثمن - علينا التأمل في البيانات القليلة حول تربية مارتين، فقوة الإثبات أحياناً أوثق من الحقائق. وعلى ما يبدو فإن هانس لم يتخل عن الهوية الفلاحية فحسب وإنما كان ضدها أيضاً، وهو ما أثر على لوثر وأسهم لاحقاً في الاتجاه المتناقض نحو أسلافه الفلاحين. وقد استطاع أحياناً إطلاق مشاعره السوداوية حول سوء الحياة الفلاحية وأمان القرية. ومن ناحية أخرى طالب في نداءات لا تحصى بتدمير ثلل الفلاحين اللصوص، ليعود في نهاية حياته ليتهم نفسه على هذه المذبحة.

وحسبما يرى إيركسون فإن عمل هانس لوثر قد أثر على ابنه البكر. فمهنة عامل المنجم كانت تعد في نهاية العصور الوسطى مهنة معتبرة. إذ كان المرء يتمكن من خلالها من أن يعيش بعض الرفاهية. ومن ناحية أخرى كان العمل في المناجم خطيراً جداً. فالخوف المستمر أن يسحق المرء بانهيار المنجم كاد أن يقترب لدى عمال المناجم في العصور الوسطى من مرتبة الخرافة المتضخمة. فقد كان يشعر المرء باستمرار في العمل الباغي في باطن الأرض بالتهديد من الشياطين والجان- والتي تمثل من ناحية أخرى مساحة إسقاط للنزوعات الذاتية اللاشعورية من الجشع والخبث. ويعتقد إيركسون أن المخاوف الخفية للأب قد صبغت مارتين، وكانت مشاركة في المسؤولية عن الشك ومخاوفه الراهنة من الكوارث. فالسحرة والشياطين تعد جزءاً من حياة لوثر الداخلية بالدرجة نفسها لخوفه من الموت المفاجئ وتوقعه المستمر للقيامة. وربما نتيجة لهذا المزاج الأساسي قد تم منح الصاعقة لاحقاً طبيعة إيحائية.

لماذا لم يتماه مارتن مع والده؟ لماذا لم يحذ حذوه، وإنما عاد إلى عالم دير العصور الوسطى؟ كيف حصل وانفجرت منه المعارضة والكره، إلى درجة أنه تحدى السلطة وأخيراً أعلى مرجعية في عصره، البابوية الرومية؟ يعد مركب أوديب أبكر صراع سلطوية في الحياة الإنسانية حسب وجهة نظر التحليل النفسي، ويعمم إيركسون هذا العنصر الجوهري من نظرية فرويد كنموذج تفسير مركزي على موضوعه التاريخي؟ فعبر الكتاب كله نجد كماً من الافتراضات والتأويلات حول تأثير الأب على نمو لوثر، التي غالباً ما يبدو أنها تتجاوز إلى مدى بعيد المادة الضئيلة للمصدر. وعند القراءة المتأنية يتولد الانطباع بأن إيركسون يرى صراع الابن-الأب بين وقائع كثيرة. وليست مشاعر التمرد-الذنب الأوديبية هي وحدها المحدد لديناميكية العلاقة اللاشعورية بين مارتين وهانس وإنما أيضاً الارتباطات والتكليفات والوصايا وصراعات الولاء المغطاة، وهي مواضيع يعالجها التحليل النفسي الحديث لأبحاث الأسرة. وعموماً يمكن من تفسيرات إيركسون استخلاص أربعة مستويات من الصراع.

إذ يرى إيركسون أن عبء التوقعات المبالغ بها التي غرسها الأب في ابنه البكر هي

أشد الإرهاقات تأثيراً على نمو لوثر. فإيركسون يرسم عن هانس لوثر صورة إنسان طموح يحس بالإمكانات الجديدة البادية في عصره. وعلى ابنه أن يحظى بالنجاح الخارق بالنيابة عنه، وبهذا يعوض عن عدم ثقته الخفية بنفسه. ويخمن إيركسون أن الأب قد قام بنزع مارتين من علاقته بأمه في وقت مبكر وجعله موضوعاً لبرامجه الطموحة. وسخر هانس وسائل مادية ضخمة كي يرسله للمدرسة اللاتينية ولاحقاً للجامعة. وكان ينبغي لمارتين أن يصبح محامياً، وربما أيضاً محافظاً للمدينة، وفي كل الأحوال أن يترقى أكثر منه نفسه. ويطرح إيركسون حول نوايا هانس تخمينات واسعة: «كان على ابنه أن يصبح محامياً، أي رجلاً، استوعب القوانين (الدنيوية) الجديدة، يعيد تطبيق قوانين الإمبراطورية الرومانية، ويعرف كيف يستفيد منها. كان يريد أن يخدم ابنه النبلاء والمدن والتجار والحرفيين وليس الكهنة والأساقفة والمالية البابوية ...... وقد أراد بشكل خاص مثل كل الفلاحين غير المعدودين الآخرين الذين لا يمتلكون الأرض وعمال المناجم أن يشغل ابنه عقله بأمور أرقى بدلاً من حشوه بقناعات عمال المناجم الخرافية» (1975 «أ»، صفحة 60).

فلو كانت العلاقة بين مارتين ووالده محددة بالكره والمعارضة فقط، لكان من السهل على مارتين أن يمضي لاحقاً في طريقه. إلا أن طموح الأب قد منحه الشعور بالاختيار وأنه يحمل في ذاته واجباً داخلياً. وهذا يعني بالنسبة لمارتين تكريماً وعبئاً ثقيلاً في الوقت نفسه. ويعتقد إيركسون أنه قد تمثل مارتين سؤال الأب: «ما الذي قد فعلته من أجلي؟» وشكلت البذرة لنشوء مثال-أنا Ego-Ideal شديد الطموح. وتكاد المقارنة بالمرضى المراهقين تبدو ملحاحة، الذين يسعون مُعَذَّبين، لتحقيق شيء ما عظيم في ميدان من الميادين، ليخففوا من قلة الثقة النرجسية لوالديهم. لقد تكون طريق حياة مارتين بداية من التعلم القهري. فمن ناحية كان يمتلك الرغبة المزعزعة بعمل كل شيء بأكمل وجه لسيده، ومن ناحية أخرى غالباً ما شعر أنه غير جدير بالتكليفات أو تثقل كاهله الواجبات. وحسب رؤية إيركسون فإن جذور صراع لوثر بين طاعة ورفض هانس وعالمه كانت موجودة منذ الطفولة المبكرة. فلو خضع بصمت لنوايا والده،

لكان خرج عن قواعده الأساسية ونمّى «ذاتاً خطأ» (فينيكوت Winnicott). ولو عارضه، فإنه كان سيعاني من مشاعر شديدة بالذنب والفشل. ولفترة طويلة تردد مارتين بالمواجهة مع أبيه، إلى أن أجبرته خبرة جبارة على الانسحاب إلى الدير. ولابد وأن يكون قطع طريق الترقي الحقوقي ومن ثم «خيانة» التكليف الأبوي قد سبب للوثر مشاعر ذنب شديدة. ويرى إيركسون أنه قد ظل أكبر عبء دنيوي عليه أن والده لم يؤيد سيرته الرهبانية وعبر مراراً عن شكه في صدق اختياره.

وهل يمكننا الحديث عن اختيار صحيح عموماً؟ ألم يكن الدخول في الدير أقرب للهروب من الصراع غير المحمول، محاولة، للهروب إلى حياة طاعة الله، أكثر منه قراراً واضحاً ملهماً بقناعات إيمانية حقيقية؟. يرى إيركسون أنه في كل تمرداته قد ظل مارتين مطيعاً لهانس ونواياه بطريقة مُقَنَّعة. فقد اختار واحدة من أفضل الجمعيات الدينية تقدماً وترقى للأعلى دائماً، طبقاً لمطالب رؤسائه، في السلم الكهني. ولاحقاً وعندما ترك الدير وأشعل العالم من حوله، تزوج لوثر ليرضي والده. بالإضافة إلى ذلك تكمن في لاهوتياته الكثير من العناصر، التي سرعان ما اعتمدت على الأهداف الاقتصادية والسياسية للطبقة الجديدة لأبيه من رجال الأعمال.

البعد الصراعي الثاني الكبير بين مارتين وهانس، الذي يستخلصه إيركسون مراراً، هو صرامة وقسوة هانس لوثر التي لا تلين: «كان يسود جو الأسرة الحضور الأمر للأب والتوقع الدائم للعقاب» (1975 «أ»، صفحة 134). ويستند إيركسون هنا إلى أقوال لوثر نفسه، من نحو الاقتباس المشهور: «جلدني والدي مرة إلى درجة أني هربت منه ونقمت عليه إلى أن راضاني»؛ أو : «جلدتني أمي مرة لسبب تافه، إلى أن سال الدم. ومثل هذه التربية الصارمة دفعتني إلى الكهنوتية، إلا أنها كانت نيتها طيبة»[1].

من الصعب التحقق فيما إذا كان هانس لوثر التاريخي يحمل ميلاً للعنف بالشكل الذي يصفه لوثر فيه. فقد كان ضرب الأولاد في ذلك الوقت ومعاملتهم كأدوات اقتصادية أمراً مألوفاً ويعتقد إيركسون بأنه لابد وأن تكون المعاملة القاسية لمارتين

الحساس قد تركت جراحاً عميقة بشكل خاص، وبالتحديد لأن الأب من ناحية أخرى قد ربطه به بطريقة حساسة.

ولا بد وأن يكون الخوف الدائم من أن يضرب بشدة لدى أقل مخالفة قد أوقظ في روح مارتين مشاعر خوف ويأس خارقة، بالارتباط مع رغبات الانتقام والثأر الخفية. ومن وجهة نظر التحليل النفسي فإن مثل هذا الجو من التربية يمثل مرتعاً مثالياً لنشوء أنا أعلى سادي صارم جداً، يرهق كل فعل وتفكير عفويين بمشاعر ذنب شديدة. وفي بعض الأماكن يكاد إيركسون يصف لوثر مثل مريض بباثولوجية أنا أعلى واضحة ويستخلص من هذا مزاجه الاكتئابي الذي دفعه للاهتمام لاهوتياً بالضمير إلى مدى أبعد من إطار التدين العام. وطوال حياته تمكن الضمير السلبي بصورة كبيرة من الاستحواذ عليه، وشعر بالإثم والخطيئة، خائفاً من إله لا يرحم ومن الجان وعذاب الجحيم واليوم الآخر. وتحولت مسألة تبرير الأثم إلى مشكلة إيمانية مركزية بالنسبة للوثر. وحتى عندما لم يعد يشهد الله بعد انشقاقه اللاهوتي كحقيقة غضب انتقامية، انفجرت مراراً مخاوف-أب بدائية من مرحلة النمو القضيبية. «ويعتقد إيركسون «أنه في وجه هذا المركب لم تتمكن فيه أية ثقة وأي إيمان من الصمود كلية » – وقد رافق هذا المركب لوثر في هيئات مختلفة حتى نهاية حياته» (1975 «أ»، صفحة 185).

فكيف حصل أن هذه النزوعات المكبوتة للكره والاعتراض قد كسبت اليد الطولى باطراد على لوثر ولم يظل طوال حياته مطيعاً للأنا الأعلى المذوت internalize؟ هنا يحدد إيركسون اللحظة الثالثة في إشكالية الأب-الابن، عدم استقامة الأب الأخلاقية، التي يتوقع لها أن تكون قد زادت من شعور الشك والغضب في مارتين حدة. فقد كان هانس حسب إيركسون يرى نفسه بأنه جوهر العدالة، رجل عانى من نوبات غضب غير مسيطر عليها ونفس عن توتراته في أسرته بحجة أنه قاض عادل وصارم. وهكذا وقف مارتين أمام أب «استغل غلبته الفجة بصورة مشكوك فيها؛ الذي استطاع أن يجبر الآخرين أن يشعروا بأنهم أقل منه أخلاقياً، من دون أن يكون هو نفسه قادراً على تبرير غلبته الأخلاقية. أب، لم يستطع أن يتآلف معه ولا يستطيع أيضاً

الانفكاك عنه. فكيف كان بإمكانه أن يخضع لمثل هذا الأب، من دون أن يخصى -كيف كان بإمكانه أن يتمرد عليه من دون أن يخصي الأب» (1975 «أ»، صفحة 71)؟.

إن خبرة أن الأب غالباً ما تجاوز تعاليمه هو، لابد وأن تكون قد تركت شكاً عميقاً في مارتن، فيما إذا ما كانت كل الأخلاق في النهاية تعسفية وقاسية. ولاحقاً عانى لوثر من شك ديني جوهري فيما إذا كان تصرف أسياد الكنيسة صحيحاً كلية، فيما إذا كان الله عادلاً بالفعل، عندما يعاقب الآثمين. وليس على سبيل الصدفة أصبح مرساماً لفساد كنيسته. فكل مشاعر اليأس الطفولية تركت غيضاً عميقاً في روح مارتين، الذي ظل مكبوتاً حسب إيركسون . فمارتين لم يتمكن من إظهار أي عدوانية صريحة تجاه والده، كان لا يحرك ساكناً، حزيناً فحسب. ولم ينفجر الحنق المكبوت منه إلا في فترة متأخرة جداً وتحول إلى محرك لتمرده. فكراشد نمّى لوثر قدرة غير طبيعية على الكره، في شكل مستمر وغالباً بشكل سوقي، كرهاً، تركز بصورة مطردة على شخصيات جبارة بديلة عن أبيه، على البابا الكاثوليكي.

ما شكل علاقة مارتين بأمه؟ لقد جعل إيركسون الأب هانس لوثر شخصية جبارة إلى درجة أن بدا التأثير الأمومي على نمو مارتين خافتاً. ولوثر عبر كراشد عن النساء والجنسية بشكل فظ وتبخيسي في بعض الأحيان. ووضع السيدة مريم العذراء في لاهوتيته على الهامش، ويلحظ إيركسون ساخراً أن الإصلاح قد أسهم بعنصر هوية جديد واحد ووحيد بالنسبة للمرأة: ألا وهو المرأة القس. ويستخلص إيركسون عن أم مارتن لوثر صورة إنسان حزين، مكروب. فقد أنجبت الكثير من الأولاد وفقدت الكثير منهم أيضاً. وضربت مارتين ولم تدعمه في مسيرته الكهنوتية. إلا أن الحنق والخيبة حول الأم لم يظهرا عند مارتين بشكل مأساوي مثل كره الأب، لأنه، يدعي إيركسون، مارتين قد عاش أمه على أنها مجرد مساعِدة تحقيق لزوجها: «قد يفسر الدور المزدوج للأم كضحية لا حول لها ولا قوة للأب المستبد والمعاونة المطيعة في عقاب الأولاد الانهيار الغريب في صورة الأم لدى مارتين. وربما كانت الأم قاسية لأنها كانت مجبرة على ذلك فحسب، أما الأب فقد أراد ذلك» (1975 «أ»، صفحة 74).

ومن ناحية أخرى لابد وأن يكون مارتين قد عمل خبرات إيجابية مع أمه، إذ أنه كان قادراً كراشد على الإحساس بالمشاعر العميقة وبالجنسية الباعثة على الرضا. ويعتقد إيركسون أن التماهي مع الأم قد منحه علاقة بسيطة وإيجابية بالطبيعة، الميل إلى التصوف mysticism وقدرة كبيرة على التعبير اللغوي. إلا أن الأم أيقظت بشكل خاص في طفولة لوثر المبكرة منابع من الثقة لم يتمكن الضمير السلبي من هزها كلية أبداً ومنحته القوة على التحمل في المراحل الحرجة من سيرته. Mysticism. ومن هنا لابد وأنها في مرحلة النمو الأوديبية لمارتين قد لامست شهوانيته أيضاً وأيقظت فيه الرغبة الخفية لابتغاء الأم كموضوع حب واستبعاد الأب كمنافس مزعج. ويضفي إيركسون على تخمين رايتر Reiter أن – أسرة مارتين قد عاشت محشورة في منزل صغير- أيضاً أن ربما يكون لوثر قد شهد والديه يمارسان الجنس، مما زاد من غضبه على والده. ويمثل الصراع الأوديبي التقليدي في تفسير إيركسون منبع التوتر الرابع بين مارتين وهانس وعزز بشكل مطرد موضوع الغالب والمغلوب، الكره والذنب. وبهذا كانت الأرضية مهيأة لصراع السلطة إلى مدى كبير، يتوقع أن توسع باستمرار مطرد على بدائل أخرى للأب وصولاً إلى الأب السماوي في الجانب الآخر. وهو يعكس حسب إيركسون الأزمة الإيديولوجية-التاريخية للعصور الوسطى الغاربة، الصراع بين السلطات الدينية التقليدية في السماء والسلطات الدنيوية الجديدة الطامحة للصعود للأمراء الإقطاعيين والتجار والعلماء: «غير أنه مما لاشك فيه أن الأمر يحتاج إلى أب وابن باستقامة حازمة هكذا وتمركز عقابي على الأنا، كي يتم التمكن من استغلال الأزمة وتحريك الصراع، ارتبط فيه عناصر مأساة الملك أوديب وآلام المسيح passion على تل الصليب Glogatha[1] مع مزيج من العناد الموضوعي الأصيل» (1975 «أ»، صفحة 82).

في سن السابعة أُرسل مارتن إلى المدرسة اللاتينية في مانسفيلد Mansfeld. وكان

(1) تل الصليب أو جبل المسيح: التلة بقرب القدس التي صلب السيد المسيح عليها: والصورة ترمز إلى الألم العميق.

تلميذ اللاتينية يرتدي ثياباً موحدة خاصة، تميزه كعالم مستقبلي. وكانت النظم الصارمة شبيهة بجو بيت الأسرة. فقد كان الكلام بالألمانية أو الشتم ممنوعاً بشدة. وكان بين الطلاب مخبر يحمل «ورقة الفرم»، يسجل عليها كل التجاوزات. وفي نهاية الأسبوع كان يتم تنفيذ العقوبة الجهنمية بقضيب الخيزران. ويعتقد إيركسون أن هذا التجميع المستمر للخطايا قد عزز من تأنيب الضمير لدى مارتين. فقد تأزمت مسألة «كيف يمكن للمرء على الأرض أن يعمل كفاية من أجل جعل هيئات القضاء المختلفة راضية- المدرسين والآباء والرؤساء وبشكل خاص الضمير الشخصي» (1975 «أ»، صفحة84).

وفي سن الرابعة عشرة غير مارتين المدرسة إلى ماجديبورغ Magdeburg. وبعد سنة أرسله أبوه إلى آيزيناخ Eisenach، حيث عاش لدى أسرة فون كوتا von Cotta النبيلة الغنية. وفي سن السابعة عشرة التحق في كلية الحقوق لجامعة إيرفورت Erfurt ودرس من عام 1501 إلى عام 1505 القوانين. ويصف إيركسون الطالب مارتين بأنه شاب خجول متحفظ. وأبدى اهتماماً بالموسيقى والعزف إلا أنه ابتعد فيما عدا عن ذلك عن حياة الطلاب وأطلق عليه زملاءه لقب «الفيلسوف». وبعد سنة ونصف تقدم مارتين للحصول على درجة البكالوريوس؛ فقد اكتسب معارف عميقة في مجال النحو والمنطق والبلاغة والفلك والفيزياء والفلسفة وعلم النفس. وقد اهتم بشكل خاص بأرسطو وأقل بألبيرتوس ماغنوس[1] Albertus Magnus وتوماس الأكويني[2] أسياد ذلك الوقت في فلسفة العصور الوسطى. فقد تم في إيرفورت تدريس النسخة الأوكهامية من أرسطو. ومارتن كان متأثراً بهذا المذهب العلمي، ويرى إيركسون أنه كان بالنسبة له نوعاً من منظومة الأفكار الإيديولوجية الأولى، التي تحمس لها من دون التمكن من تنظيمها في كلية تاريخ الفكر.

---

(1) ألبرت الكبير، القديس (1200 ـ 1280): فيلسوف ولاهوتي ألماني. حاول التوفيق بين اللاهوت وفلسفة أرسطو.

(2) القديس توماس الأكويني (1225-1274) راهب وفيلسوف ولاهوتي إيطالي، وضع مذهباً فلسفياً يعرف «بالتومانية».

لقد كان عصر التعليم الإلزامي. وكان مارتين من بين أفضل الطلاب. وفي شباط من عام 1505 نجح في امتحان الماجستير. وأصبحت الدرجات الأخرى في الترقي الأكاديمي متاحة. لقد كان بإمكانه تحقيق حلم والده وأن يدرس الحقوق في واحدة من أفضل كليات القانون. ويقال أن هانس قد بحث له عن عروس. ولابد وأن يكون مارتن قد شعر أن حياته على حافة قرارات لا يمكن التراجع عنها. وعلى ما يبدو فقد تفاقمت أزمة هويته إلى مزاج كئيب. وفي أواسط الفصل الدراسي الصيفي زار والديه فجأة. وتخمين إيركسون أن هانس قد توقع منه أن يقدم له تقريراً هي مسألة غير قابلة للبرهان تاريخياً. فلو كان مارتين قد لمح هنا إلى إمكانية سيرة كهنوتية لكان الأمر لن يسر من دون تصور حصول مواجهة عنيفة بين الأب وابنه.

وفي الثاني من شهر تموز (يوليو)، وعلى طريق عودته للجامعة، باغتت مارتين عاصفة شديدة. فوقعت صاعقة بالقرب منه مباشرة وهوت به للأرض. وفي خوف مرعب من الموت، ومن دون أن يكون واعياً كلية لكلماته، نادى: «يا قديسة حنه St. Anna أنقذيني سأكون راهبا بقية حياتي!»[ii] شعر مارتين بهذا وكأنه نذر واعتقد بأنه ملزم تجاه هذا النذر، على الرغم من أنه قد شعر وكأنه كان مجبراً على هذه الكلمات وسرعان ما شعر بعد ذلك بأنه لم يكن يقصد ذلك: «أصبحت كاهنا رغماً عني»[iii]. ويلفت إيركسون النظر إلى أن «ما يخص نداءه غير المقصود فقد كان هذا، إذا لم يكن نذراً بالعموم، عندئذ تأويلاً مزدوجاً للغاية. إذ أنه قد نادى شفيعه بقصد العصيان ضد أبيه. لقد نوه للقديسة التي تحمي من النهاية المفاجئة وتسبب الغنى، باختيار المهنة التي تهيئ الإنسان للموت وتتطلب الفقر طوال الحياة. وهذه وغيرها من الازدواجية كانت تضغط في كل لحظة معاً» (1975 «أ»، صفحة 99). وفي 17 تموز (يوليو) من عام 1505 التمس مارتين القبول في دير رهبانية أوغسطين Augustiner-Ermitenkloster في إيرفورت؛ وقد تم بداية وضعه تحت التجريب.

وبد أن هانس قد خرج عن طوره بسبب قرار ابنه؛ حتى أنه رفض إعطاء موافقته على السنة التجريبية في الدير. ولكن عندما قضى الطاعون الأسود على اثنين من أخوة

مارتين، وافق والده وهو غير راض أبداً على السيرة الإكليريكية لابنه البكر، غير أنه شكك طوال حياته بأن مارتن لم يكن يعني ذلك بشكل جدي أبداً. وفي الواقع فإن توبة مارتن تفتقد إلى ما هو خارق، وعلى عكس توبة باولوس. كما أنه لم تكن هناك شهود. وبهذا فقد تم طرح الكثير من تخمينات كثيرة حول هذه الخبرة: كان وحياً دينياً، أو هلوسة، أو تمرد على الأب أو تأثير من جني. ويعتقد إيركسون أن الصاعقة كانت منطقية من الناحية النفسية على الأقل. فقبل وقت قصير من الحدث لابد وأن مارتين قد كان في حالة من الحزن الشال، جعل من المستحيل عليه مواصلة الدراسة أو حتى التفكير بالزواج. لقد أحس كيف تتجه طموحاته باتجاه آخر، إلا أنه لم يكن قد وجد طريقه بعد. ولابد وأن يكون قد حصل حدثاً ما «برهن على أنه مُقنِع باعتباره قادماً من الخارج ومن الأعلى، ليشعر هانس بأنه مجبر على ترك الابن ينتقل...أو ليستطيع مارتين التخلي عن أبيه والأبوة» (1975 «أ»، صفحة 120).

9.4 التعليق في الدير

في ذلك العصر كان الدير مكان تعليق ملائم للشباب المزعزع. إذ كان بإمكان المرء مغادرة الجماعة بعد وقت معين. لقد بنى مارتين حسب وجهة نظر إيركسون بالحرف جداراً حول نفسه لبعض الوقت، انسحب إلى عالم من الغفلية والصمت، تخلى عن الحياة الدنيا وولاءه لأب دنيوي. وقد أتاح له التعليق Moratorium الوقت لتمثل الانطباعات. وكان لابد له بعد من أن يقع على وظيفته الحقيقية في الحياة وأن يعرف من هو عدوه الحقيقي. ويخمن إيركسون أنه «عند دخوله الدير لم يكن لدى مارتين أدنى تخمين بالدور الخاص الذي سيلعبه يوماً ما في تاريخ الدين. كان يبحث عن قيمة عليا...ولكنه وجد هنا أيضاً الشر اللامع، الذي كان جباراً كفاية.....، ليبتلع حنقه في نفسه، الذي عاش في روحه المشوهة. وهذا الشر كان البابوية الكاثوليكية» (1975 «أ»، صفحة 105).

كانت الرهبانية الأوغسطينية في ذلك الوقت جماعة محترمة وغنية وذات تفكير

تقدمي. فقد اختار مارتين في النهاية وفق رؤية والده الجزء الأفضل تنظيماً من الكنيسة الكاثوليكية، تقدم مؤسستها بالإضافة إلى ذلك تطوراً واعداً. وبعد سنة تجريبية حصل القبول الاحتفالي مع الاعتراف العام وقص الشعر واللباس. وينظر إيركسون للحياة في الجماعة الدينية مع التأكيد المتطرف على الأخوة على أنها تدريب إيديولوجي مثالي. فبعيداً عن الأسرة ومنصرفاً عن الملهيات الدنيوية يصبح المرشح مستعداً للتخلي عن ارتباطات الحياة اليومية ليلج كلية في وجوده الداخلي ويتعلم قهر دوافعه ورغباته والاستبصار في مناورات خداع الذات.

تلاءم مارتين مع الدورة الجديدة للنوم والاستيقاظ التي كانت مقدمة على الأوقات اليومية المعتادة، وكذلك مع قوانين الدير التي كانت تتضمن حتى أدق التفاصيل. وكان اليوم مملوءاً بالعمل القاسي والصلاة[1]، ولم يكن هناك إلا القليل من الطعام. وفي غالبية الأماكن من الدير كان يسود واجب الصمت، وبشكل خاص عند التناول الجماعي للطعام، حيث كان الرهبان يصغون لقراءات من الكتاب المقدس. ولم يكن هناك أي متنفس تقريباً لصرف الانتباه أو للمرح أو للتعبير عن النفس. فكل الطاقة كانت موجهة نحو الخبرة الدينية والصلاة والتأمل والترتيل. وقاد الاعتراف المنتظم، وكذلك عادة الاتهام من الخارج في الاعتراف الجماعي، إلى سبر عميق للضمير والبقايا الجوفاء من العزة بالنفس. لقد كان تدريباً منهجياً لقبول التفاهة الدنيوية ومن ثم الظفر بالرحمة الإلهية.

---

(1) كان الاستيقاظ في الساعة الواحدة صباحا فعندما كان يقرع الجرس الأول كان على الراهب أن يرسم علامة الصليب ويستعد لارتداد ثيابه، وعند سماع صوت الجرس الثاني كان عليه أن يترك قلايته مسرعا إلى الكنيسة ثم يسجد أمام الهيكل ويصلي صلاة تعبدية للمخلص، إلى أن يحضر الجميع وعندئذ كانوا يصلون معا لمدة حوالي 40 دقيقة. كان على الرهبان أيضا ألا يتناولوا ألا وجبة واحدة في الساعة الثانية بعض الظهر. لمدة تصل إلى نصف أيام السنة. وفي هذه الفترة كانوا لا يأكلون لحما ولا زبده ولا جبنا ولا بيضا. كانت قلايات الشباب بدون تدفئة في الشتاء كما يقول ستروهل (كان السهر والصيام والبرد حقائق تاريخية وليست أساطير وقد مارسها فعلا الرهبان). وبالرغم من الصيام والسهر والأشغال اليدوية الأخرى، التي كان على كل راهب مبتدئ أن يقوم بها. فقد كلف كل راهب بان يقوم بجولات تسولية في المدينة. كما كان الرهبان يصلون سبع مرات في اليوم.

ويعتقد إيركسون بأن النظام في الدير كان بالنسبة لمارتين بداية «سجناً اختيارياً مليئاً بالهدوء الشافي». (1975 «أ»، صفحة 146). لقد كان جسمياً وذهنياً لا أحد nobody، تمكن لبعض الوقت من نسيان تأنيب ضميره ووجد في هذا الوقت من الغفلية Anonymity «السعادة اليقينية – لفترة وجيزة على الأقل» (1975 «أ»، صفحة 107). فكل تعليم إيديولوجي صارم يشحذ في الجانب الآخر أزمة الهوية. فالزهد المتطرف يتطلب كبح الدافع، والوحدة والسكون يمسان المركبات العصابية. فينكص المرشح إلى الصراعات الباكرة، ويمكن للعلاقة بنفسه وبالآخرين أن تجعله يقع تحت أشد محكات الإرهاق، لا يستطيع السيطرة عليها إلا الأنا القوي. كما أن التدريب الرهباني يحتاج إلى ضحاياه، ومارتين رأي أخوة له، أصبحوا مميزين أو هووا في الجنون. ويفترض إيركسون أن أزمة لوثر قد تأزمت، كلما ترقى في السلم الإكليريكي أكثر.

وبعد سنة من القبول أجيز مارتين في الرهبانية. وكان عليه أن يقرر أمام رئيس الدير، إما أن يهجر العالم نهائياً أو أن يخرج من الجماعة. بعد ذلك ألبس ثوب الرهبانية، ونطق مارتين نذر الجماعة. بعد ذلك بفترة وجيزة رشح لمنصب كاهن، الخطوة الأولى لتجاوز وجود راهب بسيط. لقد تضايق مارتن من مقدار الدرجة من الالتزام الشخصي والإيمان القوي التي يحتاجها المنصب، الذي يوصل للآخرين حضور المسيح. وهنا يفترض إيركسون أنه للمرة الأولى قد انطلق الشك الكبير فيما إذا كان جديراً كفاية بمنصب الكاهن وفيما إذا كان يأخذ ترقيته عموماً على محمل الجد.

وكانت علامات الأزمة المتسللة نوبة الخوف التي عانى منها لوثر في أول قداس له. وقد صرح لاحقاً، أراد أن يهرب من العالم مثل يوداس[1] Judas و «كاد يموت من الخوف لأنه لم يكن هناك إيمان موجوداً»[١٧] حتى أنه يقال أنه حاول الهرب من المذبح وتم منعه من متقدم عليه. وحتى لو كان لا يمكن استعادة الحدث تاريخياً مائة بالمائة فإنه من المنطقي نفسياً بالنسبة لإيركسون أن لوثر هنا للمرة الأولى منذ دخوله الدير قد

(1) يوداس الإسخريوطي الذي خان المسيح.

عانى من حالة استثنائية. وكان القداس الأول حدثاً ذو أهمية قصوى، دعيت إليها الأسرة أيضاً. وللمرة الأولى رأى مارتين هنا والده ثانية، الذي لم تجرأ حتى الآن على مواجهته بشكل صريح. فكيف كان هانس ليستجيب؟ هل ربما مازال غير راض عن الكهنوتية وسوف يأمل بطاعة ولده؟ فحسب تقدير إيركسون كان مارتين غير راسخ في هويته الدينية كفاية بعد، ليرضى باستنكار والده بصبر. بل ولابد وأنه مازال شعر بالتمزق في ولاءه بين أبيه الدنيوي والسماوي. ففي أثناء القداس أصبح مارتين فجأة جامداً من الخوف، لأنه لم يحس بوظيفة الاعتقاد المقوية للأنا. فأمامه وقف الرب الذي لم يؤمن له خبرة القربان المقدس. ووراء ظهره كان هانس، الذي لم يوافق على سيرته الكهنوتية. ويرى إيركسون مارتين هنا على منعطف طرق نموه، «على ذلك المنعطف الذي ينتمي إلى المستقبل، يفصل كل التيارات دفعة واحدة، التي تتطلع إلى الماضي. أمامه كانت رحمة غير يقينية للقربان المقدس، وخلفه الحنق الممكن للأب. كان إيمانه يفتقد في كل لحظة إلى الصياغة الأكيدة لجوهر الشفاعة mediator، التي ظهرت لاحقاً في محاضراته حول المزامير. فمارتين لم يكن يمتلك مفهوماً حياً عن المسيح. فكان بالفعل خائفاً حتى الموت من لغز الشفاعة mediator» (1975 «أ»، صفحة 53).

أما التطور اللاحق للوثر في الدير بين عامي 1507 حتى 1515 فمن الصعب إعادة تركيبه. فلوثر نفسه قوم تلك المرحلة لاحقاً بكلمات فيها مبالغة. ففي هذه السنوات واصل ترقيه الإكليريكي نحو الأعلى إلى أبعد من دور الراهب البسيط. ومن عام 1508 حتى عام 1509 تولى كرسي فلسفة الأخلاق في جامعة إيرفورت وأصبح في فيتنبيرغ Wittenberg دكتوراً للاهوت. وعندما أصبح مصلحاً فيما بعد كان رئيساً للدير، ووكيلاً لمنطقة تضم 11 ديراً وأستاذاً للاهوتية. وهذا يدل على اجتهاد لوثر، وطموحه وموهبته. وفي الوقت نفسه يوجد في المصادر دلائل على حالة نفسية غير متزنة. ويستخلص إيركسون من هذا أن أزمة الهوية لدى لوثر قد تأزمت أكثر فأكثر منذ عام 1507 وانتقلت إلى حالات استثنائية توحي بالإمراضية النفسية وأحياناً إلى تشتت الهوية. ويصف إيركسون هذه السنة بأنها الضياع المأساوي بين الخضوع القهري

لقوانين الجماعة والنزعة نحو الاحتجاج، بين الإحساس بأنه يحمل رسالة في داخله، والتخلي عن الحافز، بين العصاب والإبداع. وكسبب رئيسي لنمو المتأزم الملحوظ يرى إيركسون عودة مركب الأب المكبوت.

ويبدو أن مارتين قد أمل بالأساس، التمكن من الهرب إلى حياة طاعة الرب. إلا أن ما أدغشه هو أنه قد أجل شأناً لم يكن شأنه هو. فوجد نفسه باطراد في فراغ: فقد رمى مسار أبيه، إلا أن وجوده في الدير أصبح إشكالياً أيضاً: «فبدأ ضميره يفترس كالعث في نسيج رهبانيته، التي أحس أنها حماية فاعلة جداً له ضد نزوعاته» (1975 «أ» صفحة 170). وشاعراً دائماً بمزيد من الوحدة وعدم الثقة، لم يعد الدير يمثل آلية الدفاع الخارجية، التي دعمت أنا مارتين في الصراع ضد نزوعات الهو والأنا الأعلى. ويخمن إيركسون بأن لوثر قد عانى بشكل خاص من إغواءات جنسية، التي يمكن لها دائماً أن تباغت الراهب في حالة الزهد المستمر. إذ يحتمل للعلاقات بالنساء أن تكون بعيدة الاحتمال في هذه المرحلة من الحياة. إلا أنه يتوقع للاحتلامات الليلية أن تكون قد سببت لمارتين في استقامته المفرطة مشاعر الذنب، وجعلته يساوي - كما يخمن إيركسون- أي توتر جنسي بالخطيئة: «وبهذا فقد أصبح مهيئاً لذلك الربط للاستثارة الجنسية مع فرط الحساسية للضمير، الذي دفع تشتت الهوية إلى القمة» (1975 «أ»، صفحة 170).

ويصف إيركسون الأزمة الدينية الشديدة المنطلقة للوثر على الحدود بين الصراع العقلي والاندفاع الباثولوجي النفسي. بشكل مثير للانطباع. إلا أن السؤال المطروح من ناحية أخرى هو فيما إذا كانت هذه الأزمة قد كانت بالفعل وخيمة بهذه الدرجة ومستمرة طويلاً -فالأمر يتعلق بفترة زمنية تمتد لبضع سنوات-، أو فيما إذا كان إيركسون يبالغ في تفسير بعض المصادر ويعمم على يوثر خبراته من علاج مرضاه الشباب المشتتين. فالضمير السلبي، محاولاً إيركسون تقمص الحالة النفسية للراهب الشاب، عاد ثانية لدى مارتين بكل سطوته. فهل كان الحق مع أبيه في شكه في قدرته؟ لقد بدأ بالشعور بالذنب وعدم الجدارة، جسَّد من ناحية أخرى الأنا الأعلى الصارم نحو الخارج، اعتقد

أنه مراقب من أخوته ورؤسائه، عانى من توتر مطرد ونوبات حنق غير مسيطر عليها. وأحياناً ظهرت لدى مارتين حالات قهرية وهلوسات، وعانى من نوبات خوف أو شعر بأن الشيطان يلاحقه. وبدأ بالخوف من المسيح والشعور بأنه غير جدير بالقربان المقدس. وكل هذا كان حسب إيركسون النتيجة الداخلية لحنق محبوس طويلاً في إنسان لا يريد فقدان السيطرة التقية على نفسه ومن ناحية أخرى لم يجد صورة عدو مبررة بعد: «ومن المحتمل جداً أن حياة مارتين قد اقتربت أحياناً مما نسميه اليوم الحالة الذهانية الحدودية لشاب في مراهقة ممتدة وصراعات طفولية منبثقة من جديد» (1975 «أ» صفحة، 162-163).

ولفترة طويلة حاول لوثر قمع الهيجان الداخلي بالمبالغة في الطاعة. فدرس بدقة الكتاب المقدس، التزم بدقة بكل صغيرة من قوانين الدير، استقصى بضمير حي ضميره وكان يعترف لساعات طويلة بسبب توافه صغيرة. وهذا السلوك كان حسب إيركسون موجه قهرياً بطريقة تقليدية. ففي الطاعة المبالغ بها تجلت آلية الدفاع التكوين العكسي ضد النزوعات التمردية المكبوتة. وبالطبع فإن التأمل والشك الذي لا ينقطع قد أبعد مارتين أكثر فأكثر عن هدفه، بأن ينصفه الرب. ولم يستطع فلاسفة العصور الوسطى في ميلهم نحو جعل مسائل الإيمان من قضايا المنطق، ولا كذلك مساعيه في إيجاد المواساة في الشغف التصوفي. تاق مارتين إلى ورع أصلي، نحو الاتحاد الآمن مع الرب؛ ولكن في أعماقه جاش الحنق والتجديف[1].

ويرى إيركسون أن مخاوف مارتين الأوديبية المكبوتة قد باغتته بطريقة جديدة وتم نقلها مباشرة إلى السلطات الميتافيزيقية في السماء: «وكل هذا قد قاده في النهاية إلى وضع الرب في دور الأب المهاب، الذي لم يستطع التأمين له. وبهذا فقد اكتملت الأزمة وعاد المكبوت بكل سطوته؛ إذ أنه هنا قد تطابق مركز الرب بالضبط مع المركز الذي كان للأب، عندما حاول مارتين، الهروب بمساعدة البرق والرعد إلى اللاهوت» (1975

(1) سلوك ينم عن عدم احترام للمقدس.

«أ»، صفحة 180). كان مارتين عندما يسمع اسم المسيح يصاب بهلع مرعب؛ كان يشكك بضحية ابن الرب وبدأ بالخوف منه وكرهه. كانت نزوعات التجديف على الله تهدد بالتغلب على أناه باستمرار. وفي هذه النقطة وصل مارتين إلى الصخرة الداخلية لأساس تشتت هويته. فلقد أصبح بالنسبة له من غير الممكن أن يتمكن المرء من الحصول على الرحمة الإلهية من خلال إتباع التعاليم والوصول إلى الالتقاء الأصلي مع الرب من خلال شكل ما من السعي الشخصي. وهنا تفرع طريق الشاب لوثر. فكان عليه منذ الآن أن يجد مدخله الخاص الجديد كلية على الجانب الآخر من الأعراف الدينية في عصره. فإذا ما لم يتمكن من ذلك فإن كل مخطط حياته مهدد بالفشل.

فكيف كان ممكناً أن مارتين لم يفقد نفسه في تشتت هويته، إنما كسب الأنا اليد الطولى بالتدريج؟ يرى إيركسون هنا ثلاثة أسباب لذلك:

1- معرفة مارتين بممثل القس العام الدكتور شتاوبتس Staupitz؛
2- اهتمامه المطرد بالكتاب المقدس والبناء التدريجي لصرح أفكاره اللاهوتية؛
3- اكتشاف مهاراته اللغوية كواعظ شعبي.

ففي العام 1508 تم نقل لوثر البالغ من العمر 25 سنة إلى دير أوغسطين في فيتنبيرغ. وهنا تعارف مع الدكتور شتاوبتس، الذي يمنحه إيركسون دوراً مهماً جداً في هذه المرحلة الحرجة في حياة لوثر. متلقفاً لكل حماس شبابي في شخصية لوثر تحول شتاوبتز إلى صورة أب إيجابية بالنسبة للشاب مارتين. وعلى الرغم من أنه يعتقد بأنه كان ذو حجم متوسط لاهوتياً فقط، إلا أنه كان حسب رؤية إيركسون الذي أيقظ بالضبط في اللحظة المناسبة وبالكلمات المناسبة الأفكار المبذورة في مارتين. كان مارتين يستطيع التفريغ مع شتاوبتس. فدعمه في الابتعاد عن تأنيب ضميره، في الإصغاء إلى مشاعره الذاتية الأصلية. وكسلطة غير لوامة استطاع مواجهة مارتين بالمرح والتسامح، وجعل الثقة الأصلية المهزوزة ترفرف من جديد. ويعتقد أن شتاوبتس كان هو أبو فكرة أن الإيمان هو أمر أساسي: «أنا أؤمن، ولهذا فأنا معذور». ويكتب إيركسون عن دور شتاوبتس: «من خلال ربطه لحاجات عضو من جماعته متميز ولكنه في الوقت

نفسه معرض للخطر مع ضرورات الجماعة، برهن على أنه موهوب تربوياً، معالج أصيل. إن حقيقة أن شتاوبتس قد أدرك بأنه متحدث كبير ومؤول للكلمة وتغاضى عن اعتراضاته العنيفة، تبرهن على أيضاً على جسارته العلاجية ورؤيته التخطيطية الواسعة» . (1975، صفحة 182).

وفي هذه المرحلة جاءت رحلة لوثر إلى روما في خريف 1501، قاصداً قبل سبع سنين من الإصلاح البروتستانتي عرين غريمه المستقبلي. وبرفقة كاهن أكبر سناً عبر لوثر ألمانيا مشياً على أقدامه، وجبال الألب وإيطاليا. كانت مهمته، تقديم التماس من دير أبرشية ساكسونيا الأوغسطيني لمكتب النائب العام الكاثوليكي. وبالنظر إلى حقيقة أن لوثر قد شق بعد بضع سنين لاحقة جزءاً كبيراً من المسيحية عن البابا الكاثوليكي، فقد سارت رحلته وإقامته في روما حسب إيركسون بصورة مغفلة كلية وبصورة غير ملتفتة للنظر. ولم يكن هناك في ذلك الوقت الكثير من بريق عصر النهضة لرؤيته. فقد كان عدد سكان روما في بدايات القرن السادس عشر ضعف عدد سكان إيرفوت على أقصى تقدير وكانت ما تزال مدمرة إلى حد ما. فقد زار لوثر بإيمان حار ورع الأماكن الدينية في المدينة وعمل اعترافاً عاماً، وحسب إيركسون آخر مسعى لإضعاف قلقه الداخلي من خلال التصرفات التقية.

بالإضافة إلى ذلك لابد وأنه قد لفت نظر لوثر الانحطاط الديني لعصره. ففي روما ساد تقديس رائج للتحف الدينية. وارتبطت الخرافات بعقلية التجارة. فكان يمكن للمرء أن يشاهد طبعة قدم المسيح أو الثلاثين قطعة نقدية فضية ليوداس أو أنصاف أجساد بيتروس وباولوس أو قطرات من حليب السيدة العذراء، وسادت تجارة ناشطة لصكوك الغفران. كما أنه ولابد وأن تكون إساءات الجمع قد عذبته أيضاً. ولاحظ قساوسة لا يعرفون اللاتينية جيداً، احتفلوا بالقربان المقدس بلا اهتمام وبصورة فوضوية. لقد تلقى في داخله هذه الانطباعات بصورة أقرب للمربكة منها إلى المستقبحة. ويعتقد إيركسون أن كل هذه المنغصات لم تكن بالنسبة له في هذا الوقت أعراضاً لانحطاط كنيسته بعد. فلم يكن لوثر قد وصل إلى نهاية فترة الكمون الخلاقة بعد. فقد حجبت

آلية حماية الشعور بالحيرة والغضب، وحمته من القرارات المغرية: «يمكن القول أن لوثر قد احتفظ بانطباعاته لنفسه بصورة قهرية – أنه عانى من (الانسداد) الذهني- النفسي (وهو ما كان يميل إليه جسمياً طوال عمره)» (1975 «أ»، صفحة 194).

9.5 نشوء لاهوت جديد

كان لوثر بعد عودته من روما مدرساً جامعياً وقسيساً في الوقت نفسه. فقد اكتشف ثراء قدراته اللغوية على التعبير. فكان يعظ أمام الطبقات البسيطة للشعب وأمام النبلاء والطلاب. لجأ لوثر إلى قلوب الناس، وكانت نظرته وظهوره ساحرين. وانتشرت خطبه مطبوعة، وتحول إلى واعظ شعبي. وكمدرس جامعي طور لوثر بالتدريج أسلوبه اللاهوتي الخاص من دراسات متعمقة للكتاب المقدس والاهتمام بأسياد الفلسفة ومفهوم الحب السكولاستي[1]. وفي العمل في مجاله التخصصي، تأويل الكتاب المقدس Bible exegesis تمكن من إطلاق العنان لأفكاره اللاهوتية. ويرى إيركسون جذور أن جذور الإصلاح قد بزغت حتى قبل عام 1517 بفترة طويلة ويعتقد أن لاهوت لوثر قد كان جاهزاً في مسودته، عندما اقتحم التاريخ.

ففي أعماله بشكل خاص حول محاضرة المزامير في عام 1513 أو حول الخطاب الروماني في عام 1516 لابد وأن يكون قد بنى صرحاً غافياً من الأفكار. وفي خبرة السلم[2] عند لوثر حصل عندئذ الكشف الدراماتيكي. فعندما أمعن الفكر في الفقرة

(1) الفلسفة السكولاستية: الفلسفة النصرانية السائدة في القرون الوسطى. وأوائل عصر النهضة. وقد بنيت على منطق أرسطو ومفهومه لما وراء الطبيعة. وقد اتسمت في أوروبا الغربية بشكل خاص بإخضاع الفلسفة للاهوت. ومن أشهر فلاسفتها توماس الأكويني الذي حاول إقامة صلة عقلانية بين العقل والدين.

(2) في يوم من الأيام وجد نفسه أمام كنيسة القديس يوحنا. وعندما دخل تلك الكنيسة الصغيرة شعر بالأسى إذ كانت أمه ما زالت على قيد الحياة. فمن المتعارف عليه انه إذا أقام كاهن قداسا مساء الأحد في هذه الكنيسة فان روح أم الكاهن الذي يقيم القداس تخرج من المطهر ولأجل هذا السبب فانه تأسف شديدا لأنه لم يستطع أن ينتهز هذه الفرصة لخلاص أمه من المطهر. ولقد راودته نفس الفكرة عندما عرف بان صعوده على السلم المقدس يمكن أن يخلص والديه من المطهر. وبما انه كان يريد أن يحصل على اكبر عدد من الغفرانات الممكنة له

(روم 1:17)، اتضحت الجملة الأخيرة فجأة، هزت شخصيته في العمق: «أما البار فبالإيمان يحيا». المعرفة بأنه لابد للإيمان أن يكون قد وجد قبل الفعل. والمسيح مبرر من خلال إيمانه لوحده، كانت الاختراق اللاهوتي الحاسم للوثر نحو بداية جديدة كلية لعلاقة الإنسان بالرب. إذ لا يوجد بالنسبة للفرد أية إمكانية على الإطلاق للحصول على الخلاص من خلال الكد أو الأعمال الجيدة. فالله ليس قاضياً صارماً، يطبق في يوم الدين وفقاً لسجل الخطايا محكمة تحقق المصالحة أو الرشوة. فالله قد أوجد الإيمان الذي علينا أن نعيش منه، وهذا ندركه نحن، بأن نفهم الكلمة، المسيح. إن جدية الإيمان هي وحدها المحدد الفاصل في العلاقة بالله.

وللعائلة. وبما أن والديه كانا على قيد الحياة ولا فائدة من عمل هذه التضحية التي لا تفيدهما فقد قام بصعود السلم المقدس لكي يخلص جده الذي كان يحبه كثيرا من المطهر. لكن ما هذا السلم المقدس؟(Scala Santa) كان أمام كنيسة روما سلماً مكوناً من ثمان وعشرين درجة يقال أن المسيح قد صعد عليه للمثول أمام بيلاطس عند محاكمته. وكان المعروف أن من يصعد هذا السلم على ركبتيه مصليا على كل درجة الصلاة الربانية يحصل على غفران خطايا الشخص الذي يهمه في المطهر. وعندما وصل لوثر إلى آخر درجة ناجى جده قائلا: (هل خرجت الآن من المطهر أيها الجد العزيز؟ وهل أنت سعيد الآن؟) وبعد هذه المناجاة شعر بسؤال يدور في ذهنه وهو: هل خرج جدي فعلا من المطهر؟ وهل هذا صحيح؟ كم بدري؟ ولقد تضاربت الأراء حول هذه القصة الخاصة بصعود لوثر على هذا السلم. فقد اعتقد البعض أن لوثر سمع وهو يصعد هذا السلم صوتا يقول له: (أما البار فبالإيمان يحيا) فانسحب من بين الزاحفين، (دكتور عزت زكي) ص 44 ثم أ. موريسون ترجمة القس باقي صدقة ص 31، (Bainton) ص38 على أن بعض العلماء يرى بان لوثر لم يكتشف حقيقة البر بالإيمان التي تكلم عنها الرسول بولس (رو16:1،16) مقتبسا إياها من سفر حبقوق 4:2 عند صعوده على هذا السلم بل أن هذه القصة ما هي إلا أسطورة من الأساطير التي أضافها التقليد البروتستانتي (Strohl 86) ويقول هؤلاء العلماء بان الذين يعتقدون أن لوثر قد اكتشف عقيدة التبرير بالإيمان عند صعوده هذا السلم يرجعون إلى قصة قد كتبها بولس لوثر - ابن لوثر وهو طبيب- ويقول انه سمع هذه القصة من فم أبيه وهو في سنة الحادية عشرة من عمره، على أن العالم (Kostlin) لا يشك في صحة هذه الرواية إلا انه يرى بان البعض بالغ كثيرا في استعمالها. أما بوخفالد (Buchwald) فقد اكتشف في مكتبة تسفيكاو (Zwickau) مخطوطة تحل لنا هذه المشكلة ففي عظة ألقاها لوثر في يوم 15 سبتمبر (أيلول) سنة 1545 قال فيها (لقد أردت وأنا في روما أن اخلص جدي من المطهر وصعدت سلم بيلاطس وكنت أتلو على كل درجة الصلاة الربانية. لأنه قيل بان الذي يفعل هكذا يستطيع أن يخلص نفسا. ولكن عند وصوله إلى النهاية تساءلت: من يعرف إذا كان هذا الأمر حقيقية)؟ ويحتمل أن ابن لوثر – بولس- الذي سمع هذه القصة وهو في سن الحادية عشر من عمره حاول ربطها بعبارات أخرى لأبيه كان قد شرح بها أهمية رسالة رومية بالنسبة له بعد عودته من مدينة روما. (عن http://www.lutherinarabic.org/)

لقد كان الوحي في السلم بالنسبة للوثر نوع من خبرة الهداية الثانية، مكنته من إلهامات دينية كبيرة وإنتاجية عقلية. فلاهوتيته الناشئة في تبرير الأثم من الإيمان حررته من المخاوف ومشاعر الذنب وأظهرت حسب إيركسون «تقاطعات بنيوية مفاجئة مع التغيرات الديناميكية الداخلية، بالشكل الذي يلاحظه العياديون عند شفاء المرضى من الأزمة النفسية» (1975 «أ»، صفحة 227-228). وفي إطار شفاءه الذاتي وفي صراعات داخلية مرعبة صاغ لوثر المبادئ التي «تمثل أساس مواجهة الوجود بالوسائل الدينية والاستبطانية» (1975 «أ» صفحة 244). وكان الأمر الحاسم أن لوثر قد بدأ يرى صفات الله من منظور جديد كلية. فلم يعد الله واقع غضب منتقم، ولا في الوقت نفسه أنا أعلى مرعب مسقط من القبة السماوية. ومن وجهة النظر التحليلية النفسية فقد حرر لوثر تصورات الله من التمثيلات السلبية لصورة الأب وكان قادراً باطراد على رؤية سلطة طيبة مانحة للرحمة في الله.

وبعناية على حوالي عشرين صفحة يحاول إيركسون استخلاص السمات الأساسية للاهوتية لوثر ومقارنتها بالمعارف التحليلية النفسية. فبالنسبة للوثر فإن التقي والمقدس بالفعل بالنسبة للوثر هو فقط ذلك الشعور، الذي يدركه الضمير. لهذا على الإنسان أن يؤمن قبل أي شيء، أن تمسه كلمة الله. وفي الاستسلام، في الاستغراق العميق بالصلاة يمكن للإنسان أن يمر بخبرة التأثير من الله العارمة. فالله ليس قاضياً صارماً، ينتظر الناس في الجانب الأخر؛ فمن يذهب في الطريق نحو الداخل، سوف يلاقي قبة رحمة الله. وهذا لا يتم تحقيقه بالتأكيد الأجوف للإيمان ولا من خلال الطقوس الفارغة من المعنى. فمن أجل الوصول إلى الله لابد للإنسان أن يكون جدياً بالمطلق، يسبر ضميره بأمانة وأن يتقبل كامل مقدار آثامه. وهذا الطريق مليء بالأشواك، ويمكن أن يسبب الكثير من الصراعات الداخلية العميقة وأعمق مشاعر الوحدة، ولكنها خبرات لا تمثل عقوبة من الله، وإنما عرض للظفر برحمته. المعاناة هي طريق للنضج الداخلي للذات. ومواجهة الذات بالنقص الذاتي والذنب ليست جزاء من الله، وإنما محاسبة صافية النية للذات عند الفرد. ولا يوجد بالنسبة للوثر أدنى أمل، للخلاص من خلال تراكم

الأعمال الطيبة أو من خلال محاولات الرشوة طهارة النفس أو الظفر برحمة الله من خلال التصرفات الدينية الآلية. الأفعال تكون مشروعة عندما يكون الإنسان منصفاً. وكل الأعمال الصالحة التي يتم إنجازها من دون مشاركة داخلية صادقة هي ليست غير خلاصات ذاتية تافهة.

لقد ناسبت لاهوتية لوثر المزاج العالمي المتغير لعصره. فالنهضة كانت حسب إيركسون «ثورة الأنا بلا منازع» (1975 «أ»، 22-212)، فقد أيدت الجسد والحسية، ونمت القدرات الإبداعية للإنسان، وأكدت، بلغة التحليل النفسي، استقلالية الأنا تجاه الأنا الأعلى. وصاغ لوثر إحساساً دينياً جديداً يعطي الخبرة الذاتية وبشكل خاص الاستقلالية الأخلاقية للأنا موقعاً محورياً. وحقق حسب إيركسون «العمل القذر للنهضة»، بأن طبق «بعض مبادئها الأساسية الفردانية على المجال القديم الذي ما زال راسخاً بشدة للكنيسة – ضمير الإنسان العادي» (1975 «أ»، صفحة 213). ويواصل: «لابد لنا من النظر لهذا المجال العام والمرعب للضمير السلبي على أنه المكان المحدد الملامح بقوة، الذي عمل عليه لوثر. وكانت وسائله هي وسائل التنوير: الرجوع إلى النصوص الأصلية، المركزية البشرية[1] anthropocentric (وإن كان أيضاً في صيغة متمركزة على المسيح Christocentric)، استخدام وسيلة تعبير قديمة جداً، اللغة الأم» (1975 «أ»، صفحة 215). وبالإضافة إلى ذلك فقد كان لوثر وفق تقدير إيركسون قبل عام 1517 غير مدرك جدية، بأنه سيصبح بطلاً لعصر جديد. فكل ما صاغه كان في نظره لاهوتاً صادق الإيمان: «فقط ذهن مستقل جداً أمكنه أن يعيد صياغة أسس المسيحية القديمة. وفقط رجل ساذج جداً يمكنه أن يصدق أن الكنيسة الكاثوليكية سوف تسمح له بالوعظ، هذا إذا تركته يعيش» (1975 «أ»، صفحة 224).

(1) اعتبار الإنسان هو حقيقة الكون المركزية أو أن الإنسان هو غاية الكون القصوى.

9.6 الطريق إلى الإصلاح

كان انحطاط الكنيسة الكاثوليكية قد بدأ يظهر قبل لوثر: نقص هيبة الإكليروس وعولمة البابوية الإرهاب ضد أصحاب الرأي الآخر وتزايد الخرافات. وكانت الممارسة المنتشرة حوله للعدالة هي القشة التي قصمت ظهر البعير. كانت الصدقات والتبرعات بداية من أجل الطقس الديني فقط. ولكن شيئاً فشيئاً اقتربت الكنيسة من خرافة شعبية، مفادها أن الأعمال الخيرة تؤثر بشكل ملائم على نقاء الروح. واستحوذ التفكير السحري؛ بأن الكنيسة تضمن رفع العذابات الزمنية. فصدق الشعب البسيط أن باستطاعته التأثير على وضع الأقارب في نار جهنم بشكل ملائم من خلال البذل المادي.

فمن أجل التمكن من تأمين الأعباء المادية الجبارة للبناء الجديد للقديس بيتر، تم إرسال وعاظ للتمويل. فظهر تاجر صكوك الغفران عديم الضمير جداً المسمى تيتسل Tetzel في كورزاكسن Kursachesn وأعلن أن بيع صكوك الغفران يمكن أن يحرر في بعض الحالات حتى من واجب الاعتراف. فأصبحت شروط أي نوع من الورع المخلص مهددة بالزوال. فبلغ السيل الزبى بالنسبة للوثر. فقد وقعت الصفقات المالية عديمة الضمير لكنيسته في تناقض مبدئي مع وعظه وتعاليمه هو. وبلا تردد ألصق لوثر في 31 تشرين الأول (أكتوبر) من عام 1517 خمس وتسعون أطروحة على بوابة كنيسة فيتينبرغ – وهو إجراء كان مألوفاً في ذلك الوقت للدعوة إلى نقاش مسألة خلافية–، غير عارف بأنه من خلال ذلك سيغير مجرى تاريخ العالم. فقد أراد، كما يعتقد إيركسون، أن يحمي كنيسته من الضلال ولم يكن ينوي في ذلك الوقت التمرد بأي شكل من الأشكال. إلا أن لوثر كان القائد التاريخي الأول الذي توفر له فن الطباعة ومن ثم تقنيات التأثير على الجماهير. وكانت القوة المفجرة لطروحاته التي انتشرت في كل مكان مفاجئة له. فقد وقف رجال مهمون إلى جانبه. وأعيد صياغة مذهب نظرية عدم الأهمية الدينية للأعمال إلى نظرية اقتصادية للتمرد. حسب إيركسون فقد انتظر شمال ألمانيا كله تقريباً الفرصة، إلى تقييد الضرائب الكاثوليكية بحجج دينية راسخة: «أيقظت الترجمة الألمانية للأطروحة صدى مباشراً مدوياً وواضحاً: فبين الجمهور

العريض الذي كان معادياً للإيطاليين ووطنياً، ولدى المحرومين المعادين للرأسمالية الداعين للمساواة، البلوتوقراطيين[1] plutocrat الصغار المعادين للاحتكار، الأمراء الإقطاعيين الانفصاليين particularistic، والمثقفين المعادين للإكليريكية والمتعاطفين، فرسان الجيرمان Teutonic والثائرين» (1975، صفحة 251).

لقد أطلق لوثر ثورة كانت تتخمر. أما التصعيد المأساوي اللاحق فإن إيركسون يصفه باختصار. فسواء لوثر أم البابا فقد ترددا لبعض الوقت، وقدما تنازلات. إلا أنه بعدئذ أخذ التاريخ مجراه. وعلى أقصى تقدير بعد المناظرة disputation العلنية مع إيك Eck الضليع لم تعد العودة ممكنة. فقد قاد إيك لوثر للتصريح عن شكه بالسلطان الأعلى للبابا. وفي عام 1520 كان مهدداً بالحرمان الكنسي excommunication بمرسوم بابوي. ومنذ ذلك الوقت أصبح البابا باطراد هدفاً لحنق لوثر. ففي ثلاثة مخطوطات خلافية تعرض للأسس الجوهرية للإيمان الكاثوليكي، وبناء عليه حرم كنسياً في أيلول (سبتمبر) من عام 1520. وفي اليوم التالي أحرق لوثر علنا كتاب البابا وأعلن أنه لا يمكن إنقاذ أي واحد، لا يتخلى، مثله، عن الكنيسة الكاثوليكية. وبهذا فقد تقرر المصير.

لا يرده شيء، أصبح لوثر في دور القائد الإيديولوجي والنبي الألماني. وبعد سنة لاحقة وفي المجلس النيابي لفورمس Worms، حسب إيركسون، «واجه الحرمان والموت، ليس في سبيل منظومة الإيمان أو الواجب تجاه التقاليد والأعراف، وإنما في سبيل قناعته الشخصية التي انبثقت لديه من الصراعات الداخلية والتي يتوقع لها مستقبلاً أن تقع تحت صراعات. لم يكن الضمير الذي تحدث عنه هزيمة داخلية لأخلاق تحولت إلى شكل؛ فقد كان هذا الأفضل مما يستطيع الإنسان الفرد أن يخبره بين السماء والجحيم والأرض» (1975 «أ»، صفحة 245). كان الدور التاريخي الحاسم للوثر في عيون إيركسون بأنه قد صاغ مذهباً إيمانياً لأناس العصر الجديد، الذين كانوا عامين بالوقوف دينياً واقتصادياً وسياسياً على أقدامهم هم. إن الأهمية التي قد منحها

(1) شخص متنفذ بسبب ثروته.

لوثر للضمير الفردي أنارت الطريق نحو كم كبير من المطالب السياسية بالحرية والمساواة وتقرير المصير في الثورات والحروب الدنيوية اللاحقة.

وبعد أن وقع القيصر الألماني الشاب الحرمان القيصري للوثر جعل جماعة من الفرسان يختطفونه إلى فارتبورغ Wartburg. ويقارن إيركسون إقامة لوثر هنا من 1521 إلى 1522 بذهان السجن. ففي تطوره إلى قائد غمرت لوثر السوداوية وضغطت عليه الإغواءات. ومن ناحية أخرى أطلقت حالة العطالة دفقة إبداعية جبارة. فقد تحولت ترجمة الإنجيل إلى عمل إنجاز أدبي كامل، بحيث أن كثير من الألمان قد أحسوا بأن المسيح قد نطق الصلاة الربانية باللغة الألمانية. وهنا ينتهي بالنسبة لإيركسون تاريخ الشاب لوثر. فقد منح الإصلاح الباعث الحاسم، ولكن الأحداث السياسية غمرته: «ما فعلته الإنسانية بمعارف وتعاليم لوثر، نتركه لعلم النفس الجماهيري والفلسفة السياسية والصراعات المتبقية التي تحولت بلاء على التطور اللاحق لشخصيته، تعزى إلى عمليات داخلية المنشأ أو إلى التقدم المبكر في العمر» (1975 «أ»، صفحة 258).

ويخصص إيركسون لتاريخ حياة لوثر اللاحق عد قليل من الصفحات. فقد غير المتعصبون في هذه الأثناء الجماهير، واحتقروا الموسيقى أثناء الصلاة، ودمروا صور القديسين ومريم العذراء. وبصورة مثيرة للقلق العميق رأى لوثر نفسه مجبراً على العودة إلى فيتنبيرغ للوعظ ضد هذه الإفراطات. وبدأ أول أتباعه بتسميته بالرجعي. وثار الفلاحون المقموعون بقسوة واتخذوا من لوثر قائداً سياسياً. إلا أنه كان لا يريد منهم إلا إعادة صياغة علاقة المؤمنين بالرب. فهو لم يكن يفكر بثورة سياسية اقتصادية. ومازال على قناعة بأن الاستقلالية الفكرية تتفق مع نظام الاستعباد ونظام الاستعباد يتفق مع الكتاب المقدس. ونصح لوثر الفلاحين بالاعتدال وكان عليه أن يشهد ألا يصغوا له. ونتيجة للخوف من الانقلاب السياسي انضم إلى جانب السلطة. وفي عام 1525 صدر «إعلان حربه ضد جموع الفلاحين القتلة واللصوص». كانت تصريحاته متطرفة واستبدادية: «ألا نسمع هانس، يصرخ ببقايا فلاح عنيد من ابنه؟» (1975 «أ»، صفحة 260). ففي المذابح الرهيبة التالية فقد 13000 فلاح حياتهم. وفشلت حرب

الفلاحين، أول ثورة اجتماعية في ألمانيا، تحت سطوة الأمراء الإقطاعيين الطامعين. لقد أضر لوثر بقضيته.

وفي أثناء وجود لوثر كأستاذ وقسيس بدأ الإصلاح يمتد عبر كل أوروبا. ففي تموز (يوليو) من عام 1525 تزوج لوثر من كاترينا دي بورا Katharina de Bora. وبعد سنة ولد ابنهما هانس. وهنا تجلت حسب إيركسون لدى لوثر بصورة مطردة القوة أزمة الهوية مع أبيه، ليس في أسلوب حياته كزوج ورب أسرة فحسب وإنما أيضاً في الرؤى السياسية واللاهوتية. فقد وقف لوثر باطراد إلى جانب السلطة ونادى بأن الوصية الموسوية: أكرم والديك! تعني أيضاً الأمراء الإقطاعيين. فإذا كان قد نادى كمصلح لايلين بالثورة على أعلى السلطات المسيحية فإنه قد أدلى الآن ضد أي تمرد. ويبدو وقع استنتاج إيركسون مخيباً: «الرجل المعتاد، الواقع تحت رحمة الأمراء الإقطاعيين المعتادين، فقد الكثير مما قد خاطر لوثر من أجله في محاضراته الماضية» (1975 «أ»، صفحة 263).

لقد نشأ تدين يعطي عمل الإنسان الأولوية المنظم بصرامة من السلطات الدينية والدنيوية. ذات يوم أراد لوثر تحرير الفرد من دكتاتورية الكنيسة الكاثوليكية، فها هو ساعد على تطوير تنظيم سياسي، أجبر الفرد على الخضوع للسياسة الاقتصادية وللمذهب الديني للأمراء الإقطاعيين المسيطرين. وحسب إيركسون فإن هذا يتناقض مع حركة التقدم الميركنتلية[1] mercantile الجديدة: «فعلى الرغم من أنه كان يستجيب بشكل أكثر شدة من أي شخص آخر على الصكوك والربا، فإنه قد ساعد على تطوير زواج ميتافيزيقي غير متكافئ misalliance بين الأنانية الاقتصادية والانتماء للكنيسة، والذي تحول إلى علامة مميزة للعالم الغربي. كان مارتين قد أصبح محامياً ميتافيزيقيا لطبقة أبيه» (1975 «أ» صفحة 264).

---

(1) الروح التجارية والميركنتلية Mercantilism هي حركة اقتصادية نشأت في أوروبا خلال تفسخ الإقطاعية لتعزيز ثروة الدولة عن طريق التنظيم الحكومي الصارم للاقتصاد الوطني وانتهاج سياسة لتطوير الزراعة والصناعة وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية.

ومنذ عام 1527 انبعث لدى لوثر القلق وحالات الاكتئاب، ظلت تغمره بين الحين والآخر حتى موته في عام 1546. وأضيف إلى ذلك شكاوى ونوبات قلبية وهجمات تعرق وشكاوى هضم ورمال في الكليتين وطنين الأذنين. وفي سوداوية عميقة فقد لوثر في بعض الأحيان أي احترام لذاته. فكان يأكل ويشرب بلا نهاية ويترك الحبل على غاربه بتعليقات فظة حول الطعام والهضم. وعاد الشر يلاحقه من جديد، وعاد إليه الشك الإيماني ومشاعر الذنب. وأحياناً لم يتمكن لوثر من صد صوت الضمير السلبي إلا من خلال نوبات غضب شديدة ناثرة للقذارات. وبغلظة مطردة الشناعة ثبت كرهه على الشيطان والبابا. ويرى إيركسون بأن لعناته الخشنة وتجديفاته كان لها نوع من الوظيفة التنفيسية، عندما كانت الخلجات الداخلية تهدد بطمر ورعه: «في شدتها عبرت فواحش obscenity لوثر عن أزمة طبيعة اكتئابية-هوسية، تهدف إلى الحفاظ على حالة من قتال زوري لايلين لعدو راسخ محدد، لمنع نفسه هو من الاستسلام والتخلي إن صح التعبير» (1975 «أ»، صفحة 272).

ويفسر باحثوا الطب النفسي حالات همود المزاج للوثر المتقدم في العمر كتعبير عن ذهان داخلي متقدم. إلا أن الأهم من السوداوية البنيوية كان بالنسبة لإيركسون الأزمة التوالدية generative في سن الرشد المتوسط، حيث كان على لوثر استخلاص ما الذي أحدثته حركته لدى الجماهير. لقد تم استغلال الإصلاح من جميع الجهات، من الأمراء الإقطاعيين والتجار والفلاحين والطبقات الدنيا. ويعتقد إيركسون أن الأكثر جوهرية أيضاً هو أن لوثر لابد وأن يكون قد استخلص مدى شبهه بأبيه هانس: «وفيما يتعلق بعلاقة لوثر بأبيه فإنه يظهر أن ارتباكه الأعمق قد نشأ عندما أصبح كثيراً من ذلك الذي أراده له والده: ذو نفوذ ومؤمن مادياً، نوع من المحامي الخارق وأب لابن اسمه هانس» (1975 «أ» صفحة 268-269). وبمقدار ما يصور إيركسون الشاب لوثر بشكل مثالي، فإنه يعبر عن تحفظات واضحة تجاه لوثر كبير السن. فعلى الرغم من أنه قد حقق الصورة المثالية لزواج متوسط الحال حنون وكثير الأولاد، فلم تكن حياة لوثر الأسرية، كما يرى إيركسون خالية من البرود والراحة المحدودة. فمن خلال الاستنزاف المطرد

لنفسه في التثبيت الزوري على البابا فقد لوثر الكثير من الطاقة وقوة الإقناع الشريفة للإصلاحي الشاب.

وفي نهاية كتابه يستخلص إيركسون تقاطعات بين لوثر وفرويد، اللذان حررا نفسيهما بطريقة ثورية من عادات التفكير المألوفة في عصريهما وأسهما في التقدم الحاسم للاهوت والفلسفة وعلم النفس: «كلاهما حاول من خلال طرق استبطانية، تركز على بؤرة صراع الإنسان توسيع مساحة الحرية الداخلية فيه. هدفهما كان التفريد Individualization والصحة النفسية - والعقلية للإنسان» (1975 «أ» صفحة 278).

لقد حقق لوثر نوعاً جديداً من الصلاة احتل فيها السبر الصادق للضمير مركز الصدارة. أما فرويد فقد اخترع تقنية الاستبطان، التي تتطلب مواجهة عميقة صادقة إلى أعمق درجة لأليات خداع الذات عند المرء نفسه. ولوثر حرر الضمير الفردي من عقيدة الكنيسة الكاثوليكية، وفرويد من ضغط الأنا الأعلى الصارم . وكلاهما أكد على المسؤولية الفرد الراسخة عن مصيره، وعلى واجب تحمل الحياة على الرغم من خبرة المعاناة التي لابد منها ومن دون أوهام خطأ.

9.7 هل يستطيع إيركسون الإحاطة بلوثر التاريخي؟

قدم إيركسون من خلال «الشاب لوثر» أشهر تواريخ الحياة حول شخصية تاريخية من وجهة نظر التحليل النفسي. وبحساسية وحب للتفاصيل عرف كيفية توضيح حجم شخصية لوثر وسلطة مشاعره وعمق صراعه الديني. ومع ذلك فإن القارئ غير المتمرس تاريخياً يلحظ وجود كثير من التفاسير constructions والاستنتاجات الجريئة والمبالغات، التي واجهت النقد بحق من المتخصصين(٧). فمن المشكوك فيه فيما إذا كان المرء قادراً من وجهة نظر القرن العشرين على الإحاطة بالجو العام وشكل الحياة في القرون الوسطى. فهل يستطيع المرء من خلال تطبيق مفاهيم حديثة من نحو «الهوية» أو «الإيديولوجية» أو «مركب أوديب» أو «التعليق» بفاصل زمني يبلغ 400 سنة على مجرى حياة لوثر، أن يخبرنا بشيء ما بالفعل عن شخصيته التاريخية؟ ألا تعكس طريقة

التحليل النفسي، كما يعترض شارفنبيرغ (Scharfenberg, 1985) شخصية ودوافع المحلل النفسي؟.

لقد أشار إيركسون بطريقة تحتذى إلى تنوع التأثيرات اللاشعورية عند نقل وتأويل الوقائع التاريخية. وبالتحديد فإنه على المحلل النفسي أن يتساءل عن ماهية التصورات المثالية الخفية والتماهيات، وماهية الإسقاطات اللاشعورية وحوادث النقل التي أثرت عليه عند اختياره لموضوع محدد. ولكن المرء لا يجد إلا القليل جداً من النقل المعاكس لإيركسون نفسه على شخص لوثر.

وهناك أسئلة ملحة كثيرة. أترمز روح العناد الكبيرة للوثر لذلك الغضب الثائر الذي لم يستطع إيركسون الخجول أن يعيشه بصورة صحيحة أبداً؟ أيجسد لوثر الأب المثالي لطفولته وشبابه؟ أيسقط إيركسون أجزاء من تاريخ حياته على موضوع بحثه؟ ألم يعاني هو نفسه من صراعات سلطة متنوعة؟ ألم يعارض رغبات زوج أمه المهنية ويذهب طريقه الخاص؟ ألا يزيح إيركسون إلى هانس لوثر عدوانيته اللاشعورية الخاصة ضد أبيه أو زوج أمه ولهذا السبب رسمه بهذا الشكل السلبي؟

على الأقل بسبب إعجابه بالمصلح الشاب فإن إيركسون لم يخفي ذلك. فلوثر بالنسبة له إنسان متدين رائع ومتمرد شجاع وممهداً لعصر جديد. وعلى الرغم من أن إيركسون لم يتطرق إلى كثير من الجوانب اللطيفة في لوثر، إلا أنه مع ذلك - وأحياناً بنغمة فكاهية-متسامحة - قد أخذه تحت جناحه. ومن الممكن لهذا أن يقود بسهولة إلى عدم المراعاة بشكل كاف لكثير عدد من التأثيرات الإشكالية للوثر على المجرى اللاحق للتاريخ - بدءاً من إجلاله للسلطات وانتهاء بخطبه المسهبة العنيفة الشديدة المعاداة للسامية.

وبالتحديد بسبب تعاطفه الشخصي فإن إيركسون قد استطاع الإحساس بعمق بأزمات ومخاوف الشاب لوثر. فوصوفاته كانت مكثفة في كثير من الفقرات إلى درجة أن القارئ يرى نفسه مباشرة ضمن مشاهد من حياة لوثر. ومع ذلك فإن المرء يتساءل، عما إذا كان خيال إيركسون يشطح كثيراً أحياناً ويهدد بفقدان الحذر والمسافة اللازمين

عن موضوعه. فمن أين يعرف إيركسون على سبيل المثال أن لوثر وقف برلمان فورمس Worms بالفعل «ضعيفاً وخاضعاً أمام قيصره وكان يكاد صوته لا يسمع» (1975، صفحة 158) أو عاش «الصراع شبه الصرعي epilepsoide في سبيل الاستسلام» (1975 «أ»، صفحة 41) في نوبته في الجوقة.

من المؤكد أن إيركسون لم يكتب مجرد سيرة حالة تحليلية نفسية، وإنما حاول بعناية دراسة التنوع الكبير للتيارات الاجتماعية والتاريخ كنسية والفلسفية على نمو شخصية لوثر وأعماله. ومع ذلك فقد استخدم المصطلحات والتشخيصات التحليلية النفسية، ويتحدث عن «بنية طبع شرجية» أو «تثبيت زوري» أو «رهاب الشيطان» أو «مركب أوديب» أو «تشتت الهوية». وهذا يعني: أنه بطريقة ما يلقي لوثر «على الأريكة» ويطبق نموذجه التحليلي النفسي عن أزمات دورة الحياة بطريقة افتراضية بحق إلى حد ما على حياة لوثر. ويبرر إيركسون إجراءه بأنه بقدرته كمحلل نفسي على استخلاص استنتاجات حول التشكيلات الطفولية من أنماط السلوك والتصريحات الراشدة، حتى عندما تكون حالة المصادر التاريخية هشة. ومع ذلك فإنه يتولد الانطباع في كثير من الفقرات أنه يحشر طفولة لوثر وشبابه في إطار نظرية النمو التحليلي النفسي وأنه يضع بصورة كبيرة الأعراض العيادية لمرضاه الشبان نصب عينيه عند وصف الأزمة الدينية للوثر في سنوات الدير.

والخطر الكامن هنا هو أن المرء يبالغ في بعض الحقائق في سبيل تيسير النموذج ولا يأخذ أخرى بعين الاعتبار أو يهملها كلية. ويتضح هذا بشكل خاص عندما يجعل إيركسون من جزءاً مركزياً من المذهب الفرويدي، مركب أوديب، في محور تفكير محاولته التفسيرية. والصورة الباطلة تاريخياً التي يرسمها لوثر حول أبو لوثر قد تحولت لدى النقاد والتاريخيين إلى نقطة انتقاد محورية. فصراع الأب -ونقله المستمر على أشخاص ومؤسسات أخرى وصولاً إلى الأب السماوي- تحول إلى مبدأ تفسير سائد على كل شيء وأحادي لشخصية لوثر وأعماله. ويفاجئنا أن إيركسون لم يترك في هانس لوثر أية حسنة، وضخم في وصفه من خلال مبالغات وافتراضات وكأنه غول شيطاني.

والحديث هنا عن «رب غيور» (1975 «أ» صفحة 135)، عن «فجور جنسي، الميل للكحول والعنف.....، وهو ما يحطم بوضوح القناع الأخلاقي للأب» (1975، «أ» صفحة 135)، وهي صياغات ترسم صورة قاسية- استبدادية، تتجاوز إلى حد كبير ما تجيز المصادر القليلة إدعاءه. ومن كل الجوانب فإن إيركسون يصور مارتين على أنه ضحية الأب المستبد. فتربية هانس القاسية هي مصدر حزن مارتين؛ فالعصيان ضد الرغبة المهنية للأب أصبح دافعاً للدخول في الدير؛ فأزمة الإيمان لدى الراهب الشاب يعزوها إيركسون بشكل أساسي إلى عودة مركب الأب، التي تحرر منها لوثر من خلال وضعه للاهوت جديد. وحتى أن سوداوية لوثر في سن الشيخوخة تقوم على تماه متأخر مع الأب. وينتقد شارفنبيرغ (Scharfenberg, 1985, P.22) إيركسون بأنه قد حمَّل هانس لوثر «كل صفات البناء الإيديولوجي Ideological Construct ومن ثم فإن إيركسون يربط بنية التفكير المُظَهَّرة من دون شك مع الموروث الديني بشكل أقوى مما يربطها مع العلم النفسي الحديث».

وليس هناك من شك أن طفولة مارتين كانت قاسية ومليئة بالحرمان. ولم يكن هناك ضرورة لدى إيركسون لوصف صورة تربية مارتين بهذه المبالغة، من أجل توضيح أزمات لوثر اللاحقة. فبهذا من السهل أن يتولد الانطباع لدى المرء وكأن إيركسون قد قام بالدرجة الأولى بغربلة السمات المظلمة من ذكريات لوثر الطفولية ولونها بسلبية أكبر من خلال معارفه التحليلية النفسية حول المخاوف الطفولية. وبهذا سهل الأمر على نفسه. ويقول بوررنكام (Bornkamm, 1969 P.45): «إن رسم صورة حقيقية متفقة المصادر عن طفولة لوثر وشبابه أصعب بكثير من رسم صورة قاسية».

ويبدو أن إيركسون يتجاهل المشاعر الإيجابية في تصريحات لوثر حول والديه، والمدى الكبير الذي بحث فيه عن الأمان لديهم، ومدى ألمه لاتخاذ حياته اتجاهاً جديداً. لقد اشتكى لوثر مراراً من صرامة والده، إلا أنه لم يشكك أبداً بطبيعته. وفي وصيته لهانس أظهر الكثير من الاحترام والتقدير، بحيث أنه على المرء أن يتساءل، فيما إذا كانت العلاقة بين مارتين وهانس مشحونة بالكره بالدرجة التي يصفها فيها إيركسون . أليس

من المحتمل أن يكون هانس أب مهموم على ابنه؟ ألم يحتج إلى تضحية كبيرة ليتيح لمارتين التعليم، ألم يتابع تطور ابنه البكر بفخر والدي؟ أليس من الممكن أن يكون تحذيره من الدير متأثراً بنظرة منطقية بعيدة؟ لماذا لا تكون الأم المرهقة من الأعمال المنزلية والأولاد الكثر هي المسؤولة بالدرجة نفسها عن المزاج السوداوي؟

في كثير من الفقرات من كتاب لوثر يشعر الإنسان بسعي إيركسون لمصالحة تأثره بالدين مع الهوية التحليلية النفسية. وغالباً ما يشير إلى التقاطعات –الأقرب لغير المتوقعة وغير الممكنة– بين لوثر وفرويد، على الرغم من أنه على المرء التساؤل، فيما لو كان فرويد سيوافق على مثل هذه المقارنات. وفي الحقيقة فإنه، مع كل السعي للتوفيق، لا يمكن تجاهل الفروق الجوهرية بين علم نفس الأعماق واللاهوت البروتستانتي evangelical. فهدف الاستبطان التحليلي النفسي هو معالجة الصراعات الطفولية والإسقاطات اللاشعورية. أما في صلوات لوثر بالمقابل فالأمر كما يؤكد شنايدر-فلومه (Schneider-Flume.1985) لا يتعلق بتقوية الأنا وإنما باستخلاص واقع سام خارج الأنا. فهل يمكن فهم سلطة هذا الواقع الإيماني، الذي شرع فيه لوثر، منطقياً؟ قد يكون الصراع مع الأب مسهماً في أنه قد قطع سيرته الحقوقية. إلا أن السبب الحاسم للدخول في الدير - وكل ما انبثق بعد هذا عن ذلك-كان على ما يعتقد قلق لوثر على خلاصه الروحي. ومن المؤكد أنه قد رفرفت في رهابات الشيطان عند لوثر مخاوف طفولية مبكرة، وأعيد إحياء مشاعر الثقة لوقت الرضاعة في بصيرته الدينية الصادقة. ومما لاشك أنه قد أسهمت عمليات تحليلية نفسية عند الاختراق نحو اللاهوت الجديد، ومع ذلك فقد عثر لوثر في جو وجودي على يقين إيماني محرر، يمتنع عن كل محاولات التأويل الاختزالية. ويقول برونكام (Bronkamm1969; P. 46) «على الرغم من أن إيركسون لم يهمل كلية هذا الجوهر الديني الذي تكاثفت فيه أخيراً خبرات الشباب عند لوثر والتي انبثق عنها كل شيء لاحقاً، إلا أنه لم يؤخذ على محمل الجد في طاقته الكامنة. إنه يبدو أكثر الشكل العشوائي لتأثيرات صراع الأب الذي يعزى كل شيء إليه. على ظهر الدافع المكتشف تحليلياً تم التغافل عن أهمية الدوافع الصريحة».

هوامش الفصل التاسع:

(i) مقتبس عن: Zit. aus Erikson 1975a, P. 68-69.

(ii) مقتبس عن: Zit. aus Erikson 1975a, P.99.

(iii) مقتبس عن: Zit. aus Erikson 1975a, P. 99.

(iv) مقتبس عن: Zit. aus Erikson 1975a, P. 153

(v) قارن:

Bainton 1973, Bornkamm 1969, Grotjahn 1959-60, Neidhart 1972, Scharfenberg 1985, Schneider-Flume 1985.

الفصل العاشر

حقيقة غاندي

10.1 تتفي آثار الماهتما

في عمله التاريخي النفسي الثاني المهم يريد إيركسون دراسة حياة رجل عظيم في سنوات العمر الأوسط بشكل خاص. ومن جديد اختار مُحَدِّثاً دينياً، ومن جديد كان الإعجاب الشخصي الشديد لهذا الاختيار. فمنذ شبابه أسر ظهور غاندي إيركسون. لقد قرأ لغاندي العملية الأولى the first Process وقارنه بها مع سقراط. أية طوباويات لم تسع إليها البشرية في القرن العشرين: الثورة العالمية الاشتراكية، إمبراطورية بعمر الألف سنة، السلم الدائم من خلال عصبة الأمم؟ وإلى أية كوارث من الإبادة المخططة بقلب بارد قادت كثير من هذه الأفكار؟ ومن ناحية أخرى ما الأمر المختلف الذي يطرحه المهاتما غاندي بأداته السلمية الخالية من العنف لقادة هذا العصر المهوسين؟ بنية قصيرة، رقيقة الأعضاء بوجه نحيف وعيون غامقة رقيقة مملوءة بالصبر والحب اللانهائيين؛ رجل في قلة مدقعة، يلتحف وشاحاً من الكتان، ويتغذى بالرز والفاكهة فقط، وينام قليلاً وينهك نفسه ببذل لا يكل من أجل الآخرين.

لقد رفض غاندي استخدام العنف أبداً أو مواجهة أعداءه بالشدة أو الانتقام. وكان سلاحه الوحيد قوة الحب غير القابل للإفساد. لقد اقتصر على أفعال مفهومة، ومع ذلك فقد جعل كل الهند تحبس أنفاسها في حملاته وإضرابه عن الطعام، وتحول الرأي العام العالمي إلى مشاهد مشدوه. فمست وسيلته السلمية 300 مليون هندي في سبيل المقاومة السلمية وحرك أفول الإمبراطورية البريطانية وقدم للعالم حسب تقدير إيركسون «أقوى زخم ديني في المأتي سنة الماضيتين» (1978 «أ»، صفحة 32).

ويوجد اليوم عدد كبير من الأحكام حول المهاتما غاندي: فقد قيل عنه أنه سَّلامي[1] pacifism، أو أنه متصوف[2] mistiest اشتراكي كارزمي[3]، محافظ حالم أو حتى قومي ومتعصب مستتر. ولكن ألا تغفل هذه التأويلات الحضور الديني لغاندي؟ هل من الممكن بمعايير دنيوية تفسير قدرته على تحريك الجماهير العريضة للصمود بلا خوف وضغائن أمام سلطة دولة طاحنة؟ فبالنسبة لإيركسون فإن غاندي الشخصية الأبرز في القرن العشرين، إنه «مجدد ديني religiosity actualist»، أطلق بظهوره رؤى وطاقات لا تصدق من الإنسانية لدى جماهير واسعة. فقد تحول الدين من خلال غاندي إلى خبرة روحية مباشرة، إلى قوة دافعة جبارة.

في ستينيات القرن العشرين عندما عمل إيركسون على سيرة حياة غاندي كانت الحرب الباردة في قمتها. وكانت القوى العظمى قد بدأت بنصب الصواريخ طويلة المدى ضد بعضها؛ وكان الجنس البشري كله مهدداً بالفناء. ألم يكن نداء غاندي للإنسانية الصافية بديلاً لمحاولة الحفاظ على السلام المزعزع من خلال الأسلحة المتزايدة الدقة، في حين تستمر عدم الثقة العدائية بين الشعوب والأنظمة الإيديولوجية بالتضخم؟

في عام 1969، وبعد تحضير جذري طويل المدى، صدر كتاب «حقيقة غاندي: حول منابع اللاعنف المناضل». وكان شعار هذا الكتاب «بحث رجل متأثر بالحضارة الغربية والمحللين النفسيين عن الشخصية التاريخية للمهاتما غاندي وعن أهمية ما أطلق عليه تسمية الحقيقة» (1978 «أ»، صفحة 7). قام إيركسون بإعادة رسم طفولة وشباب غاندي، دراسته في إنجلترا وإقامته لعشرين سنة في جنوب أفريقيا، حيث تبلورت

---

(1) السّلامية، اللاعنفية: معارضة الحرب أو العنف ورفض اللجوء إليهما في حلّ النزاعات، وبخاصة: رفض حمل السلاح لأسباب أخلاقية أو دينية.

(2) التصوّف، المذهب الباطنيّ: الإيمان بأن المعرفة المباشرة بالله أو بالحقيقة الروحية يمكن أن تتمّ للمرء من طريق التأمّل أو الرؤيا أو النور الباطني وبطريقة تختلف عن الإدراك الحسّي العاديّ أو اصطناع التفكير المنطقي.

(3) الكارزمية: سحر (في شخصية القائد يدفع الجماهير إلى تقديسه).

العناصر الأساسية لإستراتيجيته السلمية. وقد تصدر محور الكتاب ذلك الذي أطلق عليه إيركسون «الحدث»، الإضراب الخالي من العنف لعمال النسيج في أحمد آباد في آذار (مارس) 1918. وعلى الرغم من أن هذا النضال العمالي قد تم التقليل من قيمته في سيرة غاندي وقلما أشير إليه في الصحافة الهندية في ذلك الوقت، يرى إيركسون هنا اللحظة الحاسمة لغاندي في تحوله إلى قائد وطني وديني.

لقد سعى إيركسون بشدة لتقمص العقلية الهندية، ومقابلة غاندي بأقل قدر ممكن من التصنيفات الفكرية الغربية. ولم يقم إيركسون بحشر المهاتما بمدى واسع في نموذج تحليلي نفسي بشدة كما فعل مع لوثر. كما أن إيركسون لا يؤلف أسطورة قديس، وهو الخطر الذي تعرضت له السير الأخرى حول غاندي. فهو لم يترك الجوانب المفرطة الإنسانية- إنسانياً للمهاتما غاندي من دون مراعاة، تلك الإغواءات التي اعترف بها، تردداته وضياعاته، وبشكل خاص الأخلاقية numinous المستترة، التي قاومها غاندي في ذاته هو وفي الآخرين. وعلى الرغم من كل ذلك فإن أن إيركسون يدرك بأنه لا توجد أية محاولة للتفسير يمكنها أن تفي هذه الشخصية حقها: «من يستطيع تحديد، من (يحلل) مثل هذا الرجل؟ مستقيم ومع ذلك ليس متصلباً؛ خجول ولكنه ليس منطوياً على نفسه؛ ذكاء، من دونه كان سيكون مؤثراً؛ قوي الإرادة ومع هذا ليس عنيداً؛ حساس، مرهف الحس ولكنه ليس خرعاً: كل هذا يوحي بتكامل، لا يمكن تفسير جوهره- ومن دونه لا يجوز لأي تفسير أن يدعي صلاحيته» (1978 «أ»، صفحة 126-127).

في عام 1962 سافر إيركسون مع زوجته جوان للمرة الأولى إلى أحمد آباد، خامس أكبر مدينة في الهند وإحدى أقدم مراكز صناعة النسيج في العالم. وكمحلل نفسي مشهور عالمياً قدم في إحدى الندوات تصوره المتأثر بالتفكير الأوروبي عن دورة حياة الإنسان. وقد أقامت أسرة إيركسون في البيت الريفي لعائلة سارابهاي Sarabhai، إحدى الأسر الصناعية منذ القدم، التي استضافته ضيافة شديدة الكرم. وكان عميد الأسرة، آمبالال سارابهاي Ambalal Sarabhai غريم غاندي في صناعة النسيج؛ أما أخته آنازيا Anasia بالمقابل فقد تحالفت مع عمال النسيج وغاندي ضد أخيها.

هذه الزيارة الأولى لإيركسون للهند احتوت بالنسبة له على شيء أخاذ. فقد أُغشي القادم «بعالم جديد من الصور والأنغام والروائح، أمرته بصورة غامضة، إعادة توجيه الحواس من جديد، قبل أن يتجرأ على الإطلاق على طرح الأسئلة» (1978 «أ»، صفحة 17). ويتحدث إيركسون عن خبرة أساسية من الالتحام fusion بين مثيرات وأحاسيس مختلفة: فانطباع الاستقبال اللطيف، الذي يستقبله الهنود للغرباء؛ حركة السير الصاخبة-الجامحة في الشوارع، ازدحام الناس، والحيوانات والسيارات، عربات الثيران والدرجات الهوائية؛ رؤية الناس المختلفين في حالات نفسية مختلفة: أطفال فرحين-مرحين وشيوخ هزيلين، رجال ونساء كاملي الوسامة ووقار متواضع، وكذلك عبيد منكسرين، ملقون على الطريق. وسرعان ما اتضح لإيركسون أن من يريد أن يفهم غاندي، عليه بداية أن يفهم الهند باعتقادها بعالم صور الديانات الأم والتقمص، وبتناقضاتها الطبقية الجسيمة والانطباع الذي يقتحم كل شيء بالفقر المدقع.

وطبقاً لأسلوبه المعتاد يحاول إيركسون في الفصلين الأوليين تلمس العلاقات بين شكل الحياة ومفهوم العالم والتدين للهند، وبنية الأسرة واتجاهات التربية المحددة بالتقاليد، حيث تتداخل الملاحظات الدقيقة مع الافتراضات التحليلية النفسية. الانصهار والعزلة هما وفق إحساس إيركسون القطبان، اللذان تتحرك بينهما خبرة الهنود للعالم جيئة وذهابا. فالهندي لا يعرف التقسيم الصارم بين الذات والجماعة، الجسد والروح. إنه قادر على الانصهار بالعالم الخارجي بصورة أشد من الأوروبي والإحساس بالتجذر في تيار حياة كبير والانغماس في أسرته. ومن ناحية أخرى هناك مواقف ينسحب فيها الهندي كلية، على سبيل المثال صامتاً في حشد من الناس في وحدة تخشبية أو مركزاً على نفسه كلية في الصلاة والتأمل.

ويخمن إيركسون أنه سواء الرغبة بالانصهار أم الوحدة يتم توريثها في تقاليد العائلات الهندية، حيث تعيش أجيال مختلفة في أضيق مكان منذ بدء الخليقة. والثقة الأصلية لا تنبثق على ما يبدو بصورة كبيرة من الاتصال المقتصر على الأم. بل على العكس: فعلى أم العائلة بالنظر للحشد الكبير من الأقارب أن تستجيب دائماً للجميع

في الوقت نفسه، وأن توزع حبها في كثير من الاتجاهات، في حين أنها لا تكون تحت تصرف الرضيع إلا للحظات عابرة. بل أن لف الرضيع بقماط وحمله من جماعة من الوالدين الراعين والأجداد والأخوة والأعمام والعمات (الأخوال والخالات) وبنات الأخوة والأخوات، الذين يؤثرون منذ وقت مبكر بمشاعر الهوية والثقة للإنسان الهندي. ويتحدث إيركسون عن «زمانية-مكانية أنثوية» في خبرة مشتركة للعالم، خبرة أساسية من الانصهار والاتحاد، يستند إليها الهندي طوال حياته.

الدين في الهند هو دين أم Mother Religion، الإحساس المتجذر بعمق، بأن المرء مرعي من كون جدير بالثقة، مرتبط في الغالب مع نزعة استسلام سلبي للمصير، هو عنصر جوهري، كما استشعر غاندي، للعجز السياسي لشعب ما. والنقيض لذلك هو الحاجة المتجذرة بعمق لما هو ممنوع في العائلة الكبيرة، للانفصال، للوحدة، للانسحاب التأملي العميق نحو الذات أو للاتصال الوثيق جداً بإنسان واحد فرد. ولنتذكر مؤسسة غورو[1] Guru حيث تبدو الرغبة في ربط الإرشاد الأبوي مع التوق إلى علاقة أم خاصة. وقد وحد غاندي كلا القطبين في ذاته. فحتى الاستسلام أمكنه أن يتقمص مزاج الآخر أو مزاج الجماعة. وفي الوقت نفسه احتاج مراراً إلى فترات من الوحدة، للإنصات إلى أعماق نفسه في اعتكاف موحش.

وفي حين يحتل التفتح الذاتي الفردي مركز الصدارة إلى حد ما لدى الإنسان الغربي، فإن مفهوم الحياة الهندية كله يدور حول دارَّما Dharma. ويقصد التراث الهندوسي بالدارَّما المكان في النظام العالمي، الذي يحدده القدر للفرد. فالقدر يحدد للإنسان في أي طبقة دينية أو أسرية أو مهنية يولد بها، التي تنظم شكل الحياة الخاصة والعامة في أدق تفاصيلها. ويتحدد الدارَّما من قبل دارَّمات الحياة السابقة، ويقرر مكان وزمان ولادة الإنسان وما هي استعداداته. ومنذ البدء فإن كل إنسان هو جزء من النظام الكوني القائم، سواء كان تاجراً أم محارباً أم يعرف الكتابة أم معلماً، ويسهم في

---

(1) معلم، مرشد روحي

صونها. ويعني نمو الشخصية بالنسبة للهنود التوليف الأمثل للقدرات والمخططات الخاصة مع الدارّما المقدرة. وينبثق عن ذلك حتمية الولادة ثانية. وكلما عاش الإنسان متبعاً بصورة دقيقة لخط القدر وسعى إلى ذلك أكثر استحق الإنسان حياتاً أفضل وظفر بها، إلى أن يصبح الإنسان أخيراً، إذا ما استنزف كل دورات الحياة المطابقة، مستعداً لفهم الكل الكبير للدورة اللانهائية.

هذه الصورة الجبرية للعالم عاشت بجلد حتى بين الهنود المتقدمين والمتنورين، وأمكنها أن تصمد كحجر عثرة أمام الإصلاحيات السياسية الاجتماعية والاقتصادية على طريق الهند لتصبح أمة صناعية. كان المشاركون في ندوة أحمد آباد أطباء وصناعيين وفيزيائيين ومربين، قابلوا عرض إيركسون بارتياب مؤدب. ومع ذلك فقد وجدت بعض التقاطعات بين المهام الأساسية الثمانية لدورة الحياة والتفكير الهندي. فحتى الموروث الهندوسي يفترض وجود مراحل حياتية معينة، على سبيل المثال «الأنتيفازين Antevasin» و «الغرهاستا Grhastha» و «الأرتا Artha» و «فانافافراستا Vanaphrasth»، وهي مراحل الحياة التي يترعرع فيها الإنسان بالتدريج في عالم التعلم والعلاقة الحميمية وتأسيس الأسرة، كي يتحرر في الكبر من أجل «ماكشا Maksha»، الانعتاق التدريجي من العصبة الدنيوية والانغماس في السمو فوق الوجود المادي transcendence.

في عام 1964، ومن أجل زيارة أخرى محضرة بشكل جيد للهند، جمع إيركسون معه عدد كبير من المواد للتحضير لزيارته. فزار الأماكن الرئيسية لنشاط غاندي وسأل رفاق طريقه السابقين والمشاركين بالإضراب وقرأ كتابات غاندي وتفحص مقالات الصحف القديمة حول نشاطه العلني. وقد حصل إيركسون على الصورة المثيرة للانطباع عن غاندي من الشهود الأحياء. وهؤلاء كانوا من أتباع المهاتما، الذين عاشوا معه في أشرمه[1] Ashram أو دعموه في حملته السياسية الشديدة الإثارة. وهؤلاء الرجال والنساء الذين كانوا في غالبيتهم في عمر فوق السبعين، مازالوا يمتلكون مراكز

(١) الأشرم معتكف خاص بحكيم أو فيلسوف هندي.

مهمة في اقتصاد وسياسة الهند. كما تحدث إيركسون مرة أخرى مع صاحب المصنع آمبالال ساربهاي Ambalal Sarabhai وأخته، وأجرى مقابلة مع شانكرلال بنكر Shankerlal Banker، الذي كان فيما مضى أحد أكبر منظمي غاندي، ووزير الداخلية الهندي في ذلك الوقت غولزاريلناندا Gulzaril Nanda، وعضو البرلمان إندولال ياغنك Indulal Yagnik، ونائب الرئيس زاكير حسين Zakir Huscin وكثير غيرهم. وقد تمحورت مقابلته على سؤالين أساسيين: «متى وأين قابلت غاندي للمرة الأولى؟ أين كمن وفق وجهة نظرك جوهر حضوره presencc؟».

وليس نادراً ما قابل هؤلاء الناس إيركسون بتحفظ ودود، وكأنه قد أتى في سره بقصد التقليل من شأن relativizc الصورة المقدسة للمهاتما من خلال تأويلات علمنفس أعماقية. لقد شهد إيركسون هنا كمحلل نفسي باحث-تاريخياً أشكالاً جديدة من المقاومة اللاشعورية، الصعوبة الهائلة في الغالب، في جمع بيانات تاريخية موثوقة عن شخصية كارزمية. وكانت المقابلات مع أولئك الذين كانوا الأقرب له أقل ما كان مجدياً. فكشبان منجذبين إليه من سحره، تغيرت حياتهم منذ ذلك الوقت. فقد كان جوهر المهاتما لديهم لا جسدي، وعاشوا في تهيب، من إمكانية ضياع قداسته بمجرد أن يتقاسموا صورتها مع الآخرين. فكل صغيرة من حياة غاندي تم أسطرتها، وكأنه قد كان تجسيد للحب الأصفى ولكل الرؤى البعيدة الأشمل، وكأنه لم تكن لدية صفات ومراحل مبهمة من الشك. وآخرون تباهوا بأنهم قد عرفوا غاندي بدقة واستفادوا من حكمته. وحاول آخرون التقليل من قيمة حياة غاندي من خلال التشنيع والفضائح. وإلى جانب المعلومات القيمة عرف إيركسون الكثير الميول البانية للأساطير والمدمرة لها في مرحلة ما بعد الكارزمية، تلك المادة بالتحديد التي يصنع التاريخ منها أيضاً.

كان أحد المصادر المهمة لإيركسون دراسة سيرة غاندي وتقارير سكرتيره المخلص بياريلال Pyarclal أيضاً. فقد قام هذا بتوثيق كل التفاصيل تقريباً عن نشاط غاندي العام في الهند، على الرغم من أن الترجمة المبهرجة كانت مشوهة بكثير من الطريقة الهندية في التفكير والإحساس. وكذلك سيرة حياة غاندي الذاتية، المكتوبة بالأصل

بلغته الأم الغوجاراتي Gujarati، تقدم لقارئ عالمي مؤلفات المهاتما في لغة، «انبثقت في ضباب جزر بحر الشمال»، كما يقول إيركسون (1987 «أ»،صفحة 102). فكثير من الفكاهة الرقيقة، وحدته الصائبة وانفعالاته المروضة ضاعت في اللغة الإنجليزية. وغاندي نفسه لم يخبر عن جوانبه الشخصية بشجاعة في سيرته الذاتية فحسب، وإنما في عدد كبير من الرسائل والملاحظات. وتكاد المادة تتحدى التأويل التحليلي النفسي. ومع ذلك لا يريد إيركسون، كما فعل مع لوثر، كتابة تقرير عيادي عن حالة. إذ لا يجوز جعل غاندي مريضاً، ورؤية تصريحاته مثل التداعيات الحرة واستخلاص من ذلك تأويلات لمكبوتات جنسية أو شذوذات في الشخصية. بل على العكس: فإيركسون ينظر « لأية محاولة لاختزال قائد من شاكلة غاندي دائماً إلى صدمات مبكرة وكبيرة في الطفولة، على أنها خطأ من الناحية الطرائقية ووخيمة العواقب في آثارها – وهذا ليس لأي سبب آخر غير لأني أرى عصراً قادماً وقد واجهت البشرية بعضها بعضاً بحاجتها، إلى تشخيص[1] personification (العظمة) وأن تكون تحت رحمتها» (1978 «أ»، صفحة 109).

وكثير من دراسة إيركسون مبرهن تاريخياً بشكل جيد. وعلى الرغم من أنه لا يكتب مجرد سيرة حياة، وإنما كان في باله عند إعادة رسم مراحل تطور غاندي نموذجه حول دورة الحياة، بحيث يتداخل وصف الوقائع التاريخية والتفسيرات التحليلية النفسية مع بعضها. وكان النموذج التخلقي المتعاقب الخيط الفاصل بالنسبة لإيركسون، الذي تتبلور وفقه خصائص محددة في الشخصية منذ الطفولة المبكرة وتأخذ في مراحل النمو اللاحقة أشكال مطردة التمايز. فهو يحاول إرجاع سمات محددة من طبع غاندي من نحو الميل للفكاهة المداعبة إلى الرعاية الأمومية أو المواجهة اللاعنفية إلى مصدر طفولي ويبرهن كيف تظهر هذه الصفات في كل مرحلة من مراحل النمو بشكل أوضح وتحدد بطريقة مطردة التعقيد تصرفه السياسي، وكأن الأخلاط تتآلف من أجل عظمته اللاحقة؟

---

(1) التشخيص: إضفاء الصفات البشرية على شيء ما أو على مفهوم تجريدي

وبالتوازي مع هذا يفترض إيركسون، أنه قد نمى في غاندي الحدس مطرد الجبرية بأنه يحمل في ذاته رسالة محددة، وأنه مختار وأنه الوحيد المهيأ للاهتمام بالمشكلات الملحة المتسعة باطراد مستمر. ومن هنا فإن كل مرحلة من مراحل حياة غاندي مهمة على طريق المهاتمية[1] Mahatism: ألعابنية المونيا Moniya الصغير، الذي يحتل مكانة خاصة لدى الوالدين؛ صراعات مراهقة الموهان Mohan الناشئ، الذي -متزوجاً في وقت مبكر جداً- لا يستطيع أن يضع قدمه كاملة في التقاليد الهندية؛ دراسة الحقوق في لندن، حيث تعلم الشاب الخجول اللغة وعادات حياة خصمه اللاحق؛ العمل لعشرين سنة محامياً في جنوب أفريقيا، التي طور فيها غاندي كناشط سياسي العناصر الأساسية لإستراتيجيته اللاعنفية؛ الحياة في أشرام Ashram بعد العودة إلى موطنه، حيث انطلق منه غاندي يجول بشكل منهجي في شبه القارة الهندية؛ وأخيراً حادثة أحمد آباد حيث استخدم غاندي للمرة الأولى أداته السلمية على الأرض الهندية، خطوة جوهرية في تاريخ الهند وفي التطور النفسي الاجتماعي للإنسانية، كما يعتقد إيركسون .

10.2 طفولة غاندي في العائلة الكبيرة

ولد المهاتما غاندي في الثاني من تشرين الأول (أكتوبر) 1869 في بوباندار Porbandar على شبه جزيرة كاثياور Kathiawar المطلة على بحر العرب. كان عالماً من الصيادين والبحارة والتجار، المعروفين بحذاقتهم واحتيالهم. كان أبوه رئيس وزراء «إمارة» صغيرة. وهي عبارة عن مقاطعة مقامة من البريطانيين للإدارة الذاتية، وغالباً ما لم تكن أكبر من ملكية فردية. وعائلة غاندي كانت منذ القدم تنتمي لطبقة التجار البانيانيين[2] Banian ويعني اسم غاندي بالأصل البقال[3]. ترعرع المونيا Moniya الصغير في محيط لابد وأن يكون قد منحه حسب إيركسون هوية دينية وإقطاعية قوية.

(1) المهاتما؛ ذو الروح الكبيرة: شخص مُبجّل لحكمته وسموّ مبادئه ونكرانه لذاته.

(2) البانياني: تاجر هندوسيّ من طائفة اجتماعية معيّنة تمتنع عن أكل اللحم.

(3) أو التاجر الصغير.

وكثيراً ما تم اتهام غاندي لاحقاً بأنه استخدم في حملته وإضرباته عن الطعام روح التجارة الماكرة لأسلافه البانيانيين.

كان بيت المونيا مثالاً لأسرة هندية كبيرة. فالأب عاش مع أسر خمسة من أخوته في الطابق الأرضي لبيت مكون من ثلاثة طبقات. وبما أنه كان يتم بناء غرفة صغيرة للأزواج الجدد من العشيرة باستمرار فقد كان البناء مركباً كعلب الكبريت بصورة غير معقولة، حيث عاش أشخاص من مختلف الأعمار في مكان ضيق. وقد حاول إيركسون تصوير مدى التعفف واللباقة الدبلوماسية الذي لابد وأن يتطلبه الأمر لأناس مختلفين بميول وأمزجة مختلفة يعيشون مكتظين معاً. فعندما كان يُؤْذَى أحد أفراد الأسرة أو يتم تجاهله، فمن السهولة أن يقود الأمر إلى صراعات سامة. ومجرد التلميحات البسيطة عن الظلم أو التحزب كانت تفجر الحسد والغيرة. وتخييب أمل أحد الأقارب يمكن أن يترك آثاراً عميقة من مشاعر الذنب، أما المتأذي فيصاب بالامتعاض الشديد. لقد تمثل غاندي محيطه الطفولي. وأصبح ولعه التقريب بين الناس من منابت وطبائع مختلفة. ولاحقاً أسس في أشرام عائلة كبيرة جداً، وكانت مثالاً للحياة المشتركة السلمية لكثير من الناس المختلفين في الجنس والسن والطبقة. وكان الاحترام العميق والكياسة والمراعاة، متحدة مع معرفة دقيقة بالطبيعة الإنسانية، هو ما يميز تعامل غاندي مع الآخرين. وحتى بين المناهضين الأشداء استطاع تحرير طاقة جبارة من التصالح.

كانت أم غاندي باتولا با Batula Ba تنتمي لديانة اليان Jain، وهي طائفة صغيرة كانت تسعى إلى ربط كتب الهندوسية مع القرآن. وكان الواجب الأعلى لهؤلاء الجماعة الدينية الساعية إلى المساواة والتسامح هو مبدأ «الأهيمسا ahimsa»، أي الامتناع الواضح عن إلحاق الألم بأي كائن حي. كانت باتولا با Batula Ba متدينة بعمق؛ وكانت تنعزل بانتظام في أوقات محددة من اليوم للصلاة. وكثير من طقوس غاندي الدينية اللاحقة، كنذر النذور والصيام والتأمل وبشكل خاص رفض أي عنف يرده إيركسون إلى تأثير الأم. وفي الوقت نفسه يخمن بأن موقفها لم يكن جزمياً (دوغماتياً)، وهو ما يمنح التدين شيئاً من الضمير الحي والعصمة: «وفي الحقيقة فقد ملأت ابنها

الصغير بالتسامح تجاه أي دين، مادام هذا قادر على الإلهام بشعور عميق من الفناء مع غير المرئي والصامت» (1978 «أ»، صفحة 123). فالتماهي الشديد مع الأم والتقاليد الهندية في الديانة الأم لابد وأن تكونا قد مهدتا لكل التدين الباهر. وحتى في المواقف الخطيرة فقد استطاع إظهار نوع من الانبساط الفرنسسكاني، شعور بالثقة اللانهائية في طيبة خصمه. وفي الوقت نفسه لم يصبح غاندي دوغماتياً أبداً. فقد ظل منفتحاً على رسائل الديانات العالمية كلها، على الرغم من أن أعمق الجذور قد غرستها فيه الديانة الهندية.

كان أبوه شاراماندشا غاندي Charamandscha Gandhi حيوياً ومثقفاً، وزعيماً لعشيرة الأسرة بلا منازع. وكان يشعر بطريقة خاصة بواجبه تجاه التقاليد المحلية، فأسلافه منذ ستة أجيال كانوا إما رؤساء وزارة أو وزراء داخلية. وقد مارس العمل الحكومي اليومي بذكاء، ومهارة دبلوماسية وقدرة جامحة على التوكيد، إذا ما كان ذلك ضرورياً. وإلى جانب ذلك اهتم بكل صغيرة وكبيرة في العشيرة. وغالباً ما كان الأب يقوم بالأعمال المنزلية وأمكن للمونيا Moniya الصغير ملاحظة، كيف أنه لم يضيره ترتيب البيت أو المشاركة في إعداد الطعام. وكانت الصورة الكلية، حسب إيركسون، «بحيث يصعب فيها التمييز بين أنماط السلوك الذكورية والأنثوية» (1978 «أ»، صفحة 118).

ومما لاشك فيه فإن هذا الجو الطفولي قد أثر على غاندي بشدة. فالتماهي مع اللغة الأم الغوجارات Gujarat ومع روح طبقة التجار ومع الرعاية الأمومية واستقامة والده العنيدة شكلت حتى ذلك والوقت ما يشبه حجر الزاوية الداخلي لهويته. فما الذي لم يكن غير مألوف (وربما حتى غير هندي) في نمو غاندي؟ كيف حصل أنه لاحقاً قد تطور بعيداً جداً عن جوه الأسري وتمكن باطراد مستمر من استيعاب هوية أكثر شمولاً، هوية كل جماعات الشعب الهندي، الإنجليز، الإمبراطورية، ليصبح في النهاية رسولاً جباراً للتصالح العالمي؟ يطرح إيركسون هنا التخمين - وهذا هو التفسير المركزي construction عند وصف طفولة وشباب غاندي-، بأن العلاقة بين غاندي

ووالديه لابد وأن تكون أكثر التحاماً مما هو الحال بالنسبة للأسر الهندية. فلم يكن قريباً من الوالدين انفعالياً فحسب؛ فهذا قد منحه أيضاً الشعور بالأهمية والتمكن لاحقاً من النمو خارج إطارهما. وهكذا ربما يكون غاندي قد شعر منذ وقت مبكر بالأصالة في نفسه، الحدس المطرد التبلور، بأنه يحمل رسالة، بأنه الوحيد القادر على إدراك مشكلات والديه – ولاحقاً دائرة متزايدة الاتساع من الناس- بشكل صحيح وحلها. ولابد وأن يكون هذا الشعور قد صانه في اللحظات الحاسمة من مسيرة حياته من أن يضيع نفسه في طريق حياة تقليدي، من نحو أن يصبح أباً هندياً أو محامياً على سبيل المثال. وفي الحقيقة فقد فاق غاندي والديه إلى حد كبير. فقد كان أمومياً أكثر من أفضل أم لأسرة كبيرة، مد رعايته إلى الضعفاء والمحرومين، والمنبوذين والمجذومين والذين يصعب لمسهم. وكقائد لكل الهنود وضع والده، رئيس الوزراء الصغير في الظل إلى مدى بعيد. وفي السير الحياتية الأخرى غالباً ما تم رسم غاندي كتجسيد للحب الأسمى، خالياً من كل عيب ومتحرر من مخاوف الطفولة. ومع ذلك فإن إيركسون يعتقد أن المنافسة مع والديه قد سببت له مشاعر الذنب تجاههم، وهي ما تجلت لاحقاً في بعض المواقف المتناقضة تجاه أتباعه وخصومه.

فحتى كطفل كان للمونيا Moniya حسب إيركسون مركزاً متقدماً في الأسرة. فقد نمى تعلقاً لايلين وذكياً، «منح والديه الشعور بأن علاقتهما به علاقة فريدة، ومنحاه من جهتهما الشعور وكأنه قد أصبح له مصير مخلوق مختار» (1978 «أ»، صفحة 119). وكأصغر ابن لأم شابة وأب كبير السن لابد وأن تكون علاقة غاندي بأمه قد كانت كثيفة بشكل خاص. وفي الواقع يتذكر غاندي بأنه قد كان محبوب أمه.

لم يكن للعب أي سحر عليه؛ وابتعد عن الأتراب والمباريات، عدا عن ذلك كان يدخل كحكم أو وسيط سلام. وكثيراً ما كان ينسحب إلى أمه. وكان دافعه، كما يخمن إيركسون، ليس التعلق الطفولي المجرد. فقد أحس مونيا Moniya على ما يبدو بأن الأم احتاجته، بأنه كان يستطيع فهمها ودعمها في مواقف محددة بشكل أفضل من أي فرد في الأسرة. وبهذا فإن غاندي لم يتماه مع باتولا با Patula Ba فحسب وإنما رد إليها أيضاً

جزءاً كبيراً من الحب الأمومي. فهل عمم غاندي هذه الثنائية المكثفة لعلاقة الأم-الابن على مقابلاته اللاحقة؟ هل يمكن أن يكمن هنا المصدر التخلقي المتعاقب للإحساس، بكون المرء ذو أهمية فريدة بالنسبة لشخص آخر وأن عليه التركيز كلية على راحته؟ يرى إيركسون أنه من المميز لغاندي أنه كان غير قادر على إقامة ارتباط أكثر من ارتباط واحد عميق فقط في الوقت نفسه، وبشكل خاص عندما كان الأمر بعلاقة مملوءة بالإخلاص، بل حتى بهدف التحرر من علاقة أخرى.

وهناك سمات أخرى مميزة في شخصية غاندي ظهرت بالنسبة لإيركسون في طفولة غاندي. فعمل المقالب والمزاح باستمرار، يبدو أن المونيا الصغير قد تماهي مع الفكاهة بشكل واضح، التي تجعل الحياة محمولة في عشيرة مكتظة. فقد اعتاد منذ الطفولة على مداعبة محيطه واختباره وكطارح أسئلة ماكر. إلا أنه من المهم أن نرى، أن «بأن والداه قد كانا فكهين كفاية، (ليتحملانه)، عندما كان يختبرهما بدلاً من إفساد اللعبة، من خلال مبالغتهما بتقويم سادية ولعه بين الحين والآخر لاختبار الآخرين» (1978 «أ»، صفحة 120). السخرية المداعبة، التي كان يكشف بها غاندي باحترام كامل ضعف خصمه، كان يوجهها إلى أتباعه ومناوئيه بالمقدار نفسه. وبشكل خاص في مواقف التي كان يتحدى فيها خصومه الجبارين، كان يبدي ذلك الخليط من الفكاهة والحزم القاتل، وهو ما أمكنه تجريد الآخرين من سلاحهم بالمعنى الحرفي للكلمة. ولنتذكر بشاشة غاندي التي لا تهتز عندما على سبيل المثال أعيد اعتقاله مرة من البريطانيين، فشكر الاستقبال العظيم في «فندق جلالتها» أو عندما وضع عند استقباله من نائب ملك الهند القليل من الملح الخالي من الضرائب في الشاي المقدم.

ومن صفاته البارزة منذ الطفولة عدم كلله. فقد كان مونيا يسرق نفسه من منزل الأسرة الصغير وينطلق في رحلات استكشافية. وقد وصفته أخته الأكبر أنه لا يستقر كالزئبق. وربما تمتلك حيوية الدءوبة في السير على الأقدام والحركية، التي عبر فيها لاحقاً شبه القارة الهندية، وفضوله الذي لا يرتوي والطاقة المشعة جذرها التخلقي المتعاقب هنا. ولم تكن الأسرة في مأمن من دعابات مونيا Moniya أبداً. ويقال أنه قد

لون الحيطان وبعثر المقدسات الدينية في المنزل. وعندما كانت أمه تحقق معه لهذا السبب كان يقعد بعناد على الأرض. فهل نرى هنا طلائع إضراب الجلوس؟ وفي حضور الأب كان مونيا يأخذ صورته عن منصتها ويضع صورته مكانها. ويبدو أن أبوه كان يأخذ مثل هذه الأمور من عدم الاحترام بتسامح. فعلى ما يبدو كانت له علاقة خاصة مثل الأم بابنه الأصغر الموهوب للغاية.

ويخمن إيركسون أنه منذ وقت مبكر كان ينظر إليه على أنه قدير على الدراسة في إنجلترا وربما ليصبح في يوم من الأيام وريثه في تراث رئيس الوزراء. كما أن مونيا Moniya قد نمّى تعلقية خاصة بوالده. فمنذ سن الخامسة عشرة أخبره مرعوباً عن سرقة. فغرق الأب الصارم في العادة في البكاء بسبب استقامة ابنه، وهي خبرة مست غاندي بعمق ومثلت بالنسبة لإيركسون خبرة أساسية على طريق الطريقة اللاعنفية. وللمرة الأولى حصل غاندي على خبرة بأن الصراع الذي يتم البت به بصدق قادر حتى لدى الخصم المتفوق على تحرير طاقات التصالح.

لقد تمثل غاندي تماهيات الطفولة وخبرات حياته وقناعاته الأخلاقية وأهدافه السياسية في هوية فريدة من الخدمة. أسلوبه اللاحق في القيادة اصطبغ بالنسبة لإيركسون بسمات أنثوية- أمومية، قضيبية وطفولية في الوقت نفسه. عمل غاندي على كرسي النسيج وعجلة الغزل، وواجه هذا الأخير برعاية أمومية لا تنضب. ومن ناحية أخرى كان يمكنه أن يكون ذكورياً حاسماً في تحقيق مطالبه، بشجاعة، واجه بها حتى الخصم المسلح بسلاح ثقيل. بالإضافة إلى أن غاندي لم يغتصب لاحقاً العرش الملكي أو منصب الرئاسة، لم يجعل فخامة إدارة المنصب المتعارف عليها تفصله عن الجماهير، ربما لأنه حافظ دائماً على جزء من الطفولية في كل أفعاله. وفي الواقع فإنه حسب إيركسون لم يكن بالإمكان «تقدير الجرأة المستحيلة للمهاتما وهيئته وتأثيره من دون أن نعرف أنه كان مونيا في يوم من الأيام وأن المونيا قد هب لمساعدته في اللحظات الإستراتيجية الحاسمة، لتحرير الطاقات الداخلية فيه وفي أتباعه وموازنة معطيات الموقف التاريخي ببصيرة الطفل الحالمة» (1978 «أ»، صفحة 126).

10.3 الشباب والدراسة في انجلترا

يرى إيركسون زواج الطفل بالشابة كاستوربا Kasturba مرحلة حاسمة في حياة غاندي. فقد كان الزواج شأناً من شؤون الوالدين، تقرره تقاليد الطبقة. ولم يتم سؤال الموهان Mohan البالغ من العمر 13 سنة. وهذا التدخل المفاجئ للأب في دَراما الابن لابد وأن يكون قد استثار لدى غاندي أزمة هوية مظللة وحادة. dharma فبصورة غير متوقعة وجد الشاب موهان نفسه محشوراً في حالة الزوج، وهذا في مرحلة من النمو حيث كان الواجب الأسمى وفق الرؤية الهندوسية التعلم التصوفي وليس الرغبة الحسية. ويقر غاندي في سيرته الذاتية بأن شهواته الجسدية كانت متطرفة إلى حد ما. وكانت فطنته وقدرته البناءة وقدرته على التركيز مهددة بالضياع، إذ لا يزال في التفكير الهندي يسيطر تصور خرافي مفاده أن فقدان النطاف يعني اختفاء الطاقات العقلية. وممزقاً هنا وهناك بين الولاء لأسرته ولزوجته الطفل، بين دوافعه التي انزلقت في الهيجان وضميره الصارم، قطع غاندي هنا الألعبانات الطفولية. وسمات الدقة والانشغال الاكتئابي، التي عانى منها غاندي مراراً في المراحل الحساسة من حياته، تقوم بالنسبة لإيركسون على صراعات الدافع في المراهقة.

وعلى الرغم من كل ذلك لم يكن حسب رؤية إيركسون الشخص الرئيسي في حياة غاندي كاستوربا Kasturba وإنما أب كبير السن في هذه السنوات. متأثراً بشدة من الانهيار الجسدي للأب المريض، تولى باطراد متزايد رعايته وذلك برضا فاق رعاية أمه. ومن وجهة النظر التحليلية النفسية ربما يكون قد أسهم في موقف الموهان Mohan حافزاً من التكوين العكسي ضد مشاعر الكره والتمرد اللاشعورية تجاه الأب، الذي لم يستطع أن يغفر له أبداً أنه قد زوجه على الرغم من إرادته.

المهم بالنسبة لإيركسون، أن غاندي قد أزاح رعايته هنا للمرة الأولى عن الأم إلى مقابل له آخر أقوى منه. ويصف غاندي في سيرته الذاتية كيف تأرجح دائماً بين كاستروبا Kastruba ووالده، فكر بزوجته عندما كان يهتم بوالده وانشغل على أبيه عندما كان مع كاستروبا. ويصمم إيركسون هنا تقاطعات مع نشاطه السياسي اللاحق:

«لا يثير العجب أن وصف هذه المرحلة من الحياة يكشف تصور عجلة محمومة، عنيدة من واحد إلى الآخر، من الزوجة إلى الأب ومن الأب إلى الزوجة، التوجه إلى كليهما والابتعاد عنهما، إلى المدرسة والعودة؛ ويمكن للمرء أن يتجرأ على الحدس أن هذا قد تحول إلى نموذج للتبديل اللاحق بين حركية هوسية واستقرار مؤقت - دائماً في خدمة أحدهم أو موضوع ما، يحتاجه أحدهم» (1978، صفحة، 131).

في هذا الوقت الذي كان فيه موهان مهدداً بالضياع في ولاء متأرجح، تولى أعز أصدقاءه، الشاب المسلم مهتاب Mchtab، دور الغاوي الماهر. وفي سيرته الذاتية يستطيع غاندي لاحقاً سرد «تجاربه مع الخطيئة» بقليل من الفكاهة. فقد أقنعه مهتاب من بين أمور أخرى بالتدخين في العلن، وبأكل اللحم وعدم الإخلاص الزوجي. المضحك المبكي كان المشهد عندما قامت مومس غاضبة بطرد الموهان العاجز Impotent. وكما هو الحال مع غالبية الشخصيات المقدسة الكارزمية خضع غاندي لفترة للخلخلة الدافعية للمراهقة. وكان مهتاب الشريك المثالي تقريباً، لتجريب موهان، مرة موسوساً، ومرة مساحة إسقاط لهويته السلبية. ولا يريد إيركسون التعامي عن هذا الطيش من الصورة المقدسة للمهاتما غاندي. بل على العكس: إنه يكاد يبدو ضرورياً، إذ أن غاندي كان على الطريق الأفضل، «نحو أن يصبح عبداً لضميره الذي نمى مبكراً» (1978 «أ»، صفحة 156). كان لابد له من أن يجرب سلطة الهيجانات الدافعية، ليتمكن من تعلم السيطرة عليها لاحقاً بقرار أخلاقي واعٍ ومواجهتها. فمن عليه طوال حياته أن يحفظ الجانب المظلم من حياته مقموعاً بآليات الدفاع اللاشعورية يظل واعظاً يحمل استعداداً للإغواء.

ويرى إيركسون أن الخبرة الفاصلة في شباب غاندي كانت موت الأب في عام 1885 وبالتحديد ليلاً، عندما ساءت حالته الصحية بسرعة، لم يكن موهان قد ظل عنده، وإنما ترك رعايته لعمه. ومات الأب بين يدي العم، في حين كان غاندي يضاجع زوجته. وهذا الحادث تم وصفه في السيرة الذاتية بصورة معذبة للذات على أنه لعنة سوداء، خبرة مثل نوع من الحساب المفتوح الذي أمكنه دائماً استثارة مشاعر الذنب

الكالحة لدى غاندي الراشد. ومن وجهة النظر التحليلية النفسية يمكن فهم هذه الحادثة على أنها «ذكرى وهمية»: إذ تظل خبرة ما محددة معلقة بشكل مأساوي في الشعور، من أجل تغطية صراعات أكثر وخامة من الطفولة – في حال غاندي: مشاعر الكره المكبوتة ورغبات الموت تجاه الأب-. وفي الحقيقة يخمن إيركسون أن غاندي قد عاش صراعات الابن بشدة مكثفة، لأنه لابد وأن يكون قد شعر في نفسه منذ الطفولة بالتفوق، تجاوز المنافسة الأوديبية الطبيعية إلى مدى بعيد وسبب من ناحية أخرى مشاعر الذنب، التي عبرت عن نفسها في آليات الدفاع المختلفة والخصائص الشخصية. وهذا يعني مطبقاً على أسلوب غاندي السياسي اللاحق، «أن وظيفة الخدمة 'الأنثوية' تجاه الأب كانت إنكار الرغبة الصبيانية، للحلول محل الأب (الهرم) في امتلاك الأم (الشابة) وتغطية المقصد الشبابي للتفوق عليه لاحقاً كقائد. وبهذا ربما تكون هذه التصويرة Schema قابلة للتعميم على أسلوب القيادة، القادر فقط باللاعنف على الانتصار على خصم متفوق، وبالمقصد الصريح، إنقاذه، بالمقدار نفسه، مثل ذلك الذي قمعه هو. وبعض مما يتضمنه هذا التفسير يطابق في الواقع ذلك الذي كان المهاتما سيقر به من دون تردد كنية مبيتة» (1978 «أ»، صفحة 147). وفي الحقيقة يعود الدافع، المتمثل في الاهتمام بخصم متفوق، ومحبوب (بصورة متناقضة) يعاني من الضعف والمرض، ليطفو من جديد بالفعل في حياة غاندي اللاحقة ببعد أكبر بكثير. وبالطبع فإن التأويل بأن نشاط المهاتما لا يعزى إلا إلى تمثل صراعات الابن الأوديبية «فقط»، يراه إيركسون فظاً. فلو كان غاندي مدفوعاً بصراعات سلطة لاشعورية فحسب، لكان قد ظل ناشطاً متوسطاً أو ربما قد انزلق في التعصب. ففي المواجهات مع خصوم ومؤسسات جبارة بصورة غير متكافئة طور إيركسون أسلوباً سياسياً جديد كلية، أطلق رؤى عظيمة وعلى العكس من قهر التكرار العصابي- غيره هو وأتباعه ومناوئيه بطريقة فريدة.

وإلى جانب موت الأب يرى إيركسون الجنسية الموقظة في وقت مبكر خبرة مؤثرة بشكل خاص لمراهقة غاندي. وهو يرى أن غاندي لم ينجح أبداً في صهر التوق الدافعي

مع الحب المرح في علاقة محبة. فقد ظلت الجنسية جسماً غريباً، خطراً غمرت غاندي أكثر من مرة في سنوات الشباب والتي حاول لاحقاً باستمرار استئصالها بصورة صارمة. وأقوله حول الجنسية بأنها رغبة قذرة، لعبة طائشة بنار الإنجاب تلقي ظلالاً على علاقته بالنساء، اللواتي سرعان ما رأى فيهن لاشعورياً الغاويات الممكنات. وفي أواسط الحياة اختار غاندي طريق العفة المطلقة كشرط للساتياغراها[1] Satyagraha وامتنع عن إشباع كل الدوافع، باستثناء تناول أقل كمية من الطعام الضروري للحياة. ويصل إيركسون إلى نتيجة مفادها: «بداية لاحقاً، عندما تاب عن أي نشاط جنسي، كان غاندي على ما يبدو قادراً على الإحساس بالانشراح الشهواني التقشفي المنشرح إلى حد ما بنوع من القرب الجسدي المتباعد سواء تجاه الرجال أم النساء. إلا أن كل الرغبات الجنسية قد ظلت وصمة عار وتخلق أزمة: تثقل كاهل الأطفال بصورة كبيرة، الذين هم نتاج بالصدفة لمثل هذا التجاوزات» (1978 «أ»، صفحة 138).

وكذلك في هذا الموضوع يحاول إيركسون استخلاص علاقة بين صراعات الدافع عند غاندي والطريقة اللاعنفية اللاحقة بتخمينات شجاعة بالفعل. فحملته السياسية تتطابق طبقاً لذلك مع نوع من النزوع القضيبي المصعد؛ وكراهيته التعصبية طوال حياته للوسخ والقذارة يمكن عزوها إلى القرف اللاشعوري من النطاف كمادة وسخة مُدَنِّسة: «إلا أن رفض كل ما هو قضيبي لا يتيح إلا مخرجين للتصعيد: رفع كل ما يحمل في التشغيل الممتع للقضيب صفة الدعابة ومع ذلك صفة العدواني القوي والمزعج إلى مستوى «أعلى» (وسوف يعممه غاندي من دون شك على المراحل المثيرة provocative لتكتيك اللاعنف بدرجة كبيرة)؛ وتشديد نكوصي على الطبيعة الطاردة eliminative لنزع الاحتقان Detumescence والإصرار القهري على النظافة القصوى» (1978 «أ»، صفحة 139).

ولم يكن المحللون النفسيون هم وحدهم من انتبه إلى إسهام الرفض الصارم

(1) الساتياغراها: اللجوء إلى المقاومة السلبيّة أو اللاعنفيّة كوسيلة لتحقيق الإصلاح الاجتماعي والسياسي.

للجنسية عند غاندي في صراعات الدافع في المراهقة. ولكن من ناحية أخرى لابد من التساؤل فيما إذا لم يبالغ إيركسون في أهمية الجنسية. فهل أبرز بصورة خاصة على أساس تدريبه التحليلي النفسي مقولات محددة من ذكريات غاندي في الشباب، ولم يعتبر أخرى ذات أهمية؟ من المؤكد أنه ربما قامت بعض الضروب وغرابات الأطوار للراشد غاندي من الناحية الديناميكية النفسية على صد الدافع. ولكن ألا يتجلى في السيطرة الخارقة لغاندي على الغرائز الجنسية والعدوانية تقشف الأولياء الذي يفوق مكبوتات وتصعيدات الإنسان العادي؟

في عام 1887 عمل موهان في أحمد آباد امتحان الدراسة الثانوية ونوى على فكرة دراسة الحقوق في لندن. ومثل آلاف الشباب الهندي أراد التعرف على إنجلترا والحياة الغربية. فرفضت أمه ذلك بالنظر للإغراءات التي تواجه رجلاً شاباً غير ناضج بعد في أوروبا. ووقفت عشيرته متفقة ضد الخطة حتى أنها هددته بالاستبعاد. ومع ذلك فقد انطلق الشاب غاندي في أيلول (سبتمبر) من عام 1888 في رحلة بالباخرة استمرت خمسون يوماً نحو بريطانيا. ويعتقد إيركسون أن نوع من الصوت الداخلي لابد وأن يكون قد ألهمه للابتعاد خارج إطار حماية العائلة، لتمثل المعارف التي ستصبح لازمة له في مسيرته اللاحقة. إلا أنه قبل ذلك أقسم غاندي قسماً أمام راهب هندوسي بألا يأكل اللحم وألا يشرب الكحول والابتعاد عن النساء الإنجليزيات.

درس غاندي من عام 1888 حتى عام 1891 علوم القانون وجرب دور الشاب الهندي في لندن. فتعلم الفرنسية وتلقى دروساً في عزف الكمان ودورة في الرقص. وفي المناسبات الاحتفالية ظهر الطالب الخجول كغندور[1] dandy بقبعة اسطوانية وياقة بيضاء. ويرى إيركسون وقت الدراسة هذا على أنه تعليق نمطي، حيث تمكن من مواجهة صراعاته الطفولية بعيداً عن الوطن والواجبات الأسرية. ولم تكن الفترة في لندن خالية من الإغراءات والصراعات العصابية. ففي حضور السيدات تصرف

(١) الشخص شديد التأنق

غاندي بلخمة وبلا لباقة، وفي الظهور العلني شعر أحياناً بالخوف الجاثم بحيث خانه صوته. وفي مراحل الوحدة كانت تهجم عليه الحاجات الفموية للطعام الأوروبي، وأحياناً كان قريباً جداً في الخضوع للإغراء. وأخيراً انتسب إلى رابطة نباتية وتعلم تحضير وجبات نباتية شهية ومغذية بنفسه. ويذكر غاندي في سيرته الذاتية بشجاعة كل المبالغات وتأنيبات الضمير المضحكة المبكية لتصرفاته الخاصة بالحمية. حتى أنه قد حرم نفسه شرب الحليب، وحتى طعامه النباتي اعتاد أن يتفحصه بدقة باحثاً عن أقل كمية من الأغذية الحيوانية.

ومن المؤكد أنه قد يكون الكثير من خجل غاندي وعاداته غريبة الأطوار في هذا الوقت دفاعاً ضد نزوعات الدافع المكبوتة -وربما أيضاً تعبيراً عن الشك اللاشعوري ضد اجتياف الأم الشريرة «المسممة». إلا أن لقسمه بألا يأكل اللحم أهمية أعمق بكثير كما يرى إيركسون . فقد ربط غاندي بأمه، بوطن أمه، بلغته الأم. وبالنظر للحكم البريطاني المسبق بأن الهندوس بشر ضعفاء بشكل لا ينتصحون، كان على غاندي أن يبرهن لنفسه بأنه يستطيع مقاومة الإغراءات الحسية. وبإرادته الذاتية حافظ على قسمه وطور هنا قوة معنوية أصبحت لاحقاً أساس جهاد للنفس يفوق كل شيء. وعلى الرغم من أن تحصيله لم يكن إلا متوسطاً، فقد اجتاز الامتحان النهائي في علوم الحقوق. لقد أصبح محامياً، اكتسب معرفة قانونية وأساليب إقناع، سرعان ما أصبحت ضرورية لمواجهاته مع الإدارة الاستعمارية. ها هو الآن غاندي يتحدث الإنجليزية بطلاقة وتعرف على العقلية الإنجليزية ودرس الكتاب المقدس ودرس الأدباء الغربيين من نحو تولستوي وراسكن [1] Ruskin وثورو[2] Thoreau. لقد أخذ أفضل مافي الأوروبيين ومع ذلك فقد ظل هندياً.

(1) John Ruskin جون راسكِن، (1819 ـ 1900): كاتب وناقد فنّي إنكليزي. أكّدَ على مساوئ المجتمع الصناعي الجديد.

(2) Henry David هنري ديفيد ثورو، (1817 ـ 1862): كاتب وشاعر أميركي. عُرف بمقاومته الشديدة للاسترقاق والاستعمار.

وفي عمر الثانية والعشرين عاد غاندي في عام 1891 إلى الهند. وعند قدومه عرف بموت أمه، وهو ما هزه، ولكن على ما يبدو لم يمسه الأمر بعمق كما هو موت الأب. ويرى إيركسون أنه كان لابد لغاندي أن يبتعد عن الارتباط بالأم باتجاه ترسيخ ذاته، «أي من قسمه إلى مهنته، ومهنته: لا يمكن إلا وأن تعني أن يتولى الموروث المهني لأبيه وأسلافه وأن يجددها» (1978 «أ»، صفحة 185). فهل طور الشاب غاندي في هذا الوقت الحدس المبهم بأنه من الممكن أن يكون قادراً على مصالحة العقلية الهندية والبريطانية معاً وبعدئذ فصلهما؟

لقد نجح غاندي بالتصالح مع طبقته شكلياً. إذ عاد يعيش ثانية في دور الزوج والأب وامتلك جميع الشروط للبدء بسيرة مهنية واعدة في وطنه كمحامي. إلا أن تعليق Moratorium غاندي مازال لم ينته بعد. -مستشار داخلياً وغير متزن- فقد تهرب من المسؤوليات المهنية. لم يرد الاستقرار في بومباي ورفض كذلك عرض أخيه في العمل معه في مكتب محاماة. ويخمن إيركسون أن «صوت داخلي ملح، تولى على ما يبدو تخريب كل شيء، كل نجاح كان بالنسبة له إما في راجكوت Rajkot أم بومباي سيكون متواضعاً. وكذلك بالنظر للتهرب من مثل هذا النوع من الإمكانات يمكن للمرء أن يعتمد على ملاكه الحارس» (1978 «أ»، صفحة 188). ولابد من أن يكون هناك شيء ما ألح على غاندي في ذلك الوقت للرحيل، ترك وطنه وأسرته من جديد. ففي نيسان (أبريل) من عام 1893، قبل عرضاً ليصبح مستشاراً قانونياً لشركة جنوب أفريقية وقطع المحيط الهندي. وبهذا فقد بدأ قبل الانبثاق إلى مهاتما طريقاً طوله عشرين سنة.

10.4 غاندي كمستشار قانوني في جنوب افريقيا

في ذلك الوقت تقدم عشرات الآلف من أبناء الهند للعمل بعقود في جنوب أفريقيا، الذين أطلق عليهم البيض تسمية الكولين[1] coolies. وكانوا يعملون في مزارع الشاي

(1) coolie also coolly: الكولي حمال أو عامل بارع.

والقهوة أو في المناجم تحت شروط غير إنسانية. وبعد خمس سنين انتهى العقد. وتم تخيير العمال إما بالعودة إلى الهند أو الاستمرار في تسخيرهم في جنوب أفريقيا «كهنود مسرحين» في حالة أنصاف عبيد. وكان تكتيك الحكومة إدخال عدد كبير من العمال الجدد إلى البلد وفي الوقت نفسه طرد أكبر عدد كبير ممكن من القدماء، كي لا يصبح تأثير الجالية الهندية في جنوب أفريقيا كبيراً. ومظلومين بشكل فظ قانونياً واقتصادياً وسياسياً وقف العمال بعقد على الحافة الدنيا للشعب الجنوب أفريقي. فلم يكن يسمح لهم بالسكن إلا في مناطق محددة ولا يجوز لهم تجاوز حدود منطقة محددة ويمكن ضربهم من دون أية عقوبة، وفصلهم عن أسرهم بصورة تعسفية أو يسجنون إلى مدى غير محدود. فكانت الشروط الأساسية للشعور بالهوية الأسرية والعرقية-الكرامة والأمن القانوني والاندماج الاجتماعي- موءودة منذ البداية. وتحمل الهنود الظروف الحياتية غير الكريمة في جنوب أفريقيا، طالما كانوا يحصلون على النقود. وحتى الجماعة الصغيرة من النخبة الهندية في جونب أفريقيا كانت بلا حول ولا قوة ضد اللاإنسانية.

وكان والوضع ناضجاً لإنسان يقف ضد هذه الظروف المزرية، وكان غاندي في هذه الأثناء قد وصل إلى نقطة حرجة من تطور شخصيته، كي يقع على واجبه الذي لا عودة عنه. و «كمحامي عن الكوليين» متأثراً بالوجود الشقي لأبناء وطنه، عرف الانقلاب الحاسم في حياته في «ليلة الليالي». فعلى طريق العودة من دوربان Durban في أحدى أمسيات حزيران (يونيو) من عام 1893 امتنع أحد البيض، قضاء الليل مع غاندي في قسم الدرجة الأولى. فرفض غاندي من جانبه أن يتم تحويله إلى الدرجة الثالثة فقام مراقب القطار برميه بلا تردد خارج القطار. فقضى الليلة غاضباً بعمق وثائراً في غرفة الانتظار الباردة لمحطة بيترماريتسبورغ Pietermaritzburg. وفجأة وكالوحي تجلت أمام عينيه وظيفته في الحياة: لقد كان ذلك الذي عليه أن يعيد لأبناء وطنه الحرية والكرامة. وقد كتب غاندي لاحقاً: «لقد مست المعاملة غير العادلة التي تعرضت لها السطح فقط – إنها مجرد عرض لمرض الحكم العرقي الكامن بعمق. كان علي إذا أمكن، التجرؤ على محاولة، استئصال هذا المرض من جذوره وأن أتحمل الصعاب الغالية في

ملاحقة هذا الهدف»[1]. وفي الواقع فإن إيركسون يرى في بيترماريتسبورغ المكان الذي حدد رسالة غاندي: «هناك سبب وجيه للافتراض بأن الهوية المركزية التي وجدت هنا مكانها وساعتها التاريخيين، كانت متجذرة في القناعة بأن الشخص الوحيد من بين هنود جنوب أفريقيا مزودين من القدر بكل شيء لتغيير موقف لا يمكن الصبر عليه تحت أي ظرف من الظروف» (1978، صفحة، 195).

وخلال الليل خلع غاندي البالغ من العمر 23 سنة جوهره الخجول وقرر أن يتفحص بدقة الظروف الحياتية لأبناء وطنه. ويصف إيركسون عبر مائة صفحة بصورة شيقة كيف تورط في السنوات العشرين اللاحقة خطوة فخطوة في الشؤون السياسية المتسعة باطراد، لا ليعمل محامياً وإنما مستشاراً للمقموعين والمظلومين. وعندما وقع غاندي على رسالته الفعلية، لم يعد يشعر بأي شعور من الخوف أو الخجل. ففي مقالاته القانونية وظهوره العلني فجر توليفاً من الإنجليزية غير المنمقة والتفكير الحاد والكمال الشخصي، توحيد «متدرج» لقدراته المهنية والاقتصادية والسياسية هوية للخدمة شاملة للحظات الثلاثة» (1978 «أ»، صفحة 231). وسرعان ما أصبح غاندي أحد أشهر الممثلين للأقلية الهندية. ليس في بريتوريا وحدها وإنما في ترانسفال وكل جنوب أفريقيا. لقد أصبح ناشطاً سياسياً، والتزم باطراد ضد التقييد ومشاريع القوانين الظالمة. وبدأ عدد متزايد من الناس الاشتراك في حملته، التجار والمثقفين والعمال المستغلين والنساء. وجماعات هندية مختلفة، من الهندوس والمسلمين والبارسيين[1] Parsi والغوجارتيين Gujaratis عاشوا للمرة الأولى الشعور بالارتباط المصيري المشترك والكرامة. وكان غاندي يدخل في مواجهات مع خصوم مطردي الأهمية: الحكومة الجنوب أفريقية ووزير المستعمرات البريطاني وأخيراً ملكة إنجلترا شخصياً. فلفت أنظار الوطن الهندي الأم والصحافة العالمية إلى طرقه.

وفي هذا الوقت تبلورت «الساتياغراها Satyagraha»، وكان أسلوب غاندي

(١) البارسي: زَرادَشتيّ متحدّر من أصلاب اللاجئين الفرس المقيمين في بومباي وغيرها

النمطي أن يعيش ويتصرف. فقبل فترة طويلة من ماهاتميته نشأت الطريقة المشهورة للمواجهة اللاعنفية والامتناع الوفي عن التعامل: إضراب جلوس، تشكيل سلاسل بشرية، الحرق العلني للجوازات، التكتل التضامني لأجساد غير مسلحة في حشود متقدمة للأمام أو دفاعية، تقنيات ستتحول لاحقاً إلى مثال يحتذى للمظاهرات المختلفة للعصيان المدني في جميع أنحاء العالم. والساتياغراها Satyagraha هي تركيب لكلمتين من السنسكريتية[1] Sanskrit وتعني في الترجمة الحرفية «الحق» و «القوة». وقد أطلق غاندي على أسلوبه «المقاومة السلبية»، على الرغم من أن هذا التعبير لا يمكنه أن يعبر عن شجاعة وحزم السياتاغراه إلا بصعوبة. وتحدث مارتن لوثر كينغ عن «اللاعنف العسكري»، ويصف إيركسون طريقة غاندي بأنها «القوة الرافعة للحق». ليس لأحد الحق للادعاء بأنه يمتلك الحق . فقط عندما يواجه الإنسان خصمه بلا عنف كلية، ولا يتهمه بأي شكل من الأشكال بنوايا مبيتة، يمكن لكلا الحزبين إدراك الحق الكامن في موقف صراع ما وإيجاد حلاً وسطاً باعثاً على الرضا لكل المشاركين.

زار غاندي الهند في هذه السنوات عدة مرات، وكان أحياناً على وشك الاستقرار في موطنه. إلا أنه كانت تحصل في اللحظة الأخيرة تلك «الصدف»- إما قرأ مقالاً حول مشروع قانون ظالم أو سمع عن إجراءات قهرية مستنكرة-، دفعته للعودة إلى جنوب أفريقيا. ويعتقد إيركسون أنه لابد وأن شعر بصورة مبهمة، بأن ساعته لم تحن بعد وطريقته لابد وأن تنضج أكثر، ليتمكن من نقلها إلى موطنه الأم. وفي عام 1896 أحضر غاندي أسرته إلى جنوب أفريقيا وافتتح مكتب محاماة في جوهانسبورغ. وبالتعاون مع عدد متنامي من الأتباع أحيا غاندي شكلاً جديداً من الحياة يقوم على مزرعة العنقاء phoenix-Farm أو لاحقاً على مزرعة تولستوي Tolstoi-Fram، تشبعت بها أسرته بالتدريج. فعاش هنا رجال ونساء من كل الأعمار ومنابت مختلفة مع بعضهم باحترام متبادل. وقد تم إهمال هذه المرحلة في حياة المهاتما في كثير من السير الحياتية، إلا أنها

(١) السنسكريتية: لغة الهند الأدبية القديمة.

تمثل بالنسبة لإيركسون عنصراً مهماً لنموه التوالدي Generative في سنوات العمر المتوسطة. فقبل أن يتحول غاندي في الهند إلى ثوري ديني، عاش في جنوب أفريقيا لخمسة عشر سنة بجدية وإتقان «الوالدية المنزلية House fatherhood»، مرحلة مهمة في دورة الحياة الهندوسية.

كانت الخبرة الحاسمة لسنوات جنوب أفريقيا بالنسبة لغاندي المواجهة مع العواقب الوخيمة لقيادة الحرب الحديثة. فعلى الرغم من أنه اعتبر تصرف الإنجليز في حرب بورن Buren غير أخلاقية، إلا أنه قد رأى من واجبه مساعدة الإمبراطورية عندما تنزلق في الضيق. فقام غاندي بتنظيم حقيبة إسعاف للجنود البريطانيين وأعجب من ناحية أخرى بشجاعة البوريين الثائرين. وبعد انتصارهم تنكر البريطانيون لأهدافهم أنفسهم من الحرب، المتمثلة في تحقيق عدالة أكبر داخل جنوب أفريقيا. بل على العكس: ففيما تلا من الوقت ازدادت القوانين حدة ضد الهنود والأقليات الأخرى. وكان غاندي الذي رأى أنه قد خاب أمله في الولاء للبريطانيين، عازماً على المقاومة أكثر من أي وقت مضى. ولاحقاً وضع نفسه تحت تصرف ثورة الزولو كمسعف. وقد هز التذبيح الفظيع للسود من خلال الأفاضل البيض غاندي بعمق ودفعه إلى تحطيم آخر بقايا الهوية كمواطن الإمبراطورية. كل استخدام للعنف -وحتى لو كان يخدم أهدافاً عليا- يصعَّد بشكل مباشر من السادسة والهدمية ويجعل أشكال جديدة منها غير قابلة للسيطرة تظهر. وبالنظر للعواقب الوخيمة للأسلحة الحديثة لابد من خلق أداة سلام جديدة.

فهناك فكرتان إذا قد أصبحتا بالنسبة لغاندي مسيطرتان باطراد واتحدتا في نذر شخصي: الفقر والعفة. فمن أجل الوصول إلى سلام داخلي لابد للإنسان أن يقاوم في نفسه كل التجبر، وأن يصبح مستعداً لتقليص نفسه للصفر والإيفاء بأقل قدر من الواجبات. فقط من يستطيع بالإضافة إلى ذلك لجم نزوعاته الجنسية بأي ثمن، يمكنه أيضاً أن يحافظ على ميوله للعنف تحت السيطرة. فبعد أن أنجب غاندي وكاستوربا Kasturba أربعة أولاد، امتنع منذ ذلك الحين عن ممارسة الجنس. ولهذا النذر الثاني

أهمية فاصلة بالنسبة لإيركسون. فغاندي قد أزاح حميميته نهائياً من كاستوربا وأبناءه الأربعة إلى جموع أتباعه وخصومه، أصبح قادراً أمام حملات خالية من العنف على بث قوة علاقة محبة بين ذاته وحشد كبير من الجماهير. وبالمقدار نفسه وسع غاندي التوالدية إلى نزعة تحمل المسؤولية ليس عن أبناء بلده في جنوب أفريقيا فحسب وإنما على المدى البعيد عن وطنه الأم الهند.

حمل كفاح غاندي ضد «القانون الأسود Black-Law» بين عامي 1906-1908 كل عناصر حملته الساتياغراها اللاحقة في ذاتها. فقد رأت مسودة قانون الحكومة الجنوب أفريقية أنه ينبغي أخذ بصمات أصابع الهنود وأن يحملوا بطاقة صحية معهم لكبح التدفق غير المضبوط للعمال غير الشرعيين من الهند.

استاء غاندي من أن يتم تسجيل أبناء بلده كمجرمين، فنادى على وجه السرعة إلى اجتماع للمبعوثين الهنود في ترانسفال. فأدى كل الحضور قسماً احتفالياً، على استخدام كل الوسائل المتوفرة للعصيان المدني، إذا ما لم يتم سحب مشروع القانون. فلم يرد المرء بأي شكل من الأشكال أن يدفع إلى العنف هنا؛ إذ ينبغي يتم نقل الكفاح للحكومة بكل احترام. قاد غاندي وفداً وصولاً إلى لندن لوزير المستعمرات. وكان الاعتراف الوحيد للحكومة البريطانية استثناء النساء من التسجيل. فجدد غاندي مع مخلصيه القسم. فقرر المسؤولون طرده من ترانسفال. وعندما امتنع عن المغادرة، تم سجنه للمرة الأولى. وفي المحاكمة الناجمة عن ذلك أيد مرافعة المدعي العام وطالب بأشد العقوبات عليه كمحرض. وظهور غاندي الشجاع جعله بطلاً شعبياً.

وفي أثناء الإقامة في السجن صنع ببراعة زوجاً من الصنادل لخصمه، الجنرال سموتس Smuts. فقام سموتس الذي كان الرأي العام ضده كلية، بتقديم عرض لتعليق العمل بالقانون، في حال كان الهنود مستعدون لتسجيل أنفسهم باختيارهم. وافق غاندي وتبنى أمام أبناء وطنه وجهة النظر أنه من طبيعة الساتياغراه الثقة دائماً بجدية الخصم. وبالطبع فقد اتجه لمكتب التسجيل ليسجل نفسه كأول هندي. ومع ذلك لم يتم تعليق العمل بالقانون الأسود في صيغته الأصلية. فأرسل غاندي برقية

لسموتس بأن هذا السلوك مهين لجنتلمان إنجليزي. فعندما تخلف الحكومة ببساطة وعداً قدمته بكامل إرادتها، فإن المواطنين الهنود يستطيعون أيضاً معاملة شهاداتهم كالورق عديم القيمة. وفي 16 آب (أغسطس) من عام 1908 أحرق غاندي مع 2000 من أتباعه بطاقات التسجيل بصورة احتفالية. ولم يشعر الهنود في يوم من الأيام بمثل هذا الشعور من التضامن المشترك والكرامة.

نظم غاندي الكثير من الحملات الأخرى في السنوات اللاحقة وصفع في أنشطة ارتجالية فكهة الإدارة بوخزات هادفة. فكثيراً ما نكثت الحكومة بعهود قطعتها ظاهرياً وتم فضحها في ضعفها الأخلاقي. ففي إضراب عمال المناجم في عام 1913 قاد غاندي جماهير العمال في حملة حج. وقد أطلق على حملة، تجاوز حدود المنطقة الممنوعة، تسمية «الغزو الآسيوي Asiatic Invasion» وكان الهدف أن يملأ أتباعه السجون إلى ألا يعود هناك أي مخرج للحكومة التي أصبحت عاجزة عن التصرف. وكان غاندي يؤكد باستمرار، أنه يريد أن يقدم للحكومة بكل تواضع خدمة وطنية وإنسانية. وفي كل الحملات حذر أتباعه، من المس بأي شكل من الأشكال بالأملاك العامة أو يشتموا ويتعاركوا مع الشرطة، وطلب منهم أن يتركوا أنفسهم يقادون إلى السجن بلا مقاومة. وكانت الحكومة التي جن جنونها تستجيب دائماً بهوس وجعلت الرأي العام ضدها، ليس في جنوب أفريقيا فحسب وإنما في كل الإمبراطورية. وتحولت المسألة الجنوب أفريقية إلى موضوع ملتهب. كما لفت غاندي أيضاً نظر المؤتمر الوطني الهندي واعتبر حتى في ذلك الوقت أحد أوائل القادة المحتملين لحركة التحرر.

10.5 العودة للهند

في تموز (يوليو) من عام 1914 ترك غاندي بعد 21 سنة جنوب أفريقيا نهائياً. وعندما ذهب في بومباي بثياب موطنه الفلاحية البسيطة إلى الريف، كان التصور في داخله قد اتخذ معالم واضحة، البدء بالنضال بواسطة الساتياغراه من أجل الاستقلال السياسي للهند.

ومع ذلك فقد مضت أربع سنوات أخرى إلى أن حصل حادث أحمد آباد، التي يخمن إيركسون أن غاندي في هذه السنوات قد مر بتجربة أخرى كسياسي. فبالتعاون مع أسرته وأتباعه أسس أشرم[1] Ashram على نهر سابرماتي Sabarmati بالقرب من أحمد آباد. ويعتقد إيركسون أن غاندي كان يكن لهذه المدينة محبة خاصة. فهنا يتم التكلم بلغة موطنه، وهنا مازالت تسود البنية الطبقية الراسخة في القدم للعمال والتجار، الذين يذكرونه بجو طفولته. وبمهارة نفسية كبيرة بدأ غاندي بتجنيد المساعدين، وشبان وشابات مثاليين وموهوبين باحثين عن مهمات وولاءات جديدة في الحياة. فقد أحس غاندي بأنه ظاهرة كارزمية بالنسبة لهؤلاء الشبان في مرحلة ما بعد المراهقة، ولم يتردد لحظة واحدة في تولي مؤسسة غورو القائمة منذ آلاف السنين، الأب الروحي، لأتباعه. فكانوا بالنسبة له أبناء وبنات في أشرمه (معتزله) أو منظمين ونشطاء في المناطق البعيدة من الهند. وتطور الأشرم إلى مركز للتأمل ولأسلوب الحياة النباتية البسيطة والرجوع لأساليب العمل اليدوي الهندية القديمة للغزل والنسيج. وعلى العكس كلية من التقسيم الطبقي التقليدي فقد عاش الناس في الأشرم كالأخوة والأخوات مع بعضهم. فلم يكن هناك هرمية وعلاقات سلطة؛ وكل واحد كان مستعداً للقيام حتى بالأعمال البسيطة للآخر. وبشجاعة استقبل غاندي المتمين إلى طبقة الذين يصعب لمسهم[2] في جماعته، وهو ما كان بالنسبة لكثير من الهنود المؤمنين بالخرافات يمثل خرقاً لنظام العالم الميتافيزيقي.

وفي الوقت نفسه اهتم غاندي بالتعرف على الظروف السياسية وسوء الأحول في بلده من المصادر الأساسية وممارسة عمل إعلامي منهجي. كانت أحمد آباد مركز انطلاق وقاعدة انسحاب للعجلة المسعورة التي قطع فيها في هذه السنوات شبه القارة

(1) الأشرم: مُعْتَزَلٌ خاصّ بحكيم أو فيلسوف هندي

(2) المقصود ذوي العاهات الشديدة والمجذومين...الخ

الهندية من طرف إلى آخر. وبالحرف «كحاج في رداء قطني» سافر غاندي في عربات قطار مكتظة من قرية إلى أخرى، ومن مدينة لأخرى، ومراقب من الشرطة السرية على قدم وساق. وسرعان ما تمكن، شاكياً بصوت عال حول سوء الأحوال في الدرجة الثالثة من إحدى رحلات القطار، الاتصال أيضاً بالناس البسطاء من مواطنيه. وكان في ذلك الوقت قد تولدت من غاندي كارزما القديس. ففي كل مكان كان يتم استقباله بحماس وسرعان ما كانت تشاع الأخبار عن ظهوره من نقاط تلاقي القطارات عبر قرى منطقة كاملة.

وفي أثناء هذه النشاطات المحمومة من السفر درس غاندي، ما أطلق عليه نهرو[1] Nehru «الخراب الرباعي للهند»، الاقتصادي والتعليمي والسياسي والروحي والفكري. ففي انحطاط الهند تجلت الكذبة الكبرى للعصر الاستعماري، ويشعر القارئ باستنكار إيركسون لهذه النتائج الوخيمة لعقلية المخلوقات الزائفة. فقد ادعى الإنجليز بالسماح للشعوب المقموعة المشاركة في التنظيم السياسي الموسع للإمبراطورية، وأنهم يساعدونها على التقدم السياسي والاقتصادي. بالمقابل فلم يظهر وجود تناقض بين الواقع المثالي والسياسي، بين القلة المستفيدة من السيطرة البريطانية والأكثرية الغالبة من المحرومين والمسلوبة بالصورة الشديدة التي ظهر بها كما ظهر في الهند. وفي الحقيقة فقد تم استغلال البلد من المستعمرين البريطانيين بشكل منظم. وكل ما كان يسند السيطرة الإنجليزية أو يخدم تحصيل الضرائب، كان منظماً بصورة فاعلة من الموظفين البريطانيين، الذين كانوا يتوقون فيما عدا ذلك إلى قضاء تقاعدهم في إنجلترا. لقد كانت السلطة الاستعمارية تشبه طفيلياً، يتشبث بعضوية أصابها الضعف. وكانت ثروة البلد تتسرب عبر المرافئ الكبيرة، ومقالات الجرائد الغربية الداخلة تفرغ الهوية الهندية النامية عبر مئات السنين. وقامت شركة شرق الهند بإغراق الصناعات المحلية وتدميرها. فوجد

(1) جواهر لال نهرو، Jawaharlal Nehru (1889 ـ 1964): زعيم وطني هندي. يُعتبر أحد بُناة الهند الحديثة. رئيس الوزارة (1947 ـ 1964).

العمال الهنود أنفسهم مضطرين إلى إنتاج بضائع معيرة بأسعار محددة، في حين تم منع الأعمال غير المرتبطة بعقود. فانهار النظام الدقيق المرتبط بالطبقات للتعاون بين الصناع والتجار ومن ثم شبكة الارتباط والتعاون المكونة للهوية بين الأسر والمجموعات المهنية والبلديات القروية. وبنتيجة الإنتاج الآلي المتزايد انحدرت غالبية الحرفيين إلى طبقة الشغيلة prolctarian.

ومع إدخال المفهوم الإنجليزي للملكية أصبحت الأرض بضاعة، يمكن أن تباع أو تستملك. فتزاحم الفلاحون الذين لا يمتلكون الأرض للمدن الكبرى فزادوا من درجة البؤس والجريمة. وقام الإنجليز بتطبيق نظامهم القانوني الخاص على الهنود الذين أصبحوا مجرمين، المفتقر إلى الحكمة العملية وغير المناسب تجاه القانون-الهندوسي المرن. فقد كان القضاة وهيئة المحلفين بريطانيين بصفة عامة. ولم يكن مسموحاً للشعب الهندي الدفاع عن نفسه بلغته الخاصة. ناهيك عن أن قلما تم اتخاذ أية إجراءات بالنسبة للتحرير الاجتماعي والقانوني والتربوي للشعب الهندي. ورفض المستعمرون، بغض النظر عن القليل من المكتسبات، تقديم تعليم أساسي للشباب الهنود، لمعرفتهم بالطبع أن نشر نظام تعليمي لن يترك للسيطرة البريطانية أي مستقبل واعد. ولم يكن يتم تأهيل سوى الكُتَّاب بإعداد كبيرة، لترسيخ السيطرة البريطانية في الوظائف الإدارية الإنجليزية.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى وصلت الهند إلى الدرك الأسفل. فعاش جزء كبير من الشعب بائساً في يأس متبلد؟ وفتك الجوع والآفات بعشرات الآلاف بصورة متزايدة.

وفي كل ظهوره العلني بين 1914-1918 تحمس غاندي لسوء الأوضاع الجهنمية وحمل مسؤولية الوضع المأساوي للسيطرة الاستعمارية والجبن وضعف الشعب الهندي. وبحدة أخذ في حسبانه القادة الهنود، الذين طالبوا بطريقة شعبية بالإزالة المتطرفة للسيطرة الاستعمارية أو بالخلاص من خلال التغيير البنيوي التدريجي لتركيبة السيطرة بين الإنجليز والهنود. ويرى غاندي أن كل القادة الهنود يريدون تغيير الهند بطرق غير هندية، وهذا في سبيل مستقبل غير عندي. وكان غاندي، الذي أقر صراحة، بأنه قد

عشق بعض المثل العليا للإمبراطورية، واقعياً. فالتحرر المباشر من السيطرة الاستعمارية سيقود إلى مزيد من الفوضى في البلد. فوقف غاندي في هذه السنوات أمام معضلة كبيرة، الإسراع قدر الإمكان في تحديث وعي أبناء وطنه، ولكن في الوقت نفسه أيضاً العودة إلى منابع التقاليد لاكتساب منطلق لشفاء الهوية الهندية.

دائرتان من المشكلات أصبحتا نموذجاً لبرنامج غاندي الإصلاحي: الأولى مشكلة اللغة، التي اعتبرها غاندي تعبير عن الشقاء الوطني. فكيف لشعب أن يحكم نفسه لا يتجرأ بعد على التكلم بلغته الخاصة ويستخدم بدلاً من ذلك الإنجليزية كلغة رسمية، التي لا يعرفها بشكل كامل أكثر من 100,000 هندي؟ ومن ناحية أخرى رأى غاندي أن تدمير الحرف اليدوية المحلية السبب الرئيسي لانحطاط الهند. وفي كل مكان ظهر فيه، شنع بالتأثير السيئ للتصنيع، بالسكك الحديدية، بالصحف، بالمدن المكتظة، بالإنتاج الميكانيكي للبضائع، ونادى بالقرية كمؤسسة مكتفية بذاتها من الفلاحين والحرفيين. ويعتقد إيركسون أن موقف غاندي في هذا الوقت قد كان حذراً. فقد أراد أن يتآلف شعبه بالتدريج مع الطريقة التي تعلم استخدامها في جنوب أفريقيا. وكانت إستراتيجيته إشراك أجزاء محدودة من الشعب الهندي الهائل في حملات ساتياغراها. لابد لنقطة الانطلاق أن تكون سوء الأوضاع المحلية، التي كانت واضحة representative إلى درجة أنها قد أثارت انتباه الهند كلها.

10.6 «حدث» أحمد آباد

وهكذا فقد استغرق الأمر أربع سنوات تقريباً إلى أن حصل إضراب النسيج في أحمد آباد، أول حملة ساتياغراها مهمة على الأرض الهندية. وهذا النضال العمالي لا يشير إليه غاندي إلا على الهامش، وقلما لفت الأنظار إليه في الصحافة المحلية. وكان على إيركسون أن يجمع بمشقة الحقائق في صورة دقيقة إلى حد ما. ويعد وصفه الأخاذ جداً والمثير لهذا «الحدث» من الأجزاء العظيمة للمراجع التحليلية النفسية ومن الصعب اختصاره في عدد محدود من الصفحات. فالقارئ يشعر بأنه في داخل الموقف الشديد

الدراماتيكية مباشرة: التوتر العصبي للعمال وأصحاب المعامل، تقلب حالة غاندي بين الهزيمة والتصميم القاتل، ازدواجية المشاعر المطمورة بين مالك المصنع آمبالال ساربهاي Ambalal Sarabhai وأخته، وأخيراً المخرج المحرر للصراع الذي ظل خالياً من العنف كلية.

وكما هو في الغالب فقد كان مصدر الصراع المساومة على رفع الأجر. فبعد الجائحة الشديدة من الطاعون في العام 1917 كان ملاك مصانع أحمد آباد تحت قيادة آمبالال سارابهاي Ambalal Sarabhai غير موافقين على رفع تعويض الحشرات إلى 75٪. أما آنازيا Anasya أخت آمبالال بالمقابل فقد أيدت مطالب العمال. فقد درست الخدمة الاجتماعية في بريطانيا، وكانت ملتزمة منذ القديم بمقاومة ظروف العمل المزرية للعمال في صناعة النسيج. فقامت بإخبار غاندي بالوضع المتوتر في أحمد آباد. فتردد غاندي في البداية. فهل كانت هذه هي اللحظة المناسبة ومادة الصراع الملائمة لتطبيق الساتياغراها بمقدار كبير للمرة الأولى على الأرض الهندية؟ وأخيراً فقد كتب في كانون الأول (ديسمبر) من عام 1917 رسالة إلى آمبالال بطريقته النموذجية الكاسبة، بأنه لا يريد التدخل، وهو لايقصد إلحاق الأذى في الصناعة العظيمة في أحمد آباد ولا يريد التدخل في الشؤون التجارية لملاك المصانع. ولكن أليس بإمكان ملاك المصانع أن يشعروا بأنهم أكثر سعادة لو أنهم دفعوا لعمالهم أجراً أكثر قليلاً؟ وكيف يمكن للأخ أن يكون سبباً في معاناة أخته من جراء ذلك؟

رحب آمبالال سارابهاي بداية بهذا التدخل من غاندي. فقد عانت الصناعة من انهيار كبير في وقت كانت فيه الإمبراطورية في الحرب العالمية الأولى، وعانت الصناعة الهندية من عواقب كارثية. وبالمناسبة فقد كان آمبالال أقرب لغاندي وأخته مما أراد أن يقر به. فقد كان من حيث المبدأ منفتحاً على الأفكار التقدمية، فقد تزوج من خارج طبقته وربى أولاده بطريقة تحررية. ومنذ البداية فقد كان يشعر بالتعاطف مع غاندي ودعمه بكمية كبيرة من المال عند بناء أشرمه. ومن وجهة نظر التحليل النفسي فربما يكون العلاقة بين غاندي وآمبالال -في تنوعها الانفعالي- قد امتزجت بنوع من تعميم

الأخوة. كذلك كانت مشاعر آمبالال تجاه أخته آنازيا أكثر كثافة من بقية الأخوة. فكلاهما قد تيتم في وقت مبكر وتولت آنازيا لفترة طويلة دور الأم بالنسبة لأخيها الأصغر.

وبمهارة ربط غاندي هنا الصراع الاقتصادي مع الأمور الأسرية. ومع ذلك فإنه من الخطأ حسب إيركسون حشر الكثير من التفسيرات لعمليات النقل والإسقاط اللاشعورية في هذه المواجهة. ففي التفكير الهندي فإن الأمر يتعلق بشكل خاص بالفصل الواضح للأدوار داخل الدَّارما الجماعية. فالمشاعر الأخوية شأن، والدور المهني، الذي على المرء القيام به شأن آخر. وبغض النظر عن تعاطفه فقد ظل آمبالال صلباً باستمرار تجاه غاندي وأخته آنازيا، طالما شعر بالارتباط بدَّارماه المهنية الخاصة به. فالخدمة الاجتماعية كانت شأنها هي، أما كسب النقود فقد كان شأنه هو. وقد أبدا عزمه على الصمود في وجه الصراع القائم في أحمد آباد.

وقد عقد ملاك المصانع في أحمد آباد حلفاً نضالياً مع المدراء الصلبين والموالين لهم. فخفض عمال النسيج مطالبهم إلى زيادة مقدارها 50٪ من الأجر، أما ملاك المصانع فقد عرضوا 20٪ فقط، فهدد عمال النسيج بقيادة آنازيا باتخاذ إجراءات قتالية. فمزق أصحاب المصانع أوراق التهديد بالإضراب وطالبوا أمبالال، برد أخته إلى رشدها. فقرر غاندي دراسة الوقائع بصورة دقيقة، وطلب عمل كشف حول الأجور وتفحص ظروف العمل في المصانع. وبعد اختبار ناضج للوضع توصل إلى قناعة مفادها بأن 35٪ من زيادة الأجور ضرورية للعمال، ويمكن تحملها من الصناعة في أحمد آباد وبالنسبة للرأي العالم الهندي فهو حل وسط مشرِّف. فظل أصحاب المصانع بقيادة أمبالال متصلبين وهددوا بمنع العمال من دخول المصنع. لقد بدأت المرحلة الأولى من المواجهة.

ونتيجة لذلك اجتمع حوالي 10,000 من عمال النسيج بقيادة غاندي على قسم احتفالي، بألا يعودوا إلى العمل إلى أن يتم ضمان زيادة مقدارها 35٪ من الأجر اعتباراً من تموز (أغسطس) 1918. فأقسموا في أثناء وقت المنع بألا يقوموا بأي عمل طائش، ألا يقوموا بالسلب والنهب أو تخريب ممتلكات ملاك المصانع أو إساءة معاملة أي

شخص جسدياً. لقد كانت بالنسبة إلى جميع المشاركين لحظة قريبة من الوجد الديني. فقد شعر العمال الذين كانوا في غالبيتهم أميين مرعوبين بشعور من التضامن والكرامة لم يشعروا به قبلاً؛ ولا في يوم من الأيام تحدث إليهم رجل مثقف باحترام وأيد مطالبهم بشكل كلي هكذا. اخترع غاندي من أجل هذه الحملة من الساتياغراها طقساً جديداً. فقد جعل جموع العمال تتجمهر يوميا تحت شجرة- سنط[1] Babul بالقرب من نهر سابارماتي. ويقوم غاندي بتوزيع منشورات بشعارات وهتافات اليوم المعني. وغالبية الآلاف لم تكن تفهمه، إلا أن رؤيته لوحدها كانت تمنح كل الموجودين الشعور الحاضر المقدس. وفي نهاية كل واحدة من هذه التجمعات كان يتم إعادة القسم الاحتفالي. ومن أجل أن يؤكد على تقديره لخصمه، سافر غاندي مع آنازيا وقت شرب الشاي في منزل أمبالال. وقد أصر غاندي على أن تقوم آنازيا بخدمة أخيها. لقد كانت مقابلة مواجهة مملوءة بالاحترام المتبادل.

كانت المنشورات لهذه الأيام الأولى تدور حول سلطة العمال، الذين من دون قوتهم ستتوقف عجلة المجتمع عن الدوران فوراً. والعمال يُسخِّرون قوة عملهم وملاك المصانع المال والموارد. كلاهما شركاء بالحقوق نفسها في درَّاما مشتركة. وبصورة مختلفة عما هو الأمر في أوروبا لا ينظر للعامل في الهند أبداً على أنه مجرد أداة اقتصادية. فمنذ فجر البشرية عاش الخدم والأسياد في ارتباط إنساني معاً. وكانت النزاعات بينهم تحل سلمياً، فلم يحتاج الأمر لنضال عمالي ولا وسطاء.

وفي كثير من اللحظات أحس غاندي بعبء المسؤولية عن هؤلاء الرجال وعائلاتهم، الذين وثقوا فيه بصورة عمياء. والإضراب المستمر لفترة طويلة لا يناسب العقلية الهندية. وللمرة الأولى يدرك بشر بلا حقوق تقريباً قوتهم. فما الذي قد يحصل لو أنه تم دفع العمال للتحدي والتجاوزات؟ وليس على سبيل الصدفة أن احتوت المنشورات في المرحة الأولى على تحذيرات متكررة، بألا ينساقوا للشائعات، عدم الحقد

(١) نوع من الشجر يستخرج منها الصمغ العربي

على أصحاب المصنع وعدم رفع المطالب أعلى بأي صورة من الصور. وفي الواقع كانت مهمة صعبة جداً، إقناع حشد من الأميين، في غالبيتهم من المسلمين، بسلطة المقاومة اللاعنفية وضبط النفسي بين آلاف الناس.

وكلما طال نضال العمل، ازداد الموقف صعوبة. وصرف الناس مدخراتهم، وبدأ الجوع يدب في أوائل الأسر العمالية. وكذلك استجاب أمبالال بتوتر ولجأ لإجراءات لم تكن متفقة مع قيمه. فقد جعل أصحاب المصانع ينثرون الشائعات بأنه سيتم قريباً رفع منع العمال من دخول المصنع، إذا ما تنازل العمال. وتم وعد ذلك الذي يستطيع إقناع خمسة من الزملاء بالعودة للمصانع بجائزة خاصة. وكما هو الحال أيضاً في كل حملة ستياغراها فقد ظهر الضعف المعنوي للجبابرة. فقد أعلن أصحاب العمل نهاية المنع في 11 آذار (مارس) وزيادة أكبر في الأجر. شعر غاندي بأن المرحلة الحرجة قد أتت. فلو استسلم العمال وعادوا للعمل في حشود غفيرة فسوف يفقدون سندهم. فكانت الحملة وبالنتيجة مستقبل الساتياغراها في كل الهند على كف عفريت.

دعا غاندي إلى اجتماع في 11 آذار (مارس) تحت شجرة السنط في الساعة السابعة والنصف، الوقت الذي يفترض فيه أن يعاد فتح أبواب المصانع. وجه غاندي نداء إلى العمال: إذا ما لم يفوا الآن بقسمهم فسوف يفقدون أية فرصة للتغير على المدى البعيد. بل أنه سوف يتأكد أن العمال ضعفاء وبلا مبادئ، ويمكن رشوتهم بالنقود في أي وقت. كما أن أصحاب المعامل على المدى البعيد لا يحترمون العامل الضعيف الذي لا يفي بقسمه. غير ذلك لم يمارس غاندي أي ضغط آخر وأكد لكل شخص ينهي الإضراب بمرافقته شخصياً مروراً من أمام حراس الإضراب إلى المعمل. لقد تمكن من الاستمرار في تحريك العمال في سبيل أمر مشترك. لقد بدأت المرحلة الثانية من كفاح العمال، الإضراب الفعلي. فقد نصح غاندي العمال باستغلال الوقت بشكل مفيد، بزراعة الحديقة، تصليح البيوت، بإيجاد انشغال ثانوي، وهي اقتراحات لم يكن من السهل تقبلها من الهندي كما هو الحال بالنسبة للأوربي. فالقيام بدور عمل خطأ يمكن أن يؤذي الدَّارما الخاصة.

ومع ذلك فقد ساء مزاج العمال المضربين في الأيام التالية. وبعضهم استدان المال بالربا، لإطعام أسرته. وانتشر الجوع واليأس. وازدادت توتر غاندي أيضاً، فوصف تكتيكات أرباب العمل في منشوراته بالمشينة. فلو كان الدَّراما يشعر بالواجب المتبادل، لما أوصلوا عمالهم إلى حافة الموت جوعاً. وبدأ كثير من العمال التذمر أمام غاندي وآنازيا، الذين مروا من أمامهم بسيارة اللاندروفر ويمتلكون الكفاية من الطعام. وفي 15 آذار (مارس) تقلص اجتماع العمال إلى حدود الألف مشارك. وفي كل مكان لم ير المرء سوى الوجوه اليائسة. فأحس غاندي بأنه لابد له نفسه من أن يعطي مثالاً، لإخراج المضربين من تبلدهم. وفجأة وبصفاء يصعب التعبير عنه أعلن غاندي أنه لم يعد يتحمل أن يكسر العمال قسمهم، وبعدئذ أقسم احتفالياً بأنه لن يتناول الطعام، إلى أن يتم تحقيق مطالب العمال برفع الأجور إلى 35٪. وفي مقتضى الحال لابد للمرء أن يكون مستعداً، للموت في سبيل مبادئه. وما زال حتى الآن من غير الواضح فيما إذا كان هذا النذر مرتجلاً أم أنه كان موجوداً مسبقاً في التصور الفكري لغاندي. وعلى أية حال صحا الاجتماع مثل الصحوة من حالة غشوة. وفي هذه اللحظة أصبح غاندي ذلك الذي عليه أن يتحمل التضامن حتى أقصى حد مع أزمة العمال. لقد كانت لحظة تاريخية: أول إضراب عن الطعام لغاندي في سبيل قضية سياسية. ومن المؤكد أن قسمه تحت الشجرة لم يكن ليقارن بعد مع ستة عشر «صيام حتى الموت»، حيث حبست الهند كلها أنفاسها وأشعل كثيرون الشموع ليكونوا قريبين من المهاتما في العتمة. ومع ذلك فقد كان غاندي في آذار (مارس) 1918 عازماً على المخاطرة للمرة الأولى على الأرض الهندية.

بدا الصيام بالنسبة لأرباب العمل مهزلة في البداية، خطوة أخرى غامضة للمتعصب. أما العمال بالمقابل فقد كانوا مشحونين بحماس جديد. وكالنبي خاض غاندي عبر نهر سابارماتي نحو المضربين، الذين أنصتوا بكل حواسهم له كالمسحورين. وفي منشوره الخامس عشر أعلن أن الصيام ليس وسيلة ابتزاز، ولا يجوز استخدامه ليصبح عادة. ما يهمه هو قيمة الوعد المقطوع مرة. وهو نفسه مستمتع بشكل لانهائي

بالصيام. استجاب أمبالال بارتباك وتوتر. فما علاقة صيام غاندي بالإضراب؟ غير أن غاندي تعرض بعد قراره إلى تأرجحات في المزاج. فهل غرق في قاع مساومة- البانياني banian (التاجر)؟ ألم يستخدم صيامه كوسيلة ضغط إضافية، وهو ما لم يكن جديراً بكفاح سانتياغراها. وهل سيتنازل أرباب العمل خوفاً على حياته، وليس في سبيل القضية؟

مرت عدة أيام عصيبة. وأخيراً وزع أمبالال صيغة لحل وسط؛ فحالة غاندي الخائرة لم تترك لهم خياراً. في اليوم الأول يتم دفع 50٪ للعمال، وفي اليوم الثاني 20٪. أما الباقي فلابد وأن يقرره حكم مستقل. ولا يكون أي طرف هنا قد خسر. وتقبل غاندي هذا الاقتراح بريبة؛ فقد تحقق الوعد في نصه، ولكن ليس في روحه. ومع ذلك فقد أعلن في 18 آذار (مارس) أمام حشد هاتف من المضربين الحل المنوي بصورة أقرب للبرود، لينهي بعد ذلك صيامه. وكان أرباب العمل قد أعدوا عربات مملوءة بالحلويات للحشود. وتم التطواف بغاندي وأنازيا في مسيرة احتفالية عبر أحمد آباد. ولاحقاً ألقى غاندي كلمة بحضور أمبالال وأكد على أنه لم يشهد أبداً مواجهة بتقدير متبادل كبير بهذا الحجم. وتستطيع الهند كلها أن تكن فخورة بعمال مصانع أحمد آباد.

وربما يرى المرء في نتيجة الصراع في أحمد آباد على أنه حل وسط ضعيف ومن المؤكد أن هذا الكفاح العمالي لم يكن ليقارن بحملات غاندي اللاحقة عبر الهند، التي جعلت الرأي العام العالمي يقف شاهداً مشدوهاً. ومع ذلك فإن إيركسون يعتقد أن حادثة أحمد أباد نوعاً من البروفة المسرحية للنشاط اللاحق كمحرر للهند. والنتيجة المباشرة لكفاح العمال كان تأسيس نقابة العمال الهندية، أفضل نقابة منظمة في الهند حتى اليوم.

فقد تجلت في حادثة أحمد آباد حسب إيركسون قواعد حملة الساتياغراها بكل تفاصيلها. فلا يجوز للإنسان الادعاء بأنه يريد حل كل الصراعات الممكنة بهذه الطريقة. فالساتياغراها لابد وأن تستخدم في المشكلات السياسية والاجتماعية فقط، التي تؤذي بدرجة كبيرة احترام الإنسان لنفسه وكرامته، وبشكل رمزي للصراعات الشبيهة من

(من نحو الضرائب المفرطة، مشروع قانون غير عادل، نضال عمالي على سبيل المثال). وقبل هذا لابد من تفحص كل الوقائع بدقة وبصورة غير متحيزة. وعلى المرء أن يخبر الخصم مسبقاً بمقاصده وإستراتيجيته الخاصة وأن يحاول بالتعاون معه من أجل الوصول إلى حل للمشكلة. وبداية عندما يفشل هذا يلجأ الإنسان إلى الستياغراها كوسيلة أخيرة. ولابد من أن يتم اختيار الساتياغراهايين أن يكونوا أحراراً في اختيارها وأن يضعوا حداً أدنى غير قابل للاختزال كهدف، لا يتراجعون عنه وأن يكونوا مستعدين لتقديم تضحيات غير محدودة. المهم هو أن يكون العمل مخططاً بشكل جيد، وأن يمتلك الستياغراهيون الثقة بالنفس وتقدير قواهم الذاتية بشكل صحيح. وعند الهزيمة قد يشوه الإنسان نفسه والأداة. ولا يجوز على الإطلاق للمرء الرجوع إلى ما دون الهدف الذي يحدده بنفسه وأن يكتفي بنصر متعجل. كذلك لا يجوز للمرء أن يرفع من حدة مطالبه إذا كسب الأساس. فسوف يجعل المرء الساتياغراها متناقضة وموءودة.

لابد للحركة أن تمتلك دائماً زمام المبادرة؛ فلا يجوز لها أن تسمح لنفسها بأن تتأثر بالآخرين ولا أن تقبل المساعدة الخارجية. ويتم التوقف عن النضال بمجرد تحقيق الهدف. ولابد للساتياغراهي أن يكون مستعداً دائماً للإقرار بأخطائه أو الاعتراف بتغير التفكير عند الخصم. فإذا ما انزلق الخصم تحت إلحاح الجانب الآخر، فإنه من الواجب دعمه بأفضل القوى. ولابد من معاملة الخصوم في أثناء كل الكفاح باحترام شديد. فلابد من عدم استغلال المعاناة الذاتية بشكل انتقامي. على الساتياغراهيين تحمل غضب أو محاولات الرشوة من الخصم بانضباط، وتقبل العقوبات أو السجن على نفس القدر من الشجاعة. والمبدأ الأساسي هو عدم الاستجابة بأي شكل من الأشكال بالعنف. وبالنتيجة لابد للساتياغراهي أن يكون مستعداً أن يعاني بلا حدود من أجل هذا المبدأ بل وحتى أن يموت.

وبعد سنة من حملة أحمد آباد دفع غاندي للقيادة الوطنية. ففي السادس من نيسان (أبريل) من عام 1919، «الأحد الأسود» دعا إلى «هارتال Hartal»، أي إغلاق كل المحلات وأماكن العمل احتجاجاً على «القانون المضاد للعصيان». وللمرة الأولى

استطاع غاندي جعل البلد كله يسير خلفه في حملة ساتياغراها ضد السلطات الاستعمارية البريطانية. وسبب اعتقاله شغباً مع ضحايا. وفي الجو الهائج عموما حصلت في 13 نيسان (أبريل) مذابح جاليانوالا باغ Jallianwalla Bagh. فالجنرال الإنجليزي داير Dyer أمر بإطلاق النار على حشد من آلاف الناس غير المسلحين. وكان لابد لغاندي من الإقرار أن الوقت لم يحن بعد من أجل عمل وطني كبير. إذ يحتاج الأمر إلى تحضير وانضباط أكبر، وأكثر من هذا نشطاء مدربين.

وفي هذا الوقت كان نجم غاندي قد لمع في الهند. فقد ولاه المؤتمر الوطني في عام 1920 القيادة. ويعتقد إيركسون أنه من بين كل السياسيين يبدو ثانية أنه الوحيد القادر على حل مهمة النضال الاستقلالي الذي بدأت ملامح العنف تظهر فيه. وفي عام 1922 حكم على غاندي بالسجن لمدة ست سنوات بسبب تحريضه على العصيان العام، إلا أنه أطلق سراحه بعد ثلاث سنوات. وبين عامي 1925 و1929 انسحب غاندي سياسياً. فقد تحطم الاتفاق بين الهندوس والمسلمين، فعاني غاندي لفترة من المرض واليأس. فكتب في سيرته الذاتيه أنه انسحب ولجأ للعبادة والتأمل والعمل على نول النسيج. ويعتقد إيركسون أن غاندي قد عانى هنا من طور الركود، ولفترة طويلة كان هناك خطر أنه لم يظل ماهتما إلا بالمعنى الديني فحسب. إلا أنه بعد ذلك عاد ليتولى في حوالي نهايات العشرينيات نشاطه السياسي الإصلاحي.

ففي آذار (مارس) ونيسان (أبريل) من عام 1930 حصلت «مسيرة الملح» المشهورة، أشهر مظاهرات المقاومين اللاعنفية في القرن العشرين. فقد كان فرض الضرائب على الملح إجراء قمع مستنكر، حيث أصاب أفقر الفقراء في الصميم. فقد تم منع شعب من حقه في استخراج مادة ضرورية للحياة من شواطئ بلده. فقام غاندي انطلاقاً من أحمد آباد بتنظيم رحلة حج متزايدة باستمرار، مروراً من شعب متحمس وشرطة مسلحة بشدة. وفي نهاية الطريق أخذ وبشكل احتفالي قبضة من الملح من بحر العرب، ليتم اعتقاله بعد ذلك بفترة وجيزة. وعندما حاول 2500 من أتباعه احتلال مصنع الملح في داراناسانا Dharasana، تم ضربهم بعنف من الشرطة المسلحة بشدة،

حتى من دون أية علامة على رد العدوان. وبارتباك نشرت الصحافة العالمية تصادم الإرهاب الموجه من الدولة مع مناضلي السلام المستعدين لكل أنواع المعاناة. ومنذ الآن لن يعد بالإمكان إيقاف مسيرة النصر لغاندي. وبعد وقت قصير لاحق تواجه مع ممثل ملكة بريطانيا اللورد إيرون Lord Irwin. فسمع تشرشل عن الفقير نصف العاري. وقد وصف إيروين مقابلته مع غاندي بأنها إحدى أهم اللقاءات غرابة في حياته. لقد أصبح غاندي شخصية رمزية مشهورة عالمياً في النضال ضد الاستعمار. وفقدت أوروبا واجهتها الأخلاقية في آسيا إلى الأبد.

10.7 قرب إيركسون من حقيقة غاندي

خصص إيركسون القليل من الصفحات لسيرة المهاتما اللاحقة. فلم يعد غاندي يجني ثمار عمله. فبعد احتفال الاستقلال في عام 1947 أمل في تحقيق تسوية سلمية بين المسلمين والهندوس وعرض على المسلمين بمحض إرادته الكثير من المناصب الحكومية قدر الإمكان. فبعد أن انسحب العدو المشترك الآن ازدادت التوترات بين الجماعات الدينية. وكادت المذابح التالية بين المسلمين والهندوس تقترب من كوارث القرن العشرين. فألقت بظلالها على شخصية غاندي وجعلت وسيلته السلمية غير محبوبة. ربما حصل استقلال الهند بصورة أبكر من اللازم، وربما قلل غاندي من أهمية غضب العنف المتراكم في بلد ظل مقموعاً لفترة طويلة. ومن المؤكد فإن الهند كانت ستتحرر من الاستعمار حتى من دون غاندي، مع العلم أنه يعتقد أن الأمر كان سيتطلب ضحايا أكبر. وبالطبع فقد أثرت روح غاندي على مناضلي الحرية الحديثين في كل العالم، وأورث فكرة التضامن العالمي في الوعي الإنساني. ومع ذلك فقد استمر استغلال العالم الثالث حتى بعد انتهاء زمن الاستعمار، واستمر لولب العنف في القرن العشرين بالتصاعد. فقد تم نصب أسلحة ذات قوة تدميرية لا يمكن تصورها بتكاليف لا يمكن تقديرها في كلا المعسكرين القويين. ومنذ ذلك الوقت يتعلق مستقبل الجنس البشري كله بدقة أنظمة القيادة الموجهة بالكمبيوتر. وأصبحت المواجهات العسكرية في هذه

الأثناء أكثر رسمية وأكثر أتمتة. كانت طريقة غاندي مخصصة للخصوم الذين وقفوا أمام بعضهم وجهاً لوجه. فكيف يفترض لمناضلي الساتياغراها اليوم إقناع امتلاك القاذفات بعيدة المدى أو قاعدة صورايخ بنواياهم اللاعنفية؟ أين ما تزال توجد اليوم مثل عليا فائقة مثل المهاتما غاندي قادرين على استثارة مثل هذه الأشكال من الاستحواذ الديني والانضباط الخالي من العنف؟

وعلى الرغم من أن تأثير غاندي قد يبدو في عالم اليوم مستحيلاً إلى حد ما، فإنه يعد من واضعي مبادئ تطور الإنسانية، التغلب على الاستعراق[1] ethnocentric العدواني وتطوير هوية إنسانية مشتركة. وعلى ما يبدو توجد صلة قوية بين إنسانية إيركسون وطريقة غاندي. ويبدو أن إيركسون يحس بأنه يكمن خلف أسلوب غاندي منطقاً أولياً ومرشداً. أليس من الحكمة أكثر حل التناقضات بالحب والاحترام المتبادل بدلاً من استثارة سلاسل من ردود الأفعال من الكره التصعيدي باستخدام العنف؟ أليس على الإنسانية أن تضع نصب عينيها بالنظر لإمكانية الإسراف الذي يبلغ بالمليارات، بصورة متطرفة بدائل أخرى من حل الصراعات، للحصول على فرصة في البقاء عموماً؟.

تكمن حقيقة غاندي بالنسبة لإيركسون في الامتناع الذي لا يلين عن إلحاق الأذى بالناس الآخرين في حالة الصراع، والألم الجسدي وكل أشكال التبخيس والتهديد والقهر والتجريم. فكل هذا يزيد الخوف والشك والغضب ويقود إلى النزعة للانتقام. ولكن إذا ما توجهت للخصم بانفتاح كلي واحترام فإني سأعثر لديه على بقايا من سعة الأفق والتبادلية، وعندئذ أساعده على حلحلة الوضعيات الدفاعية المستنزفة وميول الامتناع وأحرر طاقات من الثقة والتصالح.

والعدل بالنسبة لغاندي هو ألا يلحق فريق الأذى بالآخر. ويتحدث غاندي عن «تجارب مع الحق». على المرء الاقتراب في العمل من الحق المتضمن في صراع ما بالتدريج،

---

(1) التمركز حول العرق بوصفه غاية من الغايات، أو الاعتقاد بأن العرق الذي ينتمي إليه الفرد عرق أسمى من سائر الأعراق.

إلى أن يتم إلهامه أخيراً من «صوت داخلي». فقط من خلال الصبر الاختياري على تحمل آلام الذات تتاح الفرصة لكلا الجانبين لجعل القضية باعثة على الرضا ومثمرة؛ وفي النهاية لا يجوز أن يكون هناك رابح وخاسر، أخلاقياً أفضل أو أسوأ. وكل إملاءات السلام أو الاتفاقات المفروضة بالعنف ليست حلاً حقيقاً للصراع. بل على العكس: إنها تنتج الغضب والاستياء عند الخاضع، خليط من الاستقامة المنافقة ومشاعر الذنب الكامنة لدى المنتصر. وسلسلة الحلول الوسط الضعيفة سوف تعطي دائماً سبباً لصراعات جديدة ويُغرَس القتل والعنف بطريقة مأساوية من جيل إلى جيل.

من المؤكد أنه قد تم التطرق لهذه الأفكار في التعاليم الأخلاقية للأديان العالمية. إلا أن غاندي كان هو من طبق في الواقع مبدأ اللاعنف في القرن العشرين بصورة حازمة بما لا يشبهه أي شخص آخر. ويتساءل إيركسون هل الستياغراها بعيدة عن الواقع بالفعل، بعيدة عن قرارة النفس البشرية؟ ربما يكون في الموروث الإنساني استعداد غامض للمواجهات اللاعنفية بالارتباط مع طقوس السلام للحيوانات العليا، مع المواجهات من دون أذى جدي للخصم. فهل أنجز غاندي من خلال السانتياغراها طقساً جديداً لحل الصراعات، يتيح للناس التمكن من الإقبال على بعضهم بثقة متبادلة، بما يشبه أمن الغريزة، المغروسة في الطقوس السلمية للحيوانات الاجتماعية؟ وأليست طريقة فرويد أن يتصالح الإنسان مع انفعالاته الداخلية والحكمة الأخلاقية Moralism البدائية، مساهمة على هذا الطريق التطوري من التفاهم التدريجي لمختلف البشر، الشعوب والأعراق؟ ويقر إيركسون: «عندما بدأت بكتابة هذا الكتاب لم أتوقع أن أعيد اكتشاف التحليل النفسي في مفاهيم الحق، وألم النفس واللاعنف. إلا أنه يشعر اليوم» بعلاقة بين حقيقة غاندي ورؤى علم النفس الحديث (1978 «أ»، صفحة 526).

وبما يشبه كتاب غاندي يحاول إيركسون أظهار تقاطعات بين فرويد وغاندي. ففي انعكاس غريب لأدوار الغرب والشرق فإن غاندي في الوقت الراهن «مثلاً أعلى

للفعالية[1] activism في ثقافتنا، في حين طور التفكير الغربي تقنية جديدة للاستبطان» (1978 «أ»، 271). ويرى إيركسون أن التحليل النفسي كذلك يعالج العنف -ولكن مع «العدو الداخلي»، مع الدوافع المرفوضة والرغبات- وينادي بالانفتاح المتطرف للمريض وتجنب كل حكم أخلاقي من جانب المعالج. وبالحفاظ على المساواة المطلقة يضع المحلل نفسه في العالم الداخلي للمريض ويحافظ على تقديره لنفسه، مهما كان يحتوي هذا العالم الداخلي. وهذا يتطلب مساع وانضباط غير عاديين، وحتى في هذا الأسلوب يقتر المرء ببطء من الحق الذي إذا ما تم كشفه، يؤثر بصورة محررة للطرفين.

ولا يمكن إخفاء ميل إيركسون لمصالحة كلا الأبوين الروحيين في كثير من الفقرات. ومما لاشك فيه توجد تقاطعات بين الاستبطان التحليلي النفسي وتقنية المواجهة اللاعنفية. ولنترك مسألة هل كان فرويد المرتاب ليوافق على مثل هذه المقارنات. فكمحلل نفسي فإن إيركسون قد تعرف على الكم الكبير من المخاوف اللاشعورية وهيجانات الكره، التي تجعل الصراعات تتصاعد بسرعة كبيرة بطريقة هدامة. ومعالجة تناقضاتنا الداخلية في العملية التحليلية النفسية هي عملية شاقة ومستنزفة للوقت بصورة كبيرة. وشخصية مثل غاندي الذي استطاع لوحده من خلال كاريزما شخصه بضربة واحدة تحقيق التبصر والتصالح، يمتلك قياساً على ذلك شيئاً ما أخاذاً. لقد انتقد النقاد إيركسون مراراً بأن وثبات أغوار اللاشعوري تصل بتسرع كبير إلى الأخلاق المثالية. وفي الحقيقة فإن إيركسون لا يوضح كفاية أين تكمن حدود الطريقة اللاعنفية. على المرء أن يأخذ بعين الاعتبار أن غاندي قد نشط في ثقافة جبرية وما زال يتعامل مع خصوم معتدلين بالمقارنة. فهل اللاعنف مازال وسيلة صحيحة في النضال ضد الدكتاتوريين الهدامين إلى أبعد مدى؛ هل يستطيع المرء بهذا إيقاف أطراف الحروب الأهلية المسعورة على بعضها البعض؟

(1) مذهب الفعالية: مذهب يؤكد على ضرورة اتخاذ الإجراءات الفعّالة أو العنيفة (كاستعمال القوة لتحقيق الأغراض السياسي.

حتى عند تحضيره كتاب غاندي لفت إيركسون الأنظار في مقاله بعنوان: «حول جوهر البراهين التاريخية النفسية»[11] إلى عدد كبير من عمليات النقل اللاشعورية والإسقاطات، التي تحرك العالم للاهتمام بهذه المادة أو الشخصية التاريخية بالذات بشكل أكثف. وهو لم ينكر إعجابه الشخصي بغاندي وقارنه مراراً بالمسيح أو فرانسيس الأسيزي[1] Francis of Assisi ولكن بصورة شبيهة لكتاب لوثر لم يكشف كثيراً عن نقله المعاكس فيما يتعلق بالمهاتما غاندي. فهل غاندي الأب المثالي لطفولته؟ أيتماهى بالسر مع أتباع غاندي في معتزله (الأشرم) الذين هم في مرحلة ما بعد المراهقة؟ وألم تكن المقاومة السلبية موقفاً مارسه إيركسون كراشد بنفسه بشكل كبير كفاية؟.

مما لاشك فيه فإن إيركسون لم يتجنب خطر التقديس (المثلنة)، عندما على سبيل المثال يخاطب المهاتما بصيغة المخاطب المفرد «أنت»، وكأنه مازال يعيش بيننا. ومن ناحية أخرى فهو ليس شاباً خاضعاً بأي شكل من الأشكال، يشعر المرء أحياناً بين السطور جزء من الضيق والانزعاج. ففي وسط الكتاب يلجأ إيركسون إلى مُحسِّنات غير مألوفة بكتابة رسالة متخيلة إلى غاندي. ويقر بصراحة بأنه قلما كان في بعض الأحيان قادراً على مواصلة الكتابة، لأنه في استناد غاندي الوجداني على الحق «اعتقد أنه لمس حاضر نوع غير مفهوم من اللاحق» (1978 «أ» صفحة 273). وقد ظهر في صرامة غاندي الأخلاقية الكثير من العنف المكبوت ضد ذاته هو والآخر. فعلى سبيل المثال تتجلى سادية مستترة من التعابير التي يربط فيها اشمئزازه من الدوافع الحسية مع اتهاماته ضد النساء والأطفال. وبلا هوادة أكثر من السير التاريخية الأخرى يستخلص إيركسون مدى الضغط الذي لابد وأن تكون كاستوربا وأبناءه الأربعة من أخلاقيته. فابنه الأكبر هاريلال Harilal على سبيل المثال انتهى كفاشل بشكل مأساوي. كما ينتقد إيركسون مدى اغتصاب غاندي لحياة أتباعه، وأنه كان يميل إلى النظر للناس القريبين منه «كملكية خاصة وكأعمدة تشنيع شخصية» (1978 «أ» صفحة 288)، وكذلك

(1) فرنسيس الأسيزي، القديس (1182 ـ 1226): راهب إيطالي. مؤسس الرهبانية الفرنسيسكانية.

نقص استعداد غاندي لقبول شيء ما من أي شخص أو التعلم منه، إلا «إذا أعطاه صوته الداخلي موافقته» (1978 «أ» صفحة 289). ولا يعتقد إيركسون أنه لا يجوز أن تظل الساتياغراها مقتصرة على النساء والرجال المتنسكين فقط، الذين يعتقدون «أنهم لا يستطيعون التغلب على العنف إلا بالتجرد (الذاتي) الجنسي» (1978 «أ»، صفحة 227). إذ لم يعد يكفي أن يكون المرء فاضلاً moralist حاد الملاحظة. بداية التبصر النفسي العميق في تناقضاتنا وصراعاتنا اللاشعورية تجعلنا مستعدين فعلاً داخلياً للستياغراها. وكثير من نقاط انتقاد إيركسون صحيحة ومعقولة، على الرغم من أنه نفسه يسقط في رسالته في نغمة ذات وقع أخلاقي. بالإضافة إلى أنه يغلب لدى إيركسون بعد أن فرغ غضبه المتراكم من روحه، الاحترام المعجب.

من المؤكد فإن «حقيقة غاندي» تشكل جزءاً عظيماً من المراجع التحليلية النفسية. فقد حصل إيركسون على جائزة بوليتزر Pulitzer لأسلوبه اللغوي الممتاز. فهو يتقن أكثر مما هو الحال في سيرة حياة لوثر وصف غاندي كمخلوق متدين، تسمو قوته وحضوره الديني على إي نمط تفسير علمي. ومع ذلك فإن إيركسون لا يريد ولا يستطيع نكران هويته التحليلية النفسية ويطرح تكهنات حول المنافسة الأوديبية لغاندي مع والديه وحول مكبوتات دوافعه وآليات دفاعه. وهذا يعني: إن المعارف التحليلية النفسية حول اللاشعور ومراحل دورة الحياة هي رفاق طريق لإيركسون، وفي كثير من الفقرات تبدو وصوفات الحقائق التاريخية متداخلة مع التفسيرات التحليلية النفسية. يضاف إلى ذلك أنه من المفيد أن إيركسون قد ابتعد إلى حد كبير عن محاولات التفسير التحليلية النفسية البسيطة، التي ربما لن تكون منصفة بحق العظيم غاندي والإحساس الهندي المختلف بالعالم. إن إلقاء غاندي للسلاح ليس «خصاء ذاتياً» رمزياً، وعمله على نول الغزل ليس عرضاً «لتشتت خنثوي bisexual». وعندما يأخذ غاندي الملح من البحر، فإن هذا ليس رمزاً «للنطاف»، التي يريد من خلالها إعادة منح الشعب الهندي «فحولته potency». ويذكر إيركسون مثل هذه المحاولات من التأويل إلا أنه يبتعد عنها على الأقل في نبرة تهكمية.

وليس من المفاجئ، أن كتاب إيركسون ينطلق من مخطط، من تصور، أن غاندي قد شعر بمقومات عظمته في وقت مبكر، بأنه يحمل رسالة في ذاته وأنه قد كان شبه مرسوماً له منذ الطفولة أنه سيصبح ماهتها. وكثيراً ما يتحدث إيركسون عن «المكانة الخاصة» لغاندي في أسرته، وعن «الصوت الداخلي»، الذي كان يعطي غاندي في اللحظات الحرجة من حياته القرار السليم، وعن قناعة مترسخة باطراد، «الوحيد القادر» على حل مثل هذا النوع من المشكلات. والسؤال المطروح هو فيما إذا كانت مراحل حياة غاندي قد تراتبت على بعضها بهذا الشكل المنطقي أم أن إيركسون يخلق نموذجاً مغلقاً في ذاته ويبدو معقولاً. وكل شيء يدور في عرض إيركسون حول حادثة أحمد آباد. فلو كان قد فشل غاندي هنا، هذا ما يفترضه إيركسون بصورة ضمنية، فلسوف تذهب كل رسالته في مهب الريح. ولكن هل كان إضراب النسيج في أحمد آباد بالفعل الموقف المفتاح في سيرة غاندي، على الرغم من أنه لم يذكر في السير الأخرى إلا على الهامش ولم يظهر أيضاً في فيلم ريتشارد آتينبورغ Richard Attenborough حول غاندي؟ هل استخدم غاندي قبل أحمد آباد في حملة شامباران Champaran الساتياغراها على الأرض الهندية؟ وألم يحدث الاختراق إلى قائد وطني بداية في الهارتال Hartal الذي شمل كل البلد في نيسان (أبريل) 1919؟

لماذا لم يستمر إيركسون بالمتابعة بعمق للاندماج التدريجي للمهاتمية وصولاً إلى النجاح المذهل لأربعين سنة؟ وبشكل مشابه لما هو الأمر في كتاب لوثر تنتهي الدراسة في سن الرشد المتوسط، ولا يخصص إيركسون لأزمة الاندماج لغاندي الكبير في السن إلا بضع صفحات. فهل لا يريد أن يرهق الحدث المشع لأحمد آباد كثيراً بالأحداث المأساوية في نهاية حياة غاندي؟ أليس من واجب المحلل النفسي فهم مجرى الحياة كله لشخصية تاريخية، والانتصارات وكذلك الجوانب السوداء؟ فقد أنجز إيركسون من جهة نموذج نمو شامل لنمو الشخصية منذ الولادة وحتى الموت. ولكنه لم يستغل من ناحية أخرى في سيرتيه التاريخيتين حول لوثر وغاندي الفرصة بشكل كاف، لتوضيح مراحل الحياة الثمانية كلها من خلال مصير حياة شخصيتين تاريخيتين عظيمتين.

هوامش الفصل العاشر:

(i) مقتبس عن إيركسون 1978 «أ» صفحة 195.

(ii) في تاريخ الحياة واللحظة التاريخية 1982 «أ»، 115-174.

المصادر والمراجع

Adams, E. C. (1977), Das Werk von Erik H. Erikson, in: Eicke, S. 301-347

Adler, A. (1972), Über den nervösen Charakter. Grundzüge einer vergleichenden Individualpsychologie und Psychotherapie, Frankfurt a. M.

Adorno, Th. W. (1955), Zum Verhältnis von Soziologie und Psychologie, in: Soziologica. Frankfurter Beiträge zur Soziologie, Bd. 1, S. 11-45, Frankfurt a. M.

Alexander, N. C. und Lauderdale, B. (1977), Situated Identities and Social Influence, in: Sociometry 40, S. 225-233

Amati, S. (1990), Die Rückgewinnung des Schamgefühls, in: Psyche 44,2, S. 724-740

Arenz, B. (1980), Leben und Werk des Psychoanalytikers Erik Homburger Erikson, Dissertation, Universität Mainz

Baacke, D. (1971), Psychoanalyse als Ethik und Sozialwissenschaft, in: Merkur 5, S. 494-497

Baacke, D. (1983), Die 13- bis 18jährigen. Einführung in die Probleme des Jugendalters, Weinheim

Baacke, D. (1987), Jugend und Jugendkulturen. Darstellung und Deutung, Weinheim und München

Bainton, R. H. (1973), Luther und sein Vater, in: Zeitwende 6, S. 393-427

Balint, M. (1966), Urformen der Liebe und die Technik der Psychoanalyse, Bern und Stuttgart

Baltes, P. B. und Schaie, K. W. (1973), Hrsg., Life-Span Developmental Psychology - Personality and Socialisation, New York und London

Bauer, M. (1982), Identität und Lebensalter, Dissertation, Universität Wien

Baumgart, M. (1991), Psychoanalyse und Säuglingsforschung: Versuch einer Integration unter Berücksichtigung methodischer Unterschiede, in: Psyche 45,2, S. 780-809

Bauriedl, T. (1984), Geht das revolutionäre Potential der Psychoanalyse verloren? Zur politischen Bedeutung der Psychoanalyse und zum politischen Engagement der Psychoanalytiker, in: Psyche 38,1, S. 489-515

Becker, A. M. (1957-58), Kindheit, Gesellschaft und Identität. Zu E. H. Eriksons Kindheit und Gesellschaft, in: Psyche 11, S. 821-830

Benedek, T. (1959), Parenthood as a Developmental Phase, in: Journal of the American Psychoanalytic Association 7

Benedetti, G. und Wiesmann, L. (1986), Hrsg., Ein Inuk sein. Interdisziplinäre Vorlesungen zum Problem der Identität, Göttingen

Benedetti, G. (1986a), Identität in der Lehre von Erikson, in: Benedetti und Wiesmann, S. 65-78

Benedetti G. (1986b), Die Identität der Verfolgten und Heimatlosen (Konzentrationslagerinsassen) in der Kriegszeit, in: Benedetti und Wiesmann, S. 163-175

Benedetti, G. (1986c), Der Identitätsverlust in der schizophrenen Psychose, in: Benedetti und Wiesmann, S. 224-238

Benoist, J.-M. (1980), Hrsg., Identität. Ein interdisziplinäres Seminar unter Leitung von Claude Le'vi-Strauss, Stuttgart

Bergius, R. (1972), Entwicklung als Stufenfolge, in: Thomae, H., Hrsg., in: Handbuch der Psychologie, 3. Band, Entwicklungspsychologie, Göttingen

Besser, R. (1977), Leben und Werk von Anna Freud, in: Eicke, S. 130-181

Blanck, G. und R. (1978), Angewandte Ich-Psychologie, Bd. I, Stuttgart

Blanck, G. und R. (1980), Ich-Psychologie Bd. II, Stuttgart

Blos, P. (1973), Adoleszenz. Eine psychoanalytische Interpretation, Stuttgart

Böllinger, L. (1979), Psychoanalyse und die Behandlung von Delinquenten, Heidelberg und Karlsruhe

Bohleber, W. (1992), Nationalismus, Fremdenhaß und Antisemitismus. Psychoanalytische Überlegungen, in: Psyche 46,2, S. 689-709

Bornkamm, H. (1969), Luther und sein Vater. Bemerkungen zu Erik H. Eriksons "Der junge Mann Luther. Eine psychoanalytische und historische Studie", in: Zeitschrift für Theologie und Kirchengeschichte 66, S. 38-61

Bowlby, J. (1959-60), Über das Wesen der Mutter-Kind-Bindung, in: Psyche 13, S. 415-456

Boxberg, F. v. (1977), Analytische Feldforschungen, in: Eicke, S. 1103-1132

Boyer, B. L. (1980), Die Psychoanalyse in der Ethnologie, in: Psyche 34,2, S. 694-715.

Boylin, W., Gordon, S. K., Nehrke, F. (1976), Reminiscing and Ego Integrity in Institutionalized Elderly Males, in: Gerontologist Vol. 16 (2), S. 118-124

Brunner, G. (1987), Selbstverwirklichung und Identitätsfindung. Überlegungen auf der Grundlage des Entwicklungskonzepts von Erik H. Erikson, in: Hilpert, K., Hrsg., Selbstverwirklichung. Chancen, Grenzen, Wege, Mainz

Caplan, P. J. (1976), Erikson's Concept of Inner Space: A Data-Based Reevaluation, in: American Journal of Orthopsychiatry Vol 49(1), S. 109-123

Chasseguet-Smirgel, J. (1981), Psychoanalyse der weiblichen Sexualität, Frankfurt a. M.

Chrzanowski, G. (1977), Das psychoanalytische Werk von Karen Horney, Harry Stuck Sullivan und Erich Fromm, in: Eicke, S. 475-509

Claessens, D. (1982-83), Verunsicherung und Identität. Die Rolle des Identitätsmechanismus in der psychologischen, sozialpsychologischen und soziologischen Dimension, in: Eifler, Saame und Schneider, S. 1-17

Clayton, V. (1975), Eriksons Theory of Human Development as it Applies to the Aged: Wisdom as Contradictive Cognition, in: Human Development Vol. 18, S. 119-129

Coles, R. (1974), Erik H. Erikson: Leben und Werk, München

Conzen, P. (1990), Erik H. Erikson und die Psychoanalyse. Systematische Gesamtdarstellung seiner theoretischen und klinischen Positionen, Dissertation, Heidelberg

Danchin, A. (1980), Funktionsstabilisierung und Epigenese. Ein biologischer Ansatz zur Identitätsgenese des Individuums, in: Benoist, S. 152-171

Dahmer, H. (1973), Libido und Gesellschaft, Frankfurt a. M.

Denecke, F.-W. (1989), Das Selbst-System, in: Psyche 43,2, S. 577-608

Döbert, R. und Nunner-Winkler, G. (1975), Adoleszenzkrise und Identitätsbildung, München

Denifle, H. (1904), Luther in rationalistischer und christlicher Beleuchtung, Mainz

Drews, S. und Brecht, K. (1975), Psychoanalytische Ich-Psychologie, Frankfurt a. M.

Dubiel, H. (1976), Identität, Ich-Identität, in: Historisches Wörterbuch der Philosophie Bd. 4, Sp. 148-151, Hrsg.: J. Ritter und K. Gründer, Basel

Düsing, W. (1982-83), Aspekte der Identitätsdarstellung. Zu epischen Texten von A. Döblin, M. Frisch und M. Walser, in: Eifler, Saame und Schneider, S. 17-36

Eberenz, U. (1983), Über-Ich, in: Mertens, S. 55-62

Eicke, D. (1977), Hrsg., Die Psychologie des 20. Jahrhunderts Bd. III, Freud und die Folgen (2), Zürich

Eifler, G., Saame, O. und Schneider, P. (1982-83), Hrsg., Identität. Mainzer Universitätsgespräche

Elhardt, S. (1976), Tiefenpsychologie. Eine Einführung, 5. Auflage, Stuttgart, Berlin, Köln, Mainz

Elrod, N., Heinz, R. und Dahmer, H. (1978), Der Wolf im Schafspelz. Erikson, die Ich-Psychologie und das Anpassungsproblem, Frankfurt a. M.

Epstein, S. (1980), The Self-Concept: A Review and a Proposal of an Integrated Theory of Personality, in: Staub, E., Hrsg., Personality. Basic Aspects and Current Research, New Jersey

Erdheim,M. und Nadig, M. (1983), Ethnopsychoanalyse, in: Mertens, S. 129-135

Erdheim, M. (1992), Das Eigene und das Fremde. Über ethnische Identität, in: Psyche 46,2, S. 730-744

Erikson, E. H. (1930), Die Zukunft der Aufklärung und die Psychoanalyse, in: Zeitschrift für psychoanalytische Pädagogik 4, S. 201-216

Erikson, E. H. (1931), Triebschicksale im Schulaufsatz, in: Zeitschrift für psychoanalytische Pädagogik 5, S. 417-445

Erikson, E. H. (1937), Traumatische Konfigurationen im Spiel: Aufzeichnungen, in: Imago 23, S. 447-516

Erikson, E. H. (1938), Dramatic Productions Test, in: Explorations in Personality, herausgegeben von Henry A. Murray und anderen, S. 552-582, New York

Erikson, E. H. (1939), Observations on Sioux Education, in: Journal of Psychology 7, S. 101-156

Erikson, E. H. (1940a), Problems of Infancy and Early Childhood, in: The Cyclopaedia of Medicine, Surgery and Specialities, S. 714-730, Philadelphia

Erikson, E. H. (1940b), Studies in the Interpretation of Play: I. Clinical Observation of Play Disruption in Young Children, in: Genetic Psychology Monographs 22, S. 557-671

Erikson, E. H. (1941), Further Explorations in Play Construction, in: Psychological Bulletin 38, S. 748-781

Erikson, E. H. (1942), Hitler's Imagery and German Youth, in: Psychiatry 5, S. 476-493

Erikson, E. H. (1945a), Plans for the Veteran with Symptoms of Instability, in:

Community Planning for Peacetime Living, herausgegeben von Louis Wirth, Stanford

Erikson, E. H. (1945b), Childhood and Tradition in Two American Tribes, in: The Psychoanalytic Study of the Child, Bd. I, S. 319-350, New York

Erikson, E. H. (1946), Ego Development and Historical Change, in: The Psychoanalytic Study of the Child, Bd. II, S. 359-396, New York

Erikson, E. H. (1951), Sex Differences in the Play Configurations of Preadolescents, in: American Journal of Orthopsychiatry 21, S. 667-692

Erikson, E. H. (1953a), Wachstum und Krisen der gesunden Persönlichkeit, in: Psyche 7,1-6, S. 1-31 und S. 112-153

Erikson, E. H. (1953b), Über den Sinn der inneren Identität, in: Eckardt, M. v. und Villinger, W., Hrsg., Gesundheit und mitmenschliche Beziehungen, S. 137-152, München und Basel

Erikson, E. H. (1954-55), Das Traummuster der Psychoanalyse, in: Psyche 8, S. 561-604

Erikson, E. H. (1955-56), Zu Sigmund Freud: 'The Origins of Psychoanalysis', in: Psyche 9, S. 90-116

Erikson, E. H. (1956), Ego Identity and the Psychosocial Moratorium, in: New Perspectives for Research on Juvenile Delinquency, S. 1-23, U.S. Department of Health, Education and Welfare, Children's Bureau Washington D.C.

Erikson, E. H. (1956-57), Das Problem der Identität, in: Psyche 10,1, S. 114-176

Erikson, E. H. (1957a), Trieb und Umwelt in der Kindheit, in: Freud in der Gegenwart. Vorträge an den Universitäten Frankfurt und Heidelberg, Frankfurt a. M.

Erikson, E. H. (1957b), Sigmund Freuds psychoanalytische Krise, in: Freud in der Gegenwart. Vorträge an den Universitäten Frankfurt und Heidelberg, Frankfurt a. M.

Erikson, E. H. (1957c), Confirmation of the Delinquent (zusammen mit Kai T. Erikson), in: Chikago Review 10, S. 15-23

Erikson, E. H. (1958), On the Nature of Clinical Evidence, in: Daedalus 87, S. 65-87

Erikson, E. H. (1959), Late Adolescence, in: The Student and Mental Health, herausgegeben von D. H. Funkenstein, The World Federation for Mental Health and the International Association of Universities

Erikson, E. H. (1959-60), Identität und Entwurzelung in unserer Zeit, in: Psyche 13, S. 25-36

Erikson, E. H. (1961), The Roots of Virtue, in: The Humanist Frame, herausgegeben von Sir Julian Huxley, S. 145-165

Erikson, E. H. (1962a), Youth: Fidelity and Diversity, in: Daedalus 91, S. 5-27

Erikson, E. H. (1962b), Reality and Actuality, in: Journal of the American Psychoanalytic Association 10, S. 451-473

Erikson, E. H. (1963a), Hrsg., Youth: Change and Challenge, New York

Erikson, E. H. (1963b), The Golden Rule and the Cycle of Life, in: Harvard Medical Alumni Bulletin, 37,2.

Erikson, E. H. (1964a), The Inner and the Outer Space: Reflections on Womanhood, in: Daedalus 93, S. 582-606

Erikson, E. H. (1964b), Memorandum on Identity and Negro Youth, in: Journal of Social Issues, Bd. XX, Nr. 4, S. 29-42

Erikson, E. H. (1965), Psychoanalysis and Ongoing History: Problems of Identity, Hatred and Nonviolence, in: Journal of the American Psychiatric Association 122, S. 241-250

Erikson, E. H. (1966a), Einsicht und Verantwortung. Zur Rolle des Ethischen in der Psychoanalyse, Stuttgart

Erikson, E. H. (1966b), Die menschliche Stärke und der Zyklus der Generationen, in: Psyche 20, S. 241-286

Erikson, E. H. (1966c), The Concept of Identity in Race Relations: Notes and Queries, in: Daedalus 95, S. 145-170

Erikson, E. H. (1966d), Gandhis's Autobiography: The Leader as a Child, in: The American Scholar, Herbst 1966

Erikson, E. H. (1967a), Buchbesprechung: Thomas Woodrow Wilson, von Sigmund Freud und William C. Bullitt, in: The New York Review of Books, Bd. VIII, Nr. 2,

Erikson, E. H. (1967b), Memorandum on Youth for the Committee on the Year 2000, in: Daedalus, Sommer 1967

Erikson, E. H. (1968a), Die Ontogenese der Ritualisierung, in: Psyche 22, S. 481-502

Erikson, E. H. (1968b), The Human Life Cycle, in: International Encyclopedia of the Social Sciences, New York

Erikson, E. H. (1968c), Psychosocial Identity, in: International Encyclopedia of the Social Sciences, New York

Erikson, E. H. (1968d), Insight and Freedom, The Ninth T. B. Davie Memorial Lecture, University of Cape Town

Erikson, E. H. (1970), Reflections on the Dissent of Contemporary Youth, in: International Journal of Psychoanalysis 51, Teil I

Erikson, E. H., Riesman, D., Coles, R., Hoffmann, R. et. al., Interview mit der Zeitschrift Newsweek, 21. Dez. 1970, S. 84-89

Erikson, E. H. (1973), Autobiographisches zur Identitätskrise, in: Psyche 27,2, S. 793-831

Erikson, E. H. (1975a), Der junge Mann Luther. Eine psychoanalytische und historische Studie, Frankfurt a. M.

Erikson, E. H., (1975b), Dimensionen einer neuen Identität, Frankfurt a. M.

Erikson, E. H. (1978a), Gandhis Wahrheit. Über die Ursprünge der militanten Gewaltlosigkeit, Frankfurt a. M.

Erikson, E. H. (1978b), Kinderspiel und politische Phantasie. Stufen in der Ritualisierung der Realität, Frankfurt a. M.

Erikson, E. H. (1978c), Dr. Borgs Lebenszyklus, in: Provokation und Toleranz. Festschrift für Alexander Mitscherlich zum siebzigsten Geburtstag, Frankfurt a. M.

Erikson, E. H. (1980a), Psychoanalytic Reflections on Einstein's Centenary, in: Einstein and Humanism, New York: Aspen Institute for Humanistic Studies

Erikson, E. H. (1980b), On the Generational Cycle: an Adress, in: International Journal of Psychoanalysis 61, S. 213-222

Erikson, E. H. (1981a), Jugend und Krise. Die Psychodynamik im sozialen Wandel, Berlin und Wien

Erikson, E. H. (1981b), Identität und Lebenszklus. Drei Aufsätze, 7.Aufl., Frankfurt a. M.

Erikson, E. H. (1981c), The Galilean Sayings and the Sense of 'I', in: Yale Review, Spring, S. 321-362

Erikson, E. H. (1982a), Kindheit und Gesellschaft, 8. Aufl., Stuttgart

Erikson, E. H. (1982b), Lebensgeschichte und historischer Augenblick, Frankfurt a. M.

Erikson, E. H. (1983), Interviewpartner, Der Lebenszyklus und die neue Identität der Menschheit, in: Psychologie Heute, 10 (12), S. 28-41

Erikson, E. H. und vom Scheidt, J. (1987), Hrsg., Der unbekannte Freud. Neue Interpretationen seiner Träume, Frankfurt a. M.

Erikson, E. H. (1988), Der vollständige Lebenszyklus, Frankfurt a. M.

Erikson, Kai T. (1978), Die widerspenstigen Puritaner. Zur Soziologie abweichenden Verhaltens, Stuttgart

Eschweiler, P. (1979), Psychoanalyse und Strafrechtspraxis, Königstein

Evans, R. I. (1967), Dialogue with Erik Erikson, New York, Evanston und London

Federn, P. (1956), Ich-Psychologie und die Psychosen, Bern und Stuttgart

Fenichel, O. (1974-77), Psychoanalytische Neurosenlehre, 3 Bände, Freiburg

Fetscher, R. (1981), Das Selbst und das Ich, in: Psyche 35,2, S. 616-641

Fetscher, R. (1983), Selbst und Identität, in: Psyche 37,1, S. 385-411

Fetscher, R. (1985), Der Aufbau des Selbst, in: Psyche 39,2, S. 673-707

Fillip, S. H. (1979), Hrsg., Selbstkonzept-Forschung. Probleme, Befunde, Perspektiven, Stuttgart

Fischer, L. (1983), Gandhi. Prophet der Gewaltlosigkeit, München

Fischer, L. und Bondorant, B. (1971), Gandhi's Truth (Buchbesprechung), in: American Historical Review 76

Fisseni, H. J. (1984), Persönlichkeitspsychologie. Auf der Suche nach einer Wissenschaft, Göttingen

Fraas, H.-J. (1983), Glaube und Identität, Göttingen

Frank, H. (1990), Erik Homburger Erikson in Karlsruhe. Kindheit und Jugend, in: Jahrbuch der Kindheit 7, S. 81-89

Freud, A. (1936), Das Ich und die Abwehrmechanismen, Wien

Freud, A. (1960-61), Probleme der Pubertät, in: Psyche 14, S. 1-24

Freud, A. (1972), Schwierigkeiten der Psychoanalyse in Vergangenheit und Gegenwart, Frankfurt a. M.

Freud, S. (1900), Die Traumdeutung, G. W. II/III

Freud, S. (1905), Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie, G. W. V

Freud, S. (1910), Über Psychoanalyse, G. .W VIII

Freud, S. (1911), Formulierungen über die zwei Prinzipien psychischen Geschehens, G. W. VIII

Freud, S. (1914a), Zur Einführung des Narzißmus, G. W. X

Freud, S. (1914b), Zur Geschichte der psychoanalytischen Bewegung, G. W. X

Freud, S. (1915a), Das Unbewußte, G. .W X

Freud, S. (1915b), Triebe und Triebschicksale, G. W. X

Freud, S. (1916-17), Vorlesungen zur Einführung in die Psychoanalyse, G. W. XI

Freud, S. (1920), Jenseits des Lustprinzips, G. W. XIII

Freud, S. (1921), Massenpsychologie und Ich-Analyse, G. W. XIII

Freud, S. (1923), Das Ich und das Es, G. W. XIII

Freud, S. (1924), Kurzer Abriss der Psychoanalyse, G. W. XIII

Freud, S. (1926), Hemmung, Symptom und Angst, G. W. XIV

Freud, S. (1927), Die Zukunft einer Illusion, G. W. XIV

Freud, S. (1930), Das Unbehagen in der Kultur, G. W. XIV

Freud, S. (1933), Neue Folge der Vorlesungen zur Einführung in die Psychoanalyse, G. W. XV

Freud, S. (1937), Die endliche und die unendliche Analyse, G. W. XVI

Freud, S. (1941), Ansprache an die Mitglieder des Vereins B'Nai B'Rith, G. W. XVII

Frey, H. P. und Haußer, K. (1987), Hrsg., Identität. Entwicklungen psychologischer und soziologischer Forschung, Stuttgart

Frey, H. P. und Haußer, K. (1987), Entwicklungslinien sozialwissenschaftlicher Identitätsforschung, in: Frey und Haußer, S. 3-26

Frey, H. P. (1987), Die Änderungsdynamik abweichender Identitäten bei Jugendlichen, in: Frey und Haußer, S. 179-192

Fürstenau, P. (1974), Hrsg., Der psychoanalytische Beitrag zur Erziehungswissenschaft, Darmstadt

Fürstenau, P. (1977), Die beiden Dimensionen des psychoanalytischen Umgangs mit strukturell ich-gestörten Patienten, in: Psyche 31,1, S. 197-215

Fuhrmann, M. (1979), Rechtfertigung durch Identität - über eine Wurzel des Autobiographischen, in: Marquard und Stierle, S. 685-689

Gecas, V. (1982), The Self-Concept, in: Annual Review of Sociology 8, S. 1-33

Gill, M. M. (1967), Hrsg., The Collected Papers of David Rapaport, New York und London

Glover, J. (1974), Der Begriff des Ichs, in: Kutter und Roskamp, S. 23-29

Goeppel, R. (1991), Die Burlingham-Rosenfeld-Schule in Wien (1927-1932). Schule und Unterricht für die Kinder des psychoanalytischen Clans, in: Zeitschrift für Pädagogik, 37 (3), S. 413-430

Goffman, E. (1967), Stigma - Über Techniken der Bewältigung beschädigter Identität, Frankfurt a. M.

Goffman, E. (1969), The Presentation of Self in Every-Day-Life, London

Goffman, E. (1973), Interaktion. Spaß am Spiel - Rollendistanz, München

Goldberg, A. (1980), Hrsg., Advances in Self Psychology. With Summarizing Reflections by Heinz Kohut, New York

Gordon, C. und Gergen, K. J. (1968), Hrsg., The Self in Social Interaction, Vol I: Classic and Contemporary Perspectives, New York, London, Sidney, Toronto

Grotjahn, M. (1959-60), Rezension zu "Der junge Mann Luther", in: Psyche 13, S. 749-754

Grotjahn, M. (1960), Ego-Identity and the Fear of Death and Dying, in: Journal of Hillside Hospital 9

Grunberger, B. (1976), Vom Narzißmus zum Objekt, Frankfurt a. M.

Grunert, U. (1982), Selbstdarstellung und Selbstentwicklung im manifesten Traum, in: Jahrbuch der Psychoanalyse, Bd. 14, S. 179-209, Stuttgart

Grunert, U. (1988), Der Selbstdialog im Selbstmitleid, in: Psyche 42,2, S. 602-627

Habermas, J. (1976), Können komplexe Gesellschaften eine vernünftige Identität ausbilden?, in: Zur Rekonstruktion des historischen Materialismus, München

Hacker, A. (1983), Psychoanalyse und Feminismus, in: Mertens, S. 264-272

Hartmann, H. (1939), Ich-Psychologie und Anpassungsproblem, Internationale Zeitschrift für Psychoanalyse 24, S. 62-135

Hartmann, H. (1972a), Ich-Psychologie, Stuttgart

Hartmann, H. (1972b), Die Grundlagen der Psychoanalyse, Stuttgart

Haschka-Loidl, M. (1982), Der Bezug zwischen Identität und Liebesfähigkeit, Dissertation, Universität Salzburg

Haußer, K. (1983), Identitätsentwicklung, München, New York

Heigl-Evers, A. (1979), Hrsg., Die Psychologie des 20. Jahrhunderts Bd. VIII, Lewin und die Folgen, Zürich

Heim, R. (1992), Fremdenhaß und Reinheit - die Aktualität einer Illusion. Sozialpsychologische und psychoanalytische Überlegungen, in: Psyche 46,2, S. 710-729

Henrich, D. (1979), "Identität" - Begriffe, Probleme, Grenzen, in: Marquard und Stierle, S. 133-186

Hoffer, W. (1974), Mund, Hand und Ichintegration, in: Kutter und Roskamp, S. 175-184

Holland, N. N. (1979), Einheit - Identität - Text - Selbst, in: Psyche 33,2, S. 1127-1148

Holtz, K. (1990), Auf dem Weg zur Integrität. Erickson meets Erikson, in: Hypnose und Kognition 7 (1), S. 81-89

Horney, K. (1951), Neue Wege in der Psychoanalyse, Stuttgart

Identity. World Federation for Mental Health, London, Introductory Study No.1

Jacobson, E. (1973), Das Selbst und die Welt der Objekte, Frankfurt a. M.

Janeway, E. (1971), Man's World Woman's Place, New York

Jones, E. (1960), Das Leben und Werk von Sigmund Freud, Bern und Stuttgart

Keniston, K. (1983), Erikson und seine Zeit in Harvard, in: Psychologie Heute 10 (12), S. 31

Kernberg, O. F. (1983), Borderline-Störungen und pathologischer Narzißmus, Frankfurt a. M.

Kernberg, O. F. (1992), Aggression und Liebe in Zweierbeziehungen, in: Psyche 46,2, S. 797-820

Kestenberg, J. S. (1988), Der komplexe Charakter weiblicher Identität. Betrachtungen zum Entwicklungsverlauf, in: Psyche 42,1, S. 349-364

Kindel, A. (1979), Einzelner und Gesellschaft. Studien zur sozialphilosophischen Relevanz der Theorien Erich Fromms und Erik H. Eriksons, Dissertation, Universität Wien

Klauber, J. (1969), Über die Bedeutung des Berichtens von Träumen in der Psychoanalyse, in: Psyche 23,1, S. 280-294

Klein, M. (1950), Contributions to Psychoanalysis, 1921-1945, London

Klessmann, M. (1989), Zum Problem der Identität des Paulus. Psychologische Aspekte zu theologischen und biographischen Fragen, in: Wege zum Menschen 41 (3), S. 156-172

Knapp, G. (1977), Begriff und Bedeutung des Unbewußten bei Freud, in: Eicke, S. 267-289

Kohut, H. (1973), Narzißmus. Eine Theorie der psychoanalytischen Behandlung narzißtischer Persönlichkeitsstörungen, Frankfurt a. M.

Kohut, H. (1974), Formen und Umformungen des Narzißmus, in: Kutter und Roskamp, S. 339-373

Kohut, H. (1979), Die Heilung des Selbst, Frankfurt a. M.

König, W. H. (1981), Zur Neuformulierung der psychoanalytischen Metapsychologie: Vom Energie-Modell zum Informationskonzept, in: Mertens, S. 83-123

König, W. H. (1983), Die Triebtheorie: Kern und Stachel der Psychoanalyse, in: Mertens, S. 5-11

Körner, J. (1983), Psychoanalytische Pädagogik, in: Mertens, S. 123-128

Krappmann, L. (1978), Soziologische Dimensionen der Identität, 5.Aufl., Stuttgart

Krappmann, L. (1979), Die problematische Wahrung der Ich-Identität, in: Heigl-Evers, S. 413-423

Krockow, C. V. (1985), Zur Anthropologie und Soziologie der Identität, in: Soziale Welt 36, S.142-152

Künzler, E. (1980), Zur Kritik der Freudschen Triebtheorie, in: Psyche 34,1, S. 280-302

Kutter, P. und Roskamp, H. (1974), Hrsg., Psychologie des Ich, Darmstadt

Laplanche, J. und Pontalis, J. B. (1972), Das Vokabular der Psychoanalyse, Frankfurt a. M.

Lerner, R. M. (1976), Concepts and Theories of Human Development, Massachusetts

Lessing, E. (1982), Eine E.- H.- Erikson-orientierte Follow-up-Studie über Frauen im Alter von zwanzig- und fünfunddreißig Jahren unter besonderer Berücksichtigung der biographischen Methode, Dissertation, Universität Bonn

Levita, D. J. de (1971), Der Begriff der Identität, Frankfurt a. M.

Lichtenstein, H. (1961), Identity and Sexuality, in: Journal of the American Psychoanalytic Association 9, S. 171-261

Linn, M., D. und S. (1991), Glaube, der heilt in den acht Lebensstadien, Graz, Wien und Köln

Loch, W. (1967), Hrsg., Die Krankheitslehre der Psychoanalyse, Stuttgart

Loch, W. (1968), Identifikation - Introjektion, in: Psyche 22, S. 271-286

Loch, W. (1972), Rezension zu "Gandhis Wahrheit", in:Psyche 26,1, S. 79-80

Lochmann, J. M. (1986), Die Frage nach Gott und die Hoffnung der Identität, in: Benedetti und Wiesmann, S. 138-148

Lorenz, K. (1965), Über tierisches und menschliches Verhalten (1,2), München

Luckmann, T. (1979), Persönliche Identität, soziale Rolle und Rollendistanz, in: Marquard und Stierle, S. 293-314

Lynd, H. (1958), On Shame and the Search of Identity, London

Mahler, M. S., Pine, F. und Bergmann, A. (1978), Die psychologische Geburt des Menschen. Symbiose und Individuation, Frankfurt a. M.

Maier, H. W. (1965), Three Theories of Child Development, New York

Marcuse, H. (1957-58), Kritik des neofreudianischen Revisionismus, in: Psyche 11, S. 801-820

Marquard, O. und Stierle, K. (1979), Hrsg., Identität, München

Marquard, O. (1979), Identität: Schwundtelos und Mini-Essenz - Bemerkungen zur Geneaologie einer aktuellen Diskussion, in: Marquard und Stierle, S. 347-370

Maslow, A. H. (1961), Peak Expiriencies as Acute Identity Experinencies, American Journal of Psychoanalysis XXI, S. 254-362

Maslow A. H. (1973), Psychologie des Seins, München

Mead, G. H. (1963), Mind, Self and Society, Chikago und London

Mertens, W. (1981), Hrsg., Neue Perspektiven der Psychoanalyse, Stuttgart

Mertens, W. (1983), Hrsg., Psychoanalyse. Ein Handbuch in Schlüsselbegriffen, München, Wien und Baltimore

Mertens (1983), Psychoanalytische Entwicklungspsychologie, in: Mertens, S. 103-109

Mitscherlich, A. (1970), Protest und Revolution, in: Psyche 24,2, S. 510-520

Mitscherlich, A. (1973), Auf dem Weg zur vaterlosen Gesellschaft. Ideen zur Sozialpsychologie, München

Mitscherlich, A. (1975), Der Kampf um die Erinnerung, München

Mitscherlich, A. (1977a), Massenpsychologie und Ich-Analyse - Ein Lebensalter später, in: Psyche 31,2, S. 516-539

Mitscherlich, A. (1977b), Die Unfähigkeit zu trauern. Grundlagen kollektiven Verhaltens, München, Zürich

Mitscherlich-Nielsen, M. (1970), Was macht einen guten Psychoanalytiker aus?, in: Psyche 24, S. 577-599

Mitscherlich-Nielsen, M. (1973), Probleme der Idealisierung, in: Psyche 27,2, S. 1106-1127

Mohr, P. (1968), Die Bedeutung des Spiels in der Erziehung, Stuttgart

Moltmann, J. (1982-83), Der Tod und die persönliche Identität, in: Eifler, Saame und Schneider, S. 37-56

Muck, M. (1980), Psychoanalyse und Schule. Grundlagen, Situationen, Lösungen, Stuttgart

Muuss, R. E. (1971), Adoleszenz. Eine Einführung in die Theorien zur Psychologie des Jugendalters, Stuttgart

Nadig, R. (1985), Urvertrauen und Identität bei Erik H. Erikson, in: Psychologische Menschenkenntnis 21,1, S. 3-14

Neidhart, W. (1972), Der junge Mann Luther. Eine Buchbesprechung, in: Zeitschrift für praktische Theologie und Religionspädagogik 4, S. 325-332

Neidhart, W. (1986), Identitätskrise der Adoleszenz und Religion, in: Benedetti und Wiesmann, S. 112-137

Neubauer, C. (1981), Der entstörte Störer. Kritische Reaktionen auf Erik H. Erikson und die Ich-Psychologie, in: Merkur 35,3, S. 315-321

Neubauer, W. F. (1976), Selbstkonzept und Identität im Kindes- und Jugendalter, München und Basel

Nunberg, H. (1974), Die synthetische Funktion des Ich, in: Kutter und Roskamp, S. 30-49

Nunner-Winkler, G. (1987), Identitätskrise ohne Lösung: Wiederholungskrisen, Dauerkrise, in: Frey und Haußer, S. 165-178

Oerter, R. und Montada, L. (1982), Entwicklungspsychologie, München

Olbrich, E. (1982), Die Entwicklung der Persönlichkeit im menschlichen Lebenslauf, in: Oerter und Montada

Ornella, T. (1984), Kindheit und Gesellschaft - Erik Homburger Eriksons Beitrag zum Verständnis der Persönlichkeitsentwicklung, in: Psychologische Menschenkenntnis 20,9, S. 331-344

Parin, P. (1977), Das Ich und die Anpassungs-Mechanismen, in: Psyche 31,1, S. 481-515

Parin, P. (1980), Rezension zu 'Lebensgeschichte und historischer Augenblick', in: Psyche 34,2, S. 652-656

Parsons, T. (1980), Der Stellenwert des Identitätsbegriffs in der allgemeinen Handlungstheorie, in: Die Entwicklung des Ich, 2.Aufl., Königstein

Person, E. S. und Ovesey, L. (1993), Psychoanalytische Theorien zur Geschlechtsidentität, in: Psyche 47,2, S. 505-529

Pfeiffer, S. U. Ch. (1975), Zum Selbstbild im Jugendalter: Eine Untersuchung zur Identitätsproblematik bei Studienanfängern, Dissertation, Universität Bonn

Piaget, J. und Inhelder, B. (1977), Die Psychologie des Kindes, Frankfurt a. M.

Piers, M. (1982), Die Entwicklung des Menschen nach Eriksons Phasenlehre, München

Psychoanalyse als Sozialwissenschaft (mit Beiträgen von A, Lorenzer, H. Dahmer, K. Horn, K. Brede, E. Schwanenberg), Frankfurt a. M. 1971

Pulver, S. E. (1972), Narzißmus. Begriff und metapsychologische Definition, in: Psyche 26,1, S. 34-57

Rapaport, D. (1961), Die Struktur der psychoanalytischen Theorie, Stuttgart

Reich, W. (1973), Charakteranalyse, Frankfurt a. M.

Reiter, P. J. (1937), Martin Luthers Umwelt, Charakter und Psychose, Kopenhagen

Richter, H. E., Eltern, Kind und Neurose. Die Rolle des Kindes in der Familie, Reinbek 1969

Richter, H. E. (1972), Die Gruppe, Reinbek

Richter, H. E. (1976), Flüchten oder Standhalten, Reinbek

Richter, H. E. (1978), Engagierte Analysen, Reinbek

Riemann, F. (1961), Grundformen der Angst und die Antinomien des Lebens. Eine tiefenpsychologische Studie über die Ängste des Menschen und ihre Überwindung, München

Roazen, P. (1976), Sigmund Freud und sein Kreis, Bergisch Gladbach

Rohde-Dachser, C. (1979), Das Borderline-Syndrom, Bern

Rohde-Dachser, C. (1990), Weiblichkeitsparadigmen in der Psychoanalyse, in: Psyche 44,1, S. 30-52

Rosenkötter, L. (1975), Rezension zu Coles: Erik H. Erikson - Leben und Werk, in: Psyche 29,1, S. 470-473

Roskamp, H. (1974), Grundlagen der Ich-Psychologie im Werk Sigmund Freuds, in: Kutter und Roskamp, S. 1-19

Roth, E. (1982-83), Selbst und Identität, in: Eifler, Saame und Schneider, S. 57-66

Rubinfine, D. L. (1958), Problems of Identity, in: Journal of the American Psychoanalytic Association 6, S. 131-142

Rutschky, K., Pionier des Urvertrauens. Zum Tode des Psychoanalytikers Erik Erikson, in: FAZ 14.6.94

Sandler, J. und Dare, C. (1977), Der psychoanalytische Begriff der Oralität, in: Eicke, S. 582-593

Saner, H. (1986), Von den Gefahren der Identität für das Menschsein, in: Benedetti und Wiesmann, S. 39-51

Schafer, R. (1982), Eine neue Sprache für die Psychoanalyse, Stuttgart

Schafer, R. (1985), Die Handlungssprache - eine Alternative zur Metapsychologie, in: Psyche 39,2, S. 961-980

Scharfenberg, J. (1973), Narzißmus, Identität und Religion, in: Psyche 27,2, S. 949-966

Scharfenberg, J. (1985), Luther in psychohistorischer Sicht, in: Wege zum Menschen 37 (1), S. 15-27

Scheunert, G. (1956-57), Einige Entwicklungslinien der neueren psychoanalytischen Ich-Psychologie, in: Psyche 10, S. 29-40

Schneider-Flume, G. (1985), Die Identität des Sünders. Eine Auseinandersetzung theologischer Anthropologie mit dem Konzept der psychosozialen Identität Erik H. Eriksons, Göttingen

Schraml, W. J. (1968a), Rezension zu 'Einsicht und Verantwortung', in: Psyche 22, S. 960-962

Schraml, W. J. (1968b), Einführung in die Tiefenpsychologie, Stuttgart

Schülein, J. A. (1983), Psychoanalyse und Politik, in: Mertens, S. 273-281

Schulz, C. G. (1961-62), Identität und Genesungsprozeß im Verlauf einer schizophrenen Erkrankung, in: Psyche 15, S. 532-560

Schulz, W. (1982-83), Identität, Selbstbezug, Selbstfindung, in: Eifler, Saame und Schneider, S. 83-102

Schulze, G. (1987), Identität als Stilfrage? Über den kollektiven Wandel der Selbstdefinition, in: Frey und Haußer, S., 105-124

Schuster, M. (1986), Ein Inuk sein. Zur mehrdimensionalen Identität der Eskimo, in: Benedetti und Wiesmann, S. 11-26

Siegert, M. T. und Chapman, M. (1987), Identitätstransformationen im Erwachsenenalter, in: Frey und Haußer, S. 139-150

Spiegel, L. A. (1961-62), Selbst, Selbstgefühl und Wahrnehmung, in: Psyche 15, S. 211-236

Smith, P. (1913), Luthers Early Development in the Light of Psychoanalysis, in: American Journal of Psychology XXIV

Spitz, R. A. (1957), Die Entstehung der ersten Objektbeziehungen, Stuttgart

Spitz, R. A. (1974), Das Selbst und das Ich, in: Kutter und Roskamp, S.262-275

Stein, H. (1974), Zur Entwicklung der psychoanalytischen Selbst-Psychologie, in: Psyche 28,2, S. 984-1002

Stern, M. (1986), Autobiographie und Identität, in: Benedetti und Wiesmann, S. 257-270

Stierlin, H. (1975), Eltern und Kinder im Prozeß der Ablösung, Frankfurt a. M.

Strauss, A. L. (1974), Spiegel und Masken, Frankfurt a. M.

Streeck-Fischer, A. (1992), "Geil auf Gewalt". Psychoanalytische Bemerkungen zu Adoleszenz und Rechtsextremismus, in: Psyche 46,2, S. 745-768

Tadayon-Manssuri, E. (1982), Identität und Erziehungssituation, Dissertation, Universität Wien

Thomä, H. (1977), Identität und Selbstverständnis des Psychoanalytikers, in: Psyche 31,1, S. 1-42

Thomä, H. (1980), Auf dem Weg zum Selbst. Bemerkungen zur psychoanalytischen Theorientwicklung in den letzten Jahrzehnten, in: Psyche 34,1, S. 221-245

Thomä, H. und Kächele, H. (1988), Lehrbuch der psychoanalytischen Therapie 2, Praxis, Berlin, Heidelberg, New York, Paris, London, Tokio

Thomä, H. (1991a), Idee und Wirklichkeit der Lehranalyse. Ein Plädoyer für Reformen (I), in: Psyche 45,1, S. 385-433

Thomä, H. (1991b), Idee und Wirklichkeit der Lehranalyse. Ein Plädoyer für Reformen (II), in: Psyche 45,1, S. 481-505

Thomae, H. (1968), Das Individuum und seine Welt, Göttingen

Trautner, H. M. (1978), Lehrbuch der Entwicklungspsychologie Bd. I, Göttingen, Toronto und Zürich

Turner, R. (1976), The Real Self, in: American Journal of Sociology 5, Vol.81

Viney, L. (1969), Self: The History of a Concept, in: Journal of the History of the Bevavioral Sciences 5, S. 349-359

Volkan, V. D. (1978), Psychoanalyse der frühen Objektbeziehungen, Stuttgart

Waelder, R. (1963), Die Grundlagen der Psychoanalyse, Stuttgart

Wagner-Simon, Th. (1986), Identität im Zwischenland, in: Benedetti und Wiesmann, S. 149-162

Wartenberg, G. (1991), Eriksons Autobiographie als Spiegel seiner Auseinandersetzung mit Ich-Identität, in: Jahrbuch für psychoanalytische Pädagogik 3, S. 178-187

Weber, J. (1983), Psychoanalyse im Strafvollzug, in: Mertens, S. 249-255

White, R. (1963), Ego and Reality in Psychoanalytic Theory, in: Psychological Issues, Monogr. Nr. 11, S. 601-634, New York

Winnicot, D. W. (1960-61), Über die emotionelle Entwicklung im ersten Lebensjahr, in: Psyche 14, S. 25-37

Witte, K. H. (1991), Ich-Identität in der Psychoanalyse und als Persönlichkeitsideal bei Alfred Adler, in: Zeitschrift für Individualpsychologie 16 (1), S. 11-28

Wolff, P. H. (1974), Überlegungen zu einer psychoanalytischen Theorie des Spracherwerbs, in: Psyche 28,2, S. 853-899

Wulff, E. (1979), Kulturvergleichende Studien in der Sozialpsychologie, in: Heigl-Evers, S.123-128

Wyatt, F. (1981), Kritik und Ideologie oder das Unbehagen an der Psychoanalyse, in: Psyche 35,1, S. 369-375

Wylie, R. C. (1961), The Self-Concept, Lincoln

Wyss, D. (1972), Die tiefenpsychologischen Schulen von den Anfängen bis zur Gegenwart, 4.Aufl., Göttingen

Zahn, W. (1980), Erik H. Erikson, in: Raffner, J., Abraham, K. u. a., Hrsg., Wandlungen der Psychoanalyse, S. 187-210, Wien, München, Zürich

Zauner, J. (1980), Erziehung und Psychotherapie beim Jugendlichen in psychoanalytischer Sicht, in: Spiel, W., Hrsg., Die Psychologie des 20. Jahrhunderts Bd. XII, Konsequenzen für die Pädagogik (2), S. 801-822, Zürich.

Ziehe, T. (1975), Pubertät und Narzißmus, Frankfurt a. M.

المؤلف في سطور

البروفيسور بيتر كونسن، معالج نفسي نفساني ومدير مركز الاستشارات النفسية للوالدين والأولاد والشبان في رابطة كاريتا لمدينة بون ومحاضر في جامعة بون. كاتب سيرة إيريك إيركسون وألف عملا شاملا حول جذور التعصب الإنساني من وجهة نظر التحليل النفسي بعنوان: "التعصب التحليل النفسي لظاهرة مرعبة، دار كولهامر 2005). تهتم أبحاثه بعلم نفس الهوية الإنسانية ونموها وظواهر أزمة الهوية وتشتتها.